

تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الحركة الألفية بمجالس
بشيلدين، وأستاذة الدراسات بالولايات المتحدة الأمريكية (سانتا)

الطبعة الثانية ١٩٥٨

من كتاب الفاطميين في مصر

مكتبة المستشرقين
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مدخل بابنة القاهرة

تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسبوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعة
بنسلفانيا وكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية (سابقاً)

الطبعة الثانية ١٩٥٨

من كتاب الفاطميون في مصر

مكتبة الفتى والفتى
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية ، في المغرب ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب » . وقد وضع هذا الكتاب على أساس كتابي « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » الذي تقدمت به باللغة الإنجليزية لنيل درجة الدكتوراه في الآداب (D. Lit) من جامعة لندن سنة ١٩٢٨ . وقد قامت وزارة التربية والتعليم المصرية بنشر هذه الترجمة سنة ١٩٣٢ .

ولما نفذت هذه الطبعة بعد سنتين قليلة اعترفت بإعادتها ، وطويت أعوام أخرى ظهرت في خلالها عشرات المؤلفات والأبحاث والرسائل والمخطوطات التي تتناول تاريخ الفاطميين من نواحيه المتعددة ، أصبحت إعادة الطبعة الأولى من كتاب الفاطميين لا تجمله بقى بالعرض المنشود بعد ظهور هذه الأبحاث والمخطوطات وغيرها .

لذلك بذلت جهوداً متصلة في سبيل نشر هذا الكتاب على النحو الذي أوضحته على أساس أنه كتاب جديد لا يمت إلى الكتاب المترجم إلا بصلة محدودة ، وذلك بفضل ما أدخلته على الكتاب الأصلي من تعديلات وزيادات وآراء ، حتى لقد بلغ حجم هذه الطبعة ضعف حجم الطبعة الأولى تقريباً . وتقع الطبعة الأولى في تسعة أبواب ، على حين تقع هذه الطبعة في أربعة عشر باباً . وقد أفردت باباً لنسب الفاطميين ، وباباً للخلفاء الفاطميين في المغرب ، وباباً للخلفاء الفاطميين في مصر إلى عهد الخليفة الحافظ ، كما أفردت باباً للنظم الفاطمية ، وباباً للثقافة الفاطمية ، وباباً للفن الفاطمي ، وباباً للحالة الاقتصادية ، وباباً للحالة الاجتماعية ، بحيث أصبح الكتاب يتناول تاريخ الدولة الفاطمية من النواحي

السياسة والدينية والثقافية والاجتماعية . يتضح ذلك جلياً من قراءة محتويات أبواب الكتاب الأربعة عشر التي يراها القارىء بعد هذه المقدمة .

وقد اعتدت في هذا الكتاب على دراسة المصادر الأصلية التي لا توجد أحياناً إلا مخطوطة - وبسرتنى أن أنقل هذه العبارة التي أعتز بها ، والتي ذكرها أستاذى المرحوم سير توماس أرنولد عن البحث الأصل الذى تقدمت به لجامعة لندن حيث قال :

« إن الرسالة التي تقدم بها الدكتور حسن إبراهيم حسن لنيل درجة الدكتوراه (D. Lit) بجامعة لندن أكتبته أقصى ما يمكن من إطراء المستحقين للمعين من قبل الجامعة ، الذين عدوها مجهوداً نادر النظر . . . ولا ريب في أن الكتاب يعتبر أعظم وثيقة ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن . وتتجلى فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزله الأدبية اللتان امتاز بهما في كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان في كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة » .

وأرى زامناً حتى أن أنوه بالجهد الموقفة التي بذلها العلماء وطلاب البحث العلمى ، الشرقيين والغربيين ، في سبيل نشر كثير من المخطوطات ووضع الأبحاث التي تتناول تاريخ الفاطميين من نواحيه المتعددة ، مما كان له أثر بعيد في نشر كتابى . أخص بالذكر من هؤلاء تلاميذى الدكتور زكى محمد حسن ، والدكتور جمال الدين الشيال ، والدكتور محمد جمال الدين سرور ، والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، والدكتور حسن أحمد محمود ، والدكتور طه أحمد شرف ، والدكتور حسن سليمان محمود ، والدكتور عليية مشرفة . كما أود أن أنوه أيضاً بمجهود الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور عبد المجيد ماجد ، والدكتور حسين المهداوى ، والدكتور برنارد لويس ، والدكتور آصف على فيضى ، والأستاذ فلاديمير إيفانوف ، وغير هؤلاء ، الذين أسدوا خدمات جليلة في سبيل نشر الثقافة الفاطمية .

وأرى من باب الوفاء والعرفان بالجميل لذكرى أستاذى العظيم سير توماس أرنولد أن أكرر هنا ما سبق أن سجلته في مقدمة الطبعة الأولى ، وقد طال العهد وانطوت ثمان وعشرون

سنة على وفاته . « إني لمدین بالشكر الجزيل لأستاذی الجلیل المرحوم سیر توماس أرنولد (Sir Thomas W. Arnold) طیب الله ثراه . فقد حظيت بالثناء إليه والسير وراء إرشاداته الطیة أثناء وجودی بأبجلفرا » .

كذلك أرى لزماً علیّ أن أشكر لتليذی الدكتور حسن أحمد محمود مساعدته القيمة التي كان لها أكبر الأثر في إخراج هذا الكتاب ، ولتليذی الدكتور محمد جمال الدين سرور والأستاذ أحمد محمد عيسى ، علی كريم معاوتهما ، ولصديق الأستاذ مصطفى السقا لتفضله بقرعة الكتاب ، ولأصحاب مكتبة النهضة المصرية لتفضاهم بنشر الكتاب .

ويرى القارىء في الهوامش وفي آخر الكتاب تنبيهاً علی المصادر لمن أراد التوسع في مسألة من المسائل . وقد ذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر العربية والمصادر الإفرنجية صرة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين . كما ذيلته بكشاف عام يشتمل علی أسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والأسماء التي تدل علی حوادث تاريخية هامة . والله أسأل أن يلهما السداد والتوفيق ، إنه سمیع مجيب .

حسن إبراهيم حسن

الجزية في ٤ أغسطس سنة ١٩٥٨

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب	٥
محتويات الكتاب	٥
الخلفاء الفاطميون مرتبة أسماؤهم حسب عدد حكمهم	٥

الباب الأول

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

١ - الدعوة الشيعية في عهد الخلفاء الراشدين	١
استيلاء الولايات الإسلامية	٧
عقيدة ابن سبأ وألوفية علي	١٢
٢ - الدعوة السرية لهماشين أيام بني أمية	١٢
الختار والكيانية	١٥
٣ - الدعوة السرية للعباسيين أيام بني أمية	٢٠
٤ - الدعوة السرية للموليين أيام الدولة العباسية	٢٨
٥ - انتشار الدعوة الشيعية إلى المغرب	٣٣
(١) دور السمر	٣٧
(١) رئاسة الدعوة	٣٩
(٢) خلفاء ابن ميمون القذلاج	٤٢
٦ - أسباب نجاح الدعوة الشيعية في المغرب	٤٣
٧ - نجاح الدعوة الشيعية في إفريقية	٤٦
وحيل عبيد الله المهدي إلى المغرب	٥٥

الباب الثاني

نسب الفاطميين

١ - آراء طائفة من المؤرخين الأوربيين	٥٧
٢ - رأى الطائمين في صحة النسب	٥٩
٣ - تأييد الفرس للموليين	٦٥
٤ - كيف صار عبد الله بن ميمون في تحقيق أقرانه	٦١
٥ - أقوال الكتبتين لصحة النسب	٧١

الباب الثالث

الخلفاء الفاطميون في المغرب

صفحة

جدول الخلفاء الفاطميين	ف
عبد الله المهدي	٨٢
استعداد نفرة عبد الله المهدي في بلاد المغرب	٨٣
عبد الله المهدي والإدارة	٨٧
القائم والمنصور	٨٩
المز لدين الله	٩٣
(١) الفاطميون في صقلية	٩٧
(١) صقلية في عهد عبد الله	٩٨
(٢) صقلية في عهد المز	١٠٠
(٣) صقلية بعد المز	١٠٨
(٢) السيادة الفاطمية في حوض البحر الأبيض المتوسط	١٠٩

الباب الرابع

الفتح الفاطمي لمصر

١ - أهمية مصر للدعوة الشيعية	...
(١) موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب	١١٢
(٢) صلاحية مصر للدعوة الشيعية	١١٧
تولية كافور حكم مصر	١٢٢
مصر بعد وفاة كافور	١٢٨
هبة بغداد عن إرسال الجيش	١٢٩
(١) الهجوم على بغداد من الشرق	١٣٠
(٢) إغارة البيزنطيين على الولايات الشرقية	١٣١
٢ - إعداد المز الوسائل لفتح مصر	١٣٥
٣ - انخراط مصر مقرأ لدعوة الشيعة لوفرة ثروتها وقرعها من الأمصار الإسلامية	١٣٨
(١) رحيل جوهر إلى مصر - فتح الإسكندرية	١٤٠
(٢) استيلاء جوهر على قفساط - مصر تصبح ولاية فاطمية	١٤٢

الباب الخامس

الخلفاء الفاطميون في مصر

من المعز إلى الحافظ

٣٦٢ - ٥٤٤ / ٩٧٣ - ١١٤٩

صفحة

المعز لدين الله	...
(١) رحيل المعز إلى مصر	١٤٩
(٢) استقرار سلطان الفاطميين في الشام والحجاز	٢٥١
المعز بالله	...
(١) حياة المعز	١٥٦
(٢) غطر أنتكين والقراطة	١٥٧
(٣) وفاة المعز	١٦٣
الحاكم بأمر الله	...
(١) أحوار خلافة الحاكم	١٦٥
(٢) وفاة الحاكم	١٦٧
الظاهر لإعزاز الله	...
المستنصر بالله	...
المستنصر بالله	١٧١
الأمير بأحكام الله	١٧٣
الحافظ لدين الله	١٧٦

الباب السادس

سقوط الدولة الفاطمية

١ - تهديد	١٧٩
٢ - حالة مصر منذ عزل رضوان إلى مقتل بن السلار	١٨٠
٣ - مقتل الخليفة الظاهر	١٨٥
٤ - حملات شيركوه على مصر	١٩٠
٥ - مقتل شاور ونقله شيركوه الوزارة	١٩٥
٦ - صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية	١٩٦

الباب السابع

سياسة الفاطميين الداخلية

صفحة

- ١ - سياسة الفاطميين مع النصارى واليهود ٢٠٢
- ٢ - سياسة الفاطميين مع أهل السنة ٢١٨
- ٣ - سياسة الفاطميين مع المصريين وغيرهم بوجه عام ٢٢٤

الباب الثامن

سياسة الفاطميين الخارجية

- ١ - مع بني بويه والسلاجقة ٢٢٦
- ٢ - مع الحمدانيين والمرداسيين والمعتليين ٢٣٤
- ٣ - مع أشرف مكة والمدينة ٢٣٧
- ٤ - مع الصليبيين في اليمن ٢٣٩
- ٥ - مع الأيوبيين في الأندلس ٢٤٨
- ٦ - مع المغرب وصقلية ٢٥٠
- ٧ - مع البيزنطيين ٢٥٧
- ٨ - مع القزنطيين ٢٦٦

الباب التاسع

النظم الفاطمية

- ١ - النظام السياسي ٢٦٤
- (أ) الخلافة ٢٦٤
- (ب) الوزارة ٢٦٧
- سجل تقليد المخرجاني الوزارة ٢٧٤
- الوزارة في العصر الفاطمي الثاني ٢٧٨
- (ج) الكتابة والحجابة ٢٧٩
- ٢ - النظام الإداري ٢٨٢
- (أ) الإمارة على البلدان ٢٨٢
- دور القرب ٢٩١
- (ب) الدواوين ٢٩٢
- (ج) البريد ٢٩٤

ملحة

٢٩٥	(د) الشرطة
٢٩٦	٣ - النظام المالي
	٤ - النظام الحربي
٣٠١	(أ) الجيش
٣٠٢	(ب) البحرية
	٥ - النظام القضائي
٣٠٦	(أ) القضاء
٣٠٨	تقاضي نفوذ القاضي
٣١١	سجل تقليد الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم
٣١٥	قانون الورثة في عهد الفاطميين
٣١٨	راتب القاضي
٣٢٠	(ب) المطامير
٣٢٢	(ج) الحسبة

الباب العاشر

الدعوة الفاطمية

	٢ - الدعوة الفاطمية في الدور المتري
٣٢٦	(أ) في عهد الفاطميين
٣٣٢	(ب) في عهد بني زيري
	٣ - الدعوة الفاطمية في الدور المصري
٣٣٨	(أ) مراتب الدعوة
٣٤٤	(ب) داعي الدعوة
٣٤٥	(ج) عباس الدعوة
٣٤٦	(د) العقائد الفاطمية
	٤ - الدعوة الدورية
٣٥١	(أ) دعاة الدورية
٣٥٨	(ب) أهم عيزات الدورية
٣٦٠	(و) وسائل الحاكم بأسر الله
٣٦٧	(ز) الدعوة الزاوية
	(ح) وسائل نشر الدعوة الفاطمية
٣٧١	(١) خطوات الفاطميين الأولى لنشر دعوتهم

صفحة

(٢) الدعوة الفاطمية في المساجد	٣٧٣
(١) الدعوة الفاطمية في الجامع المتيق	٣٧٦
(٢) الدعوة الفاطمية في جامع ابن طولون	٣٧٧
(٣) الدعوة الفاطمية في الجامع الأحمر	٣٧٨
(٤) الدعوة الفاطمية في المساجد الأخرى	٣٨١
(ط) الدعوة الفاطمية في القصور	٣٨٢
(ي) الدعوة الفاطمية في دور العلم	٣٨٥
٣ - الدعوة الفاطمية في المشرق	٣٨٥
٤ - الدعوة الفاطمية في البحرين	٣٨٥
علاوة الفاطميين بالقراطة	٣٩٤
(١) في عهد المنز	٣٩٩
(٢) في عهد العزيز	٤٠١
(٣) في عهد المنز	٤٠٦
(٤) في العراق	٤١٧
(٥) في فارس	

للبياب الحادى عشر

الثقافة الفاطمية

١ - مراكز الثقافة الإسلامية	٤٢١
٢ - مراكز الثقافة في مصر في عهد الدولة الفاطمية	٤٢٦
(١) القصور والمساجد	٤٢٨
(٢) المكتبات	٤٣٥
(٣) دار العلم	٤٣٥
٣ - العلوم التي اشتغل بها الفاطميون	٤٣٥
(١) الفقه	٤٣٧
(٢) اللغة والنحو	٤٣٩
(٣) الأدب	٤٣٩
(٤) الشعراء في العصر الأول من عهد الفاطميين	٤٣٩
(١) الشعراء في عهد المنز	٤٤٣
(٢) الشعراء في عهد المنز والحاكم	٤٤٥
(٣) الشعراء في عهد الظاهر	

صفحة

(٢) الشعراء في الشعر الأخير من أيام الفاطميين	٤٤٨
(١) الشعراء بين سنتي : ٤٦٦ - ٤٨٦	٤٤٨
(ب) الشعراء بين سنتي : ٤٨٦ - ٥٤٩	٤٤٩
(ج) الشعراء بين سنتي : ٥٤٩ - ٥٦٧	٤٥٥
عسارة ابن	٤٦٠
(د) الشعر	٤٦٢
(هـ) الفلسفة	٤٦٢
(١) إعوان الصفا	٤٦٥
(٢) أشهر فلاسفة الإسماعيلية	٤٦٥
(١) أبو حاتم الرازي	٤٦٧
(ب) أبو عبد الله النسفي	٤٦٩
(ج) أبو يعقوب السجزي	٤٧٢
(د) أبو حنيفة النعمان المغربي	٤٧٤
(هـ) جعفر بن منصور ابن	٤٨٣
(و) محمد الدين الكرماني	٤٨٨
(ز) المؤيد في الدين حبة الله الشعرازي	٤٩٢
(و) الطب	٥٠٠
(ز) الرياضيات	٥٠٤
(ح) الفلك والملاحة	٥٠٧
(ط) التاريخ	٥٠٩
(ي) مؤرخو النظم	٥١٩
(ك) الجغرافة والرحلات	٥٢٠

الباب الثاني عشر

الفن الفاطمي

١ - تحطيط المسند	٥٢٤
(١) تأسيس مدينة المهديّة والمنصورية	٥٢٤
(ب) تأسيس مدينة القاهرة	٥٢٦
٢ - المنشآت المعمارية المدنية	٥٣٠
(١) القصور والقنادق والحمامات	٥٣٠
(ب) دور العلم	٥٣٢

صفحة

٥٣٣	٣ - المنشآت الحربية : أسوار القاهرة ومناظرها
٥٣٤	٤ - المنشآت الدينية : المساجد
٥٣٤	(١) الجامع الأزهر
٥٣٧	(٢) جامع القرونة
٥٣٨	(٣) جامع المنقش
٥٣٩	(٤) جامع راشد
٥٣٩	(٥) جامع الخاكم
٥٤٠	(٦) الجامع الأحمر
٥٤٠	(٧) جامع الصالح طلائع
٥٤٠	٥ - كنوز الفاطميين

الباب الثالث عشر

الحالة الاقتصادية

٥٤٦	١ - واردات المال
٥٤٦	(١) الخراج
٥٤٩	(٢) الجوال
٥٥٠	(٣) المكوس
٥٥١	٢ - ثروات الخلفاء والوزراء
٥٥١	(١) ثروة الخلفاء
٥٥٤	(٢) ثروة الوزراء
٥٥٨	٣ - وجوه الإنفاق
٥٥٨	(١) المليات والإعطيات
٥٥٩	(٢) الرواتب
٥٦٣	(٣) نفقات الجيش والأسطول
٥٦٤	(٤) نفقات الخزانة والأعياد والمواسم
٥٦٤	(٥) هبات المساجد والمكتبات وغيرها
٥٦٧	٤ - الزراعة
٥٦٧	(١) مساحة الأرض
٥٦٧	(٢) الإقطاع
٥٧١	(٣) الري
٥٧٦	(٤) المحاصيل

صفحة

(٥) المصناعات	٥٧٩
١ - الصناعة	٥٨٢
(١) النسيج	٥٨٢
(ب) الصناعات الخشبية	٥٨٧
(١) بناء السفن	٥٨٧
(٢) الحفر على الخشب	٥٨٨
(٣) الورق والتجليد - صناعة الجلود	٥٨٩
(٤) الزجاج والبلور والخزف	٥٩١
(٥) صناعة الخشب والمعادن والباج والقصاها	٥٩٢
(٥) الصناعات النباتية : السكر والصل	٥٩٣
٢ - التجارة	٥٩٥
(١) التجارة الداخلية	٥٩٥
(١) طرق التجارة	٥٩٥
(٢) مراكز التجارة الداخلية	٥٩٨
(٣) الكوس	٦٠٣
(٤) نظم الماملات : الموازين - المكاييل - المقاييس - القنود	٦٠٤
(ب) التجارة الخارجية	٦٠٨
(١) طرق التجارة العالمية ومراكزها	٦٠٨
(٢) أشهر مراكز التجارة العالمية	٦٠٩
(٣) العلاقات التجارية مع العالم الخارجي	٦١١
(٤) السلع المتبادلة	٦١٥
(٥) نظم التجارة العالمية	٦١٦

الكتاب الرابع عشر

الحالة الاجتماعية

١ - طبقات المجتمع	٦٢١
(١) النيون والشميون	٦٢١
(ب) أهل الامة	٦٢٤
(ج) الأتراك	٦٢٥
(د) السودانيون	٦٢٥
٢ - مجالس الفناء والطرب	٦٢٦

صفحة

٢	- قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ٦٢٨
	قاعة الذهب ومجلس الملك ٦٢٩
٤	المنابر والبنايين ٦٣٤
٥	- الملاهي ٦٣٦
٦	- الطعام والثياب ٦٣٩
٧	- المرأة في العصر الفاطمي ٦٤٥
٨	- الأعياد والمواسم ٦٤٧
	أول قسام المحرري ٦٤٩
	شهر رمضان ٦٥١
	شهر محرم ٦٥١
	يوم عاشوراء ٦٥٣
	ليالي القدر ٦٥٨
	التسديد ٦٥٩
٩	- الولائم ٦٦٢
١٠	- المواكب المقام ٦٦٦
	(أ) صلاة الجمعة ٦٦٦
	(ب) حبر الخليلج ٦٦٩
١١	- وسائل التسليّة ٦٧١

مصادر الكتاب

١	- المصادر العربية ٦٧٤
٢	- المصادر الإفرنجية ٦٩٠
	فهرس ٧٠١

الخرائط الجغرافية

أمام صفحة

٢٩	انتشار الدعوة القسرية
٤٧	بلاد المغرب لتوضيح الفتح العاطمي
١٣٩	اتساع الدولة العاطمية
١٨١	احتلال الدولة العاطمية
٥٢٧	القاهرة في عهد العاطمين
٥٢٣	مدينة القاهرة - اتساع مدينة القاهرة
٥٣٤	باب النصر - باب الفتوح

المصور

٣٧٣	جامع عمرو بن العاص - منظر عام للإبوان للشرق
٣٧٦	جامع ابن طولون - إيوان الجامع وحده ، تعلوه المنارة ، وتظهر فيه قبة الأيضاة
٣٧٧	الجامع الأزهر - الباب الخارجي للجامع
٣٧٨	جامع الحاكم - منارة الجامع
٣٧٩	جامع الجيوشي - منظر خارجي للجامع على سفح جبل المقطم
٥٤٠	جامع الأقمر - واسطة الجامع الذي بناه الأمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ
٥٨٢	قطعة نسيج من كتان مزينة بمجامات على أرضية حمراء
٥٩١	قطعتان من خزف ذي إبريق ذهبي على الأول رسم للمسيح عليه السلام ، وعلى الثانية صورة ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها أبو طالب
٥٩١	إبريق من البورق الصخري مزين مطعمه بصور طيور وحيدات تتخللها فروع نباتية
٥٩١	إبريق من البورق الصخري مزين مطعمه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفية
٥٩١	طبق من خزف ذي إبريق ذهبي - شبايك قلل من فضاخ مزينة بخاروف تشبه التفتلا
٥٩٢	حشوة من خشب تشبه عراباً صغيراً يرتكن عقده على عمودين حلزونيين
٥٩٣	قطعة من الباج منقوش عليها بين الخاروف النباتية صور أشخاص وحوانات
٦٧٢	مناظر تمثل الرتمس والسيد والموسيق
٦٧٢	مناظر منقوشة تمثل طيوراً وتيوساً وصائدات يقتنص سباعاً مع جوقه من الموسيقين
	خطاً وصواب ... في ذيل الكتاب

الخلفاء الفاطميون

مرتبة أسماؤهم حسب مدد حكمهم

- ١ المهدي : عبيد الله أبو محمد (٢٩٧ - ٣٢٢ / ٩٠٩ - ٩٣٤)
- ٢ القائم : محمد أبو القاسم (٣٢٢ - ٣٣٤ / ٩٣٤ - ٩٤٥)
- ٣ المنصور : إسماعيل أبو طاهر (٣٣٤ - ٣٤١ / ٩٤٥ - ٩٥٢)
- ٤ المعز : معدّ أبو تميم (٣٤١ - ٣٦٥ / ٩٥٢ - ٩٧٥)
- ٥ العزيز : نزار أبو منصور (٣٦٥ - ٣٨٦ / ٩٧٥ - ٩٩٦)
- ٦ الحاكم : المنصور أبو عليّ (٣٨٦ - ٤١١ / ٩٩٦ - ١٠٢٠)
- ٧ الظاهر : عليّ أبو الحسن (٤١١ - ٤٢٧ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥)
- ٨ المستنصر : معدّ أبو تميم (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤)
- ٩ المستعلي : أحمد أبو القاسم (٤٨٧ - ٤٩٥ / ١٠٩٤ - ١١٠١)
- ١٠ الأمر : المنصور أبو عليّ (٤٩٥ - ٥٢٤ / ١١٠١ - ١١٣٠)
- ١١ الحافظ : عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤ - ٥٤٤ / ١١٣٠ - ١١٤٩)
- ١٢ الظافر : إسماعيل أبو المنصور (٥٤٤ - ٥٤٩ / ١١٤٩ - ١١٥٤)
- ١٣ الفائز : عيسى أبو القاسم (٥٤٩ - ٥٥٥ / ١١٥٤ - ١١٦٠)
- ١٤ العاضد : عبيد الله أبو محمد (٥٥٥ - ٥٦٧ / ١١٦٠ - ١١٧١)

الباب الاول

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

١ - المرحلة الشيعية في عهد الخلفاء الراشدين :

لما كان من غرضنا الإلمام بتاريخ مذهب الشيعة ، وجب علينا هنا أن نتتبع أصل هذه الطائفة التي كان يطلق عليها منذ الصدر الأول للإسلام اسم الشيعة ، أو العلويين ، أو أهل البيت ، وأن نقف على ما قامت به هذه الطائفة في سبيل نشر دهرتها إلى أن تأسس سلطانهم في القهروان .

والعلويون — كما نعلم — هم أولاد علي من فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم . وقد اعتقد أنصار الشيعة أنهم وحدهم أهل للخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس ، انتزعوا حق الإمامة المقدس من علي . وقد صنف العلماء المتشيعون من المؤرخين الأسفار الطوال في تأييد هذه المقالة ، وذهب بهم الاعتقاد إلى القول بأن الخلافة سلخت من بيت علي ، أو ببساطة أخرى اغتصبت من بيت النبي . ولم يقف الحال عند هذا الحد ، فقد اشتط الفلاة من الشيعة فقالوا إن الإمامة في بيت علي ، وإن الأئمة مسمومون ، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن من قال بنهر ذلك من الفرق الإسلامية — حتى بعض فرق الشيعة منهم — خارجون على الدين . ودلوا على صحة هذا القول بأن عليا كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن ينفذ فيه أحد من المسلمين بعد النبي . وأسند هؤلاء الفلاة من الشيعة إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل علي من حرمة ، وبما لعل من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

على أن هذه الأحاديث التي وصلت إلينا كانت — على ما هو مشهور — موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدثين وتقدة الحديث . وقد جمع البخاري — على ما نعلم — نحو ستة آلاف حديث ، اختارها — على ما قيل — من ستمائة ألف . ومع

ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر منها . ومن هنا يبين لنا ما وصل إليه اختلاق الأحاديث في هذا الموضوع . فإهو السبب إذا ؟

ذلك أنه عند وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يعرف القراءة والكتابة . فلم يدون تاريخ هذه الأمة إلا بعد زمن غير قصير . ولقد تناول العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فأثرت هذه الحوادث بشيء غير قليل من التبديل والتعريف ، مما أدى إلى التوضوؤ والإيهام في معانيها والأحوال التي أحاطت بوقوعها .

حتى إذا ما جاء القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يبحثون عن تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمه وحوادث متفرقة أو مدونة بطريقة تتشبه مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد آلى كل منها إكبار أنصار مذهبه ولمن أعدائه ، مستنداً إلى ما يرونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فمن ذلك ما عرئ إلى النبي أنه قال : « أهل بيتي كسيفه نوح ، من ركها نجا ، ومن عدل عنها فرق »^(١) . وقوله أيضاً : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً » ، ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة »^(٢) . هذان حديثان لا شك مطلقاً في أن الشيعة اخترعهما بعد موت النبي ، تأييداً لمقيدتهم التي كان مبناها عملاً على وخلفائه من بعده .

ونحن نعلم أن النبي ترك مسألة الخلافة من غير أن يبت في أمرها . ولنا نجمل أيضاً أن النبي في صرضه الأخير نذب أبا بكر ليصلى بالناس بدلاً منه^(٣) ، وأن السبق والإخلاص للدين صفتان بارزتان قد عرفهما النبي لأبي بكر ، وقد أشربت نفس الرسول هذه الروح

(١) أورد هذا الحديث أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عيسى الله بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عنه استيلائه على مسلمة في الثالث من رمضان سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) : مكتبة المتحف البريطاني ، خطوط ٣٧٨٦ ، ورقة ١٠٠ ب .

(٢) حسام الدين المجل ، مكتبة المتحف البريطاني ، خطوط ٣٧٧٢ ، القسم الشرق ، ورقة ٢٨٠ هـ .

(٣) سيرة ابن هشام ، طبعه واستغله (ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩) .

الديمقراطية التي سادت لدى العرب منذ أيام الجاهلية . فرأى عليه السلام أن يترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من أحبوا .

على أن إنابة النبي أبا بكر عنه الصلاة ، جلي في أن النبي كان بعيداً كل البعد من التحيز والليل قدرى قرباء ، عاملاً على تأييد قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة^(١)) ، وعلى ما أترعنه من قوله عليه السلام « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

• وخلاصة القول إن مسألة الخلافة تركت دون أن يُبت في أمرها . فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بين المسلمين في أول نشأة الإسلام ، ذلك الانقسام الذي انترست جذوره في اليوم الذي انتقل فيه الرسول إلى جوار ربه .

ومع أن استخلاف أبي بكر تم بطريقة ديمقراطية ، على ما كان مألوفاً لدى قبائل العرب في الجاهلية (Patriarchal State) : ذلك النظام الذي يقضى بأن تكون السن والقضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة ، فإن امتناع كثيرين من عليّة العرب ، كالعباس هم النبي ، وطلحة والزبير ، وهم من السابقين إلى الإسلام^(٢) الذين اتحدوا مع علي بن أبي طالب ، ثم ما كان أيضاً من عدم إجابة فاطمة إلى ما طالبت به من استيلائها على ميراث أبيها^(٣) — كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية إلى سُنين وشيعيين .

ولقد أشار أبو بكر الخوارزمي (٩٩٣ / ٣٨٣ +) « كاتب الشهور والشيعي للتحمس لهذا المذهب ، إلى هذا الانقسام في إحدى رسائله (ص ١٣٠ — ١٣٩) ، وقد بحث بها إلى أهل نيسابور حين جار عليهم عاملها محمد بن ابراهيم وأوقع بهم ، لاعتنائهم مذهب الشيعة . فأتى لنا في هذه الرسالة بوصف يثير النفوس لهذه الأعمال التي أوقع لأجلها أهل السنة بالشيعة منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام^(٤) .

على أن هذا الشعور الدائى نحو علي قد وُجد — على ما ذكره كاتب آخر من الكتاب

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١٠ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٠١٢ .

(٣) المصدر نفسه — يشير الخوارزمي (ص ١٣٠) إلى ذلك في إحدى رسائله .

فيل إن الرسول أعطى ابنته فاطمة شيعة فذلك لتوافقها ، فأعطاها أبو بكر بحجة أن الأنبياء لا يورثون ، كما سيأتى الكلام على ذلك في قانون الوراثة في عهد الفاطميين .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٤ .

الذين سبقوا الخوارج^(١)، وهو يحيى بن الحسين الزيدى (٣٦٠/٩٧١) — حتى في حياة النبي . فقد عزى إليه صلى الله عليه وسلم أنه قال لئلا ين أبى طالب : « أما رضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى ؟ » . ولهذا الحديث علاقة برحيل النبي إلى تبوك^(٢) ، الواقعة على بعد اثني عشر فرسخاً من المدينة . وقد استخلف علياً على المدينة ؛ فقتل ذلك على أهلها ؛ فخرج على النبي وشكا إليه ، واعتذر عن العودة إلى المدينة ؛ فقال له النبي : « ارجع يا أخى إلى مكانك ! فإن المدينة لا تصلح إلا بك ، فأنت خليفتي في أهلى ودار هجرى (يعنى المدينة) وقوى . أما رضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى ؟ »^(٣) . ولو أراد عليه السلام أن يستخلف علياً ، فإنه لم يكن يرى من الصواب ذلك لمنافاته لروح الرب الديمقراطي .

وبينا الخوارجى بوجه حملاته ضد أعمال العنف الذى حل بأهل مذهبه ، نرى كاتباً صلياً معاصراً ، وهو بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات والرسائل المشهورة (٣٩٨ + / ١٠٠٧ — ١٠٠٨) ، يتلمس للماذير لما أتاه للمال السنيون الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يسعون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين^(٤) .

وقد تمت بيعة أبى بكر برغم هذا الخلاف العنيف الذى احتدم بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة في أمر الخلافة . بيد أن هذه السياسة الرشيدة التى نهجها أبو بكر وعمر ساعدت على كبح جماح الأمة العربية .

ثم جاء بعد ذلك سياسة عثمان ، في تفضيل أقربه ومن بينهم وبينه صلة ، فأصبحت هذه السياسة مثاراً للخط في جميع الولايات الإسلامية ، وأتاحت لأنصار على فرصة لتحويل الخلافة إلى أهل البيت .

وقد أذكرى نيران هذه الثورة صحابى قديم ، اشتهر بأنه أول من حيا النبي بشيعة الإسلام^(٥) ، وبأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبرى) من اهتمق هذا الدين^(٦) ،

(١) انظر لفظ تبوك في صحيح البلدان لياقوت .

(٢) يحيى بن الحسين ، مكتبة الجلانة ببلدين ، مخطوط ١٦٤٧ ورقة ٥٥ (١) و (ب) .

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذانى ص ٤٢١ — ٤٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٥٤ .

(٥) الطبرى ج ١ ص ١١٦٨ . أسد الغابة لابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

واشتهر بالروح والفتوى ، وكان من كبار أئمة الحديث ^(١) ، وهو أبو ذرّ الثفاري .
 تحدى أبو ذرّ سياسة عثمان وماوية عامله على الشام ، بتحريض رجل من أهل صنعاء ،
 هو عبد الله بن سبأ (ويسى أيضاً ابن السوداء) . وقد روى لنا الطبري أن ابن سبأ هذا
 كان يهودياً فأسلم في السنة السابعة من خلافة عثمان : أى سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ . وسرعان
 ما ظهر ابن سبأ ببد إسلامه في نوب للنيور على الدين ، مما أدخل الشك على المؤرخين ،
 ولا سبأ العرب منهم ، وجعلهم يعتقدون أنه إنما اعتنق الإسلام ليضل للمسلمين ، ويكيد
 للإسلام ، وأنه كان أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان .

أخذ ابن سبأ ببد إسلامه يفتقل في البلاد الإسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ،
 فالكويت ، ومنها إلى الشام ، فمصر . ولما وفد على الشام لقي أبا ذرّ ، فوجد فيه الرجل
 الذي ينشده ، لما فيه من الشهرة وطيب القلب . فجاه من ناحية الدين ، وشكا إليه من
 معاوية وما أتاه في سياسته ، وقال : « يا أبا ذرّ ! ألا تسبّ إلى معاوية يقول : المال
 مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجته ^(٢) دون المسلمين ، ويمحو اسم
 المسلمين ^(٣) (من ديوان السطاء) ؟ » .

لهذا لا تسبّ إذا رأينا أبا ذرّ يشر عن ساعد الجدّ في إعلان استيائه من سياسة
 معاوية ، ووجدناه يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادّخار أموالهم
 وكنزها ، محتجاً بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله
 فبشرهم بذاب أليم يوم نحشى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم
 هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) ^(٤) . وكذلك لا تسبّ إذا ألقينا
 الفقراء يلتفتون حوله ، ويسبّون إلى الأغنياء ، مما أوجب شكائهم إلى معاوية ، ليرقع
 الأمر إلى عثمان . وقد أيقن الخليفة أن الفتنة قد أخرجت خطبها ^(٥) وعينها .

بث عثمان في طلب أبي ذرّ ؛ وقد آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه

(١) الطبري ج ١ ص ٢٨٥٩ .

(٢) احتجب المال عنه واحتواه .

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٨٥٩ .

(٤) سورة التوبة ٩ : ٣٤ .

(٥) اكظم معناه مقم الألف والهم من اللابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة .

السياسة . فلما دخل المدينة ووجد المجتمعات تمقد بها لتأمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : « بَشِّرْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِخَارَةِ شَمَوَاءَ وَحَرْبِ مِذْكَارِ » . وَكَأَنَّ أَبَا ذَرٍّ تَنَبَّأَ بِتِلْكَ الثَّوْرَةِ الَّتِي ذَهَبَ عُثْمَانُ ضَحِيَّتَهَا^(١) .

وقد أذن عثمان لأبى ذر بالإقامة فى الرَبْدَةِ ، وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام^(٢) والخوارزمى^(٣) — ولكنه واصل حمله للنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات وهو كاره لها سنة ٣١ هـ .

وقد وجد ابن سبأ — وهو أول من حرض الناس على كره عثمان على ما تقدم — الطريق عمدة أمامه لإسقاط عثمان . ولستنا نشك فى حسن نية أبى ذر ، وما كان من أسر استيائه من عثمان ومن سياسته . ولكننا نرى أن مصدر استيائه الرغبة فى التمسك بالدين وأحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ . ولقد أصاب فان فلوطن (Van Vloten)^(٤) حيث يقول : « إن هذه الطوائف التى نشأت بين العرب فى الولايات التى فتحوها ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة ومصر ، كانت تنطوى فى هادى الأمر على غرض سياسى محض ، برغم ظهورها بهذا المظهر الدينى » .

لم يلق ابن سبأ من أهل الشام أذنا مضنية ، اللهم إلا من أبى ذر . ولقد قيل إن عبادة بن الصامت — وهو من أكابر الصحابة ، وعن شهد فتح مصر ، ومن ذوى رأى وإجلال فى دمشق — ساق ابن سبأ إلى معاوية وقال له : « هذا والله الذى بث عليك أباً ذر »^(٥) .

وإن الاهتداء إلى رأى قاطع فى هذه المسألة ، وهى هل كان أبو ذر أو ابن سبأ هو المؤسس الحقيقى لمذهب الشيعة فى الإسلام ، ليس من الأمور السهلة ؛ لأن هذا الموضوع لم يزل موضع جدل عنيف بين المؤرخين . على أنه وإن استحال هنا معالجة هذه المسألة بوجه التفصيل ، فإن ذلك لا يمنحنا من أن ندلى بالرأى الذى راء : وهو أن ابن سبأ

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٧١ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ١٣١ .

(٤) Le Domination Arabe, le Chûtisme et les Croyances Messianiques, p. 24.

(٥) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .

هو أول من وضع عقائد مذهب الشيعة النالبة في الإسلام ، وأن أعمال أبي ذر لا تنطوي على محاولة لما لتحويل الخلافة إلى علي ، وإنما أدت إلى توطيد دعائم هذا المذهب الذي غرس بدوره ابن سبأ .

ونصارى القول ، أنه لم يكن لأبي ذر عمل في توطيد ذلك المذهب ؛ ولكن خصوم عثان والشيعة من بعدهم قد اتخذوا فيه إلى الردة تكأة لليب في حق عثان والتشهير به وبماله .

اسقياء الروايات الإسلامية :

تولد الاستيلاء وقسا السخط في الولايات الإسلامية بعد أن ولي عثان الخلافة ، لاشتطاط عمله في جمع الضرائب : ففي البصرة صادت دعوة ابن سبأ سرعى خصيباً ؛ بيد أن عبد الله بن عامر وإلى عثان طرده من هذه البلاد ، فرحل إلى الكوفة^(١) ، حيث تقام اسقياء الناس من عثان ووليه ، ومن قریش الذين استولوا على سوادهم^(٢) واتخذوه بستاناً لهم . وواصل الثائرون الاجتماعات في بيوتهم ، ولعن عثان على ملأ من الناس ، ولج هؤلاء وأولئك فيها ارتكب من عظام الأمور^(٣) .

ومما عابه بعض المسلمين على عثان أنه عزل ولاية عمر عن الأمصار الإسلامية وولاهها ذوى قرباه ومن بينهم وبينه صلة ، وأنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها واستمتعوا استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف واللهو . ومما عابه عليه أيضاً أنه استحدث عدة أشياء لم يسبق لها في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر وعمر :

(١) الطبري ج ١ ص ٢٩٢٢ ، يقول هذا المورخ : إن هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين ، وأن توليته كانت سنة ٢٩ هـ (١ . ٢٨٨) . وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ في سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢)
(٢) للسواد موسمان : أحدهما نواحي البلقاء . سميت بذلك لسواد سبأ بها . والثاني يراد به رستاق العراق وشياعها التي قنعها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب . وقد سمي بذلك لسواده بالزروع والتخيل والاحتجار ، لأنه حين تاجم جزيرة العرب إلى لآزرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرسهم ظهرت لهم حشرة للزروع والأشجار ، فيسمونه سواداً ، كما إذا رأيت شيئاً من بعيد قلت : ما ذلك السواد ؟ وهم يسمون الأخضر أسود والأسود أخضر .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٤ . أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان للبلاوت .

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٩١٦ وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ .

فهو أول من أقطع القطنع ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأول من فوض الناس لإخراج زكاتهم ، وأول من أخذ الزكاة على الخليل ، وأول من حى الحى - والحى موضع كلاً يحى من الناس أن برعى . وقد نهى الرسول أن يحى على الناس كما كانوا يفعلون في الجاهلية . وقد أجاب عثمان بأن عمر قد أخذ الحى من قبله ، وأنه إنما وسع هذا الحى حين زادت إبل الصدقة ، واستمتع بعض المسلمين الذين يمتلكون أرضاً بمحور المسجد النبوى عن تسليمها إليه ليوسع بها المسجد ، فأخذ عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبلى ^(١) .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً ، قصد الشام — على ما تقدم — فلم يبق من أهلها ما لقي في البصرة والكوفة ؛ فرحل إلى مصر . وهنا أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين ؛ واتصل بالتأثرين في البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسائل ^(٢) ؛ وبث بالدعاة إلى هذه البلاد يدهون لى . واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس ، فوضع مذهب الرجة : أى رجة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال في ذلك : « إني لأعجب ممن يقول رجة عيسى ولا يقول رجة محمد ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى مهاد) » ^(٣) . وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . ومن هنا نشأ في الإسلام مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلها في جسد آخر .

ونشر ابن سبأ بعد ذلك مذهب الوصاية التي أخذها عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن علياً وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، واتهم من نأوهوا علياً وتعدوا على حقه في الأمامة ، كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصل — نظرية الحق الإلهي ، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بنهر حق

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٤ ، ١٣٧ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام القيسى (الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٥٧) ج ٦ ص ٣٥٤ - ٣٥٨ .

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٩٤٢ .

(٣) سورة القصص ٢٨ : ٨٥ .

من على - وصي رسول الله ، واستطاع ابن سبأ أن يؤلب الناس على عثان وعلى ولايته فقال لهم : « إن عثان أخذها بنهر حق ، وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهمضوا في هذا الأمر فمركوه ، وايددوا بالظلم على أسرائكم ، وأنظروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستيبلوا الناس ، وادعهم إلى هذا الأمر »^(١).

ولم يكن يصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ سياسته في مصر ، حيث اشتد سخط أهلها على عثان وعلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر ومن ذوي قرباه . وساعد على إذكاء نيران السخط في مصر عاملان قويان : هما محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر . ولا غرو فقد ساعد انضمامهما لهذه الحركة على نجاح ابن سبأ في سياسته .

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبي بكر إلى صلة النسب بينه وبين على بن أبي طالب وابنه الحسين بن على . فقد تزوج على أسماء بنت عيسى أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه ، فكان ابن أبي بكر ربيباً في بيت على ، ولأن الحسين بن على ومحمد بن أبي بكر كانا زوجين لابنتي زبدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من القرس ، ثم لأن مروان بن الحكم كتب إلى ابن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار .

وأما مسلح ابن أبي حذيفة المدائي لثمان ، فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة السواري — أو ذات السواري — التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٦٣١ م (٦٥١ م)^(٢) . فقد اختلف معه في هذه اللقمة على التكبير في الصلاة حين صلى ابن أبي سرح بالمصر بالناس ، فرفع ابن أبي حذيفة صوته بالتكبير ، فنهاه ابن أبي سرح فلم يفته . ولما أقيمت صلاة القرب رفع صوته بالتكبير ثانية ، فتهرب ابن أبي سرح وهم بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبي حذيفة في إثارة الناس على عثان وعلى ولاته . ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبي بكر إلى القسطنطينية حيث انضموا إلى ابن سبأ^(٣).

(١) الطبري ج ١ ص ٢٩٤٢ .

(٢) صحت بهذا الاسم لكثرة سواري السفن التي اشتركت في المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين .

(٣) الطبري : طبعة مصر ج ٥ ص ٧٠ - ٧١ - ١٢٥ .

ولقد أدلى لنا القرزى بالسبب الذى حدا بابن أبى حذيفة أن يسلك هذا السلك
السدائى نحو عثان ، فقال إن ابن أبى حذيفة تربى فى كنف عثان بعد وفاة أبيه ، فلما ولى
عثان الخلافة ، طلب إليه أن يولية بعض أمور المسلمين ، فأبى ذلك عليه ، إذ نعى إليه أنه
شرب الخمر ^(١) . فقال له : « لو كنت رضا لوليتك ، ولكنك لست هناك » .

ولقد وافانا للقرزى ^(٢) بشئ من سيرة ابن أبى حذيفة فى مصر ، نقله للقارى فيا
بلى : « انتبذ محمد بن أبى حذيفة فى شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن نافع خليفة ابن
أبى مسرح ، وأخرجه من القسطنطينية ، ودعا إلى خلع عثان من البلاد ، وأسر البلاد . فكان
يكتب الكتب على لسان أزواج النبی صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيمضرها ،
والرجال فيجملهم على ظهور الليوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوهم للمسافر ،
ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة ومصر ، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم ،
وقد أمرهم إذا لقىهم الناس أن يقولوا : ليس عندما خبر ، لتخبرى الكتب ، ثم يتلقاهم
ابن أبى حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواج النبی » .

وقد حاول عثان أن يصلح بينه وبين ابن أبى حذيفة ؛ ولكن هذا آلى على نفسه
أن يواصل سياسة العنف والشدّة . ولقد بث إليه عثان ثلاثين ألف درهم وكسوة ؛ فاتهز
ابن أبى حذيفة وصول هدية عثان إليه فرصة سانحة ليظهر للناس أن هذه الحركة التى قام بها
حركة دينية ، بعيدة عن كل غرض دنيوى . فأظهر الهدية للناس فى المسجد وقال : « يا معشر
المسلمين ! ألا ترون أن عثان يخادعنى عن دىنى ویرشونى (یرشنى فى الأصل) عليه ؟ » . وكان
لهذه الدعوة أغراض ومرام خبيثة ؛ فقد زادنا القرزى أن أهل مصر ازدادوا تعظيماً لابن
أبى حذيفة وطناً على عثان ، وابعود على رياستهم ^(٣) .

وقد أصبحت الحالة فى البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطّر عثان إلى
تذبذب أربعة من رجاله ليبعثوا عن أسباب هذه التقلقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات

(١) الملقى الكبير للقرزى ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة

٢٠٦ (١) .

(٢) عطلج ٢ ص ٣٣٥ . وقد وردت هذه البشارة أيضاً بصرف فى كتاب الملقى الكبير الموجود

بمكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٥ (ب) .

(٣) الملقى الكبير للقرزى ، ليدين ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (١) .

الإسلامية . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ، ومن السابقين إلى الإسلام ، ومن عرف لم النبي ضيق الإيمان^(١) .

وقد عاد هؤلاء الذين ندبهم الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثأرون في مصر^(٢) . وساعد على ذلك ما كان بين عمار وعتبان الذي أذبه لقتل حصل بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب . وإن انضمام محابي جليل كعمار ، يبين مبلغ السخط الذي أثارته سياسة الضعف واللين التي سار عليها عتبان بن عفان .

ولا شك أن ابن سبأ قد حقق ما كان يرمى إليه من إثارة الولايات الإسلامية على عتبان وولائه . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه ، من أمثال محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر .

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ ؛ فكانت أهل مصر أشياخهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة ، وهو ما يمكن تسميته دور العمل . وخرج كل منهم في ستائة رجل توافوا خارج المدينة حيث اختلوا فيمن يولونه الخلافة بعد عتبان . فال أهل البصرة إلى طالحة ، وأهل الكوفة إلى الزبير ، ورغب أهل مصر ، وعلى رأسهم ابن سبأ ، إلى علي بن أبي طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولن وقع اختياره عليه دون غيره^(٣) .

ولم يمض زمن طويل حتى فاز للصريون أنصار ابن سبأ ؛ فقتل عتبان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وتولى علي بن أبي طالب الخلافة (في الخامس والعشرين من هذا الشهر) . فكان ذلك أول فصول هذه الأساة ، وما أعقبها من تحزب المسلمين مما أضف الإسلام وزاد كلفة المسلمين تفريقاً .

(١) ذكر ابن سيرين في كتابه " الإصابة في تمييز الصحابة " ج ٤ ص ١٢٢٠ أن النبي قال : " اتفقوا بالذين من بعدي : أبي بكر وعمر ، واحتلوا بهدي عمار " (بن ياسر) .

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٩٤٢ و ٢٩٤٤ .

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٩٥١ ، ٢٩٥٥ .

خليفة ابن سبأ الشيعية وألوهية علي :

والآن نعود إلى الكلام على حياة ابن سبأ من حيث تطور عقيدته الشيعية في خلافة عليّ وبسببها : ذكر ابن حزم أن قوماً من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له : « أنت هو ! » فقال لهم : « ومن هو ؟ » قالوا : « أنت الله ! » فغضب عليّ وأظهر الجلد ، وأمر بفار فأوقدت ، وأمر مولاة قُتيراً بأن يلقى هؤلاء الرجال فيها ؛ فجلسوا يقولون وهم يلقون في النار : « الآن صبح عبدنا أنه الله لأنه لا يذب بالنار إلا الله » .

وقد زادنا ابن حزم أن علياً أشار إلى هذه الحادثة في هذا البيت :

لما رأيتُ الأمرُ أمراً منكراً أَجِبتُ ماراً ودهوتُ قُتيراً^(١)

وكان من أثر هذا التلوي القائل الدينية أن أمر عليّ بابن سبأ فنفى إلى المدائن^(٢) .

يبد أن هذا لم يكن لينفي ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعليّ ، حتى إذا ما مات عليّ قالت الطائفة السبئية برجمته وتوقفه^(٣) ، أي انتظار رجوعه ، وبحلول الجزء الإلهي فيه . وقد ذهبوا أيضاً إلى القول بأنه يبعث في الحساب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره علي ما ذهب بعض) ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً^(٤) .

٢ - الدعوة السرية للبرهانيين أيام بني أمية :

نال معاوية الخلافة بعد السيف طوراً ، وبالمكيدة والسياسة طوراً آخر ، لا يجمع من المسلمين ورضا منهم : ذلك أن العرب دعوا إلى الحسن بن عليّ بعد موت أبيه ؛ إلا أن

(١) كتبه مول عليّ بن أبي طالب الذي رمى هؤلاء الرجال في النار (ابن حزم : الملل والنحل ج ٤

ص ١٨٦) .

(٢) لقد انفرد ج ١ ص ٣٦٩ . الشهرستاني ج ٢ ص ١١ .

(٣) قال ابن سبأ لما بلغه قتل عليّ : " لو أتيتونا بثمان مائة ، صانفتنا موته ؛ ولا يموت شيء على الأرض عدلاً كما ملئت جوراً " - ابن حزم ج ٤ ص ١٨٠ .

(٤) الشهرستاني ج ٢ ص ١١ .

خلافته لم يطل أمدها^(١) ، لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام ، ونحلى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة ، حقنا لدماء المسلمين^(٢) .

على أن الدافع الحقيقي الذي دفع بالحسن إلى النزول عن الخلافة إنما يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبي^(٣) — إلى أنه لم يجد بحيث يستطيع أن يقف في وجه معاوية . وانتهى هذا النزول بإبرام معاهدة الصلح بين الحسن ومعاوية ، تلك المعاهدة التي جعلت معاوية صاحب السلطان المطلق في كافة الولايات الإسلامية . وفي الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٤١ هـ^(٤) دخل معاوية الكوفة حيث يابسه الناس^(٥) . بيد أن السياسة التي سار عليها معاوية من سب عليّ وأهل بيته علي النابز أثارت حنق الشيعة عليه^(٦) .

وفي خلافة يزيد بن معاوية سلم الحسين بن علي كتب^(٧) أهل الكوفة بمرضونه فيها على الرحيل إليهم ؛ فلم يستبرح بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، بل لم يبع قول الفرزدق الشاعر للشهور ، حين سأله الحسين عن أهل الكوفة ، وكان في طريقه إليها : « خلقت قلوب الناس ملك وسيفهم مع بني أمية عليك »^(٨) .

ولقد صدق الفرزدق . فإنه في التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) قاتل الحسين على رأس فئة قليلة لم يبلغ عددها ثمانين رجلا ؛ فأوقع بهم العدو في كربلاء في العاشر من ذلك الشهر ، وأبادهم من آخرهم .

وقد علق الأستاذ براون^(٩) على موقعة كربلاء بقوله : « إن فريق الشيعة أو حزب

(١) ذكر المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣١ أن علياً مات في العشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ، واستختلف بعده ابنه الحسن في الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فظل في الخلافة إلى أن توفى في سبيل ربيع الأول سنة ٤١ هـ .

(٢) التميمي ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ٩٣ (ب) .

(٣) ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) الطبري (طبعة مصر) ج ٦ ص ٩٢ .

(٦) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٣ .

(٧) قيل إن الحسين سلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجامعات (ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ،

ورقة ١٢ (ب) ، ومخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٤٥) ، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٠ (٦٨٠ م) .

(٨) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥ .

(٩) Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 226 seq. (٩)

على كان — على ما رأينا — يتقصه الحماة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى ميدان كربلاء للطلعة بدماء ابن بنت النبي ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بمحش ذوى — قرباه كل ذلك غدا منذ هذا الحين كافياً لأن يثير عاطفة الحماة التي كانت على أشد ما تكون ، والأحزان التي تملكت النفوس — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — وأصبحت هذه الروح التي لا تبالى بالآلام والأخطار ، أو بالموت ، ترى كل هذه ترهات لا تساوى التفكير فيها .

ويمخر بنا أن نقبس أيضاً ما ذكره الأستاذ نيكلسون حيث يقول : « لقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يعضوا يد الندامة على ما قدمت أيديهم ؛ إذ أن هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا بصيحة واحدة : الأخذ بشار الحسين ! — هذا النداء الذي دوى في كل مكان ، وعلى الأخص عند اللوالب من القرس الذين تاقوا إلى انخلاص من نير العرب »^(١) . ومن هنا نشأت فرقة التوابين الذين ندموا على ما فرطوا في حق الحسين وخذلانهم إياه وهدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم ، وتابوا بما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأمواهم في سبيل الأخذ بشار الحسين وأهل بيته . ونظموا النعنائد في رثائه ، وأمروا عليهم سليمان بن صرد ، وساروا إلى عين الوردة حيث حلت بهم الهزيمة^(٢) . هاتان المبارتان تصفان حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً . فإن هذا النزاع الذي احتدم بين هذين الحزبين لم ينته بموت الحسين وانتهزام أشياخه ، بل على العكس من ذلك ، قد زاد في الدعوة لآل علي قوة ، حتى إن العداء بين الأمويين والملويين أصبح أشد خطراً وأعظم احتداماً من ذي قبل . يؤيد هذا القول ما كان من رد ابن عفيف على ابن زياد عامل الكوفة ، حين صمد المنبر بعد وفاة الحسين وخطب الناس خطبة جاء فيها : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد (بن معاوية) وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » .

بيد أن شعور العداء عند الشيعة أخذ يشور بعد يوم كربلاء لأوهى الأسباب ؛ ذلك أنه بعد أن فرغ هذا الأمير من كلامه ، انبرى له عبد الله بن عفيف الأزدي فيندد قوله في

(١) Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 198

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ - ٧٩ .

هذه الكلمات الملوثة حقاً للفئة سخطاً على بنى أمية وولاتهم فقال : « يا عدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه ، تقتل أولاد النبيين وتقوم على النبر مقام الصديقين ؟ ^(١) »

وقد دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه في سنة ٦٣ للهجرة ، فصادت دعوته مجاحاً عظيماً في بلاد العرب والعراق . على أن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب أوى مبايعة ابن الزبير - وكان قد بايع يزيد بن معاوية - فقت ذلك في عهد ابن الزبير ، وساعد على ظهور حزب جديد : هو حزب الكيسانية الذي قام في الكوفة بالدعوة إلى محمد بن الحنفية بعد قتل الحسين في كربلاء .

وإن حياة ابن الحنفية لحياة حافلة مجيبة ، فقد أقسم يمين الطاعة ليزيد حين ولاد أبوه العبد . ولما ولي يزيد الخليفة دعا ابن الحنفية لزيارته في دمشق ، حيث تلقاه بكل مظاهر الإجلال ، وأكرمه الإكرام كله ، وأسرله بثلاثمائة ألف درهم (وفي رواية أخرى خمسمائة ألف درهم) وعروض بمائة ألف ^(٢) .

المختار والكيسانية :

أدى إياه ابن الحنفية عن الدخول في الدعوة التي قام بها عبد الله بن الزبير إلى إضعاف هذه الدعوة ، وهياً للمختار بن أبي عبيد التقي فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد ، هو حزب الكيسانية ^(٣) . وقد ظهر المختار بن أبي عبيد التقي في ميدان السياسة سنة ٨٦٦ .

(١) ابن النعمان ، ليند مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٨٠ أ

(٢) المقرئ ، التاريخ الكبير المقتضب ، ليند مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٢٧ ب .

(٣) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبري (طبعة دي خويه ج ١ ص ٢٢٩٣) ، والبغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستاني (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) إلى كيسان مولى على بن أبي طالب ، الذي قتل في موقعة صفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودي (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عسكرب (العقد القرئيد ج ١ ص ٢٦٩) إلى المختار بن أبي عبيد . ولكن كلام المسعودي لا يعتمد عليه ، لأنه يعود فيلقى الشك على هذه المسألة فيقول : « أو هو قبح المختار » .

على أننا نجد كثير أ من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) أن هناك شيعتين مختلفتين ، هما المختار بن أبي عبيد وكيسان أبو عمرة .

و يقول الشهرستاني ج ١ ص ١٩٩ ، إن هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية ، والختارية ، الأولى تنسب إلى كيسان مولى علي ، والثانية إلى المختار بن أبي عبيد .

وذكر الطبري (ج ٢ ص ٦٧٦) في مكان آخر ، أن أباه حمزة كيسان مولى بجيلة ، هو رئيس شرطة المختار بن أبي عبيد . ووافق على هذا أحد بن يحيى بن المرتضى (غيايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطاني ، غملوط ٣٧٧ ورقة ١٣٧ ب) . على أن ابن المرتضى لذين أقدم يأتي بقوله على أنه القول الفصل في هذه المسألة حيث قال كما قال الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٢) : ويقول إن لفظ كيسان يطلق على مولى علي بن أبي طالب .

وقد يؤخذ بما ذكره الطبري ، لولا ما جاء في رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاعتماد إلى أصل الطائفة الكيسانية بعيداً كل البعد . على أن هذا الاعتماد يمكن الوصول إليه من مصدرين آخرين هما كتاب الطبقات لابن سعد (٨٤٤/٣٢٠) ، ج ٥ ص ٧٧ ، وكتاب الأخبار الطوال للدينوري (٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ أو ٨٩٥ أو ٩٠٣ م) ، طبعه ليلث (ص ٢٩٦ - ٢٩٧) .

ولقد أتى ابن سعد باسم أبي حمزة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال ، الذين شهبوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يث الدعوى باسمه (ابن الحنفية) ، وإن كان هذا القول مشكوكاً فيه ، لأنه غير ثابت تاريخياً ، بأن ابن الحنفية مالا المختار بن أبي عبيد ، بل بالعكس ، فقد عرف أنه يابح يزيد بن معاوية ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينوري عن الشعبي في سياق كلامه على المختار ، عبارة تدل دلالة واضحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشخصي هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مالكي مشهور بالورع وصدق القول وتحري النقل . قال الدينوري : " وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ، فأرسل ابن مطيع إلى المختار : ما هذه الجاهات التي تمد وتروح إليك " فقال : أخبار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاء : عليك بإمامهم بن الأشتر فاستلمه ، فإنه متى شامك هل أمر غفرت به وضعت حاجتك . فأرسل المختار إلى حاشة من أصحابه ، فدخلوا عليه ويده صحيفة محتومة بالرصاص ، فقال الشعبي : وكنت قيس دخل عليه ، فرأيت الرصاص يلوح ، فظننت أنه إما تخم من الجبل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأخذ إمامهم بن الأشتر . قال قيسا معه ، وكنت أنا وزيد من أنس الأزدى ، وأحمد بن سليل ، وعبد الله بن كامل ، وأبو حمزة كيسان مولى بجيلة ، الذي يقول للناس قد جاوره أبو حمزة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار " .

ولقد حاول فريديلندر (Friedlaender) في تعليقه على " شيع (جمع شعة) الشيعة هل ما جاء في كتاب ابن حزم " (Heterodoxies of the Shī'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية في العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX, pp. 29-30) والاعتماد إلى أصل الكيسانية . وبالرغم من أن هذا الكاتب أحد من مصادر غير " لليل والنحل " لابن حزم ، فإنه قال بأن " ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقاً من بين المؤرخين على اختلافهم " .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) إنما قال إن الكيسانية هم أنصار المختار بن أبي عبيد . وهذا لا يستلزم أن الكيسانية هم الختارية ، لأنه لا توجد شبهة اشتقاقية بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فإنه من المحتمل كثيراً أن يكون لفظ الكيسانية مشتقاً من كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويجه أن يكون مشتقاً من كيسان مولى علي ، لأنه مات قبل قام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة . يضاف إلى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجملة ووضوح بين لفظي المختار وكيسان عند الإشارة إلى الطائفة الكيسانية في سياق كلامه على الإمام الثاني عشر فقال : " وكان رئيسهم المختار بن أبي عبيد ، وكيسان أبو حمزة وغيرهما يذهبون إلى أن الإمام بعد الحسين محمد أخوه المعروف بابن الحنفية . وعليه فإن ما أورده ابن سعد والدينوري - لا ابن حزم أو غيره - هو القول الصحيح حقاً " .

وكان ذا اطلاع كبيرة : قلب كثيراً في الأحزاب ، واتصل أخيراً بسيد الله بن الزبير وأراد أن يكون له وزيراً . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من القلق : فقد كان أمويًا ثم زبيرياً . ولما لم يجد المختار من ابن الزبير ما كان يؤمله ، رجع إلى الكوفة ، واستغل ثورة التوابين لتحقيق أغراضه وسرانيه ضد ابن الزبير والأمويين ، واستقر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أمينه ووزيره ، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة . وبذلك وقف في وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان . وانضوت الشيعة تحت لواء المختار ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول في الدهوة التي قام بها ابن الزبير في مكة . طرد المختار عامل ابن الزبير من الكوفة ، وقاتل جيشه عبيد الله بن زياد عامل الأمويين على الكوفة التي دارت الدائرة عليه ، فازداد تعلق الشيعة بالمختار والتفت حوله كثير منهم . ثم حمل عبد الله بن الزبير على الإيقاع بالمختار ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب الذي استولى على الكوفة ، وقتل المختار سنة ٦٧ هـ (٦٨٦ م) . وقد ترك عبد الملك ، عبد الله بن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم . ولا شك أنه كان يرى بسياسة هذه إلى إضعاف قوة ابن الزبير . وبذلك استطاع أن يقضى على مصعب ابن الزبير في العراق سنة ٨٧٠ هـ ، ثم على أخيه عبد الله سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م)^(١) . ورجع للدولة الأموية سلطانها على كافة الولايات الإسلامية .

بيد أن الجهود التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده ، لأنه لم يكن يتفق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل^(٢) .

(١) المقتوف ج ٢ ص ٣٠٤ .
(٢) ذكر المقرئ في كتابه " الملقى الكبير " (لندن ، مخطوط ١٣١٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٢٨) أن فريقاً من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المري ، ساروا إلى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فريقاً آخر من شيوخ ابن الزبير في الكوفة ، وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع ، عامل ابن الزبير على الكوفة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، إلخ ، عبد بن الحنفية فقالوا له : أخرج معنا فقاتل يزيد ، فقال : على ماذا أقاتله ولم أعلمه ؟ قالوا : إنه كفر ... وشرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ؟ هل رأيتم أسد منكم يعمل ما تذكرون ، وقد صبت أكثر مما صبتوه ، فما رأيت به سوداً ؟ قالوا : إنه لم يكن يملكك على ضله . قال : فأنا لكم أنتم عليه ؟ فمتأفوا أن يشيط قعوده الناس من الخروج ، فخرجوا عليه أن يبايعوه إذ ذكره أن يبايع ابن الزبير ، فقال : لست أقاتل تائباً أو متوباً . قالوا : فقد قتلت مع أبيك . قال : وأين مثل أبي اليوم ؟ فأخرجوه كارهين وبهتوه مسلحين ، فحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه هونه ، فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب أبوه هاشم قاتل أخيه فقتله ؟ ثم خرج ابن الحنفية إلى مكة من قوره .

وقد قارن فان فلوطن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال :
 « يظهر أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهمية . وزاد هذا
 المؤرخ أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر ، وهو حزب الكيسانية ، الذي ظهر
 في بادئ الأمر في الكوفة تحت زعامة المختار ^(١) . وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية ، وهي
 القول بإمامة محمد بن الحنفية بعد علي أبيه ، ينقلو الكيسانية في اعتقادهم بمحمد بن الحنفية
 وإمامته ، ويحاططه بالعلوم كلها ^(٢) ، بمعنى إحاطته بآثار العلوم ، إذ اقتبس من أخويه
 الحسن والحسين الأسرار ، وأحاط بهما التأويل والباطن ^(٣) .

ولا فرو فإن عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التي نسبوها إليه ، ورعى في النار من
 دعوه إلها ، ونفى عهد الله بن سبأ إلى اللدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك أباه في
 عواطفه وآرائه الدينية ، فقبلاً ممن اعتقدوا في إحاطته بهما التأويل والباطن . بذلك على صحة
 هذا القول ما ذكره ابن سعد ^(٤) أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكيسانية ، أن
 آل علي يحيطون بالعلوم كلها ، قال : « والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين
 المرحومين (يعني القرآن) ، ثم قال : اللهم حللاً وهذه الصحيفة في قوابة سبئي » .

وهذا التصريح من ابن الحنفية ، يدل دلالة واضحة على أن آل علي لم يقتصروا بميراث
 شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يرثوا منه إلا ما ورثه عامة المسلمين .
 ويستند الكيسانية في البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أريد ، وفي تناسخ

(١) كان المختار بن أبي عبيد من تابعوا ابن الربيع الذي أوفده إلى الكوفة ليث الدعوة باسم الطالبيين .
 على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية . انظر « مروج الذهب » للمسعودي ،
 (ج ٢ ص ٥٥ - ٧٧) . وقد ذكر الشهرستاني (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية هموا معتقداتهم على
 معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام - في القرن الخامس
 الميلادي) ، والبراهمة في الهند ، والفلاسفة للقدماء والصابئين .

(٢) انظر كتاب فان فلوطن ، (Van Vloten : Recherches sur la Domination Arabe , Le Chittisme etc. , p. 4) متتبساً من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) .
 فقد قبل إن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . وقد أصاب فان فلوطن في تعليقه
 على هذه الحقيقة بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأي مظهر من مظاهر الترساب تقابل الأئمة هذه المعتقدات
 المفرقة في القلوب التي كانت أشتباصهم السبب في ظهورها ؟

(٣) البنداد : للفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستاني : الملل والنحل (ج ٢
 ص ١٩٦ - ١٩٨) .

(٤) كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ٧٧ .

الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر ؛ وفي الرجة ، أى رجة محمد ابن الحنفية ؛ كما يعتقدون بنبوة علي والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يحتقون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علي مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين^(١) . أما عن الرجة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية ، واستغفروهم الأخبار التي ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة) ، وأن عودته ستكون من هذا المكان . وقد جعل كثير عزة والسيد الحميري هذا الاعتقاد مثاراً لنظم أشعارها ، حتى غدا هذا النوع من الشر يُعرف بالشر الكيساني . وفي ذلك يقول كثير عزة للتوفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

أَلَا إِنَّ الْأَمَّةَ مِنْ قَرِيشٍ وَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاهِ
عَلَى وَالثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَمْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاهِ
فَسِطٌ سَبَطَ إِيمَانٌ وَبِرٌّ وَسَبَطَ غَيْثُهُ كَرِبَلَاهِ
وَسَبَطَ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْغَلِيلَ يَتْبَعُهَا الْقَوَاهِ
تَنْبِئُ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلُ وَمَاهِ

ويقول السيد الحميري للتوفى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ - ٧٩٠ م) ، وكان كيسانيا :

سَنِينَ وَأَشْهَرَا وَبُرَى رَضْوَى بِشَبِّ بَيْنَ أَعْمَارِ وَأَسَدِ
مَقِيمٍ بَيْنَ آرَامٍ وَهَيْفٍ وَحَفَّانِ نُوحٍ خِلَالِ رُبْدِ
تَرَاهِبُهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا مَلَاتِيْنِ مَفْتَرَسًا بِحَدِ
أَمِنْ بِهِ الرَّدَى فَرْتَمَنَ طَوْرًا بِلَا خَوْفٍ لَدَى مَرْحَى وَوَرْدِ

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شباب رضوى ، سنيين وأشهرأ كثيرة ، ومن حوله الأعمار والآساد ، والظباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن يبدو أسد عليها بظفر أو بناب ، لمكان احترامها له وتقديسها إياه .

ويعتقد الكيسانية أن الدين طاعة رجل ، حتى حلمهم هذا الاعتقاد على تأويل

(١) التريحي : كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ ومايلها .

الشريعة ، وأن طاعتهم ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصيام والصلاة والحج وغيرها^(١) .

وقد تكلم ثان فلون^(٢) عن الإمام حسب معتقدات السنية والكيسانية فقال : « إذا كان السنية يتبرون إمامهم كأننا مقلداً بطيعته ، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باختياره رجلاً رفيع المزية محيطة بعلوم ما وراء الطبيعة .

هذا موجز مما به المختار بن أبي عبيد في خوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا ينبغي بطلانها وبُدها عن تعاليم الدين الإسلامي .

٣ — الدعوة السنية للعباسيين أيام بني أمية :

من الضروري أن نعرض لحدث هام في تاريخ الشيعة : هو انتقال حق الخلافة من بيت علي إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

ذلك أنه في سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) مات أبو هاشم ، وهو عميد الشيعة الكيسانية . وقبل موته بقليل ، استدعاه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك^(٣) ٩٦ — ٩٩ هـ (٧١٤ — ٧١٧ م) إلى دمشق وأظهر التودد له ، ولكنه دبر أمر موت أبي هاشم — على ما قيل — لما رآه من ذلالة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو إلى نفسه ويحد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ؛ ففسد له هذا الخليفة من سمه وهو في طريقه إلى أرض الشراة بين الشام والحجاز ، حيث كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحيمة ، وهي قرية صنفرة إلى الجنوب من البحر للميت على مقربة من العقبة .

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله ، عرج على محمد بن علي وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، وأمدد بكتب يسلمها إلى داعي دعائه في الكوفة ومن يليه من الدعاة ، ونزل

(١) الشهرستاني (ج ١ ص ١٩٦) .

(٢) Van Vloten, p. 42 وترجمة المؤلف (السيادة العربية ص ٨٢) .

(٣) يقول المغربي في كتابه « المتقن الكبير » (ليد ، مخطوط ١٣٩٦ ، المجلد الثاني ، ورقة

١٣٥ ب) إن الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ (٧٠٥ — ٧١٤ م) هو الذي استدعى أبا هاشم ، وهذا خطأ واضح .

له من حقه في الإمامة ، وأوصى بأن تكون لابنه إبراهيم بن محمد للقب بالإمام من بعده ^(١) ، وأن يبدأ بيت الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨ م) . وقد ذكر القرظي أن أباهاشم قال لـ محمد بن عليّ عندما أنضى إليه بسر الدعوة : « هذا أمر أنت أوّل من يقوم به ولو لك آخره » ^(٢) .

وبهذا تحول حق الإمامة من بيت عليّ إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبي هاشم . وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة ، قام الإمام محمد بن عليّ بتنفيذ وصية أبي هاشم ؛ فأرسل إلى المعتز بكشف عن السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها ^(٣) . وهنا نسأل : ما الذي حدا بأبي هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بني عمه ، ويترك بني أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أميه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم ، فلماذا لم يوص إلى أحد من بني أميه ، ويسلم وصيته إلى أحد أولاد عمه ليوصلها إليه ؟ ولعل ذلك يرجع إلى ما كان هناك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبي هاشم والإمامية شيعة أولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة ، وهي أن نزول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لا يمكن أن يستمر نزولا من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً ببقاء الشيعة الإمامية ، بدليل قيامهم في وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

رأى الإمام محمد بن عليّ العباسي أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق . فرأى يبعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيلة ، فطلب من شيعة أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بني أمية ، ووجد أن كلام الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة : لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون التشيع بسهولة ، ويستقدون في نظرية الحق للملكي للقدس وكانت سائدة في بلاد القرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان

(١) المسعودي « التنبيه والإشراف » طبعة دي غريغ (ج ٨ ص ٢٢٨) .

(٢) ليند غنطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ورقة ١٢٥ ص ٣٠ .

(٣) طبري ج ٢ ص ١٣٥٢ .

يقتليه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الإمام محمد بن عليّ العباسي شهور أهالي الولايات الإسلامية المختلفة وميولهم ، كما يتبين ذلك من وصفه الدقيق للأهواء والليول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات في ذلك الحيف في هذه العبارة التي ذكرها في إحدى خطبه :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ ؛ وأما البصرة فصبانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية^(١) صادقة ، وأهراب كأهلج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير مساوية وطاعة بني أمية ، وعداوة راسخة وجعل مقراكم ؛ وأما مكة وللدنية فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب قارغة ، لم تنقسم الأهواء ولم تنوزعها النحل ولم يندس فيها فساد ؛ وهم جند لم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات خفية تخرج من أجسام منكورة . وبعد فاني أنفاد إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق^(٢) . »

ومن تلك الخطبة نتيين ، أنه كان من بين الأسباب التي حلت محمد بن عليّ على اختيار خراسان ، هو ما يعلو من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سبباً آخر قد يكون أبداً أزراً ، وإن لم يعلق عليه الإمام أهمية كبيرة في خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بني أمية . ولقد صدق فان فلوت^(٣) إذ يقول تعليقاً على خطبة الإمام : « ولكن هناك أسراً آخر — وإن لم يدل عليه كلام الإمام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختياراً موقفاً ، ذلك هو أن الخراسانيين الأهواء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين . ولا شك في أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم . »

(١) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها ميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا علي بن طالب ، فسموا إليها وسوا حرورية (أو خوارج) . انظر لفظ حروراء في معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق البنداض (ص ٥٧) ، (Prof R. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 209)

(٢) المتدنى : أحسن التفاسير في معرفة الأنبياء (طبعة دي غويز) ج ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) Van Vloten, p. 46

بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحجة التي اتخذها المباسيون مركزاً لنشر دعوته ، وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز . ووجه محمد بن علي دعائه ؛ فوجهه ميسرة إلى العراق . كذلك وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج ^(١) ، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خراسان . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة المباسية تحت ملى الخلفاء ، وظاهر أسهم التجارة أو الحج إلى مكة .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية ، من بينهم اثنا عشر نقيباً ، كأفضل النبي في العقبة إذ اختار اثني عشر نقيباً . وشمر الكل عن ساعد الجد في بث الدعوة لبني المباس ، ولم يبالوا بما لا قوه من ضرب وقلب وقتل ونشريد . وفي سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، خلفه رجل ذو بأس وجاه ، هو بكير بن ماهان ^(٢) .

وإنه ، وإن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بأن قلوب الخراسانيين لم ترمزها الاختلافات الدينية ، يبنى أن لا يرب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هدت جهود غالب ، وهو داع علوى متطرف ، نجاح الدعوة لبني المباس ، وأدت إلى تسيير يذكر في نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب إلى مسامع إبراهيم الإمام ، سث هذا إلى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) يزيد أبي محمد مولى بني حمدان ، وأوصاه أن يتجنب غالباً ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول زياد ، أنهاه في مسرو ، وقامت بين الرجلين مناظرة عذائية : هذا ينصر لبيت المباس ، وذاك لبيت علي .

وكان من وراء عدا غلب أن أصبحت الدعوة بعد ذلك الحين تنص على « الرضا من آل محمد » . وبذلك وجد المباسيون ، كما يقول الأستاذ نيكلسون ^(٣) ، في هذه النقطة المهمة عبارة يمكن تطبيقها على أبناء علي وأبناء المباس ، وبها أيضاً أمكن ستر الدعو إليه ، حتى لا تناله أيدي بني أمية . ولم يكن يعلم بشخص للدعوة إلا التقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك نسي المباسيون أن يروجوا الدعوة إليهم تحت ملى الكتبان . كما أوصاهم محمد بن علي

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٥٤ و ١٢٥٥ .

(٢) الطبري : الأعيان الطوال (ص ٢٢٦) ، الطبري ج ٢ ص ١٢٦٧ .

(٣) Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 260 .

البسلى أن يتظاهروا بنشر الدعوة لآل البيت عامة تسكيناً للعلوين . وهذا ما يمكن أن نضعه بدء الدور السرى للدعوة .

ويمكن تقسيم تطور الدعوة العباسية قسمين :

الأول : يبدأ فى مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهى بانضمام أبى مسلم الخراسانى . وكانت الدعوة فى هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، إذ كان الدعاة يحجبون البلاد الإسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج .

والثانى : ويبدأ الدور الثانى بانضمام أبى مسلم الخراسانى إلى الدعوة العباسية ؛ وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى دور العمل ، وهو دور الحروب التى انتهت بزوال الدولة الأموية .

وقد قدر العباسيين الفوز من وراء هذه الجهود التى بذلها دعائهم ، وأدت إلى انضمام كثيرين من ذوى الرأى والجاه ، من أمثال سليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى^(١) . حتى إذا مات الإمام محمد بن على سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل النجاح . وفى عهد ابنه وخلفه إبراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ؛ بمعنى أن النزاع بين بنى أمية وبنى العباس دخل فى طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك فى سنة ١٢٧ هـ ، وإليك البيان :

فى سنة ١٢٨ هـ تسلّم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الأمور فى خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصية بين للضرية أو التزارية ، وبين الهامية فى خراسان ، وضمف قوة أمهر هذه البلاد ، وخروج الطوارىج فى اليمن وحضر موت^(٢) .

وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين فى هذه البلاد ؛ فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتاباً ، يكشف له فيه عن قوة أبى مسلم وضمف الجند الأموى ويستمدّه ، وتتم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ فأخبر بأن يكونَ له ضرامُ

(١) للبخارى : الأشهر الطوال (ص ٤٤١ - ٤٤٢) . الطبرى (ج ٢ ص ١٧٢٧) .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٩٤١ - ١٩٤٩ . المسعودى : مروج الذهب ، طبعة مصر .

(ج ٢ ص ١٤٥) .

فَإِنَّ النَّصَرَ بِالْمُؤَدِّينَ تُذَكِّي وَهِنَّ الْحَرْبِ أَوَّلَهَا الْكَلَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّنَجُّبِ لَيْتَ شَرِي ! الْإِيقَاطُ أَمِيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ ؟
فَأَجَابَهُ مَرْوَانَ بِقَوْلِهِ : يَرَى الشَّاهِدُ مَا لَا يَرَاهُ النَّاسُ ؛ وَأَمْرُهُ بِأَنْ يَحْفَظَ نَاحِيَتَهُ
بِجَهْدِهِ . فَلَمَّا وَرَدَ الْخُطَابُ عَلَى نَصْرِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : « أَمَا صَاحِبُكُمْ (يَعْنِي مَرْوَانَ)
فَلَا نَصَرَ عَنْدَهُ » .

بِمَذَلِكَ كَتَبَ نَصْرُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ وَإِلَى الْعِرَاقِ كِتَابًا يَطْلُبُ فِيهِ لِلْعَوْنِ
وَاللَّدِّ ، وَخَتَمَهُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ :

أَبْلَغُ يَزِيدَ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَقَدْ تَبَيَّنَتْ أَنَّ لَا خَيْرَ فِي الْكَذِبِ ،
أَنَّ خِرَاسَانَ أَرْضٌ قَدْ رَأَيْتُ بِهَا بَيِّنَةً لَوْ أَفْرَخَ قَدْ حُدِّثَتْ بِالْمَعْصِ
فَرَاخٌ طَائِعِينَ إِلَّا أَنَّهَا كَثِيرَتْ لَمَّا يَطْرُونَ وَقَدْ سُرُّبَانٌ بِالزَّغْبِ
فَإِنَّ يَطْرُونَ وَلَمْ يُحْتَمَلْ لَهُنَّ سَهَا يُتْلِهِنَّ نِيَرَاتٌ حَرْبٍ أَيْمًا لَهَبِ
فَرَدَّ عَلَيْهِ يَزِيدُ بِمَا لَمْ يَشَفْ غُلَّةً ، فَبَنَسَ نَصْرُ مِنَ النَّصْرِ وَقَالَ : « لَا غَلَّةَ إِلَّا بِالْكَفَرَةِ ،
وَلَيْسَ عِنْدِي رَجُلٌ » ^(١) .

وَلَقَدْ أَهْمَلَ شِمَةَ الْعَبَّاسِيِّينَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ ، الْحَلِيقَةُ فِي تَفْرِيقِ
كَلِمَةِ الْحَرْبِ فِي خُرَاسَانَ ، فَبَذَرُوا بِذُورِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الزَّرَّازِيَّةِ وَالْجَلَّابِيَّةِ . وَبِذَلِكَ أَهْمَتُوا اجْتِنَاعَ
كَلِمَةِ الْحَرْبِ . وَفِي أَوَّلِ رِسَالَةٍ ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) خَفِيَ الْعِلْمُ الْأَسْوَدَ شُعَارَ الْعَبَّاسِيِّينَ فَوْقَ
حُصُونِ دِمَشْقَ ، وَدَالَّتِ الْهَوَّةُ الْأُمَوِيَّةُ ، وَآلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى أَوَّلِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ ،
وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ ^(٢) .

(١) انظر الطبري (ج ٢ ص ١٩٧٣ - ١٩٧٤) ، وَالْمُسَوْدِيُّ : مَرْجُو الْعَدَبِ ، طَبْعَةُ مِصر
(ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦) .

(٢) قَالَ الْأَسَاطِيزُ نِيكلسون فِي كِتَابِهِ Lit. Hist. of the Arabs, p. 263, n. 1 : " يَقُولُ
الْأَسَاطِيزُ بِيَّانَ (Prof. Bevan) الَّذِي أُدِينَ لَهُ هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتُ ، إِنَّ تَرْجُمَةً لَعَلَّ السَّفَّاحَ ، وَلَوْ أَنَّ
لِصِفَتِهَا تَدَّ شَاحَ بَيْنَ الْكُتُبِ الْأَوْرَبِيَّةِ ، لَا تَزَالُ مَثَارًا لِكَثِيرٍ مِنَ الشُّكِّ " . وَقَدْ ذَهَبَ الْأَسَاطِيزُ فِي غَوِيهِ
(De Omeje) إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ السَّفَّاحَ سَنَاءَ الرَّجُلِ الْكَثِيرِ الطَّيَابِ أَوْ الْمُنَاجِ (munificent) . وَنَحْنُ كُلُّ قَائِلِهِ
بِمَا جِئْنَا مَلَاحِظَتَهُ أَنَّ هَذَا الْأِسْمَ قَدْ أُطْلِقَ عَلَى بَعْضِ شُعُوبِ الْقَبَائِلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَيُقَالُ إِنَّ سُلَيْمَةَ بِنَ عَالِدَ الَّذِي
قَدْ بَيَّنَّ تَطْلُبُ فِي مَوْضِعِ بَيْتِ كَلَابِ الْأَوَّلِ (ابْنُ الْأَثِيرِ طَبْعَةُ Tornberg (ج ١ ص ٢٤٦) ، سَمَّى السَّفَّاحَ ،
لِأَنَّهُ أَفْرَخَ مَزَادَ جَيْشِهِ قَبِيلَ الْمُؤَصَّةِ - ابْنُ دُرَيْدٍ ، طَبْعَةُ Wüstenfeld (ص ٢٥٣ - ١٦) . وَلَقَدْ
وُورِدَ فِي هَذَا الْكِتَابِ ذِكْرُ لُشَارِ اسْمِهِ السَّفَّاحَ بِنَ عِدَّةٍ مَنَاتٍ (ص ٢٧٧) ، السُّلُطَانُ الَّذِي قَبْلَ الْعَبَّاسِ .
وَلَقَدْ أَهْمَلَ لِي أَنَّهُ إِنَّمَا سَمَّى هَذَا الْأِسْمَ لِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ غُلَّةٍ لَهُ " فَأَنَا السَّفَّاحُ الْمَجِيحُ وَالْقَاتِرُ الْمُنْجِ " .

وفي أواخر الدولة الأموية بدأ الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره ينتشر بين المسلمين ، بحسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره . ويقول فان فلوتن إن هذا الاعتقاد لم يقتصر على آل البيت وحدهم ، بل تدمم إلى أهل السنة ، حتى تحت ذكر غيره من المهديين الذين كان بعض يتنبأ بهم : مثل السفياي للنتظر ، والقحطاني للنتظر وغيرها . وذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وهر بن عبد الميزز بالمهدي . ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين ، وإنما صاروا بالنسبة إلى المهدي للنتظر بالنسبة إلى عيسى بن مريم^(١) .

ويقول فان فلوتن^(٢) أيضاً : « هل كان الناس يعتقدون بإزاء تلك الحالة السيئة (يعنى قيام الفتن ولا سيما على أيدي الشيعة والخوارج) بقرب ظهور المهدي (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ، بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان المزاء الوحيد للثقة من المسلمين (أهل السنة) . ومع ذلك فلا يدعشنا أن نرى نبوءة أخرى تشغل الأذهان في ذلك الحين . فذلك كان من الضروري ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتي عليه ليعبد السبيل لتلك المهدي للنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هي « نبوءة الرجل ذي الأعلام السود »^(٣) الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني أمية^(٤) .

ولما آلت الخلافة إلى أبي العباس ، عهد إلى عمه عبد الله بن علي بقتال مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فجهه إلى نهر الزاب الأصفر بالعراق وأحل المزعجة بجنده ، ثم طارده إلى الموصل فخران ، ثم إلى دمشق حيث قتل عدداً كبيراً من بني أمية وأنصارهم . ثم فر مروان إلى مصر ، حيث أدركه عبد الله بن علي ثم ولي أخاه صالح قتال مروان ، فلقق به جند العباسيين في قرية بوسير من أعمال القهيوم وأخذوا بئار إبراهيم الإمام الذي سمى الأمويون في حران وقتلوه في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ .

(١) البداية العربية ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين ، فاحتفد العباسيون السواد شعاراً لم حاداً على الشهاد من آل البيت .

(٤) انظر المعبر : كتاب الكامل ص ٨٥ . الطبري (طبعة غوي) ٢ : ١٩٢٩ وما يليها .

ويرجع سقوط الدولة الأموية إلى عدة عوامل أضفت للبيت الأموي وآذت بذهاب دمه . ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلي :

١ — تولية العهد اثنين على أحدهما الآخر مما أثار المنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء ، وتعدى إلى النزاع إلى القواد والعمل ، إذ كان الخليفة الجديد ينكل بمن ظاهر خصه وساعده على إقصائه من ولاية العهد .

٢ — بث روح العصية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين مصر واليمن ، مما أترق انحلال الحزب الأموي تأثيراً عظيماً .

٣ — انتماس بعض الخلفاء وميلهم إلى حياة البذخ والترف تشبهاً بأصحاب البلاط البيزنطي مما كان له أثر كبير في سقوط دولتهم .

٤ — تمصب الأمويين للعرب والعربية ونظرم إلى الموالى نظرة الاحتقار مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبث روح الشوعية في الإسلام . وكانت منشأ تلك الحركة أعضاء العرب أنهم أفضل الأمم ، بما ساق الله إليهم من النبوة والخلافة والملك ، وأن لنتم أفضل القات .

• — عدم مساواة الأمويين بين العرب وبين الموالى واشتغالهم في جمع الضرائب ، مما أثار الموالى الذين انضموا إلى أعداء الأمويين : فانضموا إلى المختار ثم إلى الخوارج وعيرون ، ثم انضموا إلى الدعوة العباسية ليتالوا حقوقهم للمهزومة .

وقد صور المحدث^(١) الأسباب التي ساعدت على زوال ملك بني أمية في هذه العبارة التي نقلها عن أحد شيوخ بني أمية عقب زوال دولتهم : « إنا شغلنا بلداننا عن تنقذ ما كان تنقذه يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ؟ ونحمل على أهل خراجنا ، فنجعلوا عنا ؟ وخربت ضياعنا ، فحلت بيوت أموالنا ؟ ووثقنا بوزرائنا ، فأثروا مصراعهم على منافنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا عليها عنا ؟ وتأخر عطاء جنودنا ، فزلت طاعتهم لنا ؟ واستدعاهم أمادينا ، فظاهروا معهم على حربنا ؟ وطلبنا أعدائنا فصبغنا عنهم لفة أنصارنا ؟ وكان استقرار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

٤ — الدعوة السرية للملوين أيام الدولة العباسية :

عاش الملوين عيشة هادئة إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدي العباسيين ، فلم يزجوا بأعضهم فيها ، وتركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي ، حتى كونوا لم عصية قوية بالمصاهرة وكسبوا رضاء أهل المدينة ، فأولوم عطفهم واحتراسهم ، وأغلروا استعدادهم للانضمام إليهم وإلى دعوته .

فلما ظفر العباسيون بالغللانة لم يجب ذلك الملوين ولم تطب بذلك نفوسهم ، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم ، وأدركوا أن العباسيين قد خدعهم واستأثروا بالغللانة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، فتابذوم ، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل .

ولم يبدل الملوين عن المطالبة بدعواهم ، بل ظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى الغللانة . على أننا نجد أن الضرورة هي التي أكرهت الشيعة على الاكتفاء بالزعامة الدينية بعد مقتل الحسين ، حتى لقد أصبح تاريخ الشيعة تاريخاً للكاند التي دمتهم عقيدتهم إلى سلوك سبيلها . وهذا القول تؤيده تلك المسألة التاريخية ، وهي أن الشيعة لم يستطيعوا التطور في ميدان السياسة والاعتداد على السيف بدلا من اعتمادهم على الكيد ، إلا في أحوال قليلة .

وإن قيام زيد بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ ، الذي تنسب إليه طائفة الزيدية ، والذي تار على هشام الخليفة الأموي^(١) في سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، مصداق لهذا التطور الجديد . وقد روى النويري^(٢) أن هشاماً أنب زيد بن عليّ بن الحسين إذ بلغه أنه يكيد له في الخلفاء ، وأخرجه من مجلسه ، فحق زيد وقال للخليفة : « أخرج ولا أكون إلا بحيث تكره » . كما أورد النويري (ورقة ٣٢ ب) نص الدعوة التي كان يأخذها زيد على من يستنق مذهبه ، وهي تلخص في أن يحلف الرجل بين الطاعة والولاء لزيد ،

(١) السمرق : كتاب الفتن والإثراف (طبعة دي شوم) (ج ٨ ص ٢٢٢) (مروج الذهب ، طبعة مصر ج ٢ ص ١٨١) .

(٢) المكتبة الأمية ببريس ، مخطوط ١٠٧٦ . ورقة ٢٢ ب ٩٣ .

الخريطة السياسية

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

وأن يقصد النية على قتال أعدائه : « إنا ندعوك الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، وإعطاء المحرومين ، وتقسيم هذا النعم بين أهله بالسواء . أنبايعون على ذلك ؟ فإذا قال نعم ! مسح على يده ثم قال اللهم اشهد . فبأيامه خمسة عشر ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً ؛ وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يبي له ويخرج معه . »

على أن أهل الكوفة خانوا عهد زيد واعتزلوه ، وامايعوا جعفرا الصادق على إيمانهم^(١) . وبذلك ترك زيد يحارب في جماعة قليلة قاتل معها إلى أن قتل ؛ فأحرقوه بالنار وضربوه بالصصى حتى صار رماد^(٢) .

وهؤلاء الزيدية هم الذين تفرعت منهم جماعة الرافضة ، ويرجع السبب في تسميتهم الرافضة إلى أن زيدا لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي والى المراق من قبل هشام بن عبد الملك قالوا له : « إنا نتصرك على أعدائك بعد أن نخبرنا برأيك في أبي بكر وهو الذين ظلمنا جديك علي بن أبي طالب » . فقال زيد : « إني لا أقول فيهما إلا خيراً ، وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيراً . وإنما خرجت على أبي أمية لأشهم قتلوا حدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرّة » ، ثم رموا بيت الله بمحجر المنجنيق والدار . « فمارقوه عند ذلك فقال لهم : « رفضتموني » : ومن يومئذ سموا الرافضة^(٣) .

وبعد موت زيد بن علي بن الحسين انقسم الزيدية إلى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه يزيد ، وامايعوا ابنه يحيى ، وقاتلوا معه في حراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) .

(١) ذكر الطبري (٢ : ١٦٩٩ و ١٦٧٠) أنهم دعوا الرافضة . وقد بحث فريديلدز أصل هذا اللفظ بحثاً مفصلاً في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية Society, vol XXIX, pp. 137-159) مقال : « من المرجح كثيراً أن يكون شيوخ استعمال هذا اللفظ كناية المراءاة الشيعة ، ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء » .

ويريد فريديلدز أن يقول إن هذا اللفظ جرى في عرف العام بحري الدم ، فإنهم إن أرادوا أن يحتضروا شخصاً ويصفوه بأنهم أوصاف الدم يقولون « رافضي » . ولا يزال هذا اللفظ جارياً على ألسنة العامة ، مع تحريم إل « رفضي » ، حتى كان هذا اللفظ في بعض الأماكن يطلق على كل من يبدى ميلاً لآل البيت . ومن ذلك قول الشاعر :

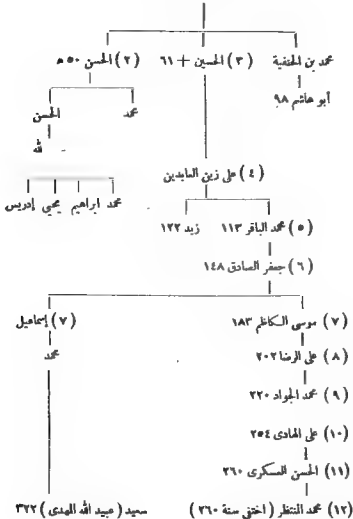
إن كان وقفاً حب آل محمد فأيّ شهاد للثقلان رأى رافض

(٢) المسمودى - مروج الذهب ج ٣ ص ١٨١ :

(٣) الفخرى ص ١١٩ - ١٢٠ .

البيت العلوي

(١) علي بن أبي طالب



إلا أن أسره آل إلى ما آكل إليه أسرايه من قبل ؛ إذ أصابته نشابة فات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رماداً تذروه الرياح^(١).

على أن فريقاً كبيراً من الزيدية الذين اعتزلوا زيداً انضموا إلى الطائفة الإمامية أنصار جعفر الصادق . والإمام حسب معتقدات الإمامية يكتسب حقه في الإمامة بطريق الوراثة عن عليّ باعتباره خليفة النبي شرعاً . ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبي عن فاطمة ؛ ويطلب في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد حر إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين :

(١) الإمامية الموسوية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ، وقالوا بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع .

(٢) الإمامية الإسماعيلية : وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر . وكان أكبر أولاد أبيه جعفر ، وإن كانت وفاته في حياة أبيه ؛ فحول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد ، وهو عندهم الإمام السابع . ومن ثم أطلق عليهم السنية لتمييزهم عن الاثنا عشرية .

ذلك أنه في خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥) ، دعا محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ ، المعروف بالنفس الزكية ، إلى نفسه سرّاً ، وتلقب بأمر المؤمنين . وفي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهر محمد بن عبد الله هذا بعد أن عاش في الخفاء دهمياً أخذ فيه أشياعه يقيمون له الدعوة ، إلى أن كثرت أنصاره في خراسان^(٢) ، واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة ؛ ومن هذه أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته .

على أن محمد بن عبد الله لم يمش حتى يرى أثر دعوته . فقد قتل على يد عيسى بن

(١) الطبري (٢ : ١٧٧٠ - ١٧٧٤) .

مسم أبو الحسن التوحيدي (كتاب فرق الشيعة ص ١٩ ، ٤٩ ، ٥٠ - ٥١) الزيدية إلى ثمان فرق . وقته فلا هؤلاء في المذهب .

(٢) يحيى بن الحسين ، لندن ، مخطوط ١٩٧٤ ، ورقة ١٥ (١) وما يتبعها .

وكانت هذه اللوحة جميدة الآخر؛ فقد حرب منها رجلاً كانا شجى في خلق العباسيين :
أحدما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس في بلاد المغرب .

أما يحيى فقد تار في عهد هارون الرشيد ١٧٠ — ١٩٣ هـ (٧٨٦ — ٨٠٩ م)
في بلاد الديلم ، وانتصر له أهل البين ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة
العباسية وأقلق بال الرشيد . فولى الفضل بن يحيى البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والرى ،
وسهر في خمسين ألف جندي لمحاربة هذا المولى . ولكن الفضل أتى يحيى من ناحية
غير ناحية الحرب . فأخذ يمزقه ويخوفه حيناً ، ويمنيه ويرغبه حيناً آخر ، حتى مال إلى
الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، وأن يشهد فيه القضاة والقهاء وكبار بني هاشم .
فأجاباه الرشيد إلى ما طلب ، وأرسل إليه الأمان مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع
الفضل ، فقابلاه الرشيد بالخفاوة والإكرام ، ثم لم يلبث أن حبسه وقتله ومداد الأمان لم يحف
بعد . على أن الصورة التي قتل بها يحيى لا تزال سرّاً غامضاً (سنة ١٧٦ هـ)^(١) .

وكان من أثر هذه الجلود التي بذلها إدريس بن عبد الله أخو يحيى في إثارة شعور شمال
إفريقية على حكم العباسيين ، أن تأسست دولة الأدارسة في الطرف الشمالي الغربي ،
وضاعت هذه البلاد من أيدي العباسيين . على أن الرشيد أرسل رجلاً تقرب من إدريس
حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فأت (١٧٧ هـ) دون أن يترك ولماً يتول إليه
الأمر من بعده . ثم وضعت زوجته ولماً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وإليه تنسب
الأدارسة ببلاد المغرب . وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف الملوين أشد
الخوف ويصل على استئصالهم . وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد
إفريقية (تونس) ليوقف في وجه الأدارسة .

٥ — انتقال الدعوة الشيعية إلى المغرب :

كانت النتيجة الطبيعية لما حل بالملوين من حبس وقتل ، أن عدلوا إلى نشر دعوتهم
في طى الخفاء ، وتلمسوا أما كن ينجفون فيها ، ويتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم
ما كان يوقه العباسيون بهم من حبس وآلام ، إلى أن تقوى دعائم دعوتهم ، وإذ ذاك
يستطيعون الظهور .

(١) الفهرست في الأديان السلطانية من ١٧٦ — ١٧٧

على أن فكرة سرية الدعوة كانت فكرة قديمة ، استحدثها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقد دعا إلى الإسلام سراً في دار ابن الأرقم ، ثم اختفى في الفار حين هدد حياته أعداؤه من قريش . واتخذت هذه النظرية التي ابتدعها ابن سبأ شكلاً حديداً في سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م) ، وهي السنة التي مات فيها الحسن العسكري الإمام الحادى عشر .

أما ونحن بصدد الكلام على النية ، وجب أن نأنى بكلمة يسيرة نصف بها استتار آئمة الشيعة لهدم ما عسى أن يحيق بهم من مكروه . ولا غرو فقد شدد الخلفاء العباسيون في طلب آكل البيت ، حتى لا تظهر دهنهم وتقوم دولتهم على أقاص الخلافة العباسية نفسها . ولهذا اتخذ دعاة الشيعة من الإسماعيلية بوجه خاص دور الهجرة في البلاد التي قاموا فيها بنشر المذهب الإسماعيلي .

وقد أورد يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) في كتابه « الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » أن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب استقر في مصر في خلافة المأمون العباسي ، وأنه لما بلغه موت أخيه محمد دعا إلى نفسه ، وبث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ؛ فبايحه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوین وطبرستان وبلاد الديلم ، وكان به أهل البصرة والأهواز وحشوه على الظهور ؛ فبلغ خبره الخليفة ، فأمر بالتشدد في طلبه . فلم يطلب للقاسم اللقائ في مصر ، فناد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه في بلخ^(١) والطالقان^(٢) ومرو وغيرها ، فذاع خبره وبث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه ، فاخفى في حى من البدو . ولما ولي المتصم الخلافة شدد في

(١) مدينة مشهورة بخراسان ، ومن أجل مدائنه وأكثرها خيراً . اصطحبها الأحنف من قيس من قبل عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان . وإليها ينسب كثيرون من أهل الأدب وعلما الكلام والحفاظ انظر لفظ بلخ في معجم البلدان لياقوت .

(٢) الطالقان بلدان : إحداهما بخراسان بين مرو الرود وبلخ ، بينها وبين مرو الرود ثلاث مراحل . وقد ذكر الإسماعيلي أن طالقان أكبر مدن طغارستان ، وتقع في مستوى من الأرض ، يجري فيها نهر كبير ، وتبلغ في الاتساع ثلث ما تبلغ مدينة بلخ ؛ والأخرى بلدة وكورة بين مروين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوین ورجين وهدان من دواخی الجبل ، والفارس يسمونها أهر ، فحقت في أيام عثمان بن عفان ، وبينها وبين نيجان خمسة عشر فرسماً ، وبينها وبين قزوین اثنا عشر فرسماً) وبها عدة قرى تصرف كلها بهذا الاسم .

طلب القاسم ، وبحث بنا الكبير وأشفاق في جند كثيف ، فانتفض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

هذا وقد روى المؤرخ حكاية من خادم القاسم عصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المساك واشتد الطلب ، ونحن نخفون منه خلف حانوت إسكاف . . . فنودي نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم ومن لا يدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البر كذا وكذا . والإسكاف مطرق يسمع ويسل لا يرفع صوته . فلما جاء ما قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لي ما ارتاعي منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى في وقايتي لولده بنفسى ^(١) ؟ » .

الآن نعود إلى السكلام على الإمام الثاني عشر . في شهر شبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد الحسن العسكري ^(٢) وهو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سمى محمداً ، من أم ولد اسمها صقيل ^(٣) . فلما توفي الحسن في سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد في الخامسة من عمره ، فأصبح الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الموسوية الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثنا عشرية . ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا وأمه تنظر إليه ، ولكنه لم يبد ، ولم يقف له أشياء على أثر منذ ذلك الحين . ومن هنا تنسب إلى الإمام الثاني عشر غيبتان : الغيبة الصغرى ، وتبدأ بمولده سنة ٢٥٥ هـ وتنتهي بموت أبيه سنة ٢٦٠ هـ ؛ والغيبة الكبرى ، وتبدأ من اختفائه أخيراً سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن . ولا يزال أعماره ينتظرونه إلى اليوم . ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن محمداً الإمام الثاني عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . ومن ثم سمي الإمام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالأسر ، والحجة .

وقد رجح ابن حزم صحة اسم صقيل ؛ وزاد أنها أدعت الحل بعد وفاة الحسن العسكري

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ١٣٤ - ٣٥ ب .

(٢) نسبة إلى العسكري . والمراد هنا مدينة سامرا التي أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكراً لجنده الأتراك ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ - ٢٧٩ هـ) ، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة .

(٣) هذا هو الرأي الشائع . على أن هناك فريقاً من المؤرخين يخالفون هذا الرأي ، فيذكرون أن محمداً من أم ولد اسمها نرجس ، ويذهب آخرون أنه من أم ولد اسمها سوسن (ابن حزم ج ٤ ص ٩٤) .

سبع سنين ، فوق ممراته ؛ وقد نازعها فيه أخوه جعفر بن عليّ إلى سنة ٢٦٧ هـ ، قضى له
القاضي وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

(١) فريق ناصر جعفرا .

(٢) وفريق آخر تعصب لصقيل ، ومن بينهم حسن بن جعفر النوبختي^(١) .
والنوبختي فارسي الأصل ، وهو صاحب الزيج المشهور ، الذي قام برسم مدينة بغداد
للمصور ، فصار بيته من أشهر البيوتات .

عاشت صقيل بعد وفاة سيدنا عشرين سنة في بيت الحسن النوبختي ؛ فراجت
الإشاعات حول مقامها في هذا البيت ، فأمر الخليفة المتضدد فحملت إلى قصره ، فظلت فيه
إلى أن ماتت في خلافة القنندر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) .

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على النبية الكبرى سنة ٣٦٠ هـ ، أن الحسن العسكري
وكل بدعوته بعض رؤساء الشيعة . فكان أبو سعيد العمري رئيس الإمامية الوكيل
الأول . أما الوكيل الثاني فهو النخعي ، وهو أصل الطائفة النخعية ، التي تعد من أشهر
الفرق الاثنا عشرية وغلانهم الذين يؤمنون على بن أبي طالب ، ولا يزال لهم بقايا في فارس
والشام . والوكيل الثالث حسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل عليّ على يدرجال
من بيته .

ظلت طائفة الإمامية الاثنا عشرية مميّنة بعد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهورى
الدعاة الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسماعيلية ، مثل ابن حوشب ، وابن فضل اليمنى
الذين قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن بفضل جهودهما ، وأبو عبد الله الشيعي
المختب الذي يرجع إليه الفضل في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في
بلاد المغرب . ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثاني عشر ، فسلوا
على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يتربق القرص المواتية لكي يظهر
فئس ويملأ الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر ، الذي طالبت
غيته ، وغدا ظهوره في نظرم أسراً بعيد الوقوع^(٢) .

(١) دومت بالعامرية معناه الحث القريب .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. III, p. 128.

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة الرابعة ١٩٥٧) ج ٢ ص ١٩٤ .

وقد ذكر دى جوينوفى كتابه « الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى »^(١) تأثير مذهب الاثنا عشرية وأهميته عند الفرس ، الذين كانوا ينظرون إلى أئمتهم كما ينظر المسيحيون إلى أنبيائهم ، ويستقلون أن فى أئمتهم مقادير العالم الذى يحى بوجود هؤلاء الأئمة وبهلك بدونهم . كما أن الطاعة والتوسل إلى الأئمة من الأمور الضرورية عند طائفة الاثنا عشرية فى فارس . وهناك صلوات خاصة بهؤلاء الأئمة : من ذلك أن يوم الأحد مقدس عديم من أجل على وفاطمة ، والساعة الثانية من كل يوم مقدسة كذلك من أجل الحسن ، والساعة الثالثة مقدسة من أجل الحسين ، والرابعة من أجل على زين العابدين ، والخامسة من أجل محمد الباقر ، والسادسة من أجل جعفر الصادق ، والسابعة من أجل موسى الكاظم ، والثامنة من أجل على الرضا ، والتاسعة من أجل محمد الجواد ، والعاشر من أجل على النقي ، والحادية عشرة من أجل الحسن المسمى الزكى ، والثانية عشرة من أجل محمد المهدي الحجة .

ويعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن الله قد أخفى الإمام الثانى عشر من أعين الخلق ، ولكنه لا يزال حياً ، وهذه معجزة له . كما يقولون إنه يرى من وقت إلى آخر ، وإياه على اتصال بغيره ، وأن بيده تقدير سقوط أو شيء^(٢) .

وقد جعل الصوفية ، أنصار إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية فى فارس فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، مذهب الإمامية الاثنا عشرية للذهب الرسمى فى هذه البلاد . فقد أمر إسماعيل الخطباء بأن تقام الخطبة باسم الإمامية الاثنا عشرية ، كما أمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان عبارة « أشهد أن علياً ولى الله » ، وأمر الجند بقتل كل من يعارض ذلك . ولا يزال مذهب الاثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران .

(١) دور السنن :

وقد ذهبت طائفة الإسماعيلية إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، وأنكرت موت إسماعيل فى حياة أبيه وقالت إنه تنيب ،

. De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale. p. 60. (١)

Donaldson, The Shi' ite Religion London., 1933), p. 236. (٢)

ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ؛ كما قالت بدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الأعقاب . ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى في الإمامة حق ، كما لم يكن لحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين . ويسى أصحاب هذا القول « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر ^(١) .

وقد قام النزاع بين اللوسوية أشياح موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياح أخيه إسماعيل وعهد بن إسماعيل من بعده . وهؤلاء يقولون بطلان إمامة موسى لأنه قد نص على إمامة إسماعيل . و « أن النص لا يرجع القهقري ، وللقول بالبداء ^(٢) محال ^(٣) » . إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يمتنعوا على إمامة موسى في حياة أبيه ، وقالوا إنه إمام مستودع (Acting or Trustee Imam) ، كالحسن بن علي بن أبي طالب الذي لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه ، رغم أنه كان إماماً ، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (Permanent or necessary Imam) يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه ، فهو والحالة هذه كالحسن بن علي بن أبي طالب ^(٤) . ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تنقيّة ^(٥) (تظاهراً بغير ما يخفى لتبقي سطوة الحاكم) ، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل ، وهم الأئمة الحقيقيون ، لاضطهاد العباسيين .

من ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده . كالحسن بن علي في نظر الإمامية ، وموسى الكاظم في نظر معتدلي الإسماعيلية ، وأن الإمام المستقر هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسين بن علي وأبنائه من الأئمة ، وكإسماعيل بن جعفر

(١) أبو محمد الحسن الترميحي : كتاب فرق الشيعة ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ — ٧٢ ، ٩٠ .

(٢) يرى أن الله سبحانه وتعالى بغير ما أراد .

(٣) الشيرازي : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٧ .

(٤) Bernard Lewis, The Origins of Isma'ilism, pp. 49—52. Ivanow : Kalami

Pir, p. xlviii.

(٥) ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق جعل ابنه إسماعيل من الإمامة لأنه رمى بشرب الخمر وسوء السيرة . ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها .

في نظر الإسماعيلية . وقد ذكر الشهرستاني^(١) شيئاً كثيراً عن آراء الإسماعيلية في إمامة إسماعيل ، وأنهم نسبوا إليه أموراً خارقة للعادة .

١ — رياسة الدعوة :

كان من أثر تضيق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة عامة ، أن عهد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم في طي السكان . ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية في الحجاز وبأخيه إبراهيم في العراق سنة ١٤٥ هـ ، وقتلوا الحسين ابن علي بن الحسن في موقعة فنج (سنة ١٦٩ هـ) التي كانت ببيدة الأثر في تاريخ الشيعة . فقد حرب منها اثنان من العلويين هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس بن عبد الله الذي أسس دولة الإدارة في المغرب الأقصى . كذلك خرج من أبناء جعفر الصادق ، محمد الديباج بمكة في خلافة المأمون ، كما خرج عليه القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن ، الذي استقرنحو من عشرين ، وبث دعائه في مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وفي بلخ والطارقان ومرو ، وظل على ذلك إلى أن انتفض عليه أمره في عهد المعتصم .

لذلك لا نجيب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم في الخفاء ، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ، ليدرخوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حقد ونقمة ، حتى إن محمد بن إسماعيل فر إلى الري ، ومنها إلى دماوند^(٢) ، حيث استقر بقرية سميت محمد آباد نسبة إليه . وسار أبناؤه على منواله ، فاختفوا في خراسان ، وفي إقليم قندهار ، وفي السند ، وأخذ دعائهم يجوبون البلاد لجذب الأشياء إليهم^(٣) .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ؛ وكانوا يعمنون من هذه المدينة الدعوة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، ويمهدون في تنظيم الدعوة إلى كبار العامة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور ، وهو دور السر ، نواب

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢) جبل قرب الري — انظر هذا المفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ .
Levy : The Accounts of Isma'ili Doctrines in the
Jam' i-i Tawarikh of Rashid i-i al Din Fadlallah (J. R. A. S.), 1930, p. 522

الأئمة أو الحجة^(١)، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي .

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب ، وكانت إليهم رئاسة هذه الدعوة ، ميمون القنداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي ، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه^(٢)، واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر في عمله عن ميول شعوية ترمي إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى القرس ، وأنه اتخذ قداحة العيون أو تطيبها (هي عملية استخراج ماء من العين Gloucoma) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية ، وهي نشر المذهب الإسماعيلي ، ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله بن ميمون .

وقد وصف المقرئ^(٣) عبد الله فقال إنه كان علماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه اهتم مذهب الشيعة ، لا الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد ، بل كان ذلك لحيطة اتخذها ليجمع حوله أنصاراً ، بمعنى أنه اتخذ هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهي تكوين دولة فارسية . ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقي لذلك المذهب الإسماعيلي الذي انتشر بين القرامطة وغيرهم .

وذكر النويري^(٤) أنه « كان من كبار الشعوية رجل يسمى محمد بن الحسن بن جهار نجار ، الملقب دندان ، وهو بنوحي الكرج وأصبهان ، له حال واسعة وضياع عظيمة ، وهو المتولى على تلك المواضع . وكان ينفذ العرب ويذممهم ، ويجمع عايبهم . وكان كل من طمع في نواله تقرب إليه بنم العرب ، فسمع به عبد الله بن ميمون القنداح ، وما يتصله من بنم العرب وصنعة النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتصاطل الطب وعلاج العين ، ويقدم الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة (زاني إلى الله) ، وتقرباً إلى الله عز وجل بنوحي أصفهان الجبل . فأحضره دندان ، وطاقمه الحديث ،

(١) كتاب عقيدة الإسماعيلية (نشر جويار) Fragments relatifs à la Doctrine des

Ismaélis (Paris, 1874), pp. 188-9

Prince Mamour : Polemics on the Origin of the Fatimid Caliphs, p. 52. (٢)

(٣) غلط ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ ج ٢٦

فوجدته كما يحب ويهوى ، وأظهر له عبد الله من مساوى العرب والطنن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال له : مثلك لا ينبغي أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويحل عن ذلك ، فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراه ، ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطنن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن يتعصب لهذا الدين ، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطبقه الروم ولا الترك ولا القرس والمند مع بأسهم ونجدتهم . وقد علمت شدة بآبك صاحب الخرمية وكثرة عساكره وأنه نفسك ، والزم التشيع والبيكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ، ويقول هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عدوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام ، فإنك إذا سبتهما سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطنن عليهما ، فقد اشتقت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك في استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دبدان : هذا هو الرأي ، ثم قال له عبد الله : إن لى أصحاباً وأتباعاً أبشهم في البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع . ويدعون إلى ما يزيد من إحكام الأمر . فاستصوب دبدان ذلك وسر به ، وبث لعبد الله القداح ألف دينار ، فقبل المال وفرقه في كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان ، وسلمية من أرض حصص . ثم مات دبدان ، فخرج عبد الله إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبث الدعاة ، وتقوى بالمال ، وتدبر الحال .

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته . ولما اتصل خبره بوالها أضمر له الشر ، ففر إلى البصرة . وقد عزا القريري^(١) هرب عبد الله إلى ما ظهر منه « من التعطيل والإباحة والمكر والخديعة ، فثارت به الشيعة والمعتزلة ، فكبسوا داره ؛ ففر إلى البصرة » ، وأقام في أسرة حميل بن أبي طالب ، مدعياً انتهاء إليهم ، فقامت حوله الشبهات ، فراحل إلى الشام ، وأقام في سلمية إلى أن مات بها^(٢).

(١) أتمناط الخفيا ص ١٢ .

(٢) يرى في غريبه Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 19. وأن ابنه أحمد أصبح على رأس الدعوة في سنة ٢٧٢ هـ . فلا بد أن تكون وفاته قد حدثت بين سنتي ٢٧٠ و ٢٧٤ هـ .

وقد وضع هيد الله بن ميمون أساس الدعوة لبث عقائد للذهب الإسماعيلي أو مذهب السبعية الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، واجتدع لذلك دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب ، زبدت بسده حتى أصبحت تسعاً في أيام الفاطميين . ولم يمت هيد الله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الإسلامية على ما سنرى .

خلفاء ابن ميمون القدامى :

لما مات عبد الله بن ميمون القدامى خلفه في رئاسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد^(١) . ويرى ابن النديم^(٢) أن الذي خلف عبد الله ابنه محمد . وذكر ابن عذارى^(٣) ، وللقريزي^(٤) والنويري^(٥) أن أحمد هو الذي خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلح . ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلية مركزاً رئيساً لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرئاسة الدعوة بها ، كما عين ابنه أحمد أبا الشلح لرئاسة الدعوة في حضن مدن العراق ، وخاصة الكوفة وبغداد ، وعين أحد أولاده لرئاسة الدعوة في فارس . ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبا الشلح برئاسة الدعوة في سلية والعراق . ومن ثم انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ ، وأصبح وصياً على سعيد ابن أخيه الحسين الذي يزعم بعضهم أنه هيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين . وقد بث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في بلاد اليمن ، كما بث أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن لتلقي أسول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب .

ولا غرو فإن جهود الإمامية قد ظهرت ظهوراً بيناً منذ وفاة الإمام الحادي عشر سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، مما حدا بالخلفاء العباسيين إلى تضيق الخناق على الشيعة عامة ، فاضطرت طائفة الإسماعيلية إلى مفاداة سلفية^(٦) مركز دعتهم ، ومواصلة جهودهم في بلاد أكثر صلاحية لبث هذه الدعوة ، وهي شمال إفريقيا .

(١) القريزي : مخطوط ج ١ ص ٢٤٨ ، ورافقه على ذلك النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ج ٢٦ ص ٢٤ .

(٢) القهرست ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٢٩٤ .

(٤) مخطوط ج ١ ص ٢٤٨ .

(٥) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٤ .

(٦) يفتخ السني واللام وسكون اللام وفتح الهاء : كما حققه ياقوت في معجمه ، هي من أحوال حياة من بلاد الشام .

ولا شك في أن الجهود التي بذلها الشيوعيون لتأسيس خلافة علوية فاشلة قد قضى عليها ؛ فلم ير الأئمة بدا من الاستتار ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حق ونقمة . والآن شرع في بيان الأسباب التي من أجلها وقع اختيار الشيوعيين على شمال إفريقيا ابتغاء نجاح دعوتهم ، ثم نأخذ في الكلام بعد ذلك على سبب الإسماعيلية أو العاطليين ، وهو اللفظ الذي اصطلاح المؤرخون على استعماله إذا ما تناولوا الكلام على هذه الأسرة .

٦ — أسباب نجاح الدعوة السبعية في المغرب :

كان لأدارة — على ما ذكرنا — أول من أسس سلطاناً من العلويين ؛ فأقاموا دولة الأدارة في شمال إفريقيا (المغرب الأقصى) سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م) ، وحذا حذوم ذوو قرطام من الزيدية في بلاد اليمن . أضف إلى ذلك أن شمال إفريقيا التي أقطعها هارون الرشيد إبراهيم بن الألب قد استقلت استقلالاً فعلياً ولم تكن خاضعة للعباسيين إلا في الاسم فقط .

ثم أقام إبراهيم دولة دام سلطانها رهاء مائة سنة ١٨٤ — ٢٩٩ هـ (٨٠٠ — ٩٠٩ م) . وعلى الرغم من أن حلفاءه اكتفوا بلقب الإمارة ، بلغت قوة الخليفة العباسي من الضعف بحيث لم يعد قادراً على التدخل في أمور هذه الولاية ، مكتفياً بذكر اسمه في خطبة ونقشه على السكة . وهدان المظهران هما كل ما بقي للخلافة العباسية في جميع البلاد الإسلامية التي زال عنها نفوذ بغداد .

ضعفت قوة الدولة العباسية لاستئثار الموالى من الأتراك بالسلطة دون الخليفة ، وأصبح في يدهم نولية الخليفة وعزله وقتله ؛ وغدت البلاد مرتعاً للقنوض والقتال ، وصارت السلطة العسكرية في حاضرة الدولة — وقد أصبحت ملهى يلهو به المتنافسون — . من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادراً على الدفاع عن حاضرة دولته ، وقد هدها الزنج وأضرموها نار الثورة التي دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥ — ٢٧٠ هـ (٨٦٩ — ٨٨٣ م) عرضوا فيها كيان الدولة للخطر ، كما أصبحت دنيا القرائت تحت رحمة العصابات من قطاع

الطرق الذين أدخلوا الفزع والملع في قلوب الأهليين ؛ وتمدى بلازم إلى محاصرة أمهات المدن كالبحيرة ، والأهواز ، وواسط .

هذه الحالة تكشف لنا عن مبلغ الضعف الذي وصلت إليه السلطة المركزية في بغداد ثم في سامرا (٢٢١ — ٢٥٩ هـ) ، هذه السلطة التي مجزت حق عن المدافع عن الولايات المناخضة لحاضرة الدولة . ومن هذا يتبين مبلغ السهولة التي أقام بها الفاطميون دولتهم في إحدى ولايات الدولة البعيدة عن إفريقية (تونس الحالية) ، لما أصابها من وهن وما اشتهر عن أسرائها من ضعف وإعلال .

« أضف إلى ما تقدم أن البربر ، على ما هو مشهور عنهم من حب لقتال ، وما تمودوه من شغف في العيش ، وما فطروا عليه من عدم إخلاد للنظام ، كانوا — كما بينا — متأهبين للمخاطرة بأرواحهم إذا ما عرض لهم باغت يحرك في نفوسهم ما جيلوا عليه من إقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال . زد على ذلك أن عامل الشراعة الذي فطر البربر على إرضائه ، وما انطوت عليه أخلاقهم من حق وخشونة — كل ذلك جعلهم أسلس قياداً إلى أبي عبد الله الشيعي ، فتمكن من الوصول إلى أغراضه من إثارة حيتهم وإجهاجهم بآل عليٍّ وللهدي »^(١) .

ولا يغيب عن أذهانتنا أن بلاد الأندلس ، التي سهل اسلاخها عن اخلافة العباسية ، بسبب بُسدها عن مركز هذه الاخلافة ، وازدياد نفوذ الأمويين فيها في أواخر القرن الثالث الهجري ، لو بقيت تحت سلطان العباسيين ، لوقفت حبر عثرة في سبيل ازدياد نفوذ الفاطميين في شمال إفريقية .

ولم تتولد أركان السلام بين البربر والعرب النازلين في بلادهم منذ ظهور الإسلام وامتداد فتوحه إلى هذه البلاد . ولا ريب في أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة ، وقد نظروا إلى العرب نظرم إلى القاصب . وزاد اشتعال نار المصيبة هذا السداء . هذا إلى أن البربر في ذلك الحين لم يكن لديهم الميل والاستعداد للأخذ بأهداب الحضارة الإسلامية التي أوجدتها العرب في صدر الإسلام . ولو أخذ البربر بحضارة العرب لكان ذلك قبولا لحضارة الفاتحين .

ولا شك في أن أكبر العوامل التي وقفت في سبيل استتباب الأمن إنما ترجع إلى المحافظة الوطنية التي هي من أخص صفات البربر منذ مبدأ ظهورهم في عالم التاريخ ، والتي أخذت تتجلى شيئاً فشيئاً في الأحقاب المتتالية .

وتتكون البلاد التي يعيش فيها البربر من بقاع رملية وتلال جرداء مجذبة ، لا يمكن أن تخدم بما تحتاج إليه الأمم من الحاجات اللازمة لتقدمها ورفقها ، ولا تبذل من السهل عليها أن تقيم حضارة خاصة بها ، أو أن تتصل بغيرها من الأمم فتتال قسماً من ثقافتها . هذا إلى أن بلادهم لم تكن لتصلح إلا للإمداد بما تتطلبه الحياة البدوية — اللهم إلا إذا استثنينا هذا السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط ، وجل سكانه من أصول مختلفة : من فينيقيين وقرطاجنيين وإغريق ورومان ، إلى ونڊال ، وهم من أصل جرمانى ، وحرب — فقد كان قرب هذا الجزء من الساحل الأوربي سبباً في أن تيسر لسكانه أن يتقبسوا شيئاً من رقى الأمم المجاورة .

ولست فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهليين بأقل أهمية مما تقدم . نعم ! لم يكن قيام الخوارج من البربر في وجه الولاة خروجاً على الدين ، بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة لظلم الولاة لهم وفرضهم ضرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين . كما أنهم لم يمدوا ما كانوا يؤملونه ثمناً لما قاموا به من تضحيات في حربهم مع العرب ، ولم يمدوا في ولائهم ما يحببهم إليهم . فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للسود ، لا النظير للنظير ؛ فكان كل ذلك مما أعدهم لقبول المذهب الشيعي . على أنهم لما ساءم أمر الولاة ، رفعوا الصوت تنديداً بهذه السياسة الخرقاء وبشوا شكواهم إلى الخليفة العباسي في بغداد .

ولما كانت بغداد بعيدة عن بلاد المغرب ، لم ير الخليفة — لما حل به وبدولته من ضعف ووهن — شكواهم أدناً مصنية ؛ فعموا تارة إلى الاحتجاج وتارة بالسيف . وسهلت كراحتهم للعرب انضمامهم لأبي عبد الله الشيعي ، الأمر الذي ساعد على تأسيس الدولة الفاطمية بالقيروان . وقد أصاب نيكلسون حيث يقول : « لم يعد من الصعب أن يمرض البربر على محاربة الذين لا يمكن اعتبارهم إلا مقطعين في أرض الوطن » ^(١) .

بما تقدم نستطيع أن ندرك كيف هيأت الأحوال في إفريقية دخول كثيرين من البربر في حظيرة المذهب الشيعى بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل . ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية على يد أبى عبد الله الشيعى ، حتى إذا ما وصل بلاد كتامة (أو كتامة)^(١) سنة ٢٨٨ هـ (٩١٠ م) التي حرثها الحلوانى وأبو سفيان من قبله ، وجد هذه البلاد موطأة ممهدة له .

وقد ذكر ابن الأثير^(٢) والقريزى^(٣) أن أبا عبد الله جعفر المصادق بن محمد بعث هذين الداعيين (الحلوانى وأبا سفيان) سنة ١٤٥ هـ وقال لهما : « إن للرب أرض بور ، فأذهبها فأحرثا حتى يرمى . صاحب البذر » . والفترة بين دخول هذين الداعيين بلاد للرب ودخول أبى عبد الله الشيعى ١٤٣ سنة (١٤٥ — ٢٨٨ / ٧٦٢ — ٩٠١) .

وفي الحق أن هذه الحالة السياسية التي سادت شمال إفريقية ، وميول بنى كتامة الدينية الذين أثمرت وأينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة قبل أن تنطأ قدم أبى عبد الله أرضهم — كل ذلك مهد السبيل للمهدى ليظهر للناس كأنه المهدى المنتظر وسليل آل على ، ويحقق بذلك الأغراض التي كان يرى إليها من نشر دعوته .

ولا يفوتنا ما كان من ضعف قوة الأشراف في شمال إفريقية ، وما أبداء دعاة الشيعة من نشاط وهمة كان لهما أثر بعيد في اكتساب ولاء القبائل على اختلافها ومعونة رجالها الذين عرفوا خيرتهم وتمصيحهم — فكان اجتماع كل هذه الأسباب فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس خلافتهم .

٧ — نجاح الدعوة السبعية في إفريقية :

كانت الفترة التي تخللت سنتي ٢٨٨ و ٢٩٦ هـ (٩٠١ — ٩٠٨ م) فترة جهاد مستمر ، سلك فيه أبو عبد الله^(٤) سياسة الحزم والعزم .

(١) انظر كتاب الأنساب لبسماني (ص ٤٧٤ ب و ٥٧٥ ا) لمحنة أسل هذه بالثبيلة وصحة نطق هذا اللفظ .

(٢) ج ٨ ص ١١

(٣) انماط الحما ص ٢١ .

(٤) أطلق مريد بن سعد على أبى عبد الله الشيعى اسم السورق أو المحتسب .

انظر الأحكام السلطانية لماوردى — طبعة مصر (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) والفلقشتاى (ج ٢ ص ٤٨٧)

البحر الأبيض المتوسط

بحر بنسطنطين
(البحر الأسود)

البحر الصغير

البحر

بالألفبائية
لتوضيح الفتح المسطوح

وأبو عبد الله الشيعي هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، من أهل صنعاء بالمين ،
وقد اُلقب الصنعاني . وكان أبو عبد الله يستحق أول الأمر عقائد الانثاء عشرية ، كما كان
يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم هذا المذهب قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية .
كما كان يطلق عليه أيضاً اسم الصوفي ، لأنه كان يلبس الأردية الخشنة ورمقات
الصوف . وقد ولى الحسبة في بعض أعمال بغداد ، فلما اتصل بمحمد الحبيب أبي عبيد الله
للهدى ، آانس فيه الكفاية والذكاء ، فأوفده إلى بلاد المين سنة ٢٧٨ هـ ، فاتصل بابن
حوشب داعي دعاة الإسماعيلية في هذه البلاد وصار من كبار أصحابه .

فلما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبي سفيان داعي الإسماعيلية في بلاد المغرب ،
عهد إلى أبي عبد الله الشيعي القيام بالهدوة إلى هذا المذهب ، وقال له : ” إن أرض كفاية
من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا ؛ وليس لها غيرك ؛ فبادر فإنها
موطأة مبهدة لك “ .

غادر أبو عبد الله المين قاصداً مكة ؛ وقد زوده ابن حوشب بما احتاج إليه من
المال . فلما وصل إلى مكة ، سأل عن حجاج كفاية واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون
بفضائل آل البيت ، فغضبهم في ذلك وأفاض القول في مآثر أهل البيت . ثم نهض ،
فسألوه أن يأذن في زيارته لما رأوا من علمه وعقله ؛ فأجابهم إلى ذلك . فأخذوا يترددون
عليه وسألوه أين يقصد ، فأجابهم إنه يريد مصر . فسروا بصحبته ، ورحلوا جميعاً من مكة ،
وهو في كل ذلك يخفي عنهم أغراضه . وما لبثوا أن تلقوا به واجتمعوا على محبته لما

= رنشار المحاضرة لتنوخى (ص ١٥٨ و ١٦٤ و ٢٥٠) لمرة واجبات المحاسب ، ومقدمة ابن خلدون
(ص ٢٢٥ — ٢٢٦) والمقرري : خط (ج ١ ص ٢٦٢ و ٤٦٤) . وذكر ابن الأثير (ج ٨
ص ١١) وغيره أن أبا عبد الله من أهل صنعاء ، وقد اتصل بمحمد الحبيب أبي عبد الله أول الخلفاء
الله طمين ، فأرسله إلى المين ، وهناك صاحب ابن حوشب بعدد وصار من كبار أصحابه . ولما كانت
تلك البلاد خالية عن يقوم بهت الدعوة فيها من عهد وفاة الحلواني وأبي سفيان ، بعث به ابن حوشب إلى
بلاد المغرب .

على أن ابن خلدون (ج ٤ ص ٢٢) خالف حبيب بن سعد ، فقال إن أبا عبد الله (أبو العباس)
هو المحاسب ، وكان يؤدي أعمال هذه الوظيفة في أحد أعمال المصرية ، وأن أبا عبد الله كان يعرف بالمعلم ،
لأنه كان يقوم بتعليم مذهب الإمامية قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . أما المقرري (خط ج ٢ ص ١٠)
فقد خالف ابن خلدون في هذه المسألة ، فقال إن أبا عبد الله نفسه كان محتسباً في أحد أعمال بغداد ، لا المصرية .

رأوا من ورعه وزهده ، وهو في ذلك كله يسألم عن أحوال بلادهم وعن مبلغ إطلاعهم لأمرهم ، فقالوا : « ليس له علينا طاعة ، وبيتنا وبينه عشرة أيام » .

وقد استطاع أبو عبد الله بما جبل عليه من مكر ، وما وجهه الله من ضروب الخيل ، أن يعرف منهم أن حمل السلاح كان كل مهمم ، وبهذا كله أتبع له أن يقف على جميع أحوالهم . فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ؛ فنشق عليهم فراقه وسأله عن حاجته بمصر ، فقال إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم ؛ فقالوا له : « فأما إذا كنت قصد هذا ، فإن بلادنا أضع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك » . وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسهر معهم ؛ واستأنفوا السهر حتى أصبحوا على مقربة من بلادهم كتابة — وهي في بلاد الجزائر اليوم — وقد خرج إلى لقاءهم أصحابهم الذين أينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل .

ولما وقف القوم على حال أبي عبد الله ، أحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام ، ورجعوا في نزوله عندهم واقرعوا أيهم يضيفه . ولما بلغوا أرض كتابة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، تنافت كل منهم على إنزاله في بيته ؛ فسألم : « أين فيج الأخيار ^(١) ؟ » فدلوه عليه ، فقصده ، وسار إلى جبل إيكجان ، فترجل بفج الأخيار . وهنا قال لهم : « هذا فيج الأخيار ، وما سعى إلا بكم ؛ ولقد جاء في الآثار للمهدي هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من السكبان ؛ وغروجهكم في هذا الفج ، سمي فيج الأخيار » . فتسامت به القبائل وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره ؛ وما لبث أن كشف عن قصده ، فقال لرجال كتابة : « أما صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني ^(٢) ، الذين أرسلهما الإسماعيلية لبث الدعوة في

(١) في جبل إيكجان في أرض كتابة (على مقربة من مدينة تستطيه ، تعرف بمناعتها . يسكنها قائل من كتابة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت كبيرة أهلها بالسكان) انظر البكري (ص ٦٣ و ٦٤) ، وفيه أقام أبو عبد الله الشيء وساء دار المحرة . وقد سمع ياقوت بعض الناس يطلقون عليه إيكجان ، وذكره المقريزي في انساب الختماء (ص ٣٢) ، ونقله أوليري (O'Leary) أنكجان ، وهو خطأ .

(٢) يث محم الحبيب أحد أشيعة ، ويدهي رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب النكوف إلى اليمن ، ليشر الدعوة للمطمين ويعلن للناس أن قد حان ظهور المهدي ، فظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ ، ونجح ابن حوشب في مهمته ، حتى اعتقد الناس في المهدي من آل علي وفي صفاته . وسرعان ما أبنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة وتقلب على أدلب بلاد اليمن بما فيه بناء ، ودعا نفسه المنصور ، وبعث للدعاة إلى كافة بلاد اليمن والعمامة والبحرين والسند والمند ومصر وشمال إفريقيا — ابن خلطون (ج ٤ ص ٣١) والمقريزي : انما الخفا (ص ٢٧) .

بلاد كتامة^(١) . فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم ، وأنته القبائل من كل مكان^(٢) .
أما ونحن بصدد الكلام عن فجع الأخيار ، نجد بنا أن نذكر كيف قام الإسماعيلية
بيث دعوتهم . كان الإسماعيليون يبعثون بالدعاة من سلبية ، مركز حركتهم الدينية إلى
كافة الأنظار الإسماعيلية . وقد اتخذ هؤلاء الدعاة دار هجرة في كل قطر ؛ فأتخذوا دار هجرة
في نجران ، وفي سواد الكوفة ، وفي جبل لاعة باليمن ، وفي بلاد تركستان وعلى الأخص
في الجزء الشرقي ، وكذلك في بتجاب ، وبجباي ، حيث لا يزال يمثل أغا خان طائفة منهم
إلى الآن .

ولما دخل أبو عبد الله الشيعي بلاد المغرب ، اتخذ دار هجرة في فجع الأخيار في
إيكجان الواقع في بلاد كتامة بإفريقية^(٣) . وكان يطلق على إيكجان منذ قديم الزمان
Tzajjan ، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى . وفي هذا المكان
اتخذ أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة ، وهو مركز حركته وجمع أنصاره من البربر . ويرجع
ذلك — على ما ذكرنا — لسذاجة البربر وعدم استمدادهم لفهم مذهب الإسماعيلية
بدرجاته المختلفة للدرجة في الصعوبة ، كثيرهم من أهالي الإسماعيلية — كفارس ومصر .
فليس من عجب إذا لم يتمسق البربر في فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التي تحتاج إلى
إعمال الفكر ، وإنما احتفوه لأول وهلة مدفوعين بمبادئهم للأغالبية السنية . فلم يكن نعمة
ما يساعد على رسوخه في نفوسهم ، مما أدى بهذا للذهب إلى الزوال من بلاد المغرب ،
حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر^(٤) .

وعلى الرغم من مساعدة الكتامين وغيرهم من القبائل المجاورة ، كان مركز أبي عبد الله

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) .

(٢) البكري : المغرب ص ٦٣ - ٦٤ . القرطبي : اتعاظ الخنا ص ١٣ .

(٣) Gantier, Les Siècles Obscurs du Maghreb, p. 318.

(٤) إني مدين ببعض ما جاء هذه العبارة إلى المسير لوى ماسينيرو الأستاذ بكلية قرطبا (M. Lomès)
Massignou, Professeur au Collège du France) . وقد دارت بيننا محادثات على موضوع هذا
الكتاب في منزله بباريس سنة ١٩٢٥ .

ذكر القرطبي (اتعاظ الخنا ص ٣٢) ، في كلامه على دخول أبي عبد الله الشيعي أرض كتامة ونزوله
فيج الأخيار ، أن أبا عبد الله خطب أهل كتامة ، مدداً مآثرهم مشيداً بفضل بلادهم في العبارة التي
ذكرناها قبل .

محوطاً بكثير من المصاعب . فقد أثارت مساعدة هؤلاء لهوته حنق كثير من زعماء المعارضة وقتها . على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، لما أوتي من الفصاحة والعلم والذكاء ، كما تمكن من القضاء على المؤامرات التي حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته . فنكأر الداخلون في طاعته رغبة أو رهبة ، وتوافرت جموعه ، وقوى أمره ^(١) ، واستقام له أمر البربر وعامة كتامة ^(٢) .

ولم يدخر إبراهيم الثاني الأغلب (٣٦١ - ٣٨٩ هـ) وسماً في القضاء على دعوة أبي عبد الله الشيعي ، فحاول أن يحذره إليه أول الأمر ، وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها . فلم يحبه أبو عبد الله إلى ما طلب ، ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغلب ^(٣) . ومن ثم أخذ الأغلبية يرسلون حملاتهم لمحاربة الإسماعيلية . وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٣٨٧ هـ ، أي قبل وفاة إبراهيم الأغلب بستين ، وكان النصر فيها لحليف أبي عبد الله . ولكن إبراهيم الأغلب عول على مواصلة القتال ، فأرسل جيشاً آخر ، لكنه لم يلبث أن حلت به المزمعة ^(٤) .

وفي سنة ٣٩١ هـ (٩٠٣ م) بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي الحربية ، فوقعت في يده مدن عدة . وساعد على تقدمه في المتوح موت إبراهيم بن الأغلب (سنة ٣٩١ هـ) ، ولحق ابنه أبي العباس به ، وتولية ولده زيادة الله الذي قضى أيامه في اللهو والترف ، على حين كان وزراؤه لا يبالون إلا بتضاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم . ولا غرو فقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبيد الله على قمع الأغلبية ، ومد نفوذه على أكثر أجراء هذه البلاد ، والمخاهرة بأن ظهور المهدي قد آن أوانه .

رحيل عبيد الله المهدي إلى المغرب :

غدا الشيعيون في ذلك الوقت (سنة ٣٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٠٨ .

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ج ٥ ورقة ١٥٥ .

(٣) وردت هاتان الرسالتان في كتاب نهاية الأرب ، مخطوط مدار الكتب المصرية ، ج ٢٦ ورقة ٣٦ .

(٤) انظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ - ٢٧ .

الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان^(١) ؛ واتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوي على الحكمة وبُعد النظر وإقرار المدل بين الناس ، كما يتبين من هذه الحكاية التي رواها ابن عذارى^(٢) ، وهي أن أبا عبد الله لما استولى على مدينة طينة في سنة ٢٩٣ هـ ، أتاه وإلى هذه المدينة مع بعض عمال الجباية وأعطوه الأموال التي جمعوها من الأهليين ، فقال أبو عبد الله لأحدهم : من أين جمعت هذا المال ؟ فقال له من المشور ، فقال أبو عبد الله : إنا المشور محبوب وهذا عين ، ثم قال قوم من ثقات طينة : اذهبوا بهذا المال ، فايرد على كل رجل ما أخذ منه ، واعطوا أهم أمناه على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة المشور معروفة في أخذه وتفرقه على ما ينصه كتاب الله عز وجل . ثم قال لآخر : من أين هذا المال الذي بيدك ؟ قال : جيبته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم ، فقال : وكيف أخذته عينا ؟ وإنا كنا يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من لبي ثمانية وأربعين درهما ، ومن للتوسط أربعة وعشرين درهما ، ومن للفقير اثني عشر درهما ؟ قال له : أخذت المين عن الدرهم بالصرف الذي كان يأخذه عمر رحمه الله ، فقال أبو عبد الله : هذا مال طيب ، ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه . وقال لمن أتاه بمان الخراج : هذا مال لا خير فيه ولا فني له ولا خراج على المسلمين في أموالهم . ثم أمر ثقت أهل طينة برده على أهله ، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنهما قبضت الأسماع على الأسنان الواجبة في الصدقات ، ثم بيعت أثمانها ، فرضى بذلك وجوزّه . فلما نظر أهل طينة إلى قلبه سروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة . وانتشر فعله في نواحي إفريقية ، فتأقت أنفسهم إليه وكتبوه ودخلوا في طاعته .

ومما يدل على حسن سياسة أبي عبد الله الشيعي ، هذا الحديث الذي دار بينه وبين أخيه أبي العباس حين أراد أن ينشر المذهب الإسماعيلي بين الناس عن طريق العنف والإكراه ، فتمه أبو عبد الله . يقول النويري^(٣) : ولما وصل أبو العباس ، أراد أن يبنى

(١) أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة ، وتشتهر بمساجدها و حدائقها الماء ومبانيها الفخمة — انظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ص ٢٢-٢٧) .

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٧١ .

من القهروان من يخالف مذهبه . فقال أبو عبد الله : إن دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة ؛ فأترك الناس على مذاهبهم .

أخذ أبو عبد الله الشيء الرسل إلى المهدي في سلبية يدعوهم الحضور إلى إفريقية^(١) . فرحب عبيد الله بهذه الدعوة ، وقد سمع بدعوته الخاصة والعالم ، فأصدر الخليفة العباسي المقتني الأوامر بالتبض عليه . على أن عبيد الله لم يكده يصل إلى مدينة سجلماسة^(٢) حاضرة بني مدرار حتى قبض عليه أميرها اليعرب بن مدرار وجبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله^(٣) .

ومن الصعب أن نفهم كيف أتبح لعبيد الله المهدي أن يتجنب القبض عليه قبل وصوله إلى سجلماسة ، إذا علمنا أن الأوامر قد صدرت للولاة في مصر وشمال إفريقية بالتبض عليه ، إذ هدد سلطة الخليفة العباسي ، وهو لئالك قبلاد التي سلكها عبيد الله . وقد ذكر عريب بن سعد أن محمد بن سليمان^(٤) قبض عليه ثم

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٢) مدينة بالمغرب الأقصى ، يمرى فيها هراة أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهريين يسلكانها شرقاً وغرباً . وتقع في سهل أرضه سيحة حوله أرباض كثيرة . وتبعد عن القيروان ستة وأربعين فرسخاً . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ . وفي سنة ١٦٠ هـ احتلها بنو مدرار حاضرة الملكهم — انظر البكري (ص ١٤٨ - ١٤٩) .

(٣) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٤) حالف عريب بن سعد غيره من المؤرخين من أمثال أوتيهما (ص ٧٦) والكندي (ص ٢٥٨) وابن الأثير ج ٨ ص ١٣ وأبى الفدا ج ٢ ص ٦٣ - ٦٤ والمقريزي (غلط ج ١ ص ٢٢٧) فقال إن محمد بن سليمان — لا عيسى التوشري — هو الذي قبض على عبيد الله . وقد ذكر الطبري (٣ : ٢٢٥١) أن الخليفة العباسي المكتنق نهب محمد بن سليمان لفرار هارون آخر ولاية الطولونيين من مصر وفي صفر سنة ٢٩٢ هـ هزم هارون وقتل . وفي السابغ من جمادى الآخرة من هذه السنة ، دخل محمد بن سليمان من مصر بعد أن أقام فيها نحواً من أربعة أشهر .

وقد تكلم الكندي (كتاب الولاة ص ٢٢٨) صفة ولاية محمد بن سليمان فقال : إنها بدأت في ٧ جمادى الأولى من السنة التي أتى مصر فيها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ذكر أوتيهما (ص ٧٦) أن مدة ولاية محمد بن سليمان دامت نحواً من ستة أشهر ، خلفه بعدها عيسى التوشري . على أننا نشك في صحة هذا القول ، لأن هذا المؤرخ لم يبين الوقت الذي بدأت فيه ولاية محمد بن سليمان فعلاً .

ونكلم ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ عن هذه الحادثة بإسهاب ، ونقل عنه ، على ما يظهر ، بعض من أتى بعده من المؤرخين كابن حليون والمقريزي . قال ابن الأثير إن عبيد الله لما وصل إلى مصر ، أشار عليه بعض رجال الحاشية في بلاد التوشري ، من اعتنق مذهب الشيعة ، أن يجلس من أن يقبض عليه رجال السلطة في مصر . وبالرغم من هذا التحذير فقد قبض عليه التوشري وهو في طريقه إلى بلاد المغرب ، ولكنه

أطلقه لئلا أخذه منه (١).

وقد زادنا ابن الأثير بياناً في هذه السألة ، فقال إن عبيد الله لما رحل من حلب ، حمل معه مالا عظيماً استطاع أن يرشوه به الولاة في طريقه إلى سجلماسة ويأمن الوقوع في أيديهم (٢). ويظهر لنا أن ابن الأثير نقل هذه العبارة من عريب بن سعيد (ص ٥٢) الذي يقول إن محمد بن سليمان قبض على عبيد الله المهدي وأخذ منه مالا فأطلقه . ونحن نرجح صحة هذا القول ، إذا عرفنا كيف استطاع عبيد الله أن يأمن القبض عليه في مصر ، وفي طرابلس أيضاً ، حيث كتب أميرها إلى زيادة الله بن الأغلب — وقد أمر بالقبض على عبيد الله — يقول : إن عبيد الله هذا قد غادر المدينة ، وأن لا سبيل إلى اللحاق به .

على أن وصول عبيد الله للمهدي إلى سجلماسة ، وهي واحة في أطراف صحراء المغرب الأقصى ، أمرٌ يدعو إلى العجب ، إذ كان يجب عليه أن يسير إلى إفريقية حيث ذاعت الدعوة الفاطمية وكثر أنصارها . وهذا يحملنا على الظن بأن عبيد الله المهدي سلك طريق

= أطلقه لورده ، أو كما قال ابن الأثير ، ما أخذه منه . ولم تكن سلطة الولاة الحديدي (عيسى التوشري) تستقر ثلاثة شهور ، حتى سلها منه ابن الخلويع أحد حواري الطولونيين ، انتهى الترحع منه ففوزده رماه ثمانية شهور (سبعة شهور وعشرون يوماً) على ما ذكره المقرئ في حطه (ح ١ ص ٢٢٧) بعد أن استول على القسطنطينية ، الذي نقل في به إلى أن قص عليه في رجب سنة ٢٩٢ (الطبري ٣ : ٢٢٦٧) وبعث به وسجده من الثوار إلى بغداد ، ففدا عيسى بحيث يستطيع استرداد سلطته ويتحول إلى القسطنطينية ويرحل بدر الإمارة .

أما إلقاء القبض على عبيد الله وإطلاقه ، فلا بد أن يكون جنوفاً قد تم إما في ولاية محمد بن سليمان (محرم ٢٩٢ سنة) أو في ولاية عيسى التوشري (جمادى الثانية - ذو القعدة سنة ٢٩٢) - وقد دامت ولايته ، على ما ذكره الكندي (٢٦٧) ، إلى أن مات سنة ٢٩٧ هـ وعليه ، فإن ما ذكره عريب بن أن عبيد الله سار إلى بلاد المغرب في ولاية محمد بن سليمان ، لا يترك محلاً للشك في وقوع هذه الحادثة سنة ٢٩٢ هـ ، بعد الانتصارات التي أحرزها أبو عبد الله الشيعي في شمال إفريقية سنة ٢٩١ هـ كما سبق .

ونحن نرى أن محمد بن سليمان - لا عيسى التوشري - هو الذي قبض على عبيد الله المهدي . يؤكد هذا الرأي ما أورده أوتينا (ص ٧٧) عن محمد بن سليمان ما يؤكد أيضاً ما ذهب إليه عريب بن سعيد . وتتلخص عبارة أوتينا في أن الخليفة العباسي المكتنق قبض على محمد بن سليمان ، إذ اتهمه بمال أخذه من سراج مصر . وهذه العبارة ترجح ما ذهبنا إليه من أن محمد بن سليمان هو الذي قبض على عبيد الله ثم أطلقه لئلا أخذه منه . هذا فضلاً عن أن عريب بن سعيد أقدم من كتب عن هذا الموضوع (بعد أوتينا والكندي) من المؤرخين . ولا شك في أن عبارة التي حلقها لنا عما يقام له وزن ويجزم بصحته إذا ما قيس بأقوال غيره .

(١) عريب بن سعيد (ص ٥٢)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣ و ١٤)

الصحراء القدي تحترق القوافل التي تسير بين واحات مصر وواحات المغرب الأقصى ليأمن الوقوع في أيدي الأغالبة . فلما علم أبو عبد الله الشيعي نبأ اعتقاله بسجاسة ، خف إليه وأنقذه من الأسر على النحو الذي يبتاه .

على أن مسألة إلقاء القبض على عبيد الله في سجاسة على يد أميرها إنما ترجع إلى سبب واحد ، هو أن الرشوة لا تجدي مع هذا الأمير بحكم مركزه وما لصفة الإمارة في نفسه من هبة وحرمة ، فضلاً عن أن أمير سجاسة كان سنياً يكره الشيعيين ، أولاًه ارتاب في أمره . فقد أجمع المؤرخون على أن أبا عبد الله الشيعي أرسل في سنة ٢٩١ هـ إلى عبيد الله بمال كثير مما حصل عليه في حروبه من أسلاب وغنائم .

أخذ أبو عبد الله الشيعي يواصل فتوحه مذ رحلت رسله إلى عبيد الله المهدي ، وغدا للحروب التي نشبت بين زيادة الله وداعي الشيعة شأن أجل وأعظم . وفي سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) بسط أبو عبد الله نفوذه على معظم أرجاء إفريقية . وفي يوم الأحد - سهل رجب سنة ٢٩٦ هـ دخل داعي الشيعة مدينة رقادة (وتقع جنوب القيروان ، وهي من أمثال تونس الآن) ، واستقر في دار الإمارة . وبهذا تكملت أعمال الداعي بالنجاح ^(١) . ثم أمر الداعي يجمع ما كان لزيادة الله من مال وسلاح وغيره . ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء في القيروان ورقادة خطبوا ، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة . وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية من هذه البلاد . وأمر الداعي بالسكة فضربت من غير أن ينقش عليها اسم ^(٢) ، بل جعل في أحد وجهيها : « بلغت حجة الله » ،

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) . البكري (ص ٢٧) .

(٢) ذكر الدكتور أولري (Dr. O'Leary, p 63) ، عند كلامه عن الخطة التي حلتها أبو عبد الله الشيعي بعد دخوله مدينة رقادة ، " أن الطقوس الدينية أدخلت في الخطبة ، فزيدت عبارة " حي على خير العمل " ، وأضيفت إليها أسماء " علي " وقاطبة والحسن والحسين . ويظهر أن الدكتور أولري أخذ هذه العبارة من كتاب نيكلسون " تأسيس الدولة الفاطمية في إفريقية " (Nicholson, J. Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa) . وقد أضاف في كتابه أيضاً دى ساسي (De Sacy - Exposé de la Religion des Druzes, I. I, p. CCLXXII) وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد بكب " صلة تاريخ الطبري " لعريب بن سعد القرطبي عن تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . مع شرح بعض الخلفات التاريخية . على أن هذه العبارة لم يرد لها ذكر في النص العربي الذي طبعه مسيو دي غويي (De Goeje) ، ولا توجد إلا في كتب من جاء بعد عريب بن سعد من المؤرخين ، كيجي من سيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٦) والمقريري (مخطوط ج ٢ ص ١١) ، تعاطوا الحسا (ص ٣٨) .

وفي الوجه الآخر : « تفرق أعداء الله » ، ونقش على السلاح : « عدة في سبيل الله » ، ونقش على خاتمه القدي يحتم به : (فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين)^(١) ، ونقش على خاتمه الذي يستخدمه في الطمع على السجلات : (وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته)^(٢) ، وإذا ركب نودي في الجليش : يا خيل الله أركبي . ووسم الخيل على أخصاها : « الملك لله » ، وعلى أعلامه : « سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْلُونَ الدُّبُرُ »^(٣) ، وأقام على ما كان عليه من لبس القرون الحشن والقليل من الطعام العليظ^(٤) .

ظل عبيد الله في حبه بسجاسة ، وأبو عبد الله الشيعي يواصل حروبه وفتوحه . فلما تم لداعي الشيعة ما أراد من فتح ، سار في قوة كبيرة إلى سجاسة لإطلاق عبيد الله المهدي . وفي اليوم التالي ليوم وصوله ، انصل بمساع الداعي نبأ هرب الياسع بن مدرار أمير هذه المدينة ليلا ، وقد حل معه أقاربه وأمتته ، فأطلق الداعي عبيد الله المهدي وابنه أبا القاسم . وقد حامت حول إطلاق عبيد الله للشبهات وتباينت فيها أقوال المؤرخين . فذهب بعض إلى أن الداعي علم بقتل عبيد الله ، فجاء رجل يهودي أظهره للناس باسم المهدي . ولبت شعري أين كانت أبو القاسم الذي ولي الخلافة بعد أبيه ؟ ولم تَمْ يلبها في ذلك الوقت ، وقد كان في سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ بذلك على صحة هذا القول ما كان من مسير أبي القاسم على رأس جيش من المشاة لنزوه مصر في سنة ٣٠١ هـ وما بعدها ، أي بعد هذه الحادثة بنحو أربع سنين .

كان إطلاق عبيد الله المهدي من سجنه بسجاسة في ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ إباناً بزول سلطان بني رُسْتَم في تَاهَرْت^(٥) والأغلبة في تونس ، وقامت الدولة الفاطمية في كل شمال إفريقيا القدي خرج عن سلطان العباسيين .

(١) سورة النمل ١٧ : ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام ٦ : ١١٥ .

(٣) سورة القمر ٤٤ : ٤٥ .

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) . De Sacy, Exposé, tome I .

p. CCLXXXII.

(٥) تاهرت أو تهرت اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما الداعي سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميون بن عبد الوهاب ابن رستم بن هرام (وهرام مولد حيان بن عفان) صاحب تاهرت ، رأس الإطاسية ولما بهم ، وكانوا يملكون عليه بالخلقة .

ولما قرب عبيد الله المهدي من رقادة ، تلقاه أهلها وأهل القيروان ، وسار بين يديه أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة ، فسلموا عليه بالخلافة وبايعوه على الطاعة . ونزل ذلك الخليفة الفاطمي الجديد بقصر من قصور رقادة . وفي يوم الجمعة ذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وجلس في ذلك اليوم رجل يُعرف بالشريف ومعه الدعاة ، ودعوا للناس إلى مذهب الإسماعيلية ، فدخل فيه الناس طوعاً أو كرهاً .

ولم يلبث المهدي أن قسم أعمال إفریقیة على رؤساء كتامة . وسرعان ما دَوَّن الدواوين وجي الأموال ، فاستقرت قدمه ودانت له البلاد .

ولا شك في أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة لدهام الشيعة الذي تأسست هذه الدولة بفضل جهوده وحسن سياسته . ويعزو المؤرخون قتل أبي عبد الله الشيعي إلى أن البلاد لما دانت للمهدي واستقامت له الأحوال ، كف يد أبي عبد الله الشيعي ويد أخيه أبي العباس ؛ فدخل أبا العباس الحسد واستال أخاه إليه ، وأخذ يمرضان على المهدي ، واتفقا على قتله . فوصل خبر هذه المؤامرات إلى مسامع المهدي ، ففرق أنصارها في البلاد وأمر بهم فقتلوا ، ثم قتل أبا عبد الله الدهام وأخاه (الإثنین ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨) .

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تَتِمَّنُوا الدُولَ فَتُحَرِّمُوا » ، وقال صاحب الفخرى ^(١) : وكان المحترع للدولة يكون عنده من الدعاة والتبسط ما تأنف من احتاله نفوس الملوك ، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوضوا به . والتاريخ يبيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي خاتمة أبي مسلم الخراساني ، مع ما عرف من غيرته واتحصاره للدعوة العباسية .

الباب الثاني

نسب الفاطميين

١ — أثر طائفة من المؤرخين الأوروبيين :

إن لفظ الفاطميين الذي عرف به أولاد عبيد الله المهدي ، يشعر في بادئ الرأي بأنهم من أولاد فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهم علويون أيضاً . على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت — ولا تزال — موضوعاً كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين ؛ لما كان من أعيان الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزعتهم السياسية وميولهم الدينية ، يبيد من الحقيقة : اختلاف العلماء في نسب عبيد الله اختلافاً كبيراً ، فهناك جماعة يرون صحة نسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وجماعة ينكرون هذا النسب ، فيرون أن عبيد الله من سلالة سيمون القداح ، أو من سلالة موسى الكاظم . وبهذا نرى المؤيدين لنسب عبيد الله إلى عليّ وفاطمة ثلاث طوائف : طائفة تقول إنه إمام من الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية ، وطائفة تنسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وهم من الإسماعيلية ، وجماعة من السنيين يرون صحة انتسابه لإسماعيل . أما المؤيدون لنسب عبيد الله ليمون القداح ، فهم قلة من الإسماعيلية أنفسهم ، والغالبية العظمى من العلماء السنيين .

بيد أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، نظراً لما خففه لنا المؤرخون الأقدمون من أقوال كثيرة متباينة . ويحسن بنا ألا نرعلها من الكرام من غير أن نمر هذه الدعاوى التي أقامها الفاطميون لإثبات صحة نسبهم شيئاً عما هي جديرة به من عناية واهتمام .

حاول دي ساسي في كتابه (De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, Paris, 1835) أن يلقى قبساً من النور على هذا الموضوع . وكان المصدر الأصلي الذي اعتمد عليه هذا المؤرخ ، هو هذه الشذرات الهامة التي كتبها الشريف أخو محمد^(١) ،

(١) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

وقتلها عنه ابن النديم^(١) ، ونسبها خطأ إلى ابن رزّام ، فظن أنها له ؛ وهؤلاء جميعاً عاشوا في القرن الرابع الهجري .

ولقد نقل النويري في « نهاية الأرب »^(٢) والمقرئ في « انماط الحفا »^(٣) عبارة أخرى بحسن على أن فيها أورده المقرئ^(٤) من أنه قرأ هذا الكتاب بنفسه ووصفه بأنه يقع في مجلد واحد في أكثر من عشرين كراسة ، ما يحملنا على عدم الأخذ بصحة نسبة هذه اللشدرات إلى ابن رزّام .

وقد حاول آخرون ، من أمثال وستنفيلد (Wüstenfeld)^(٥) ودی غويه (De Goeje)^(٦) أن يزيدوا هذا الموضوع بياناً . ولكن ما صادفوه من نجاح في هذه السبيل لم يمتد زيادة عدد المصادر التي اعتمد عليها من تقدمهم من الكتاب ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى هذه الحقيقة ، وهي أن هؤلاء المؤرخين لم يهتدوا إلى رأي قاطع في هذه المسألة ، كما أنهم انشاقوا مدفوعين بميولهم الشخصية ، فلم يجمعوا على رأي واحد في صدد هذا النسب . ويظهر أن ما قام به قابل (Weil) وستنفيلد (Wüstenfeld) في استقصاء هذه الناحية لم يمتد نقل حقائق تاريخية لتغيرم دون أن يبينوا رأيهم الخاص . أما دى ساسي (De Sacy) فإنه يميل إلى الأخذ بصحة نسب الفاطميين إذ يقول : « وهنا يتسنى للمرء أن يضيف إلى هذه الأدلة التي أوردها المقرئ أنه إذا كان عبيد الله دعياً حقاً ، ولم يكن من سلالة عليّ ، فإن أبناءه على الحقيقيين الذين لم يتطرق لليأس إلى نفوسهم لم يفقدوا الأمل قط في أنه سيأتي اليوم الذي يستطيعون فيه أن يؤكدوا حقوقهم ، وأن يهتوا بكشف القناع عن هؤلاء الأدهياء »^(٧) .

(١) كتاب القهرست (ج ١ ص ١٨٦ وما يتبعها)

(٢) المكتبة الأدبية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٤٧ (ب) وما يتبعها .

(٣) ص ١١ ١٤

(٤) المصدر نفسه (ص ١١)

(٥) Geschichte der Fatimiden—Chatsfen, pp. 3—12

(٦) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, Leyden, 1886

(٧) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Introduction, p. 251

وأما دى غويه (De Goeje) ^(١) فإنه اعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجد الخلفاء الفاطميين حيث قال : « كانت لهذه الجرثومة الصنعية القوية قوة هائلة ، هي أن حزبا خامل الذكر عند ظهوره يصبح بدق قليل أسرة حاكمة ، وينتهي بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة في الغرب ... إلى أن يقول : فإنه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة ، قام عبد الله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب ... الخ » . ويقول دى غويه في موضع آخر : « إذا ما تناولنا الكلام على الفاطميين والقرامطة ، فإنما نتكلم عن طائفة واحدة » ^(٢) .

وقد ختم وستفيلد عبارته المسبهة عن نسب الفاطميين بهذه الكلمات التي تبين أنه تردد في تكوين رأي قاطع في هذه المسألة ، بسبب ما جاء عنها من آراء كذب العرب المتناقضة المتضاربة ، حتى ما ذاع منها بين الملوك أنفسهم . ويظهر أن وستفيلد يميل إلى الأخذ بالرأي القائل بنسبة الفاطميين إلى الإمام المهدي المنتظر فيقول : « وكل ما يمكن قوله ، هو أن هذا النسب إلى الإمام المنتظر محتمل بعض الاحتمال ، على الرغم من وجود هذه الحجة المدينة القوية ، وهي عدم اعتراف الشيعة بهذا النسب » ^(٣) .

٢ - رأي الطاعنين في صحة النسب :

ينتسب عبيد الله المهدي — على ما ذهب إليه أخو محسن وغيره من نقل عنه أو لم يميلوا إلى القول بصحة نسب الفاطميين — إلى ميمون بن ديصان الثنوي المذهب الذي ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة .

وقد خلف القداح ابنه عبد الله ؛ ووصفه المقرئى فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب . وقد اعتنق عبد الله هذا — على ما ذهب إليه أخو محسن — مذهب الشيعة ، لا الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابنه محمد ، بل لحية أخذها ليجمع حوله أتباعا ؛ بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهي تكوين دولة فارسية ^(٤) .

Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn, etc. p. 1 (١)

Ibid, pp. 2, 3 (٢)

Wüstenfeld : Geschichte der Fatmiden—Chalifen, pp. 14. 15 (٣)

(٤) المقرئى : خط (ج ١ ص ٣٤٨)

وذهب نيكلسون إلى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية ، كان أقصى ما وصلت إليه هذه المؤامرة القوية الدعائم ، التي تم تنفيذها بمهارة فائقة ، والتي شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي الفارسي الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن ، وقد تملكته نفسه الكرامة في أبشع صورها للحرب ، والاحتقار للإسلام والمسلمين ، مدفوعاً إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة . وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعاً مبادئها كلاً على قدر عقله واستعداداته ، وتعبت بأشد الميول وأقوالها ، وترتزل بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية ، للجمع بين كل الساعطين في صورة مؤامرة ترمي إلى قلب النظام الحاضر ^(١) .

وهذا كله مما حدا ببدا الله بن ميمون — على ما ذهب إليه دوزي Dozy — إلى الصل على استخلاص الحكم ، إن لم يكن لنفسه ، فلأولاده من بعده ، وهذه فكرة — إن صححت — تمد عظيمة ، لأنها تنطوي على الجرأة والإقدام . وقد ساعد على تحقيقها ما وهبه هذا الرجل من مهارة وحيلة ودراية تامة بما في قلوب الناس ^(٢) .

٣ — تأسيس الفرس للهاريين :

أما عن تملق الفرس بأهذاب عقائد المذهب الشيعي أو حزب علي ، فقد أوضح الأستاذ براون السب الذي استأنه إلى ذلك ، معتمداً على ما ذكره دي جوينو في هذا الصدد حيث يقول : « إنني أعتقد أن دي جوينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في المصور التي نتجها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متشعبة بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثوري غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التي أضمرها هؤلاء الفرس لصر ، ثأري الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تسربت بسلام الدين ، فلن يقوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن

Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 271—272 (١)

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. I, p. 8 seq. (٢)

الحسين ، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله ، قد قالوا إنه تزوج من شهر يانوه ابنة يزجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقرينه (طائفة الاثنا عشرية الشائمة الآن في بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية) لا يملكون حق النبوة قط ، بل يملكون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً^(١) .

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي يشير إليها دي جوينو في العبارة الآتية حيث يقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهي أن الملوك بين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم واران آل ساسان من جهة أمهم يبي شهر يانوه ابنة يزجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً^(٢) .

كيف سار عبر الله بن محبوب في تحقيق أغراضه :

أظهر عبد الله بن ميمون القنداح ، الذي يرى بعض المؤرخين نسبة الفاطميين إليه ، الزهد والتشف ، والعلم والتشيع ، فازفة الناس ونجح في تأسيس جمعية سرية . ثم أخذ يعلم الناس أسرار الدهوة التي قسمها إلى سبع درجات (وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعاً في أيام الفاطميين) ، فكثر أنصاره .

وكان عبد الله ودعائه يملكون الناس — كما قدمنا — كلاً على قدر عقله ودينه ومذهبه . فكان الداعي يبدأ بإظهار بعض مشكلات القرآن ، حتى إذا ما طلب الناس منه حل هذه الرموز ، أخذ عليهم اليهود واللواتيق بأن يحملوا هذه الدهوة سرّاً مكتوماً ، ثم طلب منهم أن يدقوا ضربة مقررة تساعده على نشر مذهبه .

وإذا تم للداعي ما أراد ، دخل الطالب في المرحلة الثانية ؛ ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله ، إلا إذا كانت من طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . فإذا وصل الطالب إلى المرحلة الرابعة ، اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم

Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 130 (١)

Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale. p.275 (٢)

التبيين ، ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للإسلام بصلة ، حق يصل به الاعتقاد إلى أن محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هارون من موسى ، أو بمنزلة عليّ من محمد .

اتصل بالوالى خبر عبد الله بن ميمون ، فقصده بالسوء ؛ ففر من فارس إلى البصرة قبل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) ، وأقام في أسرة عقيل بن أبي طالب ، فحامت حوله الشبهات ، فرحل إلى الشام وأقام في سلية حيث ولد له ابن سماء أحمد ، خلفه بعد وفاته .

ولما مات أحمد هذا ، خلفه في الدعوة ابنه الحسين ؛ ولكنه مات بعد قليل ، فقام من بعده أخوه محمد المعروف بأبي الشلمع ، وهو الذى بعث إلى المغرب بأبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس كما تقدم

وكان لأحمد بن الحسين ولد اسمه سعيد ، أصبح في حجر عمه بعد وفاة أبيه . وقد اشتهر اسم سعيد هذا بعد وفاة عمه وكثر ماله وأنصاره ، حتى اضطرت الخليفة العباسى المتعصب إلى التشديد في طلبه ، ففر من سلية يريد بلاد المغرب عن طريق مصر ، فحبسه أمير سجلماسة — على ما ذكرنا — وظل في حبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله الشيعى وذهب به إلى رقادة ، حيث تسمى بالمهدى وتلقب أمير المؤمنين ، وانتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

هذا ما ذهب إليه من يتكرون محبة نسب عبيد الله المهدى إلى عليّ وفاطمة ، إذ يقولون إن عبيد الله المهدى هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان التنوى الأهوازي ، وأصله من الجوس .

وليس هذا كل ما يقوله الذين أسكروا محبة نسب القاطمين . فقد ذكر أخو محسن أن سعيداً — أو عبيد الله — كان ابن حداد يهودى مجهول ، تزوجت أرملة بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون ، فتنبى سعيداً ، وأذبه وعلمه أسرار مذهب الإسماعيلية ، وأوصى الدعاة بطاعته ، وزوجه ابنة عمه أبى الشلمع^(١) .

وقد ذاع قول أخى محسن وأخذ به المؤرخون الذين لا يميلون إلى القول بصحة نسب

(١) القرير ، انماط الحفا (ص ٢١ و ٢٢)

الفاطمين ، مثل أبي بكر الباقلائي^(١) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، وابن واصل^(٢) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) ، والقهي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه « تاريخ الإسلام » .

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من أهل مصر طعنوا في نسب المعز واتصله بعلّ ابن أبي طالب ، حتى إن هذا الخليفة لما وصل إلى مصر ، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم ، وهو ابن طباطبا : « إلى من ينسب مولانا ؟ » فأجابه المعز بأنه سيقتد بجماعهم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه . حتى إذا ما انعقد المجلس في القصر ، سلّ المعز سيفه إلى النصف وقال : « هذا نسبي » ، ثم غرهم بالذهب الكثير وقال : « وهذا حسي » . ومن هنا نشأ القول المأثور « سيف المعز وذهبه » للإشارة إلى بطلان الشيء أو أنه مأخوذ كرهًا .

وقد أسكر دى سنان De Siane^(٣) بالهليل صحة هذه الرواية ؛ لأن المعز لما وصل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) ، أي قبل أربع عشرة سنة ، على ما ذكره ابن خلكان في موضع آخر^(٤) .

ولقد نقل ابن خلكان أيضاً حكاية أخرى تبين مبلغ إسكار المصريين صحة نسب الأماطيين . ذلك أن المزي ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ (٩٧٥ - ٩٩٦ م) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته ، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

(١) كتب القاضي أبو بكر الباقلائي كتاباً سماه « أسرار الباطنية » ، وهو الكتاب الذي أشاد إليه المرمرى (المتقى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ١٦٦ ب) وفي هذا الكتاب من الباقلائي على الفاطميين وأكثر منه تسبيحهم . وتوفى ، عن ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٩) ، و يقداد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .

انظر أيضاً أ. ألفا (ج ٢ ص ١٥١) ، ووستنفلد Wüstenfeld Geschichte der Fatimiden - Chalifen, p 11

(٢) مفرح الكروم في أحبار بني أيوب ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٠٢ ، ورقة ٢٣٠ ب - ودد زوى أيوب الخليلي (المجلد الثاني ج ١ رقم ٩٠) يفتي ما جاء بكتاب ابن واصل عن هذا الموضوع . وقد نشر هذا الكتاب الدكتور جمال الدين الشيال (منظمة جامعة القاهرة) سنة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ .

(٣) Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, English Translation, vol. II, p. 49, n 7

(٤) ج ١ ص ٢٢٦ .

إنا سمعنا نسباً منكراً يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنتَ فيما تدعى صادقاً
وإن تُردِّدَ تحقيقَ ما قلته
أو فدِّعَ الأنسابَ مستورةً
فإنَّ أنسابَ بني هاشمٍ يقصُرُ عنها طمع الطامع^(١)

وقد روى لنا التماي حكاية أخرى تؤيد هؤلاء المؤرخين ، إذ يقول إن عبد الرحمن الثالث الأموي الأندلسي تلقى من التريز كتاباً يسبه فيه ويهجوّه ، ليس لسبب نمره ؛ فكتب إليه عبد الرحمن : « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »^(٢) .
ونستطيع أن نخلص عما ذكره السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب ، إلى أمور أهمها :

أولاً — أن هؤلاء المؤرخين يكادون يجمعون على أن عبيد الله من سلالة ميون القداح ، ويذكرون في الوقت نفسه أن ميوناً القداح وأبناءه كانوا من دعاة الآفة الإسماعيلية المستورين ، ثم اغتصبوا الأمر لأنفسهم .

ثانياً — يرى هؤلاء أيضاً أن عبيد الله وآبائه كانوا من الزنادقة الجوس الذين حاولوا تفويض دعائم الإسلام ، من طريق التأويل تارة ، والقول بالباطن أخرى ، أو عن طريق محاولة إحياء عقائد الجوسية ، أو ما إلى ذلك .

ثالثاً — أنهم يرجعون عبيد الله إلى أصل يهودي ، ويذهب بعض إلى أنه قتل في سجن طاسة . وسنرى أن المعارضين في صحة هذا النسب على شيء من الصواب ، فيما يتعلق بالأميرين الأول والثاني ، وأنهم لم يصيبوا فيما ذهبوا إليه عما يتعلق بالأمير الثالث .

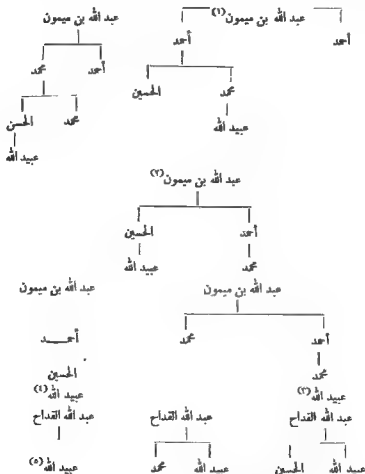
رابعاً — اختلف كثير من هؤلاء المؤرخين في ذكر أسماء آباء عبيد الله ، وفي عدد الأجيال التي تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميون القداح ، المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري ؛ فيقول بعض إنها ثلاثة أجيال ، ويقول بعض آخر إنها جيلان . ومنهم

(١) هو الخليفة العباسي ٣٦٢ - ٣٨١ هـ (٩٧٣ - ٩٩١ م) .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) التماي : بقيمة الدر (ج ١ ص ٢٢٤) .

من يقول إنها جيل واحد فقط ؛ بل إن هناك من يستند أن عبيد الله هو ابن عبد الله القداح نفسه . وهاك أم آراء السنيين الذين يتكرون حجة نسب عبيد الله المهدي ، على ما نراه في الجدول الآتي :



Mamour : Polemics, on the Origins, pp. 137-9 ()

(٢) ابن التميمي : التمهيد ص ٢٦٥

Mamour : Polemics, pp. 137-9. (٣)

(٤) أنباء الزمان في أعيان الزمان ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الحادي : كشف أسرار الباطنية ص ١٩ .

٥ - أقوال المتبعين لصفة النسب :

خالف كثير من الكتاب والشراء وغيرهم من ذوى رأى والجاه من أولاد على بن أبى طالب ، ما ذهب إليه من ذكرنا من المؤرخين الذين يتكبرون نسب الفاطميين إلى على وطالبة إذ اعترفوا بصحة هذا النسب . فيكون نسب عبيد الله المهدي ، على ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون وغيرهم كما يلي : عبيد الله (أو سعيد) المهدي بن أحمد بن إسماعيل بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ^(١) .

والآن نأتى بأشقة من أقوال الشراء والكتاب المعاصرين لفاطميين الذين تصدوا لكلام على هذا الموضوع ، فنذكر الشريف الرضى العلوى ^(٢) ، وناصر خسرو ^(٣) الإسماعيلي المذهب المتوفى سنة ٤٨٩ هـ ، بل عارة البهي الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وكان من غلاة السنيين كما سيأتى عند كلامنا على ما قام به هذا الشاعر في سبيل تأييد سلطان الفاطميين .

أجل ! لقد طعن كثير من المؤرخين والكتاب في نسب مؤسس هذه الأسرة ، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وإبهاماً ، لتشعب آراء الكتاب المعاصرين من العرب على اختلافهم ، لأهم كتبوا متأثرين بسطوة الخلفاء من العباسيين أو من الفاطميين ، ذلك الأمر الذى أدنى بهم إلى إيراد هذه الآراء التاريخية المتناقضة .

وقد أشار كترميز (Quatremère) ^(٤) في كلامه عن أصل الفاطميين بهذه العبارة :

(١) هناك أقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر ، ولا حاجة بنا إلى استقصائها هنا .

(٢) أبو الحسن محمد بن على بن أحمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى ابن جعفر الصادق .

(٣) كان ناصر خسرو إسماعيلي المذهب ؛ زار مصر في القرن الخامس من الهجرة (الحادى عشر الميلادى) . وقد تكلم عن نفسه فقال إنه وصل إلى القاهرة في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) وأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ (إبريل سنة ١٠٥٠ م) . واعتبر القاهرة - كغيره من الإسماعيلية الثلاثة - مركزاً لهذا المذهب ، واعتقد أن الخليفة الفاطمى هو الإمام حقاً . وذكر هذه الحقائق في كتابه " سفرنامه " .

« على أن يُسد الزمن ، وما ساد العقول من أوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من نزعات وميول ، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة : فريق ألف وكتب متأثراً بسلطان الخلفاء العباسيين ، وفريق آخر قام بهذا العمل مجارين أعداء هذه الأسرة — كل ذلك قد أحاط — لسوء الحظ — هذه المسألة بظلام دامس ، لا يستطيع مشعل النقد كشفه إلا بشكل ناقص ميتور » .

وحلى الرغم من تبين آراء الكتاب الأقدمين في هذه المسألة ، فإنني أميل إلى القول — ولو بشيء من التردد — إلى أن نسب الخلفاء الفاطميين إلى فاطمة صبيح ، وأنه بسبب هذا التلو القوي ساد المعتقدات الفاطمية ، هم مناظروهم يدحضون ما ادّعوه من النسبة إلى فاطمة ، عسى أن يحيط ذلك من شأنهم في أعين رعاياهم .

ولا غرو فإن التحيز ليظهر ظهوراً بيناً من ثنايا أقوال الكتاب السنيين ، مما يجعل دحضه أسراً ميسوراً . ولا بأس من أن تأتي في هذا الصدد بمثل أو مثلين من هذه الأقوال : من ذلك ما ذهب إليه السنيون من أن أبا عبد الله الداعي لما علم بقتل المهدي في سجنه بسلماسة ، أجلس على العرش رجلاً يهودياً لا حيية له ، وادّعى أنه الإمام المنتظر . وهنا يسأل المرء : ما هو الدافع الذي حمل أبا عبد الله الشيعي على عدم إجلال أبي القاسم بن المهدي بعد وفاة أبيه ؟ كما نسأل أيضاً : ألم يجد أبو عبد الله الشيعي من يجلسه من المسلمين مكان عبيد الله حين علم موته ، وخصوصاً بالنسبة لابنه ؟ وقد كان هناك من العلويين من يصلح لهذا المركز بدلاً من ذلك اليهودي الذي لا قيمة له ، والذي لا ندرى كيف عثر عليه بهذه السهولة .

نعم لا شك في أن هذا العمل كان من السهولة بمكان ، فضلاً عن أنه لم يكن يتطلب تحته إجراء تغيير أو تبديل في البنية ، لأن حق المهدي يتحول بمقتضى قانون الشيعة إلى ابنه بصورة طبيعية .

وهناك مثل آخر ، وهو ما أشرنا إليه من إحراج ابن طباطبغا للمزبوءة من نسبه ، وما كاث من سل المزسيفه قائلا : « هذا نسبي » ، ونثره الذهب الكثير قائلا : « وهذا حسي » .

هذا مثل من أقوالهم ، ونحن نشك فيه كل الشك ، إذا علمنا أنه لما وصل المرز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ ، أى قبل أربع عشرة سنة من مجيئه . ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين إلى النبي . فقد ساعد اعتقاد الناس في صحة هذا النسب على نشر سلطة الفاطميين الروحية والزمنية — أو كليهما — في كثير من البلاد الإسلامية إلى حد أن نجح الفاطميون في الحصول على اعتراف الناس بهذه السلطة في أكثر بلاد الدولة العباسية ، دون أن يجدوا معارضة من الرأي العام في ذلك الوقت .

ويدهى أن الوصول إلى اعتراف الناس بأن المهدي وخلفاءه هم الأئمة حقاً وأنهم يتصلون بالنسب إلى فاطمة ، راجع إلى ذلك النشاط الذي أداه دعاة الفاطميين . ذلك أنه بعد تأسيس الدولة الفاطمية في القيروان بقليل ، ذهب شعراء الأغلبية المتهتمون من أمثال ابن سدون الوردجي^(١) إلى القول بصحة هذا النسب ، كما يتبين ذلك من هذه الأبيات التي أنشدها هذا الشاعر في حضرة المهدي عبيد الله وأبي عبد الله الشيعي داعي دعائه :

هذا أمير المؤمنين تضرعتُ لتقدمه أركانُ كل أمير
هذا الإمامُ الفاطمي ومن به أمنتُ مفارجهَا من الخذور
يا مَنْ تخمَّر من خيار دعائه أرجاهُ لفسر والبسور

ولم يفتر الخلفاء الفاطميون عن إجزال العطاء للشعراء الذين أشادوا بذكركم وأطنبوا في أحقيتهم بالإمامة . فليس من عجب إذا « أمر المهدي لشاعر بصله جزيئة كانت تجري عليه لكل عام ، ووصله أبو عبد الله أيضاً » . وقد ذكر مسكويه والمقرئ أن نصر بن أحد الساماني أمير خراسان بعث إلى المهدي بكتاب يستقر فيه بسلطته الروحية ويدعو بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا في حسين ألف مملوك يطيعوني ، وليس على المهدي بهم كلمة ولا مؤنة ؛ فإن أسرنى بالسير سرت إليه ، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه وامتنلت أسره ... الخ^(٢) » .

(١) يحتمل أن يكون هذا المقط مشتقاً من وردجتلان ، وهي كلمة بين إفريقية وبلاد الجريد التي يسكنها قوم من البربر وبجستان — الكرى (من ٧٧ و ١٨٢) ويقاوت . معجم البلدان — انظر عقد وردجتلان .
(٢) المقرئ : كتاب المغن الكبير . المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ أ ب .

أضف إلى ما تقدم ما كان من أمر يوسف بن أبي الساج أمير الري — إذا أخذنا بقول كاتبه محمد بن خلف النيرمانى — فقد فكر فى خلع طاعة الخليفة العباسى المتعدي والدخول فى طاعة الإمام العلوى بالقيروان الذى كان أبوطاهر الترمطى — على ما ذهب إليه ابن أبي الساج — من أصحابه وأنصاره . وقد أورد مسكويه هذه الحكاية بشيء من التفصيل ، ونحا المقرئى فيها منحى الإيجاز .

وقد أخبر ابن أبي الساج — على ما ذكره مسكويه^(١) — محمد بن خلف ، أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ، شق عصا طاعة الخليفة العباسى وأظهر الدعوة للمهدى ، ثم دعا الناس إلى الدخول فيها دخل فيه ، وسار إلى بغداد فكتب محمد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب ، فأوصله إلى سامع الخليفة العباسى

غير أنه يظهر أن الخليفة لم يتم بأى عمل إزاء هذا الحادث ؛ بل لقد عطفنا بالتبض على ابن خلف ومصادرة أمواله ؛ وعطفنا أيضاً أن ابن أبي الساج كان يقود الجيوش العباسية ويحارب أباطاهر بظاهر الكوفة (شوال سنة ٣١٥ هـ) ، وأن الهزيمة حلت بابن أبي الساج فأُسِر ثم انتحر^(٢) .

وعلى الرغم من أن عبارة مسكويه لا تدل على أن ابن أبي الساج لم يتم فى هذه الحرب بسبل ينطوى على الصييان للخليفة العباسى ، لا يحول هذا الأمر دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل إلى الدخول فى دعوة المهدى ، ولكن الفرصة لم تكن بعد لأن يقوم بتحقيق مثل هذا السبل .

أضف إلى ما تقدم أن سر داوود بن زيار الديلى ، أحد قواد الأصغر أمير قزوین ، اتقى طرد الأصغر واستولى على بلاده ثم فتح الري وأصبهان — وكاننا من قبل تحت ولاية ابن أبي الساج — قد بث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدى فى إفريقية ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته .

ولقد أورد المقرئى عبارة موجزة تبين منها اتجاه ميول هؤلاء الأمراء إلى ما ادعاه

(١) ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٢ وما يتبعها .

الفاطميون من حق في الخلافة ، مما لا يترك مجالاً للشك في أن نسب هيد الله إلى فاطمة كان اسماً معترفاً به في ذلك الوقت . وقد ختم المقرئ عبارته بقوله إن المهدي ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الأمراء ، فنصح إليهم أن يلزموا سرا كزيم ، كما يظهر ذلك من الكلمات التي كتبها المهدي بيده ، نذكرها في عبارة المقرئ وهي :

« وبحث إليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول : أنا في حسين ألقاً يطيمونني ... وكتب إليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك . وكتب إليه يوسف بن أبي الساج ... وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه ، فوقع على ظهر كتبهم : « الزموا مرا كزيم (لكل أجل كتاب) »^(١) .

أجل ! لقد بلغ نفوذ دعاة الفاطميين في بلاد الدولة العباسية مبلغاً عظيماً ؛ كما كان للعلاقات الودية التي سادت بين الفاطميين والقرامطة في هجر في أيامها الأولى أكبر الأثر في جذب كثيرين إلى اعتناق مذهب الإسماعيلية في بلاد الدولة العباسية . بذلك على حدة ذلك هذا الحديث الذي دار بين علي بن عيسى وزير القائم العباسي ، ورجل من شيراز نعى إلى الوزير أنه كان يتجسس لقرامطة البحرين ويكاثمهم . وقد دار الحديث في حضرة الوزير والقاضي والقواد ؛ وناظر هذا الشيرازي الوزير في هذه الكلمات التي تنقلها بنصها عن مسكويه :

« أنا صاحب أبي طاهر (القرمطي) ؛ وما سمعته إلا لأنه (في الأصل طي أنه) طي حق ، وأنت وأصحابك ومن (في الأصل وما) يتبسكم كفار مبطلون ؛ ولا بد لله في أرضه من حجة وإمام عادل ، وإمامنا المهدي فلان بن إسماعيل بن جعفر الصادق ؛ ولسنا (في الأصل وليس نحن) مثل الرافضة الحقى الذين يدعون إلى عائب منتظر^(٢) . أما الطريقة التي لا ق بها هذا الرجل ضنه فإننا نتركها لخيال القارئ .

ويطلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على قصيدة الشريف الرضي ؛ إذ أمارت حقن الخليفة القادر ، وأدت إلى عقد اجتماع الفقهاء وأقطاب العلويين ، وكتب فيه تحضر (في

(١) سورة الرعد ١٣ : ٢٨ . المقرئ : الملقى الكبير - المكتبة الأهلية بباريس . خطوط

٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ب .

(٢) مسكويه (ج ١ ص ١٨٩) .

ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ^(١) طعن فيه المجتعمون في نسب الفاطميين ، وكانوا في هذا الأمر مدفوعين بسوامل الخوف أو منساقين بجهولهم وعدائهم لهذا للذهب . وقد تلا هذا المحضر محضر آخر يماثله كتب في سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م) ^(٢) .

وهذه القصيدة وإن لم تظهر في ديوان الرضى بآدى الأمر ، فإن تناقل الكتاب لها على اختلافهم يدل على ثبوت نسبتها إلى الرضى .

وقد نقل المقرئ ^(٣) من هلال الصائى وابنه محمد ، أن الرضى لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفاً من الخليفة العباسى وإرضاء لأبيه . أضف إلى ما تقدم امتناع الرضى عن إنكار نسبة هذه القصيدة إليه ، وعاملته في التوقيع على المحضر حين طلب منه التوقيع . كل هذه حقائق تاريخية لها قيمة عظيمة من حيث إثبات صحة نسبة هذه القصيدة إلى الرضى .

هذا إلى أن صرف الرضى عن النظر في المظالم ونقابة العلويين وإمارة الحج ^(٤) ، وما كان أيضاً من إجماع كثيرين من المؤرخين على نسبة هذه القصيدة إليه — كل ذلك يدحض قول البعض من أن هذه القصيدة التى نسبت إلى الرضى لم تكن من نظمه . ولا بأس من إيراد بعض آيات من هذه القصيدة :

ما مثاقى على الهوانِ وعندي يَقُولُ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَيٌّ ^(٥)
أَحْلَى لِلضَّمِيمِ فِي بِلَادِ الْأَعَادَى وَبِعَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْعُلُوِّ
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَاى إِذَا ضَامَنِ الْبَيْدَ الْآمَى ^(٦)
لَفَّ حَرَقَ بِسَرَقَةِ سَيِّدَا النَّاسِ جِيماً مُحَمَّدٌ وَهَلْ ^(٧)

(١) أبو العدا ج ٢ ص ١٥٠ . أبو المحاسن - المجلد الثاني ج ٢ رقم ١ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أبو المحاسن : المجلد الثاني ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٣) امتناظ الحنفا ص ١٦ .

(٤) للمقرئ ، امتناظ الحنفا (ص ١٥ و ١٦) نقلاً عن هلال الصائى .

(٥) كناية عن قدرته اليلاحية وعزة نفسه ودليلاً على تفرد س البيت في بلاد العباسيين .

(٦) يصرح باعترافه بصحة نسب الفاطميين ويرى أنهم أحبابه لأنه منهم ، وأن العباسيين أعداؤه

لأنه غريب عنهم .

(٧) ديوان الشريف الرضى (ص ٩٧٢ و ٩٧٣) . نقل هذه القصيدة من المؤرخين ابن الأثير

(ج ٨ ص ٨ و ٩) ، والمقرئ (امتناظ الحنفا ص ١٦) وغيرها .

ولا يزال هناك فريق آخر من المؤرخين لا يتردد في القول بأن دعوى الفاطميين النسب إلى عليّ قاعة على أساس متين . نذكر من بين هؤلاء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٤ م) ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، والقرنيزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أما ابن الأثير فإنه يحمل لقصيدة الرضى أهمية كبيرة . هذا إلى ما كان من امتناعه عن إنكار نظمها ، ومن توقيعه على المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن الوظائف التى تقلدها من قبل الخليفة العباسى . وزاد ابن الأثير هذه المسألة بياناً فقال إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من الملوك والعلماء بالأنساب ، فلم يربطوا فى أن الفاطميين من أولاد عليّ^(١) .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتصين لمذهب الشيعة ، فقد دحض فى « مقدمته » هذه الأحوال التى أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى البيهدين خلفاء الشيعة بالقبروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والظن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق ، يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفتت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ، تركوا إليهم بالفتح فىمن ناصبهم ، وتفنناً فى الشبهة بمدوم ... وينفلون عن التفتن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التى اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دهوام والرد عليهم ، فإنهم متفقون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكنامة لرضى من آل محمد ، واشتهر خبره وعلم تحويجه على عبيد الله للهدى وابنه أبى القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر ، وأنها خرجا من الإسكندرية فى زى للتجار ... الخ »^(٢) .

أما القرنيزي ، وهو من يدهون النسب إلى الفاطميين ، فقد شدد التأكيد على ما كتبه الكتاب الذين لا يميلون إلى القول بصحة هذا النسب ، بنفس هذه الروح التى سادت

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨ و ٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ .

أقوال ابن خلدون ، حتى إننا إذا وازنا بين عبارتي هذين الرجلين ، تبين لنا أن المقرئى^(١) نقل جزءاً غير قليل مما كتبه ابن خلدون .

أما وقد أوردنا شيئاً غير قليل مما قيل في نسب الفاطميين ، يجدر بنا ألا ننسى الطرف عن عبارات ثلاث أمدنا بها المقرئى في مخطوطه « الفن الكبير » نقلًا عن اثنين من الكتّاب المعاصرين لفاطميين : هما أبو حنيفة النعمان المغربي المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وقاضى قضاة الخليفة المرز وال ثقة في قوانين الإسماعيلية ، والمُسَبَّح المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو أيضاً حجة في تاريخ المصدر الأول من أيام الفاطميين ، ذلك التاريخ الذى لمبت به يد الدهر ، ولم يصل إلى أيدينا منه شيء ، اللهم إلا هذه الشذرات التى نقلها عنه ابن منجب وابن ميسر وابن خلكان والمقرئى وأبو المحاسن وغيرهم .

وتنحصر أهمية هذه الوثائق التاريخية في إثبات شخصية عبيد الله ، وأنه المهدي من آل علي ، الأمر الذى أيدته الدعاة الذين كان يلقاهم عبيد الله أنى سار ؛ كما نفق منها على أن عبيد الله هذا بث معتقدات مذهبه في طي الخفاء ، ليأمن على نفسه للقبض والجس .

وقد أورد لنا أبو حنيفة النعمان المغربي حكاية نقلها عن أبي القاسم الحسن بن أبى الفرج ابن حوشب ، الذى صار فيما بعد داعياً للدعاة من قبيل عبيد الله في اليمن . وكان ابن حوشب ممن يعتقدون أن ظهور المهدي قد آن أوانه ، فذكر ما قاله القهري^(٢) أحد الشعراء في هذا الصدد . فقد ذكر المقرئى أنه أثر عن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم أنه قال في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) أن المهدي سيظهر بعد اثنين وأربعين سنة ، أى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ؛ فبهر القهري من هذا التصريح بأسلوب شمرى ، حيث قال في قصيدة نقل منها هذه الأبيات :

ألا يا شيعَةَ الحق ذوى الإيمان والبر
ومن هم نُصرة الله على التخويف والزجر

(١) مخطوط ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ . انماط الحقا ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) الفن الكبير - المكتبة الأهلية ببائيس ، مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢١٢ ب .

وقد نقل ميرو كترير هذه الأبيات ، ونشرتها المجلة الآسيوية الرسمية في عدد أغسطس سنة ١٨٣٦

(Quatremère : Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123-131).

فمنذ الت والتمس من قطع القول في الذر

لأمر ما يقول لنا من يحس الحد بالبر

واستطرد أبو حنيفة في كلامه عن ابن حوشب حيث يقول : « فخرجت إلى دجلة ، ثم أخذت في قراءة سورة الكهف ^(١) ؛ فأقبل شيخ يمشي مع رجل ما نظرت إلى أحد يملأ قلبي هيبة قبله ؛ فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب مني ، فقلت : من أنت ؟ فقال حسني ^(٢) ، فاستمعت وقلت : بأبي الحسين المخرج (المدرج في الأصل) بالدماء المنوع من هذا الماء . قرأيت الشيخ ينظر إلى ، وتكلم الرجل الذي بين يديه ، فقال لي الرجل : تقدم إلينا افقت وجلست بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذي دار بينه وبين هذا الرجل الطامع في السن ؛ ثم يستطرد في الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظته عليه من رجاحة العقل ؛ ويصف اليأس الذي تطرق إلى نفسه لجله المكان الذي رحل إليه . وبينما ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقضت غياهب الأسي عن نفسه حين حضر الرجل الذي كان في محبة الإمام وأخبره بمقره .

بعد ذلك يصف ابن حوشب ما كان من التقائه بمحمد الحبيب ^(٣) أبي عبيد الله المهدى ، وبعده إليه في سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ م) بإقامة الدعوة له في بلاد اليمن ^(٤) .

وإذا جاز لنا أن نأخذ بمباراة أبي حنيفة النعمان المغربي ، رأينا أن شخصية الإمام كانت ثابتة معروفة لدى أخصائه المقربين إليه ، وأن مكان إقامته كان على الدوام سرا لا يعلم به إلا أنصاره ، لما كان من تشدد الخلفاء العباسيين في طلبه والتقبض عليه .

يبد أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن مسألة مقابلة الإمام مع ابن حوشب ، التي كانت على ما ذهب إليه أبو حنيفة قبل سنة ٢٦٨ هـ (وقد تقابلا لأول مرة في سنة ٢٦٦ هـ) — وهي السنة التي عين فيها ابن حوشب داعياً للدعاة في اليمن — مسألة يحوطها الشك ، إذا كان عبيد الله هذا هو الإمام والمهدي حقا .

(١) القرآن الكريم سورة ١٨ .

(٢) هذا الشيخ هو محمد الحبيب على ما ذكره ابن خلدون (ج ٤ ص ٢١) .

(٣) المقرئ : المقرئ الكبير ، المكتبة الأممية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٢-٢١٣ هـ .

وبما لا نشك فيه أن ولادة المهدي كانت في سنة ٢٥٩هـ (أو ٢٦٠هـ) ، فلم يكن قد بلغ العاشرة من المرحلين لقيه لأول مرة . وإذا جاز لنا أيضاً أن نحزم بصحة هذه الحكاية ، فإن التفسير الذي يمكن أن نفسر به هذه المسألة ، هو أن هذا الرجل للس هو محمد الحبيب أبو المهدي ، وأن هذا الصبي من أولاد الحسين وهو المهدي نفسه . ولا شك أن هذه الحكاية لا بد أن يكون قد دخل عليها شيء من التحوير والتبديل منذ وقع هذا الحادث إلى يومنا هذا .

وهنا نذكر أيضاً ما رواه القريزي مما ذكره المسيحي في حادث آخر ، نتبين منه كيف أن سب المهدي عبيد الله كان أمراً لم ينازع فيه أحد من دعاة الفاطميين وغيرهم من عليّة القوم في مصر ؛ وكان بين هؤلاء طائفة من بلاط الأخشيذ . كما نتبين أيضاً أن رجال البلاط هؤلاء قدموا للمهدي كل ما استطاعوا من معونة ، لا شيء سوى أنه من أولاد عليّ . وبعد أن يقص علينا المسيحي قصته عن وصول عبيد الله إلى مصر ورحيله عنها مختفياً في رى التجار ، يروي لنا حكاية أخرى نقلها عن أحد أحفاد أبي عليّ الهادي^(١) الذي سبب المهدي أثناء مقامه في مصر نقلها للقاري^(٢) فيما يلي :

« وأخبرني بن محمد بن أبي عليّ الهادي أن الإمام المهدي صلى يوماً الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو عليّ الهادي . فلما خرجا من الباب ، ضرب رجل يده على كم الإمام وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار . فقال له : وكيف ذلك ؟ قال : لأتمك الرجل المطلوب ؛ فضحك المهدي ، ثم ضرب يده إلى الرجل الذي ضرب يده إلى كه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أنني إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه ، كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ يده وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ؛ فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة »^(٣) .

(١) إذا صححت سلسلة هذا النسب ، فإن اسم سعيد أبي عليّ الهادي يكون على هذا الوجه . مبارك بن عليّ بن محمود - رسائل الحاكم بأمر الله ، دار الكتب المصرية بالقاهرة . مخطوط (كتب الشيعة ٢٠) ورقة ١٢ ب .

(٢) المقرئ - الملقى الكبير - المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٨ ب وما يتبعها .

ويقص السبى حكاية أخرى نقلها عن هذا الداهى نفسه ، نقلها لقارى أيضاً ، قال : « وكنت يوماً قائماً على الجسر بمصر مع الإمام الهدى ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلاً صفته كذا وكذا ، ونسته كذا - ووصف صفة الهدى - ومن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلالاً طيباً . قال [الهدى] : يا أبا على ! اللقاع بعد هذا هجى ، ثم ركب الجسر ؛ وسرت منه وسأته أن أرحل منه إلى بلاد المغرب ، فقال : على من أذع ، من لى ههنا ؟ فيكيت ، فأنتدنى شعر امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقن أننا لا حقان بقيصرا
فقلتُ له : لا تَبْك عَيْنُكَ إِنَّمَا نحاولُ ملكاً أو نموت فمذراً »

ولسنا نشك في صحة هاتين المبارتين الأخيرتين أوردتهما السبى ؛ إذ يحتمل أن يكون حفيد أبى عبد الله الداهى ، الذى نقل عنه السبى ، قد سمع عن هذا الحادث من جده نفسه أو من أبيه الذى عاش بعد وقوعه بزمان قصير .

ليس من شك في أن غالبية الإسماعيلية يؤيدون نسب عبيد الله إلى على وقاطمة ؛ إلا أن هناك جماعة منهم يقولون إن عبيد الله من الأبناء الروحانيين للأئمة المستورين ، وإنه ، وإن كان إماماً ، فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواء ، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين ، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر ، وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى على وقاطمة .

وفي الحق أننا لا نجد عالماً أو مؤلفاً واحداً من الإسماعيلية الذين ألفوا كتب الظاهر لا يربط نسب عبيد الله بمحمد بن إسماعيل ، ولذلك نرى القاضى النعمان المنرى (٣٦٥ هـ) يؤكد صحة نسب عبيد الله ، في كنبه الظاهرية ، كافتتاح الدعوة الزاهرة ، والداهى جعفر ابن منصور المين ، يؤكد بقوة عبيد الله الجسانية للأئمة المستورين . ويكاد يتفق علماء الإسماعيلية ، الذين يؤيدون نسب عبيد الله ، على أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد ابن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما ذكرنا في كلامنا على هؤلاء الأئمة المستورين في الباب الأول من هذا الكتاب . ولكن هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم في ذكر ألقاب هؤلاء الأئمة ؛ فقد يلقبون أحدهم بالحقى والوفى وغير ذلك ، مع أن هذا غير ذلك .

والصعوبة التي تتعرض للباحت هنا ، أن بعضهم قد يذكر الألقاب ويهمل الأسماء ، مما يشير كثيراً من التوضيح . مثال ذلك ما أورده صاحب كتاب دستور المنجمين - وهو من كتب الإسماعيلية^(١) - عن الأئمة للمستورين الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، فقد اكتفى بذكر ألقابهم ، فقال : هم الرضى والوفى والحق .

والواقع أن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، يكادون يتفقون على أن عبيد الله للهدى هو ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ إلا أن جماعة ممن يدعون الانتصار للفاطميين ينلون في تأييد نسب عبيد الله إلى علي . من ذلك محاولة مامور Mamour^(٢) إثبات أن محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح ، وأن عبد الله بن ميمون القداح هو نفسه عبد الله الرضى . ولعل لمامور بعض المخذل ؛ فقد ألف كتابه في سنة ١٩٣٤ م ، ولم تكن كتب الإسماعيلية السرية خاصة قد انتشرت انتشارها اليوم . ومن ثم لم يقرأ مثلاً « كتاب أسرار النطقاء » للداعي جعفر بن منصور الثمين ، أو كتابي عيون الأخبار ، وزهر اللعاني . للداعي عماد الدين إدريس التنوخي سنة ٧٩٤ هـ ، كما أنه لم يقرأ كتاب غاية الموليد للداعي الخطاطب بن الحسين التنوخي سنة ٥٣٣ هـ ، ليرى أن محمد بن إسماعيل يمثل فرعاً من فروع الأئمة ، وأن القداح يمثل فرعاً من فروع الحبيج أو نواب الأئمة ، وأن هؤلاء غير أولئك ، وأن الإسماعيلية جميعاً لا يوافقون « مامور » على ما ذهب إليه .

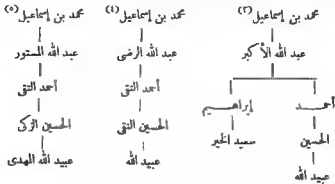
ولا نستطيع أن نوافق على ما ذهب إليه مامور من القول بأن اضطهاد المباسيين للأئمة المبرزين من طائفة الإسماعيلية قد أدى إلى اتخاذ هؤلاء أسماء مستعارة ، وأن اسم محمد بن إسماعيل المستعار هو ميمون . فقد رأينا أن الإمام محمد بن إسماعيل كان في صحة ميمون القداح منذ أيام جعفر الصادق ، وأنه استمر معه في المدينة المنورة ، وهاجر معه أيضاً . ثم هل نصدق مامور ، ومن يرى رأيه فيما زعموه ، ولا نصدق كتب الإسماعيلية الأساسية التي تنقض كل ما قالوه ، والتي تدل على أن مثل هذه الفروض وما ترتب عليها من نتائج لا يقوم على شيء من الصحة ؟ ومع ذلك هل يستطيع هؤلاء أن يفسروا بعض النصوص التاريخية التي تؤكد أن القداحية ليسوا علويين ، وإعائهم جماعة من كبار الدعاة ؟ فهذا الحسن

De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii, p. 204 (١)

Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 68. (٢)

الأعمى الإسماعيلي القرمطي يعلن من فوق منابر دمشق بأن للمزليين الله من سلافة القداح^(١) ، وأن القداح وأسرته كانوا كالقراطة يدعون الأمة للمستورين . هذا إلى أن السواد الأعظم من الإسماعيلية ينفون انتساب القاطميين إلى القداح وأشائه ، ويذهبون إلى أنهم جميعاً كانوا حبيبا للأمة ، والأمة غير الحبيج بالطبع^(٢) .

وقد أوضحت المراجع الإسماعيلية هذه الحقيقة الهامة ، وهي أن الأمة للمستورين لم يكونوا معروفين لتغير خاصتهم ، وأن عامتهم لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأمة . كما أن العامة كانوا يختلفون في ذكر أسماءهم كي يحيطوهم بسياج من المنعة والتخفي ؛ ومع هذا كله فإنهم يكادون يتفقون على ذكر أسماء الأمة الحقيقية في مؤلفاتهم الظاهرية والسرية ، ويتفقون كذلك مع بعض المتدلين السنيين في ذكر أسماء أئمتهم المستورين . وهناك أهم سلاسل النسب عند مؤيدي نسب عبيد الله من الإسماعيلية :



ولكن هل كانت عقيدة انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل ذاتة في عهده ؟ نعم ! كانت هذه عقيدة الإسماعيلية قاطبة ، مع استثناء حدان قرمط ومن على شاكلته ، ممن لم يوافقوا على إمامة حجة الإمام ؛ وهؤلاء كانوا أقل إذا ووزنوا بنهرهم . هذا إلى أن كثيراً من

(١) لا نوافق الأعمى على أن المز من سلافة ميمون القداح إلا إذا تحققنا أن الخليفة القائم ابن لعبيد الله ، وهو ما لم نذهب إليه .

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية حتى سقوط بغداد ج ١ ص ١٨٨

(٣) النيسابورى : استنار الإمام ص ٩٥

(٤) الهادي لإدريس : زهر الملقى ص ٦٤

(٥) Fayzee : A Chronological List (J.B.B.R.A.S. 1934) p. 10

مراجعتنا ترجع إلى العصر الذي عاش فيه عبيد الله ، أو أن مؤلفها أخذوا من عاصروا عبيد الله ، وهؤلاء جميعاً ، إلا قليلاً منهم ، يقولون بانقسام عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل وعلى وقاطمة^(١) .

ونحن لا نستطيع الجزم بأن هذه الحقائق التي أوردناها قد حلت مسألة نسب الفاطميين وأظهرت أنه يرجع إلى على وقاطمة . ولكنه لما كان من واجبنا أن نزود الموضوع الذي تصدينا الكلام عليه بحقائق جديدة ، فقد حاولنا جهدنا . ولا شك في أن هذه العبارات قد ألقت قبساً من النور على نسب الفاطميين ، مما يجعل استقصاء هذا الموضوع أكثر سهولة على من يميلون لزيادة استقصائه .

ولم يصل المؤرخون بعد إلى رأى قاطع عن نسب الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابن ميمون القداح . وعلى الرغم من أن تعاليم هذين الحزبين متشابهة من كثير من نواحيه ، فإن انفصال هاتين الطائفتين بعضهما عن بعض ، والمداء الذي تجلى في هذه الحروب التي نشبت بينهما ، مما يحمل على الظن أن القرامطة مالوا إلى الاسماعيليين وعطفوا على مذهبهم لأغراض سياسية .

(١) حسن إبراهيم حسن ، وله أحد شرف : عبيد الله المهدي ص ١٢٩ - ١٥٢

الباب الثالث

الخلفاء الفاطميون في المغرب

جدول الخلفاء الفاطميين

هجري	ميلادي	
٢٩٧	٩٠٩	١ المهدي أبو محمد عبيد الله
٣٢٢	٩٣٤	٢ القاسم أبو القاسم محمد
٣٣٤	٩٤٥	٣ المنصور أبو طاهر اسماعيل
٣٤١	٩٥٢	٤ العزيز أبو تميم محمد
٣٦٥	٩٧٥	٥ العزيز أبو منصور زرار
٣٨٦	٩٩٦	٦ الحاكم أبو علي المنصور
٤١١	١٠٢٠	٧ الظاهر أبو الحسن علي
٤٢٧	١٠٣٥	٨ المستنصر أبو تميم محمد
٤٨٧	١٠٩٤	٩ المستعلي أبو القاسم أحمد
٤٩٥	١١٠١	١٠ الأمر أبو علي المنصور
٥٢٤	١١٣٠	١١ الحافظ أبو الميمون عبد الحميد
٥٤٤	١١٤٩	١٢ الظاهر أبو المنصور اسماعيل
٥٤٩	١١٥٤	١٣ الفائز أبو القاسم عيسى
٥٥٥	١١٦٠	١٤ المعاضد أبو محمد عبد الله
٥٦٧	١١٧١	

القطايعون

إسماعيل

|

عبد

|

المهدي ١

|

القائم ٢

|

النصور ٣

|

المرز ٤

|

المرز ٥

|

الحاكم ٦

|

الظاهر ٧

|

المستنصر ٨

|

المتولي ٩

|

الأمير ١٠

|

عبد

|

الحافظ ١١

|

الظاهر ١٢

|

الفارز ١٣

|

الماضد ١٣

هبيد الله المهرى (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ)

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة ٢٥٩ هـ^(١) في سلية ، التي اتخذها الإسماعيلية مركزاً لهموتهم . وكان أبوه قد أرسل في سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه ، ويسى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي ، إلى بلاد اليمن ، لنشر الدعوة لفاطميين فيها . وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره ، وذلك بفضل جهود ابن حوشب الذي تنلب على معظم أرجاء اليمن ، وبعث دعائه إلى اليمن والبحرين والهند ومصر والنرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وأبى سفيان داهي الإسماعيلية في بلاد للنرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيبى ، وكان من أهل صنعاء ، بنشر الدعوة في بلاد للنرب . ولما استقر به اللقام في هذه البلاد وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من التجاح ، أرسل إلى سلية يدعو هبيد الله (المهدي) للحضور إلى إفريقية^(٢) ؛ فرحب بهذه الدعوة ، ولكن الخليفة الساسي القنندر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) علم بذلك ، فأمر بالقبض عليه .

من ذلك نفى على مدى العصاب التي لقبها هبيد الله المهدي في طريقه إلى للنرب ، وكيف أفلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زى التجار ، وكيف استغل الأموال الكثيرة التي حملها معه من سلية في رشوة بعض الولاة في طريقه إلى للنرب ليأمن الوقوع في أيديهم ، وكيف أفلت من أيدي عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذي وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه . ولكن اليسع بن مدرار أمير سجلماسة ، قبض على هبيد الله للمهدي وحبسه^(٣) ، ثم أخذ أبو عبد الله يد نفوذه على معظم أرجاء للنرب ، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب سنة ٢٩٦ هـ) ، التي اتخذها إبراهيم الثاني الأغابي (٢٩١ - ٢٨٩ هـ) مقراً لإمارته ، ويستقر في دار الإمارة ، ويزيل نفوذ الأغابة ، ويبطل اسم الخليفة الساسي من الخطابة^(٤) .

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٢) : وكانت ولادته في سنة ٢٥٩ هـ ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلية ، وقيل بالكوفة ، ودعى له بالخلافة على منابر مدينة رقادة في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ .

(٢) عريب بن سعد : مجلة تاريخ الطبرى ص ٥٢

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢ - ١٤

(٤) راجع كتاب Nicholson , : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa

ظل عبيد الله المهدي في حبه بسجاسة ، حتى أطلقه داعي الشيعة (٧ رجب سنة ٨٢٩٦) .

قرب المهدي من القهروان ، حيث سلم عليه أهلها بالخلقة ، وبايعوه على الطاعة ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتلقب « المهدي أمير المؤمنين » . ولم يلبث أن قسم أعمال هذه الدولة على رؤساء كتامة ، الذين ساعدوه على إقامة دولته ثم دوّن المدواوين ، وحسب الأموال ، واستقرت قدمه في هذه البلاد . ولم يكتف عبيد الله المهدي بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر ، وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر . ووضع ، على أثر تأسيس دولته في القهروان ، الخُطط لتحقيق سياسته ، كما عمل على مد نفوذه في جميع بلاد المغرب .

(١) امتداد نفوذ عبيد الله المهدي في بلاد المغرب :

كان احتلال الفاطميين إفريقية (تونس) ، وإزالتهم دولة الأغابة ، خطوة لامتداد نفوذهم شرقاً وغرباً . أما في الشرق ، فقد أخفقت دولتهم في الاستيلاء على مصر في عهد عبيد الله ؛ وأما في المغرب ، فقد عمل الفاطميون على إدخال هذه البلاد في قبضتهم ، بحيث لا يحول بينهم وبين المحيط الأطلسي حائل . لذلك اصطدم عبيد الله المهدي بدولة الأدارسة ، وسام إلى حد كبير في إزالتها ، كما اصطدم مع الأمويين في الأندلس . ولم يكن بد من أن يخضع عبيد الله القبائل الكبيرة في المغرب ، كزنانة وسواها . وعلى الرغم من أن عبيد الله لم يستطع أن يخضع جميع بلاد المغرب لسلطانه ، مهد السبيل للمزدهدين الذي استطاع أن يوحد كل بلاد المغرب تحت لوائه ، وأن يتم ما بدأه عبيد الله المهدي قبله بنحو نصف قرن . وقد مرت المحاولات التي بذلها الفاطميون لإخضاع بلاد المغرب في أدوار مختلفة ؛ وكانت المحاولة الأولى على يد أبي عبد الله الشيعي ، ثم على يد عبيد الله المهدي الذي أخذ يصل على ضم بلاد للترين — الأوسط والأقصى — وجزيرة صقلية ، حتى كادت جميعها تقع في يده .

وفي المرحلة الأولى (٢٩٦ — ٢٩٧ هـ) أزال أبو عبد الله دولة الأغابة عن إفريقية ، ولذلك نراه حين يخرج منها إلى المغرب الأقصى يستخلف عليها أخاه أبا العباس ، كما نرى

جميع البلاد الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى وتونس تخضع له ، أو تظهر خضوعها على الأقل . وبعبارة أخرى « اهتز المغرب لمروجه ، وخافته زناته ، وزالت القبائل عن طريقه ، وأنته رسلم ، ودخلوا في طاعته »^(١) ولكن اليعرب بن مدرار حارب أبا عبد الله فقتله في سنة ٢٩٦ هـ . وبقتل اليعرب آلت بلاده إلى الفاطميين^(٢) . والواقع أن عبيد الله لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في رقادة حتى كان قد « زال ملك بني الأغلب من إفريقية ، وملك بني مدرار من سجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت (بالمغرب الأوسط) ، وملك المهدي جميع ذلك »^(٣) .

وتبدأ للرحلة الثانية (٢٩٧ — ٣٠١ هـ) باحتلاء عبيد الله المهدي العرش ، وتنتهي بمحاولة فتح مصر للمرة الأولى . وقد عمل المهدي ، منذ جلس على العرش في شهر ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ ، على أن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها ؛ فلقب ، على ما يقوله السنيون ، بلقب « المهدي »^(٤) ، وأرسل العمال إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة بالطنج ، ومن يتق بهم من المغاربة . وبما بلغت النظر حقاً ما نراه من نشاط ولاية المهدي في ذلك الحين ؛ فقد ولى على صقلية سنة ٢٩٧ هـ والياً يتق به ، واستطاع هذا الوالي أن ينظم شئون هذه الجزيرة ، وأن يهدد جنوبي إيطاليا ، فيهاجم كلابريا (قلورية ، كما يسميها العرب) ، في سنة ٢٩٩ هـ . وكان من أشهر ولاية المهدي والي طرابلس ووالي برقة ، في المغرب الأدنى ، ووالي تاهرت في المغرب الأوسط . ولكي يتم المهدي إخضاع للمغرب الأوسط والأقصى ، اعتمد على أبي عبد الله الشيبى ، الهذلى وقع في يده كثير من المدن^(٥) . وفي سنة ٢٩٨ هـ قام أبو عبد الله الشيبى على رأس جيش حارب زناتة جنوبي بلاد كتامة^(٦) . ولم يقف الخطر المهدى بعبيد الله المهدي عند هذا الحد ، فترى أهل طرابلس يميلون والى الفاطمى في سنة ٢٩٨ هـ ، ويسير بعض الزناتيين لاحتلالها . ولولا مهارة

(١) المقرئى : أتماظ الحفا ص ٣٨

(٢) الصلح نفسه ص ٢٩

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٢٨

(٤) ابن عذارى . البيان المغرب ج ١ ص ١٥٦

(٥) ابن عذارى : ج ١ ص ١٦٠

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٣

عبيد الله المهدي لوقت طرابلس عقبه كأداء في سبيل سيره إلى مصر ؛ فقد استردها وهين عليها أحد زعماء كتامة^(١) .

غير أن مقتل أبي عبد الله في سنة ٢٩٨ هـ حل المهدي على أن يحدث بعض التبديل في ولايته ، وإحلالهم بنهرهم من يخلصون له . فجعل على المغرب الأدنى — وخاصة برقة — حباشة بن يوسف ، الذي قاد الحملة الأولى على مصر مع أبي القاسم الفاطمي (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وقصد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف قاتل أبي عبد الله الشيعي ، وكان مقره « تاهرت » . وكان موقف عبيد الله دقيقاً ؛ فقد ثار أهل زناته وتاهرت ، كما ثارت كتامة انتقاماً لأبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٩ هـ ، وثار أهل طرابلس في سنة ٣٠٠ هـ وثار أهل صقلية ، وكانوا الخليفة المباسي المعتد ودانوا له بالطاعة . إلا أن عبيد الله المهدي استطاع أن يخرج ظافراً بفضل جهود ولي عهده أبي القاسم (القائم) ، الذي أخضع كتامة ، وغزا طرابلس ، وبفضل إخلاص ولايته الذين هينهم بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي وبفضل دهائه هو . ورغم هذا كله اعتقد عبيد الله ، أنه بقتله أبا عبد الله الشيعي وأنصاره ، وإخضاعه الثورات التي قامت في وجهه على أثر مقتله ، يستطيع أن يمد نفوذه شرقاً إلى مصر . ولذلك أراد يرسل إليها حملته الأولى .

وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تنظيم بلاد المغرب (٣٠٢ — ٣٠٧ هـ) بحملة عبيد الله للمهدي الأولى على مصر ، وتنتهي بحملته الثانية عليها . على أن سياسة عبيد الله قد جرت إلى وقوع الاضطراب في الولايات الفاطمية في المغرب وصقلية ، كما جر عليه مقتل حباشة ابن يوسف شيئاً كثيراً من المتاعب . فقد عز على عروبة أن يكون جزاء أخيه ، الذي أحرز كثيراً من الانتصارات في مصر ، الحبس والتشريد ؛ كما خاف على نفسه وفر من تاهرت — مركز ولايته — في المغرب الأوسط . ولكن عبيد الله المهدي لم يقتله وتبع أنصاره وأنصار أخيه . ويظهر أن قتل حباشة وأخيه عروبة قد أثار الاضطرابات في المغرب ، فاستمتمت برقة على عبيد الله المهدي ، ولم تسلم إلا بعد سنة ونصف سنة^(٢) .

وبهذه في هذه المرحلة أن نقول ، إن عبيد الله المهدي اتخذ من تاهرت بالمغرب

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣

(٢) المقرئ : تماثل الحفا ص ٤١

الأوسط ، مركزاً رئيساً يوجه منه قواته نحو المغرب الأقصى ، وإنه أخذ يجهز في هذا المورد بالأدارة والأمويين . ذلك أن المهدي حين قتل عروبة بن يوسف — واليه على القسم الغربي من دولته — ولي مكانه على تاهرت قائده المشهور « مصالة بن حيوس » ، اتقى بدأ صراعه العنيف مع قبائل صنهاجة ، فاستولى على حاضرتهم « ناكور » أو « نكور » في سنة ٣٠٥ هـ . وكان استيلاء القاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارة ثم مع الصنهاجيين . وليس هذا وحده ، بل لقد بدأ نوع جديد من الصراع السياسي والحزبي بين الأمويين والقاطميين ؛ إذ اتخذ الأمويون بزعامة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) من حرب حكام هذه البلاد إلى الأندلس فرصة لجذبهم إليهم ، ومد يد المساعدة لهم على القاطميين . وهذا يدل على أن الحرب بين الصنهاجيين والقاطميين إنما كانت في الواقع حرباً بينهم وبين عبيد الله من ناحية ، وبين الخليفة القاطمي والخليفة الناصر الأموي من ناحية أخرى . ولا غرو فإن عبد الرحمن الناصر بدأ يلقب نفسه بألقاب الخلفاء ، ويرى أنه لا يقل شأنًا عن القاطميين . وإن من يدرس العلاقة بين القاطميين وبين الأمويين في الأندلس في الدور الغربي خاصة ، يستطيع أن يدرك إلى أي حد أضمر القاطميون العداء للأمويين ، وخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر ، لآله يدين بالعقائد السنية فقط ، بل لآله أخذ ينافس عبيد الله وخلفاءه في ألقابهم وفي نظم حكمهم ، ولأنه كان يعمل على الوقوف في وجه القاطميين ، ولا سيما أنهم كانوا منذ قيام دولتهم في المغرب يرون أن كل شمالي إفريقية مجال حيوي لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم ؛ كما كانوا يرون في الوقت نفسه أن أي تدخل من جانب الأمويين يتعارض مع مصالحهم . أضف إلى ذلك ما كان هناك من عداء بين بني أمية وبني هاشم ، والعداء بين هذين البيتين قديم باقي الأثر ، لم يزهه الإسلام إلا تفافاً .

وكان الصنهاجيون من القوة بحيث كانوا يهددون نفوذ الأغلبية . وقد خشيم عبيد الله المهدي ، فأخذ يتوعد إليهم حيناً ، ويتوعد أحياناً ، ولكمهم لم يثبتوا به . فكان ما قام به مصالة بن حيوس انتقاماً لمولاه عبيد الله المهدي ^(١) . فقد دخل ناكور حاضرة صنهاجة كما تقدم ، وكتب إلى الخليفة القاطمي بما أحرزه من نصر وما حاز من غنائم ، وفر بنو صالح

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٩٨١ .

إلى بلاد الأندلس ولبثوا إلى عبد الرحمن الناصر^(١) . ثم انصرف وعاد إلى تاهرت
بعد أن استخلف على ناكور^(٢) رجلاً يقال له ذلول ، فقصده صالح بن سعيد . . . فقتله
وقتل أصحابه ، وزم ناكور ، « وهادى أمير المؤمنين^(٣) بالخليل والجلال^(٤) » ، وذلك
سنة ٥٣٠ هـ .

أصبح موسى بن أبي العافية صاحب مكتناسة خطراً يهدد الفاطميين في بلاد المغرب
الأقصى^(٥) ، بل كيان الفاطميين أنفسهم . وقد عمل الخليفة المهدي على إنقاذ ملكه في
هذه البلاد وغيرها ؛ فأرسل إليها ابنه وولى عمه أبا القاسم (سنة ٥٣١ هـ) ، ألقى أباد
لفاطميين كثيراً من نفوذهم . وكان عبيد الله المهدي يعتبر عمل القائم هناك جهاداً في سبيل
الله ، كما يتبين ذلك من قوله : « اللهم إنك تعلم أني ما أردت بإخراجه إلى المغرب
إلا أرضاك ونصرة دينك وإذلال أعدائك »^(٦) .

ولى المهدي على المغرب الأوسط وتاهرت واليا آخرهم « حيد بن بصال » ؛ وقد عمل
هذا الوالي الجديد على أن يشمر موسى بن أبي العافية بقوة الفاطميين في هذه البلاد ، فأرسل
من قبله والياً إلى فاس . وقد شجع موسى الثوار على والي الفاطميين الجديد فقتلوه وحلوا
رأسه إليه . فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر الأموي : لأن موسى « كان يميل إلى صاحب
قرطبة من أسراء بني أمية »^(٧) .

(٢) حبيب الله المهرى والدارسة :

ولى يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس ، فبايه أهل فاس ، وخطب له على منابرها ،
واستد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى^(٨) . ولم يبلغ أحد من الإدارة ما بلغه يحيى

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٩٤ Fournel, Les Berbers, tom. ٩٤

II.p.132.

(٢) مدينة ساحلية في مراكش لما موسى فيه جزيرة .

(٣) يقصد عبد الرحمن الثالث الناصر الأموي

(٤) ابن عذاري : البيان للمغرب ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨

(٥) السلاوي : الاستقما لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

(٦) ابن عذاري : البيان للمغرب ج ١ ص ١٩٧

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢

(٨) الاستقما لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ .

الراح الإدرى فى سنة الملك وبسطة السلطان ، حتى ظهر الفاطميون فى إفريقية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى فى عهد عبيد الله المهدي وخلفائه من بعده ^(١) . فقد غزا بلاده مصالة بن حيوس قائد عبيد الله المهدي الفاطمى ، وكان صاحب تاهرت والمغرب الأوسط ، سنة ٣٠٥ هـ ، وفتح تاهرت ^(٢) ، ثم التقى بيجي ابن إدرىس بالقرب من مكناسة ، فحلت الهزيمة بيجي ، وعاد إلى فاس ، فقبضه مصالة وحاصر هذه المدينة ، واضطر بيجي إلى طلب الصلح ، على أن يؤدى إليه بعض الأموال ، ويأجى للمهدي الفاطمى . وولى مصالة بيجي بن إدرىس فاس ، كما ولى موسى بن أبى العافية ، ابن عم بيجي ، وكان قد أعانه فى غزو البلاد الإدارية ، على سائر بلاد المغرب الأقصى . وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الإدارية . ولما عاد مصالة إلى فاس فى سنة ٣٠٩ هـ ، أوجر موسى بن أبى العافية صدره على بيجي بن إدرىس فقبض عليه ، واستصفى أمواله ، ثم ضاه ، فأقام عند بنى عمه بيلاد الريف ، فتصدى له موسى بن أبى العافية وحبه ، ثم أطلقه بعد عشرين سنة ، فقصد إفريقية ومات فى مدينة المهدي سنة ٣٣٢ هـ ^(٣) .

ولما قبض مصالة على بيجي بن إدرىس ، ولى ربحان الكتانى على فاس . ولكن ولايته لم تطل ، حيث تار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدرىس المعروف بالحجام فى سنة ٣١٠ هـ ، واستولى على فاس وقتل ربحان ، فبايحه الناس ودخلوا فى طاعته ، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد ، وتفرغ لقتال موسى بن أبى العافية ، ودارت بينهما عدة معارك قتل فى إحداها ولد موسى . ومات الحسن فى سنة ٣١٢ هـ ، واستولى موسى على ملك الإدارة بيلاد المغرب ^(٤) ، فشابع الفاطميين بإفريقية . ولكن دولة الإدارة ، التى كادت تزول على يد موسى بن أبى العافية من ناحية ، وعلى أيدي الفاطميين من ناحية أخرى ، تحولت إلى بلاد الريف ، وانتظم الأمر لموسى بن أبى العافية فى المغرب الأقصى والأوسط ^(٥) .

(١) ابن خلدون : الجبر ج ٤ ص ١٦ .

(٢) ابن حنبل : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤) ابن حنبل : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٥) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨١ .

ولم يلبث موسى بن أبي العافية أن خلع طاعة القاطميين ، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ؛ وكان قد طمع في امتلاك المغرب الأقصى ، واستولى على سبته ، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده . ولما علم عبيد الله المهدي بذلك أرسل جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يعقل صاحب تاهرت وابن أخى مصالة بن حبوس . وانتهت هذه الحرب بفرار موسى من مدينة فاس ، فولى عليها حيد أحد قواده .

القائم والنصور

بيع أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، وتلقب القائم بأمر الله ، وكان في الثالثة والأربعين من عمره . وقد اضطر الخليفة الجديد إلى إخفاء نبأ وفاة أبيه خوفاً من أن تنتفض البلاد عليه . فجدد الجند في برقة لنزول المشرق ، كما أرسل إلى تاهرت جيشاً يصل إلى ثلثي أقدام القاطميين في هذه البلاد . ولم يكذب موسى بن أبي العافية يعلم نبأ وفاة المهدي حتى أعلن الثورة في بلاد المغرب في مستهل سنة ٣٢٣ هـ . وقتل أحمد بن بكر بن عبد الرحمن الجذامي حامد بن حمدان عامل القاطميين على فاس ، وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية ، فأرسلها بدوره إلى عبد الرحمن الناصر الأموي بقرطبة . كما بسط موسى نفوذه على إقليم فاس وما جاوره من البلاد ، وشن الغارة على الأدارسة في إقليم الريف وبلاد غمارة .

ولما علم القائم القاطمي بذلك سحر ميسور الفقى على رأس جيش كبير لقاء ابن أبي العافية ورده إلى طاعة القاطميين ، فسار إلى فاس في سنة ٣٢٣ هـ ، وعزل أحمد بن أبي بكر وأمره وبعث به إلى المهدي^(١) . وقد حاصر ميسور هذه المدينة سبعة أشهر وتم له الاستيلاء عليها . فلما يقس موسى بن أبي العافية من استرداد فاس ، سار إلى مدينة ناكور واستولى عليها . ولما علم الخليفة القائم بذلك ، أرسل صندل الفقى لاسترداد ناكور وشد أزور ميسور ، وغادر صندل المهدي في جمادى الآخرة سنة ٣٢٣ هـ واستولى على هذه المدينة في شهر شوال سنة ٣٢٣ هـ ، وولى عليها عاملاً من أهل كتامة يدعى سومازو ، ثم لحق بميسور عند مدينة فاس . وفي ذلك الوقت اشتعلت نيران الثورة بمدينتي تاهرت (أو تيهرت) ووهران برعاية

(١) ابن خلون : المبرج ٦ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

عبد بن خَزَر الزناتى ، فلم يستطع أن يشارف فاس ليقتد المغرب الأوسط ويحول دون سقوطه في أيدي الزنانيين ، واضطر الخليفة القائم الفاطمى إلى عقد الصلح مع أهل فاس على أن يدفعوا عشرة آلاف دينار ويدعوا للخليفة الفاطمى على منابر بلادهم وأن يضرخوا السكة باسمه .

ولما تم الصلح غادر ميسور مدينة فاس ليلقى موسى بن أبى العافية ، الذى حالف عبد الرحمن الأموى وأخذ يدعو له على منابر بلاده^(١) . وانضم الأدارسية إلى الفاطميين في قتال ابن أبى العافية عدوم للشرك ، وأسر أحد أبناء موسى وبست به إلى الهدية ، ولحقت به الهزيمة ، واضطر إلى الاعتصام بالصحراء . وأمر الخليفة القائم ميسورا بأن يولى الإدارة على ما فتحه من البلاد^(٢) .

وبعد أن نشر ميسور الفتى السكينة في ربوع هذه البلاد ، يم شطر إفريقية واستولى وهو في طريق عودته على مدينة أرشكول وولى عليها يحيى بن إبراهيم ، ثم سار إلى وهران فاستولى عليها ، كما أغار على تاهرت ، وقضى على ثورة أبى القاسم بن مصالحة ، ثم عاد إلى إفريقية ودخل القيروان في سنة ٣٢٤ هـ .

وفي هذه الأثناء برزت قبيلة صنهاجة وأخذت تقوم بدور بارز في تاريخ الفاطميين ، ولا سيما بعد أن تألب الزنانيون على الفاطميين وانحازوا إلى جانب الأمويين ، واضطر زيرى بن مناد زعيم هذه القبيلة الثورية القوية إلى محاربة كثامة والدخول في طاعة الفاطميين انتقاماً من خصومه الزنانيين ، فدب السون إلى الفاطميين في حرب محمد بن خَزَر الزناتى زعيم بلاد المغرب الأوسط^(٣) . كان هذا في الوقت الذى بدأ فيه الأدارسية يسيطرون نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى ، فيدخلون في طاعة الفاطميين ويدعون لهم على منابر بلادهم ، فدخل الحسن بن أبى العيش مدينة تِلْسان في سنة ٣٢٥ هـ ، كما استولى على مدينة أصيلة في السنة التالية .

في ذلك الوقت الذى كانت فيه جيوش الفاطميين تقاتل في المغرب الأوسط والأقصى وتقرر الأمن والسكينة في ربوعها ، أطلقت فتنة الخوارج برأسها ، واندلع لمبب الثورة على

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨٢ .

Fournel, Les Berbers, tome II. p. 193. (٢)

(٣) انظر Fournel, Les Berbers, tome II. pp. 204-10

أبي يزيد مُخَلَّد كَثِيداء ، من قبيلة زناتة في مدينة تُوَزَّر^(١) . وكانت أمه جارية تنسب إلى قبيلة هواة ، تزوجها أبوه في السودان وأتى بها إلى توزر حيث ولد أبو يزيد ؛ فنشأ في هذه المدينة ، وخالطه جماعة من التكرارية ، فاعتنق مذهبهم . وكان يقضى بتكفير أهل الدين واستباحة الأموال ، وانغروج من طاعة الخليفة . ثم سافر إلى تاهرت ، فأقام بها يعلم الصبية إلى أن خرج أبو عبد الله الشيبى إلى سجلماسة لإطلاق المهدي من سجنه ؛ فانتقل أبو يزيد إلى نفوس ، واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبية من جديد . وفي سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) قهرى أسر أبي يزيد وراجت دعوته لدى بعض قبائل الليبر في نفوس والزاب والقراب الأقصى . وفي عهد خلافة القائم زادت شوكته وكثر أتباعه ؛ فاستولى على محاية وصرمجة وأوقع الهزيمة بقبيلة كتامة ، ودخل سبينة واستولى على الأربس ونهبها وقتل كثيراً من أهلها . وقد أثار استيلاء أبي يزيد على الأربس ، وكان يهدأ أهل المهدي باب مدينتهم ، الملقب في قلوب الأهلين . وبذلك استطاع أبو يزيد أن يسكر بجنده على بعد خمسة عشر ميلاً من المهدي ، وأخذ يباغت المدينة بمحلاته ؛ فانتقل كافة أهلها إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية^(٢) .

انفشرت جيوش أبي يزيد في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) في جل أرجاء الولايات الفاطمية فأصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدي نفسها . وكتب الخليفة القائم يستحث زبرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته ، فلتحق به في للمهدي^(٣) .

بيد أن حسن الحظ ساعد الفاطميين في ذلك الحين ، بانضمام عدد غير قليل من جند أبي يزيد إلى جيوشهم ولحاقهم بهم في القيروان . ولم يعد أبو يزيد يمتد إلا على معونة قبيلتي هواة وبني كلان ، واضطر إلى الارتداد عن المهدي . ويم شطر القيروان التي امتنع عليه أهلها وحلوه على الارتداد مع الغفلة من جنده الذين لم يلبثوا أن هلكوا من الحروع والظلم^(٤) .

(١) أكبر مدائن بلاد المغرب التي تنقسم قسمين : قسطنطينية ، ويتبعها توزر والزاب (انظر البكري ص ٤٨ - ٧٤) ، والمراكشي : كتاب المصنف في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨ .
(٢) انظر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨) وابن أبي دينا (ص ٥٥ - ٥٦) والمقرئ ، اعط (ص ٤٥ - ٥٤) . راجع كتاب المغرب البكري لمعرفة مواقع المدن الواردة في هذه العبارة .
(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ٦٧ و ١٥٠ - ١٥٨) . المقرئ ، اعط (ص ٥٤ و ٥٥) .
(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨) . المقرئ ، اعط (ص ٥٤ - ٥٥) . ابن أبي دينا (ص ٥٥ - ٥٩)

توفي الخليفة القائم في ذلك الحين (رمضان سنة ٣٣٤) ؛ وقد ولد المنصور في القهوان سنة ٣٠٢ هـ (وقبل سنة ٣٠١ هـ) . وكان حين ولي الخلافة في الثانية والعشرين من عمره . وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة وربامة الجأش ، كما استطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب ^(١) . وقد أعفى المنصور موت أبيه إلى حين ، حتى لا يؤثر هذا النبأ في حماس جيوشه ، فبهى الفرصة لأبى يزيد لإحراز النصر ^(٢) . وقد قويت جيوش المنصور وزاد عددها بانضمام قوة صنهاجة إليها ؛ فأتاح ذلك الأمر الفرصة للمنصور ، فأوقع بمحيش الغارحي في سنة ٣٣٦ هـ ؛ قطعت أوصاله ، وطورد أبو يزيد نفسه إلى الصحراء وقبض عليه وبس به إلى المهدي ؛ وهناك مات متأثراً من جراحه (٣٠ محرم سنة ٣٦٦) ^(٣)

وقد تركت هذه الثورة شمال إفريقية في حالة يرثى لها وأثرت في موارد الدولة الفاطمية . ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب ، زالت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء هذه البلاد . ولا غرو فإن موارد الخلافة قد أصابها العطل ، فأصبح بيت المال حلوأ من الصفراء والبيضاء . ولم يكن بد من أن يدأب المنصور على إصلاح ما أفسده أبو يزيد ؛ قضى البقية الباقية من خلافته في إعادة تنظيم البلاد ؛ فسر البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه قبل نشوب هذه الثورة ، وأنشأ أسطولا كبيراً ، وأسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ على مقربة من القهوان ، وأخذها حاضرة لدولته ، وأخذ القاهرة التي بناها جوهر سنة ٣٥٨ هـ حاضرة لدولته .

حكم المنصور سبع سنين وستة أيام ، ومات في يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ ودفن بالمهدي . وقد قيل في سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه لفتزّه ، فاشتد عطول الطر وهبوب الريح ، حتى طأجأ للرض وأوهن جسمه ، ومات أكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية ، أراد أن يدخل الحمام ، فتهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي ، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق ، فأعطاه منوماً فمات ^(٤) .

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٧٧)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) . المقرئى ، التماظ (ص ٥٤) . ابن أبي دینار (ص ٥٩)

(٣) ابن أبي دینار (ص ٦٠)

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٧٧ .

المزدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ)

كان المزدين متقناً بحيد عدة لغات : منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بمزيرة صقلية ، واللغة الصقلية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية . وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، فضلاً عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفي صهده دانت له كافة قبائل البربر ، ولا سيما قبيلتا بني كلان وبني حليلة من قبائل هواة ، وقد أبت أن تدعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل في اكتساب الخليفة المزدين طاعة قبائل المغرب على اختلافها ، إلى هذه السياسة الرشيدة التي سار عليها ، مما ساعد على إقرار خلافته ، وأتاح له القضاء على دولة الإدارة ، بعد أن حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين^(١) .

لم تسكن الأمور قد استقرت بعد الفاطميين في بلاد المغرب . فلم يكن يد من أن يسلم المزدين الله على إخضاعها وإقرار الأمن في ربوعها ؛ وبذلك يستطيع أن يواجه جيوشه إلى بلاد الأندلس ، ثم إلى مصر ، ومد نفوذه إلى المشرق .

وقد قام المزدين الله بمجهود جبارة في سبيل إخضاع جميع بلاد المغرب ، وتم ذلك على مرحلتين ، كان جوهر الصقل بطل المرحلة الأولى ، وزيري بن مناد الصنهاجي بطل المرحلة الثانية . وكانت الأحوال تحتم عليه أن يقوم بسلم جدي في بلاد المغرب الأقصى ، كي لا تضيق هيبة الفاطميين فيها ؛ فقد استطاع الأمويون أن يخضوا كثيراً من أسراء تلك البلاد ، بالقوة تارة ، وبالخدعة تارة أخرى ، منتهزين فرصة بُعد تلك البلاد عن حاضرة الفاطميين .

بدل على ذلك هذا الوصف المتع الذي أورده السلاوي^(٢) عن طريقة توغل نفوذ عبد الرحمن الناصر في شمال إفريقية ، فيقول : « وكانت قوات الناصر تجوز من الأندلس إلى المدوة^(٣) ، يقاتلون من خلف الإدارة من البربر ويستأقونهم ، والناصر محمد مساعد

(١) المقرئى ، انماط الخلفاء ص ٥٩ - ٦١ ، ٦٥ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

(٣) المدوة . يضم السين ، هي الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، وتسمى حدة المغرب ، وتقابلها حدة الأندلس .

لمن هجز منهم برجاله ، مقولان ضعف منهم بماله ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب ، وبايته
قبائله من زناتة والبربر ، وخطب له على مناره ، من تاهرت إلى طنجة ، ما هذا سبطاسة ؟
وبابح الناصر أهل فاس فيمن بابحه من بلاد المدوة .

ولكن يحفظ المرز هيته في شمال إفريقيا ، لم يكن بد من أن يجهز الجيوش ، ويقضى
على نفوذ الأمويين في هذه البلاد .

وتتلخص السياسة التي رعى المرز من ورثتها ، إلى تسيير تلك الجيوش الضخمة بقيادة
وزيره وقائده جوهر ، في اشتراك كثير من الأسراء الموالين للفاطيين ، مثل زيري بن مناد
الصنهاجي ، أمير « أشير » ، وجعفر بن علي الأندلسي ، أمير « المسيلة » وغيرها . كما كان
يرى من وراء تلك الحملة إلى إخضاع الأسراء للتأثيرين على الحكم الفاطمي .

وكانت وجهة هذه الحملة بلاد تاهرت للانتقام من واليها الفاطمي ، يعلى بن محمد الزناتي
الذي ظل على إخلاصه للناصر الأموي . لذلك قاوم الجيوش الفاطمية ، فأسره جوهر ثم
قتله ^(١) . وكان القبض عليه وعلى أنصاره من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح جوهر ،
وجعل بلاد المغرب الأوسط في قبضة زيري بن مناد ، على ما سنرى .

فصد جوهر بعد ذلك إقليم فاس ، وحاصر حاضرتة لإخضاع ابن أبي بكر بن سهل
الجداعي ، الذي حلق طاعة الفاطيين ، وانضوى تحت لواء الأمويين . ولكن لم يتم لهم
فتح هذه المدينة إلا بعد استيلائهم على سبطاسة ^(٢) .

ولم يقل اهتمام الفاطيين بالاستيلاء على سبطاسة عن اهتمامهم بالاستيلاء على فاس
أو تاهرت . ولا غرو فقد استبد بمحكها ابن واسول ، الذي سمى نفسه أمير المؤمنين ،
وتلقب الشاكر لله ، وصك النقود باسمه .

أمد المرز لدين الله حملة لقتال ابن واسول ضمت كثيرين من الكتائب . وكان اهتمام
المرز بفتح سبطاسة عظيما ، حتى إنه ضرب النقود فيها باسمه .

ولم يبق أمام جوهر ورجاله سوى إدارة الريف والبلاد الخاضعة للأمويين . أما إدارة

(١) السلاوي : الاستيلاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ .

(٢) ابن خلدون : البرج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ .

الريف فإن زعيمهم الحسن بن القاسم فنون لم يستطع مقاومة جيوش الفاطميين ، ورأى السلامة في الحرب إلى الأندلس ، والاحتفاء بعبد الرحمن الناصر . واستطاع جوهر أن يعد نفوذ الفاطميين إلى سواحل المحيط الأطلسي ، أي على جميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ، ولم يتمتع عليه من بلاد المغرب سوى سبتة وطنجة .

وهكذا انصرف جوهر راجعاً ، كما يقول السلاوي^(١) ، بعد أن دوخ البلاد وأنغن فيها ، ونقل حثاتها ، وقطع دعوة المرابطين فيها ، وردّها إلى المبيدين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب ، واتفق جوهر إلى المهديّة ، دار المزمّلين الله ، وقد حلّ معه أحمد بن أبي بكر أمير قاس وخسة عشر من أشياخها ، وحلّ أيضاً محمد بن أبي الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه في أقاص من خشب على ظهور الجبال ، وجعل على رؤوسهم قلائس من لبد مستطيلة ، منبثة بالثرون ؛ فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم ردوا إلى المهديّة ، وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها .

وليس معنى ذلك أن جوهر قد تغلب بمجملته التي شنها في سنتي ٣٤٧ - ٣٤٨ هـ ، على جميع الصعاب التي واجهت الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى خاصة ، فإن الإدارة لم يلقوا جميع أسلحتهم ، كما أن الأمويين ظلوا على عدائهم للفاطميين ، لم تمسهم تلك الحملات بسوء ، بل ضاعفوا جهودهم في الاستعداد للحرب ضد الفاطميين ، إذا حدثتهم أنفسهم بنزول بلاد الأندلس ، أو الاستيلاء على طنجة وسبتة منهم . لذلك كان لزاماً على المزمّل أن يعالج هذا الموقف من جديد .

ويظهر أن الحسن بن القاسم الإدريسي ، الذي فر إلى قرطبة ، عاد لمناوأة الفاطميين ، وإعلان ولائه للخليفة الناصر ثم لابنه الحكم المنتصر من بعده . وقد ذكر السلاوي سبب هذا التقرب ، فزراه إلى خوف الحسن بن القاسم من الأمويين في الأندلس ، لقرب المسافة بين بلاده وبلادهم . وكان من أثر ذلك أن يمّث الخليفة المزمّل الفاطمي قائده بلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ، الذي استطاع أن يبيد الخطبة للفاطميين في بقايا دولة الإدارة ، ويطلق الدعوة للأمويين منها .

ومع ذلك لم يستطع المزمّل القضاء على الإدارة ؛ لأن الحكم الثاني في الأندلس استغل

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

ضغفهم ، فصل على بسط نفوذه في جميع بلادهم في إقليم الريف . وقد أرسل قائده ومولاه غالبا على رأس جيش كثيف لمحاربة الحسن بن القاسم ، فانتصر عليه ، وأسره هو وأهل بيته . وقد أقاموا في الأندلس طوال عهد المزمز تقريبا ، حيث عفا عنهم الحكم الثاني ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وطردهم من قرطبة ، ففروا إلى تونس ، ومنها رحلوا إلى مصر في عهد المزمز الفاطمي ، الذي رحب بهم ، وأمد الحسن بجيش قصد به إفريقيا ، وأعادته زيري بن مناد بجيش آخر ، لاسترداد بلاده من الأمويين . إلا أن المنصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني المؤيد الأموي (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا استطاع أن يحل به المزمزة ، وقتله في سنة ٣٧٥ هـ ، حيث انقضت دولتهم ، ولكن جماعة منهم استطاعوا أن يبنوا الدولة الأموية بالأندلس ، وهم بنو حمود (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ) .

هكذا زالت دولة الإدارة بالمغرب ، بعد أن تربت على العرش نحو قرنين ، وسام في القضاء عليهم آل ابن أبي العافية والفاطميون والأمويون أنفسهم .

والواقع أن ملك الفاطميين في المغرب الأوسط والأقصى ، لم يصف لهم تماما بعد سنة ٣٤٧ هـ ، وأن ماضيه جوهر وزيري بن مناد لم يقص على ثورات المغاربة ، وخصوصا على قبيلة زناتة ، وإنما نجح الفاطميون في إضمار الإدارة والقضاء عليهم في النهاية . فقد انتهز الزنانيون فرصة خروج جيوش المزمز إلى مصر ، فثار في سنة ٣٥٩ هـ أحد زعماء زناتة على المزمز ، الذي خرج إليه بنفسه ، إلى أن وصل إلى « باغاية » ، ففر هذا الثائر من وجهه ، فأرسل إليه المزمز قائده زيري بن مناد ، وأرغعه على التسليم . وفي شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ ، وصل هذا الزناني إلى المزمز مستأمنًا ، وطلب الدخول في طاعته ، فقبل المزمز ذلك ، وفرح به ، وأجرى عليه الأرزاق^(١) .

ولم يقف خطر زناتة عند ذلك الحد ؛ فقد اتحدوا مع صاحب المسيلة وأعمال الزاب ؛ وكان بمحمد علي زيري بن مناد ، قائد المزمز لدين الله ، وحارب القرعان زيري وقتلوه ؛ وكان لذلك أثره في ازدياد المنافسة بين الصنهاجيين والزناتيين . واعتقم يوسف لأبيه من زناتة ، فقتل منهم كثيرا وسبي كثيرا . حدث ذلك كله والمزمز لا يزال بإفريقية ، فسر لهذا الصراع

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٢١٥ .

الذى تقام بين هاتين القبيلتين الثريتين « وزاد في إقطاع بلكن المسية وأعمالها »^(١) .
كان الاضطراب يسود بلاد المغرب . وليس أدل على ذلك مما قاله يوسف بن زري
ابن مناد حين عزم المزمع على توليته إياها : « يا مولانا ! أنت وآماؤك الأئمة من ولد
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! ما صفا لكم المغرب ؟ فكيف يصغولى وأنا صنهاجى
بربرى ؟ »^(٢) .

وكان انتقال المزمع إلى مصر (من شوال سنة ٣٦١ إلى رمضان سنة ٣٦٢ هـ) بشير أهالى
بلاد المغرب كافة على يوسف بن زري بن مناد ، لولا ما أوتيه من صلابة وقوة . فقد انتهر أهالى
باغاية وتاهرت خروج المزمع واشتغال بلكن بتوديه ، وثاروا على والى كل منها وطردوه .
ولم تغف الحال عند ذلك الحد . فقد هبت قبيلة زناتة وثارَت في تلمسان ، ولكن يوسف بن
زري استطاع أن يخمّد هذه الثورات .

وقد رأى زري بن مناد الصنهاجى أن يبين لمولاه إلى أى حد وصل سلطان الفاطميين
في المغرب ، وقد انتشر من حدود طرابلس الغرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلنطى غرباً
وما إلى هذه الأرجاء من جزيرة صقلية في البحر الأبيض المتوسط ، فأمر بعض رجاله أن
يصطدوا له من سمكه ، وجعل السمك في قلال للساء وحله إلى المزمع . ولما عاد جوهر من
حروبه إلى القيروان ، كان للمزمع قد أصبح في ذلك الوقت الحاكم الذى لا ينازعه منازع في
كافة أرجاء شمال إفريقيا^(٣) .

١ — الفاطميون في صقلية :

كانت جزيرة صقلية مركزاً للصراع بين المسلمين والروم . ففي عهد الخليفة المتمدن
المسمى قامت الحرب في هذه الجزيرة سنة ٢٦٨ هـ بين الروم في عهد الإمبراطور باسيل الأول
(٨٦٧ — ٨٨٦ م) وبين المسلمين الذى حلت بهم المزعجة أول الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا
أن انتصروا على أعدائهم^(٤) ، وأرغومهم على طلب الهدنة في سنة ٢٧١ هـ^(٥) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ — ٢٥٣ .

(٢) المرزى . تماثل الخفا ص ٦٤ . الخط ج ١ ص ٣٥٢ .

(٣) ابن آد ديتار ص ٦١ .

(٤) ابن الأثير ج ٧ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٥٠ .

(١) صقلية في عهد عبيد الله المهدي :

ولم يكذب أبو عبد الله الشيعي ينتصر على الأغالبة ، حتى هب أهالي صقلية على واليهم السفى ، الحسن بن رباح ، الذى كان يحكم هذه الجزيرة باسم الأغالبة ، وولوا عليهم علياً ابن أبى القوارس (٢٩٦ هـ) . ولم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا إلى أبى عبد الله أن يقرم على ما فعلوا ، فأقر هذا الوالى الجديد ، وحتم عليه أن يتم ما بدأه من الفتح والنزول^(١) .

غير أن عبيد الله المهدي كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على الكتائب أنصار للذهب الإسماعيلى ؛ لذلك قبض على ابن أبى القوارس ، وولى مكانه الحسن بن أحد ابن أبى خنيزر الكتائبى . وقد تصعب السنيون على الحسن ، وعملوا على طرده من صقلية لاستبداده بالسنيين أولاً ، ولامتهانهم إياه إذ كانوا يرون أنهم أرفع منه قدراً ، ويتأخون أن يحكمهم كتائبى بربرى . وقد اتضح لهم أنه يقرب إليه البربر ويهمل شأن العرب ؛ فولى أحد الكتائبين على قضاء الجزيرة ، وأطلق يد أحيه في أمور البلاد .

وليس هذا كل ما أثار جفيظة السنيين بصقلية على الحكم الفاطمى ؛ فقد عز عليهم أن يخطف على منابرهم للخليفة المهدي الفاطمى ، وأن تنظم الدعاية فيها للذهب الإسماعيلى الذى كان دعائه يصلون على جذب الناس إليه .

ولى عبيد الله المهدي علياً بن عمر البلوى جزيرة صقلية ، فوصل إليها في سنة ٢٩٩ هـ . ولم يكن البلوى أقل تسفكاً من سلفه ، على الرغم مما عرف به من اللين وضعف الإرادة ، فثار الناس عليه . وقد يسأل بعض عن السبب الحقيقى الذى حدا بأهل صقلية إلى شق عصا الطاعة على هذا الوالى الفاطمى ، وهل يرجع ذلك إلى لينه وشيخوته ؟ أو إلى أنه كان يمثل المنصر الشيعي ، مع أن السواد الأعظم من المسلمين بصقلية كانوا يدينون بالعقائد السنية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى أنه كان من بين الثائرين جماعة من تلاميذ مدرسة أبى عبد الله الشيعي ، الذين عز عليهم قتله فثاروا بالمهدي وواليه البلوى ؟ يبدو أن هذه الأسباب مجتمعة هي التى أدت إلى إشعال نار الثورة في صقلية . فإن مقتل أبى عبد الله الشيعي قد أثار على عبيد الله المهدي موجة من السخط والغضب شملت المغرب وصقلية^(٢) (سنة ٣٠٠ هـ) ، مما

(١) أمارى . المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ .

(٢) ابن خلدون . المغرب ج ٤ ص ٢٨ .

يصلنا على الاعتقاد بأن عدداً كبيراً من التأثيرين على البلوى ، كانوا من أنصار أبي عبد الله الشيعي . أضف إلى ذلك أن العناصر العربية قد عز عليها أن يرسل الفاطميون ولاية من البربر . لذلك اختار الزعماء في صقلية أحمد بن قرقب ، وكان عربياً ، في سنة ٣٠٠ هـ . على أن الجند ثاروا على ابن قرقب . بسبب نزعتهم إلى الاستقلال بصقلية ، وأشعلوا نار الثورة على ابنه ، وكادوا يقتلونه ، لولا أن تصدى لهم العرب من السنين . ولما أدرك ابن قرقب أن أمره قد اقتضح ، وخشى انتقام الفاطميين ، ثار عليهم ، وأعلن ولائه للعباسيين (سنة ٣٠٤ هـ) ، وقطع الخطبة المهدى الفاطمية في صقلية ، وخطب للمقتدر العباسي (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ)^(١) .

وقد علمت الحوادث عبيد الله المهدى أن حكم الفاطميين لن يستقر في صقلية ، إلا إذا أرسل إليها مع الوالي جيشاً يدفع عنه خطر التأثيرين على الحكم الفاطمي . والواقع أن للمهدى اتخذ من إرسال هذا الجيش وسيلة لتقمع ولاية الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه ، والقضاء على أمالي صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة^(٢) . وقد صدقت فراسة المهدى ، فإنه ما كاد واليه الجديد (أو سعيد) يظاً أرض هذه الجزيرة حتى ثار عليه كثير من الأهالي . ولولا مساعدة جند الفاطميين للوالي ، لما استقر حكم المهدى في هذه البلاد^(٣) . وقد أطاق للمهدى من وراء هذه السياسة ، واستطاع ولانته على صقلية أن يفشروا الأمن في روع هذه الجزيرة^(٤) .

وقد حرصت الدولة الفاطمية على الاحتفاظ بنفوذها في صقلية لأسباب سياسية واقتصادية . فقد كانت هذه الدولة ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط ، واتخاذ صقلية قاعدة لأسطولها لتأمين شر غارات الروم على سواحل إفريقية ، وتحقيق أمالها في مصر وبلاد المغرب . وأما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون في صقلية أرضاً مشربة تخدم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ . كان ذلك في سنة ٣٠٤ هـ لا في سنة ٣٠٠ كما زعم

اد شندون .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٥ — ٢٦

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٠٧

(٤) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٥٤ . ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٠٨

والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها . فلما انقضت حجة أبي يزيد الخارجى سنة ٣٣٦ هـ ،
ولى الخليفة المنصور القاطى أبا الفداء الحسن بن أبي الحسين بن علي الكلابي^(١) هذه
الجزيرة ، فنزلها بقرية (Calabria) جنوب إيطاليا^(٢) .

(ب) صقلية في عهد المرز :

وقد سن الخليفة المهدي لمن خلفه من الفاطميين نظاماً جديداً يقضى بأن يكون إلى
جانب وإلى هذه الجزيرة جيش احتلال قاطنى قوى يدفع خطر الأعداء عنها . وكوّن
بعض الولاة لأنفسهم على مر الزمن حصصية قوية ، وتمتعوا بشيء غير قليل من الاستقلال .
وخير مثال لذلك الأسرة النكلية ، فقد ولى الخليفة المنصور « الحسن بن علي الكلابي »
هذه الجزيرة سنة ٣٣٦ هـ ، وأصبح الحكم فيها مقصوراً على هذه الأسرة . فلما ولى المرز
هذه الجزيرة أقر الحسن في ولايته ، واستطاع هذا الخليفة أن يقتصر بمساعدة ولاية هذه
الجزيرة من النكلين على أعدائه من الأمويين أولاً ، ثم على الروم ثانياً ، كما استطاع أن
يهدد إيطاليا ، وأن يلقى القزح في قلوب أهالي الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

ولما ولى الحسن الكلابي جزيرة صقلية ، عمل على إخضاع جميع الروم فيها إلى نفوذ
الفاطميين ، ولكن النزاع قد تفاقم بينه وبين الأهل . ولم ير مسيحيو صقلية وقلورية بدأ
من الالتجاء إلى أباطرة الدولة البيزنطية ، الذين استجابوا إلى نداءهم ، لأنهم كانوا يعملون
على مناصبة العباسيين في الشرق ، وشغل المسلمين في الغرب والأندلس بمحاربة الفاطميين
في صقلية . لذلك أرسل الإمبراطور قسطنطين الثامن (٣٠٧ — ٣٣٣/٩١٩ — ٩٤٤)
جيوشه إلى هذه الجزيرة ، واشتبكوا مع جيوش الحسن الكلابي الصقلية وجيوش الخليفة
المنصور المغربي ، التي استولت على كثير من أمهات مدن قلورية وصقلية الموالية للروم
وأحلت المزمجة بالجنش البيزنطى ، وأرغم الإمبراطور على طلب الصلح . وإن قرب
صقلية من إيطاليا قد أتاح للحسن الكلابي الفرصة للإغارة على جنوبها ، وفتح قلورية ،
وإخضاع هذه الجزيرة لفاطميين ، وذلك اصطدم مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية^(٣) .

(١) ورد هذا الاسم في ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٨ الحسن بن علي بن الحسين الكلابي .

(٢) Cambridge Medieval History, vol. v. p. 142.

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٧٨ .

على أن الإمبراطور قسطنطين الثامن لم يحترم شروط الصلح الذي عقده مع الحسن الكلبي؛ وشجعه على ذلك ما أحرزه من الانتصارات على العباسيين والحمدانيين في المشرق، وطمع في أن يحرز في الغرب ما أحرزه من الانتصارات في المشرق. وقد عول على أن يشغل المزبهد الحروب حتى تناح له الفرصة للقضاء على الدولة العباسية المتداعية. لذلك أرسل في سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) حملة برية بحرية، وركز الروم جهودهم في فتح بلرمو التي كانت موالية للمسلمين، وفتحوها بعد حصار طويل شاق. وأخذت انتصارات الروم تتوالى في قلورية وأرسلوا جيوشهم إلى صقلية نفسها، واستولوا على مدينة ترميني Termini وتبعد عن بلرمو بأربعة عشر ميلا. غير أن الروم لم يتمتعوا بنجاح هذه الانتصارات وعادوا أذراجهم إلى قلورية.

ونستطيع أن نصور في إيجاز موقف الفاطميين في صقلية في خلال هذه الحروب. على أن الحسن الكلبي استطاع أن يخرج الروم من « ترميني »، ثم عبر خليج ميسو (بين صقلية وقلورية)، وانضم إلى جيوش الفاطميين بقيادة أخيه حمار، وما زال الحسن وأخوه يمزوان مدن قلورية واحدة إثر أخرى، وإمدادات الفاطميين تتوالى عليهم، واضطر الإمبراطور البيزنطي إلى طلبه الهدنة (٣٥٠ هـ)، وكانت تنقضى بأب تدفع قلورية الجزية للمسلمين.

وهكذا انتهى الدور الأول من هذه الحروب التي شنها للمزدين الله على الروم في صقلية وقلورية، وزال خطر الروم من هذه البلاد إلى حين.

وقد أفاض المؤرخون في ذكر الحرب التي قامت بين أنصار الفاطميين وأنصار البيزنطيين في صقلية؛ فقد استطاع أحد بن الحسن بن أحمد الكلبي أن يستولى على قلعة طبرمين اللينة في صقلية سنة ٣٥١ هـ، وأقام فيها جماعة من المسلمين، وطردها أهلها عنها وسماها — كما يقول ابن الأثير ^(١) — « المزمية » تيمنا باسم الخليفة للمزدين الله. وكان سقوط هذه المدينة أثره في المدن الأخرى المادية التي أخذت تفتح أبوابها للجيوش الفاطمية. إلا أن مدينة « رمطة » أبت أن تستسلم للفاطميين الذين حاصروها في رجب سنة ٣٥٢ هـ،

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٩.

وأرغم أهلها على طلب النجدة من الإمبراطور ، « نفقور فوكاس » (٣٥٢ - ٣٥٩ ، ٩٦٣ - ٩٦٩) ، وكان قد انتصر على العباسيين والمجندانيين ثم على الرضيين بجزيرة إقريطش . وقد حمل هذا الإمبراطور على أن ينشيه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين في الاتجاه نحو الغرب ، لينال ما ناله من شرف الانتصار في الشرق ، وليشغل الفاطميين خاصة عن التطلع إلى بلاد المشرق ، وأهد أسطولاً ضخماً وجيشاً يقرب من خمسين ألف جندي مجهزين بأحسن الآلات . وكان الروم يعتقدون أن النصر مقود لهم ، ولا عجب فإن صقلية لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة هذا الجيش البيزنطي .

أما جهود المزم وأنصاره في صراهم مع نفقور فوكاس وأنصاره من أهل صقلية ، فتجلى في إعداد أحمد بن الحسن الكلابي ، الأسطول الصقلي إعداداً كاملاً ، وفي إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانئ صقلية الشمالية الشرقية ، وفي ذلك المدد الذي أمد به المزم واليه على هذه الجزيرة . وقد وصل أسطول الفاطميين إلى هذه الجزيرة في منتصف سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) . وقسم الحسن الكلابي وابنه أحمد الجيوش الفاطمية الرئيسة قسمين : سما بقيادة الحسن بن عمار ، وقد عهد إليه بحصار مدينة رمطة Rametto ، والقسم الأكبر برياسة الحسن الكلابي نفسه ، وقد عسكر في لرمو .

وعلى الرغم مما بذله الفاطميون من جهود في هذه السبيل ، استطاع الروم أن يستولوا على مسينا ، وتبعد عن رمطة بنسبة أميال ، في شهر شوال من سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ، كما استولوا على ترميني Termini وغيرها ، وحاولوا دون وصول المدد الفاطمي إلى الحسن بن عمار الذي كان يحاصر رمطة .

وكان اهتمام الحلة البيزنطية يتركز حول إنقاذ مدينة رمطة ، والقضاء على جيوش الحسن بن عمار التي كانت على حصارها . لذلك اندفعوا إلى هذه المدينة . وأدرك الحسن خطر اندفاع الروم إلى هذه المدينة ، فأتجه أحمد بن الحسن الكلابي من لرمو إلى رمطة ، لإنقاذ ابن عمه الحسن بن عمار ، ولكنه لم يستطع أن يسبق الروم إليها ، واشتغل باسترداد ترميني .

أما الحسن بن عمار فإنه لم يعبأ بكثرة الروم ، وقسم جيشه الصغير أربعة أقسام : جل

قدما منها على حصار رمطة نفسها ، لئيمع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطي المهلم ؛ ووضع قسطن آخرى على رأس الوادى الذين يوصلان إلى المدينة ، وكان العدو يستطيع القتل منها إليها ، وأجمه على رأس البقية الباقية من جنده لمقابلة جيوش مانويل الرئيسة . وقد تمكنت جيوش الحسن المحاصرة لمدينة رمطة من منع أهالى هذه المدينة من الاتصال بالروم ، وأدرك الحسن ومن معه من الجند أنهم دون العدو عدداً وعدداً ، فاستأنوا فى القتال ، وعقدوا العزم على أن يموتوا كراماً . وهكذا « تقدم الروم إلى القتال ، وهم مدلولون^(١) بكثرةهم » ، وبما معهم من المدد وغيرها . والتحم القتال ، وعظم الأمر على المسلمين ، وألحقهم العدو بخيامهم ، وأيقن الروم بالنظر ؛ فلما رأى المسلمون ما زلهم اختاروا الموت ، وأخذوا يرددون قول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجذُ لنفسي حياةً مثلَ أنتَ أتقدما
فلست على الأعقاب^(٢) تدعى كلومنا ولكن على أقدامنا تنظرُ الدما^(٣)
ويظهر أن ثبات المسلمين ، وإدفاعهم نحو العدو برغم قتلهم ، كان مفاجأة للروم ؛ الذين أيقنوا أنهم سوف يحيطون بمجوش ابن عمار ؛ ويبيدونهم فى زمن قصير ؛ ومن ثم أخذ الملح يذب إلى نفوسهم .

أما الحسن بن عمار فقد أعمل هو وجنده السيف فى رقاب الروم ، وأحاطوا بقائدهم مانويل ، وعقروا فرسه وقتلوه . وكان ذلك الظفر ضربة قاضية على الروم الذين هز عليهم قتل قائدهم ، فولوا الأدبار ، وحالت الأمطار والمواصف بينهم وبين النجاة ، « وقتل جماعة من البطارقة ، وهزم الروم ، وتبعهم المسلمون بالقتل ، وامتلات أيديهم من التناثم والأسرى والسبي »^(٤) فكان هذا النصر انتقاماً من البيزنطيين الذين عذبوا مجزرة إقريطش^(٥) .

(١) أى فتورون

(٢) أى لا تزد على أعقابنا

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٤) ابن خلطون : البير ج ٤ ص ٤٠٩ . يصف ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٠٠) هذه المربة فى هذه المدة « هزم الروم أجمع هزيمة ، وأكثر المسلمون منهم القتل ، ووصل المهملون إلى جرف عتق حليم كالحفرة ، سقطوا فيه من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضاً ، حتى امتلات . وكانت الحرب من يكرة (الضباب) إلى مصر . وبات المسلمون يقاتلونهم فى كل ناحية ، وغنموا من السلاح والحيل وسنوف الأموال ما لا يحصى ، وكان فى ليلة الفتح سيف قتلى عليه مكتوب : هذا سيف قتلى وزنه مائة وسبعون مثقالاً ، طمأ صرب به بين يدي رسول الله ، صل الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرحوس .

(٥) Fournel : La Conquête de l'Afrique par les Arabes, pp. 336-7. (٥)

وهكذا نال الحسن بن عمار شرف الانتصار على الروم ، وقررت تلك الموقعة مصير رمطة ، بل قررت مصير صقلية نفسها ؛ فقد كانت هذه المدينة مركز المقاومة الرئيس في وجه الحكم الفاطمي في الجزيرة ، ومن ثم اندفعت فلول الروم نحو الساحل لاجئين إلى أسطولهم ، تاركين حاة رمطة يلاقون حتفهم . فقد ضيق المسلمون عليهم الحصار ، حتى اضطروا إلى إخراج نسائهم وأطفالهم إلى المسلمين الذين أبقوا عليهم .

واستولى المسلمون على رمطة عنوة ، وغنموا ما فيها . وهكذا سلت تلك المدينة الحصينة للفاطميين بعد حصار دام ثمانية أشهر . ولو انتصر أهل رمطة وحلفاؤهم الروم ، لتغيير تاريخ الفاطميين في صقلية .

وما أكاد أحمد بن الحسن الكلبي ، ابن عم الحسن بن عمار ، يعلم بهزيمة الروم في رمطة ، حتى لحق بهم ، وانتصر عليهم في موقعة تعرف بموقعة « المجاز » ، التي لا تقل خطراً عن موقعة « رمطة »^(١) .

وكان من أثر انتصار الفاطميين في هاتين الموقعتين أن أخذت المدن الثائرة في صقلية تسلم الواحدة تلو الآخر . ولم يقف أثر هاتين الموقعتين عند ذلك الحد ؛ فقد استولى الفزع على أهل قلورية ، فسقدوا المدينة مع أحمد بن الحسن الكلبي ، وتهددوا بدفع الجزيرة للفاطميين . وكان لهذه الانتصارات المتتالية أثرها في نفس الحسن بن أحمد الكلبي ؛ فقد سره تدفق الأسرى والغنائم الرومانية ، كما سره قدوم الجيوش الفاطمية المظفرة في برمو ، حاضرة هذه الجزيرة . وقد بلغ من حفاوة الحسن بمجد الفاطميين حداً بيّدا حتى إنه لم يلبث أن خر صريخاً ، وذلك في أواخر سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م)^(٢) .

هكذا مات الحسن الكلبي بعد أن أسس لأبنائه ملكاً قوى الدعائم في صقلية ، ومد نفوذ المنصور والمنز في صقلية وقلورية ، وسامحاً مساحة فلاة في هزيمة الروم براً وبحراً ، وهزم أسطول الأمويين في عقر داره .

وقد تخوف إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من ناحية الفاطميين ، فعمل على تحسين العلاقة بينه وبينهم ، لأن ذلك قد يؤدي إلى بقاء ممتلكاته في قلورية ، ويجول دون القضاء

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

على نفوذ دولته في إيطاليا . وإذا علمنا أن الإمبراطور جستنيان قد وضع سياسة الاستقرار في إيطاليا ، وأن أباطرة الدولة البيزنطية كانوا يستقدون أنهم الورثة الحقيقيون لهذه البلاد ، أدركنا سياسة محاولة هؤلاء الأباطرة التي كانت تهدف إلى طرد المسلمين من صقلية . على أن هؤلاء الأباطرة لما وجدوا أنه لا قبل لهم بطرد جيوش الفاطميين من هذه الجزيرة ، تجتهدت سياستهم ، وبخاصة سياسة تقفور فوكاس ، إلى أن يحتفظوا بالبقية الباقية من أملاكهم في إيطاليا ولا سيما في قلورية .

على أن هناك خطراً جديداً قد حدا البيزنطيين على محالفة الخليفة المزمزمين الله الفاطمي بعد أن حلت بهم الهزيمة في موقعي رمطة والمجاز ، ذلك الخطر هو رغبة الإمبراطور أوتو الأكبر في توحيد إيطاليا ، والقضاء على النفوذ البيزنطي والفاطمي فيها . فقد كاد أن يقضى على النفوذ البيزنطي هناك بانتصاره على ملك إيطاليا الروماني في سنة ١٠٣٥ (٩٦٩ م) . ونال بذلك إعجاب البابا ، فبينه إمبراطوراً مقدساً .

وقد أخذ أوتو يتطلع إلى ممتلكات البيزنطيين وخاصة في قلورية ، وأصبح يهدد الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية معاً : فعزل تقفور فوكاس ، على الاستعانة بالفاطميين في دفع الخطر الجرمانى عن ممتلكاته البعيدة في إيطاليا .

وصل نيقولا سفير إمبراطور الدولة البيزنطية إلى إفريقية (سنة ١٠٣٧ هـ) في الوقت الذي كانت جيوش الفاطميين تتأهب لغزو مصر . وقد هاله مارأى من عظمة المعز ، وما شاهده في قصره من مظاهر الأبهة ، وعلم أن الروم قد أخطأوا حين أطلقوا عليه « ملك الله رين » ، وأيقن أن هذا الخليفة الفاطمي سوف يخلف العباسيين في إمبراطوريتهم ، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التي وردت على لسان ذلك السفير الذي بهر به ذلك الاستقبال الذي استقبله المعز أحسن استعداد : قال : « بئنى إليك الملك ^(١) ذلك العام ، فرأت من عظمتك في عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ، ووصلت إلى قصرك ، فرأيت عليه نوراً عظيماً ، غطى بصرى ؛ ثم دخلت عليك فرأيتك على سربك ، فظننتك خالفاً ، فلو قلت لى إنك تخرج إلى السماء لتحقق ذلك ^(٢) . »

(١) هو تقفور فوكاس

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٩

وقد أثار هذا الاتفاق الخليفة المزم ، فلم يمد يده بمخشي خطر غارات الروم على بلاده في الغرب ، في الوقت الذي يمت فيه بجيشه للضخم إلى مصر . ولولم يكن المزم قد اتفق في ذلك الوقت مع الروم ، لما استطاع أن يعي كل قواته البرية والبحرية إلى الشرق ، ولا أن يبعث بذلك العناد الحربي مع جوهر . وكذا استغل المزم هذا الاتفاق ، وضايف جهوده في الهجوم على مصر والشام . ثم أنجه إلى تنظيم الحكم في جزيرة صقلية نفسها .

أما عن أثر صقلية في تاريخ العلاقة بين المزم وبين الله الفاطمي ، وعبد الرحمن الناصر الأموي ، فربما في استعادة المزم بالحسن بن علي الكلبي ، للانتقام من الأمويين الذين عبثوا بإحدى السفن الصقلية الفاطمية . وقد انتصر الحسن بأسطوله الصغير على أسطول الأمويين الضخم في ميناء المربة الأسيانية في سنة ٣٤٤ هـ ، وبرهن على قدرته الحربية ، وإتقانه عنصر المفاجأة . وبهذا نرى أسطول صقلية وولاتها ورجالها يسهمون في القضاء على خطر الروم والأمويين ، وعلى خطر الثوار من أهل الجزيرة الذين ناووا الحكم الفاطمي .

تقلد هذه الجزيرة في عهد المزم أربعة من الولاة ، أولهم الحسن بن أحمد الكلبي الذي تقلد ولايتها في عهد المنصور على ما رأينا . فلما ولي المزم الخلافة أقره في ولايته ، ولكنه استدعا إلى المنصورية ، وأتاب عنه في حكم هذه الجزيرة ابنه أحمد بن الحسن . وكان المزم يستعين في حروبه في صقلية بكبار الكلبيين ، مثل عمار الكلبي أخى الحسن ، وابنه الحسن بن عمار بطل موقعة « رمطة » .

وقد أحدث موت الحسن بن أحمد الكلبي في سنة ٣٥٤ هـ اضطراباً كبيراً في هذه الجزيرة ، فيقول بعض إن المزم عمل على إقصاء هذا البيت القوي عن الحكم حتى لا يستبد أفراداه بالأمر^(١) .

ويظهر أن المزم لجأ إلى إخراج الكلبيين من هذه الجزيرة لأسباب منها : أنه لم يمد يده تحالفه مع الروم في سنة ٣٥٧ هـ بمخشي خطر البيزنطيين ، كما أنه لم يمد محاجة إلى هذه الأسرة التي تعتمد على عصبيتها في الجزيرة ، لكنه أبقى أحمد بعد موت أبيه من سنة ٣٥٤ إلى سنة ٣٥٨ هـ . ولا يبعد أن يكون المزم قد لمس فيه ميلا إلى الاستبداد بالأمر ، ومخشي

أن يستقل بصقلية ، ولا سيما بعد أن خرج جوهر الصقلي إلى مصر ، فعمل على إقصاء الأسرة الكليية عن صقلية ، حتى لا يكونوا مصدر قلق له .

على أن للمزدين الله قد برر عمله هذا بأنه يريد أن يصحب رجال هذه الأسرة معه إلى القاهرة ، لينقلوها المناصب العالية فيها ، تقديرًا لما أسدوه لفاطميين من خدمات . وقد صرح المز بذلك بعد ثورة صقلية على الوالي الفاطمي الجديد ، وماتهاش به الناس في المهديّة والمنصورية وغيرهما ، ليزيل الأثر السيئ الذي تركته تولية « يعيش » مولى الكلييين^(١) . ولما أدرك المز استحالة بقاء « يعيش » في هذه الجزيرة ، ولي الكلييين عليها ، وأستند إليهم المناصب العالية في الدولة ؛ فعين أحمد بن الحسن قيادة الأسطول الفاطمي ، وأقره على حكم صقلية ، وأتاب عنه أخاه أبا القاسم بن الحسن . كما أبقى المز محمد ابن الحسن في قصره بالمنصورية ثم بالقاهرة ، حيث نم بمركز ممتاز .

و يقول المؤرخون إن محمد بن الحسن كان يتمتع في عهد المز بمكانة لا تقل عن مكانة النعمان المغربي ، فقيه الإسماعيلية المشهور .

وقد عاد الهدوء والسكينة إلى صقلية بتولية أبي القاسم بن الحسن الكلي ، فدخلها في منتصف سنة ٣٥٩ هـ ، وبقى بها حتى مات سنة ٣٧٢ هـ . في عهد الخليفة المزير بالله الفاطمي . وقد زار ابن حوقل الجفرا في المشهور جزيرة صقلية في عهد ولاية أبي القاسم وحل إليه نيا موت أخيه أحمد بن الحسن في طرابلس . ومن أهم الأعمال التي قام بها هذا الوالي في عهد المز أنه أخذ يقرب أوتو — إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة — ووجد صفوف الجيوش الفاطمية والجيوش البيزنطية أمام الخطر الجرمانى .

غير أن هذه السياسة الحكيمة التي لجأ إليها تقفوق فوكاس ، من محاولته الوقوف جنباً إلى جنب مع الفاطميين لصد الخطر الجرمانى ، سرعان ما أصابها الضعف على يد الإمبراطور

(١) لما ذكره ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٩ يرى أن يعيش مولى الحسن بن علي بن أبي الحسين الكليى لما ورد هذه الجزيرة " ووقع الشر بين موالى كتابة والقبايل ، فقتل من كتابة كثير ، ومن الموالى جماعة ، وازد الشر بينهم ، وتمكنت القنطرة به وسعى " يعيش " في الصلح ، فلم يراققوه ، وتناول أهل الشر من كتابه فاحيه ، ونهوا أنفسهم ، واستطاعوا على أهل المراعى ، واستطاعوا على أهل القلاع المستنسة ، فبلغ آخر إلى المز ، فغزل يعيش ، واستعمل أبا القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين نيابة عن أخيه أحمد . صعد إليها ، فلما وصل فرح به الناس ، وزال الشر من بينهم . واتفقوا على طاعته " ، مما يدل على أنه مهت ثورتهم هو علم الغرض من فنى الكليين من جزيرة صقلية .

زيمسكس (Zimiscés) (٣٥٩-٣٦٦/٩٦٩-٩٧٦). فقد قبل ما رفضه تقفور فوكاس ، وتحالف مع أوتو الأول ، حتى يستطيع أن يلحق الهزائم بالفاطميين في الشرق والغرب . ويظهر أن زيمسكس كان يستبعد دوام الصلح بينه وبين الفاطميين ، ولا سيما بعد أن بموا شطر مصر ، وأغاروا على بلاد الشام التي كان الروم يمدونها « بمجالات حيوية » للإمبراطور بهم . لذلك حارب زيمسكس الفاطميين في شمال الشام وفي دمشق نفسها ، وتحالف مع أوتو الجرمانى ؛ ومن ثم أخذ أبو القاسم الكلبي يحصن حدود ولايته الشمالية وينير على ممتلكات الروم في قلورية (كالابريا) . ولم تتطور الحرب بين الروم والفاطميين إلا في عهد المزي بن الله الفاطمى .

بذلك نرى أن المزي بن الله استطاع أن يستغل موقع صقلية الاستراتيجية ، ويصد جميع الحملات التي كان يوجهها الأمويون والبيزنطيون نحو إفريقية ؛ كما استطاع أن يستغل هذا الموقع ليمد نفوذه في إيطاليا نفسها . وهكذا تم لهذا الخليفة تنظيم القسم الغربي من دولته ؛ ثم بدأ يفكر في السير نحو الشرق ، ليتخذ من القاهرة قاعدة لدوائه الشاسعة الأرجاء ، ويوجه منها ضرباته إلى المباسيين والروم ^(١) .

(ج) صقلية بعد المعز :

وفي سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) استطاع الروم أن يطردوا المسلمين من قلورية ، فحاول المعز بن باديس أمير إفريقية من قبل الفاطميين استرداد هذه البلاد ، وأرسل أسطولاً يتألف من أربعين سفينة ، لكنه غرق بالقرب من سواحل إفريقية ^(٢) .

ولما ولي أحمد المروفي بالأكرس أمور صقلية جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرقكم من الإفريقيين الذين شارككم في بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرفنا شيئاً واحداً . ثم صرفهم وأرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك ، فأجابوه إلى ما أراد ، فجمعهم حوله . فكان يحسب أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية . فصار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم وقالوا : نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم ، وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة ؛ فسير معهم ولهم

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وعبد الله شرف - المعز بن الله الفاطمى ص ٥٢ وما يليها .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٠

عبد الله في عسكر ، فدخل المدينة وحصر الآكل في الخلاصة^(١) .

من ذلك نفق على مدى الاقسام الذي حل بالمسلمين في هذه الجزيرة ، وكيف سهل ذلك حل البيزنطيين التدخل في شئونها في عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) الذي أرسل إليها حملتين : الأولى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧ م) ، لكنها لم تلق شيئاً من النجاح ، والثانية في السنة التالية حيث أرسل القائد الشاب جورج منياكس (George Maniakes) الذي استولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرق من الجزيرة . ولما عاد هذا القائد إلى القسطنطينية استقر المسلمون كل ما أخذه البيزنطيون سوى سرجوسة وميسينا^(٢) .

اكن أحوال صقلية لم تلبث أن اضطربت ، وعاد جند المزم بن باديس إلى إفريقية ، واستبد بكثير من التواحي أسراء ثار عليهم أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالبربرية وسهلوا لهم الاستيلاء عليها . ولم يبق أسطول المزم بن باديس شيئاً في احتفاظ الفاطميين بهذه الجزيرة ، وخلفه ابنه تميم بن المزم بن باديس الذي أبطل ذكر الخليفة المستنصر الفاطمي من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ ، وشعر الدعوة للخليفة القائم المهاسي . ولم يحمل الأسطول الذي أرسله تميم بن المزم بن باديس إلى صقلية دون وقوع الخلاف بين أهالي الجزيرة وبين أمير إفريقية . واتخذ الروم ، الذين كانوا يعملون على الاستيلاء على جميع مدن الجزيرة وثقواها ، من هذا الضعف فرصة ، فضيقوا الخناق على المسلمين وحاصروهم في كل مكان حتى اضطروا إلى التسليم سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وانتكح رودجر الترمندى جميع أرجاء جزيرة صقلية .

٢ - - السيادة الفاطمية في حوض البحر الأبيض المتوسط :

اهتم الفاطميون بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط منذ أن وطئت أقدامهم أرض إفريقية . فقد كانوا يقدرون أثر العامل البحري في قصة للنضال بين الإسلام والمسيحية ، لذلك عنوا بإنشاء الموانئ البحرية المحصنة : فأسسوا مدينة المهدية ، واتخذوها قاعدة

(١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٤ وما يليها .

(٢) Cambridge Medieval History, vol. IV, p. 160.

لأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط ، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض للقواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار ؛ فاستولوا على صقلية ، واتخذوا من موانئها قواعد يغيرون منها على موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد استطاع عبيد الله المهدي ، برغم اشتغاله بالتوسع في بلاد المغرب ومحاوله فتح مصر ، أن يسير في سنة ٣١٣ هـ أسطولا للإغارة على بلاد الروم ^(١) ولم تكن أهداف هذه الحملة واضحة ، لأن الدولة البيزنطية في ذلك الوقت كانت قد آثرت أن تتخفى أمام العاصفة وتسلم الدول الإسلامية . ففي سنة ٣٠٥ هـ أرادت الإمبراطورة زوى (Zoë) أن توحّد قوى الإمبراطورية لقتال سيميون Siméon ملك البلغار ، ففقدت الصلح مع المسلمين بالشرق والمغرب ، كما تولّت بمأملها على قلورية في عقد معاهدة مع عبيد الله المهدي ، تهمدت فيها بأن تدفع له جزية سنوية مقدارها ٢٢,٠٠٠ قطعة من الذهب ، كما أرسلت إلى بغداد رسلا استقبلهم الخليفة العباسي للقتل استقبالا رائعا ^(٢) .

وفي الحق إن الفاطميين والبيزنطيين لم يلتزما احترام هذا الصلح ، ذلك أن رسولاً إمبراطورة القسطنطينية قد أتى القبض عليهما بقلورية وأعيدا إلى بلدهما . كما قبض على مبعوثي البلغار بين ، ولم يجد الخليفة المهدي الفاطمي بداً من أن يعاود نشاطه في البحر ، فأرسل في سنتي ٣٠٦ هـ ، ٣١٠ هـ ، ٣١٢ هـ سفناً لمقاتلة البيزنطيين . أما الحملة التي ذكر ابن الأثير ^(٣) أنها أرسلت في سنة ٣١٣ هـ ، فقد كانت خاتمة لسلسلة من أوجه هذا النشاط ، فقد أرسل الخليفة الفاطمي أسطولا للإغارة على بلاد الروم بقيادة حاجبه أي أحمد جعفر بن عبيد .

وقد أقنع هذا الأسطول إلى بلاد أنكيدرة (لومبارديا) وأزالت القوات الفاطمية ، فاستولت على بعض المواقع ، وغنمت غنائم كثيرة ، كما استولت على مدينتي أوزة ووارى Uria ^(٤) . وقتل في حصار هذه المدينة ستة آلاف ، وأسّر المسلمون عشرة آلاف . كما أرسل المهدي حملة إلى قلورية (Calabria) ، فاستولت على مدينة تارانت Tarente ثم على مدينة أدرنت Otrante ، فأعملوا فيها السيف والثار . ولولا نفسي الوفاء بين قوات

(١) Fournel, les Berbers, tome IV p. 150.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ١١٦ . ابن عذاري ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) Fournel, tome II, p. 163.

للسلمين لواصلوا التقدم . وفي سنة ٣١٥ هـ سير الهدي بقيادة صابن القتي^(١) أسطولا يتألف من ٤٤ سفينة أغارت على سواحل بلاد الروم . كما أرسل في سنة ٣١٦ هـ حملة أخرى بقيادة صابن أيضاً استولت على ناحية أريزان والحسب ونهبتها ، ثم سارت إلى مدينة ستير ، ولم ينج أهلها من اللوث إلا بعد أن قدموا للفزاة كثيراً من التشف والذخائر . ثم سارت القوات الفاطمية إلى مدينة نابُل Neapolis ، فدفع أهلها الجزية .

ولم يقنع الهدي بالإغارة على قلورية ، فسير بقيادة صابن الصقلي أسطولا أغار على جنوة واستولى عليها وعاث في نواحيها ، كما استولى على جزيرة سرديانية ، ولم يغادرها إلا بعد أن خرب موانئها وأعمل للنار فيها .

وقد سار القائم الفاطمي على سياسة أبيه البحرية ، فأرسل إلى إيطاليا في سنة ٣٢٣ هـ ، حملة يمت شطر جنوة ، فاستولت عليها ، وعادت الإغارة على سرديانية ، ودمرت أساطيل القرنجة ، ثم استولت على جزيرة فرسقة . وبذلك استطاع الفاطميون أن يضموا بلاداً ذات قيمة إستراتيجية عظيمة ، وأن يمتكنوا سيادتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط . فلا عجب إذا رجعت كفتهم وارتفع شأنهم في العالم الإسلامي^(٢) .

ويبدو أن انصراف الفاطميين في عهد المعز إلى الاهتمام بالشرق واتخاذ الأعباء لفتح مصر قد صرفهم عن الاهتمام بأسر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فبدؤوا من ذلك الحيز يتجهون وجهة شرقية ، ولا سيما بعد أن تم لهم فتح مصر ، وأصبحت مقر الخلافة الفاطمية . وقد ورت الزيريون عن الفاطميين عنايتهم بأسر الأسطول والعمل على تثبيت دعائم السيادة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، فاهتم خلفاء بلسكين بن زيري ابن ماء الصنهاجي بالبحرية الإسلامية وعملوا على الإكثار من السفن البحرية حتى سقطت صقلية في أيدي النورماندين في سنة ٤٨٣ هـ ، فكان ذلك نذيراً بانتهاء السيادة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي^(٣) .

(١) ابن طائري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) Journal, tome II, pp. 180-1

(٣) حسن أحمد محمود : بتوزيري وسياستهم الداخلية ، مخطوط ص ٩٠ .

الباب الرابع

الفتح الفاطمي لمصر

١ - أهمية مصر للدعوة الشيعية

(١) موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب

كانت السنوات الثلاث الأولى من خلافة المهدي مهد نزاع ومشاكل متوالية ، أتبع فيها القضاء عليها بما أوتيه من نشاط وهمية . وبموت أبي عبد الله الشيعي أصبح المهدي الحاكم المطلق لكافة أرجاء بلاد المغرب .

لم يكتف بشمال إفريقيا الخلفاء الفاطميون الذين كانت مجهوداتهم في سلمية موجبة إلى إقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية ، كما فعل العباسيون مع الأمويين . وإنما كان اختيارهم لتلك البلاد راجعاً - كما أسلفنا - لبعدها عن مركز الخلافة في بغداد ، وليل البربر لإذكاء نار الثورة على الأسرة الحاكمة في بلادهم ، ولضعف هذه الأسرة الحاكمة نفسها .

نعم ! لقد وجه الفاطميون عنايتهم لهذا الجزء من أجزاء الإمبراطورية العباسية ، حين أصبحت الجهود التي بذلوها لإقامة خلافة علوية في آسيا غاب قوسين أو أدنى من القتل . ولا غرو فقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي تذرعه الطالبيون بالخلافة من العلويين ، الذين كانوا يودعون غياهب السجون أو كان القتل مصيرهم إذا انكشف أمرهم ، مما حدا بهم إلى الاستتار وتقويض إقامة الدعوة لم إلى دعاة مهتهم جذب الناس لهذه الدعوة ، بل وإخفاء أسمائهم الحقيقية تحت ألقاب أخرى ، من أمثال المهدي والمكتوم وغيرها ، ليدروا بذلك عن أنفسهم سخط العباسيين وحقنهم .

من هنا نعلم أن بلاد المغرب كانت ميداناً أصح من آسيا لتبجح الدعوة الفاطمية . بيد أن القيروان أو المهدية لم تكن لتصلح أن تكون حاضرة للإمبراطورية الفاطمية ،

لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل منه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانها .
ولهذا لا تعجب إذا رأينا المهدي يضع الخطط لغزو مصر على أثر تأسيس خلافته في
القيروان ، بالرغم من أن سلطان الدوابين لم يكن قد توطن في كافة أرجاء بلاد المغرب قبل
سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) — وهي السنة التي استولوا فيها على مصر — ولا غرو فإن فكرة
غزو هذه البلاد قد توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض .

حتى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر ، لما موقعها من عظم الأهمية سياسياً
وحرارياً ؛ خصوصاً وأن ولاية هذه البلاد كانت إليهم ولاية الشام والحجاز . فكان امتلاك
مصر اسلاًكاً لهذه البلدان العظميين ، وتأسيس نفوذ الفاطميين ، السياسي والديني ، في
ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهي : القسطنطينية والمدينة ودمشق .

أجل ! إن تحقيق هذا المطمح الذي قصد إليه أول الخلفاء الفاطميين معناه تهديد الطريق
لتهديد بغداد نفسها ، حاضرة الإمبراطورية العباسية في ذلك الحين .

هذا ، ونستطيع أن نشير من بين المصادر التي عولنا عليها في بحث هذا العصر من
عصور تاريخ مصر ، إلى ما كتبه الطبري وأوتينا وعريب بن سعد ومسكويه .

أما تاريخ الطبري الذي ينتهي سنة ٣٠٢ هـ ، فإنه يقتصر على الكلام من الخطوة
الأولى التي حطها المهدي في سبيل تحقيق هذه الفكرة الجريئة التي كانت ترمي إلى غزو
مصر . وأما « صلة تاريخ الطبري » لعريب بن سعد ، فقد تناولت الكلام على هذه الحملات
بتنبيه من الإسهاب . ويلوح لنا أن مسكويه استطاع أن يحصل على معلومات أوفى من
تلك من هذه الحملات . أما أوتينا والكندي ، وهما مصرياً المولد والدار وأقدم هؤلاء
المؤرخين بعد الطبري ، فقد أمدنا كل منهما بمعلومات أكثر تفصيلاً وإسهاباً من
هذا الموضوع .

في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جمع المهدي جيشاً من المغاربة تحت إمرة ابنه وولي عهده
أبي القاسم ، وحجاسة بن يوسف^(١) ، وهومن زعماء كتامة . ويظهر لنا أن حراسة هذا قد

(١) ذكر الطبري (٢ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢) أن هذا الجيش كان تحت قيادة حراسة . وخالفه في ذلك
عريب بن سعد (ص ٥٢) فقال إن أبا القاسم كان على رأس جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية في سنة
٣٠١ هـ . وهناك أثنى كثير من الخطباء ، لا يبعد أنه تلمس من وراءها المصول على معونة المصريين . وقد

اضطلع بجميع أهواء هذه الحملة . تقدم هذا الجيش نحو الإسكندرية ، فاستولى في طريقه على برقة ،^(١) ثم واصل السير حتى دخل الإسكندرية واستولى عليها ؛ ومن ثم سار إلى الوجه البحري^(٢) . فلما علم المقتدر العباسي بذلك ، بعث مؤسدا للخادم على رأس جيش كبير قيل إنه بلغ أربعين ألفا^(٣) . وفي مدينة مشتول القريبة من الجزيرة التعم الفريقات في القنال ، فحلت المزمعة بحبس حباثة^(٤) ؛ فأرغم على العودة إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة العاطي على أن يرجعه^(٥) .

على أن أهمية هذه الفزوة تنحصر في أمر يجب ملاحظته ، وهو أنه كان في مصر في ذلك الوقت كثيرون يعلمون على الدعوة العاطمية . وقد وعدوا بنصرة العاطميين ؛ يدل على صحة هذا ما ذكره الكندي من أن جماعة من المصريين كانوا العاطميين ودمسوم إلى غزو مصر . وإلى هذا يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين لهذه الحوادث في هذه الأبيات :

وأقل^(٦) جاهلاً حتى تخطى وجزاز مجمله حدّ التخطى
بكتب جماعة قد كانوا من أقباط مصر وغير قطلى
وكلّ كاتبوه وناقنوا وكل في البلاد له موطن^(٧)

نقرأ صريب نفسه نص هذه الخطب ، وأحجم ، على ما يقول لنا ، عن إيداعها تاريخه ، لما فيها من حيالة تزدى إلى إفساد العقائد الدينية . أما الكندي (ص ٢٦٩) فلم يرد في كتابه ذكر البيت عن انضمام أبي القاسم إلى هذه الحملة مطلقاً ؛ ويتكلم عن حباثة بصفته قائد الجيوش العاطمية . وذكر أوتينا (ص ١١٠) أن أبا القاسم بعث به الخليفة على رأس الممد الذي لحق بحباثة بعد استيلائه على الإسكندرية والقيوم . ويحالفه في ذلك ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٥) والمقرئ (اتماظ ص ٤١) حيث نكلا عن أبي القاسم باعتباره قائد هذه الجيوش بعد سيرها من برقة .

(١) في ذي الحجة سنة ٣٠١ هـ ، على ما رواه المقرئ ، اتماظ الخفا (ص ٤١) ، والمخط (ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢) الكندي (ص ٢٦٨)

(٣) هذا التقدير أتى به مسكويه ج ١ ص ٣٦ . أما أوتينا (ص ٦٠) فقد ذكر أن هذا الجيش بلغ مائة ألف من الأتداء .

(٤) الكندي (ص ٢٧٠)

(٥) الطبري (٢ : ٢٢٩٣) . غريب بن سعد (ص ٥٣)

(٦) الضمير يعود على حباثة الذي ذكر اسمه في البيت الثاني من هذه القصيدة (الكندي ص ٢٧٢) .

(٧) الكندي (ص ٢٧٦)

ولقد حاول دُكا^(١) (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) والى مصر الجديد ، الذى دخل هذه هذه البلاد فى ١٢ صفر سنة ٣٠٣ ، أن يضع حداً للأعمال التى قام بها المواليون الفاطميون ؛ ففتح كل من ردى منهم بمساعدة الفاطميين ؛ فسجن منهم كثيرين وقطع أبداً بعضهم وأرجلهم ، وحلأ أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من غزو الفاطميين ببلادهم^(٢) . وفى سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) سار إلى مصر جيش كثيف تحت قيادة أبى القاسم بن للهدى ؛ فاستولى على الإسكندرية^(٣) ، ثم سار إلى الجيزة . وفى جمادى الآخرة^(٤) من السنة نفسها وقعت موقعة كبيرة بين حشد الفاطميين وأهل مصر ؛ وكانت خسائر كل من الفريقين فيها أربعة آلاف^(٥) ؛ فأرسل الخليفة مؤنس إلى مصر ثانية^(٦) . فلما وصل كان الفاطميون قد استولوا على الأشمونين والفيوم . ومع هذا فإن المزيمة قد لحقت بمجد الفاطميين كما خفت بهم فى المرة السابقة^(٧) ، وأحرق كثير من مهاكب المهدي^(٨) ، وقتل وأسر معظم جندها وقوادها^(٩) .

وقد دوت عريب إحدى هذه القصاصد التى وجه بها أبو القاسم لأهل مصر ؛ وبها شاد بذكر بيته والبلاد التى فتحها وأرسلت نسخ من هذه القصيدة إلى الخليفة العباسى

(١) ذكر ناشر كتاب الولاية للكندى (ص ٢٧٣) ، حاشية ٢ . أن هذا الاسم غبىط فى الأصل بالفتح ، وهو فى بعض الكتب بأهم (راجع صلة تاريخ الببرى لعريب بن سعد ص ٥٣) . وقد ذكره مثاقيل بنيلوف فى كتابه " تاريخ مصر فى العصور الوسطى " (Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, n. 80) بالضم ، وأطلق عليه دكا القروى ، وزاد أن اسمه بالإغريقية دوكام (Ducas)

(٢) الكندى (ص ٢٧٤)

(٣) كان ذلك فى صفر سنة ٣٠٧ ، على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٥) .

(٤) ذكر الكندى (ص ٢٧٦) ٤ جمادى الآخرة . ويخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٨٠) حيث يقول إن هذه الموقعة دارت وساحا فى الخامس من هذا الشهر .

(٥) ذكر عريب بن سعد (ص ٧٩) هذا العدد . وقال الكندى (ص ٢٧٧) إن هذه الموقعة وقعت فى الجيزة ، وكان من أثرها أن أرسل مؤنس إلى مصر .

(٦) دخل مؤنس مصر - على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٧) - فى ٥ محرم سنة ٣٠٨ هـ .

(٧) الكندى (ص ٢٧٧ و ٢٧٨) وعريب بن سعد (ص ٨٠ - ٨٦) .

(٨) يقول أوتيتخا (ص ٨٠) إن عدد المراكب مائة . ويخالفه فى ذلك ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٩) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٧١) والمقرئى (انماط ص ٤٣) فيقولون إن عدد المراكب بلغ ثمانين . ويقول الكندى (ص ٢٧٦) إن هذه الموقعة وقعت فى العشرين من شوال سنة ٣٠٧ هـ .

(٩) عاد أبو القاسم مع القالة فى صفر سنة ٣٠٩ . عريب بن سعد (ص ٨٦) .

المتقدر ؟ فأمر الصولي^(١) الشاعر المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبي القاسم ويدحض قوله ؛ فقام الصولي بما أسره ، و نظم قصيدة على وزنها ورويها ، وفي أحد أبياتها يقول :

ولو كانت الدنيا مَطِيَّة رَاكِب^(٢) لكان لكم منها مما حَزَمَ الذَّنْبُ

ويظهر أن غزوة الفاطميين الثانية لمصر (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ) قد أوقعت شيئا غير قليل من الرعب والهنوع في حاضرة الخلافة العباسية ، وفي نفوس المروطين في مصر . يتجلى ذلك من الحديث الذي دار بين الوزير ابن العرات وعلى بن عيسى ، وكان يتقصد أعمال الدواوين . كان تأثير هذه الغزوة في بغداد والقسطنطينية كبيرا ، حتى إن الخليفة العباسي لقب مؤنسا « المنقَر » في وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم ، إضافة بذكر هذا الانتصار^(٣) .

على أن هذه الجهود التي قام بها الفاطميون في سبيل استيلائهم على مصر لم يكن قد حان وقت جنى ثمارها ؛ إذ كان لابد من تأجيلها طوال عهد المهدي ؛ لأن الخليفة العباسي كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ؛ وكان على هؤلاء أن يعملوا لقلب على سلسلة المصاعب الداخلية التي كان يشهدها الخوارج حيفا بعد حين .

وبعدنا السكندري^(٤) عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، فيقول إن هذه الحملة ظلت

(١) من أحوال إبراهيم الصولي الشاعر المتوفى سنة ٢٤٤ . انظر ابن حلكان (ج ١ ص ١١ - ١٢)
(٢) نقل عريب بن سعيد (ص ٨٣) هذا البيت . أما المترجمي (امانت ص ٤٢) فقد ذكر لنا عند كلامه على غزو مصر على يد الفاطميين في سنة ٣٠١ و ٣٠٢ ، أن أبا القاسم نظم قصيدته في بلاد المغرب ، وأن هذا البيت من قصيدة الصولي حركه أبي القاسم وشغفه بفتح هذه البلاد حيث قال - " والله لا أزال حتى أملك صدر هذا القطر ووأه إن قدوت ، وإلا أملك دوله " .

أما الدنيا فقد شبهها الصولي - على ما ذكره المقرئ - بطائر ، وعطية الركوب ، كما جاء في هذا البيت الذي دونه عريب بن سعيد . ولا مشاحة في صفة هذا القول ، لأن الصولي قصد من ذلك أن يقتل من شأن ما ضعه أبو القاسم من البلاد . وهناك تشابه بين ما ذكره في كتاب المقرئ عن هذه المسألة ، وهو الطائر ، وهذه الحكاية التي أشرت عن هارون الرشيد ، الذي وصف بلاد المغرب لمخافة من الرسل جاعرا إليه من هذا الإقليم . وكان أحد الأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطورية العباسية كدندب البدر ، فأجاب الخليفة أحد هؤلاء الرسل قائلا : إن أحسن حرم في الطائوس هو ذئبه . وهذا كله لا يترك عالما فليشك بأن استعمال عريب عبارة " مطية راکب " صحيح لمناسبته لهذه الحالة .

(٣) مسكويه ج ١ ص ٧٦

(٤) ص ٢٨١ ٢٨٧

زهة ثلاث سنين (٣٢١ - ٣٢٤ هـ) ، وأنه قد حدثت في سنتي ٣٢١ و ٣٢٢ مفاوضات بين جيوش الفاطميين والجيوش المصرية . وفي صفر سنة ٣٢٢ عقدت معاهدة الصلح بين جماعة من المصريين وحشى بن أحمد قائد جند المغاربة ، وكان معسكراً في الجيزة ^(١) .

على أن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ إذ قرأ في كتاب الكندي عن نشوب مواقع عدة بين جيوش المغاربة والمصريين في بعض المدن كالجزيرة وبولاق وبلييس ^(٢) .

وفي عهد ولاية الإخشيد الثانية ^(٣) (رمضان سنة ٣٢٣ - جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ - الكندي ص ٢٨٦ - ٢٩٢) ، انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤ ^(٤) ؛ فبعث إليهم الإخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمة (جمادى الأولى سنة ٣٢٤) ، وأرغمهم على العودة إلى شمال إفريقيا ^(٥) .

هذا ، ولم يتم الفاطميون بمحاولة ما لفتح مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ / ٩٤٥ - ٩٤٥) ، وطوال عهد المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ / ٩٤٥ - ٩٥٢) ، لأن حالة بلاد المغرب الداخلية قد تطلبت كل جهود هذين الخليفين ، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية . هذا إلى ما أحدثه الخوارج من ثورات ، كان أجلها خطراً وأشدّها بلاء هذه الثورة التي أضرم نارها أبو يزيد .

(ب) صلاحية مصر للدعوة الشيعية

كانت مصر صالحة للدعوة الشيعية من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، مع فقر الشرق

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٤

(٢) شرحه ص ٢٨٤ - ٢٨٥

(٣) اسمه محمد بن طنج . وقد ذكر الكندي (ص ٢٨٨) أن هذا لقب أطلق عليه في رمضان سنة ٣٢٧ هـ ، والإخشيد هو أبو بكر محمد بن طنج بن جف من أولاد موك فرغانة . وكانوا يلقبون بالإخشيديين كما يلقب ملوك الفرس بالأكاسرة وملوك الروم بالقياسرة . وتفسير طنج . على ما ذكره ابن زولا - عبد الرحمن .

(٤) الكندي ص ٣٨٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٧

شاور بعض المؤرخين من جاما بعد الكندي كابن الأثير (ج ٨ ص ٩٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٩) والمقريزي (انما ص ٤٥) الكلام على الحلة الثالثة بإيجاز ، وانتقدوا على أنها وقعت في سنة ٣٢٢ ، بخلاف ما ذكره الكندي من أنها قامت ثلاث سنين .

واضطراب الأمر فيه ، بتطلب المتلبين عليه من جهة وإغارة الروم من جهة أخرى . ولا غرو فقد كانت مصر في ذلك الوقت من القوة بحيث أصبح الأمن مستتباً والمهدوء شاملاً في عهد الإخشيد الذي بلغ عدد جيوشه أربع مائة ألف رجل ، عدا حرسه الخاص به . وكانت دوائب هؤلاء جميعاً تدعم بانتظام من الموارد التي هيأتها ثروة هذه البلاد . وإت نظرة واحدة إلى ما بذله خارويه بن أحمد بن طولون في جهاز ابنته قطر الندى (أو أسماء) التي تزوجت من الخليفة المنصور في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، لملأ نفس المؤرخ دهشة ومجبا .

فقد كان من جملة صداق قطر الندى وما قدم إليها من هدايا ، سرير من أرفع قطع من الذهب ، عليه قبة من ذهب مشبك ، في كل حين من التشييك قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوم بمال . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب ، وألف حبة (١) ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . أما قيمة بقيه الهدايا فتركها إلى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره وخياله .

ولسنا نشك في أن هذا التبخير أوفر خارويه . فقد أسر ، توفيراً لأسباب الراحة لابنته في طريقها إلى بغداد ، أن يبني على رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه ، وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج إليه من فاخر الأثاث وغيره ، لتكون في سفرها ممتعة بكل وسائل الراحة كما لو كانت في قصر أبيها (٢) .

على أن ثروة مصر وما سادها من طمأنينة وهذوء قد تعرضا للزوال حينما من الدهس ، بعد أن بلغت مصر أوج عظمتها في الشطر الأخير من أيام كافور . وما يؤيد تبذير خارويه الذي أفقره من وراء زواج ابنته ، هذه العبارة التي نقلها عن التتوخي في كتابه « نشوار المحاضرة » (٣) قال : « ولما حصلت (كذا) قطر الندى ببغداد ، أضاق خارويه إضافة شديدة ، لأنه أفقر بما حمله معها وخرج من جميع نفسه ، حتى طلب شمة

(١) الحبة مئة الإزار .

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٨) . ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٧) .

ذكر ابن دقاق أن عبد الله بن الجصاص الذي عهد إليه بإعداد الجهار ، ناله جائزته وهي أربعمائة ألف

دينار بقبيل بعد إعداد كل ما يحتاج إليه العروس .

(٣) (ص ٢٦٢) Prof. Margoliouth's Translation into English p. 373

فاحتسبت عليه ساحة إلى أن احتيلت فقال : لمن الله ابن الجصاص أقرني في السر .
وفي سنة ٩٣٣ هـ (٩٤٤ - ٩٤٥ م) انكشفت الدولة الباسية إلى حدود بندا
تقريباً ، وغدت الولايات الإسلامية معرضة لمهجمات البيزنطيين ، وتذّر على بندا أن
تصد الجهة الفاطمية على مصر . ومن الضروري أن نوحز القول فيما جرى في مصر من
أمر حلال هذه الفترة القصيرة التي سبقت الفتح الفاطمي ، أي منذ حوالي سنة ٩٣٠ هـ
(٩٣٢ م) .

وعلى الرغم من القضاء على هذه المحاولات التي قام بها الفاطميون لنزوم مصر في سني
٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٢٢ هـ . صادفت الدعوة البيت العلوي نجاحاً عظيماً .
فقد كان الفاطميون يذبحون في صفوف حندم دعاة عهد إليهم أن يحتلوا بالناس ويلبسون
عقائد المذهب الفاطمي^(١) ؛ فلم يلبث أن صار في مصر - قبل فتح هذه البلاد على أيدي
الفاطميين زمن طويل - عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويرجو نجاحه .

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب ، بل
كان علماءهم أيضاً نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة ؛ فقد أزعج بعضهم أنهم كانوا
يرسلون كتباً يكتبونها بأيديهم ويذيلونها بإمضاءاتهم .

وقد ذكر ابن سعيد أن أبا القاسم (هو الخليفة القائم ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ -
٩٤٥ م) كتب بيده كتاباً خاصاً به مع رسول من قبله إلى محمد الإخشيد ، رغبة
منه في أن تفعل سياسة الدين والسالة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التي
أخفق فيها هو وأبوه من قبل ؛ وإليك هذا الكتاب بنصه :

« قد خاطبتك أعزك الله في كتابي للشتل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد
الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضمت رققتي ما لم يطلع عليه
أحد من كتابي وذوي المكانة عندي . وأرجو أن تودك حمة من يتك وحسن رأيك إلى
ما أدعوك إليه ؛ فقد شهد الله على ميل إليك وإيتاري لك ، ورغبتي في مشاطرتك ما حو به
يعني واحتوى عليه ملكي . وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي ؛ لأنك قد

(١) ينبغي أن نشير إلى الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون بقولنا " الدعوة الفاطمية " ،
نميز بذلك بين طائفة الفاطميين وغيرهم من الطوائف الشيعية الأخرى ، لأن هذا التصير أصح وأدق .

استغرقت مجهودك في مناصرة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون
وهذا ويخفرون ذمتك ؛ لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل الجزاء . وليس
ينبغي لك أن تتدل عن مہج من نصحك وإيثار من آثرك ، إلى من يجهل موضعك
ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك المدول عنهم . فإن لم
تجد من تفك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فإنني أرضى منك بالموء والأسر
والطاعة ، حتى تقيس مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه في أمرك وتعمل عليه بمثل
ذلك . وإذا تدرت هذا الأسر ، علمت أن القى يحمل على التفاضل لك وقبول اليسور
منك ، إنما هو الرغبة فيك . وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته ، والله يريك حسن
الاختيار في جميع أمرك ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل » ^(١) .

على أن هذا الكتاب لم يكن له من تأثير في نفس الإخشيد القى دافع رسول الخليفة
الفاطى وسؤف الرد يوما بعد يوم . غير أن أموراً حدثت فبذلت صلة هذه المودة القى
ربطت الإخشيد بالخليفة العباسى ، على أن ما وصله من الأنباء بمسرح ابن رائق ^(٢) إلى مصر
بتولية البلاد من الخليفة العباسى نفسه . لهذا تارت ثائرة الإخشيد ، فأمر بقطع الخطبة لهذه
الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطى بدله .

روى ابن سيد نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى في مصر ، حكاية نعلم منها
كيف أمر الإخشيد بذكر اسم الخليفة الفاطى ، وكيف كان ذلك خطوة مهد بها
للاعتراف بسلطان الفاطيين ، وقد زاد عدد أتباعهم الذين أخذوا يدعون لهم جباراً ولا
يألون بذلك . وهذا نص هذه الحكاية :

« دعانى الإخشيد يوما فقال لى : إذا كان يوم الجمعة ، فأتم الدعوة لأبى القاسم صاحب
للنرب واستط الدعوة لراضى حتى يعلم محمد بن ملنج ... قلت : كما يأمر الإخشيد .
فندوت إليه ثانية واستأذنته ، وقلت له يرجع . فقال : نعم أفلم أزل على هذا ثلاثة أيام
إلى يوم الخميس ؛ فاتهمت أن يكون أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب — وكان رجلا جزلا
جيد الرأي شيعيا — قد حسن له هذا رأى ؛ لأنه أقام فى احتفاله سبع سنين ، وكان لما

(١) ابن سيد : كتاب المنرب (ص ٢٥ و ٢٦) .

(٢) هو محمد بن رائق وكان خزوا . أنظر صلة تاريخ الطبرى لمرحب بن سعد (ص ١٢) .

أطلقه اختص به . فجئت إلى ابن عبد الوهاب وخلوت به وحدثته فقال : إن السوءاء ربما نارت به ، أنساوته ؟ قلت : قد حاوته أربعة أيام . فقال لي : أنا أخلو به كل جمعة بالتدانة ، فافرق به وقل أين عمل الذي أسرني به ، في جامع أسفل أو في جامع ابن طولون ؟ وخلق وإياه . فجئت إليه ورفقت به وقلت : أيها الأمير ! الذي أسرني به ابن أمه ، في الجامع العتيق أم جامع ابن طولون ؟ فقال لي : أنت في الجامع العتيق وخليفتك في جامع ابن طولون . فقال له ابن عبد الوهاب : إيش ^(١) هذا الذي فعل ؟ فقال الإخشيد : شيء . فقال ابن عبد الوهاب : الله السعان ! شيء يعمل على المريكمت ، وبعد ساعة يعلم به الجمهور ؟ فقال له : قد تأذيت بالراضى وبهذا الصبي ابن رائق ؛ وقد أسرته الخليلب أن يدعو لأبي القاسم صاحب المغرب . فقال له : وفق الله الإخشيد ! فلقد وضعت الضميمة في موضعها ؛ ولقد أخبرت أنه في الحزن على أبيه إلى الساعة ، وما جلس في مرتبته إلا حزينا كانيا ، ولا جرد سيفا ، وهو من للشرف والملك على ما سمعت . فالحمد لله الذي جعل رجوع هذا الأمر إلى أهله على يدك وبك . فاستبشر الإخشيد وأسفر وجهه . ثم التفت ابن عبد الوهاب إلى الخليلب وقال له : اقرأ الذي حملت . قال : ما حملت شيئا . فقال ابن عبد الوهاب : تؤمر منذ خمسة أيام بهذا الأمر فلم تصل فيه شيئا ؟ فقال الإخشيد : إيش يعمل ؟ قال يمتاج إلى نحو خمسة آلاف كلاما معسولا في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى وقاطعة والحسن والحسين ، وأهل البيت عليهم السلام ، ويذكر أنهم أحق بالإمامة ، ويقول ذلك والناس يسمون ؛ فمن كان يشتهي هذا قويت نفسه ، ومن كرهه انحل . فقال له الإخشيد : عمله ! فقال لي ابن عبد الوهاب : تلحق اليوم ؟ قلت : لا ! فقال : الجملة الأخرى . فقال الإخشيد : الجملة الأخرى . فاصبرفت ؛ فلما كان من الند دخلت على ابن عبد الوهاب فقال لي : قلت له بمدك إنه رأيى وهوى فيا تله . ولكنى أصدقك تكون أنت من أترك الناس على ابن رائق ، لأملك إذا حملت هذا كتابه من مصر من يكره هذا ، وكتب بذلك إلى العراق . فإن كان الراضى لم يقلده ، قلده وأنفذ إليه الأموال والساكر ، وصيرت له شيمة وخاصة ، ولكن دع هذا إلى وقت آخر ^(٢) .

(١) بمعنى أى شيء . ولقد نقلنا هذه الحكاية بنصها بالرغم مما فيها من عبارات وألفاظ ركيكة ، وذلك خشفاً لأمانة النقل .

(٢) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٦ - ٢٧) .

على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلاً للخليفة الفاطمي؛ إذ أن الخطيب العباسي الذي تلقى الأمر بتنفيذ هذه السياسة لم يزد هذه السألة بياناً. يبدو أنه ينبغي أن لا يبرز عن أذهاننا أنه، لو كان اسم الخليفة العباسي لم يذكر في الخطبة على منابر مصر أيام الإخشيد، لما ضن علينا المؤرخون بذلك، على حين أنهم لم يضمنوا بموافقتنا بنياً مسور ابن رائق لتسلم زمام الولاية من الإخشيد، وظهور العداء بينه وبين الخليفة العباسي.

تولية كافور حكم مصر^(١)

في ذلك العصر الذي استبد فيه الموالى من الأتراك بالسلطة في بغداد، وساد الحمدانيون في الموصل وشمال بلاد الشام، في ذلك العصر الذي اشتر فيه نفوذ الأمويين بالأندلس، وأسس الفاطميون دولتهم في بلاد المغرب وصقلية، والساامانيون في خراسان، والإخشيدون في مصر والشام والحجاز، انتقلت السلطة في بغداد إلى بني بويه في سنة ٣٣٤ هـ، ومات الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية، وآلت الوصاية على ولده أنوجور^(٢) إلى كافور^(٣)،

(١) اعتمدت في العبارة التي كتبها عن تاريخ مصر إلى وفاة الإخشيد، على ما كتبه الكتني المتوفى سنة ٥٣٥ هـ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ. وقد نقل ابن سعيد ما ذكره الكتني وابن رلاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ عن الإخشيديين، وقد شك دوش جيت (Rhuvoon Guest)، الذي نشر "كتاب الولاية" وكتاب القضاة (E. W. Gibb Memorial, Series XXX, 1912)، في اسم الكاتب الذي ذيل كتاب الكتني. هذا، وقد نقل ابن رلاق كتاب الكتني الذي ينتهي الجزء الذي تكلم فيه عن ولاية مصر في سنة ٣٣٤ هـ، وهي السنة التي مات فيها الإخشيد. والكاتب الذي ذيل كتاب الكتني هو ابن سعيد الذي يقول في كتاب "المغرب": "وقد ذيل هذا الكتاب بسيرة أنوجور وأخيه عليّ وكافور وأحد بن عليّ بن الأحشيد والقائد جوهر، إلى أن دخل المرلدين الله عليه السلام مصر وصارت دار علاقة الخ": كتاب المغرب (ص ٥) والكتني (ص ٢٩٣ - ٢٩٨).

(٢) ومنهنا ياترربة محمود علي ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٥) ذكر ابن خلكان أن حلق الولاية أرسلت لأنوجور في عهد الرازي الذي مات قبل ذلك بحمس سنوات (أي في ٣٢٩ هـ).

(٣) أبو المسك (أطلقت هذه الكنية من قبيل التلميح والمشاكلة؛ لأن الملك أسود القرون، وكان كافور كاذك. وكثيراً ما يستعمل العرب ذلك. قال حنرة العيسى:

فان أك أسوداً فالسك' لوفى وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تيمد الفحشاء حتى كبد الأرض من بؤسها

نعم! الدعاية إنما هي في إطلاق لفظ كافور عليه؛ لأن لكافور أبيش وكان هو أسود القرون. وكافور كان عدواً عصبياً. وكان قبيح الخلقة يديناً ثقيلاً، ورجلاً مشوحدان. وكان مملوكاً لأحد أهل مصر، فاشتره أبو بكر محمد بن طنج الإخشيد سنة ٣١٢ هـ، وكان إذ ذاك من رؤساء الأجناد. ولما آلت ولاية مصر للإخشيد، ترقى كافور في بلاطه.

ذلك الملوك الغصى ، الذى قدر له أن يستبد بالسلطة فى مصر وما يليها من البلاد ، زهاء إحدى وعشرين سنة .

وقد قام فى وجه كافور فى مبدأ حكمه بعض المشا كل الداخلية والخارجية : فنجح فى القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلاصهم^(١) . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام ، واستيلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب على دمشق ، وبأنه حوّل على السير إلى الرملة لنزول مصر . فخاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طنج أخى محمد بن طنج الإخشيد ، وانتصرا على سيف الدولة انتصاراً حاسماً ، بالقرب من مرج عذرا ، بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وحُذت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى فقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ما عدا الجزية ، فقد وُفد فيها . وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسى على بولية الأمير الضعيف على مصر والشام وعلى الدينيتين المقدستين مكة والمدينة ، كاضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية ، حتى مدينتى حلب وطبرطوس . بذلك عظم شأن كافور ، وزادت شهرته ، واستطاع أن يقضى على زمام الأحكام ، من غير أن تكون له سلطة تشريعية . وخطبه عليه القوم بالأساذ ، ودُكر اسمه فى الخطبة ، ودُعِيَ له على المنابر فى مصر والبلاد التابعة لها ، وأُتيح له بما أغدته من المطايا والهبات أن يكتب بحبة رؤساء الجند وكبار الموظفين^(٢) .

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور . واتقسم الجند فريقين : الإخشيدية ، وهم محاليلك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية ، وهم أصحاب كافور الذين رقام إلى المناصب العالية فى الدولة . ومع ذلك فقد ظل كافور على ما هو عليه ، يصرف لابن سيده راتباً قدره للقرى^(٣) بأربعمائة ألف دينار فى السنة .

وقد حوّل أنوجور على السير إلى الرملة سنة ٥٣٤٣ هـ ، وربما كان يرمى بذلك إلى إبعاد جيش يزحف به على مصر ، لتتخلص من كافور بمحمد السيف . ولكن أم أنوجور سعت

(١) التاجم الزاهرة لأبى الحسن ج ٤ ص ٧ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ .

(٣) المخطوط ص ٢٧ .

إلى مصالحتها ، خوفاً على ولدها من بعاش كافور ، فصالحها . وظل أنوجور مطلوب السلطة ، لا يملك من الأمر شيئاً ، حتى مات سنة ٣٤٩ هـ [٩٦٠ م] ، فخلعت جثته إلى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه . ويتهم بعضهم كافوراً بأنه سعى إلى موت أنوجور ، قبل كراهته لهذا المنتصب كانت غير خافية . وقد دبر له الكايد والحيل لتخلص منه ؛ ولذا يقال إن كافوراً سقاء السم . على أنه من الصعب أن نقبل هذه التهمة على علانها ، فقد عرف كافور بالصفة وكرم الخلق . روى ابن سيد^(١) عن ابن زُولاخ أن أحمد بن طولون ذكر في مجلس كافور بأنه أحصى من قُتل أو مات في حبه ، فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ فاستأذ كافور بثمن من هذا الأمر ، ورفع يديه يدعو الله أن يحمل أضعافهم في ديوان إحسانه وصيلائه . على أنه من الجائز أن كافوراً — لما عرف بنية أنوجور — رأى أن يسجل بقتله ، حرصاً على حياته ، وإبقاء على مركزه . وإذا أخذنا بهذا الاحتمال ، فن الجائز أن يكون كافور قد استحل طيبة القلب سياسة منه ، لاجتذاب قلوب الناس إليه .

ولا شك أن كافوراً كان مشغولاً بالإمارة ، ولوعاً بالسلطة ؛ فانه لما تولى أبو الحسن على بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور ، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه ، على الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل إنه حرمة كل عمل ، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح أبو الحسن أسيراً في قصره ، لا عمل له إلا الصلاة أو الهوى ، وعين له كافور — كما عين لأخيه من قبل — أربعاً ألف دينار في كل سنة . وبقي أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلّة التي مات بها أخوه من قبل .

وكان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبي الحسن على ، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بنهر أمير محمداً من شهر . وفي الحرم سنة ٣٥٥ هـ ماخرج كافور كتاباً من الخليفة المباسي بتقليده ولاية مصر ، وأظهر الخلق له وصلت إليه من الخليفة ، فنودى به والياً على مصر وما يليها من البلاد ، فلم ينهر قلبه « الأستاذ » ، ودعى له بعد الخليفة على المنابر^(٢) .

وإن حالة أولاد الإخشيد مع كافور للشبه في كثير من الوجوه حالة الخلفاء المباسيين

(١) كتاب المغرب في حل المغرب ص ٤٨

(٢) ابن سيد : المغرب في حل المغرب ص ٤٦ ، ٤٩ .

مع المولى من الأتراك ، وملوك الميروفنجيين Merovingians المتأخرين الذين أصبحوا أشبه شيء بالأعيب في أيدي نظار السراى^(١) .

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥ - ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود ، توالى فيه المصائب على مصر ؛ فقد تعرضت بلاد الشام لعارات القرامطة الذين نهبوا وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف رجل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج (٣٥٥ هـ) ، ووقعت مصر زلازل مبروعة ، وشبت نيران هائلة ، دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل المصطاف ، وأغار ملك النوبة على مصر فجاءت وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال الأول والنجيم ، فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم . وكان أشد هذه الأحوال انخفاض ماء النيل . ففي أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) ، وبقي حتى أيام الفاطميين . وقد قاست البلاد الأمرين مما أصابها من القحط والوباء ، واشتد القلاء ، ونذر وحود القحح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم . وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستائة ألف ، وأنه كان يُلقى بحشهم في النيل لكثرتها . وقد تبع انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية ، وانتشار المجاعات والأوبئة . فهبت الحماصيل ، ومم السلب والنهب ، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند — وكانوا من الأتراك والروم — فثاروا عليه . ولعل ذلك مما دفع ليفول^(٢) إلى القول بأن « كافوراً كان بلا شك خادماً موفقاً أكثر منه قائداً ناجحاً » .

وفي عهد كافور حاول المرز لدين الله الفاطمى العودة لتزو مصر ، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد النثرية ، ووصل إلى الواحات . فجهز إليه كافور جيشاً أوقف تيار تقدمه وطرده . لكنه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المرز بدعوته إلى طاعته والاعتراف بسيادته ، ووعد كثير من رجال بلاطه وكبار موثقى دولته بتقديم الولاء للحكومة الفاطمى .

Thatcher and Schwill : History of Europe., p. 42 (١)

Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 87 (٢)

استطاع كافور أن يُنقِ على النظام الذي ساد مصر منذ عهد الإخشيد . ثم كان كافور خادماً موفقاً ، وكانت له شخصية قوية ، موثق إلى حد كبير في استجلاب رضا مولاة الإخشيد ، حتى وصل إلى مركز يحد عليه . وقد بذل جهده في الاحتفاظ بهذا المركز ، فتمتعت البلاد بشيء كثير من الرخاء ، حتى إننا لا نسمع في ذلك العهد الذي يربو على اثنين وعشرين سنة ، تدمراً أو سخطاً من جانب المصريين مما يدل على أنه كان محبباً إلى رعيته .

روى أبو المحاسن^(١) عن الذهبي : « وكان كافور يُدنى الشعراء ويحيزهم ، وكانت تُقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله مداء . وكان عظيم الحرمة ، وله حُجَّاب ، وله حوار مغنيات ، وله من الفلّان الروم والسود ما يتجاوز الوصف . زاد ملكه على ملك مولاة الإخشيد ؛ وكان كثير الخلع والمبات ، خيراً ما ليسه ، فطناً ذكياً ، جيد العقل داهية . كان يهادى صاحب العرب ، ويظهر ميله إليه ، وكذا يُدّعن بالعادة لبي الباس ، وبادرى ويحادع هؤلاء وهؤلاء . وتم له الأمر » .

ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبي ، أشهر شعراء عصره ، فقد فارق سيف الدولة الحمداني مضاضاً ، وقصد مصر ، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح ، طمأناً أن يوليه بعض أعمال مصر . فحس كافور عليه ، وأزله في دار ، وعين جماعة تلذسته ، وحمل إليه كثيراً من المال ؛ لكنه لم يوله عملاً من الأعمال ، معتدراً بأنه لا يستطيع أن يولى رجلاً يدعى النبوة ، فأقلب مدح أبي الطيب هجاء ، وأسرف في ذلك كما أسرف في مدحه من قبل^(٢) .

ولكافور شخصية طريفة ، وما أكثر التعمص التي تدور حول شخصيته . من ذلك ما يروى من أنه سر جماعة من السودان ، كانوا يصرون على الطبل المعروف عندهم بالهدبة ، فطرب كافور ، وحرك أكتافه على نثبات الطبل ، حل نحو ما يفعل السودانيون إذا ما أطربهم هذا النوع من الضرب فلما أفاق لنفسه ، وعلم أنه فعل ذلك من غير قصد ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٢) شرح ديوان المتنبي لمبد الرحمن قبرتوق ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ج ٢ ص ١١٢ .

جل بهز أكتافه في أغلب الأحيان ، دفأ لما قد تجرته هذه الحركة من نقد الناس وسخرتهم به ، حتى لا يتقنوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذه الهدية . وهذه الحكاية - إن صدقت - تدلنا على سرعة خاطره .

وكان كافور على الهمة ، عارفاً بأقدار العلماء والوجوه والأشراف . روى أبو جعفر مسلم ابن عبد الله بن طاهر الشريف العلوي ، أنه بينما كان كافور راكباً في موكبهِ يوماً إذ سقط سوطه ، فتناوله الشريف إياه ^(١) ، فقبل كافور يده ، وقال له : « نَعِمْتَ بِلِيّ نَفْسِي ، فإبعد أن ناواني ولقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يُشَفَّرُ لها » .

وقد ذكر السيوطي في رواية أخرى أن كافوراً ردّ على الشريف بقوله : « أيها الشريف ! أهوذا لله من بلوغ العاية ! ما ظلمتُ أن الزمان يُبَلِّغُنِي حتى يُدَمِّلَ بي هذا ! وكاد يبكي . فلما بلغ كافور داره أمر بالبشال والحناشب لترسل إلى الشريف ، فخدمت من العطايا ما يروونها على خمسة مئزر ألف دينار ^(٢) .

ومن الحكايات التي أثرت عن كافور ، أن امرأة وقفت في طريقه مرة ، وصاحت به : « حيّ يرحمك الله ! فدفنهما أحد رجلاه دفأً عتيقاً فسقطت ، فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ ، وأمر بقطع يد الرجل ، فشغمت له حتى لا يكون شؤماً عليه ، أعجب بها كافور ، وأمر أحد رجلاه أن يسألهما عن أصلها ونسبها . فإذا بها عتوية ، فشقّ ذلك عليه ، وعزا ما وقع إلى الشيطان ، وإغفاله إياه عن هؤلاء الأشراف ، وأحسن إلى العلوية ، وأدرّ المهابات والأدراق عليها ، وعلى سائر نساء الأشراف ^(٣) .

ومن هنا يتضح أن عزم كافور على تحويل طاعته من الباسيين إلى الفاطميين كان قد اخترع منذ ذلك الحين . هذا فضلاً عن أن حالة مصر الداخلية في السنين الأخيرة من حكمه قد دلت على أن عهد الإخشيديين قد آذنت بالزوال ، مما سهل غزو مصر على أيدي الفاطميين .

(١) ذكر السيوطي (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم بن عبيد الله ، من سلاله الحسين بن علي : وأحد الرسل الذين تديروا لطلب الصلح من جوهر .
(٢) ابن سبيد : المغرب ص ٤٧ . وقد وردت هذه الرواية بصورة أخرى في كتاب النجوم الزاهرة لأبي المعالي ج ٤ ص ٢ - ٤ .
(٣) ابن سبيد : المغرب ص ٤٨ .

توفي كافور عصر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، (٩٦٨ م) وعاش بضما وستين سنة . وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، استقل منها بالملك ستين وأربعة شهور ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والنفور ، مثل طرسوس والمصيصة وغيرها ، وحل تابوته إلى القدس فدفن به ، وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفرداً بالصَّحصح التَّزَّتِ بعد السكر العجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

عصر بعد وفاة كافور :

في هذا العهد فاست مصر البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد هذه المحن انخفاض النيل الذي بدأ سنة ٣٥١ هـ ، وما تلاه من قحط ووجاع . وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى سنة ٣٦٠ هـ . ويحدثنا المقرئ^(١) بما كان متوقفاً ، وهو أن القحط أعقبه الوباء ؛ ففسا الموت بسببه ، حتى هجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ، فاضطروا إلى إلقاء جثث موتاهم في النيل^(٢) . وكان من أثر ذلك أن اشتد القلاء ونذر وجود القمع ، وأغار الأشرار على المزارع والحقول ، وهم السلب والنهب .

ومما زاد هذا البلاء الذي أصب على البلاد هجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ٣٥٢ هـ ونهبوا حججاج مصر في طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥ هـ ، ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها . لك التوبة ، حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى إخم^(٣) وعاد إلى بلاده عملاً بالأسلاب والفساد كما تقدم . يضاف إلى ما تقدم ما كان من هجز كافور عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم ، فثاروا عليه^(٤) .

هذه حالة مصر عند وفاة كافور ، وما صارت إليه البلاد من القوضى والبؤس . وقد اجتمع رجال البلاط لاحتياروا ل يحمل محل كافور ، على ما سرت به العادة في هذا العهد . وليس من عجب في ذلك ، فإن الخليفة العباسي غداً في عهد بني بويه أشبه شيء

(١) خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

(٢) يؤكد لنا ابن خلكان أن مائة ألف من المصريين ذهبوا ضحية هذا الوباء .

(٣) مدينة واقعة على الضفة اليمنى للنيل في مديرية سوهاج .

(٤) المقرئ : خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

بأنوبة ، ولم يد له من أمر تعيين الولاة شيء ؛ وقد وقع الاختيار على أبي القوارس أحمد حفيد الإخشيد ، وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من العمر^(١) .

وقد صادف أن وصل مصر بعد ذلك الحسن بن عبيد الله بن طنج الذي تركه أخوه محمد الإخشيد في الشام سنة ٣٢١ هـ ؛ فأقام فيها نحو ثلاثين سنة ، وصرت به أطوار شتى ؛ ففر ابنه من وجه القرامطة ، فلقاه أمراء الأتراك في مصر بقبول حسن وولوه قيادة الجيش . لكنه ما لبث أن استبد بالأمر وقبض على الوزير ابن القرات وصادر أمواله ، ثم عاد إلى الشام^(٢) .

وبعد رحيل الحسن بن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، ظلت مصر خسة أشهر تحت سلطة الإخشيديين الاسمية ، في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب . وكانت إدارة البلاد في يد الوزير ابن القرات الذي لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهالي ما أصبحوا فيه من بؤس وشقاء ؛ لهذا لا نجب إذا هجرت البلاد عن صد هجمات النصارى . وكانت هذه الحلة فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمي لنزوح مصر . ولم تكن بغداد في ذلك الوقت قادرة على أن ترسل جيشاً يصد الفاطميين عن هذه البلاد .

هجمت بغداد على إرسال الجيوش :

بينما من قبل ما كان من ضعف الدولة العباسية وانقسام المسلمين إلى شيع وطوائف . والآن يجعل القول عن حالة الخلافة العباسية في بغداد في الوقت الذي تم فيه استيلاء الفاطميين على مصر ، لتبين كيف تسدر على السلطة المركزية في بغداد أن تبث إلى مصر بجيش يصد الفاطميين عنها ، كما فعلت ذلك مراراً من قبل .

ولا غرو فقد استقل الأمويون بالأندلس ١٣٨ - ٨٩٧ هـ (٧٥٦ - ١٤٩٢ م) على يد عبد الرحمن الأول ١٣٨ - ١٧٢ هـ (٧٥٦ - ٧٨٨ م) ، وتأسست دولة الأدارسة في مراکش ١٧٢ - ٣١١ هـ (٧٨٨ - ٩٢٣ م) على يد إدريس بن

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٥٧)

انظر حسن إبراهيم حسن : كفاية الإخشيد : مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد السادس مايو ١٩٤٢ .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦) .

عبد الله ، ودولة الأغالة في تونس ١٨٤ - ٢٩٦ هـ (٨٠٠ - ٩٠٨ م) على يد إبراهيم ابن الأغلب . كذا كانت سيادة الطولونيين ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ (٨٦٨ - ٩٠٥ م) والإخشيديين ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ (٩٣٥ - ٩٦٩ م) في مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتت في عضد الدولة العباسية بتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها في التراب .

١ - الجمهور على بغداد من الشرق :

هذا في التراب . أما في الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت في بلاد القرس وبلاد ما وراء النهر دويلات عدة ، يرجع سبب قيامها إلى انتماش روح القومية التي ظهرت منذ أيام المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ (٨١٣ - ٨٣٣ م) ؛ فقامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ / ٨٢٠ - ٨٧٢) في خراسان ، ومنهم انتقلت للسلطة إلى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ / ٨٦٨ - ٩٠٣) التي تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ / ٨٧٤ - ٩٩٩) التي تفرعت منها الدولة الفرنجية (٣٦٦ - ٥٧٩ / ٩٧٦ - ١١٨٣) ؛ لأن البتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالي الأتراك الذين استبعدوا في البلاط الساماني .

ولقد تفاقم خطر كثير من هذه الدول ، فقويت شوكة بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ / ٩٤٥ - ١٠٥٥) ، وكانوا من الشيعة النحلة ، وامتد شرم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . وما يدل على مبلغ الضعف الذي وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هذه الدولة التي آل إليها الحكم ، أنه لم يعد لخليفة من الأمراء ، سوى سلطته الدينية بمنزلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غاية في احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكمهم أمام الجمهور .

وقد وصف المؤرخ جيون الحالة التي وصلت إليها الدولة العباسية في ذلك العصر فقال : « لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة تحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضاً . فقد نشأت من للذهب الشيعي على مر الزمن مذاهب متعددة ، أهمها المذهب القاطبي ، والمذهب الدرزي في لبنان ، والمذهب البابي في بلاد القرس ، وقد ظهر في الأزمنة الحديثة . كذلك ظهرت الاختلافات الدينية في بغداد ؛ فقام أنصار ابن

حنبل^(١) واقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار ، وكسروا أواني الخمر ، وحطبوا الآلات الموسيقية وضربوا الفنانين ، وأهانوا الفنانين والفتيات وأساءوا بهن الظنون . ولم يكن من سبيل لقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حرية ؛ ولكن من ذا لدى يمكنه أن يبدد جشع طائفة المرتزقة أو يؤبد النظام بالقوة بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من سبل الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل في وجه الآخر ؛ وأصبح في يد أمير الأمراء^(٢) حبس الخليفة وخلعه وقتله . فكان هذا تمديدا على سلطة الخليفة لدبنة وما لها من حرمة في النفوس ؛ ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء . فكان إقاعه تحولا مما كان فيه من مدة إلى مدة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بني بويه لموته وتخليصه مما هو فيه ؛ فلما ما وقع تحت رحمتهم صار الموبة في يدهم^(٣) .

٢ — أغارة البيزنطيين على الولايات العباسية :

لم تكن الحالة في الحدود الشمالية الغربية أقل سوءاً واحتلالاً منها في الجهات التي يتناها . فقد ساد العداء منذ ظهر الإسلام بين المسلمين ولأغريق بحكم الجوار . على أنه كثيراً ما كانت كفة المسلمين راجحة إلى أن جاء الخليفة المعتد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ و ٨٧٠ — ٨٩٢ م) ، فانكسرت الإمبراطورية العباسية في عهده إلى حدود الجزيرة والعراق ، وفيها أيضاً قامت الثورات ومم الاضطراب ، مما أدى إلى قيام النزاع بين المسلمين والروم منذ ذلك الوقت ، وإن لم يكن قد أدى إلى نتيجة حاسمة .

كانت حالة الدولة العباسية في عهد المعتد مضطربة في الداخل والخارج ؛ ويرجع السبب

(١) ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، ومات عام سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . أنظر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٠ — ٢١)

(٢) أوله من تلقب بهذا القالب هارون بن غريب سنة ٣١٦ هـ . مسكويه (ج ١ ص ١٨٨ و ٣٥٠)
 (٣) وقد قلد الخليفة العباسي الراسي محمد بن رائق « الإمارة ورياسة الجيش » ، وحمله أمير الأمراء ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون في جميع التواصي ، وقوس إليه تدبير المسكة ، وأمره بتخبط له على جميع المنابر في الممالك وبأن يكنى .

أظهر كتاب « تجارب الأمم » مسكويه (ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، وترجمته إلى العربية الأستاذ مارجوليث (Prof. Margolouth) (ج ٤ ص ٣٩٥) بمثابة كلام مسكويه عن ابن رائق

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire (4th ed.) vol. VI, pp. 54-55 (٢)

في ذلك إلى صفر سنة ، ومجزءه عن مباشرة أمور الدولة ، وازدياد نفوذ الأتراك ، وتدخل النساء في الحكم^(١).

وقد وصف ميور^(٢) الدولة العباسية في عهد القنطرة فقال : « إن عهد هذا الخليفة النعمان قد هوى بالدولة إلى الخفوض . فقد ضاعت ممتلكاتها في الخارج : فضاعت إفريقية ، وأوشكت مصر أن تضع ، واستقل أسراء بني حمدان بالموصل ، واستطاع البزنطيون أن يشتروا إغاراتهم للتصقة على الحدود الناجحة التي ضف الدفاع عنها . ومع ذلك بقي شيء من الاعتراف بسلطان الخلافة في البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأسراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولايتهم . أما في الأراضي القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخذت ثورات القرامطة الخفيفين إلى حين . وفي بغداد نفسها ، صار الخليفة القنطرة الذي كان آفة في أيدي رجال البلاط وذوي الأطماع ، تحت رحمة حراسه من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم الذين لا يمتنون إلى العباسيين بصفة ، والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين . ولم تمتد بغداد للكان الذي يضم رجالاً أقباء يداؤون من بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك . أما الآن فقد أصبحوا أحزاباً وشيخاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء ، كما فعلوا في ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص ، وكما حدث أيضاً عندما ثار الخناطية ورموا الطبري بالإلحاد وحاولوا دون دقته^(٣) . ولم يبق للخليفة الراضي - كما يقول ابن الأثير^(٤) - غير بغداد وأعمالها ، والحكم في جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم . وأما باقي الأطراف : فكانت البصرة في يد ابن رائق ،

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٣ .

(٢) Muir : The Caliphate, pp 567 - 8 (٢)

(٣) شير ابن الأثير (ج ٨ ص ٤٥ - ٤٦) إلى ذلك يقول : « دفن الطبري » ليلة بداره لأن العامة استمعت ومنعت من دفنه هاراً ، وادعوا عليه الرقص ثم ادعوا عليه الإلحاد . . . ليس الأمر كذلك ، وإنما بعض الخناطية تعصبوا عليه ورتعوا فيه فتجهم غيرهم . ولعلك سبب هو أن الطبري جمع كتاباً فيه اختلاف الفقهاء - لم يصنف مثله - ولم يذكر فيه أحد من أهل ، فليل له في ذلك فقال - لم يكن فقهاً وإنما كان محدثاً ، فاشتد ذلك على العامة ، وكانوا لا يحصون كثرة بعداد ، عشقوا عليه وقالوا ما أراؤوا

حسدوا القتي إذ لم يتألوا عليه فالناس أعداء له وغصوم
كضرائر الحساء قان لوجهها حدةً وبغضاً إله النعم

(٤) ج ٨ ص ٦٦٢ - ٦٦٣

وخوزستان في يد البريدي ، وقارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس ، والري وأصبهان والجليل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مردادج يتنازعان عليها ، والوصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بنى حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طنج ، والمغرب وإفريقية في يد عبد الرحمن بن محمد المللق بالناصر الأموى^(١) ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان في يد الهيلم والبحرين والنجامة في يد أبى طاهر القرملى .

لم تستفد الخلافة العباسية قائدة من هذا النظام الذى أدخله الراضى بإنشاء منصب أمير الأمراء لإزالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت أحوالها سوءاً . وإن من يستقصى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ م) والنتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ م) والسكنفى (٣٣٣ — ٣٣٤ م) — ذلك العهد الذى انتهى بدخول بنى بويه ببغداد ، واستيادهم بالأمردون الخليفة وأمير الأمراء — فإنه يجد عبارة عن سلسلة منازعات لا تكاد تنقطع بين رجال الدولة العباسية ، الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء .

ولقد قويت شوكة الإمبراطورية البيزنطية ، وانتشر الأمن والسلام في أرجائها منذ اعتلاء باسيل الأول (Basil I) العرش ، فتمكن بكل قوته من مقابلة جيوش بعض الأمراء ، وساعد على انتصار باسيل ما كان من ضعف أعدائه بسبب إغارة خصومهم على مؤخرة جيوشهم .

وفى عهد قسطنطين السابع (Constantine VII) توطدت صلوات السلام بينه وبين ما جاوره من البلاد ، إلا البلاد الإسلامية . فساد هذا السلام بينه وبين أرمينية في الشرق ، والروسيا وبلغاريا في الشمال ، والبندقية وألمانيا في الغرب^(٢) .

وفى سنة ٣٥٠ م (٩٦١ م) استولى القائد نقفور فوكاس Nicephorus Phocas على جزيرة كريت . وبعد ذلك بقليل ، انتصر على سيف الدولة الحمدانى . وفى سنة ٣٥١ م

(١) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموى في بلاد الأندلس (٣٥٠ — ٣٥٠ م) نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فأصبح في العالم الإسلامى ونقطة ثلاث حلقات الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة العاطمية في بلاد المغرب ، والخلافة الأموية في الأندلس .

استولى على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش وديبق ؛ و ما تقرب من متج أسرامهر هذه المدينة أبو فراس الجردى الشاعر المشهور ، وأخيراً استولى نقفور في ديسمبر من السنة نفسها على حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق ^(١) .

وبعد موت رومانوس (Romanus) رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل في صفر سنة ٣٥٢ (مارس ٩٦٣) ، تزوجت أرملته تيوفونيا Theophonia من نقفور فوكاس ^(٢) ، ثم من قاتله جون زيميسكيس John Tzimiskes ، بطل ذلك العصر ، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وقد امتدت غزوات هذين الإمبراطورين من تلل كبادوكيا Cappadocia إلى صحراء بغداد . والاثنا عشرة سنة التي تولى فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية أبهى عصور الإمبراطورية البيزنطية وأزهاها ^(٣) .

وفي سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) ، تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت في أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس في سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) بعد أن مال منهما القحط والموت ، فلم تقويا بعد على مواصلة الدفاع : ذلك أنه في ١٣ يولية سنة ٩٦٥ م وقعت المصيصة في أيدي البيزنطيين ، وفي ١٦ أغسطس من السنة نفسها سلمت إليهم مدينة طرسوس ^(٤) .

وقد عاث نقفور فوكاس فساداً في البلاد السورية قبل الشروع في محاصرة أعظم وأشهر مدينتين في سورية ، وهما أنطاكية وحلب ، حصاراً متظلاً ، حيث سلمت له مدائنهما الواحدة بعد الأخرى ^(٥) .

أما نتيجة هذه الغزوات فقد وصفها فاسيل إلف في هذه الكلمات : « لم يباغ قط إخضاع العرب وإدلالهم في وقت من الأوقات مثلاً بلته في عهد نقفور فوكاس . فقد

(١) مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) . يحيى بن سعيد (١١٨)

(٢) ذكر مسكويه (ج ٢ ص ٢٣٩) أن وفاة نقفور كانت في سنة ٣٥٦ هـ . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٣٧) إنه مات في الحرم سنة ٣٥٩ . وعند النعماني (مسكويه ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ١) انقضاءات نقفور في الشام عند كلالته على حوادث سنة ٣٥٧ هـ .

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ١٣٩) ، يحيى بن سعيد (ص ١٢٠ و ٢٣٦) ، أبو شجاع (ص ١٢) ، Vasil' Ev., Cambridge Medieval History, vol. IV, p 144, Gibbon, vol VI p. ٥٨ (١٣)

(٤) مسكويه (ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١) ، يحيى بن سعيد (ص ١١٨)

(٥) يحيى بن سعيد (ص ١٤٧)

انتزعت من أيديهم كيليكيا^(١) من بلاد سورية ، واعترف شطر كبير من بلاد الدولة (العباسية) بالهبة للإمبراطورية^(٢) .

كان عبور الفرات في الجهات الواقعة أسفل جبال طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل . ولكن زيميسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن المنيعة في الشجرة ، من أمثال الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديمة على مقربة من نهر دجلة^(٣) .

ولقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه القادة عن زيميسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع ، حتى إن المطيع العباسي لم يتألك ، على ما ذكره مسكويه^(٤) ، أن أعلن أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بئداد .

على أن مخاوف أهل بئداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين ، الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع الذين تعرضوا لهما في حربهم في الصحراء^(٥) ، ولم يتمكن العباسيون ، على الرغم مما تكبدوه من المشاق في حربهم مع البيزنطيين ، إلا من استعادة مدينة كيليكيا وجزيرة قبرص^(٦) .

٢ — إغرام الممرات لفتح مصر :

على أن هذه الحالة التي سادت للبلاد الخاضعة لسلطان القاهرة و بئداد قد سهلت — كما بينا من قبل — على الفاطميين القضاء على سلطان العباسيين في كل من مصر والشام . إذ أنه بتوطيد نفوذهم في مصر استطاعوا أن يمدوا هذا السلطان إلى الشرق ، أعنى إلى

(١) راد من كيليكيا أو كيليكيا البلاد التي فوق زاوية خليج اسكدرونه ، وهي المعروفة عند العرب بـ «القيلا» .

(٢) Vasil'Ev. Cambridge Mediaeval History, vol. IV, pp. 146-147

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤) يحيى بن سعيد (ص ١٢٩ و ١٤٠ و ١٤٧ و ١٤٨ :

٥٨ . ١٥٩) أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٨)

(٤) (ج ٢ ص ٣٠٦)

(٥) ابن الأثير (ج ٨ ص ٢١٤)

(٦) يحيى بن سعيد (ص ١٤٣)

الثام والحجاز ، إن لم يكن إلى أبعد منها ، لأن هذين القطرين كانا في ذلك الحين خاضعين لحكم الإخشيديين .

كان الاستعداد لتفتح مصر قائماً على قدم وساق منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ، فقد شرع للمز في إنشاء الطرق وحفر الآبار ، وإقامة المنازل للاستراحة في فترات منتظمة ؛ وبدأ في نفس الوقت يجمع الأموال لينفق منها على حروبه ، ويجزل الأموال على كتامة ليمدوه بمجد من أنصارهم مجهزين بما يحتاجون إليه من معدات ^(١) .

وقد ساعد على فتح مصر ومد سلطان للمز منها إلى المشرق ، ذلك المدد الذي انتشر في أرجاء إفريقيا ، على حين ظهر في مصر الاضطراب وسوء النظام وانتشر فيها القحط والوباء بعد وفاة كافور ، وأصبح بها جماعة من أصحاب المناصب العالية الذين يدينون بمذهب الشيعة ، الأمر الذي لم يَنفَ على المز لدين الله .

وقد أورد المقرئى ، ولا ندرى من أى مصدر أخذ ولا من أى تاريخ استقى ، أن المز كشف عن سياسته في خطبة ألقاها على رؤساء كتامة ، لا بأس من نقلها هنا ، لأنها بلا شك وثيقة تاريخية تتضمن الخططة السياسية التي اعتزم المز نهجها من الناحية السياسية والدينية والأدبية قال :

« واستدعى المز وهو بالمقصورية في يوم شات بارد الريح ، عدة شيوخ من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم إليه من غير الباب الذي جرى الرسم به . فإذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللود على مطارج ، وحواله كساء ، وعليه جبة ، وحواله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب . وبين يديه مرفع ودواة وكتب حوالية فقال : يا إخواننا ! أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد قتلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامي : أرى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، وتقلب في المتقل والديباغ والحريز والفنك ، والسمور والمسك والخمر والنفاء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أفضد إليكم فأحضركم لتشهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم . وإنى لا أفضلكم في أحوالكم

إلا قيا لا بد لي منه من دنياكم ، وبما خصني الله به من إمامتكم . وإني مشغول بكتب
ترو عليّ من المشرق^(١) والمغرب ، أجب عنها بخطي . وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ
الدنيا إلا بما صان أرواحكم ، وحر بلادكم ، وأذل أعداءكم ، وقمع أشدادكم . فافعلوا يا شيوخ
في حلوكم مثل ما أفعل ؛ ولا تظهروا التكبر والتعبر ، فيزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى
غيركم . وتعتنوا على من وراءكم ممن لا يصل إلني كتحفي عليكم ، ليتصل في الناس الجليل
ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبلوا بمدحاً على نساكم والزموا الوحدة التي تكون لكم ؛
ولا نشرها إلى التكثير منهن والرقبة فيهن ، فيتنصص عيشكم وتعود المضرة عليكم ،
وتهلكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم ، فحسب الرجل الواحد الوحدة .
ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم
به ، رجوت أن يقر الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله
ونصركم^(٢) .

إن هذه السياسة التي جرى عليها المزلتظهر ظهوراً بيناً من هذه الخطبة البليغة التي
عنى فيها نهاية خاصة ببعض المسائل . وقد انتهز الخليفة الفاطمي هذه الفرصة ، فأوضح
لأشياعه عيشة الزهد والتشف التي يعيشها ؛ فبين لهم أنه خصص وقته وهمة لبلوغ غاية
واحدة ، هي نشر نفوذه الديني والزمني في المشرق . ثم شرح لهم الخليفة الوسائل التي يستطيع
بها أن ينفذ سياسته ، حتى يكون لها أثرها ، فتأتي بالعرض المطلوب منها : مصيصة أرواح
رعاياه ، وتدمير بلاده ، وإخضاع أعدائهم وإذلالهم (يقصد بذلك قمع الثورات التي قد
تذكي نارها الأحزاب للمادية لهم في شمال إفريقيا) — كان هذا كله الخطوات التي لا بد
له من أن يدرج فيها لاستتباب النظام ، عسى أن يتمكن بذلك من نشر أوبة السلام
والطأينة في كافة ربوع بلاده .

وإذا ما تحققت هذه الغاية ، لم يفت الخليفة الفاطمي معنى المثل المشهور « العدل

(١) ذكر أبو الحسن (طبعة Juybol ح ٢ ص ٤٤٣) ، قفلاً عن ابن عبد الحار ، أن الشيخين
في مصر أرسلوا إلى الممر كساً قالوا فيها "إذا رآك أخير الأسود (هو كافور الذي كان يتولى حكم مصر) ،
ملك مولانا المزل الدنيا كلها " .

(٢) المقرئى : اماط الحفا (ص ٦٠ ٦١)

أساس الملك . ولا غرو فقد عرف أن الظلم والاستبداد يثيران كامن السخط ويذكيان روح المصيان ، مما يؤدي إلى القضاء على هذه المجهودات التي يبذلها لاستئجاب الأمن والمعدل في بلاده .

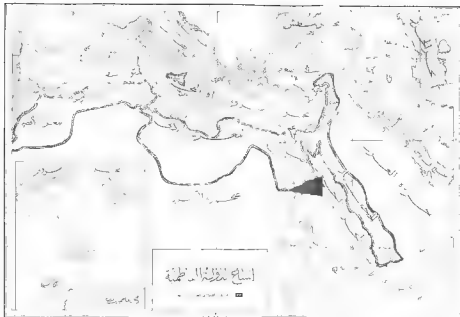
ولا يمزب عن أذهانتنا أن هذا الخليفة لم يقر أتباعه على التزوج من أكثر من واحدة . « فحسب الرجل الواحد الواحدة » ، عبارة تنطوي تحتها كراهة تمدد الزوجات كراهة تكاد تبلغ التحريم ، مما يؤدي بلا ريب إلى إنهاك أبدانهم وإضفاف عقولهم ؛ وبذلك يكون الخليفة قد أدرك أنه بنفسه . ونحن نستطيع أن نزيد على هذا القول بأن لهذا الأمر أثرًا عظيمًا في إضفاءهم من الناحية الخلقية أيضًا .

وقد وثق الخليفة من أنهم لو أخلصوا لأوامره ونواهيهم ، لسهل عليهم أمر المشرق كما سهل عليهم أمر المغرب من قبل . وإن ما جاء في آخر هذه الخطبة التي نستطيع أن ندها وثيقة من الوثائق التاريخية الهامة يَكْمُنُ من أن نوازن — ولو بعض الشيء — بين المزمع وعمر من الخطاب ، من حيث سياسته التي تنطوي على الحزم وسمو الأخلاق والقدرة على تصريف الأمور — هذه الصفات كلها التي سهلت عليه فتح مصر والشام .

وفي الحق ، إن ما جاء في بيان هذا الخليفة من أنه كان مشتغلًا بما يرد عليه من الرسائل والكتب من المشرق والمغرب ، وأنه كان يجيب عليها بنفسه ، يبين لنا ما كان هناك من علاقة بين الخلافة الفاطمية وبلاد المشرق حيث انتشرت الدعوة الفاطمية وتمكنت أصولها .

٣ — فمتبار مصر مقرا لدعوة الشيعة لوفرة ثروتها وقربها من الأمصار الإسلامية :

لم تكن موارد بلاد المغرب مما يمكن القارة بينها وبين موارد مصر ؛ إذ لا شك في أن مصر كانت تفضلها من حيث ثروتها وموقعها الجغرافي ، وبذلك كانت أكثر صلاحية لتكون مركزاً لسلطان الإمبراطورية الفاطمية . هذا فضلاً عن أن مصر أقرب إلى المشرق الذي دأب للمز على إخضاعه كما دأب أسلافه على ذلك من قبل . فكان نجاحه في هذا المشروع يؤدي



إلى استيلائه على المراكز الإسلامية القديمة أو بعضها : وهي المدينة ودمشق ، وعلى بغداد التي قد استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) .

أما السهولة التي لاقاها النفوذ الفاطمي ، وما كان من امتداد هذا النفوذ إلى سورية والحجاز بعد فتح مصر ، فلم قد تحقق بالفعل ؛ على أن الأمل بأن تنحو بغداد منحى دمشق والمدينة أسلم لم تحققه الأيام .

نعم ! كان بنو بويه من الشيعة المتحمسين لمذهب الشيعة كما كان الفاطميون أنفسهم ؛ وكانت مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين من المسائل التي فكر فيها بنو بويه بادئ ذي بدء بعد انتقال السلطان إليهم . ولكن الميول في اتجاه المذهب قبل أن يكون لها أثر إذا تنازعت مع المصالح السياسية .

وكان معز الدولة كثيره من آل بويه شيعيا متمسكا بمذهب الشيعة ؛ وقد اعتنق هذا المذهب على ميادى الزيدية التي أدخلها في بلاده الحسن بن زيد العلوي . وكان من أثر نشر عقائد هذا المذهب أن اعتنق بنو بويه أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من أحسابها وهم العلويون . بيد أن معز الدولة بن بويه لما فكر في تنفيذ هذه الفكرة ، أشار عليه أحد أنصاره بالمدول عنها ، كما يتبين ذلك من هذه الكلمات التي جاءت على لسان أحد هؤلاء الأنصار ، نقلها عن ابن الأثير حيث قال : « فإني اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ؛ ومتى أجلت بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك حجة خلافته ؛ فلو أمرهم بقتلك لعلوه » ^(١) .

ونحن نميل إلى ترجيح حجة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بهذا النص ، فمدلوا عن مسألة تحويل الخلافة إلى العلويين . وستقف من أعمال الفتوح التي قام بها الفاطميون على أنهم جعلوا مصر للركن الذي انتشرت منه دعوتهم في الشرق والغرب . وسندرك أيضاً أن الفاطميين لم يفكروا في الاستيلاء على بغداد حتى في ذلك الوقت التي ذكرت فيه أسمازم في الخطبة على منابر الدولة العباسية .

ويعمدنا القريري ^(٢) أن جوهرًا لما رحل يريد مصر ، خطب المعز في الشايخ المدين

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٦٢)

(٢) شملط (ج ١ ص ٢٧٨)

انضوا تحت لوائه بهذه الكلمات : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر . ولتدخل إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزل في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

(١) رمبل جوهر إلى مصر — فتح الإسكندرية :

في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ (فبراير سنة ١٦٩) ، خرج للمز لوداع جوهر وحيثه عند رحيلهم لغزو مصر . وبعد أن قبّل جوهر يد الخليفة وحافر فرسه ، أذن له الخليفة بالمسير . ولما عاد المز إلى قصره ، بث إلى جوهر كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه ^(١) .

سارت حملة جوهر نحو مصر في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ ، كما سارت بعدها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨ م ، والجيوش الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ م ، وجيوش ولسلي سنة ١٨٨٢ ، وجيوش روميل في الحرب العالمية الثانية . وكانت جيوش الفاطميين منظمة تنظيمًا دقيقًا ، وقد زودها المز بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن ، حتى لا يتطرق إليها الضعف . ولا غرو فقد أغرق الخليفة الفاطمي على إعداد هذه الجيوش أربعة وعشرين مليون دينار ، عدا ما حمله ألف رجل من الذهب الذي رصد للإتفاق على هذه الحملة .

وتجلى ضخامة هذه الحملة الفاطمية بما ورد على لسان أحد المصريين ، الذي قال فيها :
إنها « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » ^(٢) ، حتى إن جند جوهر كانت تربو على مائة ألف . وقد وصفها ابن هاني الأندلسي ^(٣) شاعر المعز خير وصف فقال :

رأيتُ بيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يومٌ من الخشر أروعُ
غداةً كأن الأفق سُدَّ بمنله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع ^(٤)
فلم أدر إذ ودّعت كيف أودّع ولم أدر إذ شئتُ كيف أشيعُ
ألا إن هذا حشد من لم ينق له غرار الكرى جنن ولا بات بهجم

(١) ابن حلكان (ج ١ ص ١٤٨)

(٢) المقرئى : أتماط الحفا ص ٧١

(٣) ديوان ابن هاني ص ١٦ وما يليها .

(٤) إشارة إلى كثرة الجند بحيث أغلقت الدنيا بسبب تحركهم نحو الشرق .

إذا حل في أرض بناها مدائنًا وإن سار عن أرض غدت وهي بقلع
تحمل بيوت المال حيث محله وجم المطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا وظل السلاح المتنقى يتقنع
ومب عباب الموكب القنم حوله ورق كما رق الصباح الملع
رحلت إلى القسطنطين أول رحلة بأعين قال بالقى أنت تجمع
لم يكن هذا الجيش برأ وحسب ، بل كان يصحبه بعض القطع الحربية والبحرية .
وكانت مدينة الإسكندرية هدف جوهر ، كما كانت هدف نابليون وفريرز وولسلي
وروميل . ولكن هناك فرق بين حملة المز وهذه الحملات الحديثة ؛ فإن جوهرًا أتى لينقذ
المصريين من ظلم الباسيين وعبث الحكام والولاة ، ويمد عنهم خطر القرامطة والروم ،
على ما ذكره في منشوره ، وليعمل أيضًا على تكوين دولة مستقلة في هذه البلاد ، تنافس
الباسيين ، وتقف في وجه مطامع الروم وسوام^(١) .
واستطاع جوهر أن يكبح جماح عاكره الذين أغدقت عليهم الأرزاق ، وكان
النظام بين وحدات جيشه يدعو إلى الإيجاب^(٢) .
ولما اتصل بأهل القسطنطين وأصول جيوش القاطنين إلى الإسكندرية واستبلاهم
عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن القرات لمفاوضة جوهر في الصلح وطلب الأمان على أرواحهم
وأملأهم ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيد الله — وكان من الأشراف ومن ذوي المكانة
عند قومه ، ونسبته إلى الحسين بن علي — أمر معترف به غير منازع فيه — أن يذهب بنفسه
ويفاوض جوهرًا في الصلح . وقد رأوا أن سفيرًا من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع
الشميين أمثاله ، فتعجاب مطالب أهل مصر . فأجابهم أبو جعفر إلى ذلك ، وشرط أن
يكون معه جماعة من أهالي هذه المدينة^(٣) .

وتوجه هذا الوفد في يوم الإثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٣٥٨ (١٨ يونيو
سنة ٩٦٩) ، وتلاقوا مع جوهر في مدينة تروجة ، وهي قرية على مقربة من الإسكندرية ؛

(١) حسن إبراهيم حسن وله أحد شرف : المز لعين الله القاطنين ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

(٣) الكنتلي (ص ٥٨٤) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

فأدى الشريف الرسالة عنهم ؛ فأجابهم جوهر إلى ما التمسوه وكتب له عهداً تمهد فيه بأن يطلق للمصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة ، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تمهد بنشر العدل والطأينة في النفوس بحماية مصر من المتعدين عليها . وفي السابع من شهر شعبان عاد الوفد وبمه العهد إلى القسطنط ، فركب الوزير ابن القرات ولقي الناس وقرأ عليهم العهد ؛ فتناظروا فيه ، واختلفوا على قبوله ورجعوا عن الصلح .

(ب) استيلاء جوهر على القسطنط - مصر تصبح روية فالحمية :

وهنا اضطرب أهل المدينة اضطراباً شديداً ، وعزل أنصار الإخشيديين والكافورية وجماعة من العسكر على عدم الإذعان لعهد الصلح وصد جوهر بحمد السلاح ، وولوا محمداً قيادتهم ؛ فسار على رأس جند للمصريين إلى الجيزة ، فنزلوا بها وحفظوا الجور^(١) .

وفي الحادى عشر من شعبان وصل جوهر ، وقد علم بما اعتزمه أهل مصر من المقاومة ، وصار إلى منية الصيادين واستولى على الخاضة بمنية شلقان ؛ فلم يجد جماعة من عسكر المصريين بدا من العبور في القوارب والتسليم لجوهر وطلب الأمان منه ، ووقف غيرهم من العسكر المرابطين في الجانب الآخر من القسطنط على الخاضة لحفظها .

فلما رأى جوهر ذلك انتزع ملابسه الخارجية وعبر مع رجاله وهو في مركب ، وخاض رجاله وأعملوا السيوف في الإخشيدية وأوقعوا بهم ؛ فهربت الدلة منهم في فأس الظلام (١٦ شعبان سنة ٣٥٨ ، أول يولية سنة ٩٦٩) ، وحلوا من منازلهم كل ما قدروا عليه .

ولم ير النساء بدا من طلب الأمان . فخرج بمضمن مشاة ودخلن على الشريف أبى جعفر ، وطلبن إليه مكانة جوهر بإعادة الأمان ؛ فكتب إليه يهته بالفتح وبأله الأمان من جديد . فقبل القائد القاطنى لمتنسمهم ، وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال العنف والنهب . فهذأت المدينة وسكن الناس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، وقبحت الأسواق وعادت الأعمال للتجارة إلى ما كانت عليه^(٢) .

(١) يحيى بن سيد (ص ١٣٢ و ١٣٣) . ابن خلكان (ج ١ ص ٤٩)

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٣)

وقد أورد لنا المقرئ شروط الصالح التي عرضها جوهر على المصريين في بيان واف .
ومع أن جوهرًا منع المصريين الحرية التامة في أمورهم الدينية وإقامة شعائرهم — كل
حسب المذهب الذي يدين بقائده — فإن أغراضه التي كانت ترمي إلى نشر عقائد المذهب
الفاطمي قد سُفرت مع ذلك وراء ستار من الجهاد السري الحكيم .

ويجمل بنا أن يورد هنا نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه ؛ لأنه يعدنا بوصف
تام لحالة العالم الإسلامي وقت الفتح الفاطمي ، ويرسم لنا صورة واضحة للسياسة التي عول
الفاطيون على الأخذ بها من الوجهة السياسية والدينية في مصر خاصة والشرق عامة .
وستعلم بعد إلى أي حد نجحت سياسة جوهر . والآن نأتي بهذا العهد نقلًا عن المقرئ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من جوهر السكاكيب عبد أمير المؤمنين
للمؤمنين بالله ، صلوات الله عليه ، لجساعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ، ومن
غيرهم ، أنه قد ورد من سائرهم التفرق والاجتماع معي : وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال
الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله ، وأبو الطيب المشي أيده الله ، وأبو جعفر بن نصر
أعزه الله ، والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم انكم الحسن كتابًا يستل على أمامكم
في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ؛ ففرتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا
أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فتحمدا لله على ما أولاكم ونشكروه
على ما حاكم ، وتدابروا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسعادة
عليكم وبالسلافة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجهم للساكن المنصورة والجيوش
للظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ^(١) ؛ إذ قد تحطفتكم الأيدي واستطال
عليكم السندل ، وأطمعته نفسه بالافتدال على بلادكم في هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر

(١) — تكون الإشارة هنا إلى المارات التي شنتها جيوش الإمبراطورية البيزنطية ، وقد استولت على
كيليكيا وقبرس ، وكانوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر . وقد تقدم القول
بأن الجيوش البيزنطية استطاعت أن تصل في غزواتها إلى بلاد الشام تحت قيادة قنقور فوكاس ، الذي وقعت
في يده انقراض سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) ، وأوقع الغزوة بمساكن الشام والأساطيل المصرية التي كان قد
بعث بها جوهر بعد أن تم له فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ . وكان قد عول على إرسالها لمحاربة الخليفة العباسي الذي
كان ينظر إليه نظرة الحادج على الدين لاعتناق مذهب السنة ، وكذلك لمناظرة القرامطة الذين هاجروا الحجاج
ومطويهم أمتهم .

من فيه والاحتواء على نصكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ؛
وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج
الساكنين للصورة ، وبإدارة ينفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، وبمجاهدته عنكم وعن كافة
المسلمين ببلدان الشرق الذين همهم الغزى وشملتهم الفتنة ، واكتفتهم المصائب وتناجت
الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثاتهم ، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ؛ فلم
يشبه إلا من أرمضه أسرمه ومضه حالم وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه ،
وما عوده وأرجاه عليه ، استنفاد من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من
استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل . وأن إقامة الحج الذى تعطى
وأهل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ؛ وإذ لا يؤمنون على أنفسهم ولا على
أموالهم ؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد
ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين
ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطمئة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه
انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجويد السكة
وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع النش منها ، إذ كانت
هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع
فيما يلزم منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر
العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم وقطع المدوان ، ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام في الحق ،
وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف المشرة واتقناه
الأحوال ، وحياطة أهل البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم ،
حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثهم وأقام أودم ، وجمع قلوبهم وأنف كلهم
على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أسره به مولانا من
إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم . وأن أجبركم في
المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات

موتاكم ليت المال من غير وصية من للتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها ليت المال . وأن
أقدم في رم مساجدكم وتزينها بالقرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم
الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ولا أعطها عنهم ولا أرفضها إلا من بيت المال ، لا بإحالة
على من يقبض منهم ؟ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بما ضمنه
كتابه هذا ، من ترسل عنكم أبدى الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين
صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوهاً التمس ذكرها في كتاب أمامكم ، فذكرتها
إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ؟ فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؟ إذ كانت
الإسلام سنة واحدة وشرعية مثبتة ، وهي إقامتكم على مذهبكم ، وأن تركوا على ما كنتم
عليه من أداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان
عليه سلب الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفتقاء الأمصار الذين جرت
الأحكام بمذاهبهم وفقواهم ؟ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام
لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه في سنته ؟
وأحرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان الله التام العام الدائم للنصل الشامل
للكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم
ونسبكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يمتنع عليكم ممتنع
ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصاون وتحفظون
وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ؟ فلا يترضى إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء
عليكم ولا في الاستطالة على قوكم فضلاً عن ضعفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهداً بما يسكم
صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره وتتمرفون بركته ، وتشتبطون منه بطاعة
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه ،
عهد الله وعليط ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أسراء المؤمنين قدس
الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المزمعين الله صلوات الله عليه ، فنصرحون
بها وتعلنون بالانصراف إليها ، ونخرجون إلى وتسلمون على ، وتكونون بين يدي إلى أن
أهبر الجسر وأنزل في المنافع المبارك ، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتشارون

عليها وتساوون إلى قروضها، ولا تمخزون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتؤمنون ما أمرتم به. وفقكم الله وأرشدكم أجمعين^(١)».

وإن ما تضمنته هذه الخطبة التي ألقاها المرز على شيوخ كتامة قبل سير جوهر إلى مصر، توضح لنا اشتغال الخليفة بما كان يرد عليه من مكاتبات تأتيه من الشرق. وهي حقيقة يؤيدها الواقع من أن جيوش الفاطميين لم تلاق مقاومة ذات بال من جانب السواد الأعظم من المصريين. فمن الجلي أن جوهرًا تقدم في السير من تروجة إلى الجيزة من غير قتال ولا حرب؛ بل لم نسع أيضاً عن أية مقاومة لاقاها جوهر من حامية الإسكندرية التي سلت إليه بشروط مقبولة لديهم.

أجل! لقد مهد السبل أمام جوهر السلطات المصرية برئاسة الوزير ابن القرات، الذي بعث إلى جوهر بوفد يمثل المصريين جميعاً على اختلاف طوائفهم الدينية ونزعاتهم السياسية. وقد عهد برئاسة هذا الوفد إلى أبي جعفر مسلم، وكان — كما تقدم — ذا مكانة عالية، ومن سلالة الحسين بن علي. وقد دفع الوزير إلى اختياره أنه من العلويين، مما جعل له شأنًا يذكر في نجاح المفاوضات. ولقد ظهرت الحكمة التي أوحى إلى الوزير باختياره؛ فسرعان ما تعاهد معهم جوهر على هذه الوثيقة التي نقلناها عن القريري.

ومحمدنا ابن خلكان^(٢) أن فتح الفاطميين لمصر كان أمراً منتظر الوقوع لدى الساكر المصريين وبعض رجالات مصر من أصحاب المراتب العالية، وأنهم كتبوا إلى المرز يطلبون إليه أن يرسل جيشاً يستولى على الحاضرة.

ولا غرو فإن المقاومة الوحيدة التي تكلم عنها المؤرخون لم يقم بها إلا أشياخ الإخشيديين والجنود الذين كانوا في خدمة كافور. هل أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا إلا أقلية ضئيلة من الساكر المصريين. وإن اعتزال بعض رجالهم الذين عبروا في القوارب واستأنوا لجوهر، جعل القضاء على مقاومة الجيوش المصرية أسهل وأيسر.

ولم يمارض المصريون في تحويل طاعتهم من خليفة عباسي إلى خليفة علوي، لأنهم كانوا يدركون الإدراك كله أن انتقال السلطة من عباسي إلى فاطمي، أو من سني إلى

(١) القريري: اتعاظ الخفا ص ٦٧ - ٧٠.

(٢) ٢ ص ٣٤٨.

شيء ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير فى حالتهم السياسية ، لأنهم سيخضعون فى كلتا الحالتين لسلطان هذا الحاكم أو ذاك .

وبذلك زالت مخاوف الأهلين ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً يحمل اسم الخليفة للمز ، وأتينا الناس من جديد ، وأعلننا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مئونة . فلما كان القند (الثلاثاء ١٧ شعبان) ، خرج أبو مسلم العلوى والوزير جعفر بن القرات وسائر الأشراف والقضاة والمعلماء والتجار إلى الجيزة وقابلوا جوهرًا وهنشوه بالفتح . ولما غربت الشمس عبر الجنود الفاطميون البحر ، ثم أتيل جوهر فوضع أساس مدينة القاهرة .

ولما اتصل بالمز تباً فتح مصر ، سر سروراً عظيماً ، وأنشد محمد بن هانى الأندلسى^(١) شاعر بلاطه قصيدة جاء فى مطلعها :

تقولُ بنو العبَّاسِ هل فُتحتْ مصرُ قُلْ لبني العبَّاسِ قد قُضِيَ الأمرُ^(٢)
وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، وأصبحت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وناقت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية ، بضاد حاضرة الدولة العباسية السنية للنداعية . وكان لتلك المنافسة أبعد الأثر فى الحضارة الإسلامية^(٣) .

على أن تغيير الحكم قد يصحبه تحمين فى أحوالهم الماخلية . فقد وصلوا تحت حكم العباسيين إلى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء . وقد جبل هذا العهد القى أعطاه جوهر للمصريين تحقيق هذه الآمال أسراً محتمل الوقوع . ذلك أن تأمينهم على أرواحهم وأموالهم ، وحياتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن إغارات القرامطة الذين طاموا تمدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الإغريق ، الذين وقع فى أيديهم إقليم كيليكيا وكانوا على أهبة المسير إلى الشام — كل ذلك قد أثره الخليفة الفاطمى فى هذا العهد على لسان قائده .

(١) ديوان ابن هانىء ص ٨٦ .

(٢) S. Lane - Poole, The Story of Cairo, pp. 119 - 120 .

يضاف إلى ذلك أن المصريين قد رحبوا بهذه الدعوة التي كانت ترمي إلى إصلاح
للساجد وتمكين السكة وإنهاء السخرة ، ومنحهم الحرية التامة — مسلمين كانوا أو ذميين —
في إقامة شعائرهم الدينية ، كل حسب دينه ومذهبه .

وقد قصد من هذه السياسة التي تتجلى من بيان جوهر العمل لصالح مصر ، ودأب
جوهر على تنفيذها هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، الأهم إلا إذا استثنينا من ذلك
وهذه بمنح الحرية التامة في إقامة شعائر الطوائف الدينية على اختلاف محلها ومذاهبها ،
لأن جوهر قد أقر في بيانه ما للملوك من حقوق حتى إذا تم القتح أصبحت السيادة
للمذهب الشيعي .

الباب الخامس

الخلفاء الفاطميون في مصر

من المزمز إلى الحافظ

٣٦٢-٩٧٣/٥٤٤-١١٤٩

المزمز لدين الله (٣٦٢-٥٣٦٥ هـ)

١ - رحيل المزمز إلى مصر:

رأى جوهر في ذلك الحين أن الوقت قد حان لحضور المزمز بنفسه وتسليم زمام الحكم. ويذكر ابن خلكان^(١) أن جوهرًا كتب بذلك للمزمز غير مرة ، ثم بعث إليه رسولا يحمل إليه خبر خضوع مصر والشام والحجاز^(٢) لسلطانه ، وأن الدعوة قد أقيمت له في كافة أرجاء هذه البلاد . ولما تقررت قواعد ملكه في مصر ، استخلف المزمز بُلُكَّين من زبيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية^(٣) ، وتوجه إلى مصر بأموال جلييلة للقردار ورجال عظيمة الأحطار ، وحمل معه حش آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله .

وخرج للمزمز المنصورة^(٤) دار ملكه يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢) ، وسر في طريقه على برقة ودخل الإسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢^(٥) (٢٩ مايو سنة ٩٧٣) وهو ممط جواده ، فقدم عليه القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وأعين البلاد ، وسلموا عليه .

(١) - ٢ ص ١٣٤

(٢) يطالع ما أورده أبو القدا (ح ٢ ص ١١٧) أن سلطان الماطيين لم يستقر في الشام والحجاز حيث كانت تدوم تقام باسم الخليفة العباسي .

(٣) ذكر ابن خلكان (ح ١ ص ١١٥) أن ذلك كان يوم الأربعاء ٢٢ ذي القعدة سنة ٣٦١ (سبتمبر سنة ٩٧٢) . وقد أمر المزمز الناس بطاعة بلكنين الذي أصبحت له ولاية هذه البلاد ، وجبى باسمه الخراج

(٤) أطلق إسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين هذا الاسم على مدينة صيرة ، وتصل بالقروان . وقد بناها المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورة . انظر الكبرى ص ٢٥ .

(٥) خالف ابن خلكان في ذلك ما أجمع عليه المؤرخون ، وهو أن رحيله كان سنة ٣٦٢ هـ .

وجلس الخليفة عند المنارة ذلك اليوم ، وخطبهم خطبة طويلة ؛ فقال إنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية المجاج وإعلان الجهاد ضد الكفار ، وأن يحتم حياته بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ويعظمهم وأطال في الوعظ حتى استند دموع بعض الحاضرين ؛ وخلع بعد ذلك على القاضي وبعض من كان في جماعته ، وحملهم على الخيل للطمعة ، ثم انصرفوا^(١) .

ثم غادر المزمز الإسكندرية في أواخر شعبان ، فوصل إلى ساحل مدينة مصر المقابل للجزيرة ؛ فخرج إليه القائد جوهر . وترجل عند لقائه وقبّل الأرض بين يديه . وأقام المزمز في الجزيرة ثلاثة أيام ؛ ثم أخذت عساكره في العبور إلى ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان ، عبر المزمز النيل ودخل القاهرة من غير أن يمر على مصر في طريقه ، وقد أقام له الأهليون مسالم الزينة على جانبي الطريق ، ظناً منهم أنه سيشرفها بزيارته . ولما وصل إلى القاهرة ودخل القصر الذي بناه له جوهر وصار في إحدى ردهاته ، خرج ساجداً لله تعالى ؛ ثم صلى ركعتين ، وانصرف الناس عنه . وقد أطلق على المدينة التي بناها جوهر للمزمز اسم القاهرة المزية ، نسبة إلى الخليفة المزمز^(٢) .

وبعد أن تقبل المزمز ما قدم إليه من الهدايا والتحف ، أذن لجماعة المهنيين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين ، وكانوا نحو الألف .

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة ، تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء .

على أن نقل المزمز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة ، أعقد الفاطميين إفريقية (تونس) . ذلك أن بلكين بن زيري بن مناد شيعن صنهاجة إحدى قبائل البربر ، سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٢٦٢ هـ ، وحذا حذوه في ذلك الحاديون في سنة ٣٩٨ هـ ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص ظل الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب ، وذلك في عهد المستنصر الفاطمي .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٥

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤

وفي يوم الجمعة السابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤ هـ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) نزل المزم من جوهر دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها . وقد تولى جوهر ^(١) أمور مصر زهاء أربع سنين وعشرين يوماً حتى دخل المزم للقاهرة واستقر في قصره ^(٢) .

وهكذا ثبتت قواعد الخلافة الفاطمية في مصر ، وأصبحت القاهرة ، بدل المنصورة ، مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . وقد نجح الفاطميون في تأسيس سلطنتهم في القاهرة التي اتخذوها حاضرة لإمبراطوريتهم ؛ فهدت المركز الذي انشرفت منه شعائر المذهب الفاطمي الذي لم يدخر الفاطميون جهداً في نشره وتأييده .

٢ - استقرار سلطانه الفاطميين في الشام والحجاز :

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل في أمور الشام السياسية . وكان بعض جهاتها جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية ؛ وكانت تدب لها بالتبعية الاسمية على الأقل . وقد استقل بولاية حلب أسراء من الشيعة ، كما استقل الحسن بن طنج الإخشيد (الذي عاد إلى الشام بعد أن صادر الوزير ابن الفرات) بولاية الرملة .

ویرجع فتح بلاد الشام إلى عوامل نذكر منها :

أولاً : لا يبعد أن يكون الفاطميون قد خشوا انتقام العباسيين بسبب قتلهم أخصب وأغنى بلادهم ، وهي مصر . ولهذا عمل جوهر على أن تكون بلاد الشام خط المقطع الأول عن مصر ، وبذلك يكون قد سبق محمد على ، الذي كان يرى أن خط المقطع عن مصر يجب أن يكون في سورية ، لا في مصر نفسها . ولو أدركنا أن العباسيين واليوحانيين كانوا قد تألموا أشد الألم لزوال نفوذهم في مصر ، حتى ساعدوا القرامطة ، ونأسروا معهم على طرد الفاطميين — لو أدركنا ذلك رأينا بعد نظر جوهر في الحاجتين الحربية والسياسية . هذا إلى أن الدولة الفاطمية تستطيع بأسطولها الضخم أن تتحكم في معظم البلاد الإفريقية والشامية التي تشرف على البحر الأبيض المتوسط .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) كان جوهر محسباً إلى الناس إلى أن توفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة سنة ٣٨١ هـ (يناير سنة ٩٩٦ م) ولم يبق شاعر الإرثاء وذكر مآثره .

ثانياً : ولا يبد كذلك أن يكون استيلاء الفاطميين على بلاد الشام خطة دبرها هؤلاء القضاة على القرامطة الذين بددوا يناوئون سادتهم الفاطميين ؛ فقد أدرك للمز زوال نفوذه عليهم ، وازدياد نفوذ منافسيه من أبناء أبي سعيد الجنابي ، وحرّ في نفسه احتلال القرامطة دمشق في سنة ٣٥٧ هـ ، بعد أن كان القرامطة لا يحارون إلا بوحى من الفاطميين . فكان فتح جوهر بلاد الشام لون من التحدي للقرامطة . ولو علمنا أن جوهر الصقلي كان يشيد بالمز لدين الله ، وينض من شأن من يقف في وجه الحجاج في أثناء تأديتهم فريضة الحج ، أدركنا أن ذلك الفتح إنما كان مبته رغبة الفاطميين في أن يحققوا للمصريين خاصة ، وللسلمين عامة ، ما جبروا به من محاولة القضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة .

ثالثاً : ويظهر أن المز أدرك رغبة الروم في أن يرثوا الدولة العباسية التي دب إليها الوهن ، فقد عبروا للفرات ، واستولوا على بعض مدن الشام كما رأينا ، فعمل المز على فتح هذه البلاد لتحول دون تقدم الروم جنوباً ، وهم (أى الفاطميون) إذ يقومون بذلك إنما يثيرون عاطفة عامة للمسلمين ، إذ ليس هناك شيء أنبل من إعلان الجهاد على الروم . فكان المز وجوهر أرادوا أن يحققا من وراء فتح بلاد الشام غرضين ، أما أولهما فهو جذب قلوب المسلمين ، وخاصة المصريين إليه .

ويؤيد هذا القول ، الحديث الذي دار بين جوهر الصقلي وأبي الطاهر قاضى مصر ، يعبر فيه قتاله جند الإخشيديين والكانوريين ، واعتياده في ذلك التبرير على رغبة الفاطميين في قتال الروم ، ووقوف هؤلاء الجنود في طريق تحقيق هذا الغرض ، كما يدل على ذلك أيضاً ما أورده جوهر في عهده للمصريين ، من أنه إنما أتى لتخليصهم من الروم .

وأما الغرض الثانى فيرجع إلى رغبة الفاطميين في الوقوف في وجه الروم ، حتى لا تعود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمالى إفريقيا إلى حوزتهم ، كما كان ذلك من قبل . ولا ننلو إذا قلنا إن الروم الذين ائحدوا مع الأمويين في الأندلس ، وأخفقوا في هجومهم على بلاد المغرب في عهد المز (سنة ٣٤٤ هـ) ، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام ، واتخاذها جسراً يمهرون منه إلى المغرب . وهذا الصل من جانب المز يدل

على بعد نظره في السياسة ، لأنه يحمله يحرص على نفوذه في بلاد المغرب ومصر ، ويحاول دون تقدم الروم في بلاد الشام ؛ وبذلك أئمن للمزحذود مصر من ناحية الشمال . وقد سار على هذا النهج الطولونيون والإخشيديون من قبل ، ثم صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ومحمد علي فيما بعد ، حين عول كل من هؤلاء على فتح بلاد الشام ، ليؤمن حدود مصر من ناحية الشمال الشرق .

راجياً : كانت بلاد الشام تابعة للدولة الإخشيدية ، ولما آلت مصر إلى الفاطميين ، كان من الطبيعي أن يوحّدوا بينها وبين البلاد التابعة لها ، وخصوصاً أن من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزاً يوجه منه حملاته إلى بلاد العراق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من الواجب أن يظل نفوذ مصر قويا في بلاد الشام كما كان في أيام الإخشيديين والطولونيين من قبل .

بعث جوهر إلى الحسن جيشاً تحت إمرة أحد قواده وهو جعفر بن دلال^(١) ؛ فشن الغارة على بلاد . وأوقع به في (ذو القعدة سنة ٣٥٨ - سبتمبر سنة ٩٦٩)^(٢) . وقد واصل جعفر سيره إلى طبرية حيث علم أن الدعوة قد أقيمت للخليفة الفاطمي ، ثم استأنف السير إلى دمشق ، ودخلها في المحرم سنة ٣٥٩ بعد أن لاقى من الأهالي قليلا من المقاومة . وفي يوم الجمعة التالي حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة ، وأقيمت للخليفة الفاطمي^(٣) .

على أن استيلاء الفاطميين على دمشق قد أوقعهم في نزاع مع القرامطة ؛ وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعم القرامطة ردحا من الزمن ؛ فندت هذه الجزية لا تدفع إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه للدينة . وقد سار جعفر إلى مكة^(٤) ، الواقعة على نهر يزيد بالقرب من دمشق ، لملاقاة الحسن الترمطي للقب بالأعصم ، وكان قد خف للزحف وشن الغارة عليه . ولما دارت رحى الحرب ، أسر جعفر وقتل ، ووقع كثيرون

(١) كان جعفر بن دلال من قبيلة كتامة من البربر ، ومن قواد الفخر ، وقد بعث به قيس أرسلهم مع جوهر لدم مصر .

(٢) أسر الحسن وميق إلى القسطنطينية ، ثم حبس في شمال إفريقيا حيث مات بها سنة ٣٧١ هـ .

(٣) ذكر أبو العدا ٢ ص ١١٥ أن أهالي دمشق ذاروا على الخلافة الفاطمية وقطعوا الخطبة للعز ، وصرحان ما قضى جعفر بن دلال على التاتارين وأعاد سلطان الفاطميين .

(٤) راجع هذا القل في معجم البلدان لياقوت .

من أنبائه صرحى في حومة القتال (الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠ وسبتمبر سنة ٩٧١ م)^(١).

وقد أسرع الحسن بالسهر نحو الجنوب بعد استيلائه على دمشق ؛ ففر بالرملة واقضى على مصر ، وهاجم القلزم (السويس) والقرما على قره ، وتحكم بذلك على برزخ السويس ، فأعترفت مدينة تنيس بسطاطانه . ومن ثم تقدم في داخل البلاد ، وعسكر برجاله في عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة .

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن إلى برزخ السويس ، شرع في إعداد وسائل الدفاع ، وبحث رجالا من عنده إلى معسكر القرامطة ، فاندسوا بينهم وتظاهروا بالخط على الفاطميين ؛ وما زالوا بهم حتى أوقصوا الفساد بينهم . وبعد قليل حاول الحسن الامتلاء على الخندق عنوة ؛ ولكنه ارتد على أعقابهِ وقد تكبد خسائر فادحة ، بفضل ما أظهره التطوعون من المصريين الذين انضموا تحت لواء جوهر وحاربوا في صفوفه من بلاه لم يكن يتوقع منهم ؛ وأسر من عساكر الإخشيديين خلق كثير ، وكانوا قد انضموا إلى الحسن وقَاتَلُوا في صفوفه . وبذلك أرغم القرامطة على الرجوع إلى القلزم ، تاركين المصريين يهبون أمتهم^(٢).

وكانت أخبار القرامطة وما كان من حروبهم في مصر قد اتصلت بمسامع الخليفة الفاطمي . ولما وقعت المزيعة بالحسن القرمطي ، وصلت الأمداد من القهروان تحت إمرة ابن عمار ؛ فتقوى بذلك جوهر وزحف إلى تنيس ، وعناهن أهلها لانضمامهم إلى العدو . وسرعان ما ارتد أسطول القرامطة من النيل ، تاركا وراءه سبعة مراكب حربية وخدمة أسير . وبهذا كله استطاع جوهر أن يقضى على هذه الحروب التي شنها القرامطة على مصر ، وما لبث أن اتقن آثامهم وخلص إيا من أيديهم ؛ أما الحسن فإنه عاد إلى دمشق وأخذ في التآهب للقتال من جديد .

(١) بعد موت جعفر وجدت هذه الأبيات مكتوبة على باب قصره .

يا منزلا حيث الزمان يأمله
فأبادهم بفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة ؟
كان الزمان بهم يضر وينفع

ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٢) أبو القلا ج ٢ ص ١١٧ و ١١٥

ويحدثنا أبو الفدا^(١) أن قرهويه ، القى آلت إليه ولاية حمص وحلب بعد موت مولاه سيف الدولة الجداني ، أقام الخطبة للمز ؛ وأقيمت الدعوة في المدينة للطبع الباسي ، وفي مكة للمز . ويقول المقرئ^(٢) إن الحسن بن جعفر الحسني أقام الدعوة للمز على أن تفتح مصر على يد جوهر ، فبعث جوهر بالخير للمز ، فقلده ولاية مكة وخلع عليه . ويقول ابن الأثير^(٣) إن الدعوة كانت تقام في مكة سنة ٣٦٠ هـ للخليفة العباسي ، وفي المدينة للمز الفاطمي . هذا ، ولم تقم الدعوة للخلفاء الفاطميين إلا في عهد المز سنة ٣٦٦ هـ « حيث خطب المز بمكة والمدينة ، ولم بخطب طائفة » .

قضى المز القسم الأكبر من خلافته في بلاد المغرب ، ولم يبق في مصر أكثر من ستين إلا قليلا . وفي عهده تأسست مدينة القاهرة ، وبُني الجامع الأزهر ، وامتدت قروح الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين ، وإن كان نفوذهم لم يستقر نهائيا إلا في عهد ابنه المز ، وخطب له على منابر الحجاز . وكان المز ، كغيره من الخلفاء الفاطميين ، مغرما بعلم النجوم ، حتى كان يستشير منجمه في كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفي أمور الدولة العامة ، كما اعتمد قائد جوهر الصقلي على المنجمين في تأسيس مدينة القاهرة ، التي قيل إن أساسها شق على طلوع كوكب القاهر الذي اختاره المنجمون لوضع الأساس . وقد ظهر في عهد المز طائفة من الشعراء الذين مدحوا الفاطميين ، وإن كان الملو قد ذاع في شعرهم . ومن هؤلاء ابن هاني الأندلسي الذي نظم في مدح المز وأسرته قصائد طويلة مدح فيها هذا الخليفة وأشاد بأحقية الفاطميين بالخلافة ، ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . ولكنه مات في شهر رجب سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ إبريل سنة ٩٧٣ م) وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، فأسف عليه الخليفة المز أسفا شديدا . وكان الخليفة المز أول من نظم الاحتفال بصلاة الجمعة ، والاحتفال بالأعياد واللوازم وركوب الخليفة في الواكب الملكية أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع ، وفي شهر رمضان ، وبوم عيد الفطر والأضحي ، وإقامة الأسبطة ، وتوزيع الإنعامات في المناسبات الدينية والسياسية .

(١) ج ٢ ص ١١٧

(٢) خطب ج ١ ص ٢٥٣

(٣) ج ٨ ص ٢٢٠

وكان المز — كما وصفه ابن خلكان^(١) — عاقلاً ، حازماً ، سرياً ، أدبياً ، حسن النظر في النجاة . ومن شعره قوله :

أطْلَحَ الحَسَنُ من جِبِينِكَ شَمًّا فَوْقَ وَرْدٍ في وَجْتِكَ أَظْلًا
وَكَانَ الجَمَالَ خَافَ على الوَرْدِ دَجَافًا فَدًّا بِالشَّرِّ ظِلًّا

وقد توفي المز في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة .

المزير بألفه (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

١ — حياة المزير :

يعتبر عهد الخليفة المزير بالله عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة . وهو مشهور في تاريخ مصر الإسلامية ، لأنه أول من حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد أن كان معهداً خاصاً بدراسة الفقه الشيعي وإقامة الصلاة .

وُلد المزير سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهديّة التي بناها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، وقدم إلى القاهرة مع أبيه المز سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة ، خلفه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، وهو في الثانية والعشرين من عمره .

وكان المزير رجلاً متممًا ، يميل إلى الأبهة ، كما كان خبيراً بالجواهر : ابتدع نوعاً جديداً من التماثيل محلاة بخيوط الذهب ، وسروجاً معطرة بالنير ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده . وشغف كخارويه بن أحمد بن طولون — بجوارح الطير النريبة ، وحلب تلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرمًا بالصيد ، وخاصة صيد السباع^(٢) . وكان المزير ذكياً أدبياً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كأيّه المز . وروى الثعالبي^(٣) أنه قال

في يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للعزاء :

نحن بنو المصطفى ذوو إيمان جُرّعنا في الحياة كأنما

(١) وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان . وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤ .

عجيبة في الأنام محنتنا أولنا ميسل وآخرنا
يفرج هذا الوري بيمدم طرأ وأفراخنا مآتنا

وقد ترامت رقة الإمبراطورية الفاطمية في عهد العزيز بالله الفاطمي من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً . وفي أيامه تفاقم خطر القرامطة وأفتكين في الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على أيه العزيز .

٢ — خطر أفتكين والقرامطة :

لما ولي العزيز الخلافة ، كتب إلى أفتكين يستميله إليه ويمده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . وكان أفتكين من الأتراك الذين خرجوا على الدولة العباسية ، واستقل بدمشق في الوقت الذي وقعت فيه الرملة في أيدي القرامطة . وقد رد أفتكين على الخليفة العزيز رداً جافاً جاء فيه : « هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أسراً^(١) » .

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب ، وحنق على أفتكين ، واستشار وزيره يعقوب ابن كلث في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة . ووجد العزيز في جوهر الرجل الذي يمتد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمي بها ، كما اعتمد عليه العزيز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة . فلما علم القرامطة بذلك ، وكاثوا في الرملة ، فروا إلى الأحساء ، فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استنار حماس أهل دمشق بذلك الخطبة التي تنقلها عن ابن القلانسي^(٢) : « قد علمت أنني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومصادكم ، وقد طلبني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به ، وأنا متصرف بحكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، وأستمد

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ - ١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦

ما أحتاج إليه منه ثلثا يلحقكم بقصد من يقصدكم ، ما ينقل به الوطأة عليكم ، وتصله به للضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أطلع في سياسته ، فقد جدد أهل الشام قنهم به . بدل على ذلك ما جاء في ردم على خطبته من تلك العبارة « أما اخبرناك لسياستنا ورياستنا ، هل أن نمكنك من تركنا ومفارتنا أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ وضوئنا دونك وبين يديك في اللدافة هنك » .

وكان جوهر يحمل الأمان من مولا العزيز لأفتكين ، كما كان يحمل خاتماً ودستامان ثيابه ، وكتاباً بالغو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتكين في لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له الخليفة العزيز من الأمان وما أهداه من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمن إلى نصابه . فكتب إليه أفتكين بشكره حسن سبه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه . ثم سار أفتكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستمد لقاء جوهر ، وجمع الأنوفات من بلاد حوران والبلينة ، ثم دخل دمشق وتمحص فيها .

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ ، فبنى سوراً يضم عسكره ، وحفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفتكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها المأثرة على أفتكين في ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ . برغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي بطلب منه السير إليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق . ولا شك أن جوهر لم يفسر مصير جعفر في حربه مع القرامطة في سنة ٣٦٠ هـ ؛ فطلب جوهر الصلح على أن يملو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن موارده قد نضبت وأن المثونة قد أعوزته ، وأن معظم جنده قد هلك . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة وتقوؤهم ونظامهم في الحروب ، حتى إن مجرد نبأ مسيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر ومبادرته إلى طلب الصلح .

أجاب أفتكين جوهر إلى طلبه ، فرحل هذا عن دمشق في ٣ جمادى الأولى

سنة ٨٣٦٦ هـ ، وجد في السير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ، سار إليه بعد أن رحل جوهر عنها إلى الرقة . فبث الحسن سرية لقتاله ، ووقت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب ؛ ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أحتكين لقتال جوهر ، وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ؛ وكان للورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن أحتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التي كانت يجمعها في المصارح ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان ، وأنه لا قبيل له بمقاومة جيوش أحتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال ؛ فأذن له العزيز بذلك . وقد وصل جوهر إليها في آخر الليل فنبهه أحتكين والحسن القرمطي ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت اللؤن وهزت الأنواء ، فارتفعت الأسمار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل منه حمل اللؤن إلى جوهر في البحر . واشتدت الحال حتى أكل للغاربة الدواب اللينة ، وابتاعوا الخبز كل خسة أرطال شامية بدينار معزى ^(١) .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهر وبعد نظره الفضل في الخلاص من هذا المأزق الحرج ، في الوقت الذي كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أحتكين والحسن القرمطي . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتيقن الذي كان يربط القرامطة بأحتكين ، والذي كان يهدف إلى القضاء على سلطان العاطبيين في بلاد الشام وانتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل باليمن والدماء ما هجز عن بلوغه عن طريق القتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب إلى أحتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوثام والصفاء محل الشاحنة والبضاء ، ثم يبعث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع ، رأينا جوهر يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدماء والحزم ، فأنى أحتكين من ناحية الدين ، وطلب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، على حين كان يصل

(١) ابن التلنسي . ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٧ .

في الوقت نفسه ، حل التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطي ، حتى إذا ما نجح بعض النجاش في فهم عرى التحالف بينهما ، استطاع في النهاية أن يقضى عليهما جميعاً .

وقد ذكر ابن العباسي^(١) أن جوهرًا قال لأفتكين حين اجتمع به : « قد طعت ما يجمعني وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقت فيها الدماء ، ونحن المؤاحذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح واللواحدة والدخول في السلم والطاعة ، وبذات لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية ، فأبيت إلا القبول من يشبه نار الفتنة ويستقر عنك وجه النصيحة ، فراقب الله تعالى وراحم نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » : فأجابها أفتكين : « أما والله وأثق بك وبصحة الرأي والمشورة منك ، لكنني غير متسكن بما تدعوني إليه ، ولا يرضى القرمطي بدخوله فيه » : فرد جوهر عليه : « إذا كان الرأي والأمر على ذلك ، فإني أصدقك على أمرى ، تمويلًا على الأمانة وما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر وأريد أن تمن علي بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتذم (هكذا) لى لأمضى وأعود إلى صاحبي شاكرًا . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المروءة ، وعقدت على وعلى صاحبي مئة تحسن الأحذنة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » . فقال أفتكين : « افعل ! وأمن » على أن أعلق سيفى ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها » . فرضى جوهر بذلك وتماهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان ، فعاد أفتكين إلى عسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرף .

وقد يمت أفتكين إلى الحسن القرمطي يملئه بما كان بينه وبين جوهر ، فذهب الحسن إليه وقال له : « لقد أخطأت بما فعلته وبذلته ، وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودعاء ومكر ؛ وقد استنلك بما عقدته معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فياخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً ، ونأخذهم بالسيف » . فتسك أفتكين بما عاهد جوهرًا عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما أستجيز الفدر به » . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتها^(٢) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن القلاسى ص ١٧ - ١٨ .

ولا شك أن جوهرًا لم يكن يحمل التل المأثور « النابة تبرير الواسطة » ، فقد رضى أن يمُرَّ هو وجنده تحت سيف أفتكين ورمح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الخل كان ينطوى على المدة والمهانة إليه وإلى القاطنين . بيد أن جوهرًا كان بزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ؛ ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالمًا ظاهرًا .

على أن جوهرًا إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتاحت له الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعًا . ولم يكن الحسن القرمطى يتفصل عن هذه الحقيقة حين أخيره أفتكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التى تنبئها من قول القرمطى : « وجوهر هذا ذورأى وحزم ودعاء ومكر ، وقد استغلق بما عقدته منك وسيرجع إلى صاحبه ، وبجمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على المزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال فى بلاد الشام ، واستفحال أمر أفتكين ومن معه ، فقال له : « ما رأى ! » قال أفتكين : « إن كنت تريد ، فأخرج نفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أنرى » . فأمر المزيز بإعداد القلعة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر ، وعلى مقدمته جوهر :

ولما علم أفتكين والحسن القرمطى بما عقد المزيز المزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمل وطبش القتال^(١) ، « وجال أفتكين بين الصفيين يكر ويحمل ويطن ويضرب » . فقال المزيز لجوهر : « أرى أفتكين » ، فأشار إليه « وهو يطن تارة بالرمح وبضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتفوه » . فأعجب المزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته ، ثم وقف المزيز ، وأغذ إليه رجلا من عهده ، فقال له : قل « يا أفتكين ! أما المزيز وقد أعجبتنى عن سرير ملكى ، وأخرجتنى لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مساحك بجميع ذلك ، وصانع لك عنه ، فأرك ما أنت عليه وقد بالصومنى . فلك عهد الله وميثاقه ، أى أوئلك وأصطليك وأبوء باسمك ... وأهب لك الشام وأركه فى يدك^(٢) .

مضى الرسول إلى أفتكين وبلغه رسالة المزيز ، فخرج أفتكين بمحيط يراه الناس ،

(١) المزيزى يخطئ ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) من القتلى ص ٦٨ .

وترجل ، وقبّل الأرض سراراً وسرّخ خديه عليها سغراً وقال : « قل لأُمير المؤمنين لو تقدّم هذا القول منك لسرعت إليه ، وأطمت أسرك ! فأما الآن فليس ما ترى . » وعاد الرسول ونقل إلى المزيز ما سمع ، فقال له : « إرجع إليه وقل له يقرب مني بحيث أراه ويراني ، فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل ، فضى الرسول وأبلغ أفتكين ذلك ، فقال : « ما كنت أقدّر أنأاهد طلحة أمير المؤمنين وأمانته الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدي . » ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين ، فهزّمهم وقتل كثيراً من رجالهم . ولما علم المزيز بذلك سار إليه نفسه واشتدك الفريقان في القتال ، ودارت الدائرة على القرامطة وأفتكين وذلك في ١٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ .

وبذلك قضى المزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية القنّية ، وفر أفتكين على فرس له ، فقبس عليه بعض العرب بعد أن بذل المزيز لمن يحمي به مائة ألف دينار .

سار المزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة ، فأحسن إليهم وأمنهم وكساهم وأسند إليهم الأعمال التي كانوا يولونها أيام أفتكين . أما أفتكين فإنه لم يشك أن الخليفة المزيز سيقتله ، فغير أنه استبقاه وضاع عنه .

ومحمد بن القلانسي^(١) أن أفتكين لما دخل على المزيز في سرادقه ، ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه ، وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين ، إزاء ما لقيه من المزيز ، إلى أن رمى نفسه إلى الأرض وألقى ما على رأسه ، وكى سكاه شديداً ، وقال : « ما استحققت الإبقاء على » ، فصلا عن العفو الكريم والإحسان الجسم . . . وامتنع عن الجلوس في الدّست وقعد بين يدي المزيز ، وألبسه جوهر من ملابس المزيز وعداً روعه ، فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهره على ما أظهره نحوه من كرم ونبل ... وبالح المزيز في إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل ممتحاً بنعم المزيز حتى مات في سنة ٣٧٢ هـ .

هكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، وأصبحت ولاية قاطية حاضرتها دمشق ،

وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية حيث استقل عمود نور الدين بن زنكي بدمشق ، واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

كان العزيز كريماً محباً للغزو ، وصنيمه مع إفتكين التركي خير مثل لذلك^(١) . فقد عامله معاملة قوامها منتهى العطف والرعاية . وقد جاء به أسيراً إلى القاهرة حين عاد من حربه منصوراً عليه ؛ إذ خلع عليه ووصله بهيات ، وخصص له داراً لإقامته ، ثم أذن له أن يدخل بلاط الخليفة ضيقاً مكرماً حتى لقد كان إفتكين يقول : « لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى إليه ، بما غررى من فضله وإحسانه » ، فلما بلغ العزيز ذلك قال لصه حثيرة : « يا عم ! أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والمصعة والجواهر ، ولم الخيل واللباس والصياح والمقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى » .

٣ - وفاة العزيز :

مات العزيز ببليس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ ، وهو فى الزاوية والأرسين من عمره^(٢) ، وقد عزى ابن خلكان^(٣) وفاته إلى مرضه من حصاة فى المثانة وقولنج ، وقال إن طبيبه أخطأ فى وصف الدواء الذى شربه وهو فى الحمام ، فمات من ساعته . ولما اشتدت على العزيز وطأة المرض ، استدعى إليه القاضي محمد بن العمان اللخمي ، وأبا محمد الحسن بن عمار زميم كتماناً ، واستشارهما فى تولية ابنه المنصور أبى على .

بروى لنا السبكي فى كتابه تاريخ مصر أن الحاكم قال له : « استدعائى والذى قبل موته ، وهو عارى الجسد ، وعليه الخرق والضاد ، وقبلى وضعتى إليه وقال : واغنى مدك يا حبيب قلبى ! ودعت عيناه ثم قال : ائضى يا سيدى طالب فأنا فى عافية » قال الحاكم : ففضت البيت عما يتناهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل العزيز إليه .

(١) خلال الصباح ، مسكويه ج ٣ ص ٣٨٤ - ٤٠٣ . ابن القلائسى ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) ذكر ابن القلائسى (ص ٢٤٢) أنه ولد فى القيروان سنة ٣٤١ هـ وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة ، وهو خطأ واضح .

(٣) وفيات الأيمان ج ٢ ص ١٥٢ .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ)

وُلد أبو علي للنصور يوم الخميس لأربع ليال يقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ .
وقد عهد إليه أبوه في سنة ٣٨٣ هـ ، ثم بوبع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه ،
وذلك في شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة ، وتولى الوصاية
عليه مرييه وأستاذه برجوان الخادم .

ولما بلغ أهل القاهرة خبر وفاة العزيز ونوابة الحاكم الخلافة ، خرجوا لاستقبال
الخليفة الجديد الذي دخل المدينة وبين يديه البتود والرايات ، وعلى رأسه الظلة يحملها
رئيدان الصقلي ، فدخل القصر عند غروب الشمس ، وبين يديه جثة أبيه ، فتولى غسله
القاضي محمد بن النعمان ، ودُفن مع أبيه المزمع في إحدى حجرات القصر الشرق الكبير وله
من العمر ثلاث وأربعين سنة^(١) .

وقد ثار الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية في مصر — على أثر ارتقاء
الحاكم الرش ، وطلبوا منه عزل عيسى بن نسطورس ونولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن
عمار ، وهددوا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، وماقتل إذا لم يصغ إلى
شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم ، فلم ير الحاكم بداً من إجابتهم إلى ما سألوه ، فأستد
الوساطة إلى ابن عمار في ٣ شوال سنة ٣٨١ هـ . ولم يلبث أن ظهر سوء إدارته في كثير من
الأعمال ، بما أناء في عهد تفلده الوساطة ، إذ ما لبث في محاباة الكتامين ، وأبطل إعطيات
الأرارك ، واعتد على معونة أحداث اللقارة الذين أناروا الأرك بأعمالهم . وكان برجوان
ينافس بن عمار وينائوه ، مع معاضدة الأرك له ، فكان من أثر هذا التقاطح أن هرب ابن
عمار إلى الصحراء وحل محله برجوان (شعبان سنة ٣٨٧ هـ) . ولما شعر الحاكم أن سلطته
مسلوبة مع هذا الوزير ، عمل على التخلص منه فقتله في حديقة داره في اليوم السادس
والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣

١ - أدوار زعموزع الحاكم :

ويمكن تقسيم عهد الحاكم أربعة أقسام :

(الأول) من سنة ٣٨٦ هـ إلى سنة ٣٩٠ هـ ، وكان الحاكم في هذه المدة لا يترك من أمور السلطان شيئاً ، إذ كانت كل السلطة في يد ابن عمار ، ثم في يد برجوان .

(الثاني) من سنة ٣٩٠ هـ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة ، أظهر فيها تصعباً شديداً للمذهب الفاطمي ؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية ، والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى .

وكان من أثر هذه السياسة التي جرى عليها الحاكم ، أن قتل فهد بن إبراهيم النصارى ، الذي اتخذه كل من برجوان والحسين بن جوهر كاتباً له ، لمناصرة النصارى وإستاده مناصب الدولة العالية إليهم ، حتى إن العامة شكوا منه واعتبروه آفة على المسلمين وعدة للنصارى ^(١) . ولم يمض على قتل فهد تسعة وعشرون يوماً حتى قتل ابن المداس الذي أشار بقتله (٦ شعبان سنة ٣٩٣ هـ) . ثم أسر الحاكم بالقبط على رؤساء الكتاب من النصارى ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحهم وأعادهم إلى مصر بشفاعة طيبيه أبي سهل بن مقشر النصارى ^(٢) . وفي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) أسر الحاكم النصارى واليهود بلبس الشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين . ثم بدأت سياسته المتدائية تظهر ظهوراً واضحاً بعد ذلك بثلاث سنين ، فهم بعض الكنائس ، ويسمح ما فيها من الأواني للقدسة في الأسواق ^(٣) . ولكن الحاكم ، على الرغم مما أوقعه بأهل الذمة ، فقد الوزارة بعض النصارى ، كابن عبدون ، الذي تقلدها في سنة ٤٠٠ هـ ، ولكنه لم يلبث أن أُقيل في المحرم سنة ٤٠١ هـ ، وترجع في دستها رجل من المسلمين عزّل بعد عشرة أيام ، وحل محله

(١) ابن الفلكس . ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠

(٢) ابن القفطي : إختيار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ ، ٢٣٨

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوطينا (بيروت سنة ١٩٠٩) ص ١٨٦ ، ١٩٥

في الوزارة زرعة بن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ، وظل فيها إلى أن توفي في شهر صفر سنة ٤٠٣ هـ ^(١) . وقد أوجز كثرة تقليد النصارى للوزارة صدور المسلمين عنهم ، فسلموا على الإيقاع بهم عند الخليفة الحاكم الذي اشتهر بالتغلب في أهوائه وسيله .

(الثالث) من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ . وبما هو جدير بالملاحظة أن الحاكم بذل سياسة التمسك ، مدفوعاً باملين هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين أغار عليها أبوركة ، الذي ادعى النسب للأيوبيين في الأندلس ، بجيش كبير من المناربة ، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاق الحاكم صعوبة كبيرة في القضاء على أبي ركة ، حتى أسروا وحبس على أحد أبواب القاهرة . أما العامل الثاني فهو ما قامت مصر من جراء انقراض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ — ٤٠١ هـ) ^(٢) .

(الرابع) من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ . وقد بدأت سياسة الحاكم منذ سنة ٤٠١ هـ تظهر بمظهر أكثر تذبذباً وتقلباً ، وأصبح عقله أكثر ارتباكاً واضطراباً . أما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تامة لرأي جمهور الأمة . ولم يكن استيؤم راجعاً لتحللتهم الدينية فحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب ^(٣) .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة ، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده . وفي عهده ظهرت طائفة الفرزية التي دعت إلى الاعتقاد بأوهية الحاكم ، مما أثار النزاع بينه وبين السنين ، ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في سنة ٤١١ هـ .

وقد أشرف في عهد الحاكم دار الحكمة التي كان يشتغل بها كثير من القراء والعلماء والمنجيين والنجاة والقوانين ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت كثيراً من أسماها الكتب بما ألف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية .

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ — ١٩٩

(٢) الفرزى مخطوط ج ١ ص ٢٨٧

(٣) حسن إبراهيم حسن . الفاطميون في مصر ص ٢٠٧

٢ - وفاة الحاكم :

اختلفت الروايات في وفاة الحاكم ، فيقول بعض المؤرخين إن أخته ست الملك هي التي دبرت قتله لسوء تصرفه ، فانفقت مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة على اختياره ، وقالت له : « لى إليك أسراً بدلى فيه من الاجتماع بك ، فأما تفكرت وجنتى ليلاً أو ضلّتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأسرك . فتوجهت إليه ليلاً في داره متسكرة ، ولم تصحب معها أحداً . فلما دخلت عليه قام ودبّل الأرض بين يديها دفعت ، ووقفت في الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : يا سيف الدولة ! قد جئت في أسوأ أحرُس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الخط الأوفر ، وأريد مساعدتك فيه ، فقال : أنا عبدك . فاستحلته واستوتقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يُبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بإيمانه الإلهية ، وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه . وأنا خاتمة أن يشور المسلمون عليه ، فيقتلوه ويقتلوناه معه ، وتنقض هذه الدولة أقيع انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ، فما رأى ؟ قالت : قتله ونسريح منه . فإذا ثم لنا ذلك أقف ولده موضعه وذلنا الأموال ، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره . وشيخ الدولة والقائم بأسره . وأنا امرأة من وراء حجاب ، وليس غرضى إلا العلامة منه . وأى أعيش بينكم آسة من الفضيحة ... »^(١) ثم انفقت مع عيدين على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم ، فطلا يرتبانه إلى أن قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً وقتلاه ، ثم حملاه إلى ابن دواس ، فحمله مع العيدين إلى أخته ست الملك ، فدفنته في مجلسها . وكان ذلك في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ .

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج في هذه الليلة راكباً حماراً ، وبصحبه رجلان . وبه اخفى منها ولم يعثر له على أثر . فقام بعض رجال الدولة وقصاتها ، وأخذوا في البحث عنه ، فعثروا على الحمار القذى كان يركبه مقطوع اليدين . ثم تابعوا السير حتى

(١) أبو الحسن . التجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وصلوا إلى بركة شرقى حلوان ، فوجدوا فيها ثيابه : وهى سبع جباب مززرة وفيها أثر السكاكين . . ثم ظهر رجل من الصيد وادعى أنه قتل الحاكم واعترف بذلك . ولما سئل عن سبب قتله . قال : قتلته فغرة لله والدين . فقيل له وكيف قتله ؟ فأخذ سكيناً وضرب بها قلبه وقال : هكذا قتله ، ولم يلبث أن خر صريعاً وتوفى .
ويعتقد الدرزي أن الحاكم احتفى فى سنة ٤١١ هـ ، وأنه سيهود إذا زالت للفساد المنتشرة فى العالم ، فهو إنن الإمام للنتظر عند هذه الطامة .

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ)

ولد أبو هاشم الظاهر فى ليلة الأربعاء ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٤٣٩٥ هـ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه بأيام ، وذلك فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ ، إذ « كان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره ، إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر من السنة للذكورة »^(١) وكان الظاهر حين ولى الخلافة فى السادسة عشرة من عمره .
وقد قامت عنته ست للالك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، فأظهرت كفاية ممتازة فى إدارة شئون البلاد ، وبذلت المطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت فى سنة ٤١٥ هـ .

وفى سنة ٤١١ هـ استوزر الظاهر : نجيب الدولة على بن الجرجاني . وأصله من جرجانيا ، إحدى قرى بلاد العراق ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وصعد إليه الحاكم بإدارة بعض المواليين . غير أنه لم يلبث أن أساء التصرف فيها ، فأمر الحاكم بقطع يديه من المرافق ، ثم مينه والياً على ديوان النفقات فى سنة ٤٠٩ هـ ، وظل يتنقل فى بعض الوظائف الإدارية فى الصيد ، إلى أن اختاره الظاهر وزيراً له سنة ٤١٨ هـ ، فأتخذ القاضي أبا عبد الله القاضي كاتباً له ، ونظم شئون الدولة ، كما أظهر حرصاً شديداً على أموالها^(٢) .

وكان الظاهر ممحاً ، عاقلاً ، لين المريكة ، استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل النعمة ومحبتهم له ، فتمتموا فى عهدله بالحرية الدينية ، كما وجه عنايته إلى ترقية شئون

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٢) المصدر نفسه .

البلاد وتمكين حالة الزراعة ، فأصدر قانوناً منع فيه الناس من ذبح البقر ، وأباح ذبح الحيوانات التي لا تصلح لحرق الأرض ، وذلك على أثر الوباء الذي أصاب بعض الحيوانات التي يستخدمها الملاحون في فلاحه الأرض ، وكتب إلى الناس كتاباً جاء فيه . « إن الله تعالى يتابع نعمته وخالق حكمته ، خلق ضروب الأنعام وعمل فيها منافع الأنعام ، فوجب أن نحصى البقر المخصوصة سمارة الأرض ، للذلة لمصالح الخلق ؛ فإن في ذبحها عاية الفساد ، وإضراراً للبلاد »^(١) .

ولم يتم الظاهر بيناء كثير من المنشآت ، لاشتغاله بالعمل على ضبط الأمور في داخل البلاد وخارجها . وقد بنى في عهده منظره المؤلفة بالقرب من القصر التري الصغير ، وتعد من أجل المنارات التي أنشئت في القاهرة في عهد الفاطميين . وكان الظاهر يتنزه فيها ، كما اتخذها بعض الخلفاء داراً للإقامة في وقت فيضان النيل^(٢) .

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة ، فقد مرض بالاستسقاء ، وتوفي ليلة الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ . ولما علم وزيره الجرجاني بذلك ، أخذ البيعة لابنه أبي تميم الذي تلقب بالمتنصر^(٣) .

المتنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ)

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر يوم الثلاثاء ثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٧ هـ ، وبيع له بالخلافة في يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . وكان أطول الخلفاء عهداً ، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه للدة بالرخاء والطمانينة غير فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

(١) أبو الحسن . التاجم الزاهرة ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧ .

وقد أقر المستنصر على بن الجرجاني وزير أبيه في الوزارة ، وكان الحاكم قد أمر بقطع يده من المرافق كما تقدم ، فأتخذ القاضي كاتباً له . وظل الجرجاني في الوزارة إلى أن توفي سنة ٤٣٦ هـ ، خلفه أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى . وفى عهد هذا الوزير ازدادت سلطة أبى سعيد التستري اليهودى ، وكان يتولى نظارة خاصة أم الخليفة ، حتى إنه لم يعد له معه إلا اسم الوزارة ، فخذ عليه واتهمه بفساد السم لربحان زعيم الأتراك حينذاك ، فانقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه فى جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ هـ ومثلوا بجثته . ولكن الخليفة المستنصر لم يرض عن هذا العمل ، كما لم يرض عنه أمه التى كانت قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمة فى بيت التستري ، فأسند ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين . ولم تنس أم الخليفة للوزير الملاحى تدبير قتل التستري ، فأقبل من الوزارة وحبس ، ثم قتل (المحرم سنة ٤٤٠ هـ) . وفى الحق أن الفلاحى اتخذ من شعور المسلمين المدائى نحو التستري فرصة لتبيل منه والإيقاع به ، وساعد على ذلك أن التستري قد أثار كراهة المسلمين ، لإستناذه مناصب الدولة إلى بنى جلده من اليهود الذين اضطهدوا المسلمين اصطهاداً واضحاً ، حتى إن شاعراً من الشعراء المعاصرين ، يسى ابن البواب ، نظم هذه الأبيات :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالم وقد ملكوا
المزُف بهم والمال عندهم ومنهمُ المستشار واللك
يا أهلَ مصرٍ قد نصحتُ لكم تهودوا قد تهود الفلك^(١)

استد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقيا ، وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والوصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ؛ فقد خرجت بلاد المغرب سنة ٤٤٣ هـ ، وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى التى استولوا عليها من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، واستولى

روجر الترمذى على صقلية التي كانت تاسعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ،
وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم فى سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من المنازعات التي قامت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التستري
والفلاحى ، وندخل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، فإن مصر قد تمتعت بشىء من
الطأينة والرخاء ؛ فقد آمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف
لقوة البلاط الفاطمى وأهله ، وما كانت عليه القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء^(١) .

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد
حلت بالقاهرة الأيام السيئة ، وعادتها المصائب التي لم تشر بها قبل قرن من تأسيسها .
فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت
الجماعة ، ومم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى المصور الوسطى ، وامتد ثمانى
سنين (٤٤٦ - ٤٥٤ هـ) ، وسكنت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ،
ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ،
وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضاً . وليس
أدل على القوضى التي سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً الوزارة فى تسع
سنوات مد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والقلاء وما أعقبه من
الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ . واقتربت هذه الشدة
التي اصططح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » ، بقيام الفتن والحروب الأهلية ،
حتى بدأ مصر بدر الجبال والى عكا ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ ،
فأعاد البطام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين^(٢) .

المستعلى بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ)

بُوع المستعلى بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة
٤٨٧ هـ دون أخيه أبى منصور تزار الذى ولاه أمه همد ، وشرع فى أخذ البيعة له أثناء

(١) Naeir Khuraw : Safar Námeh (ed. Charles Schefer, Paris, 1881), p. 127 et seq. (١)

(٢) ابن عيسر - تاريخ مصر ص ١٣ - ٢٣ ، ٣٤ .

مرضه ، غير أن وزيره الأفضل أخذ بمأمله حتى توفي قبل أن تتم مياصة ابنه زرار . ويرجع السبب في ذلك إلى ما ترويه لنا بعض للراجع العربية من أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً يفة ، فلما رآه زرار ، قال له : إزلى يا أرمنى يا نجس ، فغند عليه الأفضل ، وانهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة ؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة ، وأثار مخاوفهم من زرار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد ، فعارضه في ذلك محمود بن مصال الكسى^(١) ، وكان زرار قد مناه بالوزارة . غير أن الأفضل لم يعبأ به وبأدر إلى مياصة أبى القاسم أحمد ولقبه المستعلى بالله ، كما أخذ قاضى القضاة على ابن نافع السكحال البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها . ولم يكتف الأفضل بذلك ، بل ذهب إلى إسماعيل وعبد الله ابني للمستنصر ودعاهما لمياصة أبى القاسم ، فباجاه .

ولما رأى زرار أن الخلافة أفلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، وابن مصال الكسى ، فلقاه واليا ناصر الدين أحتكين للتركي بقبول حسن ؛ وبإيه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ، ولقبوه « المصطفى لدين الله » . فلما علم الوزير الأفضل بذلك ، خرج لقتاله على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة على الأفضل أولاً وعاد إلى القاهرة ؛ وهنا أخذ يعد السدة لقتال زرار ، ونجح في استئالة بعض أنباع زرار من العربان ، ولما تم له ذلك ، خرج إليه ثانية على رأس جيش كبير وحاصره حصاراً شديداً . ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم ، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب . وبعد قليل اضطر كل من زرار وأحتكين إلى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتم من زرار بأن وضه بين حاططين وبنى عليه ، فأت ، كما قتل أحتكين نائب الإسكندرية .

كان الحسن الصباح في مصر حين توفي للمستنصر وأخذت البيعة للمستعلى ، ونار النزاع بين زرار والأفضل بن بدر الجلى ، فتنبى الحسن الدعوة لنزار باعتباره أكبر أبناء المستنصر وأحق الناس بالإمامة من بعده ، كما اعتقد أن المستعلى اغتصب العرش والإمامة . ثم انتقل الحسن الصباح بالدعوة النزارية إلى إيران ولا سيما بعد مقتل زرار في القاهرة في سنة ٤٨٨ هـ ، وأخذ يدعو إلى الإمام المستور . وبذلك انضمت الدعوة الفاطمية قسمين : للتسمية ، والنزارية أى الدعوة الجديدة .

(١) نسبة إلى ك - بلفة بنواسى برقة بين الإسكندرية وطرابلس .

وكان المستمل مطلوب السلطة مع الأفضل . لذلك لا نحب إذا رأينا هذا الوزير يتنهر فرصة ضعف الخليفة العاطمي ، فيقبض على زمام الأمور في مصر .

وفي عهد المستمل بدأ الصليبيون يتصرفون على سواحل بلاد الشام ، فاستولوا على نيقية ، ثم انجموا إلى أنطاكية ، التي دخلت في حوزتهم ، ثم تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى بيت المقدس . فسا علم الأفضل بذلك خرج إليهم في عشرين ألف من حساكر مصر ، واشتبكت القريقان في معركة قتل فيها كثير من أنبياهه ، فاضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان ، ثم عاد إلى مصر وأعد جيشاً كبيراً سنة ٤٩٣ هـ تحت قيادة سعد الدولة النواصي ، الذي التقى بالفرنجية في عسقلان . فدارت بينه وبينهم معركة حامية قتل فيها سعد الدولة ، وظل الفرنجية ، يواصلون فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين^(١) .

الامر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)

تولى الأمر الخلافة بعد وفاة أبيه للمستمل في اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٤٩٥ هـ ، وقبض الأفضل على زمام الأمور في البلاد . وأخذ هذا الوزير منذ ذلك الحين يميل ميل السنين .

وقد عى العاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم ، حين كان وزراءهم السلطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجبالى لأظهر مثال تلك العناية ؛ لأن الأفضل كان يميل ميل السنين ، فأنهى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلى رضي الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمس . وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم العاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعوائهم ، وأهمهم من سلافة على بما كان موضع شك رعاياهم طوال حكمهم .

وقد شرح لنا ابن القلانسي^(٢) (+ ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً . وابن القلانسي هذا توفي بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ؛ وقد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد الدائع بأن مقتل الوزير كان تدبيراً من الخليفة العاطمي وأنصاره ، لبواعث

(١) نبر الحاسن ج ٥ ص ١٤٦ - ١٤٨

(٢) دبل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ - ٢٠٤

سياسية وحزبية . أما ابن ميسر فقد نسب من جهة أخرى مقتل الأفضل إلى عداوة جماعة الباطنية . غير أن ابن الفلاس يدحض ذلك ويقرر أنه وإن كان قد شاع أن الأفضل لقي مصرعه على يد الباطنية ، فإن ذلك كله كان بتدبير الخليفة الفاطمي .

وإن من الحق أن نقول إن الخلف بين روايتي هذين للتورخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا في أعمالهم يُصدرون عن العقائد الباطنية التي كان قواها إدعاءهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

ويمكن بنا أن نأتي بعبارة ابن الفلاس بتصرف وهي : أن الخليفة الأمر الذي ضمنت سلطته كثيراً بتدخل الأفضل ، شر الحاجة إلى التخلص من وزيره ، مدبر مكيدة اغتياله في إحدى زيارته لفنصر . لكن الأمير عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر وإن لم الخليفة — الذي صار حليقة فيما بعد وتسمى بالحافظ (١٠٥٤) — لاحظ أن ذلك العمل سيثير سخط الناس ويكون عاراً يلحق بالبلاط الفاطمي . وذلك أن الناس كانوا يقدرون الأعمال التي أداها الأئمة وأولادهم للأئمة الفاطمية حتى قدرها ؛ فيكون قتله معناه نكران لهذه الأيادي ، وذلك مما يجلب انتقام أنصاره ويزعزع ثقة الوزراء في الفاطميين . لذلك كله رأى الأمير أن يسبل لهذه القاية بطريقة أخرى ، وهي أن يهد بذلك الأمر إلى أحد معتنقي المذهب الفاطمي ، ويُنطى من اليهود ما يضمن له مركز لوزارة إذا نجح في هذا السبيل . وقد رأى الأمير أن أبا عبد الله المأمون بن البطائني ، أحد خواص الوزير ، هو ابن بجدتها ، لما كان يمتدحه من احتمال موافقته على هذا المشروع ، ذلك أنه :

أولاً — كان من معتنقي المذهب الفاطمي الذين اختصوا في حب الفاطميين .

ثانياً — لأن نجاح هذا العمل يؤول إلى أن يتخلف الأفضل في مركزه .

وقد رأى الأمير أيضاً أن يختار البطائني جماعة من الرجال يقومون بذلك ، على أن يُقتلوا عقب إتمامه ؛ كما رأى أن يظهر الخليفة ورجال بلاطه أشد مظاهر الحزن ، ويسعوا للانتقام ممن اغتال الوزير ؛ وبذلك لا يتهمهم أحد بأنهم كانت يد في هذا العمل .

ولا بأس من أن نورد ما ذكره ابن ميسر في طريقة اغتيال الأفضل . وذلك أن الأفضل كان قد نفي أحد الباطنية ، واسمه البديع ؛ ولكنه وجد من ساعده حتى سمح له

بالعودة لمصر ، حيث التف حوله كثير من الأنصار . غير أنه اقترح فيه مرة أخرى إلى
اليمين ، حيث كان يسودها مذهب البدئية بزعماء الحركة^(١) . وحدث أن
تقدم عشرة من أتباع هذا المذهب ، وعبروا عن رغبتهم في الحاق بالبديع في سجنه ؛
وسرعان ما انضم إليهم غيرهم من أمثالهم فيما رقبوه .

ولما رفع الأمر للأفضل أمر بقتل عشرين من هذه الطائفة ؛ فأثار ذلك غضب
الباقين ، وصمموا على اغتياله انتقاماً منه . وفي اليوم السابق لمعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ
(١١٢١ م) ، حين كان الأفضل في طريقه إلى قصره دار الملك في مدينة مصر ، اعترضه
رجلان كما نختفين في حاوت ؛ فقبض عليهما بعض حراسه وقتلوهما على الأثر . وهذا
كان خياط يتبع الوزير من القاهرة ، فباغته وأمسكه من طوقه وطمنه بسكين عدة طمات
مميّة . لكنه لم ينج ؛ فقد قبض عليه حرس الوزير^(٢) وقتلوه . وقد مال البطائحي الذي نظم
اغتيال الأفضل ما كان يرجوه ؛ فحلب ضحيته في الوزارة ، كما كان ذلك معتاداً في
ذلك الحين .

أما من أخلاق هذا الوزير ، فيقول ابن ميسر^(٣) : « كان من المدل وحسن السيرة في
الرعية والتجار على صفة جبهة ، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً . ولم يعرف أحد سودر
في زمانه . ولما حضر الإسكندرية ، كان بها يهودى يبالغ في سب الأفضل وشتمه واسمه .
فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله . فقال : إن مى خمسة آلاف دينار ، خذها منى
وأعتقنى وعف عني . فقال : والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله تقتلك ، وعفا
عنه ولم يأخذ منه شيئاً . ومحاسن الأفضل كثيرة : وهو أول من أورد مال الوارث ومنع
من أخذ شيء من التركات على المادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من
يطلبها وطلسه القاضي بشوب استحقاقها أطلقها في الحال » .

وقد أعاد الأمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل ، عندما عي إليه أن رجلين يقتتان

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٦٧) أنه بعد مقتل الصليحي سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) ،
زال الأمر عن سلطان الماطنين على بلاد المغرب ، وكانت الخليفة قد أقيمت فيها الخليفة المستنصر سنة

٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م)

(٢) ابن ميسر ص ٢٥٧ .

(٣) تاريخ مصر ص ٥٨ .

عقائد الطائفة المروثة بالبدعية التي يدين أسياسها بمذاهب السنة الثلاثة : وهي الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أضلوا إليهما واعتنقوا هذا للذهب .

الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ)

ولى الحافظ الخلافة بعد قتل ابن عمه الأسر على يد فريق من النزارية ، بعد أن تخلص من الطفل الذي أنجبه الأسر من إحدى سراريه . ولكن الأسر لم يستقم للخليفة الحافظ ، فقد قامت الدعوة لذلك الطفل ، ولقب الإمام الطيب ، ونقشت الدناير باسمه في سنة ٥٢٥ هـ ، وقد جاء فيها : بسم الله الرحمن ! ضرب هذا الدينار بالإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسة .

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين .

الإمام

محمد^(١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومنشوراً لهموتهم . وقد خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ ، ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة . لأن المسكة الحرة الصليحية كانت قد تلقت من الأمر كتاباً يبشرها فيه بموعد ولى عمده ، فزفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لا حق له في إمامة الدعوة الإسماعيلية ، التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستطعية نسبة إلى المستعلي ، وطبائعية نسبة إلى الإمام الطيب بن الأمر وحفيد المستعلي ، كما انقسمت الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر إلى مستطعية وزارية .

وقد قويت شوكة هذا الوزير ، فقبض على الخليفة وجبسه واستولى على ما في القصر من ذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه . وكان هذا الوزير إمامياً فدعا للإمام ، الثاني عشر ونفسه على المنابر بهذه الألقاب : ناصر إمام الحق هادى العصاة إلى اتباع الحق مولى الأم ومالك قضيتي السيف والقلم ؛ كما أزال عبارة « حتى » على خير العمل ، ومحمد

وعلى خير البشر ، من الأذان ، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة^(١) .
وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو علي أحمد بن الأفضل أن كرمه الشيعة للصربون
وصمموا على قتله ، فكان له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه ، فأخذها
الفتح يانس الحافظي وزيراً له .

ولما قدم بهرام الأرمق والى النخية إلى القاهرة في شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ
وحاصرها يوماً ، لم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني ،
وعلى الرغم من أنه كان يهتَم على الوزير بحكم منصبه أن يعصم للتبرع بالخليفة في الأعياد
ليزدر عليه لزرة (السارة) التي تعجبه عن الناس ، ولأن القضاة كانوا ينيبون عن الوزراء
عند أيام بدر الجمالي . وكانت هذه اللياقة تُذكر في الوثائق الرسمية ، كما كانت تكتب
أيضاً في وثائق الزواج .

على أن بهرام قد تقلد الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه ، وسرهان
ما تزايد نفوذه ، فأحضر إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية ، وسمح ليني جلده من الأرمن
بالإقامة في مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير .

وقد سلك هؤلاء الأرمن مع المسلمين سلكاً عدائياً ، وصادروا في أموالهم ، وبنوا
الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أفلقت بال المسلمين ، فرفضوا شكايتهم
إلى الخليفة ، وبث الأسراء إلى رضوان بن الوليخشي والى النخية يطلبون منه المسير إليهم
ليخلصهم مما هم فيه من كرب وبلاء فلي رضوان طلبهم ، وجمع ثلاثين ألف رجل سار
بهم إلى القاهرة وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام ، وبذلك ازدادت قوته ،
فاضطرب بهرام إلى مبارحة القاهرة والذهاب إلى أخيه الياسك والى قوص .

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة في شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ ، وتلقب
بالأفضل ، وظل الداء مُستحكماً بين المسلمين والأرمن ، فشدد رضوان على أهوان بهرام
واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم . على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ ، فأحضر
بهرام وأسكنه في قصره وأحله من غشه محل الإكرام ، فظم ذلك على رضوان واضطر

(١) ابن ميسر - تاريخ مصر ص ٧٥ .

إلى الخروج من القاهرة والذهاب إلى والي صرخند^(١). وهناك جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى مصر وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح؛ غير أنه لم يلبث أن أرغم على اللجوء إلى الوجه القبلي حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصل وأتته الأسرة بمحبته في القصر. ولم ينته هذا النزاع إلا بعد أن توفي بهرام سنة ٥٣٥ هـ.

ولما تولى أبو علي أحمد بن الأفضل الملقب بالأكل وزارة المحافظ، عزله وشل يده من التصرف في أمور الدولة في سنة ٥٣٤ هـ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه؛ ثم استولى على ما في القصر، ومنع ذكر اسم الخليفة من الخطبة^(٢).

(١) بلاد ملاسقي لبلاد حوران من أعمال دمشق.

(٢) ابن ميسر ص ٧٥.

الباب السادس

سقوط الدولة الفاطمية

١ - تمهيد :

لما ترك الفاطميون حياتهم القطرية التي كانت شعارهم في أيامهم الأولى عند ما كانوا يمكنون البربر في القيروان ، وانحسروا في الزحف فسكنوا القصور الجبلية بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع اللذات في الحياة ، وكلوا أمور الناس وشئون الدولة إلى خدامهم كفضل قباهم العباسيون مع مراليهم فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئاً فشيئاً ، حتى كانوا يلقبون بلقب « ملك » ، بينما كان ساداتهم مزوين في بيوتهم وقد أصبحوا النبوة في يدهم ، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم في بغداد .

ومع أن سلطة الخليفة المستنصر ٤٣٧ - ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) امتدت (في الشطر الأول من عهده) حتى شملت شمال إفريقيا والشام ، لما قام به دعائه الجريثون في الإمبراطورية الإسلامية ، حتى كان اسمه يذاع في حطبة الجمعة في الجوامع بين المحيط الأطلس والبحر الأحمر ، وفي اليمن والحجاز والوصل ، بل في حاضرة العباسيين نحرًا من سنة - مع هذا كله ، فإن قوة الفاطميين كانت قد أخذت في الانحلال ، وأخذ نجم الخلافة الفاطمية في الأفول .

ففي سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقيا عقائد المذهب الشيعي رفضاً نهائياً^(١) ، وتلا ذلك عدم الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب لما توفي هشام^(٢) سنة ٤٧٣ هـ .
ولقد تولى الوزارة سد وفاة الوزير اليازوري سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أربعون وزيراً في مدة تسع سنوات ، مما جعل الحروب المتصاعدة بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين

(١) ابن خلدون ص ٦

(٢) ذكر ابن حنكاه (ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦) أن الخطة أقيمت هناك باسم الخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) . ومن أراد الاستزادة ، فليرجع إلى ابن حنكاه (ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٦٧)

أكثر خطراً وشدة في بعض الأحيان تحت هذا الحكم الضعيف ، وإن كان قلده بدر الجاني للوزارة قد وضع حداً ، ولو إلى حين ، لهذا الاستبداد العسكري .

وتدلتنا للباحث التاريخية على أن السبب الحقيقي في سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع إلى الحروب الصليبية . وسنبين الآن أنه على الرغم من انحلال قوة الفاطميين في الشطر الثاني من حكمهم ، فإن الحروب الصليبية قد مجتلت بزوال دولتهم المنظمة التي سيطرت ردها من الزمن على جميع الولايات النورية للدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء . والكلام في هذا للوضع مبسوط في كتب كثيرة . فقد أمدنا بكثير من المراجع بعض الكتاب الذين عاشوا في أواخر أيام الفاطميين ، أمثال عمارة اليمى (+ ٥٦٩ / ١١٧٤) وأساسة بن متقذ (+ ٥٨٤ / ١١٨٨) الذين شهدا ما كان يجري في مصر في هذا العصر ، كما اشتركا في أمور البلاد السياسية والحربية .

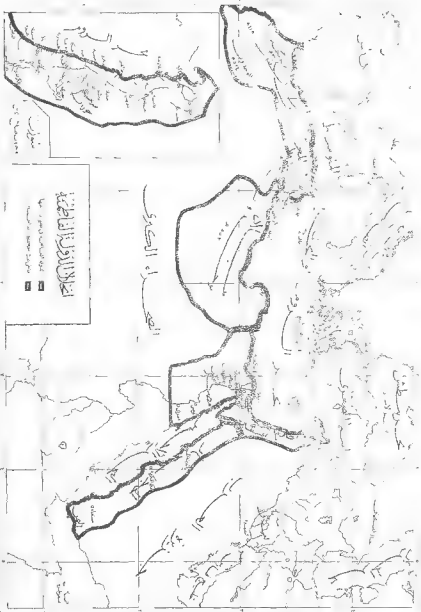
وعلى الرغم مما عسى أرتهم به رواية هذين الكاتبين في هذا الموضوع لما كانا يتمتعان به من تضيد الوزراء في مصر ، فإننا نميل بناء على ما أهدتنا إليه مباحثنا ، إلى صدق روايتهما في وصف هذه البلاد قبل زوال اخلافة الفاطمية بقليل .

وهناك كتاب آخرون أمثال وليم الصوري (William of Tyre) (نسبة إلى صور) المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأوصالغ الأرميني المتوفى سنة ٦٠٥ - ٦٠٦ هـ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، وأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) - وكلهم من أعلام التاريخ يؤيدون الرواية السابقة .

٣ - مائة مصر منذ عزل رضوانه إلى مقتل ابن السعور :

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) في ذلك العصر إلى تأليف مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، وسعد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مرتها الانقسام ، فوقست في أيدي المغيرين عليها .

ويقول ستانلى لينبول : « إن أول تدخل لنور الدين في شئون مصر بقوة السيف



الخارطة الأولى للناطقين

١ دولة الناطقين بالعربية
 ٢ دولة الناطقين بالفرنسية
 ٣ دولة الناطقين بالإنجليزية

١
 ٢
 ٣

كان من سعى وزير مخلوع^(١) . غير أن بداية تدخل نور الدين في أمور مصر يرجع
عهده إلى أيام الوزير ابن السلال (رمضان سنة ٥٤٤ - المحرم سنة ٥٤٨ هـ - ١١٥٠ /
١١٥٣ م) . وكان النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش ، سبباً في
وتوقع التقاتل قبل ذلك في أيام الوزير بهرام الأرمي السبيعي ، الذي كان تعيينه لكثير
من بني جلده في مناصب الدولة سبباً في إثارة كراهة الناس له ، حتى انتهى الأمر سزله
وعزل أمين من الأرمين الذين كانوا يستظلون بحمايته ؛ وقد قضى بقية أيام حياته راحياً^(٢) .
وقد خلف بهرام في الوزارة رضوان الوثقشي ؛ وكان شاعراً وجندياً مقدماً ؛ تلقب
لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب « ملك » ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين
الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ؛ فصر إلى الشام ، وهناك
طلب إلى رنكي أتابك الموصل مساعدته .

كان رضوان ينوي غزو مصر ؛ ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة بن منقذ الذي أوفد إليه
من القاهرة واسترضاه بثلاثين ألف دينار ؛ فدخل من ذلك^(٣) ، وجاء إلى القاهرة بعد
أن أتمت الخليفة الحافظ على حياته . واسكن ذلك الخليفة لم يف بعده ؛ فقد حبسه عشر
سنوات تمكن في آخرها من القرار ؛ ثم جمع له أنصاراً كثيرين واستقر في الجامع الأقصر
أمام القصر . غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتوا شملهم ثم ظفروا به ؛
فقطعت رأسه كما قطع جسمه إرباً ، والتهمة الجند اعتقاداً منهم أنهم بذلك يماثلونه في
بأسه وشجاعته^(٤) .

وحدث يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ ؛ ففتش النزاع العنيف بين الجند
السوداني والجند التركي ، وولى ابنه الطاهر - وسنه ست عشرة سنة - الخلافة من
بعده ؛ وقد عادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين في هذا العهد سيرتها الأولى
وفد ابتداء هذا الشاب الأرمن حكمه بطرد الوزير ابن السلال - الذي كان يلقب

(١) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 80.

(٢) أبو صالح ص ٨٤ .

(٣) أسامة بن منقذ ص ٢٢ و ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤ .

بالمالك العادل — وجعل في الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروهاً من الأهلين .
أما ابن السلا ، فسرعان ما جمع فرقة من أعوانه المسلمين وسار بهم إلى الجيزة في الرابع عشر
من رمضان سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) . وفي اليوم التالي تمكن من الحلول محل منافسه في
الوزارة — وكان ذلك أسراً ما لوقا في ذلك الحين — وقد فر عندما رأى تقدم ابن السلا ،
ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً^(١) .

وقد التجأ ابن مصال بدهزيمته إلى كورة الخوف . وهناك تمكن بما جمعه من أموال
الخليفة من حشد قوة كبيرة حوله ؛ ثم استقر في الوجه القبلي ، فأنبه البساس ربيب ابن
السلا . وفي مدينة دلاص — الواقعة جنوب الواسطي في الوجه القبلي — التقى الجندان ؛
فدارت الدائرة على ابن مصال ، وتفرق جنده أيدي سباً ؛ أما هو فقد قتل وحمل رأسه إلى
القاهرة . وبهذا استراح ابن السلا عن منافسه ، واعترف الخليفة له بالوزارة مرغماً ؛ لكنه
ما برح يعمل على السكيد له لطرده من الوزارة^(٢) .

وقد وصف لنا أسامة إحدى المكائد التي كادها له الخليفة الظاهر . من ذلك أن جماعة
من حرس الخليفة اختبأوا في دار تجاور دار الوزير ، وظلوا حتى انصرف أعيان الوزير في
منتصف الليل . غير أن ابن السلا علم بذلك ، وكان معه في داره أسامة بن منقذ ؛ ولذلك
فشلت المؤامرة وتشتت جمع المتآمرين^(٣) .

أما ابن السلا فقد أرسل أسامة بن منقذ — وهو مرصعنا في هذا الموضوع في بثة
إلى الشام ليطلب من نور الدين المون في غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين
مصر ؛ وفي تلك الأثناء يسر الوزير نفسه إلى غزة وعقلا^(٤) .

وقد كان معنى هذا الرجاء طبعاً هو تدخل نور الدين في شئون مصر ، أو على الأقل
إنهاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين ؛ وذلك ما أتاح أخيراً
الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد .

(١) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦) . أما القليبي (مكتبة يوديان بأكسفورد ، مخطوطات
Lund) القسم للشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٠٥ (١) . أبو القدا (ج ٣ ص ٢٣) قد ذكرنا أنه لم يكن
في الوزارة إلا أربعين يوماً .

(٢) أسامة بن منقذ ٥ و ٦

(٣) المصدر نفسه ص ٦

(٤) المصدر نفسه ص ٧

ثم سافر أسامة إلى الشام وتقابل مع أسد الدين شيركوه في بُغرى^(١) ، ومنها صحبه إلى دمشق . أما نور الدين فقد أبى امتهاق الحسام لمحاربة الصليبيين ، فقد كانوا هم وأهل دمشق أعداءه على السواء ، ورأى أنه يضر بنفسه إذا دخل في حرب مع أحد الفريقين . ومع هذا فقد أباح لأسامة أن يحمّد تحت لوائه أكثر ما يمكن تجنيده من المتطوعين . وقد انضم إليه ثلاثون من حرس نور الدين وأبى من الأكراد لبشرك نور الدين في ذلك اشتركا فعليا ، فينسب إليه ما قد يحوزه جند أسامة من نصر . وقد حاصر أسامة عسقلان نحو من أربعة أشهر يحمّد كبير من الفز المُرْتَقَة . غير أن قواته اندحرت لدم ثباتها أمام المدوم من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره من جهة أخرى — كما يقول أسامة نفسه . وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب ، ثم جاءت أوامر الوزير ابن السلا رصاد إلى القاهرة من غير أن ينال أى نجاح حربى^(٢) . ومع ذلك فقد كان لطلب أسامة المساعدة من نور الدين نتيجتان :

الأولى — ظهور مصر بمظهر الضعف وعدم قدرتها على صد هجمات الصليبيين ؛ ومن هنا طمح نور الدين في الإغارة عليها . غير أن عدم إخلاص السوريين له حمله على تأجيل ذلك حتى تتوطد أقدامه في سورية ويقوى أمره .

الثانية — أن الصليبيين أصبحوا على علم تام بحال البلاد المصرية . لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك ، فقد كان ابن السلا رضى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك لقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء للذهب العاطى) سنياً مغالياً . وربما كان ذلك سبباً في تدبير الخليفة السكائد له حتى يخلص من شره . غير أن ما كان لابن السلا ر من أنصار كثيرين قد آذن بزوال سلطة القاططين الدينية . يضاف إلى هذا أن الصراع الذى كان بين ابن السلا ر ، وهو كما علمنا من خلاة السنين ، وبين ابن مصال

(١) يسمى هذا الاسم موضعان : أحدهما ببلاد الشام ، وهو حاضرة إقليم حوران ، والآخر قرية من أرباض بغداد (انظر هذا القبط مجسم البلدان لياقوت) .

(٢) أسامة بن مقبل ص ٧ - ١٣

للنرى الأصل ومن أهالي لُكَّ (قرية قريبة من برقة) كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعة. وقد كان ابن السلار يطعم في مساعدة نور الدين، ذلك الرجل السني للتصحب لمذهبه، فنشر مذهب أهل السنة في مصر بدل مذهب الشيعة، كما دللنا على ذلك مباحثنا للستيفضة في حياة ابن السلار والياً ووزيراً.

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى، ومن قبيلة الرُّزْرَزَى^(١). نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الوجه القبلي، وتدرج فيها حتى ولى الوزارة في عهد الخليفة الظاهر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١١٤٨ م).

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السني، وصار شافئياً المذهب (وهو المذهب الذي كان يتبعه أيضاً أسد الدين شيركوه وصلاح الدين). ولما ولى الإسكندرية بعد وصول الحافظ الشافعي الفقيه الشافعي في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م)، عامله بكل تجلّة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة لشافعية أسند إليه إدارتها^(٢). وبهذا هياً ابن السلار السبيل لرجوع المذهب السني إلى مصر. وقد اعتمد الخليفة الظاهر في الكيد لابن السلار واغتياله على نصر بن عباس، وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه، وكان من أسرته أخيراً أن قتل الخليفة والوزير معاً.

وفي سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ — ١١١٠ م) وصلت إلى مصر بلّارة^(٣) زوجة أبي الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المزمع بن باديس مع ولدها أبي الفضل عباس بن أبي الفتوح، وكان طفلاً إذ ذاك. وقد تزوجت بلّارة ابن السلار، وأقامت معه رداً من الزمن. وتزوج عباس، وولده ولد أسماء نصرأ، مقرب في كنف جدته في دار ابن السلار الذي حاطه برعايته وعطفه العظيم. ولما شب عباس أنفذه ابن السلار إلى الشام ليشترك في حرب الصليبيين، فصحبه أسامة بن منقذ. ولما وصل إلى بلبيس ليتولى قيادة الجند، أظهر لأسامة تأله من

(١) انظر Quatremère : "Notices sur les Curdes," in "Notices et Extraits," Vol. XIII, p. 315.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧ و ٤٦٧ و ٤٦٨

(٣) جاء في ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٨، والمقريزي (خط ج ٢ ص ٤٤٧) أن جدّة نصر بلّارة (بالوار). انظر أيضاً ابن ميمر (ص ٩٢)

مصادرة مصر الجيلة ذات المغانع البديع التي تركها لا شيء إلا لمقابلة الأعداء ، كما أظهر له تأله أيضاً من عبء الحياة العسكرية .

ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه في مكنته أن يتجنب كل هذا بقتل ابن السلالر ، وتقلده الوزارة بعده . وقد اتفق بعد ذلك أسامة وعباس فيما بينهما على أن يقوم نصر بتنفيذ ذلك المشروع الشائن ؛ وتمكن نصر من قتل ابن السلالر وهو قائم في سريره في ٦ المحرم سنة ٥٤٨ هـ (أبريل سنة ١١٥٣ م) .

ذكر أسامة^(١) أن نصراً عاد إلى القاهرة بعد أيام قليلة من سفره إلى بلبيس مع والده عباس بدون إذن الوزير ابن السلالر ، الذي أمره بالرجوع ثانياً إلى الجيش والاشتراك في النزاع

وكان الوزير يعتقد أن نصراً إنما عاد إلى القاهرة سعيًا وراء أهوانه ؛ لكن الحقيقة أنه أرسل بانديق أبيه لاغتيال الوزير ، فكان له ما أراد بفضل ما لقيه من تمصيد الخليفة . وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلده الوزارة ، وخلع عليه الخليفة^(٢) .

٣ — مقتل الخليفة الظاهر :

لقد صدق لينبول في قوله « إن مقتل ابن السلالر بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه لئيد الأثيمة ، يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر » . ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة ، وكان صديقاً حميماً وصيفاً لابن السلالر . وكان مع هذا من الذين دبروا أسر اغتياله . وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرح لمقتل ابن السلالر ، رأس القتيل في بيت المال ، وضع قائده بشرين مصفى بها ٣٠٠٠ دينار ، وحرصه على قتل أبيه بعد ذلك . لكن هيباً استشر الخطر ، فأعد المدة ليسم ابنته . وكان لقدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في إصلاح ما بينهما ، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره .

وفي اليوم التالي ، بينما كان أسامة جالساً في الدهليز ، إذ سمع صليل السيوف . ذلك أن

(١) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣ - ١٤ .

حديقه عباسا ذهب إلى القصر يصحبه ألف سيف من أتباعه متظاهرين بالاستفسار من الخليفة . ولما علم عباس بقله ، أخذ في قتل إخوة الخليفة واتهمهم بأن لهم يداً في الجريمة ^(١) . أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة ؛ فنشبت المارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجون اتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم . ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اهتزوا . ولم يكن لباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم ، فقرر هو وابنه إلى سورية ^(٢) . فبإمره لقي حقه بئس في طريقه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر إلى إمره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ و ١١٥٤ م) أما نصر ابنه فقد باعه الفرنجة في هسقلان ، وأرسل للقاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) في قصص من حديد . فمذبه نساء البلاط وطيف به في المدينة بعد أن جُدد أغوه وصُلّت أذناه ، وصلب حيا على باب زويلة ، وترك مسلّقا هناك شهوراً كثيرة ^(٣) ؛ ثم أحرقت جثته في الساشر من المحرم سنة ٥٥١ (١١٥٦ م) ^(٤)

ترك الخليفة للقتول طفلا في الرامة من عمره ؛ فدمى له بالخلافة وتلقب بالقائر سنة ٥٤٩ هـ . وكاد هذا الطفل يموت روعاً يوم استخلافه . وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداذاً عليه ، ثم أرسلوا إلى الأمير طلائع بن رزيك وإلى الأشمونين ، « وذلك أقصى ما يمكن في التوسل عند المرأة المسلمة » ^(٥) ، وتضرعن إليه أن يحمي لتخليصهن .

ولما وصل هذا التوسل إلى رزيك سار إلى القاهرة . ولما قاربها جعل الشعور في رأس رجمه واستولى على دار المأمون (قصر عباس) ^(٦) . وقد دُفن جثمان الخليفة المقتول مع آبائه في وسط مظاهر الحداد العام ، وأخذ الوزير

(١) أسامة بن منقذ ص ١٦ - ١٨

(٢) من أراد التفصيل فليظر أسامة بن منقذ (ص ١٩ وما يتبعها) .

(٣) أسامة بن منقذ ص ١٩ و ٢٠

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠

(٥) Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 173

(٦) هذا القصر بناء الوزير المأمون ، وتحول فيما بعد إلى يد صلاح الدين إلى مدرسة للأحناف ، وتعرف بالمدرسة السيوطية .

ابن رزيك في إعادة الأمن إلى نصابه ومعاقبة الجناة ، وقتل القواد للناوتين الذين حل
الدمار في أيامهم بالقاهرة ستين كثيرة ، وأعاد حصر سيادة القانون^(١).

وكان ابن رزيك — الذي تلقب بالملك الصالح — قوى الشكيلة ؛ فكان هو الرجل
الذي تحتاج إليه مصر في ذلك الحين . أما ذلك للأساء فقد أقعدت الفاطميين عسقلان آخر
مقاتلهم في فلسطين ، التي استولى الصليبيون عليها وقد دب التنافس بين الأحزاب في
مصر ، إذ تركت من غير حامية بعد عودة عباس على أثر مقتل ابن السلال . وبذلك سقط
في أيدي الصليبيين آخر حصن لفاطميين في هذه الولاية سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٣ م)^(٢).

أما الصليبيون فلم يستروا في سيرهم إلى مصر ، إذ فت في هضم وزعزع ملكهم في
بيت المقدس تمام قوى البلاد للناخه لما ، وقتل الحلة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد
Conrad وليس السامع ، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره في حلب
شمالا ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ
(١١٥٤ م) ، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين^(٣).

وقد قُتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ / ١١٦١) بدسيسة
صهره (زوج ابنته) الخليفة الماضد ، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه ، وانتقص هذا
الوزير سلطته من أطرافها ، وقد كان لقتله ضجة في القاهرة . ويجمل هنا أن تأتي بما أمدنا
به حمارة لمي ، وكانت شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخلفيتين الأخيرتين من
الخلفاء الفاطميين .

لقد أصبح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أباشجاع المادل أن يحضر شاور
ويتجنب خله من منصبه . وقد دلت الأيام على أن ذلك النصيحة كانت تلحق ابنه . كان
شاور عري الأصل ، انصل بابن رزيك ونال حظوة لديه ، فولاه الصيد ، وغدا مركزه
من الخطر بحيث لم يمرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه

(١) ابن ميسر ص ٩٤ وابن خلكان ج ١ ص ٢٩٨ وما يتجها .

(٢) ابن ميسر ص ٨٦

انظر Prof. Margolouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦

المادل في الوزارة ؟ غير أنه لم يكذب يأتي عليه عام في الوزارة حتى خلع شاور وقتله ابنه على ابن شاور في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م) .

وصار شاور بقلته هذه غير محبوب من الناس ، مما سهل لأتباعه سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة . وكان من مظاهر خرق شاور في سياسته أن أطلق لابنه على عتات التدخّل في شئون الدولة . ولم تقتصر أعماله السيئة على بني رزيك ، بل تناول أذاها الأهلين عامة ، فاستثار شاور بذلك — كما يقول عمارة — بغض الناس ^(١) .

ويقول أبو شامة في عرض كلامه على مقتل المادل بن رزيك ، أن على بن شاور هو الذي فعل تلك القصة دون رضى أبيه . ويقول ابن أبي على الذي نقل عنه أبو شامة ذلك : « أشار بعض أقارب المادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله ؛ فأبى الوزير ذلك بادئ الأمر ، ولكنه عزله أخيراً . فثار عليه ومضد قوم من الأعراب وأهل الصعيد ، فتمكن من دخول القاهرة . ثم غادر المادل بن رزيك المدينة واختفى ؛ ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحلوه إلى شاور » .

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد ؛ وبذلك انفراد شاور بالسلطة المطلقة . بيد أن أقاميل أولاده مع الأهلين جعلته مكروهاً عندهم ، حتى إن ضرغام أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند من بركة) وأخاه ملهما ، وهما من خواص طلائع ابن رزيك ، تفاوضا مع المادل — وكان محبوباً في ذلك الوقت — في أن يثير ثورة عليهم يتمكنون من إعادته للوزارة .

ولما اتصل ذلك بعلى بن شاور ، حذر أهله عواقب تلك المؤامرة ونصح له بأن يقتل ابن رزيك . غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك ، فلم يذعن لأمر ابنه . ذهب على بن شاور بعد ذلك إلى السجن وقتل المادل بن رزيك ، فغلب نفسه بذلك سخط أبيه . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل للثورة وهزم جند شاور . ففر شاور إلى سورية ؛ وبعد فراره قُتل ولده على وضرغام . أما ابنه الثالث الكامل ، فقد كانت له يد على ملهم أخى ضرغام أمين الباب ، فلم يخله ، بل أقصر

(١) عمارة يعني ، كتاب " فنكح الصرية " (ص ٨٨)

على اعتقاله . وبهذا انتهت وزارة شاور الأولى وحل محلها فيها ضرغام ، وذلك في رمضان سنة ٥٥٥٨ هـ (١١٦٢ م)^(١) .

وقد تدخل نور الدين والفرنجية تدخلاً جدياً في شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعومة ، وإسراف ضرغام في قتل قواد مصر - كان من هذه الأحوال مجتمعة ما جعل يسقط الدولة العاطمية^(٢) .

وقد هرب شاور في رمضان من هذا العام إلى نور الدين بدمشق وطلب منه النجدة ، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية^(٣) . وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص ، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد ، وأنها معين خصب للخراج . وهنا قد يكون لينبول مصيباً في ظنه ، وهو أن عدم ثقة نور الدين بشاور ، وتخوفه من الأخطار التي تستهدف لما حملته في احتيازاها الصحراء وسرورها على الصليبيين - كل ذلك سمحه يتردد في هذا المشروع . غير أن أمل إلى الظن بأن لينبول تسرع في حكمه ، فأستد عدم ثقة نور الدين بشاور إلى أشياء جاءت بعد ، وذلك لعدم فهمه عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠) هذه : « وتخوف أن شاور إن استقرت قاعدته ، ربما لا يفي » ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد ترزع أحلاق شاور في الوقت الذي كان يحاول الاتفاق مع هاتين القوتين الأجنبيةتين .

وقد أوردنا لنا ابن شدّاد (ص ٤٣) وأبو شامة (ص ١٠٧ - ١٠٨) وابن خلكان

(١) أبو شامة : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥ .

Recueil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV. p. 166

التك. المصرية (ص ٦٧ و ٧٨) ، وابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٢) عبارة . الكت (ص ٨٨) ، وابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢١ .

ذكر ابن الأثير عن ابن أبي عليّ من جهة أخرى ، أن شاور أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه أن يعود إلى الشام . غير أن شيركوه أجابه اتعاضاً لتسليمات نور الدين ، بأنه يجب أن يطميه ثلث الخراج ، وأن يتفق الثالث اتفاقاً على جيش شاور ، ويخصص الثلث الأخير لنفقات القصر . فأنكر شاور أتعاضه على ذلك - نور الدين ، وذكر له أنه إنما اتفقا على أن يساعد نور الدين ، ثم ترجع الحدود السورية إلى بلادها متى سارت له السلطة ؛ فألح شيركوه في ضرورة تنفيذ أوامر نور الدين ؛ فكانت نتيجة ذلك أن أمر شاور بإغلاق أبواب القاهرة ، وبدأ في معاوضة الفرنجة (أبو شامة ، شرحه ص ١٦٦) .

(ج ٢ ص ٤٩٩) وغريم الأسباب التي جعلت نور الدين يصم على إرسال هذه الحقة إلى مصر ، هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولاً — رغبته في إحابة شاور إلى طلبه ، وقد تضرع إليه ورغب في الاستعانة به .
ثانياً — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر ، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً ، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد .

٤ — سموت شيركوه على مصر :

هكذا مجلت الحوادث تدخل نور الدين . وذلك أن ضرغام اختلف مع عموري في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه : فسار ملك بيت المقدس الجديد (عموري) إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ليفرض عليها الجزية كرهاً . ولحقته المزيمة المنكرة بضرغام في بليس ، فأراد أن يجنب المزيمة النهائية . فأوحى له قصر نظره وغباوته فتح سدود النيل — وكان في إن فيضاه — فأغرق البلاد . على أنه قد تم له ما أراد من رجوع عموري إلى فلسطين .

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاور ونور الدين ؛ فأدرك خطأه في عدم اتفاقه مع عموري ، وسارع بعقد حلف معه ، وزاد فيه مقدار الجزية . وسرعان ما ظهر نور الدين في ساحة القتال حين اتصل به ذلك . وقبل أن يتمكن عموري من السير إلى مصر (جمادى الثانية سنة ٥٥٩ هـ ، إبريل سنة ١١٦٤ م) ، سار شاور إليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين قائد المقدمة . والنقى ذلك الجند مع المصريين في بليس ؛ فاهزم المصريون ، غير أنهم لما شتمهم ثانية واجتمعوا تحت أسوار القاهرة^(١) .

واستمرت الحرب سجالاً بين الفريقين عدة أيام ، تمكن شاور في أثناءها من الاستيلاء على القسطنطينية ، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة . وأراد ضرغام أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده على أموال الأوقاف ، فأخذ الناس ينفضون عنه . وقد امتنع الخليفة والجيش من

(١) عبارة ، التكت (ص ٦٨ وما بينها) ، ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١)

مؤازرته ، فتدهور حتى دوى راكباً مخترباً باب زويلة سائراً في طرقات القاهرة بدهو الناس لقشورة ونصرة دعوته ، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء وتزويده باللعنات . وقد استمر في سهره حتى جفل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض في جوار ضريح السيدة خديجة . وسرعان ما قطع رأس ضرغام وطيف به في الطرقات وسط مظاهر الترح هذا النصر^(١) . وهنا يقول لينبول : « هكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع القادم ، والشاعر البطل الحسن الخنق والحنق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذي كان فارس عصره ، وأحسن من نبيل القوس في مصر »^(٢) .

وقد أدرك شاور قرصه ؛ ففقد الوزارة ، وتوطدت أقدامه وانضمت قوته ثابتة الأساس . ولوثوقه بقوة مكانته وأنه قد أمن ما كان يتخوفه ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وهرأ بمحالفته ولم يف بما عاهده عليه ، وأى دفع ما فرضه على نفسه من جزية ؛ ومد له الفرنجة يد المساعدة حين طلب شاور إليهم ذلك ، فغصروا شيركوه في بلبس وحملوه على العودة بمجده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ نوفمبر سنة ١١٦٤ م) . وانتهر نور الدين ذهاب عجورى إلى مصر فهزم قواته في فلسطين ، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده^(٣) .

ولكن شيركوه لم يحمق تماماً في حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من القوضى ، فأطمسه ذلك في امتلاكها . لذلك قى في الشام مدة بعد البلدة في تجهيز حملة ثانية أملاً في تأسيس إمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخللط ما لا شترك مع نور الدين^(٤) .

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء وانحمة جليلة في غفصون وزارته الثانية . وبؤخذ من قول عمارة أن شاور لم يلبث أن ظهر فقهه واضطرابه بسد أن استرد قوته واستمر في مسركزه ، وفي اليوم التلى من وصوله القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبس حين علم بحيانة شاور له ، وهزم الجيوش المصرية .

ابتدأ نجم شاور في الأمل في هذا الحين بسرعة ، فخرج أخوه صُبَّيح جرحاً بليماً ،

(١) سكت ص ٧٣

(٢) Lane-Poole . Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 8.

(٣) بن سداد ص ٤٣

(٤) مصدر نفسه .

وحاصر الفرنجة بليس ، وأرغوا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلتزموا أن عادوا م أيضاً إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً ؛ فقد كان زماماً على شاور أن يقع ثورده يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك^(١) (حصارة من ٦٧) ، الذي قام يطلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التي أثارها بنو لؤي^(٢) ومن لف لفهم من العرب . وأدعى من هذا كله ما بلته من إمداد نور الدين العدة لتزود مصر مرة أخرى^(٣) .

طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطئاً ثابتاً في مصر ؛ فأرسل نور الدين جيشاً إلى هذه البلاد تحت قيادة شيركوه ، إذ رأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة من شأنه أن يكسبهم قوة في مصر ، وذلك يهدد مركزه في الشام . وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر — يناير ١١٦٦ — ١١٦٧ م) ؛ ووافى ووصل إلى مصر وصول الفرنجة ، كما نخبنا بذلك عمارة وابن شداد وغيرهما من المؤرخين . وكان الفرنجة — كما ذكر أبو شامة عن ابن أبي طي — قد أعلوا شاور بسير الحملة السورية تحت قيادة شيركوه إلى مصر^(٤) .

سار الجيشان بمذاء شاطئ النيل حتى وصلا إلى القاهرة . فحضر محمدي مرادقه قريبا من القسطنطين ، وحضر شيركوه في مواجهته تماماً بالجيزة ؛ ووقعت موقعة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة ، وجيوش شاور والمصريين الذين اتحدوا مع الفرنجة من جهة أخرى . ولتقى الفريقان ثانيا في موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبى للنيل ؛ فأحرز شيركوه بقبوته القليلة نصراً مبيناً ، وبذلك توطلدت أقدامه في الصيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث تمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاخترأهون الأسرى ، وذهب في الصحراء شمالاً حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة

أقام شيركوه بعد ذلك صلاح الدين والياً على الإسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش وعاد بالنصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يحيى الأموال في الصعيد ، أما قوى الفرنجة

(١) قتله شجاع بن شاور (حياة عمارة ص ٣٤٨) .

(٢) عمارة ص ٦٧ و ٧٥ — ٧٨ .

(٣) أبو شامة : Receuil des Histoires des Croisades, tom. IV. p. 168.

والمصريين للتحفة فقد حاصرت الإسكندرية رأ ، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها
بحراً ولم يكن مع صلاح الدين لصد هؤلاء إلا ألف من أنصاره ؛ فأسرع شيركوه السير
إليه ، واصطاح القريقان آخر الأمر على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار .
عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه — كما يقول ابن شداد — قد ضف كثيراً في
حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار ^(١) .
إلا أن شيركوه صار ملأ أكثر من قبل بأحوال مصر الداخلية ، ولذلك صم كل النصيب
على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة .

هكذا انتهت حملة الفرنجة والفرز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرين
إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور . غير أن الأيام أظهرت أن أمنه هذا لم يكن إلا حلماً
من الأحلام . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة
والمصريين واحتلاله البلاد ؛ وكانت ذلك — كما يذكر حمارة ^(٢) — نذيراً باندحار
شاور وقتله .

لقد كان سبب حملة شيركوه الثالثة ما رآه من جمع الفرنجة قواتهم كافة وزحفهم بها
على مصر من جديد ؛ إذ قد حلهم الأمل في امتلاك مصر على نقض ما عاهدوا المصريين
وشيركوه عليه . لهذا خشي نور الدين أن تقع البلاد في أيديهم ؛ فأرسل هذه الحملة تحت
قيادة شيركوه ، يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين العظيم ، وغيرهم من ذوي قرباه
وجيوشه ^(٣) .

وقد تحلت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ؛ فقد أرسل لأسد الدين شيركوه كتاباً يطلب فيه
المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه ، لأن انحاده مع شاور مناهة هزيمة
الفرنجة من جهة ، وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبس في صفر سنة ٥٦٤ (نوفمبر سنة ١١٦٨ م) .
وهنا كانت مذمحة عامة ، إذ لم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتيني ولیم السُورى

(١) ابن شداد ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) الفتك المصرية ص ٨١ .

(٣) ابن شداد ص ٤٥ و ٤٦ .

William of Tyre — على أحد من كان بهذه المدينة من الناس على اختلاصهم شباناً وشيخاً ، ذكرانا وإنا^(١) . وقد أسخط عمل عموري هذا جميع المصريين ، فأنحازوا إلى شيركوه ، كما بحث فيهم روح البطولة ؛ وأمر شاور بإحراق مدينة القسطنطينية ، حتى يكون ذلك سائلاً بينه وبين الفرنجة . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً ؛ ولا تزال آثار الحريق باقية إلى يومنا هذا في التلال الرملية التي تنطلي القمامة للدفونة في القضاء المشتهر أميال جنوب القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لا تذب بالقاهرة التي ساد أهلها الحساس استمداً لصعد هجوم الفرنجة^(٢) .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، وذلك بفضل ما أبداه شاور من الحذق في مفاوضاته معهم كي يمد عموري عن مصر ببذل مقدار من المال له . لكن سياسته معهم لم يكن يسودها الإخلاص ؛ فقد راسل نور الدين في دمشق يطلب منه للمونة . وكتب الخليفة العاضد الشاب نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع في رسالته خُصلاً من شعور النساء إيماناً في الضراعة ، حتى لا يسه أن يرد توبله بعد ذلك^(٣) .

على أن ما رواه الذهبي يختلف عما رواه ابن الأثير وابن شداد . فقد روى الذهبي^(٤) أن شاور هو الذي كاتب نور الدين وأرسل إليه شيئاً من شعور النساء في خطاباته ، كما روى أن تأثير نور الدين كان عظيماً ، حتى إنه جعل شيركوه يقطع المسافة بين حمص وحلب في ليلة واحدة ، في جند يبلغ سبعين ألفاً سار به إلى مصر . وهاك عبارة الذهبي : « وكاتب شاور في غضون ذلك الملك المادل نور الدين يستنجد به ، وسود كتابه ، وجعل في طيه ذوات النساء داخل كتبه يستحثه . وكان يحلب فساق أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة ، فجمع أسد الدين وسار إلى دمشق ... ثم سار إلى مصر في جيش عرمرم ، فقبل كانوا سبعين ألف فارس وراجل » .

(١) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) ما نقله الفرنجة في عبارة أقل مبالغة فقال ، إن عموري قتل حديداً كبيراً من الأملين ، وأتلف معظم المدينة ، وأحرق أكثر مبانيها ، وجعل الناس فيها فرقتين . قتل أحدهما بيد السيف ، واستيق الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ ، أبو شامة ص ١١٥ .

(٣) شرحه .

(٤) مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud القسم الشرقي ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ أ —

وكان نور الدين قد صمم في هذه الآونة على غزو مصر ، وكان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة الأزهرية . فأرسل في الحال قوة من القين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من الفرسان بقيادة شيركوه ، يمينهم عدد كبير من الأسراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يدعوه اليمى ، الذى قبل تلك المهمة على مضض لما لاقاه من المصاعب في حصار الإسكندرية^(١) .

رحل شيركوه في آخر صفر من السنة نفسها ، ووصل القاهرة في السابع من جمادى الثانية . وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها ينتظراً أكثر مما ناله من الأموال المصرية . فباقته شيركوه وانضم إلى المصريين متجنباً جيش الفرنجة ، وقد سار إليه لبحول دون تقدمه . أما عمورى الذى خدعه شاور ، والذى رأى تفوق شيركوه عليه في الحرب ، فقد عاد إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال . ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر ، ورأى الناس فيه بطلاً منقذاً لهم ، فقابلوه بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعة وخلع عليه^(٢) .

٥ - مقتل شاور وقصر شيركوه الوزارة :

لم يكن الغرض الحقيق من حملة شيركوه الثالثة على مصر مساعدة شاور ، بل كان ذلك تمهيداً . وفي الواقع أن الغرض الذى انطوى تحت هذه الحملة يختلف عن ذلك اختلافاً تاماً ، إذ كان يراد بها القضاء على شاور واحتلال مصر . وقد كان شاور وشيركوه يلمان ذلك حق العلم ، كما كان كل منهما يعرف أيضاً أن خصمه يكيد له كي يتخلص منه .

وقد صدق ابن خلكان فيما ذهب إليه من أن شيركوه كان واثقاً من أن الفرصة بامتلاك مصر لن تتاح له ما بقي شاور فيها . لذلك قرر أخيراً أن يقبض عليه في إحدى زياراته له ، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة . فذهب راكباً جواده ، حيث لقي شاور وهو مقبل عليه يدعوهُ إلى ولية دبر فيها أمر اغتياله ، فأمسك بطوقه ، وقاده إلى فسطاط منزله ، وقطع رأسه بأمر من الخليفة الذى وثى شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثانى

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ .

(٢) شرح ص ١٣٦ و ١٣٧ .

سنة ٥٦٤ هـ (١٨ يناير سنة ١١٦٩ م) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)^(١)

بهذا انتهى أول فصل من فصول مأساة سقوط الخلافة الفاطمية في مصر . وقد أصاب عمارة إذ يقول : « ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثل ماريام الصالح بن رزيك ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور . وشاور هو الذي أطعم العرنجة والنز في الدولة حتى انتقلت عن أهاها »^(٢) .

الآن يجدر بنا أن نبين كيف كان من سياسة نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمي ، وكيف سقطت الدولة بعد ذلك على يد صلاح الدين .

٦ - سقوط الدين وسقوط الدولة الفاطمية :

لقد مهدت الأحوال والحوادث للماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفاً لسه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما سادها من الأحوال السيئة دهرأ طويلا ، وما مُنبتت به من القضاة الحزبي والمافسات بين الوزراء المصريين ، حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد .

وقد أبدت وفاة شيركوه مركز صلاح الدين ؛ فابتدأت منذ ذلك مقلته . فقد وطد العزم في هذه الآونة على تأسيس إمبراطورية واسعة الأرجاء . ولكي يصل إلى بنيته ، خصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد . وفي ذلك يقول صلاح الدين : « لما يسر الله لي فتح الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل » (فلسطين)^(٣) . وقد كان لنجاحه في هذا المشروع ما جعله يلتقب بحامي الإسلام .

ولم يتجمل صلاح الدين إلى تقوية مركزه في مصر ، بل عمل على توطيده تدريجيا ، كي

(١) ابن شداد ص ٤٧ و ٤٨ . ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور . وذكر النعمي (مكتبة بودليات بآ كسمود ، مخطوطات Laud ، القسم الشرقي رقم ٣٠٤ ، ورقة ١١٣٥) أن شيركوه ولي الوزارة قبل مقتل شاور .

(٢) عمارة . الكتك ص ٨٨ .

(٣) ابن شداد ص ٤٨ و ٤٩ .

لا يفقد ثقة المصريين ولا يشتر حسد نور الدين . وكانت هذه هي السياسة الحازمة التي كان لازماً عليه أن ينتهجها . وقد أراد إضمار حزب الخليفة ، فعمل أولاً على اكتساب ثقة الأهليين ؛ وكان له من كرمه — كما يقول ابن شداد — ما أكسبه قلوبهم وما جعل للناس من كل الأرجاء يسارعون إلى طاعته . ولم يخيب رجاء قاصده ، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب ^(١) . وأمسك مهام الدولة إلى أمان من أنصاره ، وما فتئ يعمل على إضمار نفوذ الخليفة .

وكان رجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداوتهم لصلاح الدين ، والخليفة يعلم حق العلم أنه ولي الوزارة إمامة لا سيداً مستقلاً برأيه . لذلك طامت المكائد على قدم وساق للقضاء على هذا الوزير الجديد . وقد ترأس المؤامرة عليه « مجاح » كبير الخصيان السود . وكان من تدبيرهم أن يصلحوا ذات البين بينهم وبين الفرنجة ، فيجئ هؤلاء لنزو مصر ، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ؛ وبذلك يقع بين نارين ، فيقتضى عليه وعلى جنده من التركان .

وقد علم صلاح الدين بما دبره أعداؤه له ؛ فأمر بمراقبة كبير الخصيان ، وقبض عليه وقطعت رأسه (ذو القعدة سنة ٥٦٤ ، يولييه سنة ١١٦٩) كما قتل كثير من بقى حيلته . فأنار ذلك حق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خسون ألفاً المأخذ بشأره . واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في للسكان المعروف بين القصرين ، أحرق فيها كثير من المنازل والشوارع . ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ، وأحرق حبيهم المعروف بالمنصورة ، وطرودوا إلى الجزيرة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استسروا في ثورتهم عدة سنوات ، إلى أن قضى عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ^(٢) .

(١) أصدر قسح ص ٤٩ .

(٢) ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) . ذكر ذلك التاريخ القهبي (مكتبة بودا) بأكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤٦) عن سبط ابن الجوزي ، التي أمدنا بمعلومات عن ثورة السودانيين تحت قيادة زعيمهم الكنز ، الذي ثار في الصعيد سنة ٥٧٢ هـ ، ثم سار إلى القاهرة لإعادة الخلافة الفاطمية ؛ فشب القتال بينهم وبين الأيوبيين ، وانتهى بهزيمة السودانيين . وقد قتل زعيمهم ونحو من ثمانين ألفاً معه في الحرب ، وبذلك شاعت آمالهم في استرجاع خلافة الفاطميين . وفيما على نص عبارة القهبي . « وفيها (سنة ٥٧٢ هـ) كانت واقعة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع خلقاً عظيماً وساروا إلى القاهرة ليعيدوا الدولة . . . قتل الكنز ، وقتل على كثير من جموعه ، حتى قيل إنه قتل منهم ثمانون ألفاً . حكلاً قال أبو المظفر فيزوغل » .

ذكر ابن سلطان (ج ٢ ص ١٥٠) وأبو القفا (ج ٣ ص ٥٩) أن ذلك كان في ٧ صفر سنة ٥٧٠ هـ .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة . فبعث فرقاً لتزو ولايتي الكرك والشوبك وغيرها مما أثار مخاوف الفرنجة . ولا غرو فقد كان ذلك نذيراً بذهاب سلطانهم في فلسطين .

واتحد الفرنجة مع البيزنطيين وساروا بجراً إلى مصر ؛ فنزلوا أولاً على مقربة من دمياط . وقد ذهب جماعة منهم في ذلك الوقت ، فاستولوا في ربيع الثاني سنة ٥٦٥ (١١٦٩ - ١١٧٠ م) على قصر عكاه ، وكان يحتله خُطْنُخ مائياً من نور الدين ، وكان لقبه « علم دار » (أى دار السلطان) . ولما علم نور الدين بمسيرة الفرنجة إلى دمياط ، أسرع بحصار الكرك (شعبات سنة ٥٦٥ هـ ، ١١٧٠ م)^(١) .

أما صلاح الدين الذى كانت له السلطة اللطيفة حينذاك ، فقد أعد جيوشه وملاً دمياط بالذخائر ، ووعد بإرسال اللدد إلى المدينة ليخلص أهلها مما حاق بهم من هلع ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين في احتلاله جزءاً من مملكة النصارى في فلسطين ، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذى كان يعصده الخليفة الماضد أيضاً طوال مدة الحصار الذى استمر خمسين يوماً ، وأمدّه بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار^(٢) بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلانهم الحرية وقتلوا عدداً عظيماً من رجالاتهم^(٣) .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أياه وأقاربه ؛ فكان له ما أراد ، ووصلت أسرته في جهادى الثانية ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م)^(٤) . فجل أياه على بيت المال ، وعصده إخوته بإخلاص ؛ وأقطعهم أملاك المصريين الذين نقام إلى حيث لا يمكنهم أن يثوروا ضده^(٥) .

(١) ابن شداد ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢ .

(٣) ابن شداد ص ٥٢ .

(٤) ذكر اللعن (مكتبة بودريان بأكسفورد ، مخطوطات لود ، القسم الشرقى ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٧ ب) أن الخليفة الماضد استقبل بنفسه نجم الدين والد صلاح الدين خارج القاهرة . وفى ذلك يقول : « وفى سنة خمس وستين وخمسة ، دخل نجم الدين أيوب مصر ، ففرج الماضد إلى لقائه بنفسه .

(٥) ابن شداد ص ٥٢ .

كان إخفاق الفرنجة في غزوم دمياط — ذلك الإخفاق الذي يتصل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » — مشجعاً لصلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزوم في دارم ؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة . وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعاً . وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من الأسلاب التي ضمنها صلاح الدين^(١) . ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين واتفق تام بينه وبين المصريين ، أسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتفلسفين في المذهب السني .

إن ما ذكره ابن الأثير عن سقوط الخلافة الفاطمية وإحلال نفوذ الباسيين محلها في الحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) يستبر مروجاً لما سنذكره عن الخطوات التي اتخذها صلاح الدين لإراز هذا الانقلاب إلى حيز العمل .

توطدت سلطة صلاح الدين في مصر في ذلك الحين ؛ وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة ، وسقطت إلى الحضيض سلطة الماضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأزال من الجيش بعض العناصر التي لم يكن يثق بإخلاصها . فكان لنور الدين — وهو من غلاة السنة — أن يرغب في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي . غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ رغبة نور الدين ، لما كان يخشاه من أن يثير هذا العمل ثورة أهالي مصر ، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين . بيد أن هذا المنع لم يرض نور الدين ؛ فكتب إلى صلاح الدين يأمره أسراً لا مناص لواليه من تنفيذه^(٢) .

وكان الخليفة الماضد مريضاً في ذلك الوقت . فقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل الخليفة الفاطمي . فوافقه بعضهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٧ .

(٢) شرح ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

وأخذوا على عاتقهم تمزيقه ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتي لا تطاع .

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير ، حل بمصر منذ عهد قريب ؛ فلما رأى ترددهم ، اعتزم أن يتولى هذا الأمر بنفسه . فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم ، ودعا للمستضيء العباسي . ولما لم يحتاج أحد على ذلك ، أمر صلاح الدين في الجملة التالية الخطباء أن يخطبوا باسم الخليفة العباسي . وهكذا تم ذلك التمييز بدون أن يلقى أية مقاومة . وفي ذلك يقول ابن الأثير : « لم ينطع فيها عزان »^(١).

لم يحجر الماضي — وكان مريضاً جداً — أحد من أسرته بذلك الحدث وقالوا : « إن عوق فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن نجعله يمثل هذه الحادثة قبل موته » . وتوفي في العاشر من المحرم من غير أن يعلم بهذا التمييز العظيم الذي تم ؛ فجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما احتواه .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة الماضي الطواشي بهاء الدين قراقوش^(٢) على القصر ، وأسكن أولاد الماضي وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه . أما الموالى من الذكور

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩ .

(٢) متى قرأناش باللغة التركية طائر أسود . وقد تولى بهاء الدين إنشاء عدة من الآثار عبرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل ، وقناطر الجيزة ؛ وسور القاهرة العظيم . ولما فتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عينه والياً عليها في السنة التالية . وقد أسرفا امتولى عليها القرنجة في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ؛ لكنه اقتضى نفسه مبلغ كبير ، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . انظر عبد الطيف البهناي (طبعة دي ساسي ص ١٧١ و ١٧٢ و ٢٠٧ و ٢١٣) ، (طبعة أكسفورد سنة ١٨٠٠ ص ٨٨ و ٩٠) ، وابن الأثير (طبعة القاهرة ص ١٤٨ و ١٤٩) ، وابن شداد مؤرخو الحروب الصليبية للترقيون (*Historiens orientaux des croisades*) ج ٣ ص ١٢٠ و ١٣٥ ، ١٧٦ و ١٨٣ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٣٠٤ و ٣١٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٣ و ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٢٦ و ٥٢٧) ، وأبا الفدا (ج ٣ ص ٥٣ و ٧٤ و ٨٧ و ٨٨) : *Derenbourg* : *Vie d'Ousâma*, pp. 432, 343, n.1

هذا وينبغي ألا نخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمي ، الذي خدم الملك المنصور تقي الدين صرين شامشاه بن أيوب ، وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح وسلب ونهب ؛ وبذلك ألقت أعماله في قلوب الناس الخلع الذي لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم .

والأناث فقد أخرجوا من القصر ، وأعتق صلاح الدين بعضهم وأعطى البعض لأتباعه وبيع الآخرين .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر مصرأ طويلاً كان عصر يسر ورخاء ، وتسامح ديني وثقافة ، لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الدولة الفاطمية الشعبية على يد الأيوبيين السنيين الفلاة ، وإعادة الخطبة للخليفة المماليق ، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين ونحوه سنوات تقريباً — هو انتصار السنة على الشيعة .

الباب السابع

سياسة الفاطميين الداخلية

١ - سياسة الفاطميين مع النصارى واليهود

كانت سياسة الفاطميين موجهة إلى غاية واحدة ، هي العمل بكل جد لحل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل للذهب الفاطمي سائداً في كافة أعماء الديار المصرية وغيرها من البلاد التي كانت تحت حكمها .

كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله . ولكن المميز كان أكثر عطفاً على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ؛ فإنه تزوج بنصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريقتين ملكيين - أعنى بطريقتين للكنيسة التابعة للكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية المخالفة للكنيسة اليعاقبة - وجعل أحدهما في الإسكندرية ، والآخر في بيت المقدس ^(١) .

وقد توالى عطف الخليفة على الكنيسة القبطية ، كما توالى أيضاً على جماعة الملكيين التي كانت تتبعها زوجته ، وسمح للبطريرق القبطي إبراهيم بإعادة كنيسة أبي سيفين المحرقة بظاهر النسطاط ^(٢) .

ورفع العزيز هيسي بن نسطوريس إلى كرسي الوزارة ، كما عين منشأ اليهودي واليا على الشام . فأظهر ابن نسطوريس ومنشأ حماية جلية لبني ملتهم ؛ فسيئوم في مناصب الدولة بمد أن أقصوا المسلمين عنها ^(٣) ؛ ومن ثم عاد شعور الكراهة نحو أبناء الطائفتين اليهود والنصارى . واقتضى ذلك الشعور ، فقدّم المسلمون الاحتجاجات على تلك الحماية التي أظهرها الخليفة لتير للمسلمين . وبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية

(١) يحيى بن سعيد ص ١٤٤ - ١٤٥

(٢) أبو صالح ص ٤٥ و ٤٦

(٣) أبو شعاع ص ١٨٦ ، pp. 19, 20. *Mean : The Jews in Egypt, etc.*

وأعطاهامرأة^(١)، ورغبها بالمال لتنف في سبيل الخليفة العزيز^(٢) وتقدمها إليه ، وفيها :
« بالقدى أمر » النصارى ببس بن نسطورس ، واليهود بمنشا بن إبراهيم القرار ، وأذل
للمسلمين بك ، إلا نظرت في أسرى ؟ »

ويقول أبو شجاع إن العزيز أمر بالبحث عن هذه المرأة ، فلم يعثروا عليها . فأمر في
الحال بالقبض على ابن نسطورس^(٣) وسائر الكتاب من النصارى ، وكتب إلى الشام
بالقبض على منشا وغيره من الموظفين لليهود ؛ وأمر برد الدواوين والأعمال إلى الكتاب
المسلمين ، وعين القضاة للإشراف على أعمالهم في جميع أنحاء الإمبراطورية القاطنية . ولكن
الأميرة ست الملك ابنة الخليفة شغمت له ، فرد العزيز الوزارة إلى ابن نسطورس ثانياً ،
وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوين الحكومة^(٤)

غير أن رد ابن نسطورس إلى الوزارة لم يحز رضى المسلمين ، بل زاد في كراحتهم ؛
فسرعان ما انفجر ركان هذه الكراهة عند ما ارتقى الحاكم عرش الخلافة .
وعلى الرغم مما أظهره الكتنايون من الكراهة الشديدة للنصارى واليهود ، قلد الحاكم

(١) روى أبو الفدا (ج ٢ ص ١٢٨) وابن أبياس (ج ١ ص ٤٧ و ٤٨) عن المسيحي ، أن
هذه المرأة التي اعترضت العزيز لم تكن امرأة حقيقية ، وإنما هي صورة مصنوعة من الورق على هيئة
امرأة . ويقول ابن أبياس إن الصورة كانت عبارة عن مبخرة حديدية في زى امرأة ، ويلها ممتدة بالشكوى ؛
وهذا يخف ما ذكره أبو شجاع وغيره من الكتاب الذين عاشوا قبله ، بل وغيره من المؤرخين الذين
جاؤوا بعده كالسيوطي (ج ٢ ص ١٧) .

(٢) ذكر ألويري (ص ١٤٣) أن هذه الحادثة كانت في خلافة الحاكم ؛ وربما كان ذلك لأن
أبا الفدا ، الذي روى أول مرة هذه الحكاية ، قد ذكرها عند كلامه على سنة ٣٨٦ هـ ، وهي السنة التي
توفي فيها العزيز وتولى الحاكم . ويظهر لنا أن رواية أبي الفدا لا تعتمد على مرجع صحيح ؛ لأن هذه الحادثة
وقعت سنة ٣٨٠ هـ (انظر « أبو شجاع » ص ١٨٦ وابن القلائس ص ٢٢) .

(٣) ذكر ابن زولاق (الملكية الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٠) أن العزيز
« أرسل من وقته وساعته وطلب النصراني على باب القصر ، وأرسل اليهودي بدمشق ، وصلى على باب
المدينة . ولكن ابن زولاق لم يبين لنا إن كانت هذه المدينة هي القاهرة أو دمشق . على أنه يظهر من
كلام ابن زولاق أن الصلب كان على باب القاهرة ، لأن قوله « أرسل اليهودي بدمشق » (رسولا يمتصرونه)
تقرب إلى الفهم أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ، وأن صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ،
لأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنين . وموته مع ابن زولاق في سنة واحدة ، وهو حدثنا في هذه
المسألة ، مما يجعل هذه الرواية أقرب إلى الصحة من غيرها ؛ فإن رواية ابن أبياس (ج ١ ص ٤٩)
التي نقلها عن المسيحي بأن ابن نسطورس ومنشا شقاً ، وأن الأول شق على باب القصر والثاني على أحد أبواب
دمشق ، بعيدة من الصحة ؛ لأن ابن نسطورس عاش بعد ذلك عدة سنوات .

(٤) أبو شجاع ص ١٨٧

ابن نسطورس ديوان الخاصة . وينقلب على الظن أن ذلك كانت بسى رجوان وضوذ
ست الملك أخت الخليفة التي كانت السبب في حفظ حياته وإعادته إلى مركز الوساطة .
وبعدئنا ابن ميسر^(١) أن ابن نسطورس قتل في الحرم من سنة ٣٨٧^(٢) ، أى بعد قتله
هذه الوظيفة الجديدة بعدة أشهر .

والعبارة التي أوردها أبو شجاع^(٣) عن قتل ابن نسطورس تشوبها شائبة التوضيح .
فإنه ذكر أن ابن عمار قتله (ابن نسطورس) وهو في الوزارة . وفي ذلك يقول :
« وكان عيسى بن نسطورس على حاله في الوزارة ، فبلغه عنه ما أنكره فصرع عنه »^(٤) .
يضاف إلى ذلك ما قاله يحيى بن سعيد من أن ابن نسطورس لم يكن حين وفاته في
دست الوزارة حيث يقول : « وكان عيسى بن نسطورس قد رسم أيام نظره رسوما جائرة ،
وأحدث مكروماً زائلة تخذف ابن عمار جميع ذلك ورد الأمور إلى ما كانت عليه ،
وقبض على ابن نسطورس واعتقله ثم قتله »^(٥) .

ولقد ظل الخليفة الحاكم تحت إشراف رجوان إلى اليوم السادس والعشرين من شهر
ربيع الثاني سنة ٣٩٠ ، وهو اليوم الذي قتل فيه رجوان^(٦) . وفي الشطر الثاني من خلافة
الحاكم (٣٩٠ — ٣٩٥ هـ) ، حين أصبح عقله محتلاً وسياسته مضطربة ، أظهر تعصباً
شديداً للمذهب الفاطمي . وفي الشطر الثالث من خلافته (٣٩٦ — ٤٠١ هـ) ، اضطرب إلى
أن يغير سياسة التعصب المذهبي ، لما كان من اضطراب حبل الأمور في داخل البلاد ،
بسبب ما نزل بها من المجاعة والضنك وتهديد لأعداء بالإغارة على حدودها الترابية ؛

(١) ص ٥١ و ٥٤

(٢) يقول المقرئ (حطاج ٢ ص ٢٨٧) إن وفاة ابن نسطورس كانت في سنة ٤٠٣ هـ ، وهو
خطاً واضح .

(٣) يظهر أن ابن الفلاس (ص ٢٢) قد نقل هذه العبارة .

(٤) ص ٢٢٣

(٥) ص ١٨٠

(٦) ذكر هذا التاريخ ابن منجب (ص ٢٧) . وقال أبو شجاع (ص ٢٣٠ و ٢٣١) بعد أن
أمل بالأسياب التي أنقضت إلى قتل رجوان ، إن وفاته كانت في سنة ٣٨١ هـ ، أي قبل ولاية الحاكم الخلافة
بـ خمس سنين . وذكر ابن الفلاس (ص ٥٥) أن الخطوات التي اتخذت لقتل رجوان بدأت في سنة ٣٨٩ هـ .
واتفق القلي مع ابن منجب (شرحه ، حاشية ١) ، فذكر كل منهما أن وفاة رجوان كانت سنة ٣٩٠ هـ .

مكأن لا بد له من القضاء على الثورة الداخلية وصد هؤلاء الأعداء المهاجرين .

في سنة ٣٩٣ هـ نشط في عمارة المساجد وفي إغراق الإحسان على المساجد . « واهتم مع ذلك بتشجيع مبادئ المذهب الفاطمي ، وقسا على اليهود والنصارى في المعاملة ، ولو أنه في ذلك كان مسوقاً بضبط الرأي العام الذي لا يشك في أنه قد حاجه ما رآه من الخلفاء الفاطميين من معاملة غير المسلمين »^(١) .

كانت نتيجة هذه السياسة أن قتل محمد بن إبراهيم في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٣٩٣ . وقد بينا من قبل أن رجوان نقله الوساطة في ٢٧ رمضان سنة ٣٨٧ هـ ، وجعل فهداً كاتباً له ، وتلقب بالرئيس ، ومهد إليه بنفس الشكايات والإشراف على غلمان للقصر ، ومعاونة رجوان في إدارة شئون الدولة والنيابة عنه إذا غاب . فلما مات رجوان وحل محله الحسين ابن جوهر ، كان فهد معه كما كان مع سلفه ، وبقي كذلك إلى أن قتل في أيامه^(٢) .

وكان لتعصب الجمهور وتعصب السكتامين بوجه خاص ، وروح التبرم التي أثارت عليه حفيظة رجال الدولة ، وشعور الكراهة التي سادت النفوس ضد النصارى تأثير كبير في قتل فهد بن إبراهيم .

وقد في أبو طاهر النحوي متولى ديوان الشام ، الخليفة الحاكم وقال له : « يا مولاي ! إن كنت تؤثر جمع الأموال وإعزاز الإسلام ، فأرى رأس فهد ابن إبراهيم في طست ، وإلا لم يتم من هذا شيء » . فقال الحاكم : « ويحك ! ومن يقوم بهذا الأمر ؟ » فاقترح اسم ابن المداس ؛ فرضى الحاكم على كرمه منه ، كما يظهر ذلك من ملاحظته على كلام النحوي^(٣) . ثم أعلم النحوي ابن المداس بما كان من موافقة الخليفة ، ثم يشك هذا في أن الحاكم سوف يثأر لقتل فهد وقال له : « ويحك ! قتلتي وقتلت نفسك » .

وإن هذا الرأي الذي أبداه ابن المداس ، يبين بوضوح أن الحاكم شعر بشيء من التبرم لارتكاب هذا المدوان على رعاياه من غير المسلمين . وعلى كل ، فقد خلف

(١) O' Leary 148

(٢) يحمى بن سيد من ١٨٥ . ابن الفلاس من ٥٦ .

(٣) ابن الفلاس من ٥٩ و ٦٠ ، والمقرئ من خط ج ٢ من ٣١ .

ابن الداس فهداً في مركزه ؛ ولم يمض تسعة وعشرون يوماً حتى قتل وأُحرق (٦ شعبان سنة ٣٩٣) .

وفي الخامس عشر من رجب — أي بعد مقتل فهد بأسبوع واحد — لحق به أبو طاهر^(١) . أما فهد ، فإن الحاكم أحضر أولاده على أثر مقتله ، وخلع عليهم وكتب لهم سجلاً بمجايبهم ومنع الأدنى عنهم^(٢) .

وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها الحاكم لتنفيذ سياسته أن اشتد على كبار موظفيه وحلهم على الإسلام ، ليزيل بذلك التهم التي اتهموا بها ؛ فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتّاب من النصارى . ولكن الحاكم أطلق سراحهم وأعيدوا إلى مراكزهم بشفاعة أبي الفتح سهل بن مقشّر النعمراني ، طيب الخليفة الخاص الذي كان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز^(٣) .

وفي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بشد الزّئار وإيس الزّئار^(٤) . وفي سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) بدأت سياسة الحاكم المدائية لإزاء النصارى واليهود ؛ فهدم بعض الكنائس ونهب البعض ، واستولى للسلطان على ما فيها من الأواني المقدسة والأثاث ، وبيعت الأواني في الأسواق^(٥) .

وقال يحيى بن سعيد (ص ١٨٦) : « سمح للنصارى بأن يبنوا ثلاث كنائس في مقابل الكنائس التي هدمت . وقد يكون السبب الذي دعا إلى ذلك أن موقع الكنائس التي بنى على أطلالها مسجداً الحاكم وراشدة قد اعتبر من المنافع العامة ، فهدمت لذلك لا لشيء آخر . »

وفي سنة ٤٠٠ هـ تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني خلفاً لصالح بن عليّ

(١) ابن الفلانسى ص ٦٠ و ٦١ .

لقد تناول كل من أبي شجاع (ص ٢٢٦ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٦) ويحيى بن سعيد (ص ١٨٥) الكلام على هذه المسائل بإيجاز .

(٢) ابن الفلانسى ص ٦٠ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٨٥ و ١٨٦ ، التفتي ١٧٨ و ٤٣٨ .

(٤) هو التشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين التابعين للحكومة الإسلامية .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨٦ و ١٩٥ .

الروذباري^(١) (١١ صفر سنة ٤٠٠) ، في وقت كان الاضطهاد قائماً على قدم وساق : ولقد أطلقت يد ابن عيدون وأصبحت له السلطة التامة في إدارة البلاد ، حتى إنه كان يوقع نيابة عن الخليفة . وهدد تغلب ابن عيدون الوزارة أمر جدير بالملاحظة ، لما كان من إشارته على الخليفة بوجوب هدم كنيسة القمامة^(٢) في بيت المقدس^(٣)

اتسع نطاق اضطهاد النصارى الذي قام به الحاكم . وربما كان ذلك راجعاً إلى إستاده مركز الوزارة إلى بعض النصارى واليهود ؛ فقد كان ذلك يوغر صدور المسلمين عليهم . ولما غضب عليهم الحاكم ، اشتدت حكومته عليهم في تنفيذ الأوامر التي تقضى بلبس النصارى . ففي الحرم سنة ٤٠١ أقبل ابن عيدون من الوزارة بعد أن تقلدها أحد عشر شهراً ، وترجع في دستها رجل من المسلمين ، هو أحمد بن محمد القشيري^(٤) . ولكن هذا عزل بعد عشرة أيام^(٥) ، ثم قتل وحل محله في الوزارة زُرعة أخو عيسى بن سطورس ، وتلقب بالشافى ، وظل يطلق عليه هذا لقب إلى حين وفاته في صفر سنة ٤٠٣^(٦) .

وفي ذلك الوقت بدأت سياسة الحاكم تظهر بمظهر أكثر تقلباً وتذبذباً ، وأصبح عقله أكثر ارتباكاً واضطراباً . أما سياسته مع غير المسلمين وخاصة النصارى فقد كانت تاجمة

(١) هذا اللفظ مشتق من روذبار وهي ، على ما ذكره السمعاني (كتاب الأنساب ورقة ٢٦١ ب) ، أماكن منه تقع في جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة ؛ ويطلق هذا اللفظ كذلك على قرى كثيرة تقع على مقربة من صهيان ، وعلى قرية قريبة من بغداد .

(٢) إطلاق لفظ القمامة على الكنيسة المعروفة في بيت المقدس ، لأن موضعها كان قد اتخذ اليهود مربة ، حتى جاءت هيلانة أم قسطنطين وسألت عن المكان الذي يزعمون أن المسيح صلب وعزل ودفن فيه ؛ فدلّت على القمامة . فأرالت منه القمامات وبيت في موضعها الكنيسة . ويطلق هذا اللفظ أحياناً على الكنيسة بدير أداة التعريف .

(٣) يحيى بن سديد ص ١٩٤ ، ابن القلائس ص ٦٦ و ٦٧

(٤) قد أوردته يحيى بن سديد (ص ١٩٨) القسوى . ويحتمل أن يكون هذا اللفظ محرماً عن لفظ القشيري (انظر كتاب الأنساب للسمعاني ، ورقة ٤٥٥ ب) . وذكره ابن منجب (ص ٢٨) قشورى ، وصححه ك ذكره السمعاني (كتاب الأنساب ، ورقة ٤٥٣ ا وما يقبها) قشورى ، منسوب إلى أبي قشر وهي قبيلة كانت تعيش في البصرة ، ينسب إليها المحدث المشهور مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري التيسابورى صاحب الصحيح .

(٥) أو تسعة أيام على ما ذكره يحيى بن سديد ص ١٩٨

(٦) يحيى بن سديد (ص ١٩٨ و ١٩٩) . وقد وأمانا ابن منجب (ص ٢٨) بتاريخ وفاته .

رأى جمهور الأمة . ولم يكن استيائهم راجعاً لنحلته الدينية فحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب .

وفي سنة ٤٠٠ و ٤٠١ هـ لم يقتصر الاضطهاد على غير المسلمين ، بل تعداه إلى بعض ذوى المناصب العالية من الفاطميين ، ثم انتهى بأن شمل جميع السكان على اختلاف طبقاتهم . فهرب من البلاد الحسين بن جوهى وأولاده ، وعبد المزي بن النعمان قاضى القضاة من قبل ، وأبو القاسم الحسين المنرى^(١) ، من الوزراء السابقين ، وقتل كثير من كتاب « البلاط » والدرابون وخدام القصر . وفي شوال سنة ٤٠٠ قتل صالح بن علي الروضارى الذى كان قد أنيل وحل محله ابن عبدون . وقتل أيضاً أحمد بن محمد التمشى (١٤ الحرم سنة ٤٠١) ، ولحق به بعد قليل ابن عبدون وصودرت أملاكه . كذلك قتل الحسين ابن جوهى والحسين بن النعمان وصودرت أموالهما ، بعد أن أخذوا من الحاكم أماناً عاداً على إثره إلى القاهرة^(٢) .

ومن الصعب علينا أن نحدد الوقت الذى انتهى فيه الاضطهاد تحديداً تاماً . ولكننا نظن — كما يظن دى ساسى — أن وطأته أخذت تخف حول سنة ٤٠٠ هـ^(٣) . وزادنا دى ساسى أنه حول سنة ٤٠٤ اجتمع النصراني واليهود وقابلوا الحاكم ، كما يعلم ذلك من كتب الدرر .

وبما كان الحاكم يسير يوماً في مقبرة قباب الطير ، إذ قابله جماعة من ممثلى الطائفتين ، وكانوا في انتظاره ، واستأذوه في الكلام والتعبير عما خالج نفوسهم من أحزان وآلام . فأذن لهم وأسمهم ، وأعطاهم الحرية في القول ؛ فحكوا وقالوا له إن سلوكه معهم ينافر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، وسألوه كيف يبرر هذه السياسة التى تناقض العهد والميثاق الذى أعطى لهم . فأمرهم بالانصراف والمصير لمقابلك في نفس المكان من الليلة التالية مع علمائهم ، وأكدهم أنه لا يندم منه ضرر إذا ما تكلموا بما بأنفسهم .

(١) قتل ابنه محمد بعد مقتل ابن النعمان والحسين بن جوهى (أبو شعاع ص ٢٣٣) .

(٢) ابن الفلانى ص ٦١ .

(٣) Vie de Khalife Hixem-Biamr—Allah, Vol. I, p. 376.

وفي الليلة التالية ، أخبرهم الحاكم بأن هذا السلوك الذي كان في عهد النبي ، كان المقصد منه الترغيب في الدخول في الدين الإسلامي ؛ ولكنه لم يؤث ثمرته للنتيجة . والآن وقد مضى على الإسلام أربعة قرون ، وكان في مكنتهم الدخول فيه ، لأنه في متناول كل إنسان ، وكانت مبادئه تحت أنظار الجميع ، وفي قدرتهم أن يفحصوها ويحسوها ، « فليس لكم الآن عدوى إلا اختيار واحدة من اثنتين : إما اعتناق الإسلام بعد كل هذا التأخير ، وإما العقوبة العاجلة إذا أبيت الدخول فيه » . فلم يجسر اللندوبون على الاحتجاج على ما قام به الخليفة وانصرفوا من حضرته ^(١) .

وبعدئنا يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في الإسلام ولم يخضوا لقوانينه بالمجبرة إلى بلاد الإفریق ^(٢) . فهاجر كثير منهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، وإلى بلاد النوبة والحبشة ؛ ومن بقى منهم دخل في الإسلام ^(٣) . وفي سنة ٤١١ هـ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١٠٢٠) رجع جماعة ممن اعتنقوا الإسلام خوفاً إلى دينهم القديم . يقول ابن زولاق ^(٤) إنه ارتد أكثر من سبعة آلاف يهودي إلى دينهم القديم في يوم واحد . وفي هذه السنة أمر الحاكم بإعادة بناء الكنائس التي كان قد هدمها ، وأعاد إليها أملاكها . وكان من أثر هذا التخليع الجديد في سياسة الحاكم إزاء النصارى واليهود ، أن عاد إلى مصر كثير ممن كانوا قد هاجروا إلى البلاد الأجنبية — وذلك في سنة ٤١١ هـ ، وهي السنة التي انتهى فيها الاضطهاد ^(٥) .

هكذا كان ملك الحاكم طوال حياته في متحنى الفرية . وبعد وفاته ، أو بعبارة أدق بعد انتهاء اضطهاده الذي دام تسع سنين (٣٩٨ — ٤٠٧ هـ) ، تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية في عهد الخلفاء من بعده ؛ وأخذ الشعور البدائي الذي كان في نفوس

(١) أصدر نفسه (ج ١ ص ٢٧٦) وما يتبعها .

(٢) ذكر المقرئ (غلط ج ٢ ص ٢٨٨) أن كافة النصارى واليهود أمروا بالمجبرة إلى بلاد الإفریق . ومظهر أن دي ساس (Vic de Khalife Hekem, etc. Vol. I. p. 370) أخذ حيازته من يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) .

(٣) المقرئ غلط ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) أدلة الأهلية بباريس ، غطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب ، وابن لياس ج ١ ص ٥١ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

السليدين نحو مخالفتهم في الدين بقل ويضف ؛ وما كان يظهر له أثر إلا في فترات قصيرة ، وبخاصة عند ما يتقلد نصراني أو يهودى منصبا من مناصب الدولة ، ولا سيما الوزارة ؛ فإن انتقالها إلى يد رجل من غير السليدين يقترب عليه تقوية نفوذه واستتارهم بكثير من هذه المناصب .

وقد آمدنا ابن ميسر بأمثلة كثيرة من هذا النوع ، حيث يصف لنا وفاة أبي سعيد التستري اليهودى عند كلامه عن سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ، وقال إن أم الحليفة المستنصر كانت من قبل أمة في بيت التستري ، وأنه أهداها إلى الحليفة الظاهر . وبعد وفاة الظاهر ارتفع قدر التستري وتقرّب إلى الحليفة المستنصر ، وإن كان لم يستطع أن ينأى سلطة الوزير أبي القاسم الجرجاني^(١) .

ولكن بعد وفاة الجرجاني غطت سلطة التستري ، لأنه تولى نظارة الخاصة لأم الحليفة المستنصر ، وقبض على أرملة الأمور في عهد الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحى^(٢) ؛ فحقد عليه الوزير . لأنه لم يكن له من الوزارة معه إلا الاسم فقط^(٣) .

أما الأسباب التي أدت إلى قبل التستري فقد وفانا بها ابن ميسر ، وأخبرنا أن بنى قرّة من سكان البحيرة قاسوا ثورة عظيمة اشتد وقها على الدولة . فأخذ المستنصر إليهم عزيز الدولة ربحان ، على رأس قوة كبيرة لقمعها . وكانت نتيجة انتصاره عليهم أن نال الخطوة عند الحليفة ، وشمله بسطفه ورعايته . وقرّب به إليه . واجتذب ربحان المقاربة إليه بزيادته في أعطياتهم وتقليده من أعطيات الأرك واشدداده عليهم ؛ فكان من نتيجة هذه السياسة أن وقع الخصام والطاحن بين الفريقين . ومات ربحان في ذلك الوقت من مرض ألم به على حين غفلة ؛ فاستهز لورير الفلاحى هذه الفرصة ومال من حصصه التستري الذي كان يحقد عليه لاستناره بالسلطة دونه ، وعزا موت ربحان إلى أنه سقاه سماً وشتر ذلك بين الجنود .

(١) ذكر ابن منجب (ص ٣٦) أن الجرجاني تقلد الوزارة في ذي الحجة من سنة ٤١٨ هـ ؛ وأتى لنا ابن القلانسي (ص ٨٠ - ٨٤) بنص سجل تقليد الوزارة التي بنى فيها إلى حين ومات في ٦ رمضان سنة ٤٣٦ هـ .

(٢) أطلق عليه ابن القلانسي (ص ٨٤) أبا نصر صدقة بن يوسف .

(٣) ابن منجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن ميسر ص ١ و ٢ .

وفي ٣ حادى الأول من سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م) ، بنيا كان التسترى في طريقه إلى القصر ، اغتص عليه ثلاثة من الأتراك وقلوبه ؛ ثم مثل الأتراك بجثته ، فقلعوها إرباً ، وأحرقوا مضها ، ثم دفنوه في القراب . وقد أخذ أهل ما بقى من جثته ووضحوه في نش وأساطير بالشعوب الموقدة ، وتركوه في مكان متدنل ؛ فامتدت النار إلى النش فأحرقته بما فيه^(١) .

وبعد مقتل التسترى أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وألذ ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية . ولكن قتل التسترى قد آلم أم الخليفة ، ولم يكن بالحادث اهدى تناساه . فأثار هذا الحادث حفيظتها على العلاص ، فأقيل وحبس ، ثم قتل في المحرم سنة ٤٤٠^(٢) .

والخليفة أن شعور المسلمين اللدائى نحو التسترى وأهل ملته كان من الشدة بحيث أعطى الفلاحى فرصة للإيقاع به . ويحدثنا ابن ميسر أن التسترى كان مكروها لدى المسلمين ، وأن أبناء دينه الذين كانوا يعيدون عن مناصب الحكم بدؤوا يشعلون في عهده كثيراً من مناصب الدولة ، ويصطعدون المسلمين إلى درجة أن شاعرأ من الشعراء للعاصرين يسمى الرضى^(٣) كتب هذه الأبيات :

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آسائهم وقد ملكوا
المرءَ فيهم والمالُ عندهمُ ومنهمُ للسَّيْئَرُ والملكُ
أهل مصر إني قد نصحتُ لكم تهودوا ، قد تهودَ الملكُ^(٤)

وقد صاب ابن ميسر^(٥) عند كلامه على حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ - ١١٢٩ م) صاب موب . أبى نحاح ، وهو نصرانى يعرف بالراهب ؛ وكان موته على يد اللقضاء والى مدينة

(١) سطر ابن ميسر ص ٢

(٢) ز منجب ص ٣٧ و ٣٨ ، وابن ميسر ص ٢

(٣) حسب أنه الرضى بن الواب . وقد ورد في تاريخ ابن ميسر الفظة " البواب " من غير لفظ ، الأمر الذى يوضحها والمخطوط الموجود بالكتبة الأهلية بباريس لا يحمل هذه الصيغة ، فإن ماشر هذا الكتاب لم يثبت أن يمين صفة هذا اللفظ .

(٤) سيوطى ج ٢ ص ١١٦

(٥) تاريخ مصر ص ٧١ .

مصر في ذلك الوقت . وقد أمر بجثائه فُصلب ، ثم أُنزل وربط على لوح من الخشب ، ثم قذف به في النيل . وأصدرت المنشورات إلى الأقاليم داعية الناس إلى التفرج عليه ؛ وكان جثائه كلما جذبته التيار إلى جهة من الجهات ، خرجوا لرؤيته ، وكانوا يعضون في طريق الجثة شيئاً يرفها إلى الأعلى ؛ فإذا تم لهم فرضهم من التفكه برؤيتها ، رقصوا هذا الحاجز ، فتتحد الجثة إلى النهر . وهكذا دوليك ، حتى سار جثائه إلى البحر الأبيض المتوسط ، فكان مقره الأخير .

وزيدنا ابن ميسر أن أبا نجاح كان في مبدأ أمره في خدمة أبي البركات يوحنا ابن الليث . ويظهر لنا أنه نصراني كما يدل على ذلك اسمه هذا . وقد اتصل أبو نجاح بخدمة الخليفة الأسري بعد وفاة للأمون البطائقي (٢٠ رجب سنة ٥٢٢) ، وبُذِلَ له في مصادرة قوم من النصاري مائة ألف دينار ؛ فأطلقت يده فيهم ، وامتد بلاؤه على كبار الموظفين ومن بينهم القضاة والكتاب ، بل وسائر الناس عامة .

وكان يجلس بالجامع العتيق ويستدعي من أراد مصادرته . وقد طلب يوماً رجلاً من العدول المتنازين يعرف بأبن القرس ، وهو ممن نال لإجلال الناس واحترامهم ، فأهانته . فخرج من عنده ووقف في الجامع في يوم الجمعة حيث يشتد ازدحام الناس ، وعبرهما شعر به من الآلام وأحزان فقال : « يا أهل مصر ! انظروا عدل مولانا الأسري في تمكينه النصراني من المسلمين » . فهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس ، وكادت تُقضى إلى نشوب الثنن والاضطرابات ، لولا أن تدخل خواص الخليفة في الأسر ، وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان الوزير ، وخوفوه سوء الماقبة^(١) . فبغت الخليفة في طلب أبي نجاح ؛ فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان في حضرته ، فأنشده هذا البيت :

إِنَّ الذي شُرِّفَتْ مِنْ أَجْله يَزْعُمُ هَذَا أَنَّهُ كاذِبٌ

وعندئذ التفت الخليفة إلى أبي نجاح وقال له : ما تقول يا راهب ؟ فسكت ؛ فأمر به

فقتل^(٢) .

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٧١ ، ٧٢ .

وزيدنا ابن ميسر على ما تقدم أن نفوذ بهرام سرهان ما تزايد ، وأنه سأل الخليفة أن يأذن له بإحضار إخوته وأهله وكانوا في تل بائير وأرمينية ، وما لبث أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير ؛ فسلخوا مع المسلمين مسلحاً هذاناً وصادروهم في أموالهم وجاروا عليهم ، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أفلفت بال المسلمين وخوفتهم عاقبة هذا وطنيان المسيحية على الإسلام .

لم يجد المسلمون بداً من رفع شكائهم إلى الخليفة من بهرام ومن أهله . وزاد في غضب المسلمين ما لاقاه أهل قوص من أخى بهرام المعروف بالباساك واليهام من الجور والظلم واستياعة الأموال . وقد ظلت الحال على ما وصفنا حتى نفذ صبر المسلمين ؛ فبث الأمر إلى رضوان بن الوثلي^(١) وإلى التريية يستحثونه على السير إليهم وتخليصهم عما هم فيه من كرب وبلاء^(٢) .

ولم وصلت إلى رضوان استغاثة الأمراء انجملت آماله إلى الوزارة . وفي سخطا - إحدى مدن التريية - صد المنبر وخطب في الناس خطبة بلينة حضهم فيها على الجهاد ؛ ثم جمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة . فلما دنا رضوان من هذه المدينة خرج بهرام على رأس جيش كثيف لصد هجماته .

ولم تقارب الجيشان ، أمر رضوان برفع المصاحف على دوس الرماح ؛ فلم يكن من عسكر المسلمين إلا أن اعتزلوا بهرام واضوا تحت لواء رضوان . ويحدثنا ابن ميسر أن هذا الأمر كان على أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان^(٣) . وهذه الخلدعة الحريصة تشبه من بعض الوجوه الخلدعة التي ابتدعها هرودين الناص في موقعة صفين المشهورة .

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٧٩ - ٨٠) أن رضوان كان يلى حيازة باب ابن الخليفة الحافظ وقت تغلب بهرام ودراسة ؛ وكان من الأمراء ، عرف بالشجاعة والإقدام ، كما كان شوكة في جنب بهرام الذي كان يخشونه أن يكيد له ويحل محله ؛ فجد بهرام في التخلص منه ، فولاه عسقلان في آخر رجب من سنة ٥٢٩ هـ ولم يكده يستقر برضوان المقام في مركزه الجديد ، حتى علم بوصول جماعة من الأرمن إلى عسقلان قاصدين مصر ؛ فوضع العراقيين في سبيلهم وأرغم كثيرين منهم على الرجوع إلى بلادهم . وكان من أثر هذه الإحرامات التي اتخذها ضد هؤلاء التقوم أن صرف عن هذه الولاية ، واستمدى إلى القاهرة ، وولى للتريية في صفر سنة ٥٣١ هـ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨١ .

ولما وقف بهرام على حقيقة الحال أرسل إلى الحافظ يطلبه بكل ما حدث ؛ فأمره الخليفة بالمسير إلى ولاية قوص بالوجه القبلى ، والإقامة مع أخيه حتى يرى رايه ويقرر ما يبنى اتباعه فى هذا الأمر . فماد بهرام إلى القاهرة وأخذ معه ما خفّ حمله وغلا ثمنه ، وسار فى الحادى عشر من شهر جادى الأولى ؛ فأتاح مسير بهرام فرصة للقواء لتهب دور الأرمن فى حى الحسينية - الواقع فى ظاهر باب الفتوح - وبعض كنائسهم ، وبنش قبر أخيه الذى كان بطريقاً للأرمن . وفى هذا الوقت ثار أهالى قوص المسلون على الباساك أخى بهرام وقتلوه ، وجعلوا فى رجله كلباً ميتاً ، ورموا بجثته فى صندوق القمامة .

ثم وصل بهرام إلى قوص بعد قتل أخيه يومين فى جماعة من أهله وجنوده ؛ فثار له ونهب للدينونة وقتل للكثير من أهلها ؛ ثم رحل إلى أسوان ، فأقام فى الموضع الحصين المعروف بالأدبرة البيضا^(١) .

أما رضوان فقد خلاه الجو بمبارحة بهرام القاهرة ، فقتله الوزارة فى الحادى عشر من شهر جادى الأولى سنة ٥٣١ ، وخُلع عليه ولقب بالأفصل . وكان أول ما بدأ به رضوان أن أنفذ أخاه ناصر الدين على رأس جيش كثيف ، فوصلوا إلى الأدبرة البيضا . غير أنه لم يدرب بين المريقين قتال ؛ وتم الاتفاق على أن يبقى بهرام فى هذه الجهة ، وأن يُطلق من كان معه من الجند ليمودوا إلى القاهرة ، ومها يُسرّحون إلى بلادهم^(٢) .

ولكن هذا الاتفاق لم يطل أمده . فقد ذكر لنا ابن ميسر أن المداء ظل مستحكما بين المسلمين والأرمن إلى سنة ٥٣٥ ، وأنه فى سنة ٥٣٢ شدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ؛ وأدى به ما كان يحش بنفسه من حقد لبهرام إلى العمل على إبادة الأرمن . ويظهر أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ ، بدليل أنه بعث فى سنة ٥٣٣ من أحضر بهرام ، فأسكنه فى قصره وأحله من ثمنه محل الإكرام والتنظيم^(٣) . فظم ذلك على رضوان ، وأخذ الحافظ يشير الجند على هذا الوزير ؛ فنشب التناحر بين الفريقين . وطلب رضوان من الخليفة أن ينزله فى القصر ؛ فلم يجب طلبه ولم يمره التناحاً ؛ فأدى ذلك إلى ازدياد الوحشة والتفوق بينهما .

(١) ابن ميسر ص ٨١ . (٢) المصدر نفسه ص ٨٢ . (٣) المصدر نفسه

بذلك ضعف أسرى رضوان ، فلم يبق على منازلة خصمه ؛ وخروج في الخامس عشر^(١) من شهر شوال من هذه السنة هارباً من القاهرة ، ولحقه بوالى صرخند^(٢) ؛ فنتلقاه بالإكرام وأقام معه إلى آخر المحرم سنة ٥٣٤ هـ ، حيث عاد إلى القاهرة على رأس جيش كثيف^(٣) ، وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . واسكنه أرغم على السير إلى الوجه القبلى ؛ وهناك طارده الأمير أبو الفضل بن مصال ، فلحق به وأقنعه . وفى اليوم الرابع من شهر ربيع الثانى مثل رضوان بين يدى الخليفة ؛ فأمر به فحبس فى القصر^(٤) ، على حين عفا عن الجند الأتراك الذين حاربوا معه ؛ ولسكنه قرّة فى سنة ٥٤٢ هـ^(٥) .

وكانت سنة ٥٣٥ نهاية هذا النزاع الطويل الذى قام بين بهرام ورضوان ؛ وفيها انتهت حياة بهرام . ويحدثنا ابن ميسر أن بهرام عاش فى القصر مع الخليفة يشاوره فى أمور الدولة من غير أن يخلع عليه أو يلقبه عملاً من الأعمال الرسمية .

وقد ظلت الحال على ما وصفنا إلى أن توفى بهرام فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٥٣٥ هـ ؛ فزن عليه الخليفة حزناً شديداً ، وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، ويث فى طلب بطريق الأرمن ، وأعدت ممدات للأثم . فلما حان وقت صلاة الظهر ، أخرج النعش من القصر بحمله الديباج ويحف به المصارى يحملون المباخر ؛ وشيعة الأشراف وقهريم من حلية القوم مشاة . وسار الخليفة الحافظ فى الموكب راكباً بثلة ، وعليه حمة خضراء وثوب أحضر . وما زال الناس فى سيرهم ، والقسس يرتلون الإنجيل ، حتى وصلوا إلى دير الصدوق ؛ فنزل الخليفة وجلس على حافة القبر ، وبكى بكاء شديداً^(٦) .

وبالجملة ، فقد عامل الفاطميون النصارى معاملة تنطوى على العطف والرعاية . وما كان الاصطهاد الذى قام به الحاكم إزاءهم إلا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذى حاق

(١) عالج ابن ميسر ذلك تذكر اليوم الثالث عشر من شوال .

(٢) بلد ملاسق لبلاد حوران من أعمال دمشق - أنظر فقط صرخندى " معجم البلدان " لياقوت .

(٣) ابن القلائس ص ٢٧٠ .

(٤) ابن القلائس ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . ابن ميسر ص ٨٢ و ٨٤ .

(٥) ابن القلائس ص ٢٩٦ .

(٦) ابن ميسر ص ٨٤ .

بالمصريين عامة . والحق ، أن أبناء هاتين الطائفتين قد همولوا غير مرة معاملة تتجلى فيها الحياة لهؤلاء القوم^(١) .

ولقد تغلبوا أرقى المناصب وأعلاها في عهد الخليفة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ (٩٧٥ - ٩٩٦ م) ، وشغلوا في عهد المستنصر ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة ، بل تغلبوا الوزارة أيضاً ، ونمستوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني ؛ وهو أمر نستطيع تحقيقه بما كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادتها إلى ما كانت عليه .

ولم تقتصر هذه المعاملة على ما تقدم ؛ فقد وُحِّعَ بعض الخلفاء الفاطميين - كالحافظ مثلاً - بزيارة أديرة النصارى . وكان لآمر يعطى الرهبان في دير نهبيا الواقع إلى القرب من الجيزة عشرة آلاف درم كذا خرج الصيد بالقرب من هذا الدير^(٢) . ويحدثنا أبو صالح النصراني أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة في عهد الفاطميين^(٣) .

وليس أدل على حرص الخلفاء الفاطميين على توفير وسائل الأمن والطمأنينة لرعاياهم من أهل القمة ، من هذا المنشور الذي أصدره الخليفة العازل الفاطمي إلى رجاله في جزيرة طور سيناء يأمرهم فيه أن يشملوا الرهبان بالرعاية والملاحظة والمعونة واللواطف والمباينة في إعزاز جانبهم وتسهيل مطالبهم وتحقيق رغباتهم وإعلاء الحيف عنهم . وإليك نص هذا المنشور عن وثيقة قام بنشرها الأستاذ أحمد محمد عيسى أمين مكتبة جامعة القاهرة^(٤) الذي ساهم في أعمال البعثة المصرية الأمريكية لتصوير مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين :

بسم الله الرحمن الرحيم
منشور مقدم بكنية في مولانا
(الحمد لله على نعمه)
وسيدنا الإمام الفائز بتصرف
أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى
آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين ،

(١) أبو صالح ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٧ و ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٧ و ٧٨ . ناصر خسرو ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) انظر لفظ "Kibt" في دائرة المعارف الإسلامية <Encyclopaedia of Islam - Mann, The

Jews in Egypt and in palestine under the Fatimid Caliphs>

(٤) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ص ١١٩ - ١٢١ سنة ١٩٥٦ .

السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة
كاشف الثمة ، أمير الجيوش سيف الإسلام
فيات الأتام كافل قضاة المسلمين
وهادى دعاة المؤمنين أبو العارات
طلائع الفايدي وتصيته .

إنه لما كان من حيننا إزالة المحدثات
وتفنية آثارها والمنع من الاستمرار
عليها وتأكيد أفكارها ، بدعائه من
يحتوى عليه فلاقى ملكتنا من أهل اللمة
واعتمادهم بما نسج عليه ملابس
الحتر والرحمة ، ليتسوى في عدنا
الصغير والكبير ، ونشلهم من حرج
مطرونا ما يسيل عليهم من المطالب
كل مستصعب عسير . وأهوى
إلى حمرتنا استضرار اصطوافة أسقف
طور سيد عما يعصده به القولة من
الأحماض ، ويعتدوهم الخيف والاعتداف
ويقتسونه من جهته من رسم أحداؤه وهو
عشرة دقاير . . . ؟ . . . وإن ذلك
قد قضى له وإن معه من الرهبان بالإضرار ،
واجحف به وهم التادى عليه والإصرار ،
أنكرنا ذلك على معتمديه ، وذبناه من
قصد قاصديه ، وخرج أربنا بإيداع هذا
المفتشور ، الأمر بإزالة هذا الرسم وتمغيته
والمنع من التماسه من هذا الأسقف ، والحذر
من تناوله من جهته ، واعتباره بالرعاية
والملاحظة والمعوثة والموافقة ، والميلقة
في إعزاز جانيه وتسهيل معاليه
والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه معرما
أو خسارة ، وإجرائه على الأوامر المرضية
والأوضاع المختارة .
فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة الأمرا
الولاية بالحصول للضرورة أدام الله . . . ؟
فليعمل بالمثل فيه وليتأذى ما يوجب
حكمه ويقتضيه ، وليحذر من تجاوزه
وتمديه . . . ؟

(التاريخ)

(إسهامات رجال النيران)

٢ — سياسة الفاطميين مع أهل السنة

حمل الفاطميون على لمن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة، إذ عدّوهم أعداء لمي^(١)؛ ونقشت فضائل عليّ وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد. ويحدثنا ابن زولاق^(٢) أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر.

ولقد أُرغم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب. ويلاحظ لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من المسلمين إلى التحول إلى المذهب الشيعي، كما دفعت تلك الرغبة أيضاً بعض القدميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهباً لهم.

وفي سنة ٣٧٩ هـ كانت أكثر أمور الدولة المدنية والحربية والدينية قد تحولت إلى أيدي الشيعة، وكان زاماً على الموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة، أن يسيروا وفق أحكام مذهب الإسماعيلية. وأصبح منزل كل من رعى منهم بالتفصيل في مراعاة هذه الأحكام أمراً لا مفر منه؛ وقد يكون ذلك حشية الزل أو الاضطهاد، أو لرغبة الناس في تقلد مناصب الحكومة أو التفرق في سلكها، مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين وغيرهم إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمي.

وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى غير المسلمين من النصارى واليهود؛ فقد دمع بهم انطوف من سوء معاملة الحكومة إلى سلوك الطريق الذي سلكه غيرهم من المصريين. وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن يتمدح بذكر الخلفاء السنيين. ويحدثنا القرظي^(٣) أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح^(٤) في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) من جميع

(١) المكتبة الأهلية بباريس، مخطوط ١٨١٧، ورقة ٤٨ ب.

(٢) مخطوط ج ٢ ص ٢٤٠

(٣) التراويح (جمع ترويجة) هي سنة كان يقرأ فيها النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء في رمضان، ولكنه أبطلها بعد ذلك عشية أن تصير غرضاً. ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة، وجعل الناس على إمام واحد، ووافقه المسلمون على ذلك؛ فكان إجماعاً سكونياً. والسر في استتاع الشيعة عن صلاة التراويح هو ما يصفونه من أن عمر بن الخطاب هو أول من منها.

مساجد الديار المصرية . ويظهر أنها قد أبطلت في سورية قبل ذلك بدة سفوات . ويدلنا على ذلك ما ذكره الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ — ٩٧٤ م) ، وهو أنه في أوائل شهر رمضان أصدر المزم الأواسر بإبطال التراويح . وما كاد أبو القاسم الواسطي يرفع صوته احتجاجاً على هذا القانون ، حتى قبض عليه أعران الفاطميين وأودعوه غياهب السجون . وكان من أثر رفع هذا الحادث إلى السلطات في القاهرة أن صدر الأمر بقطع لسان أبي القاسم وضربه خمسين سوط وصلبه بعد ذلك ^(١) .

واشتد الفاطميون في ذلك الوقت على أهل السنة ومنعهم من إقامة مراسيمهم . ففي سنة ٣٨١ هـ — في عهد الخليفة المزني — ضرب رجل من أهل مصر وطيف به في المدينة ، لأنهم وحدوا عنده كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس ^(٢) . وفي صفر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) أمر الخليفة المزني بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه ، وكذا على أبواب المحاريب والحجرات وعلى المقابر ، ولون ذلك كله بالذهب في كثير من أحياء القاهرة وى غيرها من المدن . ولقد كان لهذه السياسة أثرها في تحويل كثير من السنين إلى المذهب الشيعي ^(٣) .

ولدينا كثير من الأدلة على أن تعصب الفاطميين لمذهبهم زاد في أيام الحاكم عما كان

(١) ونحن نشك في صحة ما أوردته لنا الذهبي وفراء بعيداً من الحقيقة التاريخية . ويتبادر إلى الذهن من راق هذه البهارة أن أبا القاسم كان مؤذناً في بعض مساجد سورية ؛ ويحمل أنه بيت المقدس ، بالرغم من أن لفظ القدس لم يذكر . أما عبارة الذهبي فهي كما يأتي : « قال مشرف بن مرجى المقدسي : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن قل : كنت مجاوراً لبيت (هكذا ذكر) ؛ فأمروا في أول رمضان بفسخ التراويح ؛ فصمت ، وأنا وعبد الله والإسلام ، واعبداء ! فأغلاني الأعداء وحبسوا ثم جاء الكلب من مصر بقطع لسانى فقطع . وبعد أسوع رأيت النسي صلى الله عليه وسلم تلقى في في يرد ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد زال عن الألف فتوضأت وصليت ، وعمدت إلى المائدة فأذنت : للصلاة غير من النوم ! فأغلاني وحبسوا وتقيدت ، وكتبوا إلى مصر ، فورد الكتاب بقطع لسانى ويضربن خمسين سوط ، ويصلبى ، فقتل في ذلك » .

المكتبة الملكية بالقاهرة مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٠٥ .

وإن ما أوردته لنا الذهبي من قطع لسان أبي القاسم وعدم استطلاعه أداء الأذان ، وأنه هو الذى حدث بما قاله يد نطلع لسانه المرة الثانية ، وضربه خمسين سوط ثم صلبه — كل ذلك يظهر لنا أنه بعيد من الصحة كل البعد . أما أنه قد ناله بعض العقوبة على هذه الحادثة ، فأمر محتمل الوقوع ؛ لأن هذا هو صلك الفاطميين ضد من يجهر بمخالفتهم في عقائدهم .

(٢) المقرئى مخطوط ج ٢ ص ٣٤١ .

(٣) للمقرئى مخطوط ج ٢ ص ٢٨٦ .

عليه في عهد الخلفاء من قبله . ذلك أنه في جمادى الأولى من سنة ٣٩١ هـ ، ألقى القبض على رجل من الشام لانهامه بدم الاعتراف بفضل على^(١) ، وجبته قاضى القضاة وبث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه ؛ فبدلوا قصارى جهدهم في حمله على الاعتراف بإمامة على^(٢) . ولكن هذا الرجل ظل على إيمانه على الرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر في الأمر وعمله على إقناعه . ولما لم يفلح رفع أمره إلى الحاكم ، فأمر به قتل وصلب^(٣) .

وفي سنة ٣٩٣ هـ قبض في مدينة القاهرة على ثلاثة عشر رجلا ، لأنهم صلوا صلاة الضحى ، وهي من السنن التي ينبغي إقامتها مع الصلوات الخمس ، وإن كان الشيعة لا يعترفون بها . وقد سُهرَ يهؤلاء المذنبين في الشوارع وضُربوا وحُبسوا ثلاثة أيام^(٤) .

أضف إلى ذلك ما ذكره أبو المحاسن والقرى ، من أن رجلا من أهل دمشق بدمى الأسود الحكيى حلت به العقوبة في شهر ربيع الثانى من السنة نفسها (٣٩٣ هـ) لارتكابه جريمة لم يأت لنا هذان المؤرخان بتفصيلها . ولكن يظهر لنا أنها كانت من أجل محبة هذا الرجل للخليفتين أبى بكر وعمر ، بدليل أنهم طاقوا به في شوارع المدينة ونادوا عليه : « هذا جزاء من يحب أبى بكر وعمر » ؛ ثم أمر به فصربت عنقه^(٥) .

وفي شهر صفر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم أيضا بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ، وفي الأسواق والشوارع ؛ وصدرت الأوامر بذلك إلى سائر العمال في أقاليم مصرية^(٦) .

ولقد اشتملت القوانين الكثيرة التي عاد الحاكم فأصدرها ضد النصارى واليهود في سنة ٣٩٥ هـ ، وكذا للراسم التي صدرت بالتشدد في مراعاة هذه القوانين ، على كثير من عبارات الطعن في أبى بكر وعمر^(٧) .

وفي هذه السنة أمر الحاكم بأن تقام صلاة الظهر في الساعة السابعة ، والمصر في الساعة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٩١ . القرى : " نفع العيب " ج ٢ ص ٦٦٥ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

الثامنة^(١) (من التوقيت العربي) . ولو قارنا بين ما جرى عليه الحاك وما يجري عليه المسلمون الآن ، لوجدنا أن الحاك قد راعى في التوقيت الساعات ، ولم يراع التقاليد الإسلامية في التوقيت بالشمس . فإن الظهور يدخل وقتها بالزوال ، والمصر يدخل وقتها بأن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال ، وسينفذ تكون صلاة المصر حاضرة إذا وقعت في الزمن الذي تأخذ فيه الشمس في الانحراف عن كبد السماء ، وصار ظل كل شيء مساوياً له بعد اعتبار ظل الزوال . وكذلك مصر تكون حاضرة إذا وقعت في الزمن الذي بين هذا الوقت وغروب الشمس . ومن رى أن الحاك قد بدّل هذا العمل ما كان يجري عليه المسلمون وما كان معمولاً به إلى هذا الوقت ، وألزهم بالصلاة في ساعات معينة مستحيتين بالزوال

ولا شك في أن هذه الأوامر قد أساءت إلى أهل السنة ، الذين كانوا لا يزالون يكونون السواد الأعظم من الأهليين . وتعتبر العتة التي أثارها أبو ركة^(٢) (٣٩٦ — ٣٩٧ هـ) دوراً هاماً من الأدوار التي مرت بها سياسة الحاك إزاء رعاياه السنيين .

وفي سنة ٣٩٧ هـ خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمي ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأطلق بعض ما ظم به من الأعمال الموجبة ضد هؤلاء الرعايا ، كلعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصعابة ، وسلك مسلكاً أكثر شدة مع النصارى واليهود . وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة أمر بمحو ما نقش في لن هؤلاء الخلفاء ، وهوقب كل من أقدم على منهم وهتف في الشوارع على رأي من الناس^(٣)

وفي هذه السنة صدر مرسوم يميز للناس صوم رمضان وفطره بمقتضى حساباتهم الفلكية . بدون أن ينتظروا رؤية الهلال . كذلك أجازت القوانين الجديدة للوذين أن يستعملوا المبارات للمعاد ذكرها في الصلاة حسباً ررون ، وألا تقدم شكواى لسبب من الأسباب التي تتعلق بذكر هذه المبارات ، وألا يسب أحد من الخلفاء الأول ، ولا يمنع

(١) لمقرئى خطب ج ٢ ص ٣٤١ .

(٢) نظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨ — ١٩٢) ، وابن القلانسي (ص ٦٤ — ٦٥) ، وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٤٥) لمعرفة الثورة التي قام بها أبو ركة .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٢ .

أحد من أن يقول هذه العبارة التي تنطوي على احترامهم وإجلالهم وهي : « اللهم ارحمهم ! » إذا ما ذكر أسمائهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الأبرار . وإذا أراد أحد أن يستعمل هذه العبارة التي تدل على أسبى مراتب التعظيم لعلّى وهي : « اللهم ارحمه ! » فلا حرج عليه . وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنية أو الشيعية ^(١) .

وقد أبطل الحاكم بعد ذلك استعمال كثير من الرسوم الشيعية للبحثة ، فأمر بإعادة القنوت في الصلاة ، وكان قد أبطل في سنة ٣٧٠ هـ . ومنع كذلك المؤذنين من إصافة عبارة « حي على خير العمل » إلى الأذان ، وسمح بصلاة الصبح ؛ وهذه من الصلوات التي تؤدى في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال ؛ وكان قد منعها منعاً باتاً في سنة ٣٩٣ هـ ^(٢) .

وقد أنشأ الحاكم في هذه السنة نفسها مدرسة لتعليم المذهب السني ، الذي كان يدين بمقائده السواد الأعظم من المصريين قبل وصول الفاطميين إلى هذه البلاد ، وأهدى هذه المدرسة دار كتب ، وعين أب بكر الأنطاكي ناظراً لها ، وخلع عليه وعلى مدرّسي هذه المدرسة وأحسبهم في مجلته ^(٣) .

وكان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن سادت سمته عند المائمين الذين وفدوا على القاهرة ، حيث وجدوا أنفسهم في مدينة تسهر في اتجاه عادات المذهب السني ^(٤) . ولكن الحاكم عوّذنا الله في سياسته وأهوائه .

ثم لقد جعلته بعض الحوادث الأخرى مُبْتَصِّراً حتى عند الشيعة في لك الآونة . وذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ أرسل بعض الموظفين إلى المدينة المنورة ليمتحنوا المنزل الذي كان لجعفر الصادق ويحضررا منه ما قد يفترون عليه . فلما فتح المنزل ، وجد فيه هؤلاء الموظفين نسخة من القرآن الكريم وسريراً وحصىاً وبعض الأثاث . وقد حمل هذه الأشياء الهامى حشكين الذي كلف بالإشراف على فتح هذه الدار ، وأخذ الموظفون في الوقت نفسه الضرائب التي كان يدفعها لأشراف .

(١) القريزي شطط ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) القريزي شطط ج ١ ص ٤٥٨ وما يليها .

(٣) أبو الحسن ج ٢ رقم ١ ص ١٠٥ .

(٤) المصدر نفسه .

ثم عاد ختكين إلى مصر وبصحته عدد كبير من الأشراف كانوا يؤملون أن يتصوا بكرم الحاكم وحسن معاملته لهم . ولكنهم لما مثلوا بين يديه ، لم يعطهم غير حزة يسير من المال الذي عاد به ختكين ، وأتى أكثره لنفسه فأثلا إنه أحق به منهم ، لأنه كان رأس الأشراف باعتباره وريث على حقا . فساد هؤلاء الأشراف إلى المدينة ، وألسنتهم تنطلق بالسخط والعداء عليه ^(١) .

وظلت سياسة الدين التي سار عليها الحاكم إزاء السنيين ثلاث سنوات ، غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة . ففي سنة ٤٠١ هـ أمر بإعادة الأذان إلى النحو الشيعي ؛ كذلك أعاد التوبيخ وعبارة « حي على خير العمل » إلى ما كان عليه من قبل ، كما أطل صلاتي الصبح والتراويح . ولما اتصل بالحاكم ما كان من صلاة التراويح في شهر رمضان في الجامع المتيق ، أمر بإمام هذا المسجد فضربت عنقه . وقد أعاد في الوقت نفسه مجالس الحكمة في القصر ، كما أمر بأن تجمع النحوى ، وهي التبرعات التي كانت تؤخذ من كل من يتعلم أصول المذهب الإسماعيلي ، ثانية ، وكانت قد أطلت منذ سنة ٤٠٠ هـ .

واعتزم الحاكم بعد ذلك نبش قبر أبي بكر وعمر بالمدينة ؛ فرشا الرسل الذين أغدزم لقادة هذه المهمة رجلا من العلويين كان يسكن في منزل قريب من مدفن الخليفين ؛ ومن ثم شرعا بمعارفته بمحفران طريقا يوصل إلى ما يريدون . إلا أن عاصفة شديدة ثارت ، وبلغت نواحيها درجة أدخلت الخوف والهنج في قلوب الأمالي ؛ ففلس كثير منهم ملجأ في الحرم حيث يوجد الجسد الشريف وأجساد الخلفاء الأول . ولما لم تهدأ هذه العاصفة ، خشي ذلك العلوي وأبلغ الأمر لوالى المدينة ؛ فأجل به عقوبته وحال دون إتمام ما كان يريد .

وحدة القول أن لمن السنيين كانت تفيض به السنة الناس من على المنابر في كافة أرجاء مصر طعن الحكم العاطفي نكرييا . ومحدثنا ابن خلكان أن الله ضد آخر الخلفاء القاطنين كان من غلاة الشيعة ؛ فكان له ولع خاص بلبن الصحابة ، حتى إنه كان لا يتردد في قتل أي سني تقع عليه ميمناه .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ . المقرئى خط ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) المقرئى خط ج ١ ص ٣٣٨ .

٣ — سياسة الفاطميين مع المصريين وغيرهم بوجه عام

أقام الفاطميون في مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين ؛ فقدمت البلاد محو الرق بفضل هذه النظم الرشيدة التي احتداهما من جاء بعدهم من الملوك . غير أن سياسة الفاطميين (التي كانت ترى أولاً إلى نشر مذهبهم) كثيراً ما كانت تتعارض مع مصالح الأهالي وسعادتهم ، لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنين .

ولقد تطلب مجاز تلك السياسة أن يحمل أنصار الفاطميين — حتى من غير المسلمين — محل السنين في مناصبهم . من ذلك نرى أن السنين كانوا من أول حكم الفاطميين ينظر إليهم بين السخط والكره ؛ فتحملوا لذلك كثيراً من جور القوانين التي كان يسنها الفاطميون . وذلك أنه كان لزاماً على أبناء الطوائف الثلاث (السنين والنصارى واليهود) الذين كان منهم للمصريون ، أن يطيعوا تلك القوانين ، حتى ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية .

واقدم أضاف الفاطميون إلى النقوش التي كانت تنطق بسبب السنين ، كتابة أخرى كلها إشادة بمدح علي وأهل بيته . وقد كان من أثر تعاليم دعاة الشيعة والقوانين الجائرة التي كانت تسبب إهمال عدايم ، أن تحول كثير من غير الشيعة إلى هذا المذهب . ولقد حفز ذلك التحول الكبير إلى ناحية الشيعة قاضي القضاة علي بن النعمان — الذي كان يطلق عليه أيضاً داعي الهداية — فأبلى على مجتمع حافل في الجامع المتين في شهر صفر سنة ٣٦٥ خلاصة الكتاب الذي قد صنفه أبوه أو حنيفة النعمان الغربي في أصول للمذهب الشيعي^(١) .

ولقد أدت هذه الأحوال إلى تحول كثير من المصريين — كما قدمنا — إلى المذهب الفاطمي . كما كانت نتيجة هذه القوانين الجائرة أن دخل كثير من الناس في القاهرة وفي الجهات الأخرى في المذهب الإسماعيلي ؛ ومعنى هذا دخولهم في المذهب الشيعي . ولقد شغل الحاكم في سنتي ٣٩٦ و ٣٩٧ بقمع ثورة أبي ركوته ، كما اضطرت تلك الثورة إلى مصانعة السنين ، وإلى القسوة على غير المسلمين . على أنه سبق أن أشرنا إلى القوانين

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٠٦ . ابن ميسر ص ٧٥ والمقريزي خلط ج ٢ ص ٢٤١ وأبو الحسن المجلد الثاني ج ١ رقم ١ ص ٤٠٢ .

الأخرى التي منها الحاكم في سنة ٤٠١ هـ ، والتي كانت وليدة الانقلاب الفجائية في سياسته حيال السيين .

وكانت سياسة الحاكم تمتاز بنصف كثير تناول جميع المصريين ، وخاصة من لم يكن شيعياً . وظهرت تلك السياسة جلية واضحة بعد أن شعر بأنه صار خلواً من كل رقابة ؛ وذلك بعد وفاة برحوان ، وحينما بدأ الاضطراب ينال من عقله ، ذلك الاضطراب الذي كان مصدراً لتقلباته في سياسته .

وبعد وفاة الحاكم (٤١١ هـ) وتولية ابنه الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ هـ) تمتع المصريون عدة ولايته بالسلام والطمأنينة . وهذا ما كان مرجحاً ، لأن الظاهر كان رجلاً عاقلاً حليماً دمث الأخلاق عادلاً ؛ فأثنى القوانين التي كان قد أصدرها أبوه ؛ وتشتهر هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية^(١) .

وفي أواخر عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ظهرت روح البغضاء والكراهية إزاء أهل السنة ، عندما تولد أمير الجيوش بدر الجبالى مقاليد الحكم وحكم البلاد حكماً مطلقاً ؛ فأمر بإضاعة « حى على خير العمل » إلى الأذان ، ونقش لمن الصعابة على الجدران ، كما أمر بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط^(٢) .

واستمرت الحال على ذلك إلى سنة ٥٢٦ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها الأكل . وبذلك عادت السلطة ثانية إلى الاسماعيلية ، وقيت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين ؛ فعزل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وحبس الخليفة الماضد آخر الخلفاء الفاطميين ، واضطهد الأسماء وكبار رجال الدولة ، وأسس في سنة ٥٦٦ مدرستين لتعليم الفقه : إحداهما على مذهب لإمام الشافعى ، والأخرى على مذهب الإمام مالك .

كان خلفاء الفاطميين قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة ، وبما اشتهروا به من مظاهر الكرم والأبهة والمظلة في كل العهد الفاطمى . من ذلك هداياهم النفيسة من النقود ، وحرزهم للشعراء وكتاب القصر ، والعلماء وغيرهم من الموظفين ، وكذلك الإحسان للفقراء ، وإدانة الولائم في المناسبات المختلفة من الأعياد الدينية وغيرها من الأعياد العامة ؛ وكل هذا كان حقيقاً بأن يستميل كثيراً من الناس إلى اعتناق مذهبهم .

(١) ع . بن سعيد ص ٢٣٤ و ٢٣٥ ، وابن القلائى ص ٨٠ ، وأبو الحسن المجلد الثاني

رقم ٢ ص ٣٠ Corpus Inscriptionum Arabicarum, Tome II. Egypte, p. 86

(٢) أبو الحسن المجلد الثاني ج ٢ رقم ٢١ ص ٢٧٦ .

الباب الثامن

سياسة الفاطميين الخارجية

٩ - مع بنى بربر والسومنة :

لاشك في أن قيام الدولة الفاطمية في المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلائهم على هذه البلاد قد يساعد على بسط نفوذهم في مصر وفي بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولبيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية في ذلك الحين . لذلك رعى الخلفاء العباسيون يسعون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر ؛ ثم يحذو بنو بويه الشيعة يحذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعمل مساعدة البويهيين لقراطة في حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي لحولوا الخلافة إلى العلويين ، إذ كانوا يفصلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية . لذلك ترى سلاطين بنى بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خضعت لنفوذ بنى بويه .

وقد ظهرت أغراض الفاطميين التي كانت ترمى إلى مد نفوذهم إلى بلاد للشرق من هذه القصيدة التي أنشدها ابن هاني الأندلسي^(١) للمز في بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مصرُ ؟ فقلْ لبنى العباس قد قُضِيَ الأمرُ
وقد جاوزَ الإسكندريةَ جوهرُ تطالمة البُشْرَى وتقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المقود من جسر ها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفر

(١) ديوان ابن هاني (طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) ص ٨٦ - ٨٧ .

وقد أشرفت خيلُ الإله طوالماً على الدين والدنيا كما طلع القمر
وذا ابن نبي الله يطلب ورثه وكان حَسْرَى^(١) ألا يضيع له وز
فإنا نَتَّبِعُوهُ فهو مولاكم الذي له برسول الله دونكم المعثر
على أننا نرى هذه السياسة التي كانت تنطوي على التودد وحسن الية تبديل و أواخر
عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لنزول مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن أصبح له
خطر الدولة الفاطمية على سلطان بني بويه فقد ذكر البندادي^(٢) أن عضد الدولة « تأهب
لقصد مصر وانتزاعها من أيدي الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن
الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائغ لله أمير المؤمنين .
ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » .

وقد قيل إن ما قام به عضد الدولة كان نتيجة لشك في نسب الفاطميين ، حتى إنه
عقد مجلساً حضره الملوك الذين أقروا بطلان هذا النسب . ويقول المقرئ^(٣) : « ثم
ملك فتاحسرو بن الحسن الديلمي بغداد ، فقتل ما بينهما (أي بن العزيز وعضد الدولة)
من المسافة ، فجاء الملوك ببغداد وقال لهم : هذا الذي بمصر يقول إنه علوي منكم ، فقالوا :
ليس هو منا ، فقال لهم : ضموا خطوطكم بأنه ليس بعلوي ولا من ولده أي طالب . ثم
أضدوا إلى زرار بن سعد رسولاً يقول له :ريد أن نعرف من أنت ، فظم ذلك عليه » .

فقد ذكر ابن الأثير عند كلامه عن حوادث سنة ٣٦٩ هـ : « في هذه السنة ورد
رسول العزيز بالله صاحب مصر إلى عضد الدولة (بن بويه) بمائل أداما » . وإنا لا ندرى
حقيقة هذه المسائل ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من القول بأن العلاقة بين الفاطميين
والمهاسبين لم تكن على شيء من الصفاء ، لا سيما بعد أن اقتطع الفاطميون عن جسم
الخلافة الشيعية في بغداد كافة أرجاء بلاد المغرب ومصر والشام وفسطاطين والجزائر .

وقد روى سير توماس أرنولد^(٤) عن قطب الدين^(٥) أن رسول العزيز بالله الفاطمي

(١) حَسْرَى يعني حزيناً .

(٢) امرئ بين الفرقه ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣) معاذ الخفاف ص ١٥ .

(٤) The Caliphate (Oxford, 1924), pp. 66-67. (٤)

Chroniken der Stadt Mecca, ed. Wüstenfeld, vol. III. pp. 168-9 (٥)

لما وصل إلى بغداد استقبل استقبالاً حاراً . فقد اصطفت الجند على جانبي الطريق ، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أما كنهم كل على حسب مكانته ، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر . حتى إذا مارفح هذا الستر ، رأى الحاضرون الخليفة جالساً على عرش مرتفع ، يحيط بهمئات الحراس ممثقين سيوفهم ، مرتدين أبهى حللهم . وأمام الخليفة مصحف عثمان ، وعلى كتفيه بدة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويده قضيب الملك . وتقدم عضد الدولة البويهي وقبيل الأرض . هنا سأل رسول الخليفة الفاطمي وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ : من هذا الذي يُسجد له وتُقْبَلُ الأرض بين يديه ؟ أهو الإله العظيم ؟ فأجابه عضد الدولة : إنه خليفة الله وظله على الأرض . وتقدم عضد الدولة وقبيل الأرض سبع مرات ، وأخذ يظهر آيات احترامه وإجلاله ، فقال له الخليفة : تقدم ! ومد إليه يده اليمنى لقبلاً . وأمره بالجلوس ؛ فطلب أن ينفية من ذلك ، ثم جلس بعد أن كرر عليه الخليفة الطلب ، وقبل المكان الممد للجلوس . ثم قال له الخليفة الطائع : عهدت إليك برعيي الدين هم ودائع مُلكي ؛ ثم سأله : أنتقبل الاضطلاع بهذا الأمر ؟ فرد عليه عضد الدولة : ساعدني الله على طاعة مولاي أمير المؤمنين . وبعد أن خلع عليه الخليفة سبع خلع ، قتل الأرض عند تسليم كل خلة ، ثم طلب الإذن بالانصراف ، وانصرف سائر الناس .^(١)

ولم يدخر الفاطميون وسعاً في سبيل نشر دعوتهم في بلاد العراق ، فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز في الموصل على يد أميرها أبي الورداء محمد بن السُّبَّب بن رافع بن المُقَلَّد المَقْبِلِي (٣٨٢ هـ) . كذلك نجح الخليفة الحاكم الفاطمي في استتالة قرواش العقيلي الذي خرج على طاعة الخليفة العباسي القادر سنة ٤٠١ هـ^(٢) ، وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والسكوفة ، كما أحل اسم الخليفة الحاكم الفاطمي في الخطبة محل اسم الخليفة العباسي^(٣) . وقد أثار نشر الدعوة الفاطمية في بعض بلاد العراق حنق الخليفة القادر العباسي ، فلجأ في محاربتهم إلى سلاح التشهير بسمعتهم في العالم الإسلامي . فسند

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ خلفاء ص ٢٧٤ . ابن خلدون : المعراج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٦ .

(٣) راجع هذه الخطبة في أبي المحاسن : التيجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

الخليفة اجتماعاً دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة ، وأصدروا في سنة ٤٠١ هـ محضراً يتضمن الطعن في نسب الفاطميين . وإليك طرفاً من هذا المحضر :

« ... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، اصطفاً واختاره لهداية الخلق وإقامة الحق ... حتى قامت جميع الله وآياته وتمت بالتبليغ كذته ؛ صلى الله عليه وعلى أولئك مستجيب إليه على أمير المؤمنين وسيد الوصيين ، أساس الفضل والرحمة ، وعماد العلم والحكمة ، وأصل الشجرة الكرام البررة الثابتة في الأرومة المقدسة العظيمة ، وعلى خلفائه الأغصان البواسق [من تلك الشجرة] ، وعلى ما خلس منها وزكا من الثمرة ... اللهم وصل على وليك الأهرم وصديقك الأكبر ، على بن أبي طالب أبي الخلفاء الراشدين المهديين . اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين . وعلى الأئمة الأبرار ، والصفوة الأخيار ، من أقام منهم وظهر ، ومن خاف فاستتر . اللهم وصل على الإمام المهدي بك ، والذي بلغ بأسرك ، وأظهر حببتك ، ونهض بالمدل في بلادك ، هادياً لمبارك . اللهم وصل على القائم بأسرك ، والمنصور بنصرك ، الذين بذلوا نفوسهما في رضائك ، وجاهدوا أعداك . اللهم وصل على المميز لديك ، المجاهد في سبيلك ، المظهر للآيات الخفية ، والحجج الجليلة . اللهم وصل على المميز لديك ، الذي مهدت به البلاد ، وهديت به السبيل »

« اللهم اجعل نواحي صلواتك ، وزواكي بركاتك ، على سيدنا ومولانا إمام الزمان ، وحسن الإيمان ، وصاحب الدعوة الملوية والملة النبوية ، عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آتائه الراشدين ، وأكرمت أجداده المهديين اللهم وفقنا لطاعته ، وأجمعنا على كلمته ودعوته ، وأحشرنا في حزبه وزمرته . اللهم وأعنه على ما واثقته ، وأحفظه فيما استقرضته ، وبارك له فيما آتيته ، وأسر جيوشه ، وأغل أعلامه في مشارق الأرض ومنازلها ، إنك على كل شيء قدير » .

وبعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأنكر فيها نسب المبيدين إلى علي وفاطمة ، لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناصرة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم العاطلي

في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالظن في نسبهم إلى علي وقاطلة ، أو بإتارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين .

وبروى أبو الحسن في تاريخه أنه « في سنة ٤٠٢ هـ في شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القائد العباسي محضراً في معنى الخلفاء المصريين ، والقدح في أسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ بسداد ، وأحدث فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بعرفة نسب الهبصانية ! قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخزري إخوان الكافرين ، ونُطِبَ الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومستقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس . فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار المنقب بالحاكم - حَكَّم الله عليه بالبوراء والخزري والنكال - ابن مد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد - لا أسعد الله - فإنه لما صار إلى المغرب تسمى ببديد الله وتلقب بالمهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأقباس - عليه وعليهم العنة - أديعاء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأهم لا يطمعون أن أحدكم الطائمين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أديعاء . وقد كان هذا الإسكار شائناً بالخرمين في أول أسرم بالمغرب ، منتشرأ انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق نجار وزنادقة . ولذهب التنوية والمجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا القروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادهوا الربوبية . وكتب في [شهر] ربيع الآخر سنة اثنين وأربعائة » (١) .

« وكتب خلق كثير في المحضر المذكور منهم الشريف الرضي والمترضى أخوه ، وابن الأزرق الموسوي ، ومحمد بن محمد بن بعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد هبدي الله بن الأكماني ، والقاضي أبو القاسم الجزري ، والإمام أبو حامد الإسفرايني » (٢) ، والعقيد أبو محمد

(١) أبو الحسن ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في العقيدة ، حتى كان بمصر مجبسه أكثر من ثلاثمائة ضيقه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخليلي البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ - ٣٧٠) ، ابن حلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ - ٢٠) .

الكشغل^(١) ، والفقير أبو الحسين القدوري^(٢) الحنفي ، والفقير أبو علي بن حكمان ، وأبو القاسم التنوخي^(٣) ، والقاضي أبو عبد الله الصيرى . فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان في أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام في المحضر^(٤) .

على أن ما رواه أبو الحسن في هذا الكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه في هذا المحضر الذى نفي فيه نسب الفاطميين ، يمارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضى ، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعهم بهم صلة النسب ، قال :

ما تلقى على الموانى وعندي يقول صارم وألف حمى
أسس القل في بلاد الأعادى وبصر الخليفة الملوئى
من أبوه أبى ومولاه مولاى إذا ضامى البعيد القصى
ألف عرقى بمرقه سيدا لنا من جيعا محمد وعلى

ولم يكن هذا كل ما فعله المباسيون في سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضاعفون جهودهم في نشر دعتهم عن طريق دعاتهم ، ويصادفون كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى العلماء المباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطمنون فيه على الفاطميين وينفون بسبهم^(٥) ، كما يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر أيضاً^(٦) لتدمير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول المباسيين^(٧) .

على أننا نلاحظ تبديلاً ظاهراً في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كالميجار

(١) بفتح الكاف ، ضم الفاء ، نسبة إلى كشغل إحدى قرى خراسان .

(٢) نظم اللغات والراء ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٣) هو علي بن الحسن بن علي بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا البلاد المرى ، وأخذ عنه ، وتقلد قضا كبير من النواحي كالمندان وقرميسين . وألف كتاب نشوار المضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ - ١٩٢١) الذى ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجايوت (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٣ .

(٦) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

(٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذي اتخذ من تقربه إلى القاططين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى تويه ، حتى إن أبا كاليبجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي القاططين في فارس ، الذي تقلد فيها بعد منصب داعي الدعوة في مصر ، وانهم باعتراف عقائد الاسماعيلية مذهب القاططين .

لكن المستنصر لم يفر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث الباسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ، ويتعهد له بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجريء هبة الله الشيرازي سفيراً من قبله لإثارة حسنة جند الباسيري ، وحشهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي . ولم يدخر الخليفة المستنصر القاططي وسعاً في إمداد الباسيري بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإغادهم إليه من بلاد الشام ، وأرسل إليه كتاباً يقول فيه : « ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في بلاد العراق ، والبرزين بنفسية سبق على أوليائه في فضائل الآفاق ، للشريين عن ساعد الجد بما يحمل عرشاتها بقبض عدله مشرفة بأنجم السعود ، ويعيد أحواد منارها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة السود ، مقسوة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان ، مقصورة غرفها^(١) على الثناء منها على أهل العدل والإحسان ، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أي يطوئك طوق ولاية رجالها ، ويقم على رأسك ، لمزية التقدم ، راية جمالها ، وبنوط بك أمورها كلها ، ويكل إليك عهدها وحلها^(٢) » .

ولم يكتمف المستنصر القاططي بذلك بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعماء الباسيري ، والحرب بزعماء ديس بن علي بن مزيد أمير عرب الفرات ، ولقبه بألقاب منها الأهم ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفي أمير المؤمنين ، كما منحه ولاية ما يفتح من البلاد شرق نهر الفرات^(٣) . وكان من أثر تدخل الخليفة القاططي أن انتصر الباسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ . وفي ذلك يقول ابن

(١) في الأصل فرقها وأمله تحريف من عرفها .

(٢) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، مخطوط بمكتبة جامعة قزوين الأول ، ورقة ١٨٤ .

(٣) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، ص ١٩١ — ١٩٣ .

منجب الصيرفي^(١) : « فأقام اليازوري أبا الحارث البساسيري مناصباً له ، وأمدّه بالمزيد في
الدين أبي نصر هبة الله بن موسى (الشيرازي) ، وأحبّه الأموال ، فبث إليه طنربك
ألفين وخمسمائة فارس إلى سنجار . فكانت الوقعة المشهورة التي ظفريها البساسيري ،
ولم يفلت من هذه المدة إلا مائتا فارس أو دونها ؛ وعمل الشعراء في ذلك ، فمن ما يبع ما قيل
قول ابن حبوس الشاعر الذي توفي بحلب سنة ٤٧٣ هـ^(٢) .

عجبتُ لدعي الأفاق مُلكاً وغايته ببندادَ الرُكودُ
ومن مستخلف بالمون يرضى يُبذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيفٌ بمصر تُقامُ به بسنجار الحدودُ

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة البساسيريين عند هذا الحد ، فقد استطاع هبة الله
الشيرازي أن يضم إبراهيم أخا طنربك إلى الفاطميين ، حتى أن « تكون الخطبة لم
(أي فاطميين) بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته »^(٣) . وكان من أثر ذلك أن ثار
إبراهيم بنال على أخيه طنربك ، واتهم البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى
على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن بسلة . لكن الخليفة
« استنم بدمام^(٤) قرش فجاء من القتل » . وفي ذلك يقول أبو الحسن^(٥) : « دخل
أبو الحارث البساسيري بغداد في ثامن ذي القعدة بالرايات المستنصرية ، وعليها ألقاب
المستنصر هذا صاحب مصر ؛ فمال إلى البساسيري أهل الكرخ ، وفرحوا به لكونهم
رافضة ، وادخلوا إلى البساسيري وكشفوا عن أهل السنة ، وشتمت أنوف الرافضة للناقضين ،
وأعلنوا بالأذان حتى على خير الملل ببنداد . . وخطب يوم الجمعة ببنداد للمستنصر بجامع
للتصور ، وأشأ بعضهم يقول :

(١) إشارة إلى من قال الوزارة ص ٤٤ .

(٢) انظر ترجمته في ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠ - ١٢ .

(٣) السيرة المؤيدية ص ٢٦٣ .

(٤) دمام الحرمة : يريد أنه تمنع منه بلعة قرش فجاء من القتل . في الأصل واستمر بزمم قرش

وهو تحريف

(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٠٦ .

يا بني العباس صُدُّوا ملك الأرض مَمْدُ
مُلْكُكُمْ كان مَسَارًا والمواري تُسْقَرُّ

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة هبة الله الشيرازي إليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري ، وعودة طمرليك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم بنال — كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخليفة العاطمين على منابر بغداد سنة كاملة .

٢ — مع الحمريين والمراسيين والعقبليين :

وعلى الرغم من أن الحمدانيين كانوا ، كبقية بويه ، يعطفون على الشيعة ويعلمون إلى مذهبهم ، كانوا يخشون ازدياد نفوذ العاطمين السياسي ، لأن في ذلك تهديداً لسلطانهم . لذلك نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام والخروج على العاطمين ، بعد أن كانوا يدينون لهم بالطاعة ويعلمون على نشر مذهبهم . فقد ذكر أبو الحسن ^(١) أن القرامطة بشوا إلى سيف الدولة « يستهدونه حديداً ، فسير إليهم كثيراً ، وحل ذلك إليهم في القرات ثم في البرية إلى هجر »

كذلك نرى الحمدانيين يساعدون الحسن الأعصم القرمطي في حروبه التي شنها على المعز لدين الله الفاطمي ثم على ابنه العزيز بالله . ولا غرو فإن جعفر بن فلاح القائد الفاطمي بعد أن استولى على دمشق ، هدد الحمدانيين في حلب بالاستيلاء على بلادهم إذا لم يقيموا الدعوة العاطمية على منابرهم . على أن هذا التهديد أثار سخط الحمدانيين ، فسلوا على مساعدة القرامطة بزعماء الحسن الأعصم بالمال والرجال ليمسكوا خطر الفاطميين عن بلادهم . ويقول النويري ^(٢) إن مختار بن مزم الدولة بن بويه طلب إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة ابن حمدان (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) أن يدفع إلى الحسن الأعصم « أربعمائة ألف درهم ؛ فرحل الحسن (الأعصم) حتى أتى الرحبة ، وعلبها أبو تغلب بن حمدان ، فحل إليه المال للمسبب

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٩٥ .

ذكر المعري (اتواط الحما ص ١٣١) هذه المسألة باختصار كبير ، من حين تناولها النويري في شيء كثير من التفصيل .

له به عليه ، وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول : هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه . وأنا مقيم فى هذا الموضع إلى أن يرد إلى حبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك .

ولم تكن علانة الفاطميين بالمحدثين فى عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ — ٣٨٤ هـ) على شيء من الصفاء ؛ فقد رأينا كيف أساء سعد الدولة معاملة رسول الخليفة العزيز الفاطمى حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بكجور ، وكيف أرسل إليه يتوعده بالمسير إلى بلاده . وعمل العزيز على الاستيلاء على حلب من يد أبى الفضائل سعيد ابن سيف الدولة (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) ، الذى لم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة إمبراطورهم باسيل الثانى . ولولا موت العزيز فى مدينة بلبس وهو فى طريقه إلى حلب ، لغلغ الحداثيون لسلطان الفاطميين قبل خضوعهم نهائياً لابنه الحاكم^(١) .

ذلك أنه لما صفا الجور لسعد الدولة الحداثى ، وأمن شر بكجور ، سار إلى الرقة ، وكان بها أبو الحسن بن المنزبى ، الذى كان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور كما تقدم . كما كان بها أولاد بكجور ، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعد قتل أبيهم . وقد كتب هؤلاء إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى يسألونه التدخل لدى سعد الدولة رجاء الكف عن أذاهم ، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإغاثهم إلى مصر . ولما وصل هذا الكتاب إلى سعد الدولة ، وكان قد بانغ ظاهر حلب ، أساء معاملة رسول الخليفة الفاطمى ، حتى إنه لما مثل بين يديه ، أمر بإعطائه الكتاب ولطمه وأرغمه على أن يأكله . فلما مضى ، قال له سعد الدولة : « عد إلى صاحبك وقل له : لست بمن تحبى أحبارك هنا وتمويهانك عليه ؛ وما بك حاجة إلى تجهيز الساكر إلى ، فإننى سائر إليك ليكون اللقاء قريباً منك ، وخبرى يأتيك من الرملة » . ثم أخذ سعد الدولة بعد السدة ، لولا أن عرضت له علته التى مات منها فى سنة ٣٨١ هـ ، لحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها^(٢) .

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه سعد الدولة ، وكان قد عهد إليه وهو فى مرضه الأخير ، وأوصى لؤلؤ الخادم به وبابنه الآخر أبى الميجاء وبأخته ست الناس . وقد أخذ لؤلؤ البيعة

لسميد الدولة الذي امتاز عهده بوقوع عدة مواقع بين جيوش الحمدانيين وجيوش الفاطميين ، الذين طمعوا في الاستيلاء على حلب ولثأر لما لحق بهم من إهانة رسول الخليفة العزيز . وكان أبو الحسن بن النعمان قد كتب من الكوفة إلى العزيز يهون عليه فتح حلب ؛ فأرسل جيشاً بقيادة منجوتكين الذي دخل دمشق ، حيث أخذ يعد العدة للاستيلاء على حلب من أبي الفضال سميد الدولة ولؤلؤ ، الذين استمانا بياسيل الثاني إمبراطور الروم . وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم ومطاردتهم إلى أنطاكية وإحراق ضياعها ، لم يتمكن من أخذ حلب بسبب قلة الأتوات ، وارتد إلى دمشق ؛ فأرسل الخليفة العزيز الجيوش لحصار حلب من جديد ، واستنجد لؤلؤ بياسيل إمبراطور الروم ، وكان مشغولاً بحرب البلغار ، ليحول دون وقوع حلب في أيدي الفاطميين ولحاق أنطاكية بها ، فسار بياسيل بنفسه واستولى على حمص وشيز وطرابلس ، وعاد منجوتكين إلى بلاده ^(١) . وعظم ذلك على الخليفة العزيز ، فخرج بنفسه لفتح حلب ، ولكنه مات في بلبس سنة ٣٨٦ هـ ^(٢) .

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور ، حتى وقع ابنه سميد الدولة في شر لؤلؤ الذي آلت إليه الرضاة عليه ، قطع في ولايته وقتله هو وابنته ، وكان قد تزوج منها ، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولده سميد الدولة : أبي الحسن علي ، وأبى للمال شريف . ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة ، وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ) . ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (سنة ٣٩٩ / ١٠٠٨) ، خلفه ابنه منصور الذي لقبه الخليفة الحاكم الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) «مرتضى الدولة» واعترف بسلطان الخليفة الفاطمي ، وذكر اسمه في الخطبة . ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين ، ولكنه قد توطن بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح فلام أبيه ، الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي ، فأقطعه صيدا وصور وبيروت ، ولقبه « مبارك الدولة وسدها » ، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم ^(٣) . وبذلك قضى الفاطميون في عهد الحاكم على حكم الحمدانيين في حلب .

(١) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV p. 149

(٢) ابن القلانسي : ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ابن السكيت : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

وقد أخذ المزمع من النزاع الذي نشب بين بني الحسن وبنو جعفر بن أبي طالب فرصة للتدخل في شئون الحجاز ، فأرسل الرسل سرّاً ومهم الرجال والأموال ليحقدوا الصلح بين الفريقين المتنازعين . وكان من أثر ذلك أن يادر الحسن بن جعفر أمير مكة إلى الهداء للمزمع إلى منابر مكة في سنة ٣٥٨ هـ^(١) . ولما اتصل هذا التبا بمسامع المزمع بث إلى وإلى مكة تقليداً بالحرم وما يليه . كما أقيمت الخطبة للمزمع الفاطمي بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسي منها . وعمل هذا الخليفة الفاطمي على توطيد أركان هذه السيادة ، فأخذ في سنة ٣٥٩ هـ «عسكراً وأعمال مال عدتها عشرون رجلاً لعمريين وعدة أحمال متاع»^(٢) . وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز جميعاً ، وظلت الخطبة تقام للمزمع حتى توفي سنة ٣٦٥ هـ ؛ وخلفه ولده العزيز . وفي عهد هذه الخطبة لفاطمين ، فولى إدريس ابن زيري الصنهاجي إمارة الحماح في سنة ٣٦٧ هـ ، فاستولى على الحرمين وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي^(٣) . ويظهر أن السيادة الفاطمية ظلت مزعومة الأركان حتى سنة ٣٨٠ هـ حين اضطّر العزيز إلى إرسال حملة حاصرت مكة والمدينة ، وأعادت الخطبة لفاطمين ، وقطعت الدعوة للعباسيين^(٤) . وظهر بنو الحسين أسراء مكة يذبون بالولاء لفاطمين ويسترون بنفوذهم على مكة ، برغم ما بذله العباسيون في عهد الخليفة القادر بالله من جهود ، وما أهقوه من أموال لكسب وده وقطع الخطبة لفاطمين .

ولما أحس الحاكم الفاطمي أن أسراء مكة تحذتهم أنفسهم بالخروج عن طاعته ، أرسل إلى مكة حملة ثبتت أركان السيادة الفاطمية ، وعزلت بنو مهنى من إمارة هذه المدينة^(٥) . وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ ، حين استطاع الوزير أبو القاسم بن النعماني أن يجرئ أمره على حلق طاعة الفاطمين ، ووزن له الخروج وإقامة الخطبة لنفسه ، فأصنى إليه شريف مكة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب الراشد بالله^(٦) ، وبايعه العرب بالخلافة.

(١) المقرئى : أتماظ الحفا ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) المقرئى : أتماظ الحفا ص ١٧٢ .

(٣) ابن خلدون - المبع ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ١٧ .

(٦) المقرئى : خط ج ٢ ص ١٥٧ .

فلم يجد الحاكم بداً من أن يكتب إلى أبي الطيب ابن م أبي الفتوح بتوليته الحرمين وبث إليه بخمسين ألف دينار عيناً ، هذا الهدايا والخلع . ونجح أبو الطيب في صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح والدخول في طاعة الحاكم . فلم يجد أبو الفتوح بداً من أن يكتب إلى الحاكم يستنذر إليه ويدخل في طاعته . ففأعنه وأعاد إلى إمارته ؛ وأقيمت الخطبة من جديد للحاكم الماطي ونقش اسمه على السكة^(١) . وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطمين في عهد الطاهر والمستنصر . وأطام شكر بن أبي الفتوح الدعوة للخليفة للمستنصر في الحرمين حتى توفي في سنة ٤٥٣^(٢) .

ولما ولي محمد بن جعفر بن أبي هاشم مكة ، بعد أن دال ملك بني سليمان ، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي ؛ فسير للمستنصر على بن محمد الصليحي إلى مكة في سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين . على أن مصر قد شنت في أواخر عهد للمستنصر بما انتابها من أزمات اقتصادية لم تستطع أن تحتفظ بالسيادة على بلاد الحجاز ، بعد أن اقتطع ما كان يرد إليها من مصر من أموال . فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسي ، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقي في سنة ٤٦٢ هـ . فبعث إليه ثلاثين ألف دينار وحلماً فقيه^(٣) . وبذلك انتهى نفوذ الفاطميين ببلاد الحجاز كما انتهى من بلاد المغرب ، وكان ذلك نذيراً بضياغ نفوذهم من صقلية .

٤ — مع الصليحيين في اليمن :

أما في بلاد اليمن فقد راجت الدعوة الإسماعيلية على يد علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ) وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد . وقد استمال عاصر بن عبد الله الرواحي دعى دعوة الإسماعيلية في اليمن ، على بن محمد الصليحي ، فضحول إلى للذهب الإسماعيلي وهو في حداثة سنه ، وتنفقه فيه ، ثم حل محل عاصر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيى الدعوة الإسماعيلية القديمة وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقض على منافقيه

(١) المفريزي : ضبط ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) بن خلدون المعرج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) ابن الأثير : للكمال ج ١٠ ص ٢١ .

(سنة ٤٣٩ هـ) . ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه في هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد للمستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برقيات وألقاب ، وعقد له الولاية »^(١) (سنة ٤٥٣ هـ) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان علي بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن ، واتخذ صنعاء حاضرة لدولته . ولما اتسعت رقعة دولة الصليحي وقضى على منافئيه ، أعاد الدعوة الإسماعيلية إلى ما كانت عليه في بلاد اليمن قبل وفاة ابن حوشب ، وأقيمت الخطبة للخليفة للمستنصر وعلى الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، وزالت الدعوة للياسين في هذه البلاد^(٢) . وكان علي الصليحي في الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة المستنصر ، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر . وبما بذل على هذه التبعية التي كان يدين بها الصليحيون لخلقاء الفاطميين هذه الرسائل التي تبودلت بين علي بن محمد الصليحي والخليفة المستنصر الفاطمي . فقد بعث المستنصر إلى علي بن محمد الصليحي في عيد الفطر من سنة ٤٥١ هـ برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده . وبما جاء في هذه الرسالة : « هذا سجل أمير المؤمنين وارد عليك في يوم عيد الفطر من سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . ونصرت الله تعالى عليه متظاهراً ، وجعل صنمه لديه متتابع متوافر . وقد أعاناه على قضاء فريضة شهر رمضان الذي شرّفه على الشهور ونزل فيه القرآن المستور ، فبرز إلى مصلاة في شيعته وأنصاره ودعوته ، محفوظاً بأوليائه وجنوده ، وجيوش دولته وعبيده ، وهم في أكل عذّة وأوفر عدد »^(٣) .

وقد بلغ من ثقة المستنصر بعلی الصليحي واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب الأمير الأجل شرف المالئ تاج الدولة سيف الإمام الظفر في الدين نظام المؤمنين ، كما لقبه أيضاً « منتخب الدولة وصفونها ذا المجدین متعجب الدولة وغرسها ذا السيفین نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضائل »^(٤) . كما عهد إليه المستنصر أمر إقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتهما إلى

(١) الحادي الجمال . كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٢ .

(٢) حسين المهدلي وحسن سليمان محمود . الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٦٢ .

(٣) سجلات وتوقيعات وكتب لحوالنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم ، مخطوط رقم ٢٧١٥٥ ، مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن ، نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (دار الفكر العربي ، القاهرة سنة ١٩٥٤) .

(٤) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٣ ص ٢٤ .

خطيرة الدعوة الفاطمية . وقد استطاع على الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرهما ، فأشاد المستنصر بغضه وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة »^(١) . وقال : « ورد إلى أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة ، حرسها الله ! يذكر أنك شددت معه حيازيم الجبل بالثقوية من أسره والشدة ، وشهرت في نصرته حساما ما مضى الحد ، حتى عاد جوح سراكب مراده ذلولاً ، وغرب (سيف) من انتصب لعناده (قتاله) مقلولاً . فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره ، وامتنار (من الميرة وهي المدد أو الثروة) سبحانه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل وشكر جزيل أعجب أمير المؤمنين بهما ... وعهد إلى صاحب مكة بأن يتخذك رداً في صلاح ما هو له ملبس ، وعهد إليك بأن لا ترع عنك ليس لإيائه (الولاية) الذي أنت لايس »^(٢) .

وقد كتب على الصليحي إلى المستنصر يدعى إليه نبأ ما أحرزه من نصر في بلاد الحجاز ، فرد عليه المستنصر رسالة جاء فيها : « وإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابان وردا منك ، أحدهما صدر منك من صنعاء بتاريخ شعبان من سنة خمس وخمسين وأربعمائة والآخر من مدينة المجر »^(٣) بتاريخ شوال من هذه السنة ، يتضمن الأول منها ذكر ما انتهى إليك عند قفوك من مكة ، حرسها الله ! من حال الخارجي الذي استهواه شيطانه ودعاه إلى مصرعه جبته وخذلانه ، وقيامه في قبائل مذحج والنخع وقبس ، فأطلق لسان النقي ، ودعا دعوة الإبهك والبقي ... وما كان من دولوك إليه في حزب الله المفلحين وأنصار دينه المخلصين . فاستبحت حماه وأبدت غصراه »^(٤) ، وجملة غلة للظالمين وهبة للمستبرين »^(٥) .

وكان الخليفة المستنصر يبحث إلى متى الصليحي بآبناء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليدمها على الناس ويصلها من فوق منابر البلاد . فلما أثار حرب بني هلال على إفريقية وهزموا لمزبن باديس في معركة حيدران ، بحث المستنصر إلى على الصليحي نبأ هذا

(١) جاء في الرسالة رقم ٢ (ص ٣٢) وقد عوطف بذلك بما يذكرونك ما يقوى نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك . وزاد أمير المؤمنين في نوته « عمدة الخلافة » لاعتاده عليك .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٣ ص ٣٧ .

(٣) وصحتها مبر .

(٤) أي الأرض الخضراء ، أي اكتسح أرضه .

(٥) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٤ ص ٣٩ - ٤٠ .

النصر ، فقال : أهلك أمير المؤمنين نبأ هذه المارقة الطارفة لتشره على الناس وتذبه في البراري والمحاضر إن شاء الله تعالى . . . وكتب في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة^(١) .

وقد بلغ من تعلق علي الصليحي بالولاية المستنصر الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلفائه ، وحث إليه بكتابه مع لاهي لك من مالك ، فأرسل الخليفة إليه كتاباً في جمادى الآخرة سنة ٤٥٩ هـ ، يأذن له بالحق إلى مصر . ولكن الصليحي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخف ابنه المكرم بصنماء ، واغتيل علي الصليحي على يد سعيد الأحول بن نجاح^(٢) وهو طريقه إلى مكة^(٣) .

ولم تفر العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوقاة علي الصليحي ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم . ذلك أن المستنصر ما كاد يسمع نبأ مصرع علي الصليحي ، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزيه في وفاة أبيه ويقره على ملكه ، ويعهد إليه بشئون الدولة الفاطمية في اليمن ، وينصح له بأن يسير سيرة أبيه في بسط العدل وحسن السيرة^(٤) . يتضح ذلك من رسالة المستنصر إلى المكرم يقول فيها : « وكان والدهك الأمير الأحول الأوحده أمير الأمراء عمدة الإمامة ، تاج الدولة شرف المال ، سيف الإمام المظفر في الدين ، نظام المؤمنين على ابن محمد الصليحي . . . ممن خدم الدين ، فأحدمه الله سبحانه الدنيا . . . هذا ولما عرف أمير المؤمنين أنك نجيب ، وابن نجيب ، وفرع من شجر سقى من ماء تهذيب ، رأى ، والله يوفيه ، أن يمد إليك بالاصطناع يداً ، هي الباسطة ليد أيك ، ويُطِيعُ نَحْوَكُ بِجَمِيلِ الْأَزْدَرِاعِ هَيْئاً يُقَرُّ اللهُ بِهَا عَيْنَهُ^(٥) فبك ، وأن يجعلك خليفة لدينه ودنياه ، وخلفاً صالحاً في

(١) المصدر نفسه رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٢) من بني نجاح باليمن .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤكد موته سنة ٤٥٩ هـ . راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن *The Letters of Al-Mustansir*

(B.S.O.S.), p. 323.

(٤) حسين الميداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٧١٦ .

(٥) أي عين الإمام .

بوى عاتقته وحياه ، وأن يشرفك من خاص ملابسه ما تباهى بمفاخره وتختال في فاخره ، وأن يزيد في ألقابك الزيادة الباق جلال ذكرها في ألقابك ، لنُدشّر في الحاضر ، وتتل من فوق^(١) النار . فليكن بقوى الله سبحانه وطاعته في سر أسرك وجهه »^(٢) .

ولم يفت للمستنصر أن يندق على المكرم الألقاب والنسب التي تقر به من الخليفة وتحببه فيه ، وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه ، فلقبه بهذه الألقاب المضحكة التي كانت مأوفاً في ذلك العصر . ومن هذه الألقاب : « أمير الأحرار شرف المال عز الملك متعجب »^(٣) الدولة وفرسها ذى السيفين أبي الحسن أحمد بن الأجل الأوحداً أمير الأحرار عمدة الخلافة شرف المال تاج الدولة سيف الإمام الظفر في الدين نظام المؤمنين^(٤) .

وتدرد للمكرم على هذه الرسالة رسالة أخرى يملن فيها ولاءه للقائمين وتمسكه بدهونهم . فقد أشار المستنصر إلى هذه الرسالة بقوله : « وإله عرض محضرة أمير المؤمنين كتابك : كتاب خير خلف خير سلف . ثبت في منبت الولاء والبراء ، وعُدَى من شجرة طيبة » أصلها ثابت وفرعها في السماء »^(٥) . فاعلم أنك خليفة في بلاد اليمن وعماده وعدته وسناده . . . واعتد شرائط ما نفذ إليك من سجل التقليد . يرفع الله به منارك »^(٦) .

وكان للمستنصر بهم بما كان يجري في بلاد اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر ووصق . فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول بن نجاح ، كتب إليه يملن مروره بذلك النصر ويرب عن اغتياله قوله : « فأما ما أقيته من ذكر الوقائع العظيمة التي تولّت شواهدنا وشمّت^(٧) بوارثها^(٨) ، فردك^(٩) الله رداء النصر والظفر ، حتى كان

(١) وردت في المخطوط المنشور فروق ولعلها فوق .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٢ ص ٣٣ .

(٣) وردت في المخطوط المنشور متعجب ، ولعلها متعجب .

(٤) المصدر نفسه رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ .

(٥) هذا اقتباس من سورة إبراهيم : ١٤ : ٢٥ .

(٦) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ و ١٩٨ .

(٧) نونل وشم بمعنى ارتفع .

(٨) من بارة أمل .

(٩) ردكك بمعنى أبلسك .

آخرها أن أمكك من ناصية للمون الذي فتك بآبيك . وقد عرف أمير المؤمنين ذلك معرفة فَرِحَ به مسروراً^(١).

وهكذا تتابعت كتب المستنصر القاطن إلى المكرم الذي ظل على ولايته لقاطنيين ، حتى لقد ولاه الخليفة القاطن ولاية عمان في سنة ٤٦٩ هـ ، كما أمره بأن يعمل على تثبيت السيادة القاطنية في بلاد الحجاز ، وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي الملوي أمير الأحساء . وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ٤٧٠ هـ ، بعث المستنصر يفتيه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالي وإلى عكا منصب الوزارة ، وما بذله من جهود في سبيل إقرار الأمن والسكينة في ربوع البلاد . وما جاء في هذه الرسالة :

« قد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رمياً ، ونصر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشياً . لم يكن لأمبر المؤمنين في أن رقيه في الرفع والإعلام فوق الترقيد ، ويحمله منه محل الوالد ، ويحمل له مقام الملك ، وينزله في عقد خلافة الإمامة مكان الملك ، فنص عليه في كفاة قضاء المسلمين وهداية دعاة المؤمنين نص حق ، ونقلها منه إلى محق مستحق ، إذ كان ميرزاً في ميدانها ناطقاً بلسانها علماً بأحكامها » ، وطلب المستنصر في نهاية رسالته إلى المكرم أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته فقال : « فوالله وجهك نحو هذا السيد الأجل ، واجعله قبلة دينك في مصادرك ومواردك »^(٢).

توفي للمكرم في سنة ٤٨٤ هـ ، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر . ولكن زوجته السيدة أروى الحرة لم ترض بهذا الاختيار ، لأنها كانت تريد أن تولى ابنها عبد المستنصر ، وكان لا يزال طفلاً . وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن^(٣) ، ووافق الخليفة القاطن على هذا الطلب ، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر . ولكن أسراء اليمن لم يعترفوا بهذا التلام ، ومن ثم احتدم النزاع بين الهاماني أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان بن الأمير

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨ .

(٢) راجع Al-Hamdāni, Letters of Al-Mustansir Billah, B.S.O.S. (1934), vol. vii, part II, p. 317-318.

(٣) حسن سليمان محمود . الملكة أروى ص ٢٤ - ٢٥ .

الزواحي ، وهدد هذا النزاع بين الصليبيين والزواحيين النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن نهدياً خطيراً ، فأرسل المستنصر إلى طرفي النزاع ينههم عن هذا الخلاف ، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ، ويشيد بالخدمات التي أدائها على الصليحي وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة ، فقال : « فهو يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأواحد للصور العادل المكرم ، عمدة الخلافة ، تاج الدولة ، سيف الإمام ، المظفر في الدين ، نظام المؤمنين ، عماد الله ، غياث الأمة ، شرف الإيمان ، ومؤيد الإسلام ، عظيم العرب ، سلطان أمير المؤمنين ، وعيد جيوشه — عبد المستنصر ... كما قد فرض الله عليكم من طاعة أمير المؤمنين ، ويأمركم أن تعتمدوا الجدة والتشهير في متابعتها ومناصرتها ... وأن تخصوا النيات في موافقتها وطاعة والدهته الحرة الملكة السيدة السديدة المخلصة المكينة ذخيرة الدين عمدة المؤمنين »^(١) .

ويظهر أن النفوذ الفاطمي كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه . يدل على ذلك أن طرفي النزاع استمعا لنداء الخليفة ولتيا رجاءه وأيدا للسيدة الحرة وابنها عبد المستنصر . وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمي ترفاً إليه هذا الترف . فرد عليها برسالة يبدى فيها سروره واغتباطه فقال : « وأما ما كان شجر بين السلطابن الأجلبين أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي ، وأبي الربيع سليمان بن عاصم الزواحي ، أعزهما لله ! فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتبانك ... بما كان من تشدد^(٢) السلطان أبي حمير سبأ في جميع ما جرى بينه وبين السلطان أبي الربيع ... وما قرظته به من حسن الطاعة ولين قيادة في الموافقة والمبايعة ، وإيفائه^(٣) على ما طلب منه من المساعدة والمساعدة ولو كان مهضوما فيه »^(٤) .

على أن عبد المستنصر لم يصر طويلاً ، فقد وافته المنية ، واحتدم النزاع بين الداعي سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة ، لأنه كان يريد أن يؤول إليه حكم بلاد اليمن وأن

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣٨ من ١٣١ .

(٢) أي أنه عاد إلى الرأي السديد .

(٣) أي وفائه .

(٤) المصدر نفسه ، رسالة رقم ٣٦ من ١٢١ .

يتزوج منها . ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك . وطلب سبأ بن أحمد مودة الخليفة العاطلي وطلب إليه أن يتدخل في أمر هذا الزواج ، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه ، وقال لها رسوله : « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحى المنصور المظفر ، عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عينا وخسون ألفا أصنافا من تحف وأطاف »^(١) . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلبى نداء الإمام العاطلي ، ورضيت أن يتزوج بمن تكرهه . وإن دل هذا على شيء ، فأما يدل على ما كان للخلفاء العاطليين من نفوذ وروحي في بلاد اليمن ، لأن السيدة أرزوى اعتبرت الخروج على أمر للخليفة خروجاً على الدين .

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر ، تراسله وتراسل أمه وأخته ، حتى وثق بها هذا الخليفة كل ثقة ، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية في المند وفي عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد^(٢) . كما ظلت العلاقة بين الصليبيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر في سنة ٤٨٧ هـ . فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلى برغم أنه لم يفز بإجماع أنصار العاطليين في مصر . فقد عمد الأفضل بن بدر الجبالى على إقضاء نزار بن المستنصر عن العرش ، وبايع أخاه أبا القاسم أحمد ، ولقيد المستعلى ، بعد أن هدد الأمراء وحلهم على تأييده . وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة ، يرجع تاريخها إلى ٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ ، يصف فيها ثورة أخيه نزار وتقلب وزيره الأفضل عليه ، وما كان من اعتقال نزار وإقضاء على ثورته^(٣) .

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية في اليمن بما أصاب العاطليين من نزاع وفتنة إثر وفاة الخليفة للمستنصر ، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة الخليفة المستعلى وتدين له بالولاء ، وذلك برغم

(١) عمارة اليمن . تاريخ اليمن ص ٢٢ - ٢٣ حسين الحميداني وحسن سليمان محمود : الصليبيون والحركة العاطلية في اليمن ص ١٥٧ .

Al-Hamdani, Letters of al-Mustansir Billah, B.S.O.S. (1939), vol. VII. part II (٢) p. 321.

Al-Hamdani, Ibid., p. 318. (٣)

جمال الدين سرور : الدعوة العاطلية في جزيرة العرب ص ٨٥ .

تقضى النزارية وتأييد الخولانيين لم ، مما هدد بلاد اليمن مثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع . ولما علم الخليفة الأمر (٤٩٥ — ٥٤٤ هـ) بذلك ، أرسل الداعي على بن إبراهيم ابن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن في سنة ٥١٣ هـ ليقيم إلى جانب السيدة الحرة ويُسَيِّمها في صراعها مع أعدائها . وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة في تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها^(١) . كما أرسل المأمون البطائحي وزير الأمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان ، تشد أزره في نضاله مع أمراء اليمن . ولكن هذا الداعي الفاطمي خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية ؛ فأرسل الخليفة الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩) يطلب منها تسليم ابن نجيب الدولة ، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل^(٢) .

وقد حفظ الأمر للسيدة الحرة إجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره ، فأرسل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ بشرها بمولود ولي عهده أبي القاسم الطيب ، ويطلب إليها أن تذب هذا النبأ في بلاد اليمن^(٣) . ولما قتل الخليفة الأمر في سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد ابن محمد بن المستنصر نفسه أمر ابن الأمر الهادي وقد في هذه السنة ووقع ولاية العهد « إلى أن تنكشف أحوال نساء الأمر هل فيهن حامل أم لا » . وبذلك صرحت الخلافة عن الإمام الطيب بن الأمر ، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة ، فاعتبرت إمامة الحافظ ماطلة ، برغم ما بذل من جهود في سبيل استئانته إليها ، لأنها كانت قد تلقت رسالة الأمر الهادي بشرها فيها بولادة ابنه الطيب ، ونظرت إلى الحافظ بنظر المتعصب وقالت : حَسْبُ بَنِي الصليحي ما علموه . ن أمر مولانا الإمام الطيب^(٤) ، وظلت تدعو الطيب على منابر بلادها ، بل حملت على إقامة الدعوة له في بلاد الحجاز . ولم يجد الحافظ بداً من أن يرسل إلى آل زُرَّع في اليمن يطلب إليهم أن يدعوا له ، وقبله على بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه « الداعي لعظم اللوح الكسبي بسيف أمير المؤمنين » .

(١) حسين الحمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ١٦٨

وما يليها

(٢) حمزة اليماني : تاريخ اليمن ص ٤٣ — ٤٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٢ ، انظر أيضاً حسين الحمداني وحسن سليمان محمود :

الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٨ .

(٤) حمزة اليماني : تاريخ اليمن ص ١٠٢ .

وذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين : فريق يؤيد العاليم ، وفريق يؤيد الحافظ . ولم يكن يد من أن تسوء أحوال بلاد اليمن بسبب هذا الانقسام ، ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة في سنة ٥٣٢ هـ ، في الوقت الذي آذنت الخلافة الفاطمية نفسها بالزوال ، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنگي أن تدخل في شئون مصر ، وتقلد صلاح الدين الوزارة ، وقضى على الخلافة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وتطلع إلى بلاد اليمن ، فأرسل حملة بقيادة الأمير توران شاه ، الذي استولى على هذه البلاد ، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها ، كما قضى على النفوذ الفاطمي في مصر نفسها .

٥ — مع الأمويين في الأندلس :

كان المدا بين بني أمية ونبي هاشم قديماً باقي الأثر في الجاهلية والإسلام ، وكان العلويون يعتقدون أن الأمويين اغتصبوا حقهم في الخلافة . فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، زاد حقد الأمويين في الأندلس على هذه الدولة الشيعية ، بسبب اختلافهم وإيادهم في المذهب الديني ، وبسبب المدا التقليدي الذي استمر بين البيتتين الهاشمي والأموي ، وقرب الدولتين ببعضهما من بعض .

وكانت بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة في الشمال يطعمون في توسيع أملاكهم جنوباً ، ولا سيما بعد استيلائهم على برشولة ، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين . وكان الأخيرون أشد خطراً على بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر حيث خلع موسى بن أبي العافية الذي استحوذ على الثرين الأقصى والأوسط طاعة عبيد الله المهدي الفاطمي ، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي ، الذي استولى على سبته وخطب له على منابر المغرب . ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام الجيوش الفاطمية ، ثم أعيدت مرة أخرى في عهد القائم الفاطمي

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدياً ، فبنى أسطولا من مائتي سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح في السالم الإسلامي ثلاث خلافتات : الخلافة

العباسية في المشرق ، والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس ، وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وازدهار دولته ، وارتقاع شأنها في الداخل والخارج . ويقول القزويني^(١) عن عبد الرحمن : « وهو أول من نسي منهم بالأندلس بأمر المؤمنين عندما التأث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى فترك على بني العباس ، وبلته أن المقتدر قتله مؤنس المقتدر مولاه سنة سبع عشرة وثلثائة^(٢) » ، فتقرب باللقاب الخلافة .

وقد أورد المؤرخون طرفاً من الرسائل التي تبودلت بين العزيز بالله الفاطمي والحكم المستنصر الأموي (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . ذكر ابن خلكان^(٣) أن العزيز كتب إلى الحكم المستنصر يسبه ويهجو ، فرد هذا عليه بقوله : أما بعد ، قد عرفنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبتك . ويقول ابن خلكان أيضاً إن العزيز لم يرد على الحكم وأنه تألم لذلك أشد الألم . ولكن المعنى^(٤) ذكر أن الحكم كتب « إلى العزيز صاحب مصر كتاباً حجاباً فيه وفي أهله ، وأنه دعي في نسيه ، وأن جده القداح باطنى وكتب في أول كتابه :

ألسنا بنى مروان كيف تقلبت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر ؟
فلما وقف العزيز عليه كتب في أوله :

إذا ولد المولود منا تهلت له الأرض واهتزت إليه النابر
عرفنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك ، والسلام .

كذلك بحث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغربين الأقصى والأوسط ، وطلب له على منابرهم ، وأبطلت الخطبة لفاطمين ، كما قضى على نفوذ الأدارسة بنو يحيى الريف^(٥) .

وفي عهد الخليفة الحاكم الفاطمي (٣٨٦ — ٤١٠ هـ) ظلت العلاقة متوترة بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة الأموية في الأندلس التي كانت تتحين الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية الشعبية في مصر . وقد ظهر ذلك واضحاً في التوردة التي قام بها أبو ركوه^(٦) القتيبي

(١) نقه الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٦

(٢) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٣٠ هـ

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٤) عقد الجمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٢٩٦

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦

(٦) سمى بذلك لركوة كان يحملها في أسفاره على ستة صوفية

ينتى إلى هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى ؛ وكان يدعو له هشام بن الحكم المستنصر الأموى بالأندلس . وتيمه كثير من الناس ، وعظم أمره وسار على رأس جيش كبير إلى برقة ، واستولى عليها بعد أن هزم جيوش الحاكم . ولم يقتصر أمره على ذلك ، بل ضرب عملة جديدة واستحوذ على كل ما كان بدار الإمارة من الأموال .

ولما علم الحاكم بما قام به أبو ركة اضطرب اضطراباً شديداً ، وأعد للمدة لمحاربه ، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة « ينال الطويل » أحد قواد الأتراك . غير أن هذا الجيش كان معظمه من قبيلة كتامة التى لم تكن راضية عن هذا القائد التركى . لذلك لم يلبث أبو ركة أن أوقع بجيش ينال الهزيمة وأسره . وقال له : « إلتن الحاكم ! ، فبصق » ينال » فى وجه أبى ركة ؛ فأمر هذا به قطع إزباً ، واستولى على مائة ألف دينار كانت معه ، فتوى بذلك أمره وزاد خطرته على مصر ، فجهز جيشاً كبيراً من الشاسين والعلان المدانية . فحلت الهزيمة بجيش الحاكم أولاً ، ثم التقوا بأبى ركة فهزموه وقتلوا نحو ثلاثين ألفاً من جنده ، وسيروا رأس أبى ركة إلى الحاكم ، فأمر بصلب جسده ، وأقطع الفضل بن عبد الله إنطاغات كثيرة مكانة له على قضائه على ثورة أبى ركة . ولم يلبث الحاكم أن جزاه جزاء سمار ، فقبض عليه وقتله ^(١) .

٦ - مع المغرب وصقلية :

ذكرنا من قبل ما كان من تأييد صنهاجة ، أعظم قبائل البرانس وأوفرها قوة وأشدها خطراً ، للدعوة الفاطمية ووقوف أفرادها إلى جانب كتامة حليفة العاطميين ، ومساندتهم فى الجهود التى بذلها العاطميون فى سبيل تأسيس دولتهم ، وبسط سلطانهم على كافة أرجاء بلاد المغرب ومناضلة الأمويين فى الأندلس . فقد أيد زيرى بن مناد زعيم صنهاجة وصاحب الكلمة الأولى فيها الخليفة الفاطمى الثالث ، وهو المنصور بن القائم ، فى صراعه مع أبى يزيد محمد بن كيداد . ولولا جهود زيرى الموقفة لما استطاع الفاطميون أن يقهروا ذلك الخارجى الذى كاد أن يديل دولتهم ويقضى على جهودهم ^(٢) .

(١) أبو الحسن : ج ٤ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياسهم الداخلية ص ٢٥ - ٢٦ .

فلما آلت الخلافة إلى المزم، عظمت ثقته بزري بن مناد وقره إليه، وولاه على المغرب الأوسط؛ فبنى مدينة أشهر التي أضحت حاضرة الزيريين في هذه البلاد. ولما اشتبك الفاطميون مع الزمانين بالمغرب الأوسط كان زري وصنّاعة من خلفه أول من خف إلى شد أزره انتقاماً من زناة عدوهم التقليدي. فلما انتصر الفاطميون على الزمانين وبدأت كتابتهم تظاً أرض المغرب الأقصى كان زري بن مناد ساعد جوهر الأيمن في حصار قاس وفتحها، واستطاع الفاطميون بمونة الكساكين والصنّاعين أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأقصى حتى بلغوا المحيط الأطلسي، وأصبحوا بحيث يستطيعون أن يقفوا بالمرصاد للأمويين الذين لم يجاوزوا مدينة سيده.

ولما تم الفاطميون فتح مصر، وأحبوا أن ينقلوا مقر خلافتهم إلى القاهرة، لم يكن بد من أن يستخلفوا صنّاعة التي وقفت إلى جانبهم في أملاك الأوقات. ولما كان زري ابن مناد قد قتل في صراعه مع زناة وخلفه ولده بلسكين، لم يجد المزم بداً من أن يولي بلسكين بلاد المغرب، فبعث في طلبه فجاء إلى القيروان حيث خلع عليه، وسماه يوسف، وكفاه أبا الفتوح. وفي يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ، غادر الحليفة المزم مدينة المنصورية حاضرة خلافته استمداداً للرحيل إلى مصر، فولى بلسكين مقاليد إفريقية وقال له: «يا يوسف! إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر^(١)، ولا تول أحدًا من أهل بيتك فإهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك^(٢)». وهكذا تمت البيعة لبلسكين، وانتقل الفاطميون إلى مصر، وقامت دولة بني زري بإفريقية.

ولكن سادة الفاطميين لم تزل عن بلاد المغرب برحيلهم إلى مصر، لأن بني زري أسسوا دولة تتمت باستقلال ذاتي، ودخلت في دائرة الإمبراطورية الفاطمية، ودانت بالتبعية للخليفة الفاطمي بالقاهرة. وخطب الفاطميون على منابر المغرب، وضرت السكة بأسمائهم. وقد أورد لينبول^(٣) طائفة من الدنانير التي ضربت بأسماء الخلفاء الفاطميين

(١) يقصد بذلك الزمانين، لأن صنّاعة كانت تنسب إلى العرب وتبهرأ من البربر.

(٢) ابن حنّاب: البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٧.

(٣) Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Knedivial Library, pp. 152-187.

بمدينتي المهدية والمنصورة ، وبين أن النقود ظلت تضرب بأسمائهم حتى سنة ٤٢٩ هـ . ومن هذه الدنانير مثلا دينار ضرب في عهد الخليفة المزمّل حين الله كتب على الوجه الأول : « محمد رسول الله وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعلى الثاني : باسم الله ضرب هذا الدينار بالمنصورة سنة ثلثمائة وإثنان وستون دعا الإمام معد لتوحيد الإمام الصمد ، المزمّل حين الله أمير المؤمنين » . وثمة نقود أخرى ضربت بإفريقية في عهد بني زيري ترجع إلى همود المزيّز والحاكم والظاهر تعرف بهذه التسمية الروحية للفاطميين . ولم تكن هذه التسمية مقصورة على نقش اسم الخليفة الفاطمي على السكة ، أو ذكر اسمه في الخطبة ، بل كان بنو زيري يرسلون الجزية إلى مصر في كل سنة^(١) .

وكانت السيادة الفاطمية على إفريقية في عهد بلكين بن زيري تكاد تكون تامة ، والتجبة إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة تكاد تكون مطلقة . فقد ذكر ابن الأثير^(٢) أن الخليفة المزمّل ولي زيادة الله بن القديم على جباية الأموال ، وولى عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف الموحدى الخراج . ولم تكن هذه الإجراءات بما يضيق به بلكين ، لأن الفاطميين كانوا أصحاب الفضل فيها وصل إليه بنو زيري من هبة وسلطان . وكان بلكين يصدر أوامره إلى عماله « بوصفه خليفة السلطان ونائبه »^(٣) . وكانت السجلات ترد على بلكين من القاهرة فتصله على البريد في فاس ، ثم يرجع بها إلى عامل إفريقية^(٤) ، فقرأ بمد مدة من تاريخها^(٥) . وكانت الجزية ترسل من إفريقية إلى مصر . فقد ذكر ابن عذارى^(٦) أن عامل القيروان كان يجمع الأموال ويبيع بها إلى مصر .

وكان الخلفاء الفاطميون يقرون الأمراء على ولايتهم ويثبتون بسجلات إلى ولاية

(١) السامري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) الكامل ج ٨ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن أبي دينار : المؤقت في أخبار إفريقية وتونس ص ٣٧ .

(٤) لأن بلكين كان يحارب في منطقة فاس وكان له نائب في القيروان .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٨ .

العهود ، وتؤخذ البيعة لمؤلاء الخلفاء في بلاد المغرب . وكان أمراء بني زيري يلبون أوامر الخليفة بالقاهرة دون غشاضة أو ملل . فقد كتب الخليفة العزيز إلى بلكين بأمره بمساعدة الحسن الإدريسي^(١) في حربه مع الأمويين بالمغرب . كما أرسل إلى المنصور بن بلكين يطلب إليه عزل أحد القضاة ، فلم يتوان في تنفيذ أمره وحمل القاضي إلى مصر وهو على فراش المرض^(٢) . وكان الخلفاء الفاطميون يرسلون إلى بني زيري يطهون النجدة كلما أهوزتهم الحاجة إلى الرجال .

وقد استمرت هذه التهمة لفاطمين حتى ولي المزم بن باديس الذي خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلي ، وشد أزر أهل السنة^(٣) ، ودخل في طاعة الخليفة العباسي ، فدعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة . ويؤيد هذه التهمة ذلك الدينار الذي ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه : الوجه الأول : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . لا إله إلا الله وحده لا شريك له . محمد رسول الله . الوجه الثاني : باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القبروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله »^(٤) .

كما خطب للخليفة العباسي القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القبروان ، وجاء في الخطبة : « اللهم المن الفسقة الكفار والمارقين الفجار ، أعداء الدين وأنصار الشيطان ، المخالفين لأمره والناقضين لهده ، المتبعين غير سبيله ، والمبدلين كتابه . اللهم الضمهم لنا ويلاً واخزهم خرباً عريضاً طويلاً ، اللهم إن سيدنا أبا تميم المزم بن باديس بن المنصور القائم لدينك والصر لسنه نبيك ، والرافع لقواء أوليائك ، يقول مصداق لكفالك وتاباً لأمرك مدافعاً لمن غير الدين وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تمبدون^(٥) . كما أمر المزم بلبس السواد شعار العباسيين ، فصنع أعلاماً سوداً وملابس سوداء لرجال الدولة^(٦) .

(١) السلاوي . الاحتجاب ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٥٧ .

(٣) حسن أحمد محمود ، بنو زيري وحياتهم الفاطمية ص ١٧٤ .

(٤) Katalog der Orientalischen Museen, vol II, p. 210.

(٥) ابن عذاري . البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٠ .

هكذا انتهت السيادة الفاطمية على بلاد المغرب . وإن من يقتنع العوامل التي أدت إلى هذه النتيجة ، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية في القيروان على أمور الدولة الزيرية ، في الوقت الذي شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمي بالفتن والثورات والجماعات .

ولم يقف المستنصر الفاطمي من هذه الأحداث الخطيرة التي تمحضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج ، فقد عمل على الانتقام من بني زيري الذين خرجوا عليه برغم ما أساء آذوا . لم من مآثر ، « فاطلق نحوه (المزين باديس الصنهاجي) من أجنة قبائل الرياحية والزغبية^(١) من منعه أن يبل ريقاً ، وسد لأفغاسه طريقاً ، ورمى به في أسر حصار لا يكاد يكون منه ملقياً » . وقد خرجت قبائل هلال وسلمة وزغبة ورياح وعدى والأبيج من مصارهم صعيد مصر ، وانقضوا على إفريقية ، وأوقفوا المزمع ابن باديس في موقعة حيدران^(٢) ، ودخلوا القيروان وخرّبوها ، وأتوا على تراثها الزمعي ، وضف ملك بني زيري بعد ذلك حتى لم يعد ملكهم يجاوز أسوار مدينة المهديّة^(٣) .

وقد طرب المستنصر الفاطمي لمزبحة الزيريين ، لأنه استطاع أن ينتقم لنفسه منهم ، وغير من سروره في هذه الرسالة التي بث بها إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن . وقد جاء فيها : « وإنه حلف ابن باديس العيين محصوراً في متفاه^(٤) من الأرض ، محمولا على شفاجر^(٥) [من] الأخذ والقبض . قد مر^(٦) الردى له فله ، ولن يعد بمون الله أن يلتصمه . وأسير المؤمنين يسأل الله جلت عظمتة معونته على شكر نصه التي هو عن القيام بواجب ألقها محصور ، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ، ويقول : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لنفور شكور . أهلك أمير^(٧) وسنين نيا هذه العارفة الطارقة لتشره

(١) من بطون بني هلال الذين استقروا بصعيد مصر في عهد الفاطميين .

(٢) ضمت المنطقة الفاطمية في إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر في طريقهم إلى بلاد المغرب في سنة ٤٤٠ هـ . ووقعت موقعة حيدران في سنة ٤٤٣ هـ ، أي أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ - ٤٤٣ هـ) .

(٣) حسن أحمد محمود : بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) أي منى .

(٥) قصر فاء أي تشبه .

على النابز وتذبه في البوادي والحواسر إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ^(١) .

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين في المغرب ، حتى قامت دولة الموحدين على يد أبي عبد الله محمد بن تومرت ، الذي تلقب بلقب المهدي . ولما توفي سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) تم خلفه عبد المؤمن بن علي ، الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي المقتفي ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين ^(٢) . والآن فننقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية :

ظل ولاية صقلية من قبل العاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجري في نزاع متصل مع الروم . وكان لهذا أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه الجزيرة . فلما ولي الأكل أمور هذه الجزيرة ، جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أرفعكم من الإنريقيين الذين شاركوكم في بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرفنا شيئاً واحداً ^(٣) . على أن الأكل لم يسمع بذلك ، وأرسل إلى الإنريقيين من أهل صقلية ، فلبوا طلبه . وظهر بحسب أملاكهم ، وبأخذ الخراج من أملاك أهل الجزيرة . غير أن هذه السياسة التي اتبناها هذا الوالي أسادت إلى أهالي صقلية : فصار فريق منهم إلى المزيين باديس الصنهاجي أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم ، وقالوا له : « نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلطنا البلاد إلى الروم » . فسير معهم ابنه عبد الله ^(٤) . فلما دخل المدينة ، حاصر الأكل وقته . وثار فريق من الأهالي وولوا عليهم حسنا الصمصام أخا الأكل . ولكن هذا الوالي لم يكن حسن السياسة ، فثار عليه أهل الجزيرة ، واستمان بعضهم بالقرنجة ومنوم الاستيلاء على الجزيرة ، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى السلون ما حل بهم من المزعجة ، سار فريق منهم إلى المزيين باديس وطالبوا إليه العون على طرد الروم . فأرسل إليهم أسطولا لم يتم رجاله بالمهمة التي أوفدوا من أجلها ، وغرق أكثرهم . ولم يلبث أن توفي ابن باديس ، وخلفه ابنه تميم ، فأبطل ذكر

(١) سجلات وتوقيعات الإمام المختصر بالله ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٢) أبر الخامس ج ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) أماري : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢ وما يليها .

(٤) الصلبر نفسه والجزء والصفحة .

اسم الخليفة المستنصر الفاطمي من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ ونشر الدعوة للقائم السباسي . وبذلك تقام نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب وصقلية . وظلت الدعوة تقام لبني السباس في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم .

أرسل تميم بن المزين مادي أمير إفريقية أسطولاً لمساعدة المسلمين في صقلية على طرد الروم منها . ولم يكذ هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم بن المز . وانتهم الترمنديون هذه الفرصة ، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وشغورها ، وضيقوا الخناق على المسلمين حتى ضاقت بهم سبل العيشة . وظلت الحرب مشتعلة بينهم وبين الترمنديين زمناً طويلاً حتى اضطر المسلمون إلى التسليم وتم لروجر الترمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ ^(١) .

وهكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها في صقلية بعد أن قام ولائها بكثير من الإصلاحات فيها ، ونشروا في بلادها ألوية العدل ، وهنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت فيها الخيرات ، وافتن أهلها في ضروب الترف والنعم . وظل المسلمون لا يماززون عن النصارى في شيء : يتمتع كل منهم بحقوقه وأسلوب عيشته . وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين ، فانتدبن النقاب للونه ، وانتعلن الأخفاف للذهب ، ولبسن الحرير الموشى بالقصب ، وتزين بكل ما يزين به المسلمات . ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

وتد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية . ويرجع ذلك إلى انشغاله بإخماد الفتنة الداخلية التي سببها الغلاء والوباء وأدى إلى ضعف مصر . كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحي في اليمن سنة ٤٧٣ هـ .

ولم يكف الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية ، بل تابخوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية الشمالى ، فاستولوا على المهديّة ، حاضرة الدولة الفاطمية الأولى ببلاد

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢ .

الغرب^(١). وظلوا بها إلى أن أجلاهم الموحدون عنها على يد عبد المؤمن بن علي، الذي حشد في سنة ٥٤٠ هـ جيشاً غزاه شمال إفريقية، فاستولى على للربيع الأقصى والأوسط، واشتبك مع القرمطين في تونس وأجلاهم عنها، ثم تابع سيره شرقاً حتى بلغ حدود مصر الغربية، فضم طرابلس وبرقة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى حيث حانت مدينته سنة ٥٥٨ هـ. شهد عهد المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري على ما تقدم. كما قطع كل من أمر مكة والمدينة الخطية لهذا الخليفة سنة ٤٦٢ هـ على أثر إقطاع الأموال التي كانت ترد إليهما من مصر وخطبا للقائم العباسي، وبشا إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي ببتداد هذه الأبناء، فبث إلى كل منهما بالأموال. كما قطعت الدعوة للمستنصر الفاطمي على أثر وفاة الصليحي في اليمن سنة ٤٧٣ هـ.

٦ — مع البيزنطيين :

أما علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية فإن الخليفة العزيز أرسل في سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لنزو بلاد الروم؛ فبرأ هذه الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله لاحتراق صراكبها. ثم قدم إلى مصر رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها :

١ — إطلاق سراح أسرى المسلمين في بلادهم

٢ — الهدايا للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة

٣ — حل ما يطلبه الخليفة من أمته الروم

٤ — عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين^(٢).

وقد علق ستانلي لينبول^(٣) على هذا الصلح بقوله : « ويظهر أن العلاقات السياسية بين البيزنطيين والفاطميين كانت على شيء من الصفاء في أواخر خلافة العزيز بالله

(١) بن الأثير ج ١٠ ص ٦٨ .

(٢) أبو الحسن : التيجون الزاهرة ج ٤ ص ١٥٩ - ١٥٢ .

(٣) History of Egypt in the Middle Ages, pp. 147 - 8 (٢)

الفاطى « . ودلل على هذا القول بأن إمبراطور الروم أهدى إلى العزيز هدية فيها ثمان وعشرون صينية من الفضة وأطباق محلاة بالذهب .

وكانت بلاد الشام التى كانت تابعة للفاطيين إذ ذاك مركزاً لصراع بين هؤلاء وبين البيزنطيين ، فقد حمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوباً فى هذه البلاد ، وأعد لذلك حنتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحراً بالقرب من طبرية ، وانتصرت الأخرى براً بالقرب من قامية .

ولما علم إمبراطور الروم بما حل ببيشه من المزعجة أرسل رسولا من قبيلة لمناوذة الخليفة الفاطى فى الصلح ، فأعد الحاكم الهدية لاستقبال هذا الرسول ، فأمر بتزيين قصره ، ونم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضى وقف الحرب بين الفريقين عشرين^(١) .

ولما ولي الخليفة الظاهر الفاطى الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين . فى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) مقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن ، وتقضى بإقامة الخطبة للخليفة الفاطى فى مساجد بلاد الروم ، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم قد هدمها ، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام فى عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم^(٢) .

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين فى القسطنطينية إلى استئلال هذا المظهر الإسلامى فى علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطيين تارة وللمباسبين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد تارة ويسيدون ببناءه تارة أخرى ، تبعاً للظروف والأحوال التى تلائم مصالحهم ، ويهددون بذلك المسلمين ، إذا تعرضوا لكنيسة القيامة ببيت المقدس .

ولكن على الرغم من عقد هذه الهدنة التى قامت على أساس حسن التفاهم بين الدولتين ، نجد البيزنطيين ينقضونها ، وينضمون إلى أعداء الفاطيين وينفرون على بلاد الشام . ويقول أبو القدا^(٣) : « فى سنة ٤٢٢ هـ سارت الروم ومهم حسان بن مفرج

(١) أبو الحسن : فتوح الأمانة ج ٤ ص ١٩٢ Lane—Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 136

(٢) المقرئى : خطب ج ١ ص ٣٥٥

(٣) المنصور فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٨ .

الطائي ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من عسكر الظاهر العلوي ، فإرسل الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا إلى قامية فكسبوها ، وغنصوا ما فيها وملكوا قلمتها ، وأسروا وسبوا .

وكانت العلاقة بين الدولة العاطمية والإمبراطورية البيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء ؛ ففي سنة ٤٣٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١) على أن يطلق الروم « خمسة آلاف أسير ليتمكن من محاربة قمة التي كان قد خربها الحاكم في أيام خلافته : فأطلق الأسرى ، وأرسل من عمر قمامة وأخرج ملك الروم عليها أموالا جليلة »^(١) : كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤ م) في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) الذي تعدد أن يمدد بالمال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بمصر في هذه السنة غير أن هذا الإمبراطور تولى قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) ، فاشتطت لمصر شروطا أهمها أن يشهد الخليفة العاطمي بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، فلم يوافق المستنصر على ذلك ، واشتبك الفريقان في معارك برية كان النصر فيها لحليف القاطنين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على القاطنين في مياه الشام وأسركثيرا من قوادهم ، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب للهادنة ، وأرسل في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الإمبراطورة تيودورا القاضي أبا عبد الله القصاصي لتسوية الخلاف .

بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلافة . وهكذا ذكره القزويني^(٢) عن محاولة المستنصر التقرب إلى البيزنطيين . « بثت الخليفة المستنصر بالله ... إلى ملك الروم بقسطنطينية أن يعمل القتال إلى مصر ، فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر ، فأدركه أجله ومات قبل ذلك . فقام في الملك بعده امرأة ، وكثبت إلى المستنصر نأه أن يكون عوناً لها ويعدا بمساكر مصر إذا ثار عليها أحد . فأبى أن يسخطها فـ

(١) أبو الفتح ج ٢ ص ٦٢

(٢) خط ج ١ ص ٢٣٥

طلبها ، فجدت قتال وعاشت اللال عن المسير إلى مصر . غنق المستنصر وجيز الساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وسارت إلى اللاذقية لغاراتها بسبب نقض الهدنة وإسناك اللال عن الوصول إلى مصر . وأمدتها بالصاكر الكثيرة ، ونودى في بلاد الشام بالنزو ؛ فزل ابن ملهم قريباً من قامية وضائق أهلها ، وجال في أعمال أنطاكية فسبى ونهب ، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة في البحر ، فغاربها ابن ملهم عدة مرار ، وكانت عليه ، وأسر هو وجماعة كثيرة في شهر ربيع الأول منها .

وبد ذلك بقليل تفاقم خطر السلاجقة وهددوا أملاك الدولة البيزنطية من جهة أرمينية وفي شرق آسيا الصغرى ، كما هددوا أملاك الفاطميين في بلاد الشام وعملوا على القضاء عليهم نهائياً . كما عمل كل من الفاطميين والسلاجقة على التقرب من البيزنطيين . وما أوردته ابن مسير في حوادث سنة ٤٤٧ هـ عن رسالة القضاء ، نستطيع أن نقف على مدى الصراع الذى قام بين الفاطميين والسلاجقة وانعماز البيزنطيين إلى الأخيرين . يقول ابن مسير^(١) : « وفيها سير المستنصر قبض على جميع ما في كنيسة القيامة . وسب ذلك أن أباً عبد الله القضاء كان قد توجه برسالة من مصر إلى قسطنطينية قدم إليها رسول طنربك يلتبس من ملكها أن يعلى رسوله في جامع قسطنطينية . فأذن له بذلك ، فدخل وصلى بحمامها ، وخطب للخليفة القائم العباسي (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) ، فبث القضاء ذلك إلى المستنصر ، فأخذ ما كان بقاءة ، وكان هذا من الأسباب للوجبة لفساد بين للصريين والروم » .

ولا غرو فقد كان السلاجقة يومئذ أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين ، الذين ضاعت أملاكهم في المغرب وأصبحوا يعانون من القن والشدايد وندرة الأقوات ما جعلهم عاجزين عن مواصلة النزو والفتح في بلاد الدولة البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية في عهد القائم تسمى إلى القضاء على الفاطميين ، حتى إنها أرسلت في سنة ٤٤٣ هـ رسولا إلى المعز ابن باديس في شمال إفريقيا يحمل إليه الخلع والهد من قبل الخليفة العباسي ، فوقع هذا الرسول « في أيدي الروم فخلوه إلى قسطنطينية ، وحله هذا إلى المستنصر ، وشرط ألا

(١) أخبار مصر من ٦ وما يليها .

يؤذبه ، فشهره المستنصر بمصر على جل ورده إلى الملك ، فلامه الملك قسطنطين ، واحتذر إلى القائم والمزورده إلى بندان^(١) .

وبعد ذلك بقليل نرى المباسين يضاضون جهودهم لقضاء على القاطمين ، فيشون البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهم . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين حبة الله الشيرازي^(٢) : « ورد من حيز الروم نسخة كتابها (بندان) إليها وتحملها على التجرد معها لأخذ الملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقدار ، فيجملون الشام من نصيب إخوانهم شياطين الروم الكفار » .

وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن فسدت العلاقات بينهم وبين القاطمين منذ ذلك الحين حتى قامت الحروب الصليبية . ويقول القريري^(٣) : « وفسدت من حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها وحاصروا القاهرة » .

٨ — مع الفرنجيين :

لم تقتصر جهود محمود النزنوي على فتح البلاد في فارس وخراسان وغيرها ، بل إنه اهتم أيضاً بالقضاء على أهل البدع والأهواء ، فصلب عدداً كبيراً من الباطنية ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم . ففي سنة ٤٠٨ هـ نراه يشرع عن ساعد الجند ويحارب هؤلاء في غير هوادة . يقول الذهبي^(٤) : « وامتلأ بمجن الدولة محمود بن سبكتكين أسر القادر بالله ، وث كلته في عماله بخراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجمعية والمشبعة ، وصلبهم ونقام ، وأمر بلمنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم » .

ولما وجد القاطميون في مصر ما يلائهم أصارهم من الإسماعيلية في بلاد المشرق على

(١) البني : عقد الجمان ، مخطوط ج ٢٠ ورقة ٨٥ .

(٢) السير المؤيدية : مخطوط بحاسة القاهرة ورقة ١٤١ .

(٣) مخطوط ج ١ ص ٣٣٥ .

(٤) تاريخ الإسلام : مخطوط ج ٣ ورقة ٢٧٩ .

يد محمود التزنى ، عملوا على استائله إليهم ، ولسكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم . وفي ذلك يقول ابن كثير^(١) : « وكانت رسل الفاطميين في مصر تند إليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون في جهنم ، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم » . ومن هذا الكتاب الطويل الذى أرسله محمود التزنى إلى الخليفة القادر بالله فى سنة ٤٢٠ هـ ، نستطيع أن نبين كيف كان محمود ينصر أهل السنة ويحارب الفرق الدينية الأخرى ، التى كان يستيرها خارجة على الدين والدولة . وإليك هذا الكتاب عن الذهبى :

« سلام على سيدنا ومولانا الإمام القادر بالله أمير المؤمنين : إن كتاب العبد^(٢) صدر من مسكره بظاهر الرى غرة جمادى الأولى (سنة ٤٢٠ هـ) ، وقد أزال الله^(٣) فى هذه البقعة أيدى الظلمة ، وطهرها من أيدى الباطنية . وقد تناهت إلى الحضرة^(٤) حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سبه^(٥) واجتهاده ، وغزو أهل الكفر والضلال ، وقع من نخ من الفتنة الباطنية . وكانت الرى محصورة بالتجائهم إليها وإعلانهم بالدعاء إلى كفرهم ؛ فيها يختلطون بالمتزلة والرائضة ، ويتجاهرون بشتى الصعابة ، ويرون الكفر ومذهب الإباحة . وكان زعيمهم رستم بن على الهلبلى ، فطفت العبد بالسأكر عليه ، فطلع بمرجان وتوقف بها إلى انصراف الشتاء ثم إلى دامتان ... وخرج الديلة معترفين مذوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم . فرجع إلى الفقهاء فى تعرف أحوالهم ، فأتوا بأههم خارجون عن الطاعة ، داخلون فى أهل الفساد ، يجب عليهم القتل والقطع والدفن على مراتب جنائياتهم ، إن لم يكونوا من أهل الإلحاد ، فكيف واعتقادهم لا يخلو من التشيع والرفض والباطن ؟ وذكر هؤلاء الفقهاء أن هؤلاء القوم لا يصلون ولا يزكون ولا يعترفون بشرائط الدين ، ويجهلون بالقذف وشتى الصعابة ، والأمثل منهم معتقد مذهب الاعتزال والباطنية ، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... تحت هذه البقعة من دعاة الباطنية ،

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) يقصد السلطان محمود التزنى .

(٣) فى الأصل أنزل .

(٤) يعنى الخلافة العباسية .

(٥) فى الأصل سمه .

وأعيان الروافض ، وانتصرت السنة . فطالع العبد بحقيقة ما يشره الله تعالى لنصر
الدولة القاهرة .

ولما علم الظاهر أن يمين الدولة محمود بن سُبُكْتِكِين صاحب غَزَنَة قد عظم أمره ،
كُتِبَ إليه كتاباً يدهوه إلى طاعته ، وأرسل إليه الخلع — وكان أبوه الحاكم قد أرسل إليه
قبل وفاته كتاباً في ذلك ، فزقه محمود ولم يمره أى اهتمام . فحاول الظاهر استنائه إليه فلم
يغبأ به ، وبعث بالكتاب والخلع إلى الخليفة العباسي القادر ببغداد ؛ فجمع القضاة والأشراف
والجنود ، وأخرج الخلع التي أرسلها الظاهر الفاطمي إلى محمود التزنى — وكانت سبع
جيب و فرجية و مركب ذهب ، وأضرم النار فيها ، وسبك المركب الذهب ، وضرب منه
٤٠٥٠٠ دينار ، تصدق بها على ضغفاء بنى هاشم ^(١) .

(١) أبو الحسن : التتويج للأمة ج. ٤ ص ٢٥١ .

الباب التاسع

النظم الفاطمية

١ - النظام السياسي

(١) المفوفة :

كانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة لهذا الصراع العنيف بين المسلمين والشيعة . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزمامة المسلمين ، لأنهم أولاد علي ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة ، بالسيف نازة والمكيدة والدهاء نازة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في الشرق . وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ومن ثم رأى الشيعة يحملون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يوصف به خلفاء بني العباس . ولا غرو فقد خاطب أحد الشراء عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بهذه الآيات :

حلّ برقادة المسيح حلّ بها آدم ونوح

حلّ بها أحمد للصنّي حلّ بها الكعبش والذبيح

حلّ بها الله ذو المال وكل شيء سواه دمج^(١)

وكانت أيمان أهل إفريقية : « وحق عالم التيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة » ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين وتلفقوا في وصولهما إلى عبيد الله من حيث لا يعلم :

المجور قد رضينا لا الكفر والحاقة
يا مدهي النسيوب من كاتب البطاقة ؟

من هذا يقين مركز الخلفاء الفاطميين في أعين شعراء بلاطهم ؛ وكان من أثر ذلك أن صار الخلفاء يعتقدون في أنفسهم أنهم أهل من سائر البشر ، وأنهم لم يختصوا ببعض الحقوق الإلهية بحسب ، بل بصفات الله أيضاً . ومن الحق أن نقول إن هؤلاء الخلفاء لو لم يكونوا يحشون ثورة شعوبهم ، لكشفوا الناس حقيقة معتقداتهم ، التي كان يدين بها خواصهم وحاشيتهم وغيرهم ممن كانوا يحضرون مجالسهم الشيعية في القصر . وطالما قاوم الأهليون آراء بعض الخلفاء وصادموم باحتجاجات كانت تأخذ في بعض الأحيان مظهر التهديد ، كما حدث في حادث المرزى والأخرم .

وقد قيل إن الخوارج في بلاد المغرب لم يرفعهم بعض عقائد الشيعة العالية ، فثاروا في وجه الخلافة الفاطمية في عهد القائم والمنصور بزعماء أبي يزيد غلدة بن كيداد . ويقول الذهبي^(١) إن الخليفة القائم الفاطمي أمر بلسن الأنبياء وأطلق منادياً ينادى بلسن للنار ومن لاذ به ، وأن ذلك أثار سخط الخوارج فثاروا تحت لواء ابن كيداد .

ولكن يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، حمداً إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد للذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي كصر واليمن وفارس والمند ، بل توعلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت إذ ذلك تحت نفوذ الأمويين السفين^(٢) .

ولم يكن استيلاء الفاطميين على مصر في سنة ٩٣٥ هـ ومد نفوذهم نحو الشرق إلا وسيلة لقضاء على نفوذ العباسيين السياسي وجعل السيادة للذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين . ويقول آدم متر^(٣) إن الخليفة الفاطمي وقف من الخليفة العباسي موقف

(١) تاريخ الإسلام : دار الكتب المصرية ، مخطوط ٤٢ ورقة ١٦٩

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 406, 413-15

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة أبي ريفة ، ج ١ ص ٤

النفاس الشديد ، وإن نفوذه انشر في كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر في المغرب ومصر ، وفي بلاد اليمن والشام .

وقد لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل سامان ، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين . وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً ، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظفروا سخطاً أو تذسراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواحيه ، لأنها صادرة من الله التي أملاها على الإمام العلم ، لأنه تلقى علمه من الله عن طريق موسى .

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين راجعة في مصر . فقد ادعى المرز ل نفسه كثيراً من صفات التقديس التي تظهر في عبارته التي وجهها إلى الحسن الأعظم القرمطي ، حيث يقول : « إما كلمت الله الأرزيات ، وأسمائه الثامات ، وأنواره الشمعنات ، وأعلامه النيرات ، ومصابحه البينات ، وبدائمه للمشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو راسمهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أيما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » . ناهيك بادعاء الحاكم الألوهية التي شملت كل حياته تقريباً .

وتمتاز الخلافة الفاطمية بالمظلة والآية التي كانت تتمثل في الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفي توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيدى القنطر والأضحي ، وفي جلوس الخليفة بقاعة الذهب .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمي أو العلوي وأمه المؤمنين . ومن الألقاب المحبة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان والشرى القاضى ، كما يظهر من مغالبة قاضى القضاة له في صلاة الجمعة : السلام على أمه المؤمنين « الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته » . وكان السنيون يطلقون عليهم « السبيدين » نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى علي بن أبي طالب ، و « الفاطميون » نسبة إلى فاطمة الزهراء . كما

كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان القاطميون يقرون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجند مثلاً المزدك بن الله ، والعزير بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله . وقد حذا القاطميون حذو الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شرع بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتعدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يستمر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه . فقد أخفى القاسم موت أبيه عبيد الله المهدي ، وأخفى المنصور موت أبيه القاسم سنة ٢٣٤ هـ حتى قضى على ثورة أبي يزيد سنة ٢٣٦ هـ ، فأعلن نبأ وفاة أبيه . وكذلك أخفى المزموت أبيه المنصور ، وأخفى المزموت أبيه للمز في ١١ ربيع الآخر سنة ٢٣٦ هـ ، ولكنه لم يملكه إلا ١٠ ذى الحجة من هذه السنة . ولما تطرق الصف إلى الخلافة العاطمية في عهد المستنصر أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه ، كما فعل بدر الجلال وابنه الأفضل من تفضيل المستمل على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه لأنه أكبر أبنائه ، فخر ذلك إلى انقسام أشياع العاطميين إلى نزارية ومستملية . ولا يزال أنا خان وأتباعه من الخوارج في الهند يمثلون النزارية ، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية في الهند أيضاً يمثلون للمستملية .

والواقع أن القاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة العاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنس ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته حتى لا يخوض العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزات إذا كان ولي العهد كبير السن واسع التجربة كعمراً لتولى ذلك المنصب الخطير . فالقاسم بن عبيد الله المهدي كان قبل توليته الخلافة ماهراً في الحرب حاذقاً في السياسة ، استطاع في حياة أبيه أن يفرض مصر غير مرة ويخمد الثورات التي قامت في وجه الدولة العاطمية ، كما استطاع المزمزان يقود الجيوش العاطمية ويتنصر على القرامطة في حياة أبيه وبعدها . وأما الحاكم مثلاً فقد كان ضربه وقتة تجاربه وقصص كفايته من العوامل التي أثارت التعجب في وجه الخلافة العاطمية في عهده ، كما كان ذلك من عوامل ضعف هذه الخلافة فيما بعد . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى الظاهر والمستنصر وغيرهما من الخلفاء العاطميين .

(ب) الوزارة :

كان جوهر ينوب عن الخليفة العاطلى فى حكم بلاد دخلت فى حوزة القاطليين منذ أمد قريب ؛ وكانت سياسته تنطوى على كثير من الحكمة وبعد النظر . ولقد رمى جوهر من وراء هذه السياسة إلى إنساح الجول أمام المناربة ، ليلجوا بالنظم الإدارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية . ولكنه رأى بصائب نظره أن يكون تنفيذ هذه السياسة تدريجياً ؛ لأن العلاقات التى كانت بين السنين والشمسين ، وبين المناربة والمصريين ، لم تكن على صفاء دائماً .

وكانت الوزارة فى العصر العاطلى الأول (٣٠٨ - ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ^(١) ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يدبروا أمور الدولة بأنفسهم ولما كان السنين يشغلون أكثر وظائف الدولة فى العهد السابق ، كان من شأن كل تغيير فجائى فى حالة الموظفين كافة أن يحدث ارتباكاً فى سير الأعمال الإدارية . ولقد فطن جوهر نفسه إلى هذه السياسة ؛ فأقر جعفر بن القنرات فى وزارته .

يبد أنه يلوح لنا أن ابن القنرات لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم فقط . بذلك على ذلك ما ذكره القرزى من أن جوهرأ حين خادماً فرض عليه أن يلازم الوزير فى

(١) ذكر الماردى الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : « ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما فى النظرين ، وذلك من أربعة أوجه :

أولها : أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى النظام ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثاني : أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثالث : أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجروش وتدير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والرابع : أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أموال بيت المال يقضى ما يستحق له ويلعب ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل التهمة منها . . . وهذه الفروق الأربعة بين النظرين افرق فى أربعة من شروط الوزارتين :

أولها : أن الحرية معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ .

والثاني : أن الإسلام معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والثالث : أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والرابع : أن المعرفة بأمرى الحرب والمراج معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ .

فانفرق فى شروط التنفيذ من أربعة أوجه ، كما افرق فى حقوق للنظر من أربعة أوجه ، واستوى فيما عداها من حقوق وشروط » .

كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٦ .

داره ، وأن يسير في ركابه أنى سار ، ليكون عينا عليه يراقب حركاته وسكناته . وهذه العبارة التي أدلى لها بها المقرئ لا تترك مجالا للشك في أن سلطة الوزير قد زالت أو كادت ، وأنه إنما سمح له بالبقاء في مركزه لإرضاء شعور السنين لا غير .

ولم يكن سلوك الوزير ابن القرات إزاء هذه الدولة الشيعية أقل أثرًا من سلوك غيره من المنصبين السنيين . فلقد أبى في بادئ الرأي أن يستقبل المز في الإسكندرية ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنيين جميعًا من اصطهاد الحكومة الفاطمية . ولكن تدخل كبار السنيين من المصريين ، ونصحهم للوزير بالدول عن هذا الصل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة . فقد أتوا إليه في الليلة السابقة ليوم وصول المز القاهرة ، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهيتة الأسباب لفاطميين لحملهم على الانتقام والتشفي .

فلم يكن بد إذاً من أن يذعن الوزير لهم ؛ حتى إذا ما بزغ صبح اليوم التالي ، دخل فحين دخلوا على الخليفة المز . وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للإيقاع به واتخذ الشدة والعنف معه ، فسأله قائلاً : « أحجّ الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟ » وكان الوزير دكى القواد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور : « شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد ؛ السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ا » .

وقد زادنا ياقوت^(١) أنه كان من أثر هذا الحديث أن عرض المز على ابن القرات أن يستمر في الوزارة ، فاعتذر . وذلك انتهت مدة وزارته في عهد الدولة الفاطمية بدخول المر .

وكان نمسك المخابرة فاض يدعى على بن الوليد ، وكل إليه النظر في قضاياهم . ولا شك في أن هذا القاضي كان إليه النظر أيضاً في كثير من القضايا التي نشأت من هذا المداء الذي ظهر بينهم وبين المصريين .

ومع ذلك فقد بقي اسم ابن الفرات دائماً بعد هذه السنة^(١) ، كما ذكر ابن خلكان في هباته التي أورها عن الوزير يعقوب بن كلس أن ابن الفرات هذا كان يندو إليه ويروح ، وأن الوزير قد أولاه ثقته ، وكان يمول عليه في محاسبة المال ؛ ويحالف الوزير ، فيدعوه إلى تناول الطعام معه^(٢) . ومن المدهش أن تكون هذه العلاقة بين الرجلين على هذا النحو الذي ذكره ابن خلكان ، على الرغم مما كان بينهما من المداوة القديمة التي كان منشؤها التنافس على الوزارة .

ويتضح لنا مما ذكره ابن منجب^(٣) عن وزراء العزيز الفاطمي ، أن ابن الفرات تقلد الوزارة في عهد هذا الخليفة ، وأن وزارته في عهد الفاطميين لم تدم أكثر من سنة واحدة ، وأنه تقلد بعض المناصب الحكومية مرتين في عهد العزيز : فقد تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ بعد أن قبض على الوزير أبي الحسن علي بن عمر المداس لاتهامه بتبديد أموال الدولة ؛ ثم استندت إليه الوزارة في ربيع الأول من السنة التالية .

ويقول ابن ميسر^(٤) إن ابن الفرات بقي في دست الوزارة سنة واحدة . وفي سنة ٣٩١ هـ^(٥) توفي هذا الوزير العظيم ، بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والإشيديين والفاطميين .

ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس ، وكان يهودياً ، ولقد في بغداد ونشأ بها ، وسافر مع أبيه إلى الشام ، فأخذ منها إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، فأنصل ببعض خواص كافور ، فعهد إليه بعمارة داره ، ورأى فيه النجابة والفراسة ، فحببه في ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد مع كافور حتى أمر أصحاب الدواوين ألا يصرف

(١) ١٨ رمضان سنة ٣٦٨ (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٠) . وقد ذكر لنا ياقوت أن أبا العباس الفضل ابن الوزير ابن الفرات تزوج بابتة الوزير ابن كلس . وقد كان لهذا الزواج أثر كبير في تمكين أواصر الصداقة بين هذين الوزيرين .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤١ .

(٣) ابن منجب : الإشارة إلى من قال الوزارة ص ٢٤ و ٢٥ .

(٤) تاريخ مصر ص ٥١ .

(٥) ياقوت : لإرشاد الأريب ج ٣ ص ٤٠٥ . وقد ذكر ابن خلكان ج ٣ ص ١٣٩ أنه توفي في يوم الأحد الثالث عشر من صفر ؛ وذكر في رواية أخرى أن وفاة هذا الوزير كانت في شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقد أورد ابن سعيد (كتاب المنرب ص ٨٧) أنه توفي في صفر سنة ٣٩١ هـ ، وفي رواية أخرى في سنة ٣٩٢ هـ .

شيء من المال إلا بتوقيع ابن كلس (سنة ٣٣٦ هـ) . وفي شعبان سنة ٣٥٦ هـ أظهر ابن كلس إسلامه وصل في الجامع ، وزادت حظوته عند كافور . بعد ذلك لزم ابن كلس الصلاة وقراءة القرآن ، ورتب لنفسه شيخاً من أهل العلم يعرف القرآن ويحمده ، ويحفظ كتاب السيرافي في النحو^(١) ، فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ عليه . وظل ابن كلس على حظوته عند كافور إلى أن مات . وكان الوزير ابن الفرات يحمّد ابن كلس ويحمّد عليه نفسه ، فتدخل بعض الناس في الأمر ، ونزل ابن كلس له الأموال حتى أخلق من اعتقاله ، فاقترض من أخيه وغيره مالا ، ثم سار مخفياً يريد بلاد المغرب . وقيل إنه لقي جوهراً وهو في طريقه لنزول مصر فعاد منه ، وقيل أيضاً إنه سار إلى بلاد المغرب واتصل بخدمة المزم ، ثم عاد منه إلى مصر . ومما يكن من الأمر فإن ابن كلس ظل في خدمة المزم واكتسب حظوة ابنه المزم وتولى أموره ، ثم ولي الوزارة في رمضان سنة ٣٦٨ هـ (١٩ أبريل سنة ٩٧٩ م) ، وأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة ومهجة إلى أن مات سنة ٣٨٠ هـ^(٢) .

وقد ذكر ابن خلكان ، نقلًا عن أخى محسن : « رأيت يعقوب بن كلس قائماً يشار كافوراً ، فلما مضى قالى : أى وزير بين جنبيه^(٣) ؟ وزيدنا ابن عساكر أن كافوراً قال : لو كان مسلحاً لصلح أن يكون وزيراً ، فألم طمحا في الوزارة^(٤) . »

وقد وصف ابن منجب الصيرفي^(٥) علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمي المزم وابنه المزمز وكيفية تنصيبه الوزارة ، وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح ، كما وصف أثره في العلم والأدب في هذه العبارة فقال :

« وخدم الإمام المزم لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه ، وخص بخدمته وتولى أموره . وفي شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة ، لقبه بالوزير الأجل ، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكابه إلا به . وخلع عليه وشمل ورسم له في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة أن يبدأ في

(١) ياقوت : إرشاد ج ٣ ص ٨٤ . ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص ١٩ - ٢٢ . ابن ميسر ص ٤٥ ، ٥١ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٤) المكتبة الأتلية بباريس ، مخطوط رقم ٢١٣٧ ورقة ١٨ (١) وما يليها .

(٥) الإشارة إلى من قال الوزارة ص ٢١ - ٢٢ .

مكتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة منه . وخرج توقيع العزيز عليه السلام بذلك . وفي هذه السنة اعتقه في القصر وردّ الأمر إلى جبر بن القاسم ، فأقام مستقلاً شهوراً ، ثم أطلقه في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ، وحله على الخيل بالسروج والجمع والتقال ، وقرئ له سجل برده إلى ما كان له من تدبير الدولة ، ثم قرئ له سجل يهبه خمسمائة من الناشئة وألف غلام من الفاربة ، لأرجسية فيهم ولا مشوية^(١) ، وإنا ملكناه أعتاقهم وحكناهم فيهم ، فن أراد أن يبيعه مائة ، ومن أراد أن يستقه حقه . وكان الوزير أبو الفرج في سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا ، وأخرج لهم كتاب فقه عمله ، وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آباءه الكرام . وقرأ عليهم رسالته ، وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية .

وكان ابن كلث بجلس للظالم كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم . واتخذ في قصره عدة دواوين ، جعل إلى بعضها النظر في شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق ببهاية الخراج ، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين^(٢) .

و وفاة يعقوب بن كلث ضمت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى « الوساطة » خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء . ففي أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ — ٤١١ هـ) مزل عيسى بن نسطورس — وكان نصرانياً — لمحاباته أهل ملته وتقليدهم مناصب الدولة العامة ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتائبين « الوساطة » ، وتلقب بلقب « أمين الدولة »^(٣) (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ) . ولكنه حابى الكتائبين وأبطل أعطيات الأتراك . « ونفذت أوامره في الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء ، حتى على جوارى القصر هبة وعتقا ، واستولى أصحابه وقتل مبالغتهم ، وأشاروا عليه بقتل الحاكم ، فلم يعبأ به استصغاراً لسنه واستهانة لأمره »^(٤) .

وقد تقلد الوساطة بعد ابن عمار « رجوان » أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ) . وكان يستعين في إدارة شئون الدولة بكتابيه أبي العلاء فهد بن إبراهيم —

(١) أي بلا استثناء .

(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٧٢ .

(٣) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٢٢٢ .

وكان نصرانياً . وظل برجوان يدبر شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذي ضاع بأستاذة فزعاً ، فأمر بقتله في شهر ربيع الثاني سنة ٤٣٩٠هـ^(١) ، غل محله الحسين بن جومر القائد الذي استعان بهد بن إبراهيم ، وكان يلقب « الرئيس » . « وكانا يدبران وينفذان في القصر ، واستمرا على ذلك إلى أن زال أمر الرئيس في جمادى الآخرة من سنة ٤٣٩٣هـ (حيث) قتل وأحرق ، وأقام قائد القواد (يعني الحسين بن جومر) على أمره . ثم خاف وهرب هو وابن التيمان ، وكتب لهما أمانان ، وبطل أمر قائد القواد في النظر (ثم) قتل »^(٢).

وإن من يستقصي تاريخ الوزارة في عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيراً من الوزراء كانوا من أهل الدمة ، وأنهم كانوا لا يستقرون في الحكم طويلاً ، لحبايتهم أبناء جلدتهم ونذمر المسلمين منهم . ففي الحرم سنة ٤٠٩هـ أقيل ابن عبدون النصراني من الوزارة ، وخلفه أحمد ابن محمد القشيري ، ولكنه هزل بعد عشرة أيام ، ثم قتل وحل محله في الوزارة زُرعة أخو عيسى بن نسطورس وتلقب بالشافى^(٣) . وفي سنة ٤٠٣هـ تقلد « الواسطة » الحسين ابن طاهر الوزان وتلقب « بأمين الأمان » ، وخلع عليه الحاكم « خلع الرسالة والتوقيع من الحضرة » . واستمر في دست الوزارة إلى أن قتل في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٠٥هـ^(٤) . وقد بلغ من ضعف شأن الواسطة أن بعضهم كان لا يستقر فيها أياماً مطوّدات ، كما كان يتولى الواسطة أكثر من واحد . ففي شهر شعبان سنة ٤٠٥هـ تقلد هذه الواسطة الحسن وعبد الرحمن ابنا ابن السيد في وقت واحد وخلع عليهما ، إلا أنهما لم يلبثا أن قتلا ولما استقرا غير شهرين . وكذلك تولى الواسطة أبو المباس الفضل بن الوزير جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يستقر في منصبه وخلع بعد خمسة أيام فقط^(٥) .

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح ، الذي لقب « وزير الوزراء ذي الرياستين الأمر للظفر قطب الدولة » . وقد وصفه ابن منجب

(١) ابن منجب الصيرفي : الإشارة إلى من قال الوزارة من ٢٧

(٢) المصدر نفسه من ٢٨

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتينا من ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) ابن منجب : الإشارة إلى من قال الوزارة من ٢٩

(٥) المصدر نفسه من ٣٠

الصيرفي^(١) في هذه العبارة فقال : إنه « كان من أول الكتامين بيتا وأجلهم قدراً . . . وكان أوجه الأسراء في الدولة الحاكمة ، وقاد الجيوش السائرة إلى الشام ، ومرض في سنة ست وأربعمائة ، فركب الإمام الحاكم إلى داره لميادته ، وحمل إليه مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار . وكانت هذه عادته إذا عاد أحداً . وفي رجب سنة ثمان وأربعمائة بشت بما تقدم ذكره . وكسب له سجل بذلك ، فكان الناظر في جميع رجال الدولة ؛ وحمل له في سجله ولاية الإسكندرية وتنيس ودمياط والشرطتين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين والقرض^(٢) والإببات^(٣) والنظر في الواجبات^(٤) . وفي شوال سنة تسع وأربعمائة ركب على رسمه^(٥) من داره إلى القاهرة ؛ فلما صار بقرب البرك التي تلي الخليج ، لقيه فارسان متسكران ، فرماه أحدهما برمح جرحه ، وولى هارباً ، ولم يدرك ، فباد إلى داره مجروحاً ، ومات من حراحته غد يومه ، فركب ولى المهدي وصلى عليه وواراه وحضر معه قاضي القضاة . ومن أشهر رجال هذا العصر الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني^(٦) وقد تقلد بعض المناصب المالية في عهد الحاكم ، ثم تقلد الوساطة مع جليل للدولة أبي عبد الله محمد بن المداس ، وذلك في أوائل خلافة الظاهر الناطمي (٤١١ - ٤٢٧ هـ) ، فبقيا معاً في الوساطة سبعة أشهر . ولكن الجرجاني لم يتقلد « الوزارة » إلا في سنة ٤١٨ هـ ، وبقي فيها حتى مات الخليفة الظاهر فأقره ابنه المستنصر في منصبه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ^(٧) .

سجل تقليد الجرجاني الوزارة :

وقددون ابن القلاسي^(٨) سجل تقليد أبي القاسم الجرجاني الوزارة . ومما جاء فيه :

- (١) المصدر نفسه ص ٣٠ ٣٢
- (٢) أي عرض أمور الدولة على الخليفة
- (٣) يريد إثبات توقيعات الخليفة في الأوراق والتقصص التي تعرض عليه
- (٤) يريد النظر فيما يجب تنفيذه من أمور الدولة
- (٥) أن علي ما جرت به العادة
- (٦) ينسب إلى جرجانيا ، إحدى قرى سواد العراق ، وقد وصل إلى مصر ودخل في خدمة الحاكم . وشهد الأسطهاديات التي حدثت في عهد ، عمن (٤٠٣ هـ) ثم قطع يده في السنة التالية . ولكنه لم يلبث أن أسند إليه ديوان النفقات في سنة ٤٠٦ هـ ، ولقب نجيب الدولة (٤٠٧ هـ) .
- (٧) ابن منجب الصيرفي : الإشارة إلى من نك الوزارة ص ٣٥ - ٣٧ .
- (٨) دبل تاريخ دمشق ص ٨٠ - ٨٤ .

« أما بعد . . . وإن أحق من مول عليه في الوزارة وأسند إليه أمر السفارة ، ونصب لحفظ الأموال وتميزها وسياسة الأحوال وتديرها وإزالة طوائف الرجال كبيرها وصغيرها ، من كان خفيظا لما يستحفظ من الأمور ، قووما بمصالح الجمهور ، عليا بمجاري السياسة والتدبير . ولذلك قال يوسف الصديق عليه السلام : اجعلني على خزان الأرض إلى حفيظ عليم . ولو استغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه عن أمره ويظاھره ، لكان كلهم الله موسى صلى الله عليه ، وهو القوى الأمين عنه مستغنيا ، ولم يكن له من الله جل جلاله طالبا مستدينا . وقد قال : (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخى أشد دبة أزرى وأشركه في أمري كي تسبحك كثيرا وتذكرك كثيرا^(١)) . ولما كتبت بالأمانة والكفاية علما ، وعند أهل المعرفة والدراية مقدما ، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك في الكتابة ، ويتقدمون بك في الإجابة ، وبشهودك لك بالتقدم في العناء ، ويبتدون بحملك اعتداء الشفر بالنجم في الليلة الظلماء ، ولا يفتناك كروغ الانحطاط عن درجتك في الفضل لتفاوتها في الارتفاع ، ولا يرد ذلك راد من الناس أجمعين إلا خصمه وقوع الإجماع . هذا مع المعروف من استقلالك بالسياسة ، واستكمالك لأدوات الرئاسة ، وتدرك أمور المملكة ، وما ألف برشد وساطتك من سمو الجن والبركة — رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، أن يستكفيك أمر وزارته وينزل أهلي منازل الاصطفاء بخاص أمرته ، ويرضك على جميع الأكفاء بتمام تكميمته ، وينوء باسمك تنويعها لم يكن لأحد قبلك من الظهور في دولته . فسيالك بالوزير لمؤازرتك له على حمل الأعباء ، ووكد هذا الاسم بالأجل ، لأنك أجل الوزراء ، وعزز ذلك بصفى أمير المؤمنين وخالصته ، إذ كتبت أمر الخلفاء والأصفياء ، وشرفك بالتسمية تسميها بك في العلياء ، ودعاك بأن يمتص الله بك ويؤيدك ويمضدك دعاء محبيه فيك رب السماء . فأنت الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته المحبوب بالن الجسيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتخطب وتكتب بها عن نفسك

وتكاتب . ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من المحاورات وإثباته في ضروب للكاتبات ، ليثبت ثبوت الاستقرار ، ويبقى رسمه على سرائر القائل والتهار . فاحداً الله تبارك وتعالى على تمييز أمير المؤمنين لك بتسريته واختصاصه ، وإحلاله إليك أهل محال خواصه . واجر على سننك الحميد في خدمته ومذهبك الرشيد في مناصته ، إذ كان قد فوض إليك أسرارته ، وجعلك الوسيط بينه وبين أوليائه وأنصار دعوته وولاية أعمال مملكته وكتاب دواوينه وسائر مبيده ورعيته شرقاً وغرباً وقرباً وبعداً ، وأمضى توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين في الإخراج والإنفاق والإيجاب والإطلاق ، وناط بك أزمة الحل والمقد والإبرام والقبض والبسط والإنبات والحط والتصرف والصرف ، تفويضاً إلى أمانتك التي لا يقدر عليها معاب ، وسكوناً إلى ثققتك التي لا يلم بها ارتياب ، وعلماً بأنك تورد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيها كل مقاوم ، ولا تأخذك في المناجحة لأمر المؤمنين والاحتياط له لومة لائم ، وجميع ما يوصى به غيرك ليكون له تذكرة وعليه حجة ، فهو مستغنى عنه معك لأنك تنفى بفرط معرفتك عن التصريف ، ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب ، وعلمك به إلى توقيف . غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأسر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم ، بارك الله فيهم ، وأن يتوفر على ما يعود بصلاح أحوالهم وانفساح آلامهم وانسراح صدورهم وانتظام أمورهم ، إذ كانوا كتائب الإسلام ومقاتل الأنام وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام ، حتى تحسن أحوالهم بحمائل نظرك وينزل سوء الأثر فيهم بحسن أترك . وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال الدولة ، فأمرهم من المنى به والسئول عنه . وأمير المؤمنين يأسرك بأن تستشف خيرة الولاية فيهم . فن ألقيته من الرعية مظلوماً ، وأهزمت بنصفته ، ومن صادفته من الولاية ظلوماً تقدمت بصرفه وحسم مضرتة ومعرفته .

خلف الجرجاني في الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ، ولقبه الخليفة المستنصر « تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين »^(١) . وكان الفلاحى يهودياً ثم أسلم . وقد أشار الجرجاني قبل موته بتقليده الوزارة . ولكن الفلاحى لم يكن له من مراكز الوزارة إلا الاسم ، بسبب اتساع سلطة أبي سعد التستري اليهودى ، وكانت أم الخليفة

(١) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة من ٣٨ .

المستنصر من قبل أمة في بيته ، فأهداها إلى الخليفة الظاهر . فلما مات هذا الخليفة ارتفع قدر للتسرى وتقرب من المستنصر ، وأخذ « يتولى ما يخص السيدة الوالدة ، وعظم شأنه إلى أن صار ناظرًا في جميع أمور الدولة ، فلا يخرج شيء مما يرسمه ^(١) ، ولا يعمل الوزير إلا بما يحمد له ويمثله ^(٢) . فكره الفلاحى ذلك وأنف منه ، فذبر عليه ، وحل جماعة من الأتراك على قتله ، ففتكوا به عند دخوله من باب القنطرة متوجهًا إلى القصر ، وقطع له وطيف به . وظن الفلاحى أن الدنيا قد صفت له ، وأنه قد أمن ما يكرهه . فأتى بجمعه ، ولا استمتع بنبيه وأمره ، وقبض عليه في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، واعتقل وتعل . وقد ذكر ابن ميسر سبب مقتل الفلاحى فقال إن أم للمستنصر حقدت عليه لعله على قتل التسرى ، فقبض عليه ثم قتل في الحرم سنة ٥٤٤ هـ .

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المزم بألقاب منسوبة إلى الدولة ، كإبي محمد الحسن بن حمار السككلى ، الذى تلقب بلقب أمين الدولة . وتلقب الحسن ابن صالح بن على الروذبارى بعميد الدولة ، وتلقب زرة أخو عيسى بن نسطورس بالشافى ، وتلقب الحسين بن طاهر بأمين الأمناء ، وتلقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح بوزير الوزراء ذى الرياستين الأسمر المظفر قطب الدولة ، وتلقب أبو القاسم الجرجاني بالوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالسته ، وتلقب أبو منصور صدقة الفلاحى بتاج الله خير الملك مصطفى أمير المؤمنين .

كانت سلطة الوزير في الصدر الأول من أيام الفاطميين محدودة ، إذ كان يتوقف بقاؤه على مركزه على تمتعه بتمضيد الخليفة ورضاه ؛ وهذا ما يطلق عليه وزارة للتنفيذ كما تقدم لذلك نرى القريرى ^(٣) يذكر لنا أن ابن كلس صرف عن الوزارة في سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ — ٩٨٤ م) ، واعتقل في القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق بمدها ، وأقيمت إليه مقاليد الأمور من جديد ، ووهبه الخليفة بهذه المناسبة خمسمائة غلام من الناشئة وأقام من الموالى المناربة .

(١) يريده أو يرسمه به .

(٢) أى يرسمه له ويقدره .

(٣) خط ج ٢ ص ٦

الوزارة في العصر الفاطمي الثاني :

غير أنه في العهد الأخير من أيام الفاطميين (٤٦٦ — ٥٦٧ / ١٠٧٣ — ١١٧١) ، عندما صار الوزير رب السيف والقلم ، ضعف نفوذ الخلفاء كثيراً ، بحيث أصبحوا طوال هذا العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استطاعوا قوتهم وتضخمت ثروتهم وقد أصبحت الوزارة في هذا العصر وزارة تفويض .

وعندما عدّ ابن ميسر^(١) أسماء من تقلدوا الوزارة للمستنصر (٤٣٧ — ٤٨٧ هـ) ، ذكر أسماء عدة من الوزراء غير المسلمين ؛ ومن هؤلاء الوزراء أبو علي الحسن بن أبي سعيد ابن سهل التستري ، وأصله يهودي ثم أسلم . ولكن ابن ميسر لم يذكر لنا إذا كان التستري قد اعتنق الإسلام قبل تقلده الوزارة أم بعده . كذلك تكلم ابن ميسر عن أبي منصور بن أبي اليئ^(٢) بن مَهْرَوَاهُ بن زُنْبُور — وكان نصرانياً — فاعتنق الإسلام ديناً ، وذكر أن النصاري قد أنكروا إسلامه^(٣) .

ومن وزراء هذا العصر : أبو محمد الحسن اليازوري بن هَلِيّ بن عبد الرحمن ، من أهل يازور : وهي قرية من كورة الرملة . وقد عهد إليه بالوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢ (١٠٥٠ م) ، وسمح له بالبقاء في منصبه الأول ، وهو مدير خاصة أم الخليفة . وكان يلقب بهذا اللقب المركب : وهو الناصر لدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل للكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضي القضاة ، داعي الدعاة . وبقي في منصبه حتى قبض عليه المستنصر في أول المحرم سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) بتهمة مراسلته لطربك السلجوقي ودعوته لتزوم مصر . وأبعد اليازوري مع زوجاته وأولاده وخدمه إلى تيبس ، حيث ظل محبوساً بها ، حتى أُنْزِلَ إليه الخليفة سيافاً قطع رأسه (٢٢ صفر سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨) . ثم أُرْسِلَتْ جثته إلى القاهرة ، فألقيت في مزبلة ثلاثة أيام ، أخرج بعدها وغسل وحنط وكفن ودفن^(٤)

(١) تاريخ مصر ص ٢٢

(٢) ذكر ابن ميسر (ص ٢٣) أن هذا الاسم "أبو اليئ" .

(٣) ابن منجب ص ٥٤ . ابن ميسر ص ٢٣

(٤) ابن منجب : الإشارة ص ٤٠ — ٤٥ . ابن ميسر ص ٥ — ٨ و ٢٤ .

وإن ما ذكره ابن منجب وابن ميسر يختلف عما ذكره لينبول^(١) من ناحيتين : (١) أن
اليازوري مات مسوما (ب) وأن موطنه الأصلي بلد من كورة يافا .

وكان هذا النزاع الذي قام بين الخلفاء والوزراء من المميزات التي امتاز بها العهد
الفاطمي الأخير ؛ ورعا كان ذلك نتيجة تولى الأطفال عرش هذه الدولة . وقد يكون
الأستاذ مرجوليوت مصيبا فيما يراه من أن تسم أطفال العرش كان مبعثه حب إطلاق
الحرية للوزراء ، مما كان سببا لمصائب كثيرة نزلت بالوزير والخليفة جميعا^(٢) .

وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير في العصر الفاطمي الأخير أن أضيف إلى ألقابه ألقاب
تدل على هذا المعنى . فقد ذكر ابن ميسر أن أبا علي حفيد بدر الجالي وزير الخليفة المستنصر
منع ذكر اسم الخليفة في الخطبة . ولما كان هذا الوزير يدين بمذهب الإمامية الاثنا عشرية ،
أمر بالامتناع للإمام المنتظر في الخطبة ؛ وبذلك قضى على شيء من تقاليد المذهب الإسماعيلي
أو مذهب السبعة الذي كان منتشرا إلى عهده . كذلك أمر الخطباء بذكر اسمه في الخطبة ،
وبتلقبه بألقاب اختارها لنفسه ، مثل « ناصر إمام الحق » ، وهاذى القضاء إلى اتباع شرع
الحق واعتماد « مولى النعم » ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف والقلم^(٣) .

كذلك ذكر أسامة بن منقذ^(٤) أن رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ لقب
سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ - ١١٣٦ م) بلقب السيد الملك الأفضل . وقد ظل الوزراء يتمتعون
بهذا اللقب منذ ذلك الحين^(٥) .

(ج) الكناية والمحبة :

لم تترك الوزارة في مصر قبل عهد الإخشيديين ، فإن أحمد بن طولون اتخذ

(١) The Story of Cairo, p. 147 .

(٢) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus p. 39 .

(٣) تاريخ مصر ص ٧٥ .

وبلغة « ذكر كل أيضاً بكيفيات أو كيفيات . ويرجع الأستاذ فييت (G. Wiet) أن اسمه كيفيات ،
لأنه كان في بغداد زمن البساسيري طبيب اسمه كيفيات (التفتلي ص ٢٦٧) .

(٤) كذب الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩) ص ٢٢ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٦٦٠ ، المقرئ ج ١ ص ٤٢٨ و ٤٨٣ - ٤٨٥ .
Havaise, Essai sur la Topographie du Caire d'après Maqrizi (Mémoires publiées par
les Membres de la Mission Archéologique française du Caire, tome III, Paris, 1887,
pp. 470 471).

أحمد بن محمد الواسطي كاتباً ، وأخذ بعده جعفر بن عبد الغفار المصري . على أنه يظهر لنا أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب ، فأشار أحمد ابن خاقان على ابن طولون بسرقة ، فقال له : أنا أحسنه لأنه مصري . فقال له ابن خاقان : « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي ، قال : لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه مجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة منها : أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد فيسود سرقته على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستنلات به فيكون صفاء^(١) لجناياته . وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون في خدمتي . والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستنلات في بلده النائي عنه وعن ، ويستبطن الرقاع ، ومن يشهر عليه أن يسر بلده القدي يعمل فيه ، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده . فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع على بتقديمهم في الكتابة والرجاسة ، فصوبت رأيه ورأيت هذه »^(٢) .

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فإذا حاز صاحبها رضاه الخليفة رشحه للوزارة في أي وقت .

وقد اتخذ العزيز بالله الفاطمي في المغرب جوهر الصقلي كاتباً له سنة ٥٣٤١ .

وقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بالشراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب لنشر مذهبهم وإذاعة ما بلغت خلافتهم من أبهة وسلطان . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ومن طبقة الموظفين للتصليين بديوان سر الخليفة (السكرتارية) أو بدار العلم ؛ وكان الخلفاء يجزلون لهم الأموال الكثيرة ويجودون عليهم بالخلع . وعلى رأس هؤلاء الكتاب صاحب الإشاء ، وكان يطلق عليه أيضاً اسم صاحب القلم الشريف ؛ ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ، فيعرضها على الخليفة لبحثها واعتقادها . ويستشير الخليفة

(١) شفا

(٢) ابن القاية : سيرة أحمد بن طولون ص ١٥ .

في أكثر أموره . وقد ذكر ابن ميسر (ص ١١٣) أن كاتب الإنشاء كان يطلق عليه كاتب السر ، وأن أبا الفرج محمد بن جعفر النربى كان أول من تلقب بهذا القب في عهد المستنصر الفاطمي سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

وبل صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع على اللطام وبجالس الخليفة في خلوته ، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويطلع به على ما يخط . وكان راتبه مائة دينار في كل شهر . وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ؛ فإذا انتهى المجلس أتى في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ندى (مزوج بالمسك) ليتخير به عند دخوله على الخليفة في المرة التالية .

وفي الشطر الأخير من الخلافة الفاطمية ، حين أصبح الوزير صاحب السيف والقلم ، كان يجلس الوزير للظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق يقوم مقام كاتب السر ، وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل والنظر في الشكاوى قبل انعقاد الجلسة^(١) .

وبلى صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل ، ومهنته تسلم رقايع الظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها^(٢) . وو أن عبارة القلقشندي تدل على أن هذا الموظف كان أعلى في المرتبة من صاحب القلم الدقيق ، إلا أن مرتبته كانت في الواقع أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، إذ كانت تسمى الخدمة الصغرى .

وكان الكتاب يتناوبون عادة ممن اشتهروا بسمه الاطلاع في الأدب ، ويتناوبون بالمقدرة في من الإنشاء ، كما كانوا من كبار رجال الدولة الذين تجرى عليهم الصلات والمهايات .

وفي عهد الفاطميين نبغ أبو عبد الله القضاة (١٠٦٢/٤٥٤+) في الكتابة حتى أصبح من كتاب البلا . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجاني في أن يكتب العلامة

(١) القلقشندي ج ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩١ . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ص ١٠٤ - ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

أو الإشارة التي تذيّل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العيارة : الحمد لله شكراً لعمته .

ولم يكن الحاجب في الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ في العصر العباسي الثاني . ويقول ابن خلدون إنه لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم الهداوة التي كانت فيهم . وربما يوجد في دولة البيهقيين عند استنظامها وحضارتها ، إلا أنه قليل . ولكن الحاجب كان — بلا شك — من رجال البلاط الفاطمي ، بدليل ما يقوله القلقشندي^(١) من انتقاد مجلس الملك في عهد الفاطميين : إن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذي يتمتع به الحاجب في البلاد الإسلامية الأخرى : ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين ، بل اتخذ كل من قاضي القضاة والوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم .

٢ — النظام الإداري

(١) البرمجة على البرامه :

انضمت رمة الدولة الفاطمية حتى شملت بلاد المغرب ومصر والشام وفلسطين وبلاد الحباز واليمن . وكان بعض هذه البلاد يدين بالتهيبة المطلقة للخلفاء الفاطميين ، فيولون عليها المال ويحبون الخراج ، ويماملون أهلها معاملة المصريين أنفسهم كما حدث في بلاد الشام وفلسطين بعد أن فتحت على يد جعفر بن فلاح . ولم تكن الحالة في سورية وفلسطين مستقرة . بمعنى أن أمرها لم يستقر فقاطميين طوال عهدهم ، فقد كان أهلها لا يفترون عن إذكاء نار الفتنة والمخروج على الخلفاء الفاطميين ، حتى كانوا يذهبون للعباسيين تارة

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

ذكر القلقشندي أنه كان مجلس باب قاضي القضاة خمسة حجاب : ثمان بين يديه ، واثنا على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الحضور . وكان من عادة الوزير أن تحمل له اللوازة الأهلة بالنعيب من عزلة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب ج ٣ ص ٤٩٠ .

والفاطميين تارة أخرى . كما غزاها القرامطة الذين نازعوا سيادة الفاطميين على هذه البلاد ، ودخل بعضها في طاعة الحمدانيين ، وأصبح بعضها الآخر مجالا للصراع بين الفاطميين والسلاجقة حين استولى أنسز على دمشق في ١٧ ربيع الثاني سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ، ثم بينهم وبين الصليبيين .

وهناك أسماء ولاية دمشق من قبل الفاطميين نقلها عن معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي لزامباور^(١) :

أولا : عمال دمشق .

سنة الولاية	اسم العامل
٣٥٨ هـ	أبو علي حمزة بن فلاح الكنتامي
١٠ رمضان ٣٦٣ هـ	غلام بن موهوب الثقيل
٤٥٠ - ٤٥٢	ناصر الدولة الحمداني (عامل فاطمي)
٤٥٢	حوصرت حلب ووليا ثلاثة ولايات في ثلاثة أيام
٤٥٢	رشيد الدولة محمود
٤٥٢	شمال (للمرة الثالثة ، توفي في نهاية ٤٥٣ هـ)
٤٥٣	أبو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس
٢٥ ذو القعدة ٤٥٤	رشيد الدولة محمود (للمرة الثانية توفي ٤٦٦ هـ)
٤٥٧	إقامة الخطبة للعباسيين
٤٦٢	حاصرها أسب أرسلان واستولى عليها
٤٦٣	جلال الدولة نصر (قتل ٤٦٨)
٤٦٦	أبو الفتح بن سابق (أخوه)
٤٦٨	وثاب بن محمود (مرداسي ثائر)
٤٦٨	حاصرها نش وشرف الدولة مسلم
٤٧٢	سلم سابق لفدنة مسلم
٤٧٥ هـ	شرف الدولة مسلم (الثقيل)
٤٦٨ هـ (٢)	استولى قد عليها
	ثانياً : عمال حلب ^(٢) .

الفاطميون :

٤٠٧ هـ

عزيز الدولة داتك الواحدي

- (١) - ١ ص ٤٤ - ٤٦ . وقد أورد القلقشندي ج ٤ ص ١٦٤ أسماء بعض هؤلاء العمال ، ولكن ما ذكره د . مور أكثر شيطناً لاعتقاده على مراحع مادية ككتب السمكة والتفوش إلى جانب المصادر التاريخية .
- (٢) - إمباور ج ١ ص ٥١ - ٥٢ .
- (٣) - إمباور : ج ١ ص ٥١ . راجع القلقشندي ج ٤ ص ١٦٤ .

اسم العاقل	سنة الولاية
صلى الدولة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الكتاني (بالمدينة)	١٠ ربيع الأول ٤١٣
عبد الدولة سعادة	٤١٤
سند الدولة أبو محمد الحسن بن محمد بن طهان الكتاني (بالمدينة)	٨ ٤١٣
منصور الحلي (بالقلمة)	٤١٣
مرتضى الدولة (للمرة الثانية)	٤١٥

بنو مرداس :

صالح بن مرداس	١٢ ذو القعدة ٤١٥
شبل الدولة أبو كامل نصر (صاحب المدينة)	٤٢٠
مصر الدولة أبو علوان تمال (صاحب القلمة)	٤٢٠
شبل الدولة (احتل القلمة) .	٤٢١
أوتشكين (استول على المدينة باسم الفاطميين)	٤٢٩
ولي تمال للمرة الثانية ولكنه أفسد في رمضان	٤٢٩
حاصرهما ناصر الدولة الحمداني	جمادى الآخرة ٤٤٠
احتلها الفاطميون	٤٤٤
استول تمال	ذو القعدة ٤٤٩
مكنين الدولة أبو علي الحسن بن علي بن ملهم (عامل الفاطميين)	٤٤٩ - ٤٥٠

ونمة ولايات أخرى كانت تتمتع بتعصيب وافر من الاستقلال الذاتي مع التسمية الاسمية للخليفة الفاطمي التي تتمثل في ذكر اسمه على الخطبة ونقشه على السكة . وكان أسراء هذه الولايات يتوارثون الملك ويتخذون ولاية اليهود . فإذا تولى أمير جديد بشوا إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة يطلبون منه سجل التقليد والاعتراف بشرعية حكمه ويلتمسون الخلع والألقاب . ومن هذه الولايات ولاية إفريقية التي ظلت وراثية في أعقاب بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي من سنة ٣٦٢ إلى سنة ٥٤٣ هـ حين استولى الزمانيون على مدينة المهديّة ، ونزل أسراء بني زيري يدينون بالتبعية للخليفة الفاطمي حتى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) حيث قطعت الخطبة للمستنصر الفاطمي . وإليك نبأ بأسراء بني زيري الذين تعاقبوا على ولاية إفريقية^(١) :

١ - بنو زيري بأفريقية .

اسم الأمير	سنة الولاية
١ - أبو الفتح يوسف بلكين بن زيري	المهرم ٢٦٢ هـ .

- اسم الأمير
- ٢ - المنصور بن يوسف (لقب عفة العزيز بالله)
 ٣ - أبو سنال باديس بن المنصور ، ناصر الدولة .
 ٤ - المنز بن باديس ، شرف الدولة (استقل بالأمر سنة ٤١٧ هـ)
 ٥ - أبو طاهر تميم بن المنز (استولى الفرنجة على المهديّة ٤٨٠ هـ)
 ٦ - أبو طاهر يحيى بن تميم (قتل في ٦٠ ذي الحجة ٥٠٩ هـ)
 ٧ - علي بن يحيى
 ٨ - أبو يحيى الحسن بن علي (حكم المهديّة من قبل عبد المؤمن ٥٥٥ هـ)
- سنة للولاية
- ٢١ ذو الحجة ٣٧٣ هـ
 ٢ ربيع الأول ٣٨٦
 ٣٠ ذو القعدة ٤٠٦
 ١٥ رجب ٥٠٣
 ١٥ ذو الحجة ٥٠٩
 ربيع الثاني ٥١٥ (١)

٢ - الكليوب بصفية .

- الحسن بن أحمد بن أبي شاذلي
 علي بن عمر البلوي
 أحمد بن زيادة الله بن قرقب (أعلن طاعة العباسيين)
 أبو سعيد موسى بن أحمد ، يدعى الفيف
 إسحق بن أبي مهال
 سالم بن راشد
 أبو العباس خليل بن إسحق
 صلاح الأزدى
 الولاية الكليوب (مقرهم مازر)
 الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبى
 أبو الحسين أحمد بن الحسن
 هاد الحسن بن علي أبيض الأمور في نصاها
 يعيش (مول الحسن بن علي)
 أبو القاسم علي بن الحسن العلوي
 الحروب في بلورية (Calabre, Ponille)
 جابر بن أبي القاسم علي
 جعفر بن عمدة بن أبي القاسم علي
 عبد الله (أخوه)
 أبو الفتح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن (اعتزل ٢٨٨)
 جعفر بن يوسف (تاج الدولة) غادر سقاية (٤١٠)
 أحمد الأكحل بن يوسف (تأييد الدولة) (الآثار)
 علي بن يوسف (لكتائر) (أسر وقتل في ٧ شعبان ٤٠٥)
 الثورة في ملزم ، يوسف وولده جعفر يفادان الجزيرة
 أحمد الأكحل بن يوسف (من جديد)
 غزو التومندين .
 الحسن الصمصام بن يوسف
 محمد بن أمية ، القائد بالله ، المنتصب (استعفى الزيريين ثم التومنديين) (٢)
- ٢٢ ذو القعدة ٣٧١
 ٢٧٣
 ٣٧٥
 ٣٧٩
 ٣٨٨
 ٣٨٨
 ٤٠٥
 ٤١٠
 ٤١٠
 ٤١٦
 ٤١٦
 ٤٢٧

(١) زامبورج ١ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) زامبورج ١ ص ١٠٨

سنة الولاية

اسم الأمير

٢٦٦ هـ	طاهر بن مسلم (توفي ٢٨١ هـ)
٢٩٧ هـ	الحسين بن طاهر بن مسلم
٣٠٠ هـ	أبو علي داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر
٣٩٠ هـ	تولى لمراء مكة أمر المدينة من قبل الحاكم بأمر الله
٣٩٠ هـ	عاقب بن داود بن القاسم
٣٩٠ هـ	مهنا بن داود بن القاسم
٤٢٨ هـ	هاشم بن الحسن بن داود (من قبل المستنصر)
٤٩٥ هـ	منصور بن عمارة الحسيني

وقد ذكر ابن الأثير^(١) الصفات التي يجب أن يتحل بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدير شؤونها والعمل على إيساد أهلها ، فقال إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا « رجل قد تكاملت فيه خصال أربع : حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصدريها ، وعلم يحجزه عن التهور والتفريط في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها ، وشجاعة لا تقضها للمفات مع تواتر جوائعها ، وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها ، وسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان ، وقتل الوطأة على أهل الزينج والمدوان ، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان . وأما الائتنان : فيسقط الحجاب عن الرعية ، والحكم بين القوى والضعيف بالسوية ، وأما الوحدة فالتيقظ للأمر . وقد اخترت لهم رجلا من موالى أحدم ، شديد الشكينة ماضى الزينة ، لا تبطره السراء ، ولا تدهشه الضراء ، ولا يهاب ما وراه ، ولا يهوله ما يلقاه . . إن حرك حمل ، وإن نهش قتل ، عذته عقيدة وثقته شديدة . يلتقى الجيش في الفتر القليل المديد بقلب أشد من الحديد ، طالب للثأر لا تفله المساكر ، باسل لباس ، ومقتضب الأنفاس ، لا يعوزه ما طلب ، ولا يفوته من هرب ، واري الزناد ، مضطلع للماد ، لا تشرهه الرغائب ولا تعجزه التوائب . وإن ولي كفى ، وإن قال وفى ، وإن نازل فيطل ، وإن قال قل . ظله لوليه ظليل ، وبأسه في المياج عليه دليل . يفرق من ساماء ، ويسجن من ناواه ، ويتصب من جاره ، وينفش من والاه . »

ولم يغير العرب نظم الحكم في مصر تغييراً يذكر بعد الفتح ، حتى جاءت الدولة الفاطمية ، فأدخلت عليه كثيراً من التغيير . فقد عمل جوهر الصقلي على إحلال المنارية

الشيخين محل للصريين للسنين في الناصب الهامة ، ليفسح المجال أمام هؤلاء الفاربة . ويقول القرزى ^(١) « إن جوهرها لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغريباً شريكاً لمن فيه » . ومن أهم الأعمال الإدارية التي أسندت إلى الشيخين : الوزارة ، وجباية الخراج ، والقضاء ، والحسبة . ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين في الأندلس اختلافاً يذكر عنه في عهد الصباسيين .

وكانت مصر وهي قاعدة الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات كبرى هي :
(أولاً) ولاية قوص ، وكانت أعظم ولايات مصر ، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد ، ويتولى إقليم الأثمنين بالإضافة إلى عمله الأصلي .
(ثانياً) ولاية الشرقية ، وتلى ولاية قوص في الرتبة ، وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقلوب وأشموم .
(ثالثاً) ولاية الغربية ، وتلى ولاية الشرقية في الرتبة ، وبلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار .
(رابعاً) ولاية الإسكندرية ، وتلى ولاية الغربية في الرتبة ، وبلى عاملها إقليم البحيرة كله .

وكان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزاعة الكسوة بالبدنة ، وهو الثوب الذي يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج ^(٢) .

وكانت هذه الولايات الأربع تضم كورا أخرى صغرى فصلها ابن عماني في الباب الذي عقدت لتقسيم الإداري في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين ، وهي : الشرقية ، والرحمانية ، والدقهلية ، وجزير قويسنا ، والغربية ، والسندودية ، والدجاوية ، والمنوفية ، وجزيرة بني نصر ، والتشترأوية ، والبحيرة ، وحوف رمسيس ، والكفور الشاسمة ، وفوة ، والزاحمتين ، والجيزية ، والإطنحية ، والبوصيرية ، والقيومية ، والبهناوية ^(٣) ، والأثمنونين ، والأسيوطية ، والإخميمية ، والقوصية ^(٤) .

(١) دلائل الخلفاء ص ٧٨ .

(٢) انقلشتلي : ج ٣ ص ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٣) وهي مديرية المنيا الآن .

(٤) ابن عماني : قوانين الدواوين ص ٨٥ - ١٠٨ .

وقد أورد أبو صالح الأرمني^(١) بياناً يشتمل على النواحي والكفور بكل كورة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، وهو كما يلي :

الوجه البحري

المجموع	عدد كفورها	عدد نواحيها	الكورة أو المديرية
٤٥٢	١٥٨	٢٩٤	الشرقية
٨٩	٤١	٤٨	المرتاحية
٧٠	٣١	٣٩	الدهليّة
٧٤	٦	٦٨	حريرة قوسيا
٣١٤	١٦٥	١٤٩	الغربية
١٢٩	٣٢	٩٧	السمودية
١٠١	٣٢	٦٩	المنوفيتين
١٣	٣	١٠	قوة والمراحتين
٦	~	٦	النستراوية
٣		٣	رشيد والحديذية وإدكو
٦٤	٢٣	٤١	حزيرة في مصر
١٧٦	٨٩	٨٧	البحيرة
١٠١	١٠١		حوت رمسيس
١٥٩٨	٦٨١	٩١٧	المجموع

الوجه القبلي

			الخزينة
٩٧	٢٧	٧٠	الإقليسية
١٧	٤	١٣	البحيرية
١٤	١	١٣	العبودية
٦٦	١١	٥٥	الأشموقين
١٠٥	٢١	٨٤	البنهاوية
١١١	٥٧	٥٤	الأسوطية
٥٤	٣٢	٢٢	المجموع
٤٦٤	١٥٣	٣١١	

جهة النواحي والقرى بالوجه البحري والقبلي

المجموع	عدد القرى	عدد النواحي	الجهة
١٥٩٨	٦٨١	٩١٧	الوجه البحري
٠٤٦٤	١٥٣	٣١١	الوجه القبلي
(٢) ٢٠٦٢	٨٣٤	١٢٢٨	المجموع

(١) كتاب كاشي وأديرة مصر ص ١٠ وما يليها .

(٢) انظر أيضاً : حرطوسون : كتاب مالية مصر ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

دور الضرب :

وتبين لنا كتب السكة نواحى أخرى من التقسيم الإدارى ، ونفى بها دور الضرب ، وهى البلاد التى كانت الحكومة تتخذها مراكز لسك النقود وضرب العملة . وليس من شك فى أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التى يقيم بها أسراء الولايات ، حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية . وهناك ناحية أخرى تبينها كتب السكة ، وهى السنة التى ضربت فيها النقود لأول مرة : فهى تبين التاريخ الذى أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة للإقليم ، كما تبين السنة التى انقطع فيها ضرب النقود بمدينة من المدن ، وهى تدل أيضاً على التاريخ الذى انتهت فيه أهمية المدينة كخاضرة لهذا الإقليم . وإليك تبداً بأسماء دور الضرب فى مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية ، مثل صقلية وإفريقية وبلاد الشام .

دار ضرب Place of Mint	الإقليم	السنة التى بدأت فيها السكة	نهاية السكة	ملاحظات
الإسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥	
أيلة	فلسطين	٥١٤	—	
تيماء	فلسطين	٥١٤	—	
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤	
دمشق	الشام	٣٦٨	٤٤٦	
زويلة	إفريقية	٤١٤	—	
صقلية	صقلية	٣٤٣	٤٥٦	
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤	
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠	
طرابلس	الشام	٣٦٧	٤٧٥	
مسفلن	الشام	٥٠٧	—	
عكا	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥	
فلسطين	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤	
القيروان	إفريقية	٣٠٣	٣٣٥	
مصر (المملوك)	مصر	٣٦١	٤٦٤	
المنصورة	إفريقية	٣٤١	٤٥٤	
المهنية	إفريقية	٣١٥	٤٢٠ (١)	

(ب) الرواوي :

وفي عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين ، على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخبوهم وما إلى ذلك ، وديوان الكسوة والطراز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس وبشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويمد صاحبه استشارات الرواتب ويعرضها في كل سنة على الخليفة . وقد أورد الفلقشندي^(١) عبارة شائعة عن الطريقة التي كانت تقدم بها رواتب الموظفين للخليفة المستنصر لاعتبارها فقال : إن الخليفة لم يغير شيئاً في القاعة التي اشتملت على الرواتب ، ووقع فوق إمامائه بخط يده : « الفقر المذاق ، والحاجة تذلل الأعناق ، وحراسة النعم بإدراك الأرزاق ، فليجروا على رسومهم في الإطلاق (ما عندكم ينقد وما عند الله باق) »^(٢).

وكان بقصر الوزير ابن كلثوم عدة دواوين ، بعضها لميزية^(٣) ، والبعض الآخر للجيش والمالية والكتاب (السكرتيرية) والسجلات وما يتعلق ببجاية الخراج ؛ وقد جبل لكل ديوان ما يلزمه من الكتاب .

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام^(٤) وديوان الحجاز ، وقد تولاهما في عهد الميز الفاطمي أبو طاهر النحوي الذي كان يعرف بالكتاب ، وكانت مهمته إخبار الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى^(٥) . وكذلك ديوان الخفاصة الخليفة ، وقد تولاه ابن نسطورس^(٦).

ومع ذلك فإن ما أورده يحيى بن سعيد يناقض ما ذكره ابن ميسر^(٧) ، من أن ابن

(١) صحيح الأعمش في صناعة الإنشاج ٣ ص ٤٩٥ .

(٢) سورة النحل ١٦ : ٩٦ .

(٣) يقصد بديوان الميزية كما يظهر من القبط ، الديوان الذي ينظر في الأمور التي تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالخمس وشئون معيته .

(٤) ابن التلاني ص ٥٩ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٤ .

(٧) تاريخ مصر ص ٥٤ .

نسطورس تقلد ديوان الخليفة إلى أن قتل بعد شهر قليل .

وإنما نغفل إلى حجة هبارة ابن منجب و تراها أرجح من رواية يحيى بن سعيد ، ولو أن وفاته (٥٤٢ هـ) كانت بعد وفاة يحيى بن سعيد (٤٥٨ هـ) بما يقرب من ثمانين سنة . فإنه فضلا عن كونه مصرى اللولك والهدار ، فقد تقلد أيضا ديوان الرسائل ؛ ولا يبعد أن يكون قد حصل على هذه الأخبار من وثائق رسمية . لذلك نرجح أن ابن نسطورس نقل إلى ديوان الخليفة عند صرفه من الوزارة ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنه اتهم بالتلاعب في أموال الدولة ، فأعطى بذلك خصمه زعيم الكفامين سلاحا لتخلص منه بقتله .

وكان عدد الموظفين في أيام الفاطميين كبيرا : منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين ، وصاحب بيت المال ، وهو أشبه بوزير المالية الآن ، وقاضى القضاة ، وينظر في الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط هيارها . وعلى قاضى القضاة في الرتبة دأى المعتاد ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في المساجد ودار العلم ؛ والمحاسب ، وله النظر في الأسواق ، والإشراف على الموازين واللكايل واستيفاء الدينون والحفاظة على الآداب والفضيلة والأمانة . ومن كبار الموظفين في العهد الفاطمى وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، ويستقبل سفراء الدول وينظم في الأمان كن اللاتفة بهم ، ويرتب القراء الذين يقرءون القرآن بمحضرة الخليفة ، وهم الذين يعرفون بقراء الحضرة^(١) .

وكان القبط عادة أمهر من مواطنيهم المسلمين بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير في ديوان الخليفة ، وكانوا هم وبعض النصارى المسلمين يستخدمون في كافة فروع الإدارة ، وتدرجوا في المناصب حتى أسندت إليهم الوزارة . ولقد حازت هذه السياسة القبول من الوجهة العملية . إلا أنه قد دبت الكراهة لهم في النفوس عندما أصبح منهم كل جنة الضرائب والقائمون على أموال الدولة .

ويقول أوليري (O'Leary)^(٢) : « إن النظام الإدارى للشئون المالية في الشرق قد أمد القبط واليهود بفرصة أظهرها فيها ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة ، تلك

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : القبط الإسلامية من ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) A Short History of the Fatimid Khalifate, p. 114.

المواطن التي لم يستطيعوا كبح جماحها ، حتى لقد قام الليل على حمة ما رُموا به من التهم الكثيرة . على أن استخدام النصارى واليهود في المناصب المدنية هو عرف شائع قليلا أو كثيراً في البلاد الإسلامية ، فقد بالغ القاطميون أنفسهم في استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل .

فى جمادى الثانية من سنة ٣٩٣ هـ أشار ابن العداس — وكان من وزراء العزيز القاطمى — على أبى طاهر النعموى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكان يتولى ديوان الشام^(١) ، أن يخبر الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى ومناصرة فهد لم وتفويضه إليهم الأموال والديوان^(٢) ، وأن يضيف إلى ذلك أن فهداً « آفة على المسلمين وحدة لـنصارى » .

(ج) البربر :

كان البربر من الوسائل التي تدرع بها أحمد بن طولون في مناوأة الخلافة العباسية ، فقد استطاع أن يعين أحد المقرين إليه عاملاً للبربر في حاضرة الدولة العباسية ليكون عيناً له ، يوافيه بما يجري فى العراق وبما يحكيه له أداؤه من مؤامرات فى هذه البلاد . واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات مناسيه فى مصر عن كانوا يشون به عند الخليفة ، ويظهر البلاد منهم . وقد اطمأن بفضل هذه الجاسوسية التي أقامها فى بغداد على مركزه فى مصر . ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى المعتد ، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر ، وألب للقواد عليه ، أخبر عامل البربر ، ابن طولون بهذا ، فاحتاط لنفسه وأحبط هذه المؤامرة^(٣) .

وكان لطرق البربر أثر كبير فى تبسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتد . وقد أمر خمارويه عمال بربر مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصرأ تنزل فيه .

(١) كان أبو طاهر ينقل ديوان الحجاز على ما ذكره ابن القلائى (ص ٥٩) .

(٢) ابن القلائى ص ٥٩ .

(٣) المقرئى : غلط ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

وعما ذكره أبو المحاسن^(١) نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيها الوزؤى ، ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد . وإنشأ لنصف كثيراً عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين ولا في عهد الفاطميين المهم إلا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل . فقد ذكر القلقشندي^(٢) أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . « وحافظ عليه (الحمام) الخلفاء الفاطميون ، وابتاعوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام » . وقد ذكر هذا المؤرخ في مكان آخر^(٣) . « أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزير يعقوب بن كلث ، أنه ما رأى القراصية البلبكية ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق . فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام للمصرى ، ويطلق في كل طائر حبات من القراصية البلبكية ، ويرسلها إلى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلث وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الفرائب لديه . . . وذكر أيضاً أن الوزير البازورى المغربى ، وزير المستنصر بالله الفاطمى ، وجه الحمام من تونس من إفريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مصر ، والمهددة عليه في ذلك » .

(ى) الشرطة :

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة القسطنطين . ولما تأسست مدينة المسكر سنة ١٣٧ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار للشرطة في القسطنطين دار الشرطة السفلى ، وانقسمت للشرطة بذلك قسمين :

١ - الشرطة السفلى ومقرها القسطنطين .

٢ - والشرطة العليا ومقرها المسكر . ووربما سميت بهذا الاسم لأن مكان المسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمالى القسطنطين . ومن ثم سميت الشرطة العليا^(٤) . ولما فتح

(١) التاجم للزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) صبح الأمان ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣٩١ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

جواهر الصقل مصر نقل الشرطة العليا من السكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقاق^(١) أن صاحب الشرطة توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جواهر إلى مصر ، فأُسند عمله إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في القسطنطين ونقلها عروبة بن إبراهيم وشبل المرص^(٢) . كما قسمت الشرطة قسمين : (أ) الشرطة العليا^(٣) ، ومقرها القاهرة ، وقد أسندت إلى جبر (ب) والشرطة السفلى ومقرها القسطنطين ، وقد أسندت إلى عروبة بن إبراهيم وشبل المرص^(٤) .

ونستطيع أن نفهم من قصر هذه الأوامر على مصر القديمة ، أن القاهرة كانت لا تزال صغيرة جداً بالنسبة إلى القسطنطين ؛ إذ كانت تشمل قصر الخليفة والجامع الأزهر وبعض الساكن الأخرى . أضف إلى ذلك أن سكان القاهرة كانوا من الشيعة قلوباً أو كثرولاً ، فقد كانوا يؤثفون حرس الخليفة ورجال الحاشية .

٣ — النظام المالى

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدير الذى لجأ إلى القسوة فى جباية الخراج ، فزاد الضرائب وحجر على التطرون بعد أن كان مباحاً ، وفرض على السكلا المباح ضريبة سميت « مال المراهى » ، كما قرر على ما يصاد فى البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة اسمها « مال المصايد » . وكانت مال الضرائب ينقسم فى ذلك الوقت قسمين : خراجى وهلالى .

١ — فالخراجى : ما يؤخذ على الأرض التى تزرع حبوباً ونخلاً وحبناً وطاقية ، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل القمح والذجاج .

٢ — والهلالى : ما يؤخذ من الضرائب على السكلا وما يصاد من السمك . وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدير وما بعده بالرفاق والمناون .

(١) الانتصار لرواسطة عقد الأصم ج ٤ ص ١١ .

(٢) المقرئى : انطايا الحنفا بأشعار الحنفا ص ٩٥ .

(٣) بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، كانت دار الشرطة فى مدينة القسطنطين . ولما تأسست مدينة السكر أنشئت فيها دار أخرى لشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة الأولى لشرطة السفلى . وفى أيام الفاطميين انقسمت لشرطة قسمين .

(٤) المقرئى : التماظ الحنفا (ص ٩٥)

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة ، ويتصرف فيما بقي تصرفاً لا يتفق ومصلحة البلاد ، مما أدى إلى تأخرها ، ونقص خراجها إلى ٨٠٠.٠٠٠ دينار مع أنه بلغ ١٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار في عهد عمرو بن العاص ، ١٤.٠٠٠.٠٠٠ دينار في عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وقد عمل أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) على التخلص من ابن المدبر ، وصرف عن مصر ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن (٢٥٧ هـ) ولما ولي ابن طولون شئون مصر كلها ، زاد الخراج في عهده حتى بلغ ٤٣٠٠.٠٠٠ دينار في السنة . ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى السف في جمعه . على أن الخراج لم يلبث أن نقص في عهد ابنه خارويه لما عرف به من التبذير والإسراف^(١) .

وقد تولى جباية الخراج في مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة واحدة هي أسرة للمدارئين الذين انسمت سلطتهم في هذه البلاد . ومن مشهورى هذه الأسرة أبو بكر محمد ابن علي المادرائي الذي قدم مصر في سنة ٢٧٢ هـ ، وبقى فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فماد معه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بث بهم الخليفة العباسي للقندر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباصة بن يوسف الكتاني وأبي القاسم بن عبيد الله المهدي .

اشتهر أبو بكر المادرائي بالورع والتقوى ، حتى إنه كان يكثر من تلاوة القرآن والصلاة وأداء فريضة الحج . قيل إنه حج سبعاً وعشرين مرة كان يذلل في كل منها مائة وخمسين ألف دينار . وقيل أيضاً إن خراج ضياعه بلغ أربع مائة ألف دينار في السنة . ولكن هذه الثروة الضخمة أثار حسد منافسيه وأدت إلى إلحاق الأذى به ، حتى أحرقت دوره وصودرت أملاكه أكثر من مرة . ولما تقلد الإخشيد مصر للمرة الثانية حال أبو بكر المادرائي دون دخوله إليها ، وعزم على قتاله ، ولكنه هزم واختفى . ثم أطلقه الوزير أبو الفضل جعفر بن القرات ، ولكنه لم يلبث أن صادراً أملاك المادرائي في مصر والشام^(٢) .

(١) كان خارويه يرسل إلى دار الخلافة ٢٠٠.٠٠٠ دينار مقابل ما تأخر من الخراج في عهد أبيه ، و٣٠٠.٠٠٠ دينار في كل عام ، فليترتب منه هو وأولاده في حكم مصر وما يليها من الأراضي المحتلة من القرات بأربعة ثلاثين سنة .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ص ١٤ - ١٦

يبد أن الإخشيد هنا عنه وأطلقه في سنة ٥٨٣هـ ، واستوزره وخلع عليه وقوض إليه الأمور ، ثم اعتقله بعد قليل ، فظل في معتقه حتى مات الإخشيد ، ثم عاد نجه إلى الظهور في عهد وصاية كافور ، وتوفي في شهر شعبان سنة ٥٤٥هـ .

وقد ذكر المقرئى^(١) أن خراج مصر بلغ في عهد الإخشيد ٢٠٠٠٠٠٠ دينار ، سوى ضيائه التي كانت ملكا له ، وأن هذا الوالى كان أول من عين رواتب لمستحقى الصدقة . وقد بلغت هذه الرواتب في عهد كافور الإخشيد ٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، « لأرباب النعم والمستورين وأجناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الأعمال » .

بذل كافور الإخشيد جهده في تنمية موارد الدولة ، حتى زاد خراج مصر في عهده على ٢٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة . ولم يكتب اسمه على السكة ، بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسى وحده .

ولما فتح الفاطميون مصر ، أقر جوهر على بن يحيى بن المرمم على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يلبث أن اشترك معه رجاء بن صولاب . ثم حل محلهما في الإشراف على جباية الخراج يعقوب بن كلس وعُلوچ بن الحسن ، وجعلت جباية الخراج قسمين : أسند أحدهما إلى على بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وأسند الثانى إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقرئى^(٢) أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية جوهر ٣٤٠٠٠٠٠ دينار ، بعد أن انحط كثيرا في أواخر عهد كافور الإخشيد .

ولما جاء الخليفة المزمع لدين الله الفاطمى مصر في أواخر سنة ٣٦٢هـ ، أمر يعقوب ابن كلس وعُلوچ بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب ؛ فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد ، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها . فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التي قضت بنقص الشكايات ،

(١) خط ج ١ ص ٩٩

(٢) خط ج ١ ص ٩٩

وبفضل ما سلكته الدولة من حزم في تنفيذ هذا النظام الجديد . وقد ذكر ابن ميسر^(١) أن الضرائب التي كانت تجمع من القساطر تتراوح بين ٥٠.٠٠٠ ، ١٢٠.٠٠٠ دينار في اليوم ، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار في اليوم . وينتدب على العن أن ابن ميسر أخطأ في بيان هذه الضرائب ، فقد كرر لفظ دنانير بدل دراهم .

وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية في عهد وزارة الحسن بن علي البيازوري ٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار في السنة . وتقدم « إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه وما عليه من النفقات ؛ فسل ذلك وسله إلى متولى ديوان المجلس ، وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جامعا وأحضره إياه ، فرأى ارتفاع الدولة ألفي ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بإزاء ارتفاعه ، وباقي الدولة ألف ألف دينار ، يقف منها من معلول ومتكسر على موتى وهرباء ومفقود مائتا ألف دينار ، ويبقى ثمانمائة ألف دينار ، يعرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثمانمائة ألف دينار ، وعن ثمن غلة القصور مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار ، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة^(٢) يحسبها كل سنة إلى بيت المال المصون ، فخطى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه^(٣) .

وقد جعلت جباية الخراج قسمين : أحدهما في يد علي بن محمد بن طباطبغا وعبد الله ابن عطاء الله ، وثانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري^(٤) . وكان صاحب بيت المال محمد بن الحسين بن مذهب ؛ ولم يمض قليل من الزمن حتى أدخل على إدارة المذهب الحكومية تشيير كبير .

فقد ذكر ابن ميسر^(٥) أن يعقوب بن كلثوم وعُسلوح بن الحسن قد عهد إليهما سن

(١) تاريخ مصر ص ٢٦

(٢) أي زائدة بعد النفقات .

(٣) الفريرزي : خبطج ١ ص ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٠

(٤) كان هؤلاء الموظفون تحت إشراف يعقوب بن كلثوم وعُسلوح بن الحسن ، يوبون عنهما في جباية الخراج .

(٥) تاريخ مصر ص ٤٥ .

نظام جديد للضرائب ، ولقد بدأ الخليفة في منتصف الحرم سنة ٣٦٣ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة^(١) .

وقد بقي على " بن يحيى بن العزم " قائماً على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يمض شهر حتى شاركه في ذلك رجل آخر ، هو رجاء بن صولاب^(٢) . ومع أن القرظي لم يذكر لنا إن كان هذا العامل الجديد مصرياً سنياً أو شيعياً ، أو مفرجياً ، فإنه من الحق أن لدينا أنه كان مفرجياً ، كما يؤخذ من العبارة التي نقلها عن القرظي^(٣) وهي : « أن حوهر لم يدع عملاً إلا جعل فيه مفرجياً شريكاً لمن فيه » . وقد تقلد يعقوب وعسلج جميع الأعمال والحسبة والسواحل والأشعار^(٤) والجوالي^(٥) والأحباس^(٦) والموارث والشرطين وكل ما يضاف إلى ذلك في مصر وسائر الأعمال^(٧) .

وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم ، وأشهى نظام جديد في تقدير الأملاك وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره في مركز واحد . وخصت مصادر الضرائب على اختلافها ، وتشددت الحكومة الجديدة في تحصيل ما تأخر منها ، كما اهتمت

(١) متكلم على أعمال الحسب المتعددة في المادة التي أمر دناه الكلام على النظام القضائي في هذا الباب .
(٢) أورد القضاة (المكتبة الأهلية باريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٧ ب) هذا اللفظ " رجاء " . وقد أتى لنا نفس مؤلف هذا المخطوط عن أبي حنيفة من أن طنين تقدموا هذا المنصب في عهد جوهر فقال : " متولى الخراج منذ دخل جوهر على بن العزم ، أبو محمد الروذباري ، رجاء بن صولاب ، عبد الله بن عطاء الله ، أبو الحسن الكرخي " . على أن هذه العبارة لا تدل على أن هؤلاء الموظفين الخمسة تقلدوا هذا المنصب في وقت واحد ، فإن المؤلف أو الناسخ لم يصح علامة العطف الثلاثة على الترتيب بين كل اسم وآخر . هذا إلى أن لفظ " منذ " يقرب إلى البعض أن هؤلاء الخمسة قد تقلدوا هذه الوظيفة بالتعاقب ، أو شغلها واحد منهم أو اثنان أحياناً ، وذلك منذ استولى جوهر على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، إلى أن وصل الأمر إلى هذه البلاد سنة ٣٦٢ هـ ، وأنت كافة أمور الدولة إلى يعقوب بن كلس وعسلج ابن الحسن .

(٣) انماط الخفاس ٨٧ .

(٤) كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من فرضها على التجار من غير المسلمين ، لأنهم كانوا يأخذون في ملاتهم عشر ما مع المسلمين من التجارة ؛ ففرض عليهم عمر العشر ، وعلى أهل الفقة نصف العشر ، وعلى المسلمين ربع العشر .

(٥) انظر ما ذكرناه عن الجوالي في الباب الثالث عشر .

(٦) الأحباس هي كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ، وما يحصل من أموالها يصرف فيما أراد الواقف .

(٧) ابن ميسر ٤٥

بالنظر في كل ما تقدم إليها من الالتماسات والشكاوى . وسلكت الحكومة في تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ، وحث من فرضت عليه الضرائب من دفع الأموال كرهاً وهدفاً .

٤ - النظام الحربي

(١) الجيش :

وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدتهم وقت الحروب ، وكان هذا الجيش يتكون من الأسماء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ؛ فالأسماء كان يخلع على بعضهم بأطواق الذهب فيحملونها حول أعناقهم ، والبعض الآخر يركب في اللواكب بالقُصْبِ النضية التي يخرجها لم الخليفة من خزانة التَّجَمُّل . أما طوائف الجند فكانت تتكون من عدة عناصر ، كالنفارية والأتراك والأكراد والنَزْ والذَّيْل والمصادة^(١) والسودان . ولكل طائفة من هؤلاء قائد يراقبهم ويقوم بترتيبهم في مواقعهم ، وكان بعض هذه الطوائف ينسب إلى الخلفاء كالحفاظية^(٢) والأسمية^(٣) ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية^(٤) والأفضلية^(٥) . وكان قائد الجيش يسمى أسفهلار المسكر كما تسمى وظيفته الأسفهلارية^(٦) .

ومن نوصف الذي أورده ناصر خسرو عن الاحتفال ببحير الخليج في عهد المستنصر نستطيع أن نقف على ترتيب الجند . يقول هذا الرحالة الفارسي : إن الجند كانوا يسيرون في صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ؛ فيسير في المقدمة البربر ويلهم للثاربة ، ويسير خلف هؤلاء وأوتك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ويلهمهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم هبيد الشراء .

(١) اصمادة : قبيلة من البربر بالغرب أهل شوكة وعدد .

(٢) نسبة إلى الحافظ لعين الله الفاطمي .

(٣) نسبة إلى الأمر بأحكام الله التناطلي .

(٤) نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي .

(٥) نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالي ، راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .

(٦) عهد المنتم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ١٩٢

وكان الخلفاء يجلسون بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلًا منها إلى بلاد الشام وفلسطين التي كان أهلها في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين الشيعيين . وفي هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالثول بين يدي الخليفة ، فيخلع عليه حلقة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التي كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤون ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم تشمل على محتويات هذه الصناديق ، وكانت نوافذ المنظرة تفتح ، فإذا رأى الجند وجه الخليفة خروا له مقبدين الأرض ، ثم يوحى "الخليفة للجيش قسير ويركب إلى منظرة المقدس . وبعد أن يفرغ من استعراض المراكب الحربية يأذن لأمير الأسطول بالثول بين يديه فيخلع عليه حلقة ويودعه ، فيبدأ الأسطول بالمسير^(١) .

(ب) البحرية :

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ، ومحاولة فتح القسطنطينية . وقد ظهر ذلك واضحاً منذ عهد عثمان بن عفان وفي عهد الدولة الأموية التي استقرت في بلاد الشام . على أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جمل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من احتصاص ولائها أنفسهم . وقد بلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين . وكان للسفن في كل منها منار لمداة السفن ، أطلق عليه اسم « الخشب » ، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدم » رأس من يصل فيها من الجند ويقوم بتدريسه وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط . أما القائد العام للأسطول فيدعى « أمير الماء » أو « أمير البحر » ، الذي اشتق منه الأوربيون لفظ Admiral .

وقد اشتهرت مصر في العصر الإسلامي بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن الحربية التي يتكون منها الأسطول

المصرى ، والتي كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لتزود بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنبس والقرما .

ويرجع إنشاء « الصناعة » في مصر إلى هذه الفترة التي شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة ، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس في سنة ٨١٠١ م (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٨٢٣٨ م (٨٥٣ م) . وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام هنبه بن إسحق (٢٣٨ - ٢٤٢ م) والى مصر في ذلك الوقت بتحصين سائر الموانئ المصرية ، كما قام في الوقت نفسه بإنشاء « الصناعة » التي ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية ، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولاً كبيراً من السفن الحربية . ولكن بقاء « الصناعة » في هذا المكان أصبح مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها التوار في سنة ٨٣٢٣ م ثم استولوا على الأسطول المصرى في القيوم واستخدموه في الحرب إلى الإسكندرية ثم إلى برقة . ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت القتيص بن حافان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٨٣٢٥ م) ، ثم أقام في موضعها بستانه المعروف « بالمختار »^(١) .

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التي كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على أمهات مدينتها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوى^(٢) ؛ فأنشأ للمز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية في مدينة مصر (التسطاط والمسكر) ، وفي الإسكندرية ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للرباطة في اللواتى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان .

وأنشأ المز في القس داراً لصناعة السفن بنى فيها ستائة مركب ، وصفها المسبى اللثوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله إنه لم ير مثلاً فيها تقدم كبيراً وثاققة وحسناً . وقد قام الأسطول المصرى في عهد الفاطميين بدور هام في الحروب التي قامت بين القرامطة والفاطميين

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) الجوزى : سيرة الأستاذ جودى ، توقيع رقم ٦ ص ٩٧ ، وتوقيع رقم ٢٤ ص ١٠٢ ، وتوقيع

(٣٦٠ - ٣٦٧ هـ) . فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر ويهدد دلتا النيل ، ويفرق كثيراً من سفن الفاطميين في البحر الأبيض المتوسط ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة في الشام^(١) .

كذلك كانت عيذاب إحدى القواعد الحربية الهامة في مصر الفاطمية كما كانت الإسكندرية وديياط وعسقلان وبعض المدن السورية الأخرى . وقد بلغ من أهمية عيذاب أن اتخذها الفاطميون قاعدة بحرية على البحر الأحمر .

وقد ذكر القلقشندي^(٢) أنه كان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ، ويسمى في عصر الفاطميين « أمير الجيش » ، وفي عهد المماليك « ناظر الجيش » . ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين ديناراً في الشهر . وكان للأسطول المصري ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول محل رعاية الفاطميين ، حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين ، فأمر شاوهر وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة القسطنطينية ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مرآكب الأسطول

وقد ذكر ابن خلدون^(٣) ما قامت به البحرية الإسلامية من الأعمال الجيدة ضد البربرنطينيين ومائر الشعوب الأوربية في البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح بحق بحيرة عربية في ذلك العصر ، فيقول : « وكانت أساطيل إفريقية والأندلس في دولة المماليك والأمويين تتناب إلى بلادها في سبيل الفتنة ، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتفى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها ، وأسطول إفريقية^(٤) كذلك مثله أو قريباً منه . وكان المسلمون لمهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم . . . وامتطوا ظهوره لفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المألومة من

(١) المقرئزي : انماط الحفا ص ١٢٣ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ - ٥٢٤ . انظر كتاب التظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) مقدمة ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤) يقصد بذلك أسطول الفاطميين في المغرب .

الفتح والثنايم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه « مثل : ميورقة ومنورقة ويايسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرس ، وسائر ممالك الروم والإبرص . وكان أبو القاسم الشيعي ^(١) وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والننمية . وافتتح مجاهد العاصري دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجمها الفصاري لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تبحر البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من المدوة الشمالية ، فتوقع ملوك الإفرنج ونشحن في ممالكهم ، كما وقع في أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائنين فيها مدعوة العبيدين . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي للشرق منه ، من سواحل الإفرنجية والعقالية وجزائر الرومانية لا يمدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكث من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم للفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا على البيزنطيين هذه الفنون أصبحوا أسانذة أورما ، فطروا عليه من الشجاعة وحب المعامرة . وما يدل على صحة هذا القول أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أورما لا تزال تحتفظ بمرسها إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من فيرم من شعوب أوربا . ويقول فون كرىمر ^(٢) : « وما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأتراك المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على السنة البحارة في جنوب أوربا . ومن بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة من « حبل » العربي ، arsenal (وبالإيطالية darsonsi) المأخوذة من « دار الصناعة » ، corvette المأخوذة من « غراب » ، admiral المأخوذة من « أمير البحر » .

(١) هو القاسم القاطني ثاني الخلفاء الفاطميين بالعرب (٣٢٢ - ٣٢٤)

(٢) Von Kremer . Orient Under the Caliphs , p 356

٥ - النظام القضائي

(١) القضاء :

اكتسب قضاء مصر في العصر العباسي خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي ، واشتهروا بالاستقامة . ويكاد يكون القاضي في ذلك العصر غير قابل للمزل كنزيرة من موظفي الدولة . وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاة في مصر يمنحون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكرهية الجمهور . ولا غرو فإنه لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة ، بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم ببداد مباشرة ، وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

ولم يكن القضاء في عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) والإخشيديين (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) تابسين لمذهب واحد ، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي إليه . واشتهر قضاء هذا العصر بالزاهة والاستقامة وعدم المحاباة .

وقد نبغ في عهد الطولونيين القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامي . ولما عقد أحد بن طولون مجلساً في دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل مصر والشام والتهنود ، وشهد المجتمعون على خلع أبي أحمد الموفق أخى الخليفة العباسي المنيع من ولاية العهد ، تخالفته الخليفة وحصره إياه ، شهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجال مصر ، منهم القاضي بكار الذي أبى لإقرار الخلع (١٢ ذو القعدة سنة ٢٦٩ هـ) . وقد ذكر الكندي^(١) أن بكاراً وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لسنه . ويقول الكندي^(٢) : « وسماه بكار الناكث ، وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والتهنود ؛ فطلب منهم أحمد (بن طولون) أن يلعنوا الموفق . فامتنع بكار ، فألح عليه ، فأصر على الامتناع حتى أغضبه . وكان قبل ذلك مكرماً مظلماً طارفاً بحقه ، وكان يميزه في كل سنة بألف دينار . فلما غضب عليه أرسل إليه : ابن

(١) كتاب القضاء ص ١٢٢

(٢) راجع سيرة بكار في كتاب القضاء ص ٥٠٩ - ٥١٤

جوازى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخواتيمها ستة عشر كيباً ، فقبضها أحد » .

وكان قاضى القضاة فى مصر وقت الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ أبو الطاهر . وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ . فرأى جوهر الصقل أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين ؛ فأقره فى منصبه لنرض سياسى لحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه ^(١) .

ظل أبو الطاهر — الذى تقلد القضاء قبل وصول الفاطميين — فى منصبه حتى سنة ٣٦٦ هـ . ولكن سلطة القاضى قد ضمنت ضعفاً شديداً على أثر وصول للمز إلى القاهرة ؛ وكان فى ذلك أشبه بالوزير الذى أقر فى منصبه لاعتبارات سياسية لا غير .

وأولى هذه الاعتبارات هى أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارحوا إلى اعتناق للذهب الشيعى . فذلك كان بقاء أبى الطاهر رغم كونه سنياً من الأمور السياسية التى لا مندوحة عنها ، وإن كان ذلك صورياً ، ولا سيما أن جوهر أخذ على نفسه اليهود والموائيق بأن يطلق للمصريين الحرية التامة فى اعتناق مذهبهم . فكان عزل هذا القاضى الذى ظل فى منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ وإحلال قاض من الشيعة محله ، مما يثير شعور الجمهور .

وإن سلوك أبى الطاهر عند وصول المز ليدل على مقدار ما كان يضره المنصبون من السنيين من عداوة للتشيعيين فى شخص هذا الحاكم الشيعى ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبّلوا لأرض بين يديه ما عدا أبى الطاهر . يداك على ذلك ما أورده لنا القريزى فى مخطوطه المتقى الكبير حيث يقول :

« لما ورد المز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة ؛ فلما رأوه ، قبلوا الأرض ، بين يديه كلهم ، سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكباً . ولما قرب رجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت للمز إلى خواص حجابيه وقال : من هذا الذى خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضى مصر ، وهو من أهل العلم والدين . ثم لامه أحد الحجاب سراً (هكذا) فيما

فعل ؛ فرفع صوته وقال جبراً بحيث يسمع المز : وما (هكذا) هذا ؟ (أ) هو الشمس التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ؟ ، فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ؛ فرجع وهو قاضٍ وعلت منزلته ^(١) .

وليس ما يمنعنا من أن نظن أن هذا القاضي إنما بقى في منصبه طبقاً لهذه السياسة العامة التي جرى عليها الفاطميون ؛ لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه الذي نخب من ثناياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فإن سلطة أبي الطاهر ما لبثت أن اضمحلت ، وألزم في أواخر عهده في القضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعي ^(٢) .

تضال نفوذ القاضي :

ظل القضاء والإمامة والخطابة في يد رجال من السنيين الذين تقلدوا هذه الوظائف في أواخر أيام الإحشديين . ثم تضال نفوذ القاضي في سنة ٣٦٣ هـ ، بل ألزم — كما قلنا — أن يصدر أحكامه طبقاً لأصول المذهب الشيعي الذي ساد البلاد في ذلك الوقت ، كما اشترك معه في منصبه قاضيان من المعارضة .

ويحدثنا ابن مسر ^(٣) أن أبا سعيد عبد الله بن أبي ثومان ، الذي صحب المز إلى مصر ، تقلد في شوال سنة ٣٦٢ النظر في المظالم ^(٤) الخاصة بالمعارضة . ولم نلث أن ازدادت سلطة ابن أبي ثومان هذا ، فلم تقتصر على النظر في قضايا المعارضة وحدهم ، أو في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، بل آل إليه النظر أيضاً في قضايا المصريين أنفسهم ، وغدا يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية ^(٥) .

(١) المقرئ : الملقى الكبير ، مكتبة الخامسة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ١٨٢ .

(٢) الكندي - كتاب القضاء ص ٥٨٤ .

وقد خالف ذلك ابن رولاك ذلك فقال ، إنه بعد أن وصل الخليفة المز إلى الإسكندرية ، حلح على أبي الطاهر الذي سار معه إلى المعارضة وهو مصطفي جواده ، وقد سأله المز وهو في الطريق : " كم رأيت يا قاضي خليفة ؟ " فقال القاضي : " واحداً والباقي ملوك ! " .

(٣) تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٤) هي « مكة عليا » كانت تمتد من قبل مرياسة الخليفة نفسه .

(٥) الكندي : كتاب القضاء ص ٣٨٧ .

كذلك نُصَّب من المتاربة قاض آخر - سحب المز إلى مصر أيضاً - وشارك القاضي أبا الطاهر في سلطته . وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر ، حيث أصبح القضاء يقبل لائتين من الموظفين ، أحدهما سني والآخر شيعي . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السني تدريجاً بحسب ، بل ذلك إيذان أيضاً بانتهاء عهد تقلد السنيين منصب القضاء^(١) .

ولم يذكر لنا المؤرخون تاريخ تقلد علي بن النعمان القضاء . غير أنه يظهر مما ذكره ابن ميسر (ص ٢٤) أنه بدأ حياته في القضاء منذ سنة ٣٦٣ هـ ، أى بعد أن تقلد ابن أبي تويان منصبه بأشهر قلائل .

ولما اقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر ، كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم في أحكامه . وجلس أولهما للحكم في الجامع العتيق ، وثانيهما في الجامع الأحمر^(٢) ؛ وظلت الحال على ذلك إلى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ ، وفيه اضطلع علي بن النعمان بالقضاء عامة . وتظهر لنا صحة ما رواه ابن حجر عن استقالة هذا القاضي . وهو يختلف عما ذكره القضاة^(٣) والمقريزي ؛ فقد أيد كل منهما القول بأن القاضي قدم استقالته إلى الخليفة العزيز^(٤) لأسباب صحية . وزاد المقريزي أن العزيز ركب في صفر سنة ٣٦٦ إلى الموضع المعروف بالجنين في جزيرة الروضة على مقربة من جامع عمرو ، حيث يقعد أبو الطاهر مجلس الحكم . وهناك استقبل أبو الطاهر وشهوده الخليفة العزيز ، وسأله أن يأذن له في استغلاف ولده^(٥) بسبب ضعفه . ولقد قبلت استقالة القاضي على الفور ، وكان الخليفة كان ينتظرها يتلهف .

ونحن نرى أن سياسة الفاطميين كانت ترمى إلى إضفاف نفوذ السنيين تدريجياً ، بحيث

(١) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاء مصر ، مخطوط ، ورقة ٢١٤ ب .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٢١٥ ورقة ١٩٤ ب .

(٣) المكتبة الأعلى بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٩ ب .

(٤) ذكر المقريزي (المفتي الكبير ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ورقة ٨١ أ) أنه الخليفة المز (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) ويرجح متفقاً أن ذكر لفظ العزيز خطأ من النسخ ، بدليل إرادته بعد ذلك في سياق أقوال هذا المؤرخ .

(٥) قد أورد ابن زولاق هذه الحقيقة التاريخية (الكتبي ص ٥٨٧) .

لا يقف معها دولاب الأعمال الحكومية أو يتكدر صفاء البلاد بتدثر السنين وسخطهم . ولم تنقض ثلاثة أيام على تقديم القاضى استقالته ، حتى قلد الميزر على بن النعمان الشيعى المذهب ^(١) .

ويحدثنا الكندى ^(٢) أنه قرئ على منبر الجامع العتيق سجل بتقليد ابن النعمان القضاء . وزاد ابن حجر ^(٣) فقال إنه « ولى القضاء على مصر وأعمالها ، وانخطابة والإمامة والقيام فى الذهب والفضة » . ويستطرد هذا المؤلف الكلام فيقول إن أبا الطاهر امتنع عن العمل مع ابن النعمان ، فاستخلف هذا أخاه عمدا والحسن بن خليل الفقيه الشافى ، وشرط عليه أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعى الذى يدين بهقائده الفاطميون .

ولقد ظل القضاء فى يد الشيعيين من الاسماعيليه ، وبقى أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ففي صفر سنة ٣٩٣ ، تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر وما يتبهما من الأعمال ، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضى القضاء ؛ فعدا يطلق على ابن النعمان لقب « قاضى القضاء وداعى الدعوة » .

وكان منصب القضاء يهد به لبعض السنيين أحيانا ، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائما على قاعدة إسناد القضاء إلى المنشيعيين خاصة . ولنضرب لذلك مثلا ما كان من إسناد الحاكم بأمر الله هذا المنصب فى العشرين من شعبان سنة ٤٠٥ لرجل من أهل السنة ، بقى فيه لثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، ثم مات فى عهد الخليفة الظاهر . ويحدثنا ابن حجر ^(٤) أن القاضى مالك بن سديد الفارقى قتل لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ ، فخلا ، منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، أى إلى العشرين من شعبان ، فتقلده أبو العباس بن الموام الحنبلى المذهب . وأن خلو هذا المنصب طوال هذه اللدة يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أنه لم يكن من السهل الشورى على تقيه من الشيعيين يصالح لتولى هذا المركز . ولقد أدلى لنا ابن حجر ^(٥) بالظروف التى أدت إلى تقلد ابن الموام أعياء هذا المنصب فقال :

(١) الكندى ص ٥٨٥

(٢) المصدر نفسه .

(٣) دفع الإسر ورقة ١٩٤ ب .

(٤) دفع الإسر ورقة ٢١٤ ب .

(٥) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب وما إليها .

« وكان قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، من أهل العلم بالنحو والفقه ، قدم على الحاكم فأعجب به وخلع عليه ، وأعطاه إقطاعاً ولقبه عالم السلام ، وجعله يجلس في دار العلم التي أنشأها ، ليدرس للناس الفقه والنحو . فخلا به الحاكم فجلس يسأله عن الناس واحداً واحداً ، من يصلح منهم للقضاء ؟ وكان الحاكم عارفاً بهم فلم يزل يذكر ، حتى وقع الاختيار على أبي العباس ، فقيل لـ الحاكم : ليس هو على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك ، فقال : هو قتيبة مأمون مصري ، عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وموافق المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره » .

ومن الموم أن لم عاذكره ابن حجر^(١) من أن ابن العوام قد شهد عند القاضي محمد ابن النعمان^(٢) في سنة ٣٨٤ هـ . ومن هنا يتضح ما كان لمنصب القضاء من حرمة وقداة ، حيث يقف رجل سبق له تولية هذا المنصب أمام القاضي . ويطلب أن يكون ذلك في القضايا الهامة التي قد يكون هذا القاضي أعلم بها من غيره .

وبزيدا ابن حجر^(٣) أن ابن العوام نقل القضاء وخلع عليه ، « وأضيف إليه في الأحكام مصر وربة وصقلية والشام والحرم ، ما عدا فلسطين ، فإن الحاكم كان قد ولاها بأطالاب ابن بنت الزيدى الحسيفي ، وجعل للعباس النظر في الميار ودار الضرب والصلاة والوارث والماسجد والجوامع » بسبب ما كان لأبي الفضل من نفوذ لدى الخليفة الحاكم . ولكنه لما لم يكن هذا القاضي يدين بمقائد المذهب الشيعي ، اشتمل سجله القني قري في القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من القضاة (الشيعيين بلا مرأه) يمينون من قبل الخليفة . ومن ذلك يتضح أن نعيم غير الشيعيين كان قليلا حدوثه ، وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة .

سجل تنفيذ الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم :

ومن السجل الذي كتبه الخليفة الحاكم القاطن لقاضي قضائه الحسين بن علي بن

(١) ابن حجر ، ورقة ٤٥ أ .

(٢) الكنتي (مطبعة رومة سنة ١٩٠٨) ص ١٦٢ .

(٣) دفع الإصر ورقة ٤٤ ب .

النعمان^(١) ، نرى أن سلطته شملت رئاسة القضاء في مصر والحجاز وبلاد الشام والمغرب ، وأن عمله تمدى ذلك إلى النظر في موظفي المساجد من الأئمة والقوانين عليها ، والمؤذنين بها وغيرهم ، كما أصبح له الإشراف على دور الضرب . ورسم له الخطة التي يسير عليها ، فأمره بتقوى الله في السر والعلانية ، والمحافظة على شائر الدين وصراعة حدوده ، وأمره أن يحمل الحكم في المواضع الصاحية^(٢) للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابهم ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه^(٣) ، ويقسم بينهم لحظه وأمظه قسمة لا يحصى فيها قواها لقوته ، ولا يردى فيها ضيما لضعفه . بل يحمل مع الحق ويجمع إلى جبهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ، ويحذركم الله نفسه^(٤) .

وأمره أن يتم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يُتبع في منازع القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويتعرف دخالهم تروكا كافيا ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلهم في سرهم وجهرهم ، والجلى والخلق من أمورهم . فمن وجده منهم في العدالة والأمانة والزراعة والصيانة ، ونحري للصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيعة الحنفى والطريقة للثلى ، أبقاه ، وإلا كان لا يسقط للشهادة أولى . وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يمدّه أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليسكون في الأمرين على ما يحلّه ويمثله^(٥) ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، وإليها يرجع الحكم ، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالأحكام . قال الله تقدست اسماءه : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين^(٦)) .

(١) راجع هذا السجل في الفلقتنى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥ - ٣٨٨

(٢) يريد المواضع الظاهرة التي لا تنحى على المتخاصمين ولا يشق عليهم الوصول إليها .

(٣) يوصى القاضي بأن يتفرع لعمله ولا يتشاكل عن لسان من يريد لقائه من الخصوم بقضاء مصالح أو بقراءة الكتب أو بإغديث مع الأصدقاء أو نحو ذلك مما يحمل وجوده قليل الفائدة .

(٤) سورة آل عمران ٣ : ٣٠ .

(٥) أى يرسم له ويدين

(٦) سورة النساء ٤ : ١٣٥

وقال تعالى : (والذين لا يشهدون الزورَ وإذا سروا بالفتور سروا كراماً^(١)) .

وأمره أن يسلم بأمانة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا ، وأولى الخلل في حقوقهم ، والعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أسرهما على ما يرضى الله ووليّه : من حياتهما وصيانتها من الأمانة عليهما ، وحفظهم لها ، ولعظهم (تركهم) لما يحرم ولا يحمل أكله منها ؛ فقبوا عند الله بعدا ومقتا ، أكل الحرام ولؤكل له سحقا (حراما) . قال الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا^(٢)) . وفي سنة ٥٢٥ هـ عين الأكل خفيد بدر الجالى أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعة أحدهما إماميا والآخر إسماعيليا . أما السنيان ، فكان أحدهما شافيا والآخر مالكيا . وأعطى لكل السلطة للطبقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه . وقد حدثنا القرزى أن هذه السياسة التي انتهجها أبو علي الأكل أثارت غضب دعاة الشيعة وحققهم ، وكذلك الأسراء وغيرهم من أعيان للتشيعين ، حتى دبوا مؤامرة لاختياله .

وفي اليوم السادس عشر^(٣) من المحرم سنة ٥٢٦ هـ ، بينما كان الأكل سائرا في طريقه محتطاً جواذاً لمشاهدة لعبة الكرة ، كن له جماعة من أنصار الخليفة . ولما اقترب منهم هجم عليه أحد غلمان الخليفة وقتله ، واحتز الباكون رأسه . بعد ذلك أطلق هؤلاء الغلمان سراح الخليفة ، ودانوا له بالطاعة والعبودية ، وهاجم الناس بيت الوزير وانتهبوه^(٤) .

وبحدثنا ابن ميسر عند كلامه على سنتي ٥٢٩ و ٥٣٥ هـ ، أن بهرام الأرمي والى التبرية لما قدم إلى القاهرة في ١٦ جمادى الثانية^(٥) من سنة ٥٢٩ هـ وحاصرها يوما ، رأى الخليفة

(١) سورة الفرقان ٢٥ : ٧٢

(٢) سورة النساء ٤ : ١٠

(٣) ويقول أبو المحاسن (المجلد الثالث ، ج ٣ رقم ١ ص ٤) إن هذه الحادثة كانت في العشرين من هذا الشهر . ويخالفه في ذلك ابن ميسر (ص ٧٥) والقرزى (غلط ج ١ ص ٤٩٠) ، الذي يقول إن إمداد سراح الخلف كان في السادس عشر من هذا الشهر ، وإن الحكومة اتخذت هذا اليوم عيداً سنوياً تقام فيه الاحتفالات بخلاص هذا الخليفة .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٩ و ٣٨٠

(٥) أورد ابن ميسر هذا التاريخ في محل آخر ، وهو اليوم الحادى عشر من نفس هذا الشهر .

الحافظ أن يوليه الوزارة ؛ فأشار عليه بعض خاصته أن يبدل من هذا الرأي :

(أولاً) لأنه نصراني ، فلا يرضى عنه المسلمون إذا تقلد هذا المنصب .

(ثانياً) أن الوزير كان حتماً عليه أن يصعد للبير مع الإمام في الأعياد ليزور عليه

المنزلة (الستارة) التي تهجبه عن الناس .

(ثالثاً) أن القضاة كانوا نواب الوزراء منذ أيام أمير الجيوش . وكانت هذه النيابة

تذكر في الوثائق الرسمية التي تنفذ إلى الآفاق ، كما كانت تكتب أيضاً في وثائق الزواج^(١) .

فلم يضع الحافظ لقول النصحاء ، وتقليد بهرام الوزارة بالرغم من ضرور رضا الناس من هذا

التقليد الذي لم يدم طويلاً^(٢) .

وبسبب قاضي قضائه صدر الدين عبد الملك بن درياس ، صرف صلاح الدين جميع

قضاة الشيعة (٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦) ، وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية الذين

كان يدين بمذهبهم . وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني ، وهو

المذهب الذي كانت له السيادة من قبل الدولة الفاطمية ، وأخذ المذهب الشيعي بنوعيه

الإسماعيلي والإمامي يضمحل من الديار المصرية ، إلى أن قضى عليه نهائياً^(٣) .

أما من الخطابة ، فقد أقبل بنو عبد السميع بعد أن تقلدوها نحو أربع وستين سنة ،

وأستندت إلى جعفر بن الحسن الحسيني في الجامع الصغير ، وإلى أخيه في الجامع الأزهر^(٤) .

(١) كانت الحاصل التي يتسم توافقها عند تعيين القاضي ، على ما أورده الماوردي كما يأتي :

١ - أن يكون ذكراً بالغاً . بيد أن أبا حنيفة يرى أنه يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيه شهادتها ؛ أما الطبري فيرى أنه يجوز أن تتولى القضاء مطلقاً .

٢ - النقل ، يعني أن يكون صحيح التمييز جيد القطة بعيداً عن السهو والتفلة .

٣ - الحرية . ولكن الرق لا يمنع من الفتيا ؛ لأن مركز الاتقاء لم يكن معتبراً في ولاية الحكم .

٤ - الإسلام . ولا يجوز أن يقلد الذي القضاء على المسلمين .

٥ - المداقة .

٦ - السلامة في البصر والسمع . ولا يعتبر مالاً العبي مائداً من القضاء .

٧ - أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية ملماً بأسرارها وقروعا .

وبمقتضى قوانين الشريعة الفراء لم يتحقق في بهرام الشرط الرابع . ويبدو أن يكون متحققاً فيه للشرط

الصابع (الماوردي ص ١١٤) .

(٢) ابن ميسر ص ٩٧ .

(٣) أبو شامة (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١ .

(٤) ابن دقاق ج ٤ ص ٦٤ ، والمقرئ خط ج ٢ ص ٢٤٨ . كان ذلك في سنة ٣٧٩ ، على

ما ذكره ابن تيمية (ج ٤ ص ٦٤) .

قانونه الوراثية في عهد الفاطميين :

ذكر لنا ابن حجر قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لبلده ، وكان ينبغي أن ينتقل إلى أمه حسب قانون الشيعة . وكان القاضي أبو الطاهر قد حكم في هذه القضية بأنه لم يكن لهذا الشخص حق في ادعاء الملكية ، لأن جده قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية . ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السني والشيعة ، وهذا الأخير قد حكم للمدعى ، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ؛ لأنها أفضت إلى الخلاف في وجهة نظر كل من القاضيين الذين حكم كل منها حسب قانون المذهب الذي يدين بمقتضاه . ويحدث ابن حجر نقلا عن ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) أن المدعى شكّا إلى الخليفة المز ، وأمر قاضيه الشيعة بأن ينظر هذه القضية ثانية ^(١) .

واقصد ذكر ابن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور الترد في نفوس الشهود القدين كانوا يعملون مع ابن أبي ثوبان ، حتى إن الخليفة المز أمر أخيراً بإبطال الحكم الذي أصدره ابن أبي ثوبان ، ليزيل السخط الذي دب في نفوس الشهود السنيين في ذلك الوقت على الأقل ^(٢) .

وكانت نتيجة هذه الحوادث أن امتنع الشهود عن حضور مجالس الحكم التي كانت تقدر برئاسة ابن أبي ثوبان ؛ فبدلهم هذا بشهود آخرين ، ولعلهم كانوا من الشيعة . على أن هؤلاء اضطروا إلى الاستقالة . وكان غضب أبي الطاهر والشهود سببا في علة ابن أبي ثوبان التي أودت بحياته ^(٣) .

وستطعم مما أدلى به ابن حجر أن نقول إن العلاقات بين أبي الطاهر وابن أبي ثوبان لم تكن تنطوي على شيء من الود والصدقة . وهذا أثر الخلاف المذهبي الذي أدى بهذين الرجلين إلى الحالة التي وصفناها . فقد أصدر القاضي الشيعة أحكامه طبقا لمبادئ مذهب

(١) الكنتى ص ٥٨٧ و ٥٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٨ .

(٣) المصدر نفسه .

الشيعية الذي يخالف مذهب زميله السني الذي يدين به القاضي السني طبعاً .
 ويجوز قانون الشيعة البنت أن ترث كل ما يترك أبواها ، إذا لم يكن لها أخ أو أخت .
 وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقضي ألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة .
 ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا في استطاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

وقد عدلت القاعدة التي تجيز لبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة التي يخلها أبواها إذا اغردت بالمرث . والسرف أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويحصلونها حاسبة للأحلام أمران : أحدهما أن أباً بكر أخذ فذلك (قرية مجبر) من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاه تلك الضيقة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . ثانياً أن ابن العباس يدعون أبولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه هم رسول الله والوارث له يوم وقاته ، لأن ابنته فاطمة لا تبرز كل المال ، وعلى أنزل من العباس . فقالوا هم إنها تبرز كل الميراث ، لينموا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
 لبنى البنات وراثه الأحام ؟
 « وكان الداهى لحضور الطرطونى أمر للمواريث ما يأخذه أمتاء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربع الشر ، وتورث البنت نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى المصيبة ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطاحى) بأن هذه قضية لم يقل بها ، وأن أمير الجيوش بدر هو الذى ابتكرها واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون لققيه : أما لا أرى مخالفتك ، وكتب توقيع شملته العلامة الأسرية وللأمنية ، وهذا نصه بعد البسملة :

١ — يخلص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاج القويم لقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم)^(١) .

٢ — إن كل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته ، والشهور من اعتقاده إلى حين وفاته ويحمل من سوام على مذهب مختلفهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين في موجودهم ، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لمن بعدهم .

٣ — إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال .

٤ — أن يعوّض أمتاء الحكم عن ربع العشر من مال الموارث الحشّرية .

٥ — من لا وارث له ، حاضراً أو غائباً ، فوجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقّه زَوْجٌ أو دَيْنٌ عليه .

٦ — وإن كان للتوفى وارث غائب ، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب ، فليخرج الأمر بتسليمه إليه .

٧ — يستند القاضي ذلك بالباب ، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين ^(١) ، بالمزينة القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه في البلاد ؛ وليُخَدَّ في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوانى المجلس والخاص الآمرى .

لخاتين بقيتا من ذى القعدة سنة ١٢١٦ هـ ^(٢) »

ومما هو جدير بالذكر أن تغيير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع في حكم العباسيين قبل هذا التغيير الذى حصل في عهد الفاطميين ، وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبى عيسى أحمد ، ولم يخاف ولهاً ، فألت ثروته إلى بيت العدل بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين ^(٣) .

حدث ذلك في خلافة المعتد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩ — ٨٩٢ م) ، فأمر خلفه المتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من

(١) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٢) الملقى الكبير لمقرئى ، ليدن ، غطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١٩٥ — ١٩٧ ب .

(٣) هلال الصافي ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ .

قبل . وظلت الحال على ذلك إلى عهد المكتفى ٢٨٩—٢٩٥ هـ (٩٠٢ — ٩٠٨ م) ^(١) ، فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التمديل الذي أدخل على هذا القانون من قبل ^(٢) . ولقد أكرر الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات هذا التمديل ، وعده مخالفاً لما جرى به قانون مذهب السنة ، فحصل على موافقة الخليفة بتمديد قانون الوراثة ، وصدر مرسوم مزيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضى ^(٣) :

- ١ — بأن يُصرَف القائمون بأعمال الموارث في سائر النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال الموارث إلى الحكام على ما كان يجري عليه قبل أيام المتمد على الله .
- ٢ — وبأن يرَد على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .
- ٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل النعمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته .
- ٤ — وأن يعمل على إذاعة ما أمر ، وإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليكون مشهوراً متعارفاً ، والخير به إلى الأداني والآفاقي واصلاً ^(٤) .

راتب القاضى :

كان القضاء من أهم مناصب الدولة في هذا العصر ، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلخوا إلى الرشوة التي يجب أن يتنزّه عنها القاضى . فلما تولى مصر عبد الله ابن طاهر قلد عيسى بن المنكدر القضاء في سنة ٢١٢ هـ ، وأجرى عليه سبعة دنانير في كل يوم . وفي عهد أحمد بن طولون كان القاضى بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار في الشهر . وذكر القلقشندي ^(٥) أن راتب قاضى القضاة بلغ مائة دينار في الشهر هذا المخصصات الأخرى . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بنير حق ،

(١) حلال الصابغ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٨

(٤) المصدر نفسه ٢٤٨ ص—٢٥٣

(٥) صبح الأعشى ٣ ص ٥٢٦ .

فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن علي بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يمرض لدرهم واحد فافوقه من أموال الرعية .

وقد تقلد علي بن الحسن التنوخي المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء في عدة نواح ، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً في الشهر ، مما يدلنا على أن راتب القاضي أخذ في العصر العباسي الثاني يقل شيئاً فشيئاً ، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحياناً أن لا يأخذوا راتباً عن قيامهم بأعمال هذا المنصب .

وبعد أن كان الالتزام مقصوراً على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة به إلى أشخاص مجبونه على أن يؤديوا لبيت المال مبلغاً معيناً ، تسدى هذا النظام إلى القضاء ، فأصبح القاضي يلتزم القضاء على أن يؤدي لبيت المال مبلغاً من المال مقابل ما يحميه من رسوم القضاة . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمز الدولة بن بويه على ٢٠٠٠-٢٠٠ درهم في السنة عن قضاء بشار^(١) .

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني^(٢) أن قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان تقلد القضاء والمظالم والدمعة في سنة ٤١٨ هـ ، ثم عزل في السنة التالية ، فخل محله عبد الحاكم ابن سعيد بن مالك الفارقي وأضيفت إليه الأحباس . وقد قيل إن دخله زاد على عشرين ألف دينار في السنة بسبب تشده في الأحكام وابتزازه الأموال . وقد مات رجل من ذى اليسار وترك مالا جزيلا ولم يخلف سوى بنتاً واحدة ، آكل إليها جميع الميراث طبقاً لمبادئ للذهب الشيعي الذي يقضى بأن تحوز البنت كل الميراث إذا لم يكن لها أخ . وقد رغب بعض الناس في الزواج من هذه المرأة طمعاً في مالها ، ومن هؤلاء قاضي القضاء ولما امتنعت أقام القاضي أربعة شهود شهدوا بأنها سفينة ، ووضع الفارقي يده على أموالها فرفعت شكواها إلى الوزير أبي القاسم الجرجرائي الذي قامت البيعة لديه على بطلان حكم القاضي ، فأهانها وأمر بإحصار المال منه بعد أن تصرف فيه أربع سنين ، وقبض على الشهود فأودعوا السجن ، وصرف القاضي عن منصبه مهاناً . وقد أنشد بعض الشعراء في هذا القاضي وفي قاسم بن عبد العزيز قصيدة تقتطف منها هذه الأبيات :

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية المؤلف من ٣٥١ - ٣٥٢ وآدم مير . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .
(٢) التكتلي : كتاب القضاء ص ٦١٣ - ٦١٤ .

ولما تولى ابن عبد العزيز قضاء القضاة تولى القضا
وأعقب من بعده الفارق فأدبر إقبالة واقضى
وعاد القضاء إلى قاسم فأصبح عن رشده ممرضا
فلا ذا بسيرة يرتضى ولا ذا بتدبيره يستضا
فهذا رئيس به لومة وهذا وضيع بيد الرضا
فلا بارك الله فيمن أتى ولا بارك الله فيمن مضى

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى
اللقوية^(١) ، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد للمسجد الكبير بقرطبة أو مسجد
الزهراء الذى أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة الاستسقاء^(٢).

(ب) المظالم :

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة
الاستئناف فى الوقت الحاضر . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته
أعلى بكثير من سلطة القاضى . يقول ابن خلدون^(٣) عن المظالم : « وهى وظيفة متميزة من
سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة . تقع المظالم من الخصمين
وتزجر للمدى ، وكأنه يحضى ما عجز القضاء أو غيرهم من إمضائه ، ويكون نظره فى البيئات
(الحجج) والقرير^(٤) واعتماد الأمارات والقرائن^(٥) ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق
وحل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضى » .
وكانت محكمة المظالم تنمقد برىاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . ويعين

(١) أنشئ هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة
عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

(٢) كان قاضى الصلاة يشرف على الصلاة أيضاً ، ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » واشتهرت
الحال على ذلك حتى أورد الناصر للصلاة شخصاً معيناً ، ولقضاة القضاء شخصاً آخر .

(٣) مقدمة ص ١٩٣

(٤) التقرير استقصاء البحث من الخصوم فى المسائل حتى يقرروا بما يوضح وجهة نظر القاضى .

(٥) يعنى الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التى يتبينها القاضى من حال الخصمين عند قنقه الأدلة
الشهود .

صاحب المظالم يوما يقصده فيه التظلمون إذا كان من اللوطنين ليتفرغ لأعماله الأخرى .
أما إذا انفراد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنقد في المسجد
كما تقدم ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم مقد جماعاته إلا بحضوره :
١ — الجماعة والأخوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى
الصف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — المحاكم ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ،
والعلم بما يجري بين الخصوم ، فيلصقون بشئات الأمور الخاصة بالمقاضين . وكان القضاء
يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على
ما يرض أمامهم من القضايا في جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، ويرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويدونون أقوال الخصوم وإثبات ما لم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ، ويقرون أن ما أصدره القاضي
من الأحكام لا ينافي الحق والعدل .

وفي الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام ، إنصافا للظالمين وإنعانة
للمستضعفين ، فكان من اختصاص هذه الجماعة :

١ — النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاية إذا انحرفوا عن طريق
العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين
إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر في نظم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .

٣ — تنفيذ ما يهجز القاضي والمختص من تنفيذ الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات كالخمس والأعياد والجمع والجهاد^(١) .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر في قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل
في شكاوى الشعب عامة .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية لماوردى من ٧٢ - ٨١

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه . وقد بين لناوردى^(١) الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فصل المحبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ، يكف الخصوم عن التجاحد^(٢) ، ومنع الظلمة من التعالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من الميثل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعصوا^(٣) إلى وساطة الأمناء ليصلوا للتنازع بينهم صلحاً عن تراض^(٤) . وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتياحه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يتدنى بأسدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم . ومن عادة القضاة تكليف المدعي أن يحضر بيته ، ولا يسمعون البيته إلا بعد سؤاله .

وكان الأمير أو أحد كبار موظفيه يرأس مجلس النظر في المظالم ويحكم في القضايا . ومما دعا إلى إنشاء هذا المجلس ما كان يعترض تنهيد أحكام القاضي من مصاهب ، ولا سيما إذا كان المدعي عليه من أصحاب المراتب العالية ، أو كان يشغل وظيفة من وظائف الدولة . فلم يكن أحد يمرّ على عدم الموضوع ما يصدره هذا المجلس من أحكام ، ولم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلّص من بطشه وشدة أحكامه^(٥) .

(ح) المحاسبة :

كانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحاسب وقاضي المظالم . فوظيفة القاضي فصل المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحاسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجزاءات أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استمعى من الأحكام على القاضي والمحاسب . وكان القضاء والمحاسبة يستندان في بعض الأحيان إلى رجل

(١) الأحكام السلطانية ص ٧٩ - ٨٠

(٢) الميابة في إنكار الحق من كلا الخصمين

(٣) أعضوا استمعى التوقيع بينهم

(٤) بمعنى أن القاضي يدعهم يشقّ راحة جميع أحد الخصمين وأشكال الأمر عليه أدال الخصمين على لجنة من ديوان النظام أو نحوها لتوقيع بينهم

(٥) اسطر الموردي الأحكام السلطانية ص ١٢٨ - ١٦٤ .

واحد ، مع ما بين الصلحين من التباين ، فصل القاضى مبنى على التحقيق والأمانة فى الحكم ، أما حمل المحتسب فبنى على الشدة والسرعة فى العمل ^(١) .

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) . وقد روى عمر بضرب جمالا ويقول له : « حُلت جملك مالا يطيق » ، فالحسب إذا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحافظ على الآداب والقضية والأمانة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، وبحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف ^(٢) .

ويداقب من يعبث بالشربة أو يرفع الأمان ، وينزع التمدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل القمة على مبانى المسلمين . وقد أجل ابن خلدون ^(٣) أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الخماين وأهل السفن من الإكثار فى الحبل ، والحكم على أهل المباني المتداعية لسقوط هدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أبهى الملهدين فى المسكنات وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم لاصيان المتملكين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استمداء ^(٤) ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالنس والتدليس فى المباش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين . وله أيضاً حمل الماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام

(١) راجع الماورى : الأحكام السلطانية ص ٦١ - ٧٢ .

(٢) كذا فى دار حاسة ، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهج وسائيلهم فيعابرها ، فإن وجد فيها غشاً صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها . قد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبيه - الممريزى : خطط ج ١

ص ٤٦٣ - ٤٦٤

(٣) منحة ص ١٩٦

(٤) أى طلب رد عنوان الغير .

ينزه القاضى عنها لصومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعا على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل البيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس ، داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره .

وكانت أعمال الختسب ، على ما ذكره الماوردى ^(١) ، متعددة مختلفة . فكان إليه النظر فى الأسواق ، والمحافظة على الآداب والفضيلة ، وإدارة الشرطة . وكانت وظيفته واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى النظام ^(٢) . ومن أهم أعماله المحافظة على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة ، وإيقاف مضايقة الجمهور ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحيلولة دون بروز الخوانيت مما يهوى نظام المرور .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ؛ فكان الختسب ، على ما رواه القرزى عن ابن الطوير ^(٣) ، يختار من وجوه المسلمين وأعيان المسلمين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير . وكان ينوب عنه فى القيام بهذه الأعمال نواب فى القاهرة ومصر وغيرها من المدن . وكان يجلس للحكم فى جامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم ، ويطوف نوابه على أبواب الحرف وعلى التجار ، ويفتشون قدور الأطعمة ويختنون اللحوم ، ويباشرون بحال الجزارة والطعام ، ويحولون دون مضايقة الجمهور ، ويلزمون رؤساء المراكب بالآداب يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع . وكانوا كذلك يشرفون على السقاين لضمان تنظيفهم القرب ، ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة ، ويرامون حيار القرب (وهو أربعة وعشرون ذوا) ، ويمنمون معلمى الكتاتيب من ضرب صفار الأولاد ضرباً مبرحاً ، ويحولون دون تنفير معلمى السباحة بالصغار ، وينظرون الموازين والمكاييل . وللمختسب النظر فى ضرب المياد . وكان يخضع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر (القسطنطينية) والقاهرة على اللبر ؛ فندت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد ؛ كما كان

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٣) القرزى : مخطوط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه للمحافظة على الآداب والنظام . وكان يتقاضى مرتباً قدره ثلاثون ديناراً في كل شهر^(١).

وقد عرض الشيرزى^(٢) للشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة ، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان على علم بالموازين والمكاييل ومياد الأبطال والتأثيل ، ويشرف على جميع نواحي الإنتاج والسلع المروضة في الأسواق . مثال ذلك إشرافه على الترائين أي بائني القراء ، وصناع الحلوى ، وعلى الشوائين أي شوائى اللحوم ، وعلى الرواسين أي بائني الروس والآكارع ، وعلى قلائى السمك ، والمرائسين أي صائبي الهريسة ، وهى طعام من خليط القمح والحم . كما كان يشرف على الشرايين أي صناع الأشرطة ، وهى الأدوية السائلة ، وعلى البزازين أي بائني الملابس ، وعلى الخاكة وم القين ينسجون القزل قاشا ، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل ، وعلى الصباغين والفلالين والمفادين ، وعلى الصاغة ، والصيارف ، وعلى الحمامات وقومتها .

وقد ذكر المقرئى^(٣) أن الصيارفة أناروا الشعب بعد الفتح القاطمى ، وأن جوهرها فكر في إحراق رجة الصيارفة . وكان المحتسب إلى عهد الفاطميين مصرياً ، فأقبل (ربيع الذى سنة ٣٥٩) على أثر الفتح وحل محله رجل آخر من المناربة .

أما سليمان بن عَشْرَة الذى حدث هذا الشعب في عهد ولايته الثانية على الخراج ، فقد أعيد إلى الحسبة بعد موت المحتسب المقرئى . ونستطيع أن نستخلص من أقوال المقرئى أن المحتسب كان مصرياً سنياً ؛ لأنه لو كان شيعياً لأقره جوهر في منصبه .

(١) وقد ذكر ابن خلدون (مقسمة - طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ من ٢٢٥ و ٢٢٦) كثيراً من أعمال المحتسب الذى أوردها المقرئى .

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٤٦)

(٣) اتباط المحتسب ص ٨٧ .

الباب العاشر

الدعوة الفاطمية

١ - الدعوة الفاطمية في الدور المغربي

(١) في عهد الفاطميين :

قامت الدولة الفاطمية — كما رأينا — على أسس مذهبية بحتة ، تنحصر في أن آل بيت الرسول من علي وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين ؛ إلا أن كثيراً من الرعايا السنيين لم يتفقوا معهم في دعوتهم . أضف إلى ذلك عدم اغتباط جميع مفكرى الإسماعيلية بظهور العقل الكلي^(١) في شخص الإمام الفاطمي . فن عقائد الإسماعيلية حلول الله في رؤسائهم ؛ فلما استقر عبيد الله المهدي في بلاد المغرب ، وظهر بعد استتار ، رأى أن يقرر في أذهان رعيته — على ما يقوله السنيون — كثيراً من مبادئ الإسماعيلية للتطرفة ، فأظهر التشيع ونشر بعض أمور تخالف قواعد الإسلام في كثير من الأحيان والآن نعرض لأراء السنيين في سياسة عبيد الله مع رعاياه ، ثم نوازن بينها وبين آراء الإسماعيلية أنفسهم .

يقول ابن عذارى^(٢) : « أظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبي وأزواجه حاشا على من أبى طالب ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، و سلمان الفارسي ، وأبي ذر

(١) Goldziher : Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 205 .

يعتقد الإسماعيلية بنظرية الحلول ، ويقولون ، إن العقل الكلي . يمكن أن يحل في أشخاص الأتباء أو الرسل الذين يسميهم الإسماعيلية " النطقاء " فالناطق عندهم حلول للعقل الكلي ، ويرون أن آدم عقل كلي . ومحمداً ، صلى الله عليه وسلم عقل كلي كذلك . ويعتقدون مثل ذلك في النفس الكلية Ame Universelle ، فيرون أن النفس الكلية تحل في أشخاص الأئمة ، وأن هاتين النفسين النطق والإمامة ، قد اجتمعتا في أشخاص أئمتهم . وقد تركزت في محمد بن إسماعيل فاطمهم السابع ، الذي ورت أباه الأئمة المستورين صفى الطق والإمامة معاً ، فأصبحوا جميعاً رمزاً لحلول العقل الكلي والنفس الكلية . ويتمتع عبيد الله الإمام المستودع ، بهذه الصفات .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

النصارى ؛ وزعم أن أصحاب النبي ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزي للفقهاء من أن يفقه أحدهم إلا بمنهج . . . منه إحاطة البنات بالمراث ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها . وقد مدح الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه ؛ وكان فيما مدح به شعر ل محمد البديل كاتب أبي قضاة ، وفيه :

حلّ برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصق حل بها الكبش والذئب
حل بها الله ذو المالى وكل شيء سواء ربح

ويدعى السنيون أن عبيد الله قطع صلاة التراويح ، وأحدث في الصلاة أموراً لم يأتها المسلمون السنيون ، مثل التفتوت في صلاة الجمعة قبل الركوع ، وزيادة « حى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين ، وقول المؤذن : « أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانه جانب اللوحدين ، وأباد بسيفك كافة للمحدين ، وصلى عليك وعلى آبائك الطاهرين . وأبنائك الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وآخر دهوانا أن الحمد لله رب العالمين » (١) .

كذلك ذهب السنيون إلى أن عبيد الله كان يعمل على هدم الإسلام مستتراً بالشيعة (٢) ، وهذه التهمة نفسها هي التي رموا بها عبد الله بن ميسون القداح ، ولكننا لا نستطيع أن تصدق كل ما روى به عبيد الله الهدي . ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان يخلص القواعد للذهب الإسماعيلي ، ويستفاد أنه حركة إصلاحية شاملة ، وأنه بفضل هذه الحركة يمكن أن ينشل الإسلام من الهوة التي نردى فيها ؛ فحاول إدخال هذه القواعد بين السنيين ، فهدمها كفرة وإلحاداً .

وبما لا نزاع فيه أن المهدي ودعاه كانوا يعملون على أن يعمل المهدي من قلوب رعاياه اسمى مكانة ، فأخذوا يذهبون بين الناس عنه كثيراً من الصفات التي تحوط بهالة من التقديس وأسرف الدعاة في ذلك ، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض : هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحجة الله على خلقه ، ويقول بعضهم لبعض : هو رسول الله ، ويقول

(١) ابن حماد : أخبار بني عبيد وسيرتهم ص ١٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

بعض لبعض آخر : « هو الله الخالق الرازق ^(١) » .

ويرى ابن الأثير ^(٢) أن عبيد الله حاول نشر المذهب الإسماعيلي قسراً بين الناس ، فيقول : « وأمر عبيد الله يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد ، ونقّب بالمهدى أمير المؤمنين ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعهم الدعاء ، وأحصروا الناس بالعنف والشدة ، ودعّوهم إلى مذهبهم : فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أرى حس : فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ، وهم قليل ، وقتل كثيراً ممن لا يوافقهم على قولهم » . ويرى عبيد الله أيضاً بأنه قتل جماعة من العلماء السنيين لم يعترفوا بأنه رسول الله .

وإذا كانت هذه نظرة العلماء السنيين إلى عبيد الله ، وعلاقته للذهبية برعاياه السنيين ، فإن المراجع الإسماعيلية تؤكد غير ذلك ، وتبين أن المهدي وغيره من الخلفاء العاطليين كانوا يسرون وفق الشريعة الإسلامية ، على ما أزل الله ، وشرعة الرسول ، دون ربح ، ويضربون الأمثلة السكتيرة التي تنقض دعوى السنيين ^(٣) .

وهذا من غير شك يبطل ما أتى به السيوف في الطعن على عبيد الله ، بل إن الإسماعيلية يرون أنه أقمّد العالم بإزالة الصلال ، ونشر الدين الحق : لأنه « استأنف دعاء جديداً إلى الله ، لما غيرت السن ، وكثرت البدع ، ومنبأ أئمة الصلال ... له أمر الله بالدعاء للأئمة ما وهدم به من ظهو مذهبهم ، احتاج أن يدعوهم دعاء جديداً ، كما ابتدأهم صلى الله عليه وسلم بالدعاء أولاً » ^(٤) .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإسماعيلية يرون أن مذهبهم إنما قام ليحل محل الإسلام ، حتى قاتروا في عبيد الله المهدي : إنه « قائم الزمان ... الذي يجمع الله له أمر المباد وبظهوره على الدين كله » ^(٥) . ولو أخذنا بما أورده هؤلاء الإسماعيلية في المهدي ، لكان كثير مما وصف به السنيون المذهب الإسماعيلي غير صحيح لكن ينبغي أن نفهم أن كتابي المجالس والمسايرات ، وشرح الأخبار وغيرها ، هي من كتب الظاهر

(١) أبو شامة كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) الكامل ج ٨ ص ١٨ .

(٣) التبيان . المجالس والمسايرات (مخطوط) ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ .

(٤) كتاب شرح الأخبار (نشر المجلد) ص ٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ٧ .

Exoteric Works التي تتفق مع التشريعات السنية ؛ ولا يبعد أن يكون كثير مما ذهب إليه السنيون صحيحاً ، كما لا يبعد أيضاً أن يكون الحال على عكس ذلك في كتب الباطن Esoteric Works . وخير مثل لذلك ما نقرؤه في مخطوط « عقيدة الإسماعيلية » الذي نشره جويار ، فقد وردت فيه فصول قيمة عن حقيقة المذهب الإسماعيلي ، وعلى الأخص ما أورده عن تأليه المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن كثيراً من كتب الإسماعيلية التأويلية الرمزية ، تدل على أن كتب الظاهر الإسماعيلية ، إنما وضعت لرد على السنيين ، وأنها كثيراً ما تتفاضى عن ذكر حقيقة المذهب الإسماعيلي .

ومن أم ما ترى إليه الدعوة الإسماعيلية ، المحافظة على المذهب الإسماعيلي ، ثم مناصرة الدولة الفاطمية^(١) ؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن المذهب الإسماعيلي قد نهض على يد الفاطميين نهضة جديدة كل البعد عن ذلك الروح الوثاب الذي أوجده عبد الله بن ميسون وأبناؤه في جماعة الإسماعيلية : فبينما يرى الفاطميون ، وعلى رأسهم عبيد الله ، استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة ، كان مؤسسو المذهب الإسماعيلي الأوائل ، أئمة وحججاً ، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم السياسيين ، وبسط نفوذها على أقطاب دولتهم ، وذلك بحمل السيف ، وإراقة الدماء ، وإذاعة عقائد المذهب الإسماعيلي في صراحة مطلقة . وقد سار القرامطة على هذه السياسة بعد قيام الدولة الفاطمية نفسها ، مخالفين في ذلك سياسة عبيد الله المهدي ، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، تلك السياسة التي كانت قوم على الدماء والمكر ، مما حدا ببعض المؤرخين على أن يعزو أسباب النزاع الذي قام بين القرامطة والفاطميين إلى هذا الأمر وحده .

وإذن فقد رأى عبيد الله بعد أن أخفق في تعميم مذهبه بين رعاياه ، وشعر مبدأ تقديس لأئمة بين النخبة خاصة ، أن لا ينشر خصائص الدعوة الإسماعيلية بين العامة ، كما رأى وجوب إخفاء حقيقة مذهبه ، والاعتماد على هذه المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة ، لبث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الأشياء سراً ، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشياخه ، لا بينه وبين رعاياه عامة ، حتى

تظل زعامته عليهم قائمة ، ويظل المذهب الإسماعيلي رائجاً بينهم . وبعبارة أخرى ، بدأ عبيد الله بإنشاء مدارس الدعوة ، في تنفيذ سياسته المزدوجة ، حتى يظهر أمام رعاياه ، علوباً صريحاً يأخذ بناصر العلويين ، ويبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه في الوقت نفسه ، ويشجع هذا المذهب سرّاً عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال مع الأشيعاء للبيدين خاصة .

وإنما فعل عبيد الله ذلك ، لأن الفارسية وطامة أهالي شمال إفريقيا كانوا ، كما يقول دوزي^(١) ، أصعب مراساً من المشاركة في فهم أسرار المذهب الإسماعيلي . فكان يستعذر عليهم فهم تأويل القرآن والحديث والفقه ومظاهر الكون على أساس تأويل الإسماعيلية ؛ فلا يستطيعون مثلاً أن يفهموا بأن الشيطان المقصود بقوله تعالى : (كثر الشيطان إذ قال للإنسان اكفر^(٢)) هو عمر بن الخطاب . وأن « الإنسان » هو أبو بكر ، وأن معنى « اكفر » : لا تقل بإمامة علي بن أبي طالب ، كما لا يستطيعون أيضاً فهم قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)^(٣) ، بأن هناك موتاً عرضياً وموتاً أبدياً ، وأن الموت العرضي يقصد به عدم نشاط الحجاج مع وجود الإمام الظاهر . وأما الموت الأبدي فهو عدم الهداية إلى المذهب الإسماعيلي ، إلى غير ذلك . كما لا يستطيعون فهم عدد الحجاج بمدد فقرات الظهور (١٢) ، ولا عدد الأئمة بمدد فقرات الرقبة (٧) وفتحات الوجه ، إلى غير ذلك مما لم يكن يألفه الفارسية . وهذا وحده يفسر لنا لماذا أمضى المذهب الإسماعيلي في شمال إفريقيا ، على حين ظال قوياً منتشراً في بلاد المشرق ، وانبث في اليوم على يد أغا خان وأنصاره الأغاخانية أو المخوجات ، وعلى يد البهرة أنصار الإمام الطيب ابن الخليفة الأحمر وأبنائه .

على أن هناك أسراً آخر قد حدا بسبيد الله للمهدي إلى إيجاد مدارس الدعوة ، ذلك أنه بقيام الدولة الفاطمية وترجمه على عرشها ، انتهى دور من أدوار التاريخ الإسماعيلي ،

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. II, p. 124

(٢) سورة الحشر : ٥٩ : ١٧ .

(٣) سورة الزمر : ٣٩ : ٤٢ .

هو دور السر ، وبدأ دور آخر هو دور الظهور . ولكل دور من هذين الدورين نظامه الخاص في نشر الدعوة ، كما أن لكل منهما فلسفته الخاصة : فبينما يدعو الدعاة في الدور الأول للإمام مستور ، إذا بهم يدعون في الدور الثاني للإمام ظاهر ؛ وبينما هم في الدور الأول يشهدون حاسة أشياهم لنصرة هذا الإمام المستور بحمد السيف ، حتى يظهر ليملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، إذا بهم في دور الظهور يحوطونه بهالة من التقديس والإجلال ، ولا يلجئون إلى إثارة حاسة الأشياح على حل السيف إلا عند الضرورة القصوى . ولن يستطيع عبيد الله المهدي أن يحول أشياحه عن تلك السياسة إلا عن طريق مدارس منظمة ودعاة سرنوا على هذا .

ومهما يكن من شيء فإن مدارس الدعوة قد راجت في المهديّة - حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة - في عهد عبيد الله ، ثم راجت في النصرية في عهد حميد للنصور ، ثم في القاهرة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ؛ وعرفت هذه المدارس في مصر باسم « مدارس الحكمة » ، التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس كانت دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله ؛ ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة ، بل تجاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسة ، أو مجارها وجزرها ، كما كان يطلق عليه في ذلك الحين . وكانت الدولة الفاطمية تهتم في هذه المدارس بتخريج دعاة ينشئون في عامة البلاد الإسلامية لينشروا المذهب الإسماعيلي بين الناس ، ويكونوا أداة اتصال بين رئاسة الدعوة والدولة وبين أشياهم المسيحيين . وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة مدارس في الدور القداحي ، أي دور السر ، بل كانت هناك مدارس كثيرة في سلبية والأهواز وغيرهما من نواحي العالم الإسلامي . والفرق بين هذين النوعين من المدارس هو أن الأولى كانت تتجه دائماً نحو السياسة الهدامة ؛ فكانت تعمل على قلب حكومة بغداد وشغلها عن الإمام الإسماعيلي المستور . وأما المدارس الفاطمية فقد أخذت تندفع في تيار السياسة العسكرية ، وبعبارة أصح ، كان الغرض الأول الذي ترمى إليه تعاليم تلك المدارس ، هو مناصرة الفاطميين والدفاع عنهم . ورى ذلك واضحاً جلياً في مؤلفات الدعاة في هذا العصر . ورى الدكتور حسين المهداوي أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة الإسماعيلية في

ذلك الحين ، كانت ترمى إلى عبادة الأئمة ورؤسائها ، وإنما كانت على العكس ترمى إلى وضع نظام ديني على رأسه أهل البيت ^(١).

وحي الحق أن عبيد الله وأنصاره ، من كبار الإسماعيلية خاصة ، رأوا أن يروجوا تلك الحركة الإصلاحية الخطرة ، التي تنادى بالإصلاح الشامل ، والتي انتشرت في معظم بقاع العالم الإسلامي وخاصة الشرق منه . وتتصف هذه الحركة — على ما يقوله ماسنيون ^(٢) — من الناحية العلمية بانقشار اصطلاحات وتعاليم وآراء هليونية ، كما تتصف من الناحية السياسية بنشر آراء سرية تنادى بأحقية العلويين والنقض من شأن العباسيين ؛ وأما من الناحية الدينية فتتصف باستخدام تعاليم ذات طابع خاص يتفق مع اعتقادات جميع الناس . وكان هذا الاتجاه الديني السياسي الأدبي من أخطر الأشياء على الإسلام والمسلمين في القرن الرابع الهجري خاصة ^(٣).

وقد اعتمد عبيد الله للهدي في ترويج تلك الحركة الإصلاحية الشاملة على مدارس دعوته التي قامت بمهمتها خير قيام ، والتي أنجبت فيما بعد دعاة من الأقطاب ، مثل جعفر بن منصور البجلي ، صاحب المؤلفات الكثيرة في الدور المغربي ، وأبي حاتم الرازي وغيره ممن ذكرنا . واختلاصة أن عبيد الله الفاطمي بذور مدارس الدعوة الفاطمية الجديدة ، ثم جفوا خلفاؤه ثم ما بذروا .

(ب) في عهد بني زيري :

رحل الفاطميون إلى مصر بعد أن قضوا نحوًا من ستين سنة في بلاد المغرب يوسعون رقعة أملاكهم وينشرون مذهبهم ويبثون دعتهم . وقد تركوا أسر هذه البلاد لبني زيري ، فترسموا خطاهم في منازلة أعدائهم من الأمويين والزناتيين من ناحية ، وفي إعلاء كلمة المذهب الإسماعيلي من ناحية أخرى . ولا فرو فقد ظل الزيريون يدينون بالنصيحة للخليفة الفاطمي ، باعتباره الإمام الإسماعيلي الذي تحب طاعته ؛ فظهر المشاركة ^(٤) وأنصار الدعوة

(١) Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p. 366.

(٢) عبيد الله ص ٣٢٩ .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٥٧ - ٢٦٣ .

(٤) أطلق أهل المغرب على الإسماعيلية اسم المشاركة نسبة إلى الداعي أبي عبد الله الشيعي الذي كان يلقب بالمشرك لأنه جاء من المشرق ، فسمي أنصاره المشاركة .

وتأييدهم وشد أزهم وتسخير الجند والشرطة في خدمتهم . وكان الأمير نفسه يحضر مجالس هؤلاء الدعاة ويستمع إلى محاضراتهم ويرقب جهودهم^(١) .

ويذكر ابن عذارى^(٢) أن أحد هؤلاء الدعاة ، ويدعى أبا الفهم ، خرج عن المهمة التي أسندت إليه ، فأنصل بالثأرين من كتامة على المنصور بن بلكين ، رغبة في الإبقاء على السيادة الفاطمية ، ومحاولة صرف المنصور عما كان يرى إليه من الظفر بالاستقلال . فقد أُرعن المنصور أنه قال : « وما أنا في هذا الملك من يُوَلَّى بكتاب ويُعزل بكتاب ، لأنني ورثته من آبائي وأجدادي ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم خير »^(٣) . ويبدو أن المنصور قد حقق أمنيته ، فقد قضى على ثورة كتامة ، ووضع حداً لتدخل الفاطميين ، وأخذت الدولة الزيرية تبرز شخصيتها وتتخذ لنفسها سياسة مفرية خالصة^(٤) .

وعلى الرغم من أن باديس بن منصور (٣٨٦ — ٤٠٦ / ٩٩٦ — ١٠١٦) رسم خطأ أسلامه في إعلان ولائه للخليفة الفاطمي وعمله على نشر للذهب الإسماعيلي ورفع لوائه ومحاولة أهل السنة وتسخير الجند والشرطة في النيل من قهواء المالكية والتفكيك بهم ، على الرغم من هذا نشب النزاع بينه وبين الحاكم بأمر الله بسبب تدخل هذا الخليفة في شئون طرابلس ومحاولة انتزاعها من الزيريين ، وهكذا سادت العلاقة بين هذا الخليفة والأمير الزيري . فقد كان ولاء الزيريين للذهب الإسماعيلي يتوقف إلى حد كبير على هلاقتهم بالخلافة الفاطمية ، فكلما سادت المودة أمعن الزيريون في إخلاصهم وولائهم . وإذا سادت العلاقة فتر ولاء الزيريين ولم يشددوا التسكير على أهل السنة أو يهتسوا بنشر للذهب الإسماعيلي كما كانوا من قبل .

وكان من أثر سياسة الحاكم بأمر الله أن بدأ أهل السنة في التغيروان ينشطون في نشر دعوتهم سرّاً ، وكانت العامة تفتد إلى مساجدهم وبجالسهم للاستزادة من فقه الإمام مالك ، كل ذلك يجري في غفلة من الدولة ومن المشارة الذين كانوا يتر بصون الدوائر بأهل السنة .

(١) التويري : نهاية الأرب (طبعة مدريد) ج ٢٢ ص ١١٨ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) حسن أحمد محمود : بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٧٢ .

وكان من مظاهر ازدياد نفوذ أهل السنة في عهد باديس أن عهد إلى فقيه سني يدعى أبا الحسن ابن علي الرجال بقرية ولي عهد باديس وتنتهته^(١). وكان أبو الحسن سنيا مالكي المذهب، مسروفا بالورع والتقوى والتشف والتفقه في الدين^(٢). فأخذ يحبب إلى الأمير الصغير عقائد المذهب السني، ويثير كراهته للمذهب الإسماعيلي وللخلفاء الفاطميين. وكان اختيار هذا الفقيه لقرية ولي العهد فوزاً بسيد المذبي للمذهب السني في إفريقية، ظهر أثره في مذبحة الشيعة بإفريقية التي وقعت في عهد العزيز باديس في سنة ٤٠٧ هـ^(٣). فقد خرج العزيز بعد أن عقدت له البيعة إلى المسجد الجامع بالقيروان في موكب حافل يحف به الجند من السودان وفرسان صنهاجة وكبار رجال دولته. وقد روى المؤرخون أن جواده كبا به، وأنه استعبد بالشيخين أبي بكر وعمر. كما قيل إنه سمع طائفة من المشاركة يسبون الصحابة فقال: رضى الله عن الصحابة. فأكادت العامة تسمع ذلك القول حتى انفجر غيظهم المكبوت وساروا إلى الحى الذى ينزل به المشاركة في القيروان فاقمضوا عليهم وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، حتى قيل: لهم قتلوا ثلاثة آلاف^(٤). وأخذ الفقهاء السنيون يحرضون العامة على الأخذ بأمرهم، واندلع لمب الفتنة فم أغلب مدن إفريقية. فنكل بالمشاركة في المهدي^(٥) وفي المنصورية وقابس وغيرها^(٦).

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تحليل الأسباب التي أدت إلى مذبحة الشيعة في إفريقية. وذكر بعض أن ثمة نزاعا نشب بين صنهاجة وبين الجند السودان وأن هذا النزاع لم يلبث أن انتقل إلى العامة، واندلع لمب الفتنة ومال المشاركة منه ما نالهم من الأذى^(٧). وذكر بعض آخر أن عامل القيروان كان يحقد على الأمير الزيرى ويريد أن يوقع بينه وبين الفاطميين ويظهر هذا الأمير بمظهر التقاض عن نصرة الدعوة وحماية أرواح المشاركة. ولما

(١) ابن رشي: المعتمد (الفتاوة ١٩٠٧ م) ج ١ ص ٢

(٢) بن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥.

(٣) الباع: معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٢.

(٤) الباع: معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٢.

(٥) بن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٢٢.

(٦) الباع: معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٢.

(٧) بن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥.

رأى العامة ينزل مرحل غضبهم تتأفل عنهم وتركهم يتأدون في غيتهم ويمتتون في عدوانهم^(١) .
 ومهما يكن من شيء ، فإن هذه الحقنة قد نالت من الإسماعيلية بالمغرب ، فأضفت شأنهم ،
 وفرفت كلمتهم ، وشقت شملهم ، في الوقت الذي علت فيه كلمة أهل السنة واشتد ساعدهم ،
 بانضمام الأمير إليهم وتشجيعه لهم . ويبدو أن مذبحة القيروان لم تقض على الدعوة الإسماعيلية
 بالمغرب قضاء مبرما في أوائل عهد المرز بن باديس . فقد كانت الدولة الزيرية لا تزال من
 الناحية الرسمية تدبر بالطاعة للفاطميين . يدل على ذلك أن هذه الدولة قد حرصت على
 حماية المشاركة وتجنبيهم شر الفتنة والحيلولة بين أهل السنة وبين القضاء على هؤلاء المشاركة
 الذين اعتصموا بقصر المرز^(٢) . كما نكل المرز بأهل السنة الذين حرصوا على هذه الثورة
 وأسطوا نارها . فقبض على الشيخ أبي علي الحسن بن خلدون ، ونكل به^(٣) . كما أرسل
 الخليفة المستنصر الفاطمي إلى المرز بن باديس يطلب إليه أن يحمي المشاركة ، وأن يوضع
 الأسباب التي أدت إلى وقوع هذه الكارثة ، فألقى المرز القوم على العامة ، محاولا أن
 يبري نفسه من المسؤولية^(٤) .

ومما يفسر إبقاء المرز على مظاهر التسمية للخليفة الفاطمي ما ذكره الدباغ من أن المرز
 أبقى على الخطبة للفاطميين مخافة أن يصيب حجاج بيت الله من المناوئة مكروه ، فروى
 أن المرز قال : « ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام
 والمسافرين »^(٥) .

ذلك أن المرز وإن كان قد أظهر الولاء للفاطميين ، كان يبطن المطف على أهل السنة .
 فقد أضاف الدباغ أن المرز أرسل إلى فقيه من أئمة أهل السنة بالقيروان يسأله الفتوى « في
 هذه الطرز التي فيها أسماء الفاطميين وغيرها مما يلبس ، أو يُصَلَّى فيها ؟ »^(٦) . وإن دل هذا
 على شيء ، فإنما يدل على أن المرز بدأ يفكر في التخلص من هذه المظاهر الرسمية ، بعد أن

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٢٢ .

(٢) ابن أبي ديار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٨١ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٤ .

(٤) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٧ .

(٥) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٦) المصدر نفسه .

اشتد لوم الفقهاء على إبقائه عليها . فلم يجد بدا من أن يقطع الخطبة للفاطميين ، وأن يدخل في طاعة العباسيين . فكان إقدامه على هذا الأمر نهاية للدعوة الإسماعيلية بالمغرب . فقد حارب المرزوق الإسماعيلية ومدارسها القيروان وغيرها من مدن إفريقية ، واضع على المشاركة فشكل بهم وشردهم في البلاد . وضاعت جهود دعاة الإسماعيلية والأئمة الفاطميين سدى^(١)

وقد تم قطع الخطبة للفاطميين على مرحلتين : المرحلة الأولى في سنة ٤٣٥ هـ حين أقيمت الخطبة للعباسيين بمسجد القيروان للمرة الأولى ، والمرحلة الثانية في سنة ٤٤٠ هـ حين لعن الفاطميون على منابر البلاد ، وأمر المرزوق باديس بلبس السواد شعار العباسيين^(٢) .

ومن الأسباب التي أدت إلى قطع الخطبة للفاطميين وانتصار أهل السنة بإفريقية والمغرب ، أن المرزوق باديس انصرف إلى تأييد أهل السنة بتأثير سريه أبي الحسن بن الرزقان . أضف إلى ذلك ضعف الخلافة الفاطمية بسبب ما اصاب مصر من فتن ومجاعات صرفت عناية الفاطميين عن الاهتمام بشئون بلاد المغرب . هذا إلى ما ذكره بعض المؤرخين من أن الوزيرين الفاطميين الجرحاوي واليازوري قد عملا على إذكاء نار العداء بين الخليفة المستنصر افاطمي وبين المرزوق باديس وتسييا في هذه القطيعة^(٣) ، على الرغم من أن بعض المؤرخين سر اتصال هذين الوزيرين بالمرزوق باديس بأنهما كانا يحاولان أن يرداه إلى حظيرة المذهب الإسماعيلي بالحسنى ، ويذكراه بما كان للخلفاء الفاطميين من أياد على آباءه وأجداده^(٤) . ولما عجزت الخلافة الفاطمية عن التدخل المباشر في شئون المغرب ، سخرت عرب بني هلال في تحقيق مآربها والانتقام من المرزوق باديس كما تقدم .

وصورة القول إن الدعوة الإسماعيلية قد قضى عليها في بلاد المغرب في سنة ٤٤٣ هـ . وعلى الرغم من أن العرب قوصوا ملك بني زيري ، لم يفلحوا في رد المغرب إلى طاعة الفاطميين .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٥ .

(٢) حسن أحمد محمود : بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٨٠ .

(٣) ابن أبي دینار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٨٧ .

(٤) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome iv. pp. 220 (٤)

٢ — الدعوة الفاطمية في الدور المصري

(١) مراتب الدعوة :

رأينا من قبل أن ابن حوشب (منصور اليمن) بث الدعوة لتشعقات المذهب في اليمن والبحرين والبرامة والسند والهند ومصر والمغرب^(١) ، وأن عبيد الله المهدي استطاع أن يقر من سلمية إلى بلاد المغرب بمحنة دعاة ابن حوشب في مصر ، وأن يفلت من أيدي عمال العباسيين أنفسهم وهو في طريقه إلى المغرب . ونستطيع أن نتبين مدى نشاط الخلفاء الفاطميين لنشر دعوتهم في مصر بما أورده السكندى^(٢) عن الحملة الفاطمية الأولى على مصر في سنة ٣٠٩ هـ ، من أنه قد أصبح فيها في ذلك الوقت كثير من الأهلين تأثروا بالدعوة الفاطمية وعطفوا عليها ، واعدوا بتصرة الفاطميين ، بل لقد دفنوا إلى غزو هذه البلاد .

كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه ، ويتظاهرون أمامهم بأمر أخرى تحجب إليهم المذهب الإسماعيلي ، الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . لذلك ابتدعوا دعوة منظمة قسموها منذ نشأتهم إلى سبع درجات ، ثم أصبحت تسما في أيام الفاطميين . وهاك ملخص هذه الدرجات :

الدرجة الأولى : كان عبد الله بن ميمون ودعائه يملكون الناس كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه ، وكانوا يمتدحون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين ، وإظهار بعض مشكلات القرآن والمسائل الشرعية والطبيعية . فإذا وجد الداعي أن المدعو لم بما يقوله سلم له ، وإلا تركه يعمل فكره فيما يلقى عليه من الأسئلة وقال له : « يا هذا إن الدين مسكتوم وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون . ولوعلت هذه الأمة ما خصص الله به الأئمة من العلم لم تختلف » . وبهذا يشير الداعي حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم . فإذا آنس المثنان إلى كلامه قال له : إن سبب ما نزل بالمسلمين من طريق الكلمة ذهابهم عن أئمة نصبوا لهم وأتيسوا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ... ولكن الناس صاروا إلى أنواع الضلالات . فإن

(١) المقرئى : اتباط الحنفا من ٢٧ .

(٢) كتاب الولاة من ٢٧٦ .

دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحدى ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعب مستصعب وعلم خفى غامض ، وهو سر الله المكتوم وأسرته المستور الذى لا يطبق حله ولا ينمض بأعبائه وتقله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه لتقوى ومن الأسئلة التى يوجهها الداعى إلى المدعو فى هذه المرحلة :

ما مال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أمجز عن خلقها فى ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن ؟^(١) وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج^(٢) وهاروت وماروت^(٣) وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب النار^(٤) وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم الثابتة فى الجحيم ؟^(٥) وما معنى « ألم »^(٦) و « المن »^(٧) ؟ وما معنى « كهيمص » ،^(٨) « حمسق »^(٩) ؟ ولم جعلت السموات سبعا والأرضون سبعا^(١٠) والثمانى من القرآن سبع آيات ؟^(١١) ولم تجرت السيون اثني عشر عينا^(١٢) ، ولم جعلت الشهور اثني عشر شهرا ؟^(١٣) ثم يقول الداعى لمن حوله : فكروا أولا فى أنفسكم . أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟ وما معنى قول رسول الله

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب (اعلمنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم)

(٢) يظهر أهم قبائل الملوك Huns ، وقد ذكر يأجوج ومأجوج فى قوله تعالى (إن يأجوج ومأجوج مفلسون فى الأرض) سورة الكهف ١٨ : ٩٤ .

(٣) يشير إلى ما ورد فى سورة البقرة (١١٢-٢) وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت (

(٤) يشير إلى ما ورد فى قوله تعالى فى وصف جهنم فى سورة الحجر ١٥ . ٤٤ (لhasبة أبواب ،

لكل باب منهم جزء مقسوم) .

(د) وقد وصفها الله تعالى فى قوله : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ظلها كأنه رجس

للشياطين ، فإنهم لا تكون منها فالتون منها البطون) - سورة الصافات ٣٧ : ٦٣ - ٦٦ .

(٥) تبدأ بعض السور بكلمة ألم مثل البقرة وآل عمران (٢ : ٣) .

(٦) يشير بذلك إلى أول سورة الأعراف (رقم ٧)

(٧) يشير بذلك إلى أول سورة مريم (رقم ١٩)

(٨) يشير بذلك إلى أول سورة الشعراء (رقم ٤٢) .

(٩) يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة الطلاق ٦٥ : ١٢ (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض

مثلهن) .

(١٠) يشير إلى أن فاتحة الكتاب تتكون من سبع آيات .

(١١) يشير بذلك إلى انبياس الماء لبني إسرائيل من اثني عشرة عينا ، سورة الأعراف ٧ : ١٥٩ .

(١٢) يشير بذلك إلى قوله فى سورة التوبة ٩ : ٣٦ (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا)

صلى الله عليه وسلم . خلقت حواء من ضلع آدم ؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات ؟ ولم كان في وجهه سبع ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ؟ ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة ؟ وفي عنقه سبع عقد ؟ ولم جعل عنقه صورة ميم وبداه حاء و بطنه ميم ورجلاه دالاحق صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟ ولم جعلت قامته إذا انتصب صورة ألف ، وإذا ركع صارت صورة لام ، وإذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابه يدل على الله . ولم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا وأعداد أسنانه كذا والأعضاء الرئيسية كذا ؟

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المرید وطلبوا منه حل هذه الرموز ، أخذوا عليه المهود والموثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة ، وأن يدامع عنها ، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام . وفي ذلك يقول المقرئ ^(١) « ألس الله تعالى يقول : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سبيلاً ^(٢) » . وإذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تمجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لسيار أهله ويجعل فرضاً لقب . وجرت عادة الله ومنته في عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده . ولذلك قال (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غيباً) ^(٣) ... وقال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كميلاً . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) ^(٤) .

ومن أمثال هذا ، فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالموثوق من أيمانك وحقودك أن لا نقضى لنا سرّاً ، ولا تظاهر علينا أحداً ، ولا تطلب لنا غيبة ، ولا تكتنمنا نصحاً ، ولا توالى لنا عدوا . فإذا أعطى العهد قال له

(١) مخطوطة ج ١ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٢) سورة الإسراء ١٧ : ٧٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦ .

(٤) سورة النحل ١٦ : ٩١ - ٩٢ .

الدهاءى : أعلنا جملا من مالك نجمله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعرفك إياها .
والرسم في هذا الجمل بحسب ما يراه الدهاءى . فإن امتنع المدعو أسك عنه الدهاءى ، وإن
أجاب وأعطى نقله إلى الدعوة الثانية .

الدرجة الثانية : وإذا تم الدهاءى ما أراد ، دخل الطالب في الدرجة الثانية ، ومؤداها
أن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من
ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم يكشف المدعو بقوله إن الناس قد ضلوا ، لأنهم لم
يأخذوا عن أئمة نعبهم الله لم . ويستدل على ذلك بأمر مقرر في كتب الإسماعيلية حتى
يتثبت ذلك في نفسه . فإذا ثبت نقله الدهاءى إلى الدرجة الثالثة ، وبذلك يضمنون أساس مبدأ
الإمامة في نفس المدعو ، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم .

الدرجة الثالثة : وفيها يكشف الدهاءى عن العقيدة بأن الأئمة سبعة ، وأن الإمام الحقيقي
هو الساع الذي يعلم كل رموز الدين وسرايره . ويستدل بذلك على أن الله جعل السكواكب
السيارة سبعة وجعل السماوات سبعا ، وجعل الأرضين سبعا ، وهؤلاء الأئمة هم أيضا سبعة
أولهم على ، ويليهِ الحسن ، فالحسن ، فملى زين العابدين ، فمحمد الباقر بن زين العابدين ،
فجعفر الصادق ، فإسماعيل بن جعفر . وبمضهم يتخطى إسماعيل ويلحق بالإمامة بأنه عمده .
وهذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن عنده علم الباطن ، وعلم التأويل ، وأنه يعرف
الأسرار ، وأن دعائه هم الوارثون . عند ذلك يذهب اعتقاد المدعو في الأئمة الاثنا عشر
(من بين طوائف الشيعة) ، لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رويوا . فإذا انقاد المدعول لآقاء
عليه الدهاءى في هذه الدرجة نقل إلى الدرجة الرابعة .

الدرجة الرابعة : وإذا وصل الطالب إلى هذه المرتبة اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو
خاتم النبيين . وفي ذلك يقول الدهاءى : حيث أن عدد الأئمة سبعة ، كذلك عدد الرسل
الذين جاءوا بالشرائع سبعة^(١) . ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ،
ويكون ظهوراً له في حياته ، وخليفة له بعد وفاته^(٢) . وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو

(١) ويسمونهم النطقاء ، ويرون أنهم حلولات العقل الكلى La Raison Universelle

(٢) ويسمى الأساس أو السوس ، وهو عند الإسماعيلية حلول للنفس الكلية Ame. Universelle

المساعدون هم الأساس والصامتون^(١) لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم . ولا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله ، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبى ناسخ ، يقوم من بعده سبعة صمت^(٢) أبداً . وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطفاء فينسخ جميع الشرائع التي كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

وسمى ذلك أن النبي الذى يأتى بشريعة هو الناطق : فالناطقون سبعة هم الأنبياء . ولكل ناطق أو نبى سوس وستة أصحاب صمت . مثال ذلك آدم جاء بتشريع فهو نبى ناطق وصاحبه وسوسه ابنه شيث الذى يليه ستة أئمة صمت ؛ ونوح ناطق أنى بشريعة نطق بها ، وصاحبه وسوسه ابنه سام ويليّه ستة صمت ؛ وإبراهيم الخليل نبى ناطق وصاحبه وسوسه ابنه إسماعيل ويليّه ستة صمت ؛ وموسى نبى ناطق ، صاحبه وسوسه أخوه هارون الذى يليه ستة أئمة صمت ؛ وعيسى نبى ناطق وصاحبه وسوسه بطرس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبى ناطق أنى بشريعة هى الإسلام ، وصاحبه وسوسه على بن أبى طالب . وإنما يقصد الداعى من وراء ذلك أن يغير عقيدة الدعو ، ويدخل فى نفسه أنه لا وحى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ويحمله يعتقد أن الوحى مستمر مع توالى الأجيال . ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لانعت للإسلام بشيء ، حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد ابن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى أو بمنزلة على من محمد .

المرجعة الخامسة : وفى هذه المرتبة يقول الداعى للدعو : إن لكل إمام قائم ، حججها^(٣) متفرقين فى الأرض عددهم اثنا عشر رجلا . ويستدل على ذلك بأن البروج اثنا عشر ، وأن نقباء بنى إسرائيل اثنا عشر ، ونقباء النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر . ويستدل على أن عدد الأئمة سبعة بأمر منها أن الله تعالى خلق النجوم التي هى قوام العالم سبعة ،

(١) يعنى الأساس ويليّه ستة أئمة صامتون .

(٢) أولهم الإمام الأساس ويليّه ستة أئمة صمت .

(٣) أحدث الإسماعيلية فى هذه الدرجة مبدأ الحجج المشهور ، وأعطوا الحجة من التقديس ما كانوا يعطونه للإمام . وس أشهر حجج الإسماعيلية عبد الله بن ميمون القداح — حجة محمد بن إسماعيل ، وناصر خسرو (ت ٤٨٠ هـ) حجة المستنصر ، والمحسن الصباح (ت ١٨٠ هـ) حجة المستنصر وابنه تزار . وقد قام كل من هؤلاء يدور هام فى تاريخ الإسماعيلية .

وجعل أيضاً السموات سبعا ، والأرضين سبعا . ثم يقول الداعي للدعو إن شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ستنسخ . وإذا كان فارسياً ذكره بإدلال الرب له ، وحثه على التخلص من نيرهم ، وإن كان عربياً أثار حفيظته على اللرس ، وإن كان يهودياً أو نصرانياً حدثه بما يوافق عقيدته وميوله .

الدرجة السادسة : وفيها يغسر الداعي معاني شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك ، ويقول إن هذه الدروس وضعت لتشغل العامة عن خلافاتهم وتبديهم عن الفساد . وإذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول ، ضعف اعتقاده في الدين وأركانه . وإذا ينتقل الداعي إلى الكلام في الفلسفة ، فيقول إن فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل في شرح كل المسائل . وعلى كل مسلم أن يحكم العقل في كل شيء ؛ وبذلك يحجب إلى نفسه أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وغيرهم من الفلاسفة الذين يعتمدون على تحكم العقل . وإذا أخذ المدعو بهذه الآراء أصبح أهلاً للنقل إلى الدرجة السابعة . ولم يمد هذه المرتبة إلا القليل ، حتى إن كثيرين من مشهوري دعاة الإسماعيلية كأبي عبد الله الشيعي لم يتجاوزوها^(١).

الدرجة السابعة : وفيها يعلم المدعو أن الناصب للشرعية ، وهو النبي ، لا يستثنى بنفسه ، ولا بدله من صاحب يكون أحدهما الأصل ، ويكون الآخر صدرأله . ويستدل الداعي على ذلك بقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون^(٢)) إشارة إلى الأول في الرتبة ، والآخر هو القدر الذي قال فيه (إنما كل شيء خلقناه بقدر^(٣)) ، كما يستدل أيضاً بقول الفلاسفة : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد . وبذلك يؤول الداعي هذه الآيات : ويلا يناسب ميول المدعو .

الدرجة الثامنة : وفيها يقول الداعي للدعو إن التالي يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق . وإن العصامت في الأرض يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وإن الداعي يدأب في أعماله حتى يبلغ منزلة السوس . فإذا اعتقد المدعو بذلك قال له الداعي :

De Sacy : Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaélites, Journal (١) Asiatique, 1824, p. 326.

(٢) سورة يس ٣٦ : ٨٢ .

(٣) سورة القمر ٥٤ : ٤٩ .

إن معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ... فينتظم بذلك النبي شريعة يتبعها الناس ، ثم يقرر الداعي أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب مستنفاها غير ما يفهمه العامة وما يتبادر إلى الذهن ، وليس هو إلا حدوث أدوار عند اقضاء أدوار من أدوار الكواكب وهوالم اجتماعها ، من كون ومصاد جاء على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة في كتبهم . وعلى ذلك فليست معجزة النبي سوى أشياء تُنظم بها سياسة الجمهور . وإعنا يقصد الداعي بذلك إزالة كل اعتبار عن كل ما يمسى نبوة ولم يعد للإسلام أى تأثير على نفسه^(١) .

الدرجة التاسعة : وإذا انتقل المذهب إلى الدرجة التاسعة ، أصبح جديراً بالتصق في أصول المذهب الإسماعيلي . عند ذلك يحيله الداعي إلى كتب الفلاسفة وما جاء فيها من الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعن العلم الإلهي ، واعتقد أن الوحي هو صفاء النفس ، وأن النبي يجد في فهم ما يلقى إليه ويتنزل عليه ، فيظهره للناس ، ويمر عنه بكلام الله ، ذلك للكلام الذي ينزل به النبي شريعته . فكان النبي لا يعمل شيئاً ، إذ أن الوحي ينزل عليه فيظهره للناس ، وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع ، إنعنا لم سياسة العامة ، على حين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . وهكذا يبرهن دعاة هذا المذهب لتلاميذهم ومريديهم أن ظهور الإمام بظهور أمر الله ، وأن نبيه إنعنا يكون على لسان أوليائه الذين هم الدعاء أنفسهم ، والذين يصح لهم أن يحملوا محل الأنبياء ، ويحتدوا حتى يصلوا إلى منزلة الناطق^(٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الدرجات كانت رابعة في دورى السر والظهور ، وأن الفاطميين أولوها كثيراً من العناية ، فتدوا لما الجالس في القصور والكتبات والمساجد على ما سنرى .

(ب) داعى الدعاء :

وقد أسندت رئاسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعى الدعاء » ؛ وكان على قاضى القضاة في الرتبة ويترى بره . وكثيراً ما كانت وظيفتنا

(١) Goldziher : le Dogme et la Loi de l'Islam p. 204 .

(٢) انظر هذه الدعوات التسع في كتاب الخط المبرزى ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٥ ، وراجع المعهد للى يؤخذ على المصنف في المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وفي كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لتويرى : خطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ص ٦٥ - ٦٦ .

قاضى القضاء وداعى الدعوة تسندان إلى رجل واحد . ويساعد داعى الدعوة فى نشر التعاليم القاطمية اثنا عشر قريبا ، وله نواب يتوبون عنه فى البلاد ، وبذلك يمتد الصلة بين الخليفة وبين أتباعه من الإسماعيلية ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند كلامه على داعى الدعوة القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان فى عهد المستنصر القاطمى : « وتوجهت بعد ذلك إلى الموسوم بالقضاء والدعوة الذى كان باب حفظنا ، ونحن بالبعد والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة ^(١) » .

ومن أهم أعمال داعى الدعوة رئاسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين إما مباشرة أو بواسطة بوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها ، وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذيلها بإضافته ، وإلقاء هذه المحاضرات بنفسه فى الأماكن المخصصة لها . ومن خصائص داعى الدعوة جمع القبحى ^(٢) من المؤمنين والمؤمنات (يعنى الإسماعيلية) ، وتدوين اسم من يدفع أكثر من المال المقرر . وكان يجمع فى عيد الفطر مال كثير يودع بفضه بيت المال ^(٣) . وتطويرة مركز داعى الدعوة ، أسند إليه القاطميون رئاسة دار الحكمة ودار العلم للملحقة بها .

ومن أشهر الذين ولوا وظيفة داعى الدعوة أسرة أبى حنيفة النعمان المشرقى ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

(ج) مجالس الدعوة :

وقد خصص لداعى الدعوة مكان خاص بقصر الخليفة ، هو دار العلم . وكان دعاة الإسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الإسماعيلى . وكان داعى الدعوة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسي الدعوة فى الإوان الكبير ، فيحاضر الرجال ،

(١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ، مطبوع بمطبعة القاهرة ص ١٢١
(٢) ذكر المقرئ (خطوط ج ١ ص ٢٩١) أن التجوى كانت ثلاثة دراهم وثلاثاً ، ومن سرات الإسماعيلية من دفع التجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلاثي دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره فى المحول ، ويمضى رقعة مذكلة بإهداء الخليفة فيها : بارك الله فيك وى مالك ووليك ودينك ، فيدخر ذلك ويفخر به .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩١ .

ويعقد لاساء مجلساً خاصاً يسمى « مجلس الدعوة » ، حيث يلقيهم أصول المذهب . ذكر المقرري ، نقلاً عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرّد للناس كل حسب طبقة : فكان لآل عليّ مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولأن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللاحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهم . وكان لاساء يحصرون في الجامع الأزهر .

وإذا فرغ داعي الدعوة من إلقاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون بده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعي الدعوة مكاناً كبيراً في القصر ؛ وفي عهد العزيز بالله الفاطمي قد فاضى القضاء محمد بن النعمان منصب الدعوة إلى مذهب آل البيت في القصر ، كما كان أخوه الحسين في القاهرة وأبوه أبو حنيفة النعمان المروني في المغرب . وقد اشتد الزحام بالناس حتى مات منهم أحد عشر رجلاً . وبذل الحاكم بأمر الله جهداً كبيراً في نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرغم كثيراً من الناس على اعتناق المذهب الفاطمي ، كما كان من كثرة دخول الناس في هذه الدعوة أن خصص لهم يوماً في الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب .

وكان داعي الدعوة يتسلم كتب الدعوة التي تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشر . أما هذه الكتب فهي من غير شك الكتب التي ألّفها رجال من أمثال أبي حنيفة النعمان المروني ، ^(١) ويعقوب بن كلس ^(٢) ، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وغيرهم من كبار دعاة الإسماعيلية . ومن أشهر هذه الكتب كتاب « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعواه » ، وتتناول الكلام على الدرر .

(د) العقائد الفاطمية :

كان أنصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية . ويرجع

(١) من أشهر كتبه كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وكتاب الحمة ، وكتاب المجالس والمسائرات ، وكتب المتنوع ، وكتاب الإيضاح ، وكتاب مختصر الإيضاح ، وكتاب أساس تنزيل ، وكتاب افتتاح الدعوة للرابعة .

(٢) من أشهر كتبه الرسالة الوريرية ، وقد نوح فيها نوح أبي حنيفة النعمان في كتبه .

ذلك إلى أيام عبيد الله المهدي الذي كان يعتبره بعض رجال الشيعة الخالق الرازي ، كما كانت تعتقد جماعة أخرى أنه نبي . وهناك طائفة ثالثة كانت تزعم أنه النبي حقاً^(١) . يدلنا على هذا ما رواه الذهبي عن ابن عبد الجبار حيث يقول : « كانت طائفة تزعم أنه الخالق الرازي ، وطائفة تزعم أنه نبي ، وطائفة تزعم أنه النبي حقيقة » .

ويستورد الذهبي في الكلام نقلاً عن ابن عبد الجبار ، حقاً يذكر أن أبا القاسم ابن عبيد الله أمر بلعن الأنبياء وأطلق منادياً ينادى بلعن النار ومن لاذ به ، وأنه كان يكتب أبا طاهر القرمطي ، ونصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف . وقد أثارت طاهر أبي القاسم هذه سخط جماعة من الخوارج ، وقاروا تحت لواء ابن كيداد^(٢) . هذا ما رواه الذهبي . ولكنه كان يفتقر الشيعة ؛ ففسد عليهم ذلك وكذب في نسبة هذا إليهم .

إن من السهل أن نصدق أن الفاطميين كثيراً ما تقموا على النيين . لكن ما يروى عنهم من أنهم لعنوا الأنبياء ، وأسلم أشاروا على أبي طاهر القرمطي بحرق الكعبة والمصاحف ، يكذبه بعض الكتاب الأقدمين كسكويه (ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧) ، وهو حجة في ذلك العصر ، وتاريخه خال من التحيز والموى .

وقد عصف سياسة الفاطميين السابقة وبثها شعراء الشيعة الذين درسوا العلوم الفلسفية التي انتهت بهم إلى نسبة بعض القوى الإلهية إلى الخلفاء . ومن ذلك نصح بعضهم للمعز بأن يقص يوماً خاصاً محتججاً عن الناس ؛ لكنه ظل محتفياً تحت الأرض سنة كاملة^(٣) ، فاعتقد الناس أنه صعد إلى السماء ؛ وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندي كان إذا رأى سحابة في السماء ، ترجل وقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين ! »^(٤) .

(١) الذهبي ، مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ٤٤

(٢) المصدر نفسه ورقة ٦٩

(٣) ذكر ابن رولاق أن المعز ظل محتججاً نحواً من أربعة أشهر . غير أن ذلك ينقص ما ذكره غيره ، كابن اللاتني وابن الجوزي وابن الأثير الذين اتفقوا على أن مدة احتضار المعز تحت الأرض كانت نحو سنة .

(٤) ذكر ذلك ابن زولاق (المكتبة الأهلية باريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب) وابن الفلاني (ص ١٤) ، وسبط بن الجوزي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك (Pocock) ، القسم الشرقي رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٨٦) ، وابن الأثير (ج ٨ ص ٢٣٩) ، وأبو المحاسن طعمة حوينول (Juybol) (ج ٢ ص ٤٤١ و ٤٤٢) .

وقد غلا في ذلك فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية . وبهذا مهد ابن هاني السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التي أشدها في حضرة المرز ، نقتل منها هذه الآيات :

٣١ هو علّة الدنيا ومن خلقت له واصله ما كانت الأشياء
٦٨ ذلك الجوّاري المنشأت مواخرا^(١) تجري بأمرك والرياح رخاء^(٢)
٨٦ ممّت لك الأبصار واقادت لك أفذار واستحييت لك الأنواء
٩٩ لا تسألن من الزمان فإله في راحتك يدور حيث نشاء^(٣)
هذا ، ولم يفر ابن هاني عن مواصلة مدحه للمرز ؛ ولكننا رأينا أنه يُفرق فيجمله في منزلة عيسى ومحمد ، بل ينسب إليه بعض صفات الألوهية ، كما يتضح ذلك في قصيدة أخرى حيث يقول :

١٩ ندعوه منتقياً عزيزاً قادراً غفار موبقة الذنوب صفوحاً
٥٨ أقمست لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحاً
٥٩ شهدت بمفترك السموات للعلي وتنزل القرآن فيك مسيحاً^(٤)
وفي قصيدة أخرى يصف المرز فيشبهه بمحمد ، ويشبه أشياعه بأنصار النبي حيث يقول :

١ ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
٢ وكأنا أنت النبي محمد وكأنا أنصارك الأنصار
٦ هذا الذي تجدى شفاعته غداً حقاً وتخشّد أن تراه النار^(٥)
ولقد بلغ تمجيد ابن هاني المرز أقصى حد يمكن أن تصوره ، حيث ينسب إليه القدرة على إتيان المعجزات فيقول :

(١) مقتبسة من القرآن سورة الرحمن ٥٥ : ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه سورة الصافات ٣٧ : ٣٦ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ٧ - ١١ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٣٤ - ٣٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ٩٦ .

١٤ فقد شهدت له بالمعجزات كما شهدت لله بالفتحيد والأزل^(١)
ويغلب على ظننا أن ابن هاشم تأثر في عقائده بأراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم للمز
أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر العاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به في سبيل نشر
دعوتهم ، كما يتجلى ذلك في هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ،
وقد بحث بها إلى المز وهو بمصر يقول :

٣١ وروحٌ هدى في جسمٍ نورٍ بـه شاعٍ من الأعلى الذي لم يُجسَّم
٣٢ فأقسمُ لو لم يأخذ الناسُ وصفه عن الله لم يُعقَل ولم يُتوهم^(٢)

إن الخلفاء الفاطميين الأول لم يملحوا في استئالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات
وأمثالها ؛ ولذلك نرى أن عقيدة تأليه الحاكم الخديفة قد أثارت أحياناً سخط الأهلين ،
إذ كان لا يزال هناك كثيرون يناوئون سياسة الفاطميين ؛ فقد كتب أحد الشعراء بيتين
من الشعر في ورقة وضمت على المنبر ، فوقعت في يد الخليفة العزيز ، وقرأها فإذا فيها :

الظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والخفاة
إن كنتَ أعطيتَ علمَ غيبٍ فقلْ لنا كاتبَ البطاقة^(٣)

كانت سياسة الحاكم مصطربة لا تستقر على حال . ففي سنة ٤١١ هـ تأثر بتعاليم
الدرزي الذي كان ينادي بأن روح الإله حلت في الحاكم^(٤) ؛ وكذلك تأثر بتعاليم الأخرم
الذي نادى بكل جسارة في المسجد العتيق وبمحضره قاضي القضاة ، « باسم الحاكم الرحمن
الرحيم ! » ؛ وذلك أعطاه الصفات التي هي من صفات الله سبحانه . كما أنه تأثر بتعاليم
حرزة الذي كان أصحابه يركمون^(٥) عندما يرون الحاكم في الشوارع ويصيحون قائلين له :
« أنت الواحد الأحد والهي المبيت » . وبذلك انصرفت الحكومة الفاطمية عن تأييد
الذهب الفاطمي إلى تأييد هذه العقائد الجديدة .

(١) ديوان ابن هاشم ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨ .

(٣) امن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ . ابن أبي ديناير ص ٦٥ .

(٤) يحيى بن سعيد ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(٥) ذكر أبو الحسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩٧) أن عادة الكركوج كانت ثلاثة مثل سنة ٣٩٦ هـ ،

حين أقيمت الخليفة لبحاكم ، لا في مصر وحدها ، بل وفي المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وماتر
للولايات العاطمية .

انتهى في ذلك الوقت اضطهاد النصارى واليهود تماماً ؟ وزاد اختلال عقل الحاكم ، فاعتقد أنه الشخص الأعلى والمخلوق الأعظم ، وأن الإسلام ليس بأرقى من الأديان الأخرى . وهذا التغير الفجائي في سياسة الحاكم كان في غضون المدة من سنة ٤٠٨ إلى ٤١١ هـ . ولا شك في أن هذا الانقلاب كان راحماً إلى التعاليم الإسماعيلية التي تلقاها في أرقى درجتها من التلو^(١) .

وقد آمن الحاكم في هذه الدعوى ، حتى إن ابن زولاق^(٢) قص علينا في هذا العدد حكاية ، وإن كان من البعيد تصديقها ؛ إذ يقول إنه كان على التجار أن يتركوا حوائيتهم مفتوحة ؛ فإذا سرق منهم شيء ذهبوا إلى القصر يشكون ما حل بهم . ففي ذات مرة ذهب جماعة منهم ورفعوا شكواهم إلى الحاكم من سرقة بعض سلعهم . وكان عنده تمثال يدعى أبا المول يجلس في داخله رجل ؛ فجلس الحاكم أمام التمثال ، وقد أذن لشاكين أن يمثّلوا بحضرتهم ، فوصفوا ما فقدوه من متاع . فتكلم أبو المول ذاكراً أسماء القصوص واسم السكان الذي خبأوا فيه المتاع ؛ فكان كما أخبر به ، وقبض على القصوص وصلبوا . وأصاف ابن زولاق إلى هذا أن هذه الأعمال ساعدت على استتباب الأمن والنظام ، حتى إن التجار كانوا يتركون حوائيتهم غير مغلقة كسائر الناس الذين لم يكونوا يعملون بإغلاق أبواب دورهم طوال الليل . ولنتقل للقارىء فيما يلي عبارة ابن زولاق بنصها :

« . . . ونادى في الناس ألا يغلّق أحد بابه ولا حاوته . . . وأصبح الناس يستشيئون ؛ فأحضر صليبا كان عنده يسمى أبا المول ؛ فكان كل من ضاع له شيء يجلس

(١) أبو الحسن ج ٢ رقم ١ ص ٦٨ .

(٢) يلاحظ أن مخطوط ابن زولاق الذي عنوانه « فضائل مصر » (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧) ، هو موزع لهذا السفر الضخم الذي ألفه في تاريخ مصر ؛ غير أن ذلك المخطوط قد أضاع معلومات هامة عن تاريخ الخلفاء العباسيين الأول إلى سنة ٣٨٦ هـ . وقد ذكرت في هذا الباب أن هذا المخطوط قد أكله أحد الأتراك ، ومن المحتمل أن يكون قد أدخل عليه معلومات استقفاها من المؤرخين المتأخرين ، أمثال الغضائري ، وأبي السرح بن الجوزي ، وسيبويه بن الجوزي ، والذهبي . ومن المعلومات التي في هذا الكتاب ما يتناول الكلام على سنة ٣٨٧ (أي سنة وفاة ابن زولاق) وما تلاها من السنين . ومع هذا فذلك كله منسوب إلى ابن زولاق نسبة للعمل الذي بدأ فيه ، كما هو الحال في كتاب الكندي (كتابه المعصاة) ، الذي بدأه الكندي (حتى وصل إلى سنة ٢٤٦ هـ) ، فجلده ابن زولاق وابن حجر فأكلاه . ومع ذلك فالعقائد التي وردت في الكلام على سنة ٢٤٧ وما تلاها تنسب أيضاً إلى الكندي ، مع أنه لم يكتب إلا الجزء الأول من ذلك الكتاب الذي ينسب إليه ويعرف بنفس هذا الاسم .

بين يديه ويقول له : يا أبا الهول اضاع كذا وكذا ، فيقول له شخص داخل الصنم (إن ضايك --- هكذا وردت في الأصل) ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه في المكان الذي يقول عليه الصنم ، فيَحْضُر لصاحبه ! ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه . ثم صلب العصوص ، وعادت الناس في أمان ينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة وحوابيتهم كذلك ، لم يسرق لم شيء ، حتى إذا وقع من أحد درهم (يستمر --- هكذا وردت في الأصل) ، يبقى في مكانه لا يحسر أن يأخذه أحد ، حتى يأتي إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادي : رحم الله من اعتبر بغيره ! ^(١) .

وذكر نفس هذا المؤرخ حكاية أخرى يقول فيها : « . . . إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون ، واستمر في مكانه أسبوعاً كاملاً لم يحسر أحد على أخذه ، حتى سر به صاحبه » وأقام الدليل على ملكه له ^(٢) .

والظاهر أن هذه الحكاية لا تخلو من الباطنة ؛ إذ من الممكن جداً أن يكون رجال الشرطة قد أخذوا هذا الكيس أمانة لديهم ، حتى يستطيع صاحبه العثور عليه . على أن ما رواه ابن زولاقي من أنه لم يكن هناك أحد يحسر على أخذ مثل هذا الشيء ، يمكن تصديقه ، لا سيما في عهد الحاكم الذي كان يعاقب على هذا القتل .

وهذه للناسبة نقول ، إنه ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يثبت أنه كان عند العرب ما يسمى الآن « مكتب الأمانات » . ومع هذا فقد كان ذلك موجوداً في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي شرع أحكام القطة .

ففي البخاري ما معناه أن رجلاً وجد صرة فيها مائة دينار ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن ذلك فقال له : « عرّفها حولاً » . لكنه لم يجد من يسرقها ؛ فأمره النبي بتر فيها حولاً آخر ؛ فلم يحصل لها على صاحب أيضاً . فجاء الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بتر يفي سنة ثالثة ، وبعدها تصير ملكاً له . وفي البخاري في موضع آخر أن رجلاً سأل

(١) ابن زولاقي ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أ وما يليها .
ذكر ابن زولاقي أن هذا التنازل سرق وكسر ، فارتاع الرجل الذي يداخله حتى فقد حاسة التلئق . ولو صححت تلك الحكاية ، لكانت تلك البرقة من صنع أحد العصوص القاديين ، أو أحد المسلمين المتحمسين الذين لم يكونوا يرضون عن سلوك الحاكم .
(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٤ ب .

الذي صلى الله عليه وسلم عما يصنع في القطة فقال له : « عرفت ما سنة فإن لم يظهر لها صاحب ، فثأرك بها »^(١) .

هذا ، وقد تكلم ابن زولاق على ادعاء الحاكم للألوهية ، ذلك الخليفة الذي كانت تلك نفسه ملك الرغبة التي استولت على كاليجولا من قبل في أن يجعل نفسه في مصاف الآلهة . وذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض أناس مخصوصين ؛ وكان من واجبن أن يكتشفن ما يحدث فيها ، ثم يقدمن تقاريرهن عن ذلك إليه في اليوم التالي . فإذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للفتول بمحضرتهم ، فيخبرهم بتفصيل كل ما حدث في دورهم . ولم ينس أيضاً أن يتخذ جواسيس آخرين ، مهمتهم أن يقدموا له تقارير بكل ما يحدث في الطرقات ؛ وكانت نتيجة هذا وذلك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم النيب^(٢) .

لم يترك الحاكم ادعاء الألوهية الذي شغل كل حياته إلا فترة لم يطل أمدها ، ثم سرعان ما ادعى تجسم الإله في شخصه — وإن لم يصرح علناً بذلك — فقد كان يوافق على آراء أنصاره كالآخرم والدرزي^(٣) ، الذين نسبوا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله ؛ لهذا اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت^(٤) . ولهذا كل إذا بدا للناس في الطرقات ، خروا له سجداً وقبلوا الأرض^(٥) ؛ ومن أبي ذلك كان نصيبه الموت^(٦) .

وقد شجع بعض الشراء المصلين بالبلاط العاطسى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا في أن ينسبوا إلى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بمحضرتهم . فقد أمدا ابن خلكان

(١) صحيح البخارى ، ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥ .

(٢) ذكر هذا ابن زولاق (شرحه ورقة ٥٦ ب ، وابن المؤزى (مكتبة بوديان باكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرق رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٣٠ ا) نقلاً عن هلال الصابى ، وقال ابن زولاق إنه كان يبحث هؤلاء الجواسيس إلى دور الأمراء ، وأنهم كن يقدمون مرتبات وغيرة .

(٣) تكلم ابن سعيه (ص ٢٢٠ - ٢٢٤) عن الدرزي ، وذكر (ص ٢٢٤) خلافاً لكثير غيره من المؤرخين أنه قتل بمدينة مصر . أما غيره من المؤرخين فيزعمون أن الدرزي أرسل إلى لبنان ، حيث نجح في بث عقائده مقبحة فيما يخص الحاكم .

(٤) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٦ ا .

(٥) القضاى ، المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ ا .

(٦) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٦ ا .

بوثيقة من الحافظ السلفي^(١) بخط يده ، وهما نصها : « إن الحاكم المذكور كان جالساً في مجلسه العام وهو حَتْل بأعيان دولته . فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسئلوا تسلياً)^(٢) ؛ والقارى في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر ، وكان رجلاً صالحاً : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يحلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدرُوا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز)^(٣) . فلما انتهت قراءته ، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئاً . ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر قال له : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالاته (تقلباته) ؟ وما آمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ، ثم يؤاخذك بعد هذا فتأذى منه ؛ ومن المصلحة عندي أن تنيب عنه . فتجهز ابن المشجر للحج ، وركب في البحر وغرق^(٤) . »

وعلى الرغم من حالة العداوة التي كانت تملأ الناس من سياسة الحاكم الخرقاء ، استطاع أن يدهي الألوية . فابتدأت الدعوة التي تقول بأن الله تجسم فيه . وعلى ما جاء في مخطوط القاهرة الذي عنوانه « رسائل الحاكم بأمر الله » ، نرى أن الحاكم ادعى أن له طبيعة إلهية ، بعد أن كان بشراً كسائر الناس^(٥) . ومن المحتمل كثيراً أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيراً هو نتيجة تعاليم الهرزى للفنائد القاطمية في أشد درجاتها غلواً .

(١) هو أبو طاهر أحمد بن محمد . . . السلق من أمالي أصحان ، وكان يلقب بصدر الدين ؛ وكان حاكماً وزير العلم شافئ المذهب . رحل إلى بلاد كثيرة لمطالعة الحديث الذي أخذ عن أساتذته البرزين ؛ ورحل في رحلاته بأصقاع مختلفة ، وساح في بلاد كثيرة ؛ فركب البحر من صور إلى الإسكندرية ، فوصلها في القلعة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) . ولما استقر به المقام ، انتجبه كثير من أمالي البلاد القنية يستمعون دروسه . وفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ العادل بن السلار كلية في الإسكندرية ، وعله عيها ، وكانت وفاته بهذه المدينة في الخامس من ربيع الثاني سنة ٥٧٦ هـ (أغسطس سنة ١١٨٠ م) ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨) .

(٢) سورة النساء ٤ : ٦٨

(٣) سورة الحج ٢٢ : ٧٢ و ٧٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) ورقة ١٦١ .

منذ هذا الوقت أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من « هبادته وتوحيده وتنزيهه »^(١) ، وأنه « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »^(٢) ، وأن « كافة الشرائع الأخرى باطل وزور »^(٣) . وكان لما فعله الحاكم خطر عظيم ، حتى لقد أزعج من لم يصدع بقوله على دفع الجزية كأهل القصة^(٤) .

لكن تلك المعتقدات أثارت سخط أهالي القاهرة الوادعين ؛ وكان من أثر ذلك أن اختيل كثير من الدعاة وأنصار المذهب القاطن . أما الحاكم المجنون — كما يقول الأستاذ مرجوليوت^(٥) — فقد ثار نفسه ، فأطلق العنان للسودانيين ، فأسرفوا في الاعتداء على الأهلين ؛ وسببت المناوشات بين السودانيين والأهلين خسائر لا يستهان بها .

غير أن سخط الأهالي كان ذا أثر . فقد كانت كتب الأمان التي أعطاه الحاكم لرعاياه المسيحيين سنة ٤١١ هـ — وهي عام وفاته — مفتوحة بما يفتتح به الخلفاء كتبهم . فقد كان فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ١ من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله ابن العزيز الخ^(٦) .

(هـ) الدرزية^(٧)

١ — وهبة الدرزية :

قامت في مصر القاطن طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألّوها الحاكم ، وخرجوا بذلك على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقامت هذه الحركة على أيدي القرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق

(١) المصدر نفسه

(٢) سورة الجمعة ٦٢ : ٣ و ٤ ، وغرط ورقة ١١ ا .

(٣) مخطوط ورقة ٢١ ب .

(٤) المصدر نفسه ورقة ٣٥ ا .

(٥) Prof. Margolionth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 80

(٦) يحيى بن سعيد ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٧) الدرزي (بالفتح) : واحد دروز الثوب ويحوى ، وهو فارسي معرب . ويقال درز بالنال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والقاطن والنوغاء من الناس والغياطون والحاكّة ، وهم من أسفل الناس . والدرزي (بالفتح) : الخياط . والمائة تضم ثمان خضول درزي ، وفي الجمع دُرُزِيّ ، والصواب دُرُزِيّ في المفرد ودرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

للكي للتدس The Divine Right of Kings . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن علي الزوزني والحسن بن حيدر الفرغاني المعروف بالأحرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي ، الذين جهروا في مصر بتأييده الحاكم .

وقد حمزة بن علي في مصر في سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يحتفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ . وأخذ ينشر في انقضاء الدعوة إلى تأليه الحاكم ، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقي قبولاً من ذلك الخليفة الفاطمي . وقد وصف النويري^(١) الدور الذي قام به حمزة في بث عقيدة تأليه الحاكم في هذه العبارة ، قال : إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن الهباد الأنجمي الزوزني ، ولازم الجلوس في المسجد الذي بناه خارج باب النصر ، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم ، وأن الإله حل فيه . واجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين . وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة ، خرج إليه حمزة من المسجد وانفرد به ، وتنادى على ذلك وارتفع شأنه . واتخذ لنفسه خواص لقب بعضهم بسفير القدرة ، وجعله رسولا له . وكان يرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم ، فلم يتمكنوا مخالفته خوفاً على نفوسهم من بطشه .

وفي سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن علي بدعوة ألوهية الحاكم ، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، أي أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً من طريق الحلول (Incarnation) .

ويظهر أن دعوة تأليه الحاكم التي قام بها حمزة بن علي قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية للمتلة في مصر . ولا غرو فقد عمل على أن يحل في رئاسة هذه الدعوة محل ختكين داعي دعاة الإسماعيلية في هذه البلاد . ولولا مقاومة السنيين والمتدلين من الإسماعيلية لآلت رئاسة الدعوة الإسماعيلية إلى حمزة منذ سنة ٤٠٨ هـ . وقد شجع الحاكم هذا الداعي وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودده إليهم ،

(١) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٣٦ ورقة ٥٩ .

ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح^(١). وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة بن علي في تلقيب نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعي إلى توحيد الله ، والناطق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ... وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم) والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته^(٢).

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى في نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم في سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم . وكان الأخرم مشهوراً بالجرأة والإقدام . ويقول النويزى^(٣) : « ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، يرى حلول الإله في الحاكم ، ويدعو إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ... فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعة سنية ، وحمله على فرش مسرحية ... وركبه في موكبه في تانى شهر رمضان . فبينما هو يسير في بعض الأيام ، تقدم إليه رجل كرخى فألقاه عن فرشه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله . وأسك الكرخى ، فأمر الحاكم بقتله ، فقتله فوقه ؛ ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . وكان بين انخلع عليه وقتله ثمانية أيام » .

ويظهر أن الأخرم قتل بعد أن أثار هذه الاضطرابات في جامع عمرو . فقد ذهب على رأس خمسين رجلاً من أنصار حركة الثنأليه ، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم ، وسلموا إلى القاضى السنى ابن أبى العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم ؛ وأثار الأخرم بذلك حنق المصريين السنيين فأقتضوا عليه وعلى رجاله فقتلوا بهم ، وتمسك هو من الحرب ، ولكنه قتل بعد قليل^(٤) .

وقد أثار قتل الأخرم وأنصاره حنق الخليفة الحاكم ، حتى إنه « أمر بعد قتل الأخرم

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق من ٢٢٣ - ٢٢٤

(٢) كتاب النقطة والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهى (١) الرسالة الموسومة بيد الخلق ، (٢) نبذة من شرح البيان ويجرى الزمان (ج) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق ، نشره سيورله الألمان (١٣١٩ - ١٩٠٢) .

(٣) نهاية الأرب ، خطوط بنار الكتب المصرية ج ٢٦ من ٥٩

(٤) أبو الحسن : الهجوم القاهرة ج ٤ من ١٨٣

ألا يركب منه أحد إلا الركابية فقط ، ولا يدخل إلى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً أسماهم ، وأن يدخل أيضاً الكتاب والقراءون ، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر ، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس ^(١) .

ولكن قتل الأخرم لم يصف من عزيمة غلاة الإسماعيلية . فقد ظهر على أثر مقتله في سنة ٤٠٩ هـ الهادي محمد بن إسماعيل الدرزي ^(٢) ، وكان قد وصل إلى مصر في سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجرل له المطاء . وقد سلك الدرزي في سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى ، فألف الكتب في ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين . ويقول أبو الحسن ^(٣) : « وقر به وفوض الأمور إليه ، وبأن منه أعلى المراتب ، بحيث أن الوزراء أو القواد والمعلماء كانوا يقفون على بابه ولا يتقضى لهم شغل إلا على يده ، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزي المذكور فيطيعونه » .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزي في سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادي (حمزة بن علي) وحذا حذو أستاذه في نقل رئاسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعي دعاه الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولي عهد المسلمين عبد الرحمن بن إلياس الذي كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغفل نفوذ أنصار المذهب الدرزي . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك ، حتى مع السنين في القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوم . ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً في التقرب إلى الخليفة الذي ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر ، مما أثار سخط المصريين السنيين والمتدلين من الشيعيين ، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادي نيم الله بن نعلبة قربى دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على أهالي هذه الجهات كعبه التي لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم

(١) بحسبى بن سمية : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٢

(٢) «إليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب

لدرزي .

(٣) التجرم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤

استيلاءه من دعوته خوفاً من الرعية . وقد استطاع الدرزي أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشراً في حبال لبنان وحمون .

وليس من شك في أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة وبشجع الدرزية في مصر أولاً وفي الشام تالياً ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس . وكان من واجبن اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور ليقول بحضرته وأحبرهم بما حدث في دورهم ، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

وقد ادعى الحاكم تحسم الإله في شخصه ؛ وهو وإن لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء أنصاره كحمزة بن علي والدرزي الذين سبوا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى . كذلك اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت ؛ وإذا ظهر في الطرقات خروا له سجداً وقبلوا الأرض بين يديه ، ومن أبي ذلك كان نصيبه الموت .

وقد أعين الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يمتقدونه من عبادته وتوحيده وتنزيهه ، وأرهم من لم يقل بالوحيية الحاكم على دفع الجزية كأهل الامة .

٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية في أوائل القرن الخامس الهجري كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشيء من مبرراتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي . ولا يزال كثير من الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأولى قائماً إلى اليوم . ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً جديداً يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف للسكنون ، أي ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تلتقي بأربابها في وجه كل من لا ينتهي إليها ، أي من لا يكون درزيا ، أو موحداً على حد تعبيرهم .

ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فن لم يؤمن بقي كنفك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلا ردة^(١) . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد . فالرؤساء هم الذين ييدم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء ييدم الأسرار الداخلية التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد ييدم مفاتيح الأسرار الخارجية التي تخص بملاقة مذهبهم بنيرة من للذاهب .

والطائفة الثانية هي طائفة الجنائيين ، وتنقسم إلى قسمين : الأسراء الجنائيين ، والعامّة أو الجهال . فالأسراء الجنائيون ييدم شئون الحرب والزعماء الوطنية ، والعامّة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولا يحق لطبقتي الجنائيين الدخول ، بحال من الأحوال ، في مجالس طائفة الروحانيين ، ويمتبرون جهالاً مهما علا كعبهم في التعليم والثقافة^(٢) .

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجنائيين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استمداده لتلقى أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً ماسكاً مفتقها في عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن علي صيغة هذا العهد القدي أسماء « ميثاق ولي الزمان » ، وهناك نصه عن دي ساسي^(٣) .

« توكلت على مولانا الحاكم الأحمد ، الفرد الصمد ، للنزعة عن الأزواج والعدد . أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه في محبة من عقله وبدنه وحواز أسرته ، طامعاً غير مكروه ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان

(١) حمزة بن علي الدرزي : كتابه في مذهب أهل الحق حيد (نشره ميشاتيل شارويم) ص ٢٣

(٢) راجع Hitti : The Origins of the Druze People and Religion (Columbia, 1928) p. 43.

(٣) Chrestomathie Arabe, Vol. II. p. 52 (٣)

والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكِم جل ذكره ، والطاعة في العبادة ، وأنه لا يُشرك في عبادته أحداً مضي أو حضر أو ينتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسده وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكِم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير مسترض ولا منكر لشيء من أسأله ، ساء ذلك أم سره . ومضى رجوع عن دين مولانا الحاكِم جل ذكره ، القى كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف شيئاً من أوامره ، كان بريئاً من الباري المعبود ، وحرم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من الباري العلى جل ذكره ... ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكِم جل ذكره كان من الموحدين الفاضلين . وكتب في شهر كذا وكذا من كذا وكذا ، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ، وعلوكة حمزة بن علي بن أحمد ، هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمتردين بسيف مولانا الحاكِم جل ذكره وشدة سلطانه وحده .

وقد خلف حمزة بن علي وقيومه من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها تبيين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره . وقد أوضح الأستاذ فيليب حنّ^(١) أن الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا ظفرت بكثير من هذه المخطوطات في خلوات الدرزية ، أي في الأماكن التي كانوا يتخذونها مركزاً لمبادئهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه حكم محمد علي سنة ١٨٤٨ م :

(و) رسائل الحاكِم بأمر الله :

ويجب أن نشير هنا إلى وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة ، وهي الرسائل المخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة^(٢) وعنوانها : « رسائل الحاكِم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » . وأنا أشك في أن هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة هي نسخة

(١) Hitti : The Origins of the Druze People and Religion, p. 48

(٢) هذا المخطوط الذي يحتوي على ٦٤ ورقة يشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مخطوطات القيمة) رقم ٢٠

ثانية من المجلد الأول للمخطوطات الأربعة التي اعتمد عليها دى ساسى في كتابيه *Chrestomathie Arabe* و *Exposé de la Religion des Druzes* . فقد ذكر لنا دى ساسى في الكتاب الأول أنه لم يطلع من المخطوطات التي تتناول الكلام على الدرروز إلا على ما يوجد منها بمكتبات أوربا فقط^(١) .

ولست هذه المسألة مما يحيط من قدر بحث هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ؛ لأننى اقتصرت في بحثها على اقتباس بعض العبارات التي لم يتصد دى ساسى ولا غيره من المؤرخين لترجمتها أو بحثها بشيء من الإسهاب . والمخطوط الذى اطلع عليه دى ساسى هو بالمكتبة الأهلية بباريس تحت أرقام ١٥٨٠ و ١٥٨١ و ١٥٨٢ و ١٥٨٣ (Ancien fonds, ie. 1408, 1415, 1419, 1427) على التوالي ؛ وعنوانه : « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا [الحاكم] »^(٢) .

والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ؛ ويكاد يتفق في ست عشرة منها مع مثيلاتها من رسائل المخطوط الموحد بدار الكتب المصرية بالقاهرة . على أن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل^(٣) ؛ أما الأخرى فإنه تناول الكلام عليها بشيء كثير من الإيجاز ، فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دونت فيه^(٤) .

وسبب بحث الآن في الأساليب التي اتخذها الخلفاء الفاطميون في سبيل تأييد عقائدهم ، والطرق التي اتبناها أشياعهم في هذا السبيل ، معتمدين في ذلك على مخطوط القاهرة ؛

(١) De Sacy, *Exposé*, Tome I. pp. cccc. Liv.

(٢) Ibid, Tome I. pp. cccc. LIX.

(٣) *Chrestomathie Arabe*, Tome II. pp. 209-226

(٤) *Exposé*, Tome I. pp. ccccXIII—ccccXXII

قد كرت هذه التواريخ حسب تقويم حزة بن علي ولي الزمان وقائم الرمان (De Sacy : *Chrestomathie Arabe*, Tome II. p. 246, n. 71).

وسنة الأول من تقويم حزة توافق سنة ٤٠٨ هـ (Tome II. p. 246, n. 73) . ويسمى حرة أيضاً الإمام حزة بن علي . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢١ (ب) . وهذه الألفاظ الخاصة بقائم الزمان ووليه ، أضى حزة بن علي ، قد ذكرت بوضوح في الرسالة التاسعة عشرة من المخطوط الموجود بالقاهرة (ورقة ٤٩ ب) حيث يقول : " توصلت إليه بوليه قائم الزمان حزة بن علي " .

ومنها يتجلى القارىء ما ادعاه الحاكم من صفات الألوهية . ولا غرو فقد أصبح قسم كبير فى القصر مركز حركة الدعوة الفاطمية . وفى هذا المكان كان داعى الدعاة وأعوانه يلتقون الناس تمايم هذا المذهب فى أوقات منتظمة .

أما الهجة التى كسبت بها هذه الرسائل ، فإنها تدلنا على ما توقعه الفاطميون من مقاومة الأهلين ، وما تنبأوا به أيضاً من معارضة من الجانب الأعظم من المصريين . يؤيد هذا القول ما جاء بهذه الرسائل عن الحاكم وأهل مصر : « ونزعه عن سوء الظنون ؛ إشارة ذلك أنه لما غاب ، ظنوا به نأن السوء من العجز والدمم والظلم »^(١) .

وقد قرئت هذه الرسالة بعد أن قام الفرزى (حمزة بن على) بتطعيم العقائد الجديدة التى انتحلها الحاكم التى ظهر سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) بصورة التوحيد ، على ما يتبين من هذه العبارة : « فلما غاب مولانا الحاكم بصورة التوحيد انكشف المكنون : الإشارة إلى قيامه فى الكشف سنة ثمان وأربعمائة ، انكشف المكنون ، يعنى التوحيد ، واستمر مكنوناً من غيبة البارى »^(٢) .

وهذه الرسائل قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزة ؛ لأن الفلسفة ، وهى أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت فى عهد الحاكم محل القرآن والسنة . ومما نختص به هذه الرسائل ما جاء فيها من أن داعى الدعاة كاتب يماونه مائة وواحد وخمسون داعياً ، فضلاً عما قام به المؤذنون وخطباء المساجد فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية^(٣) .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ؛ ولكنها بمثابة تمهيد لما تلاها من الرسائل ؛ تعرض للكلام على ما استجد فى عهد الحاكم من عقائد . ويقول كاتب هذه الرسالة : « العالم ناطق للشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام ؛ وهو مبدع الكل ، يعنى

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، مخطوطات الشيعة ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ،

ورقة ٤٣ .

(٢) يدل لفظ " كشف " على الفترة التى كانت بين اختفاء الحاكم إلى وقت دعوته وإظهار دينه الجديد للناس . وقد ذكر دى ساسى (144 ، p. 275 ، Chrestomathie Arabe, Tome II) أن هذه الفترة يمر فيها بمقتضى كتب الدوروز بالكشف .

(٣) المصدر نفسه ، ورقة (ب) .

المشتركة : الخمسة ^(١) حدود الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة ، ، وعالمهم ^(٢) ؛ والملة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية ^(٣) .

« أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار في إبطال قول من قال أن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التي هي السجلات » ^(٤) .

بعد ذلك يفسر لنا الداعي كلمة إمام التي تقوم مقام « ذومعة » ، وهو العقل الكلى

(١) كان الخمسة حدود الحق عبد الرحيم ولي عهد الخليفة ، وعباس ، وعنتكين الداعي ، وجعفر ، وأحمد بن العوام قاضي القضاة . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢ (ب) . وذكر دى ساسي من الرسالة السابقة عشرة (المكتبة الألمانية ببرلين ، مخطوط ١٤٠٨) ، وعنوانها « التنزيه » ، أن الخمسة حدود هم : عبد الرحيم بن إلياس ، وعباس بن شبيب ، والداعي عنتكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضي القضاة (Exposé, Tome I, pp. CCCC.LXXII seq)

(٢) ذكر دى ساسي أن كلمة « حدود » في اصطلاحات الدور الدينية تشير - بطريق الجواز لما جاء في القرآن - إلى الحدود التي لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك ، فإن إقامة الحدود « معناها الشرائع التي أوجدها الأئمة (الحدود) في طائفة الدروز (Chrestomathie Tome II, pp. 199, 242, n. 45) . وقد أوضح دى ساسي في كتابه (Chrestomathie Arabe, Tome II, 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله « شرح الحدود » إلى الرسالة الثامنة عشرة من المخطوط الموسود بالمكتبة الملكية (بؤ ذلك) ببرلين تحت رقم 1٥٨١ (Ancien fonds, No 1415 Biblotèque Nationale) ، وعنوانها « ذكر معرفة الإمام وأسباب الحدود العلوية روحانياً وجسمانياً » .

(٣) ذكر دى ساسي (Chrestomathie, Tome II, pp. 219, 274, n. 136) أن حرمة بن علي هو علة الوجود . ويسمى في شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بطة العقل ؛ وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ويزيد دى ساسي هذه المسألة برتناً فيقول : إن الحاكم هو إله الأعلى ، ويسمى أحياناً لقمة الفعل لكمة العقل (La cause efficiente de la cause des causes) . بيد أن دى ساسي لم يحرم بحث حيث يقول « إن هذه الآراء ليست خاصة بالدروز ، بل قال بها الإسماعيليون أيضاً ، وأعتقد أنها شائعة عند من يقولون بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الإسماعيلية » .

(٤) دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١ ا .

(٥) قال دى ساسي إن التي أو الناطق يحلله سبعة من الأئمة ، ألهم يعنى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه في الزهد . والناطق والأساس هما محمد وعلي ، وهما حادماً الحاكم ليس غير . وينوب هُما عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شبيب . ويزيد دى ساسي هذا الموضوع بياناً فيقول : ونقرأ عبارة تستحق الذكر في كتاب آخر ألفه حزة في نفس هذه السنة (٨٤٠٩) ، وعنوانه رسالة التنزيه (أي تنزيه الحاكم) . ويريد هذا الكاتب أن يدل على أن مولانا - أي الحاكم - لا يشترك في شيء مع الناطق والأساس ، وهما محمد وعلي ، بل ولا في عقائدهما ، أي الإسلام أو التنزيل ، عقيدة مولانا المجازية التي عندها عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شبيب (Chrestomathie Arabe, Tome II p. 238, n. 23)

ويشير المؤلف في رسالة النساء (المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١٠ (ب)) إلى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس . المصدر نفسه ورقة (ا ب) .

الذى يربى الدعاة ، وعنه يثقلون العلم (لأن السابق الحقيقى هو الإمام الأعظم ... الذى هو المقل السكلى ... إن الإمام السكلى هو الذى يربى الدعاة ... يأخذون العلم ، يعنى الدعاة) .

وفى الرسالة الثانية (رسالة النساء) يؤكد الداعى خطر تمدد الآلحة ، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحداية الحاكم (الخالق الرازق)^(١) و (علام النيوب)^(٢) ؛ ثم يستطرد الداعى فى الكلام فيقول : « والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات »^(٣) . ومن هذا يتبين أن الدين الإسلامى قد عطل فى عهد الحاكم ، وعمل بدين جديد مبنى على التعاليم التى قام بها دعاته ، والتى شرحها الشراح فى مجالس الحكمة ، وفى الوثائق التى قامت مقام القرآن والحديث .

والرسالة الثانية تبين لنا أيضاً أن مجالس الحكمة إنما كانت تنمقد لتعليم طائفة من الناس أصول مذهب الباطنية ، لكن يتجنبوا بذلك معارضة السواد الأعظم من المصريين . ومع ذلك فإنه يظهر لنا من نفس هذا الكتاب أن روح السخط قد ظهرت بين المصريين ، بل ولم تلاق هذه السياسة قبولا عند قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، فكان نصيبه أن عزله الخليفة سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، وأقر مكانه مالك بن سعيد .

وكان من أثر عزل ابن النعمان أن لمن فى هذه الرسالة . على أن الفارق لم يصادف من النجاح شيئاً ، فلحق بلفه بحجة أنه لم يستفد بصحة مذهب الحاكم ، ولأنه اغتصب أموال الليثامى . ويتبين ذلك مما جاء فى هذه الرسالة حيث يقول الداعى الذى كتبها :

« لأن المجالس الباطنية لا تقرأ على كل الناس » ... وعبد العزيز كان قاضى مصر ، ثم بعده تولى مالك بن سعيد قضاء مصر ... فظفرنا إلى قولهم تيس من تبوس بنى أمية ... وجدناه عبد العزيز محمد بن النعمان ... ولد عبد العزيز فى أيام العزيز أيضاً إلى أيام الحاكم ، وعزله سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وولى مكانه مالك بن سعيد آكل أموال الليثامى والتبوسى من دين الرحمن »^(٤) .

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ورقة ١٢ (ب) .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١١ (ب) .

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٠ (ب) .

(٤) المصدر نفسه ورقة ٨ (ب) .

كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن أبطلت مجالس الحكمة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)^(١). نعم ! قد حال دون نجاح العاطميين ما كان من مقاومة السواد الأعظم من الأهالي واستمجان فريق من عية القوم لهم . ولا يجب في ذلك ؛ فقد بلغت الجراءة بالحاكم أن أبطل الأديان كافة ، وطلب إلى الناس اعتناق مذهبه الذي بنى عليه هذه الكتب التي كانت تتلى في مجالس الحكمة .

وقد جاهر دعاة العاطميين بهذا اللذهب الجديد واقطعت المجالس ... أهل التأويل والأفويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب ...^(٢) وهذه الفصول التي تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الأنوية من الأساس^(٣) ... والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات^(٤) .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها « النجاة » ، فهي تحتوي على الدماء الذي كان يقوله المؤمنون في مجلس الحكمة . أما الداعي فإنه يبيث الدموه بين الناس ، مؤكداً الوهية الحاكم وسرمديته (سرمدي الثبات)^(٥) ، وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه .

فسكان الحاكم في نظر هذا الداعي هو رب العرش^(٦) (فأنت صاحب العاجلة ، أي الدنيا ، وإليك حكم الآجلة ، أي الآخرة)^(٧) ، و (أرى البرايا)^(٨) . ولا شك في أن غرض الداعي كان حث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب (التي هي باطل وزور)^(٩)

(١) المقيري في مخطوط ج ١ ص ٤٥٨ .

(٢) دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ٨ (ب) .

(٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٠ (أ) .

(٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٠ (ب) .

(٥) المصدر نفسه ، ورقة ٢٠ (أ) .

(٦) المصدر نفسه ، ورقة ٢٢ (أ) .

(٧) المصدر نفسه ، ورقة ٢٥ (أ) .

(٨) المصدر نفسه ، ورقة ٢٧ (ب) .

(٩) المصدر نفسه ، ورقة ٢٩ وما يليها .

والرسالة الرابعة عشرة ، وعنوانها « الدعاء » ، كتبت بنفس الألبوب والروح الذي كتب به ماسبقها من الرسائل ، وفيها يوضح الداعي الاصطلاحات التي كان يلتقيها من يدين بمذهب الحاكم . ويحذف هذه الشروح للطولة التي لا حاجة إلى نقلها لطلوها يصبح الدعاء كما يأتي :

« سبحانك يا مبدع الأشياء ، يا مخترع العالمين ، يا صفوة العالمين ! سبحانك يا من تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يا من تناظم أن يكون كنهه شيء ، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يا من تعالى عن المساوي ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنتك باري لا باري لك ، وخالق لا ضد لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بظلم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسألك يا مولانا بأول شيء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفى التشبيه عنك ، أن تمنّ عليّ بخالص معرفتك وحيد طاعتك ، والبلوغ إلى مرضاك والقيام على أسرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ما ينالني في عبادتك من شدائد المحن والويلوى . يا أرحم الراحمين ! بمحكّ عليّ من يصرف هويته عن تيسيلك وتبجيلك إلى سواك . لا أصرف ذاتي إلى غيرك ، تائب إليك مصترف بألوهيتك ، متبرئ من كل عدوك ؛ لا شريك لك ولا دافع لأسرك ؛ تجاوز عني واغفر ذنبي ، واجعل معرفتك التي كنت مننت بها عليّ مخلدة في نفسي . لا إله غيرك ولا معبود سواك^(١) .

وهكذا كان الدعاء الذي قام به الداعي في القصر والمؤمنون بوحداية الحاكم . ومع ذلك فقد أنكر كثير من الناس هذه الصفات ، على ما يشير إليه كاتب هذه الرسالة . بيد أن هذا الكاتب قد ذكر أن الحاكم ظهر في صورة إنسان ، وتسمى باسم إنسان ، وقام بأفعال البشر . ثم تجرد عن صفاتهم . وأخيراً دعا الناس إلى الاعتقاد بألوهيته وتنزيهه ، إذ صار البرهان المطلق . ويتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها بنصها :

« يعني أنهم أنكروا بعد أن ظهرت الصورة عند الإثبات المحض ، يعني وجوده في صورة مرئية ظاهرة مكشوفة حيث صورنا ؛ وتسمى بأسمائنا وظهر بجميع أفعالنا ، ثم تجرد

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ص ٢٧ (ب) - ٣١ (١) .

عن صفات البشر ، ودعا الخلق إلى معرفته ووجوده وتنزيهه ، نصار إثباتاً محضاً ،
أى خالصاً^(١) .

(ز) الدعوة الزارية :

انقست الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر الفاطمي في سنة ٤٨٧ هـ قسوين : ذلك
أن فريقاً نادى بإمامة للستلي فسوا المستلية ، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر
للمستنصر ، فسوا زارية . وقد أيد الحسن الصباح الدعوة الزارية ومهد الأمور في فارس
وخراسان للإمام نزار ، وجعل أنصاره يعتقدون أن نزار هو الإمام الحق ، وأن للستلي
اغتصب منه العرش والإمامة معاً . وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة الزارية مؤذناً
بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة . فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام للستور
والدعوة إليه ، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تمتد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة
لا على المستورة . وقد استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة الزارية خير استغلال ،
فأصاب نجاحاً بعيد المدى ، وأفلح في تكوين نظام جديد ، وأشأ دولة إسماعيلية خالصة
في وسط دولة الباسيين السفين .

وقد تركزت جهود الحسن بعد موت المستنصر في نشر الدعوة لنزار ، واحتفظ
بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس ، وخراسان ، فالتفوا حوله ؛ كما عمل على ضم
عناصر جديدة إلى دعوته . ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن إلى نزار ، العمل على تكوين
مجموعات إسماعيلية بمحة تستقر في أماكن حصينة ، يجتمع فيها كل دعاة الزارية لمحاربة
أهل السنة والنبيل منهم . فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية في إقليم
رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها . كما وجه دعاة نحو بلاد الشام لنشر الدعوة الزارية
ومحاربة السلاجقة والمستلمية والصليبيين . ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع ، وفي كل
مدينة أنصار .

وقد امتازت دعوة الحسن في ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التحليم من الإمام المعصوم .

(١) المصدر نفسه ، ورقة ٣١ (ب) .

قادى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه . وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر المرفان . وكان هذا المبدأ من العوامل التى شجعت الحسن على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السنية . كما لجأ إلى التأويل ، فأول القرآن لتزارية تأويلاً يتفق ونزاعه السياسية ، فاعتقد للدعاة أنه أحق بتعيينهم ، وقدمه المستجيبون . كما استعمل عقيدة الإمام المصوم ليحمل للناس على طاعته ، لأن طاعة الإمام ونائبه وحيثه شرط أساسى للدين الحق .

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن ، فغلت كثيراً من العلماء على الرد عليه . فآلف أبو حامد النزالي كتابه « المستظهرى » أو فضاء الخاطئية ، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم فى الإمام المصوم .

وقد حمل الحسن على تنظيم جماعته تنظيماً دقيقاً يضمن لها البقاء . ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات ، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة ، الرابطة التى يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها ، وجعل للأعضاء شروطاً ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم . ولم يشأ أن يبعد أتباعه جميعاً ليشهروا السلاح في وجه أعدائه ، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها ، يهددون الأعداء بخناجرهم السمومة ، فسموا القداوى ، لأنهم يذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم ونائبه . أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهى :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل ، وعدد أفرادها سبعة ، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة . فكان الحسن يلقب نفسه بقلب رئيس الدعوة ، ولا سبب بعد أن احتل قلعة أكموت في سنة ٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل . وكان هو وحده الذى يمين الدعوة ويمزلم ، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعى الدعوة . وكان سلطانه لا يحد : يصدر أوامره من الموت فيطيعها النزارية في كل مكان . وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على الثقاتين في الإخلاص للذهب الإسماعيلى . ولم يحمل لمبدأ الوراثة أى اعتبار . كما تظاهر جماعته بالتشرف والورع والمحافظة على الشريعة ، فقتل أحد أبنائه لاثامه بشرب الخمر .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ، ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يتق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة : جبل على رأس كل قسم واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة . على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية ، بل ظل الرأس المدبر والمقل للسكر . ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيا زك أميد ، والحسين القيني ، وأبو طاهر . المرتبة الثالثة وهي مرتبة الدعاة ، وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في الموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة . وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر ، ثم ينتقلون إلى الموت ليتسلوا أسرار الدعوة . وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك ، ماهراً في التليس ، ليخدعوا العامة ويدخلهم في عقيدتهم .

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق ، وهم طبقة تفقت في أصول المذهب ، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم ، ويتفانون في المحافظة على المذهب ، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة .

المرتبة الخامسة : الفداوية ، وهم الذين كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غداً ، ويضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم . ولا يشترط في الفداوى أن يتعدى في دراسة أسرار المذهب ، إنما يشترط فيه التناهي في طاعة الرئيس والضحية إلى أبعد الحدود ، فأصبحوا آلات تنقام فتاكاً ، وخلفوا مصراً مليئاً بالخوف والفرع . وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب الخطورة والمزيلة التي لا تقهر ، والصبر ؛ يظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للملك بعده . ويشترط في الفداوى أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات .

المرتبة السادسة : اللاصقون ، وهم ينتسبون إلى الدعوة ، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية ، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة . ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يسمتوا في فهم أصول المذهب .

المرتبة السابعة : المستجيبون ، وهم عامة الناس أو المؤمنون للتبتوث ، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي . إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس ، وبث الدهر في نفوسهم .

وكانت الدعوة الزارية تسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس . فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ - التفرس ، ويقصد به إدراك مكنونات النفس ، ويطلق على ذلك الاستبطن ليقينوا قوة إرادة الفرد ومبالغ سهولة إتياده .

٢ - التأنيس وهو بحث الأمن والطأنينة في نفوس المدعويين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه ، كل حسب نزواته .

٣ - التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعويين ، ويمتد خطوة جريئة من أخطر الخطوات ، يستطيع به الداعي أن يصل إلى قلب المرید ، فيززع عقيدته ويزلزل إيمانه .

٤ - التمليق وهو ترك المرید بعد تشكيكه متأرجحاً في عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي ، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته .

٥ - التدليس ، وهو أن يلجأ الداعي إلى الترهيب ، ويديم ادعاءات كاذبة تزيد في إغراء المرید وتشويقه وإلهاب رغبته في الدخول في الدعوة .

٦ - التأسيس وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي أدلى بها الداعي للاستجيب حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

٧ - انخلاع ويقصد به إقصاء المریدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام ، وذلك بالاستماتة بالتأويل غير المشروع .

توفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور ، وأقام دولة فريدة في نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة ، تقوم على نشر مذهب الزارية وتحارب أهل السنة وتناهض للاستلمية بوجه خاص .

وقد اتبعت هذه الطائفة طرقاً غريبة لنشر دعوتهم ، فكانوا يأتون بنوع من النبات وينقلونه ثم يسقونه بعض الناس الذين يأسون فيهم الليل إلى الباطنية والذين يشتركون معهم في فكرة أحقية زرار بالإمامة . . فإذا شرب أحدهم عصير هذا النبات ، غاب عن الوجود ، فينتهز الدعاة هذه الفرصة ، وينقلونه إلى جهة بعيدة بها حدائق غناء . وعندما

يفوق يقولون له « إن هذه هي جنة المؤمنين » . وبهذه الطريقة استطاعوا أن ينشروا دعوتهم بين فريق كبير من الناس .

وقد امتد نفوذ طائفة الإسماعيلية في بلاد الفرس ، وبما ساعد على انتشار دعوتهم عدم عناية السلاجقة منذ أيام ألب أرسلان بتتبع الجوايس والدعاة الذين كانوا يفدون على البلاد الإسلامية ، كما أن هذا السلطان قد أنشأ نظام البريد الذي كان شائعاً في الدولة الإسلامية ؛ وبذلك لم يتيسر له مراقبة عماله بالأقاليم ؛ فانتشرت طائفة الباطنية ، هذه الفرقة وأخذوا يواصلون العمل على بث دعوتهم . غير أن هذه الحالة لم تدم طويلاً ؛ فسرعه ما قام نظام الملك وزير ملكشاه السلاجق وحال بينهم وبين نشر عقائدهم . ولا يزال هذه الطائفة في إيران وأفغانستان وباكستان وسورية وشرقي إفريقيا وروسيا في كينيا وتنجايقا ، وفي الهند حيث يتولى زعامتها اليوم آغا خان .

وقد أطرى الإدريسي محاسن أهل بلده إدفو ، فقال إنهم معروفون بالعبادة ، موصوفون بالصدق والتحرز في القول ، مشهورون بكرام الضيف وإغاثة الملهوف وإسداء المروء . كما قال إن التشيع كان قاسياً بها في زمانه وإن أهلها كانوا طائفتين : إسماعيلية . وذكر الإدريسي أنه اجتمع بإسنا بصعيد مصر أيضاً سبعون شاعراً في وقت واحد ، وأن التشيع كان قاسياً فيها .

(ح) وسائل نشر الدعوة الفاطمية في مصر :

١ - خطوات الفاطميين الأولى لنشر دعوتهم

لقد آل الملك الفاطميين ونجحوا في تأسيس خلافة علوية مستقلة باسم الدين وبفضل انقسامهم إلى النبي ، مؤيدين دعواهم بما نشره من عقائد ذات صبغة دينية بحتة ؛ ودلوا على صحة هذه الدعوة بأنهم خلفاء النبي حقاً ، وأن حقهم المقدس في الخلافة قد اغتصب منهم اعتصاماً .

ومنذ النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة تأثر مذهب الشيعة الأول بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة ؛ وذلك من تأثر بعض هؤلاء بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد

للبنية على الرجمة والتناسخ ؛ ومن ثم فذا مذهب الشيعة في عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة . وكان من نتيجة هذا المظهر الجديد أن نشأ من الشيعة مذاهب أخرى كالدروز والحشاشين ، لكل منهما عقائده الخاصة .

وقد حدث هذه الأمور كلها بدعاة الفاطميين وغيرهم ممن دخل هذا المذهب إلى رفع أئمتهم ونسبة صفات التقديس إليهم ، هذه الصفات التي رفعتهم إلى مستوى الخلود والألوهية . ولم يكبد يستقر سلطان الفاطميين في مصر حتى رأينا جوهرًا لا يدخر وسعًا في بث الدعوة للمز خاصة والحلوين عامة . بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يحصل للصريين جميعاً يستقون المذهب الفاطمي ؛ لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السني على اختلاف درجاتهم في الإخلاص له . أما الشيعة فإنهم كانوا بالنسبة إلى المصريين أقلية صغيرة ، تحملت قبل فتح الفاطميين لهذه البلاد شيئاً غير قليل من الاضطهاد وسوء المعاملة . ولا غرو فإن المصريين قاموا في وجه نفوذ الإخشيديين ودانوا بالطاعة للفاطميين ، لأسباب سياسية لا غير .

نعم ! لقد ساعدوا على إحداث هذا التغيير ورفضوا فيه ، لما حاق بالبلاد في أواخر أيام الإخشيديين من مصائب متتابعة ، في وقت لم تتمكن فيه السلطة المركزية في بغداد من صد غزو الفاطميين .

وبعد أن وضع جوهر أساس مدينة القاهرة حاضرة هذه البلاد الجديدة ، بعث إلى مولاه المز بكتتاب يثبت فيه بفتح مصر ؛ ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين على كافة منابر مصر ، وأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي دون الخليفة العباسي ؛ فضرب على أحد وجيهها « باسم مولاي المز » . وذكر المفريزي أنه ضرب على أحد وجيهها « دعا الإمام معدّ بتوحيد الإله الصمد » ، وفي السطر الثاني « المز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفي السطر الثالث « (بسم الله) ضرب هذا الدينار ^(١) بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » ؛ وضرب على الوجه الآخر « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٤٥) أن قيمة الدينار المضروب باسم الخليفة العباسي الرازي نزلت لثلاث ، وأن الدينار المضروب باسم الخليفة الفاطمي المز بلغت قيمته خمسة عشر درهماً ونصفاً .



Fig. 1. - Covered walkway.

الذين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الرصيين وزير خير للرملين »^(١) .

كذلك أمر جوهر بالكف من لبس السواد شعار المهاسين^(٢) ، وأمر الخطباء بارتداء اللباس الأبيض ، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات للأولفة هند السنين^(٣) . وكان جوهر يعقد في أيام السبت مجلساً للفظالم يحضره الوزير والقاضي وكبار الفقهاء^(٤) ، وكان يصدر الأحكام بنفسه^(٥) .

٢ - الدعوة الفاطمية في المساجد

(١) الدعوة الفاطمية في الجامع العتيق :

دخل الإسلام مصر سنة ٦٢٠ هـ (٦٤٠ م) . ولم يكن الباعث على بناء المساجد منذ ذلك الوقت مقصوراً على الأفراس الدينية وحدها ، بل كان ذلك راجعاً أيضاً لأسباب سياسية واجتماعية . وكانت هذه الأمكنة وأمانتها تستخدم منذ ظهر الإسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المسكن الذي تذاغ فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام^(٦) .

بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يتلقى فيها الأطفال الفنة العربية وأصول الدين^(٧) . ومن الأمثلة الصادرة على ذلك الجامع الأزهر ، الذي كان مركزاً للتعاليم الإسلامية قروناً عدة ، ولا تزال شهرته باقية إلى اليوم .

(١) المقرئى : اتماض ص ٧٦

(٢) كان يلبس هذا القميص أعضاء الأسرة القياسية وغيرهم من كبار المرتفعين .

انظر دى ساسى : Chrestomathie Arabe, Tome II pp 263-266

(٣) المقرئى : اتماض ص ٧٦

(٤) لا بد أن يكون الفقهاء من الشيعة ، اللهم إلا إذا استثنينا القليل من الفقهاء السنيين الذين كان

يجهل إليهم بالمناصب المالية في الدولة .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

(٦) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

(٧) كانت بعض المساجد بمثابة قلاع محاطة بأسوار عالية مميكة .

وأقدم هذه للمسجد جامع عمرو^(١). وقد بنى عام ٢١ هـ ، بعد أن فتح مصر عمرو بن
العباس مؤسس القسطنطية العاصمة الإسلامية . وقد زاد عدد سكان القسطنطية أيام فتح
الفاطمين لمصر مما كانت عليه مدينتنا الصكر^(٢) والقطائع^(٣) ، حيث أنبم فيهما مسجدا
الصكر وابن طولون .

وقد أقيمت صلاة الجمعة في المسجد العتيق ، وخطب فيه الفخر في التاسع عشر من شعبان
سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، بعد استيلاء جوهر على القسطنطية بأيام قليلة ؛ وبذلك تحققت
الفكرة التي كانت ترمي إلى بث الدماء الفاطمية باسم الفاطميين^(٤) . وقد خطب في هذا
اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل العبارة الآتية في الخطبة بدل ما كان يقال
عن العباسيين :

« اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهديّة ، عبد الله .
(الإمام) محمد أبي تميم المرز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آباءه الطاهرين وأسلافه .
الأنمة الراشدين . اللهم ارفع درجته ، وأعل كفته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته
والقولب على موالاته . واجعل الرشد في موافقته ، وورثته مشارق الأرض ومغاربها ، وأجده
مبادئ الأمور وعواقبها ؛ فإنك تقول وتقول الحق (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر
أن الأرض يرثها عبادي الصالحون^(٥)) . فقد امتعض لدينك ، ولما انتهك من حرمته ،
ودرس من الجهاد في سبيلك ، وانقطع عن الحجج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه

(١) لما كان هذا المسجد أقدم المساجد التي يثبث ، أطلق عليه المسجد العتيق وتناح الجوامع والمسجد
الجامع - ابن دقاق (ج ٤ ص ٥٩)

(٢) أسس هذه المدينة سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ - ٧٥١ م) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، بعد
أن تغلب مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقبض عليه وقتله . وكان موضع هذه المدينة قصدا قاحلا ، أطلق
على جزء منه جبل يشكر . وقد استقر فيه صالح بمسكرو ؛ ومن هنا اشتق لفظ الصكر . ابن دقاق
ج ٤ ص ٣٤ .

(٣) أسس القطائع أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ / ٨٦٨ - ٨٨٣) سنة ٥٢٤ هـ في سفح جبل
المتعلم ، حين قضت عليه زيادة عساكره من التتوين والإمريق وغيرهم بإتباعهم إبتاعا خاصة . وقد
بدأ ابن طولون في بناء مسجده سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٠ - ٨٧٧ م) ؛ وخطب فيه لأول مرة في رمضان سنة
٢٦٥ هـ (ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢) .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) سورة الأنبياء ٢١ : ١٠٥ .

وسلم ؛ فأعد للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهبطه ؛ فبهر الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في رضاك ؛ فارتدع الجاهل وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التي سيرها ، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين والملحدين والذنب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم وبسط العدل في الأمم . اللهم اجعل دايته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصوره ؛ وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه ^(١) .

وفي جمادى الأولى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) زيد في الأذان « حتى على خير العمل » ، وقرئت البسلة بصوت مرتفع ؛ وذلك في الجامع المتبق ، بعد أن انقضى ثمانية شهور على فتح الفاطميين مصر وقراءة الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المزم . وفي رمضان سنة ٣٥٩ أمر جوهر بأن تنقش جذران الجامع المتبق باللون الأخضر شعار الملوين ^(٢) .

وكان ذكر اسم المزم في خطبة الجمعة في التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨ هـ بدل اسم الخليفة السياسي حادثاً هاماً في تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر . وهذا يبين لك ما كان من رواج الدعوة الفاطمية في مدهم ؛ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي هي صورة موجزة من هذا البيان الذي أذاهه جوهر على المصريين ، يعرض فيه عليهم السلام والطأينة .

ولقد أتى الخطيب خطبته بصورة شاد فيها بفضائل الملوين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك الخارجون من السنين حقهم ، على ما جاء في كلام الخطيب ، وكان ينتهي لمذهب السني . أما كلمة الجهاد التي وردت في الخطبة ، فإنه ينطوي تحتها ما عقد للفاطميون النية عليه من فتح المشرق والمغرب .

هذا الدعاء للخليفة الفاطمي يبين لنا ذلك المظهر الديني الجلي الذي تذرعه به الملوين للوصول إلى أغراضهم الدنيوية . ولقد بدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنين — كما تنذمت الإشارة إلى ذلك — في عصر متقدم ؛ ولكن هذا النزاع ظهر بصورة أشد هداه في الأجيال التالية ، حين أخذ كل حزب يلتمس الحزب الآخر ويمط من قيمته ، حتى إن

(١) المقريزي : امتاظ من ٧٥ - ٧٦

(٢) المصدر نفسه : امتاظ من ٧٦ .

الشيخين أرغوا أحياناً على دفع الجزية^(١) ، كما أرغم السنيون على دفعها حيناً آخر في عهد الفاطميين^(٢) .

وقد وجدت العقائد الشيعية في مصر مرعى أكثر خصباً ونماء منه في شمال إفريقيا ؛ وسرعان ما ترعرعت وم أئرها . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة من السنة نفسها ، دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : « ألهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ؛ ألهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين^(٣) » .

كان من أثر سيادة المذهب الفاطمي أن عزل بنو عبد السميع ، وكانت إليهم الخطبة زهاء ستين سنة ؛ فحل محلهم جعفر بن الحسن الحسيني ، وعهد إليه بإقامة الخطبة في جامع عمرو كما عهد إلى أخيه بإقامتها في الجامع الأزهر^(٤) .

(ب) الدعوة الفاطمية في جامع ابن طولون

في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ ، أي بعد ثمانية شهور من إقامة أول خطبة في جامع عمرو ، تطورت الدعوة الشيعية في أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات في جامع ابن طولون ؛ وذلك بأن أدخل المؤذنون على الأذان « حى على خير الليل » ، وهي من العبارات التي يمتاز بها الأذان عند الشيعة ؛ ومن ثم زيدت هذه العبارة في الأذان في مساجد السكر ، ومنها انتقلت إلى جامع عمرو في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها .

كانت هذه الأمور كلها مما أرضت جوهرها ؛ فبثت للمزيف إليه هذه الأنباء وقد

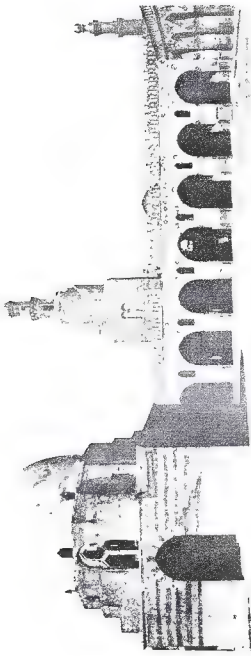
(١) رسائل بديع الزمان الخطيب ص ٤٢٤ .

(٢) رسائل الحاكم بأمر الله ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، غطولات الشيعية ، رقم ٢٠ ، ووفقا ١١١ . انظر العبارة التي كتبها عن الدعوة الفاطمية في مكتبة القصر .

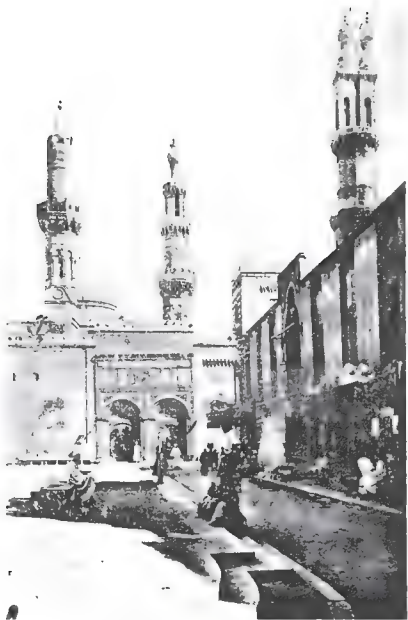
(٣) المقريزي : اتصاف ص ٧٧ . أبو الحسن (طبعة Juyaboli) ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٦٤ .

ذكر ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٤) أن أولاد عبد السميع مزلوا نهائياً سنة ٣٧٩ هـ ، عزلم الخليفة العزيز .



سنان بن محمود - دیوان جامع دمشق - معوضہ لیسارہ - و طہر شہیدہ بیضاہ



الجامع الأزهر - الباب الخارجي للجامع

حضر الصلاة في جامع ابن طولون في ذلك اليوم عدد غير قليل . وقد أشاد عبد السميع في خطبته بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم ؛ كما أنه دعا لقائد جوهر^(١) ، ولم يجهز بالبسطة^(٢) في الخطبة . وقرأ بعد سورة الفاتحة سورة الجمعة^(٣) وسورة المنافقين^(٤) ، ثم قرأ القنوت^(٥) بعد الركعة الثانية . ولما هم بالسجود كان قد طأته أن يركع ، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر : « بطلت الصلاة ، أعدظها أربعا »^(٦) .

(ج) الدعوة الفاطمية في النجاشة الأزهر :

كان بناء مسجد يجتمع فيه الملحنون للجمعة أول ما كانت ترمى إليه سياسة أسراء المسلمين ، وخاصة عند تأسيسهم حاصمة جديدة لما يفتحونه من بلاد . وكان الفاطميون قد رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنين على غيرة في المساجد في مبدأ حكمهم ، بإصافتهم إلى الخطبة هذه العبارة وهي : « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » .

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء مسجد يتأق الناس فيه عقائد المذهب الفاطمي ؛ وقد شرع في بناء الأزهر في الرابع والمشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة في اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ^(٧) .

أما ما كان هنالك من زيادة في الأذان والخطبة منذ أقيمت الصلاة في الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، فشيء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه . ويلاحظ لنا أن ما زيد

(١) لم يقر جوهر ذكر اسمه في الصلاة ، وقال إن مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك . المقرئى : خطب ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) لا يجهز الخطبة والخطبة بالبسطة لأنهم لا يعتدونها جزءاً من كل سورة من القرآن . أما الشافعية والمالكية والشيعة فكانوا على العكس يجهزون بها . ولم يرس جوهر أن تحلى بالبسطة من كل سورة ؛ والمعروف أنها مكتوبة قبل كل سورة منذ كتب المصحف .

(٣) القرآن سورة الجمعة رقم ٦٢ .

(٤) القرآن سورة المنافقون رقم ٦٣ .

(٥) يقرأ الدعاء الذي يطلق عليه القنوت بعد الركعة الأولى ، أو قبل الركوع مباشرة ، أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر بعد صلاة العشاء . ويتركب القنوت في أسقط سورة منه من هذه الكلمات " إنا لك قانتون " .

Muhammad 'Ali . The Holy Qur'ān, Preface, pp. XXIV, XXV.

(٦) المقرئى : خطب ج ٢ ص ٢٧٠ . أتماظ الحنفا ص ٧٩ .

(٧) المقرئى : خطب ج ٢ ص ٢٧٣ .

في الخطبة والأذان في الجامع العتيق ومسجد ابن طولون هو الذي أدخل على الخطبة والأذان في الأزهر ؛ وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن وصل المز إلى القاهرة ، ومن ثم تطورت الحالة تطوراً محسوساً من حيث تنظيم الدعوة القاطمية على يد الخلفاء أنفسهم .

وقد ذكر لنا المقرئ أن المز والمز يز كانا يقيان الخطبة في الأزهر إلى أن فتح مسجد الحاكم سنة ٣٨٠ هـ ؛ ومن ثم أصبحت الخطبة تقام بانتظام في مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأرمر على التوالي .

وفي خلافة المز تطورت الدعوة القاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً ؛ فقد أسس هذا الخليفة على أثر وصوله إلى مصر بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي : « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب »^(١) .

(د) الدعوة الشيعية في المساجد الأخرى :

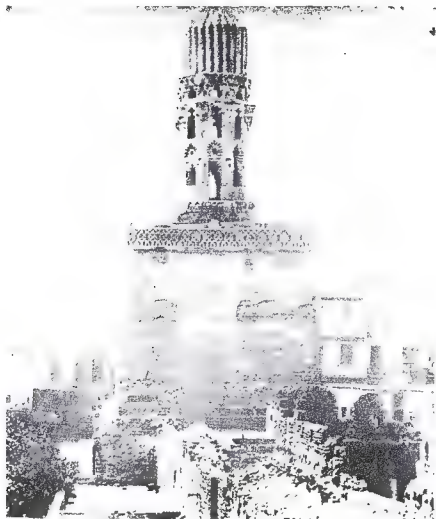
أسس مسجد الحاكم الخليفة العزيز أبو الحاكم سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس . وقد وضع أساسه العزيز في العاشر من شهر رمضان من هذه السنة خارج باب الفتوح ؛ ولكنه أصبح داخل القاهرة بعد أن وسع بدر الجبال هذه المدينة . ولما كمل بناء هذا المسجد ، انتقلت إليه الخطبة وقراءة القرآن بعد أن كانت مقصورة على الجامع الأزهر ؛ فكان يطلق عليه جامع الخطبة .

ومحدثنا المقرئ^(٢) عن السبكي أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب في هذا المسجد في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ هـ ، وذلك قبل أن يتم بناؤه ؛ وسار في ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان ويده الصولجان .

وزاد السبكي أن الحاكم أسس سنة ٣٩٣ هـ (٩٠٥ م) فقام بناء هذا الجامع . فتم ذلك

(١) ذكر المقرئ (خطوط ٢ ص ٢٧١) نقلاً عن التتابة الشريف محمد بن سعد ، أن حل بن محمد بن علي بن إسماعيل بن الحسن الرندي هو الذي زاد في الأذان العبارة الآتية : « محمد وعلي خير البشر » ؛ وهي تشبه العبارة التي أمر العزيز بزيادتها ، وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) . وقد زيد في الأذان فيما بعد على منابر حلب " على خير العمل " و " محمد وعلي خير البشر " المأثورة لدى الشيعة . وظلت الحال على ذلك إلى أيام نور الدين محمود صاحب حلب ، فأمر بإلغائها ، وأمر الفقهاء فضعوا المنارة وقت الأذان وقال لهم : " مروهم يؤذون الأذان المشروع ، ومن امتنع كبره على رأسه " .

(٢) خطوط ٢ ص ٢٧٧



جامع الحاکم - منارة الجامع

مساجد انور - دریا کی کشتی



في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ؛ وعلق على سائر أبوابه الستور، ووضع فيه أربعة تنانير من الفضة وكثيراً من القناديل الفضية أيضاً، ونصب فيه النير وفرش بالحصر . وفي يوم الجمعة السادس عشر من رمضان من هذه السنة أذن فيه للؤذن أذان الصبح ، وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة ، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه . وفي سنة ٤٠٤ هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى ، فحصره الشيء الكثير منها^(١) .

وفي سنة ٧٠٢ هـ تخرب هذا المسجد مع ما تخرب من المساجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في ١٣ ذى القعدة من هذه السنة ؛ فأعاد إلى ما كان عليه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤ م)^(٢) الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، ووقف عليه أوقافاً ، وعين فيه فقهاء لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع ؛ وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم ، وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلمًا يعلم أولاد المسلمين ، وجعل فيه خزانة كتب جليلة^(٣) .

ومن أعجب ما حدث بجامع راشدة ما كان من إقامة خطبتين على منبره في يوم الجمعة ١١ جمادى الآخرة سنة ٤٩٤ هـ ، وذلك أن أبا طالب علي بن عبد السميع العباسي استقر في الخطابة بأمر قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن محمد الموام ، بعد سفر خطيب هذا الجامع إلى الشام ؛ فعهد الخليفة الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ / ١٠٢٠ — ١٠٣٥) إلى ابن عصفورة أن يقيم الخطبة فيه .

وكان من تعيين رجلين على هذه الصورة لإقامة الخطبة في هذا الجامع أن صعدا المنبر في آن واحد ، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معاً . ولما علم بذلك الخليفة وقاضي القضاة أقرأ أبا طالب في إقامة الخطبة ، وجعل ابن عصفورة خليفة له^(٤) .

لقد أتينا عند كلامنا على تطور الشعار الفاطمية في المساجد على طائفة من هذه المساجد التي كانت تقام فيها هذه الشعار وبيننا أن هذه الشعار كانت تقام في جميع المساجد . على أنه

(١) المصدر نفسه

(٢) ذكر المقرئ (خطوط ٢ ص ٢٧٨) أنه سقط في هذا الزلزال كثير من بساتين الجامع . وغرب أعمال الثقاتين وتشتقت حقوقه وجدرانها .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٢ .

(٤) المقرئ : خطوط ٢ ص ٢٨٢ .

يبنى ألا يفوتنا أن تذكر أنه كانت هناك فقرات من نؤمن أبطل فيها بعض عبارات من هذه الشائرا ، أى من الخطبة أو الأذان .

ذلك أنه فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) أبطلت عبارة « حَيُّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » التى أمر جوهر بأن تزداد على الأذان بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر . وقد دعا الحاكم فى نفس هذه السنة (٤٠٠ هـ) للؤذين فى قصره وفى المساجد الأخرى إلى اجتماع حضره قاضى القضاة ، وأصدر مرسوما يحرم ذكر هذه العبارة فى الأذان ، وأن يقول مؤذنو القصر بدلها عبارة « الصلاة خير من النوم » ، فيذكرها للؤذون عند ذكر عبارة « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

وفى ربيع الثانى سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) عاد للؤذون إلى ذكر « حَيُّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » ؛ وفى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أمر هذا الخليفة مؤذنى الجامع الأزهر بالألا يستعملوا عبارة « السلام على أمير المؤمنين » فى الأذان ، وأن يقولوا بدلها عبارة « الصلاة رحمتك الله »^(١) . وقد أبطل الحاكم عادة تقبيل الأرض بين يديه ولتم يديه وركابه^(٢) ؛ وعزل المقرئى سبب المدول عن هذه العادة بأنها كانت من عادات الهيرنطين^(٣) . كذلك أمر هذا الخليفة ألا يزداد على السلام « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ا »^(٤) ، وأن يقتصر مكانته على هذه الكلمات « سلام الله وتحياته ونواحي بركانه على أمير المؤمنين ا » وأن يقتصر الخطباء على ذكر العبارة الآتية : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أسراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك »^(٥) .

وقد قال المقرئى عند كلامه على الدعوة الفاطمية أيام الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجبالى : « وكان الأفضل أبطل للوالد الأربعة : النبوى والعلى والفاطمى والإمام

(١) انظر ما ذكرته عن ألقاب الخليفة فى كتابي : « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والتدافعى الاجتماعى للعبة الرابعة (القاهرة ١٩٥٧) ج ١ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٢٠٥ - ابن ميسر ص ٧٥

(٣) شملط ج ٢ ص ٢٨٨

(٤) يحيى بن سعيد ص ٢٠٥

(٥) المقرئى : شملط ج ٢ ص ٢٨٨ .

الحاضر ، فأُعيدت في سنة ست عشرة وخمسة «^(١) .

وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) تقلد أبو علي بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجلال الوزارة في خلافة الحافظ ، فقبض على الخليفة وحبسه ، واستولى على ما في القصر من الأموال والديار ، وقبض على زمام الأمور . وكان إماميا مغاليا ؛ فأظهر الدعاء للإمام للفتن ، وأزال من الأذان « حي على خير الصل » وقولم « محمد وعلى خير البشر » ، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الذي تنسب إليه الإسماعيلية . ولما قتل في السادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ ، وعاد الأذان إلى ما كان عليه «^(٢) .

ولما استبد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالأمر في مصر أبطل شاطئ القاطميين ، فأعاد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) إلى أذان الفجر « السلام عليك يا رسول الله ا » .

(ط) الدعوة الفاطمية في القصور :

رغب الفاطميون في الحصول على أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم . وقد حمل المهدي معه ، على ما ذهب إليه ابن الأثير «^(٣) ، من سلبية جميع الكتب والوثائق التي كانت لأتائه ؛ ولكنها سرقت منه وهو في طريقه إلى سجلماسة ، في مكان يقال له الطاحونة «عرب من طرابلس . ويزيد هذا المؤرخ على ما تقدم أن أبا القاسم بن المهدي استعاد هذه الوثائق حال سيره لتزود مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

أما كون هذه الكتب أو بعضها قد حملها المزمع إلى القاهرة ، فشيء لا يمكننا الجزم به . ولقد كان مذهب السنة هو للذهب السائد في مصر قبل أن يتم فتحها على يد الفاطميين ؛ ولهذا نشك فيما إذا كان في مكاتب القضاة والقضاة شيء من الكتب التي تتناول الكلام عن المذهب الشيعي ، إذ ليس هناك دليل واضح يشير إلى أنه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجح أن المزمع قد حمل معه إلى مصر عددا عظيما من الكتب التي

(١) استق الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ٢٠٦ ب .

انظر كتاب « تاريخ الخلافة الفاطمية » لوستنفلد . Geschichte der Fatimiden — Chalifen, pp. 270-289.

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ . أبو الفدا ج ٣ ص ٥ و ٦ . المقريزي مخطوط ج ٢ ص ٢٧١ .

(٣) ج ٨ ص ١٤ .

كانت في مكتبته الخاصة بالقبروان مع ما حمله من الأثقال عند رحيله إلى هذه البلاد .

وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة بشفقة الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بإغلاقها ، إذ نعى إليه أن رجلين يستندان عقائد الطائفة المروفة بالبدعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهي الشافعي والحنفي والمالكي ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا للذهب .

وقد اعتنق هذا المذهب شيخان من الأساتذة الحنكيين في القصر . لهذا وذلك أمر الأفضل بإغلاق هذه المكتبة ، لأن وجودها أصبح لا يتفق والمرض الذي أشدت من أجله ، وهو بث عقائد للذهب الشيخي لا غير ، وكانت نتيجة ذلك أن قتل نفر من دانوا بمقائد هذا المذهب ^(١) .

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الأمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) أمراً بإعادة دار العلم إلى ما كانت عليه ؛ فتردد عليها حامد القصار أحد زعماء البدعية ، وادعى البربية ؛ ونهى إلى الخليفة أنه دان بمذهب أبي الحسن الأشعري ^(٢) ، ثم انسأخ عن الإسلام . ويقول القرظي ^(٣) إن حامداً هذا سلك طريق الحلاج ^(٤) في التوبة ، فاستهوى من ضف عقله وعميت بصيرته .

(٥) الدعوة الفاطمية في دور العلم :

ومهما يكن من شيء ، فلا شك في أنه كان في القصر وفي دار العلم مجموعة عظيمة من الكتب ، للعرض منها تعصيد نشر عقائد الفاطميين وتلقيها الناس . ولا غرو فقد عني الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول على النسخ الفريدة النادرة كالقلنا ،

(١) القرظي : مخطوط ١ ص ٤٦٠

(٢) وهو إمام من أئمة التنسيد ، ومن أساطين مذهب السنة .

(٣) مخطوط ١ ص ٤٦٠

(٤) وهو أحد المتصوفين . ويروى عنه أنه قال ما في الجنة غير الله يعني حبه . وقد قتل من أجل ذلك .

حتى أتيت مكتبة القصر في القاهرة أن تنافس وتبذ غيرها من المكتبات في العالم الإسلامي^(١).

على أن ضياع هذه المجموع جعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على الباحثين في تاريخ الفاطميين في مصر أن يبقوا وتوفوا تماماً على تاريخ الإمبراطورية الفاطمية العظيمة . فالأيوبيون السنيون الثلاثة ، الذين كانوا أعداء أعداء الشيعة ، لم يحاولوا القضاء على الشائعات الشيعة بحسب ، بل حلوا على إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها .

وكان فقهاء الدولة تحت نفوذ داعي الدعاة ، ولم يكن مكان خاص بالقصر ، هو دار العلم ؛ فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون إليه في يوم الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة في أصول المذهب . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المحاضرات كانت تعرض قبل إلغائها على الخليفة ، فيقرأها ويذيلها بإضافاته ، ثم تبلغ إليهم عن طريق داعي الدعاة الذي كان يرضاه بنفسه^(٢).

وكان داعي الدعاة يقدّم المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسي المدعوة في الأروان الكبير فيحاضر الرجال ، ويقعد للنساء مجلساً خاصاً هو مجلس الداعي وفيه يلتقن أصول مذهب الإسماعيلية .

لم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون في هذا السبيل . فقد ذكر لنا القرطبي نقلاً عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تغرد للناس كل حسب طبقة : فكان لآل على مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعمامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس . وللحرم خواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(٣).

(١) ذكر الأستاذ نيكلسون في كلامه عن مكتبة الحكم الثاني في أسبانيا : " كان القرن العاشر الميلادي عصر ازدهار وهدا في تاريخ الأندلس وكان الحكم يحيا للكتب شعوراً باقتنائها . وكان يرسل عماله إلى مختلف ادواحي لابتغاء المخطوطات ، فجمع من وراء ذلك أربعمائة ألف مجلد أو دعها قصره الذي نص بحارفي الكتب وبالنساج والمجلدين " .

(Literary History of the Arabs, p. 419).

انظر أيضاً ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ والمقري : فتح الطيب ج ١ ص ١٨٧

(٢) مقرئى خطط ج ١ ص ٣٩١

(٣) مقرئى خطط ج ١ ص ٣٩١ .

وإذا فرغ داعي الدعوة من إلقاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إضاءة الخليفة . ومن خصائص داعي الدعوة جمع التجوى^(١) من الإسماعيلية ، وأن يدون اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر ؛ وفي عيد الطل كان يجمع مال كثير يودع بعضه في بيت المال^(٢) .

ويظهر أن القاطنين هم أول من أفرد لداعي الدعوة مكاناً كبيراً في القصر : ذلك أنه في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) في خلافة العزيز ، كُلف قاضي القضاة محمد بن النعمان وظيفة الدعوة إلى مذهب آل البيت في القصر ، كما كان أخوه الحسين في القاهرة وأبوه في بلاد المغرب . ويحدثنا المقرئ عن المسبح أن الزحام اشتد بالناس فأت منهم أحد عشر رجلاً^(٣) .

وقد لاقى الدعوة القاطنية السياسية منها والدينية نجاحاً عظيماً في خلافة الحاكم بأمر الله ؛ فقد بذل مجهوداً كبيراً في سبيل نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرقم كثيراً من الناس على اعتناق للذهب القاطني عما سته من القوانين الجائرة . كما كان من أثر إقبال الناس على الدخول في هذه الدعوة أن جعل لهم يومان في الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب . وفي السادس عشر من رجب سنة ٣٩٧ هـ (٩٣٨ م) صرف قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وأقر في الدعوة مكانه مالك بن سعيد الفارقي ؛ فسلم منه كتيب الدعوة التي كانت تقرأ على الناس في القصر^(٤) .

أما كتب الدعوة التي يشير إليها المقرئ ، فهي من غير شك الكتب التي ألفها رجال من أمثال أبي حنيفة الحمان المقرئ ويعقوب بن كلس ؛ وقد وصف لنا المقرئ نسخة من كتاب ابن كلس كانت في حوزته .

(١) زاد المقرئ (مخطوط ١ ص ٣٩١) تل هذا فقال : إن التجوى كانت ثلاثة دراهم وثلاث ؛ ومن امرأة الإسماعيلية من دفع التجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلاثي دينار ، فيشتار بذلك عن غيره في المحول ؛ ويسمى رقعة ملونة بإضاءة الخليفة ، وفيها ما يأتي : " بارك الله عليك وفي مالك وولدك ودينك ! " ، فيلتمزك ويغشخ به .

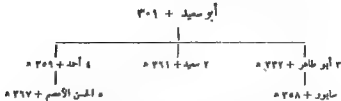
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١

(٣) المقرئ مخطوط ج ١ ص ٣٩١ وج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٩

٣ - الدعوة الفاطمية في المشرق

(١) في البحرين :



أرسل عبدالله بن ميسون ، وهو في الأهواز أحد دعاة وهو الحسين الأهوازي ، الذي يقول دي غويه^(١) إنه ابنه ، إلى سواد الكوفة حيث لقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط^(٢) ، الذي لم يلبث أن دخل في الدعوة وساعد على نشرها ، كما ساعد الحسين الأهوازي على جذب كثير من الناس إلى دعوته بفضل ما كان يظهره من التقشف والورع ؛ فكان يأخذ من الرجل إذا دخل في دينه ديناراً ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام . فكث بذلك يدعو أهل القرى (في سواد الكوفة) فيجيبونه . واتخذ منهم اثني عشر نقيباً أسرم أن يدعو الناس إلى دينهم ، وقال لم : أنتم كخواري عيسى بن مريم^(٣) .

وقد ترك الحسين الأهوازي أسرار الدعوة في سواد العراق إلى حمدان قرمط ، الذي اتخذ كلواذا إحدى ضواحي بئداد ، مركزاً لنشر هذه الدعوة . ولم يلبث أن زاد عدد أتباعه الذين أسرم في سنة ٢٧٦ هـ بشراء الأسلحة ، وأنشأ أول دار الهجرة في السنة التالية . ويقول النويري^(٤) :

(١) De Ooeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrein et les Fatimides, p. 18
(٢) احتلف المؤرخون في أصل كلمة قرمط ، فقال المقرئزي (انماط الحقن ص ١٠١) إن حمدان ابن الأشعث كان قصير القامة والسير ، وكانت غلواته متقاربة ، فأطلق عليه اسم قرمط . وفي القاموس ما يوسع هذا الاعتقاد إذ يقول : القرمطة دقة الكتابة ومقاربه الخطو . . . وميل أيضاً إلى أن كان في الثرية وحل البحر الأبيض يعمل على أنوار له ، يسوونه كرمية لحرة عيبه (ومعناه بالنيلية أحر العين) ، فسمى اسم الرجل الذي دار كرميته ، ثم حقت اللعنة فصار قرمط . وقال المنصوري (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - مخطوط جامعة القاهرة ج ٥ ورقة ٢٦) إن لعنة قرمط يصب إلى حمدان التوراني الذي يعرف بالقرمط . وقد تم على يديه انتشار المذهب الإسماعيلي بين القرامطة .

(٣) الطبري ج ١١ ص ٣٣٨

(٤) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٦٩

« وظهر في كثير منهم التفجور ، وبسط بعضهم أيديهم لسفك الدماء ، وقتل جماعة من أظهر خلافا لهم ، فخانهم الناس واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم . فأظهر موافقتهم كثير من مجاورهم جزعاً منهم . ثم إن الدعاة اجتمعوا وانفقوا على أن يعملوا لهم موضعاً ، يكون وطناً ودار هجرة يهاجرون إليها ويحتمون بها ، فاختراروا من سواد الكوفة ... قرية ... فجازوا إليها صخراً عظيماً ، وبنوا حولها سوراً منيعاً ، عرضه ثمانية أذرع ، ومن وراءه خندق عظيم ، وفرقوا من ذلك في أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم . وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان ، وسُميت دار الهجرة ، وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين . فلم يبق حينئذ أحد إلا خافهم ، ولا بقي أحد يخافونه ، لقوتهم ولتمسكهم من البلاد » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان قرمط رواجاً عظيماً بين العرب ، حتى إنه عهد إلى بعض العرب في نشر الدعوة بين العناصر العربية . كما سنجد حمدان قرمط نظاماً مالياً متفقاً ، ففرض على كل من الرجال والنساء درهما سماً « الفطرة » ، ثم فرض « الهجرة » ، وهي دينار على كل شخص بالغ . واستند في فرض هذه الأموال إلى ما جاء في القرآن الكريم في سورة التوبة^(١) (حذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) . ثم فرض عليهم « البكعة » ، وهي سبعة دنائير ، وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين المذكورين في قوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون)^(٢) . ووضع حمدان طامناً حلواً قديماً على قدر البندق ، أعطى واحدة منها لكل من أدى إليه سبعة دنائير ، وزعم أن ذلك طمام أهل الجنة ، نزل إلى الإمام من ولده علي بن أبي طالب . فكان يعطى كل داع مائة بلغة ويطلبه بأداء سبعمائة دينار عنها ، لكل واحدة منها سبعة دنائير . ثم تدرج من ذلك كله إلى أن فرض خمس ما يملكه أتباعه ويرجمونه ، معللاً ذلك بقوله تعالى في سورة الأنفال^(٣) (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسة ، وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين)

(١) سورة التوبة ٩ : ١١٢ .

(٢) سورة الواقعة ٥٦ : ٩ - ١٠ .

(٣) سورة الأنفال ٨ : ٤٠ .

وابن السيل^(١) . ولم يثبت أن فرض على الناس « الآلة » . يقول النويري^(٢) :

« ثم فرض عليهم « الآلة » ، وهى أن يجمعوا مواليتهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسرة واحدة ، لا يفضل أحد منهم صاحبه ولا أخاه فى ملك يملكه ، وتلا عليهم : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتكم بيمته إخوانا)^(٣) وقوله : (لو أخفت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)^(٤) . وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال : هذه محتكم التى امتحنتم بها ليحكم كيف تعملون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده ، وذلك كله فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعوة فى كل قرية رجلاً مختاراً من قضاها ، يجمع عنده أموال أهل قريته ، من يقر وقم وحلى ومتاع وغيره وكان يكسوا عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكاش^(٥) فى صناعته والمكسب جهده ، فيكون له الفضل فى رتبته . وجهت المرأة كسبها من منزلها ، والصبي أجرة نظارته للطير ، وأتوه بها ؛ فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه » .

وكان عبدان صهر حمدان قرط من أكبر دعائه^(٦) ؛ وكان مشهوراً ببلده ونشيجه . ويقول النويري^(٧) : « كان قطناً خبيثاً ، خارجاً عن طبقة نظرائه من أهل السواد ، ذا فهم وحذق . فكان يسئل عند نفسه على حد قد نصب له ، من غير أن يماوزه إلى غيره من خُص الإسلام ، ولا يظهر غير التشيع والمم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ، محمد ابن إسماعيل بن جعفر » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد عبدان كثيراً من النجاح ، حتى إن أبا سعيد

(١) المقرئى : أتمام الخفاف ١٠٤ - ١٠٥

(٢) نهاية الأرب : غرر نادر الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٥٨

(٣) سورة آل عمران ٣ : ١٠٢

(٤) سورة الأنفال ٨ : ٦٢ .

(٥) الاجتهاد والتشهير .

(٦) قد قيل إن كلاهما تزوج من أخت الآخر .

(٧) نهاية الأرب : ج ٢٣ ورقة ٢٦ .

الجنابي ، مؤسس دولة القرامطة في بلاد البحرين ، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أي شمال غربي بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام ، قد أخذوا الدعوة عنه .

ولم يلبث أن اختفى حدان قرط ، وقتل عبدان ، على أثر انتفاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ، ونحو الجنوب على يد أبي سعيد الجنابي كاسياني :

كان زكرويه بن مهرويه من أكبر دعاة حدان كما رأينا ؛ وقد نشأ في إحدى قرى سواد الكوفة ، حيث أخذ يدور إلى إمامة محمد بن إسماعيل . وبانتفاض حدان وعبدان على رئاسة الدعوة انضم زكرويه إلى أبناء القداح وقتل عبدان . ولما أخذ قرامطة السواد والمهازيون أنفسهم يضيّقون عليه الخناق ، اختفى في مطورة^(١) ، وبدأ بوجه دعوته في الخفاء ، وبعث أبنائه لنشر الدعوة الإسماعيلية في بني كلب على مقربة من الرقة ، ونجح ابنه يحيى بن زكرويه في جذب طائفة من هؤلاء العرب إليه .

وامتد نشاط هذا الفرع في شمال العراق الفربي وبادية السماوة وبعض مدن الشام . وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة الراتية والشام (The Syro - Meso - potamian Movement)^(٢) . ويقول الطبري^(٣) : « فأرسل زكرويه أولاده إليهم فيايوم وخالطوم ، وابتعدوا إلى علي بن أبي طالب ، وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وذكروا أنهم خاشعون من السلطان ، وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلهم على ذلك . ثم دبوا فيهم بالدعاء^(٤) إلى رأى القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم ، أعنى من السكبيين ، إلا الفضل للمرونة بيني التليص ابن ضمض بن عدي بن جناب ، ومواليهم خاصة ، فيايوا في آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ، ابن زكرويه المسمى يحيى والكنى أبا القاسم ، ولقبوه الشيخ ، على أمر احتال فيهم ولقب به نفسه ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد

(١) المطورة الحفيرة التي تحت الأرض ، وتستخدم لحزب الليل ، كما تستخدم أيضاً لحبس الأشخاص الخطرين .

(٢) 4 — 73 pp. Bernard Lewis : The Origins of Ismailism,

(٣) ج ١١ ص ٣٧٧ — ٣٧٨

(٤) يريد أنهم نشروا فيهم مذهب القرامطة شيئاً فشيئاً بالحيلة والدعاء أي تدرجوا معهم

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ... وقيل إنه لم يكن لمحمد بن إسماعيل ابن يسي عبد الله ، وزعم لم أن أباه للروافد بآبي عمود داعية له ، وأن له بالسواد والشرق والغرب مائة ألف تابع ، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها في مسيرها ظفروا . وتكهن لم ، وأظهر عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آية . وانحازت إليه جماعة من بني الأصمغ وأخلصوا له ، وتسبوا بالفاطميين ، ودانوا بدينه » .

ولم تلبث دعوة يحيى بن زكرويه أن انتشرت في بلاد الشام ، حتى إنه حاصر دمشق نفسها في سنة ٢٨٩ هـ ، وضيق الحصار على طنج بن جف أبي محمد بن طنج الإخشيد ، وكان يلي بلاد الشام من قبل الطولونيين . ولم ينقذه إلا بدر الكبير الذي أرسله إليه هارون بن خارويه . وقتل يحيى على أبواب دمشق ، فانقلبت رئاسة الدعوة إلى أخيه الحسين بن زكرويه الذي ادعى ، كأخيه يحيى ، الانتساب إلى محمد بن إسماعيل ^(١) .

وقد استمرت حركة الحسين بن زكرويه مصدراً للقلق والازعاج في بلاد الشام ، حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتن في سنة ٢٩١ هـ . ومن ثم تحول مركز نشاط قرامطة الشمال نحو الكوفة نفسها . وخرج زكرويه من مخبئه وحارب ضد العباسيين ، وقتل بقوافل الحجاج انتقاماً لقتل ابنه ورغبة في نشر الدعوة الإسماعيلية ، إلى أن قضت عليه جيوش العباسيين في سنة ٢٩٤ هـ ^(٢) .

انتشرت الدعوة الإسماعيلية في القطيف على يد الحسين بن بهرام ، ويكنى أبا سعيد الجنابي ^(٣) ، وكان فارسي الأصل . وقد انتف حول جماعة من الأعراب والنبطيين الذين رحبوا بدعوته ، لأنه منام « ملك الأرض كلها » ^(٤) . وما لبث أن استفحل أمره وقويت شوكته ، وقتل من وقف في طريقه من أهل القطيف .

وفي سنة ٢٨١ هـ سار إلى القطيف رجل من كبار دعاة الإسماعيلية ، يدعى يحيى بن المهدي ، وادعى أنه رسول المهدي من بيت علي بن أبي طالب . فأجاب دعوته أهل هذه

(١) السمودي : التنبيه والإشراف ص ٢٢٢

(٢) المقرئ : انساب الخلفاء ص ١٢٣ - ١٢٤

(٣) سيرة إلى جنابة ، وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي شرقاً
انظر القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد (طبعة حوتجن) ص ١٢١

(٤) المقرئ : انساب الخلفاء ص ١٠٨

للدبنة وسائر بلاد البحرين . ولم يلبث يمحي أن غاب عن الناس مدة ، ثم عاد يحمل كتاباً ادعى فيه أنه من المهدي إلى شيعته ، يأمرهم فيه بأن يدفع كل منهم إلى يمحي سقة دنائهم وثلثين ، ففعلوا . ثم غاب مدة أخرى ، وعاد ومعه كتاب يبلغهم فيه أن المهدي يريد منهم أن يدنسوا إلى يمحي خمس أموالهم ، ففعلوا أيضاً^(١) .

ومن أجاب يمحي بن المهدي ، أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي قوى أمره وانتشرت دعوته وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة . وأغار فريق من القرامطة بقيادة أبي سعيد على حجر ، ولم يلبث أن أتم فتح بلاد البحرين واليامة ، وحاول فتح عمان ، ولكنه لم يستطع ، وترك ذلك لابنه أبي طاهر . وقد خشي الخليفة المتتضد تفاقم خطر أبي سعيد ، وخاف أن يقع في يده جنوبي بلاد العراق ، فمزل العباس بن هرو النضوي عن ولاية فارس ، وأقطعه اليامة والبحرين ، وعهد إليه بحرب القرامطة .

سار العباس إلى البصرة حيث انضم إليه كثير من التطوعين ، ثم واصل السير إلى البحرين ، فهزمه أبو سعيد الجنابي ، واستولى على ما كان معه من سلاح وكراع ، وقتل الأسرى وأحرقتهم ، حتى إنه لم ينج منهم سوى قائدهم العباس النضوي ، الذي لقب بعد هذه الواقعة « قائد الشهداء » . وقد أرسل أبو سعيد مع العباس كتاباً طويلاً حاول فيه أن يثير مخاوف الخليفة العباسي حتى لا يفكر في غزو بلاده^(٢) .

على أن المتتضد لم يمر هذا الكتاب اهتماماً ، بل صمم على حرب أبي سعيد والقضاء على دعوته في بلاد البحرين ، وغير من ذلك بهذه العبارة : « والله إن طال بي عمر ، لأشخصن بنفسى إلى البصرة ، وجميع غلمانى ، ولأجهزن إليهم جيشاً كثيفاً ، فإن هزمهم ، خرجت في جميع قوادى وجيشى إليه ، حتى يحكم الله بينى وبينه »^(٣) .

وقد أثر عن المتتضد أنه قال وهو في سره الأخير : والله لقد كنت وضمت في نفسى ، أن أركب ثم أخرج إلى باب البصرة ، متوجهاً نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٥

(٢) راجع نص هذا الكتاب في De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahraia

et les Fatimides, pp. 210-12 نقلاً عن كتاب البيهون المخطوط بمكتبة رلين

(٣) التويرى . نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٧٣ - ٧٤

سيفي إلا ضربت عنقه . وإن أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة ^(١) .
لم تقع بين أبي سعيد الجنابي والدولة العباسية حروب في عهد الخليفة المكتفي
(٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) لعاملين هامين :

الأول : رغبة أبي سعيد نفسه في عدم الدخول في حرب مع العباسيين لاشتغاله بتنظيم
شئون بلاده الداخلية :

الثاني : اشتغال العباسيين عن أبي سعيد بصراعهم مع قرامطة الشمال بزمامة زكرويه
ابن سهوية وأبنائه كما تقدم .

وقد عمل أبو سعيد على تكوين مجتمع إسماعيلي يدين له بالطاعة والولاء وطارد من
جاوره من بني ضبة ، وكأوا قد انضموا إلى جيوش العباس النضوي ، حتى لا يكونوا عيوناً
عليه . وقد وصف لنا هذا المجتمع النضوي ^(٢) ، وعنه أخذ المقرئ ^(٣) ، في هذه العبارة ، قال :
« وأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العباس على جمع الخيل وإعداد السلاح ، واتخاذ
الإبل ، وإصلاح الرجال ، ونسج الدروع والمناير ^(٤) ، ونظم الجواشن ^(٥) والمزاد (لحل
الزاد) والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية . وطرد الأعراب عن قربه ، وسد الوجوه التي
يتمرف فيها أمر بلده وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخل وعمارته ،
وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدتها ، ونصب الأمناء على ذلك وإقامة العرفاء ^(٦) على
الرجال ، والاحتياط على ذلك كله ، حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة كانت تذبح ،
ويسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ويدفع الرأس والأركان والبطن إلى العبيد
والإماء ، ويميز الصوف والشعر من الثمن ويفرق على من ينزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه
عباءة وأكسية ، وغرائر وجواشفت ^(٧) ، ويقتل منه حبالا ، ويسلم الجلد إلى الدباغ . فإذا

(١) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٣) انماظ الحنفا ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) جمع مقفر وهو زرد يفسح على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة .

(٥) جمع جيوشن وهو التدرج .

(٦) جمع عريف وهو من يكون على التفرير ، والتفرير حلة رجال من ثلاثة إلى عشرة كما يكون
المنكب عن خمسة عرفاء ، والأمير فوق هؤلاء ، أو من يعرف أصحابه ويقوم بأمرهم .

(٧) الجواشفت والفرائر شيء واحد وهو العدد من الصوف أو الشعر .

خرج من الديار ، سلم إلى خرازي القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نبالا وخفافاً^(١) حمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن . فكان ذلك دأبه لا ينفل عنه ، ويوجه في كل مدينة يجبل إلى ناحية البصرة ، فتأخذ من وجدت ، فتصير بهم إليه ، فيستبدون ، فزادت بلاده وعظمت هيئته في صدور الناس .

وهكذا استطاع أبو سعيد أن ينظم مجتمعه ويكون من أبناء الأسرى وأبناء أبنائه حيث لا يعرف غير الطعن والزلزال حرفة ، وطاعة الرئيس ديناً ، لجمع « الصبيان في دور ، وأظم عليهم قواداً ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسمهم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بينهم ، وغترف عليهم غرقاً ، وعلم من صلح لركوب الخيل والطمان : فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوتهم إليهم »^(٢) .

وصفوة القول أن القرامطة في دور السرقند أقلقوا العباسيين ؛ فأشعلوا الفتن في سواد الكوفة ، وفي العراق العربي وبادية السيادة ، وفي أكثر أرجاء سورية ، وكان لم أثر كبير في سقوط الدولة الطولونية أضف إلى ذلك ما لقيه أبو سعيد من نجاح في القطيف وفي بلاد البحرين واليامنة .

رأينا كيف استطاع أبو سعيد الجنابي تأسيس دولة في بلاد البحرين . وقد نهج في آخريات حياته سياسة التقرب من العباسيين ، الذين استمعوا للنصيحة على بن عيسى وزير الخليفة العباسي للقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ، وحملوا على استئالة أبي سعيد إليهم . ولذلك نرى أبا سعيد لا يقوم بأية محاولة جديفة لمساعدة الفاطميين حين غزوا مصر للمرة الأولى في سنة ٣٠٠ هـ . ولم يقتصر أبو سعيد على ذلك ، بل غلا في عقائده وادعى لنفسه من مظاهر التقديس ما لم يدهه أئمة الإسماعيلية أنفسهم^(٣) . ولما قتل أبو سعيد في الحمام بيد أحد خدمه في سنة ٣٠١ هـ ، اعتقد بعضهم أن ذلك كان بتدبير عبيد الله المهدي ، كما فعل مع ابن فضل بعد ذلك بستين .

(١) الخفاف جمع خف وهو ما يلبس بالقدم

(٢) التنويري نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧١

وقد ذكر المقرئ (انماط الخفاف ص ١٠٩) المبارة الأخيرة على النور الآق ونشأوا لا يعرفون

غير الحرب ، وقد صارت دعوتهم ملياً لهم

De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, p.69. (٣)

ولما تولى ابنه حميد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ) سار على سياسة أبيه التي تنطوي على التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين ، مما حاز في نفوسهم ونفوس فريق من القرامطة ، الذين كانوا لا يزالون على ولائهم للفاطميين بعد قيام دولتهم في بلاد المغرب ، فأثاروا الفتن في وجه حميد وخلصوه وولوا أخاه أبا طاهر ، وأقرم عبيد الله المهدي على ذلك (سنة ٣٠٥ هـ)^(١) . وقد أخذ أبو طاهر على عاتقه تنفيذ سياسة الفاطميين ، وتحقيق أغراضهم التي كانت ترمى إلى القضاء على العباسيين . ومن ثم نرى أبا طاهر يوجه حملاته الإرهابية إلى العباسيين في الوقت الذي كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر . ففي سنة ٣٠٧ هـ نرى أبا طاهر يحاول الاتصال بجيوش الفاطميين في مصر بزعماء أبي القاسم بن عبيد الله المهدي ؛ ولكن مؤنسا الخادم قائد الخليفة العباسي للقندر يحاول دون اتصال جيوش أبي طاهر وحيوش الفاطميين^(٢) . كذلك نرى أبا طاهر يشن إغاراته البحرية على جنوب غربي بلاد فارس في الوقت الذي تتوجه فيه جيوش الفاطميين حين غزوتهم لمصر في سنة ٣٢١ هـ . وإنما فعل أبو طاهر ذلك ، ليشغل جيوش العباسيين ويتيح الفرصة للفاطميين لاستلاك مصر ، وتحقيق غرضهم الأساسي ، الذي كان يرمى إلى امتداد نفوذهم إلى هذه البلاد واتخاذها جسراً يعمرون منه إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين^(٣) .

وقد ذهب ابن الجوزي^(٤) إلى وجود علاقة بين أبي طاهر القرمطي ، وابن أبي الساج قائد العباسيين ، وقد بحث به لمحاربة أبي طاهر ، الذي ظل على ولائه للفاطميين إلى أن توفي سنة ٣٣٢ هـ ، والذي أعلن غير مرة تبعيته للفاطميين . فنراه يشيد في إحدى قصائده بأحقّتهم بالخلافة ، ويقرر هذه النتيجة في قصيدة أشدها بعد هودته من العراق دون أن يحقق أمثيه في فتح هذه البلاد ، وفيها يعلن في صراحة أنه من أتباع المهدي ورعاياه ، وأنه حوّل على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين :

(١) ابن خلدون : المبّر ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٩ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ص ٩٢ .

(٤) دي غويه : ٨ — 216 Les Carmathes du Bahraïn, pp. 216—8 ، نقل من ابن الجوزي . مخطوط

ابن أبي سعيد ، وانتهى الأمر بقتل سابور بن أبي طاهر في سنة ٣٥٨ هـ ، ونفى أنصاره إلى جزيرة أوائل^(١) . وقد أثار قتل سابور حنق الفاطميين ، لأنهم كانوا ولوه العهد بمدحه أحمد ، وعدوا قتله خروجاً على طاعتهم . وقد ذهب دى غويه^(٢) إلى القول بأن غزو القرامطة لبلاد الشام سنة ٣٥٨ هـ كان بإيعاز الخليفة المزمّل بن الله الفاطمي ، ليسهل عليه الاستيلاء على ممتلكات الإخشيديين ، والقول بأن أحمد بن أبي سعيد وأنصاره هم الذين أوحوا بإرام الصلح مع الحسين بن عبيد الله بن طنج الإخشيد وإلى بلاد الشام دون الرجوع إلى الفاطميين ، وانفقوا معه على أن يدفع إليهم ثمانمائة ألف دينار في السنة . وقد أغضب هذا الاتفاق الفاطميين ، كما أغضب سابور الذي كان يناصرهم ، واعتبروا هذا العمل تحدياً لهم ، وافتشاكاً على رياسة الدعوة الإسماعيلية . وزاد قتل سابور الخليفة الفاطمي حقاً على بيت أحمد بن أبي سعيد وانقسم القرامطة بسبب ذلك فرقتين :

فريق زعامة بيت أبي طاهر ، ظل على ولائه لفاطميين ، وفريق آخر زعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم ، أصبح يحنق على الفاطميين ويسل على للتقرب إلى العباسيين^(٣) .

ولم يكن بد إذاً من نشوب الحرب بين القرامطة المعارضين وبين الفاطميين . فلما مات أحمد بن أبي سعيد استبد ابنه الحسن الأعصم بالأمر من بعده ، واستهل هذه بطرد جميع أنصار سابور ليصفو الجوله ، وعمل في الوقت نفسه على التقرب إلى العباسيين ، وأخذ من استيلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هـ ، ومنهم الجزيرة التي كانت تدفع لقرامطة من قبل ، ومقدارها ثمانمائة ألف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، والمسير إلى بلاد الشام ، والاستيلاء عليها وأخذ هذه الجزيرة بالقوة .

وقد حاول الحسن الأعصم ، محافاة الخليفة العباسي للطبع والوقوف معه في وجه سادته الفاطميين . على أن هذا الخليفة لم يرحب بهذه المحافاة ، لاعتقاده أن القرامطة ملاحدة

(١) أوائل يوزن بحجاب جزيرة كبيرة والبحرين عندها مناس القلزل .

(٢) De Goeje : Les Carmathes du Bahrain, p. 186.

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة لندن سنة ١٨٧٢ م) ح ٢ ص ٢١ - ٢٢ .

خارجون على الإسلام . وفي ذلك يقول أبو المحاسن^(١) : « سار القرمطي ، واسمه الحسن ابن أحمد بن أبي سعيد بن بهرام القرمطي ، إلى بغداد ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة بختيار (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، أن يمدد بمال ورجال ، ويوليّه الشام ومصر ليخرج المزم منها ؛ فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها وقال : كلهم قرامطة وعلى دين واحد : فأما الصربون - يعني بني عبيد - فأماوا السن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء - يعني القرامطة - فقتلوا الحاج وقتلوا الحجر الأسود » .

أما البويهيون ، فلى الرغم من ميلهم إلى العلويين ، كانوا يخشون امتداد نفوذ الفاطميين إلى ما وراء بلاد الشام وتعرض نفوذهم لضعف والزال . ولذلك أوجت إليهم العوامل السياسية بمد يد المساعدة إلى القرامطة والوقوف معهم جنباً إلى جنب في وجه الدولة الفاطمية الناشئة . ومن ثم نرى بختيار بن مزم الدولة بن بويه يمد القرامطة بالأموال ، ويطلب إلى الحذائيين إمدادهم^(٢) .

سار الحسن الأعصم القرمطي بمد ذلك إلى الشام ، واشتبك مع جعفر بن فلاح في ناحية المدكة على نهر يزيد بمقربة من دمشق ؛ فدارت المائدة على جعفر بن فلاح ، فأسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذو الحجة سنة ٣٦٠ هـ) ، ومثل بجثته محمد بن حصودا ، فصلبه على حائط داره انتقاماً لأخيه إسحق ، وكان جعفر قد قتله وصلبه^(٣) .

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمي للمز على منبر للسجد الأموي . وقد علق أوليري دي ليسى^(٤) على هذه الحادثة بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهي للإمام الفاطمي ؛ ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً . وقد يرجع ذلك إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين مثاليين في عداوتهم لشعبة والقرامطة^(٥) ، الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتباه إلى آل علي ، والذين كانوا لا يهتمون بالملاقات للذهبية أيا كانت » .

(١) التتميم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣) ابن خنكان ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ .

(٤) O'Leary de Lacy : A Short History of the Fatimid Khaliphate, p. 108 .

(٥) يقصد من القرامطة هنا الذين ينتمون إلى الحسن الأعصم .

هزم القرامطة على غزو مصر بعد استيلائهم على بلاد الشام ؛ فسار الحسن بن أحمد إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيدية والكاغورية ، وكان واليها سادة ابن حبان المغربي غلام للمزقذ هرب منها في شوال سنة ٣٦٠ هـ وقصد إلى يافا ، ثم استأنف الحسن السير إلى مصر ، فاستولى على القراما في الحرم سنة ٣٦١ هـ ، وفتحت له تنيس أبوابها ، واعترفت بسلطانه وخرجت على واليها ، ووزعت المنشورات في جاح عمرو بن العاص بمدينة القسطنطين لحض الناس على عصيان جوهر الصقلي . ثم أمن الحسن القرمطي في السير في داخل البلاد ، وعسكر بمجندة في عين شمس ، وهدد مدينة القاهرة . ولما علم جوهر بوصول القرامطة إلى القلزم ، وهي مدينة السويس الآن ، أعد المدد للوقوف في وجههم والحيلولة دون وصولهم إلى القاهرة ، فحفر حولها خندقاً أقام عليه باين من حديد ، ثم أرسل فريقاً كبيراً من جنده تظاهروا بالانضمام إلى القرامطة والسخط على الفاطميين ، وأوقعوا الانقسام في صفوفهم . وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ بدأ القتال بين الفاطميين والقرامطة عند باب مدينة القاهرة ، وانتهت للمركبة بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم^(١) .

ولما سمع الخليفة المزمدين الله الفاطمي ببلاد الغرب خبر غزو القرامطة لمصر ، أرسل إليها جيشاً بقيادة أبي محمد الحسين بن عمار ، فزادت قوة جوهر الحربية ، وعول على إخضاع مدينة تنيس التي انضم أهلها إلى القرامطة ، فسار إليها وأخضعها ثم عفا عن أهلها . وعاد الحسن القرمطي إلى دمشق ، ورجع أسطوله من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وأخذ يعد المدد لنزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الأحساء لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر .

ويظهر أن هذه الصعاب التي صادفها جوهر في حرب القرامطة ، واعتقاده أن مصر لا تزال معرضة لخطرهم قد بثته على أن يطلب إلى الخليفة المزم الحضور بنفسه إلى مصر وتسلم زمام الحكم فيها ، والتأهب لحرب هؤلاء القرامطة وإبعاد خطرهم . وفي أواخر سنة ٣٦٢ هـ قدم المزم إلى مصر ، وأخذ مدينة القاهرة قاعدة لدولته ، وأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطي كتاباً طويلاً^(٢) يهدده فيه ويتوعده ، ويعرض عليه في نهايته أن يختار لنفسه

(١) المقرئزي : انباط الحفا ص ٨٦ ، عبط ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) راجع هذا الكتاب في المقرئزي : انباط الحفا ص ١٣٤ - ١٤٣ .

إحدى ثلاث خصال ، وإلا أصبح الحكم بينهما سيف وحده :

« ونحن عارضون^(١) ثلاث خصال ، والرابعة أردى^(٢) لك وأشدّ لهلاك . وما أحبك تحصل إلا عليها ، فاختر : إما قُدت نفسك لجم غرين فلاح وأتباعك بأنفس المستشدين معه بدمشق والرمة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حجة^(٣) من عقاب نافقة وخِطام بغير وهي أسهل ما يُرد عليك . وإما أن تردم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار . وإما سرت عن مملك بغير ذمام^(٤) ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمتُ ، وأجربكم على (إحدى) ثلاث : إما قصاص ، وإما من بعد ، وإما فداء ، فسي أن يكون تمحيصاً لذوبك وإقالة لعترتك . وإن آيت إلا فعل المعين ، فأخرج منها فإلك رحيم وإن عليك القنة إلى يوم الدين . أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل اخشعوا فيها ولا تكلمون ، فأنت إلا كشجرة خبيثة اجذبت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا سماء تُظلك ولا أرض تُثقل ولا ليل يحبك ولا نهار يكدك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك . قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهب ، فأنتم كما قال الله عز وجل مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فلا ملجأ لكم إلى الله يومئذ ، ولا منجى منه ... فلا تجد في السماء مصعداً ، ولا في الأرض مقعداً ، ولا في الأرض ولا في البحر منهجاً ، ولا في الجبال مسلماً ، ولا إلى الهواء سداً ، ولا إلى مخلوق ملتبجاً ، حينئذ يفارقتك أحبابك ، ويتغلى هنك أحبابك ، ويمخذلك أنزبابك ، فتنبق وحيداً فريداً ، وخائفاً طريداً ، وهائفاً شريداً ، قد أهلك الفرق^(٥) ، وكظلك الثلقاق ، وأسفلتك ذنوبك ، وازدراك خزيك (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)^(٦) » .

وقد رد الحسن القرطبي على هذا الكتاب بهذه الكلمات القصيرة التي تدل على عدم

(١) في الأصل معرضون .

(٢) أنقل تفضيل بمعنى أشدّ إدواء وإهلاك .

(٣) يعني إلى آخر شيء أحسنه ولو كان حبة .

(٤) يعني عهداً تؤمنك به .

(٥) في الأصل الفرق ، ولعله تحريف عن الفرق بمعنى العاء والراء وهو الخوف والغزع .

(٦) سورة القيامة ٧٥ : ١١ - ١٣ .

مبالاته بتهديد المزمز ووهيد ، وعلى مضاء من يته وشدة رغبته في محاربة الفاطميين فقال :
« وصل كتابك ، الذي قل تحصيله وكثر تفصيله . ونحن سائرون إليك على إثره
والسلام »^(١) .

من ذلك نرى أن الحسن كان ينوى إعادة غزو مصر ، فظهر القرامطة للمرة الثانية في
عين شمس في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هـ ، ثم اجتمعوا أمام الخندق الذي حفره جوهر
للصقلي وحاولوا اجتيازه . على أن الخليفة للمز استطاع أن يستميل الطائيين ، وكاوا من
أشد جند الحسن القرمطي بأساً ، فأرسل إليهم مائة ألف دينار . وقد قيل إنه لم يكن في
بيت المال من الدراهم ما يفي بهذا الترض ، فأمر المزمز أن تضرب نقود من الرصاص منطاة
بطبقة رقيقة من الذهب ، ووضعت هذه الدراهم في صناديق ، في أعلى كل منها عدد قليل
من الدراهم المضروبة من الذهب الخالص^(٢) . فلما استمرت الحرب بين الفريقين ، خرج
الطائيون ، وتشتتت قوة الحسن .

وبذلك تغلب الفاطميون على هذه الصعوبة التي هددت كيانه من ناحية القرامطة ،
وزادت قوتهم باسترداد دمشق . فقد استغل الخليفة للمز النزاع الذي قام بين أبي المنجى
القرمطي - كم دمشق من قبل الحسن الأموي ، وظالم من موهوب البقلى أحد أنصار الحسن ،
فكتب إلى ظالم يطلب إليه أن يقبض على أبي المنجى ويرسله إلى مصر . ولما تم للمز
ما أراد في سنة ٣٦٣ هـ ، قد ظالم بن موهوب ولاية دمشق ، « فأقيمت الدعوة في مصر
وديارها ، والشام والحجاز مع إفريقية والغرب باسمه »^(٣) .

٢ - في عهد العزيز :

وفي أواخر عهد المزمز من الله للفاطمي ثار أهل دمشق وطردهوا عاملها ظالم بن موهوب
العتيلى ، وأباحوا القصرة لدخول أفتكين التركي^(٤) واستبداده بأمورها وإقامة الخطبة

(١) ن الأثر ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) وقد أدرك بنو طولى هذه الخيلة بعد قوات القصرة .

(٣) ابن جاد : ملوك بني عبيد وسيرتهم (الجزء سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٤٦ .

(٤) من أفتكين الشراى مولى من الدولة بن بويه . وقد انضم إلى الخليفة المظفر والطائع في الحروب
التي قامت في وجه عز الدولة بختيار بن بويه . فاستجند بختيار ابن عمه عضد الدولة ، وانصر على أفتكين
الذي خلف سبكتكين في رئاسة الترك ، وقدم دمشق في ثلثائة رجل من الأتراك ، واستطاع أن يستول
عليها بمساعدة منها الذين رغبوا في التخلص من العيارين (العيار المرسل الكثير المجيء) والدعاب متردداً بلا
عمل والذي يحل نفسه وهاها) - ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

العباسيين . وقد حاول المزم استئالة أفتكين إليه ، ولكنه مات قبل أن يحقق أميته . وحاول أفتكين الاستمالة ببنى بويه فلم يسفوه ، فولى وجهه شطر القرامطة في البحرين ، فأرسلوا إليه جيشاً وصل إلى دمشق ، ثم رحل إلى الرملة واستولى عليها . ولما مات المزم ، حمل ابنه المزميز على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة ، وأرسل جوهر الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التفتقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي ، الذي استنجد أفتكين ، وبما شطر حقلان ، وحاصرها بها جوهر ، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم . ومهد بسله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين جيوش الفاطميين بقيادة المزميز نفسه وبين جيوش القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت المزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سبق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والبلج ، وعلى رأسهم اثنتان من إخوة مختيار وابنه المزميزان^(١) . وبذلك عادت دمشق إلى أيدي الفاطميين الذين أقيمت الدعوة باسمهم على منابرها .

وقد أضفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم ، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى جزيرة أوال ، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر^(٢) . واتخذ الخليفة المزميز ، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون^(٣) : « ورجعوا إلى دعوة الطويين ومحاربة بني العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم لفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر

(١) يقول المقرئزي (مخطوط ج ٢ ص ٨ - ٩) إن حارة القبل سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٢) ابن خلدون : البرج ٤ ص ٩١ .

(٣) المصدر نفسه .

القاضي ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حرية منذ سنة ٣٧٥ هـ . وفي ذلك يقول ابن الأثير^(١) « وزال من حينئذ ناموسهم » .

(ب) في اليمن :

يرجع نجاح الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن إلى أبي القاسم الحسن بن أبي الفرج ، ويعرف بابن حوشب ، وبمختصر اليمن^(٢) . وقد ولد ابن حوشب بالكوفة . وأمدنا أبو حنيفة النعمان المغربي ، الذي تفقه في عقائد المذهب الإسماعيلي ، وعاصر من الخلفاء الفاطميين المهدي والقائم والمنصور والمز ، بمعلومات طريفة عن حياة ابن حوشب ، وعن أثره في نشر عقائد هذا المذهب ، فيقول إنه نشأ في أسرة اشتهرت بالعلم ، وخاصة الفقه والحديث . وكان يدين في مستهل حياته بعقائد مذهب الإمامية الاثنا عشرية ككثير أفراد أسرته . ثم تحول إلى الإسماعيلية على يد محمد الحبيب أبي عبد الله المهدي ، وأخذ عنه عقائد هذا المذهب ، وأصبح من خواصه القريبين إليه . وما زال كذلك حتى أرسله محمد الحبيب بصحبة ابن فضل الجندى^(٣) إلى بلاد اليمن حيث أقامه على رئاسة الدعوة في هذه البلاد .

وقد وصف ابن حوشب نفسه كيف اتصل برئاسة الدعوة الإسماعيلية ، وكيف تحول من مذهب الاثنا عشرية واعتقد عقائد المذهب الإسماعيلي فيقول : إنه بينما كان يفكر ذات مرة تذكر القول للأثور عن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم في سنة ٢٥٢ هـ « ٨٦٨ م » من أن المهدي سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أي في سنة ٢٩٦ هـ « ٩٠٨ م » وأنشد قصيدة الفهرى التي ردد فيها تنبؤ علي بن محمد بن علي بن موسى فقال :

ألا يا شيمَةَ الحقِّ ذوى الإيمان والبرِّ
ومنَّهم نصرة الله على التخويف والزجر

(١) ج ٩ ص ١٦ .

يسمى في ذكره قاصر حصرو في كتابه سفر نامه ٨-٢٢٦ Safar Námeh, pp. 226-227 أن دولتهم كانت لا تزال قائمة في منتصف القرن الخامس الهجري ، كما وصف نظام الحكم حالتهم الاجتماعية وسعاً دقيقاً .

(٢) المقريزي (امتداد الحنابلة ص ١١٣) : أبى القاسم الحسن بن فرج الصناديق التجار .

(٣) حسن مفارقة باليمن . ودد جند الملك الحميري .

فلا تدعوا إلى الهاميين أهل النكث والنذر
فلو قد فقد الماشر أو زيد على المشر
فدارت عقب الضر على الدائر بالشر
فند الت والتسمين قطع القول في المنذر
لأمر ما يقول لنا من يبع الهد بالبر
وصار الجوهر للكفون علقا غير ذي قدر

واعتقد ابن حوشب قرب ظهور المهدي ، كما يتضح من قوله : « خرجت إلى دجلة ،
ثم أخذت في قراءة سورة الكهف ؛ فأقبل شيخ عشي ، ما نظرت إلى أحد يلا عيني هيبة
قبله . فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب مني ، فقلت : من أنت ؟
فقال حنفي ، فاستعيرت وقلت : بأبي الحسين المخرج بالدماء المنوع من هذا الماء ! فرأيت
الشيخ ينظر إلي ، وكلم الرجل الذي بين يديه ، فقال لي الرجل : تقدم إلينا ! فقامت وجلست
بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذي دار بينه وبين هذا الرجل الطامع في
السن ؛ ثم يستطرد في الكلام فيبين لنا مانع حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظته
عليه من رجاحة العقل ، ويصف ذلك اليأس الذي تطرق إلى نفسه لجهله المكان الذي
رحل إليه . وبيننا ابن حوشب معطوف يفكر ، إذ انقضت خياهب الأمل عن نفسه حين
حضر الرجل الذي كان في محبة الإمام وأخبره عنقره^(١) .

وقد قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي استألف ابن حوشب إليه ، وبث به
إلى بلاد اليمن ، وقال له : « يا أبا القاسم ! إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر
يكون مبدؤه من قبل اليمن ، فإنه يكون ثابتاً ثبوت نجم اليمن ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى
أقاليم الدنيا »^(٢) .

ونذ علي بن فضل اليمن في سنة ٢٦٦ هـ لزيارة بيت الله في مكة ، وعرج منها على

(١) Quatremère, Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123—131

(٢) الحمادي الياف : كشف أنصار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٣

الكوفة ، وأظهر إخلاصه للحسين بن علي وأبنائه وتمسكه بعقائد المذهب الشيعي . ويقول ابن خلدون^(١) : « كان محمد بن الحبيب ينزل بسلية من أرض حمص ، وكان دعائهم في كل ناحية يدهمون لرضا من آل محمد ، ويرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم ، وأن الشيعة من النواحي يصلون مكنتهم في أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين ، ثم يرجون على سلبية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل . وكان باليمن قوم يعرفون ببني موسى ، ورجل آخر يعرف سلى^(٢) بن الفضل ، أصله من جند . وجاء علي بن الفضل إلى زيارة الإمام محمد الحبيب ، فبث معه رستم » .

وقد عرف محمد بن الحبيب قدر ابن فضل ، وتنبأ بما سيكون له من أثر في نشر الدعوة ببلاذ اليمن ، وعمل على استئانته لعقائد المذهب الإسماعيلي ، وقال له : « الحمد لله الذي رزقني رجلاً نحريراً مثلك ، أستعين به على أمري ، وأكشف له مكنون سري . ثم كشف له أمر مذهبه ، وأصنى إليه ، واشرب قلبه ، وتلقى كلامه بالقبول^(٣) » .

وقد وجد محمد الحبيب في ابن فضل للشخص الذي يستطيع أن يعتمد عليه في نشر عقائد مذهب الإسماعيلية في بلاد اليمن ، فحول على إرساله بصحبة ابن حوشب الذي كان قد أعد له هذه المهمة وقال لابن فضل : « الله الله بصاحبك ، وقرء واعرف له حقه ، ولا تخافه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك . وإنك إن خالفته لم ترشد^(٤) » ، وقال لابن حوشب : « ونمّ باليمن خلق من الشيعة ، فأخرج وعرفهم أمك رسول المهدي ، وأنه في هذا الزمان يظهر باليمن . واجمع للال والرجال ، واتزم الصوم والصلاة والتفشف ، وامل بالفاخر ولا تظهر الباطن وقل : لكل شيء باطن . وإن ورد عليك ما لا تملّه ، فقل لهذا من يملّه ، وليس هذا وقت ذكره^(٥) » .

سار ابن حوشب وابن فضل إلى بلاد اليمن ، وعرجا في طريقهما على مكة ، فوصلا إليها في شهر ذي الحجة سنة ٢٦٧ هـ ، ثم قصدا إلى بلاد اليمن ، وتزلا ببيلة نسي غليظة

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٣ ص ٢٦١

(٢) وردت في الأصل بمحمد وهو خطأ

(٣) الحمادي المياني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٢

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣

(٥) التنويري : نهاية الأرب ، خطوط مدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٤

على البحر الأحمر . واتجه ابن حوشب جنوباً حتى بلغ مدينة الجند الجبلية جنوبى صنعاء وعلى مسيرة ستة أيام منها ، وقصد ابن فضل جيشان ويافع الجبلية للبيعة ، القريبة من الجند . وكان لبدء بلاد اليمن عن مركز الدولة العباسية ، ومناعتها ووعورة الطريق إليها ، وما صادفته عقائد الخوارج وللذاهب الشيعية كازيدية والاثنا عشرية من رواج فيها ، وضعف ولاية العباسيين ومجزم من قبح الفتن والثورات التي كانت تقوم فيها من حيث إلى حين — كان لذلك كله أثر كبير فيا صادفته الدعوة الإسماعيلية من نجاح في هذه البلاد . فقد تمكن ابن حوشب من الوصول إلى « لاعة » ، وهي مدينة على جبل جنوبى صنعاء ، وعلى مقربة منه قلعة يقال لها « عدن لاعة » . وهنا أتى ابن حوشب رحاله ، واتخذ هذه القرية الحصينة مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه . ولم يلبث أن جذب إليه أهالى هذه البلاد الذين التفوا حوله بفضل ما أظهره من الورع والزهد واليتشف ، وأقام الحصون والمقاتل ، واتصر على والى العباسيين وعلى أسراء اليمن . وفي سنة ٢٧٠ هـ بنى جنوبى صنعاء دار هجرته بجبل مسور الذي أصبح مركز الدعوة الإسماعيلية ونواة الجيوش التي اعتمد عليها في نشر هذا المذهب . ومن ثم عرف ابن حوشب بمنصور اليمن ، بفضل ما أحرزه من الانتصارات في هذه البلاد التي لم تلبث أن خضعت لنفوذه ، وأصبحت مركزاً يمد منه دعوته في البلاد الإسلامية . ولا غرو فقد « فرق الدعاة في اليمن والبحرين واليمامة والسند والمند ومصر والمغرب »^(١) .

أما على بن فضل فقد تمكن بدعائه من أن يجمع القلوب حوله ، واتخذ جيشان ويافع مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه ، وحارب بعض رؤساء اليمن ، حتى صفت هذه البلاده ولابن حوشب . على أن ابن فضل لم يلبث أن خرج على للذاهب الإسلامية قاطبة ، وادعى النبوة . ويقول البهاء الجندى في ذلك :

خُذِي الدُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِي وَعَنِّي هَرَارِيكَ^(٢) ثُمَّ اطْرَبِي
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ وَهَذَا نَبِيٌّ بَنِي يَمَرْزُوبَ^(٣)

(١) حجارة اليمن : تاريخ اليمن من ١٤٢ - ١٤٣ . المقرئى : نشاط الحنفا من ٢٧

(٢) المذار المتدليب ، يعنى عني نعمتين من نعمات المذار

(٣) يعنى على بن فضل البهي

لكل نبي مضي شريعة^(١) وهذه شريعة هذا النبي^(٢)
فقد حطّ عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلّوا فلا تنهض وإن صوموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السبي عند الصفا ولا زّورة القبر في يثرب^(٣)

وايس أدل على ما بلّغه ابن فضل من نفوذ من أنه حين «خلق رأسه بصنماء» خلق
له موافقة مائة ألف نفس . ولم يلبث أن تار ابن فضل على رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وقام
الصراع بينه وبين ابن حوشب على ما سيأتي :

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩هـ) .
وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد . وقد استمال عاصم بن عبد الله الرواحي داعي
دعاة الإسماعيلية في اليمن ، على بن محمد الصليحي ، فتحوّل إلى المذهب الإسماعيلي وهو في
حدائثه سنة ، ونفقه فيه ، ثم حل محل عاصم بن عبد الله بعد وفاته ، وأحس الدعوة الإسماعيلية
القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع
علي بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضي على منافئيه (سنة ٤٣٩هـ) . ولما
اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه في هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ،
وهو محمد المستنصر من بني عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه محمد المستنصر إليه برايات
وألقاب ، وعقد له الولاية^(٤) » (سنة ٤٥٣) . ولم تأت سنة ٤٥٥هـ حتى كان علي بن
محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ المماليك من بلاد
الحجاز ، وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد نشر العدل ونفى على
القوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولكنه لم يابث أن قتل في سنة ٤٥٩هـ^(٥) وهو

(١) هذه الشريعة الجديدة هي الإباضية

(٢) حمارة النجدي : تاريخ اليمن ص ١٤٥

(٣) المجلد الثاني : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣هـ ، وقال بعض آخر إنها
سنة ٤٧٣هـ . ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤكد موته سنة ٤٥٩هـ .

راجع سجلات المستنصر في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن The Letters of Al-Mustassir
B.S.O.S p. 323

في طريقه إلى مكة ، وعام بالأمر من بعده ابنه الملك الكرم بن علي الصليحي (ت ٤٧٨هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة للكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد الحين ، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على أيدي البهرة في الهند .

(ح) في العراق :

لا شك في أن قيام الدولة الفاطمية في الغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلاءهم على هذه البلاد قد يساعد على بسط نفوذهم في مصر وفي بلاد الشام وفلسطين والحبشة التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية في ذلك الحين . لذلك ترى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لاستيلاء مصر . ثم يحذو بنو بويه الشيعة حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك بعمل مساعدة البويهيين للقرامطة في حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي لحولوا الخلاف إلى العلويين ، إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية للذهبية . ولذلك ترى سلاطين بني بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدهانهم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في البلاد التي خضعت لنفوذ بني بويه .

وقد ظهرت أفراس الفاطميين التي كانت ترى إلى مد نفوذهم إلى بلاد المشرق من هذه القصيدة التي أشدها ابن هاني الأندلسي^(١) المعز في بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصر ؟ قل لبني العباس قد قُضى الأمر
وقد جاوز الإكندرية جوهي تطالعه البشري ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى العقود من جسرهما جسر
فأجاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفر

(١) ديوان ابن هاني (طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) ص ٨٦ - ٨٧ .

وقد أشرفت خيل الإله طوالما على الدين والدنيا كما طلع الفجر
 وذا ابن نسي الله يطلب وتره وكان حري^(١) ألا يضيع له وتر
 فإن تنجوه فهو مولاكم الذي له برسول الله دونكم المعسر
 وكان بنو بويه من الشيعة المتألبين في عقائد هذا المذهب ، وكانوا — كما يقول سهر
 نوماس أرنولد^(٢) . — « لا يعترفون بحق الخليفة العباسي السني في السيادة على جميع العالم
 الإسلامي » ، ولذلك لم يسلم الخلفاء العباسيون من عسف بنو بويه وسوء معاملتهم .
 وقد أصبح بنو بويه في عهد هؤلاء الخلفاء مطلقا التصرف في العراق ، ولم يتورعوا
 عن التمدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم^(٣) . فإن معز الدولة لما دخل بغداد
 فكرى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، ولكنه عدل عن هذه السياسة
 لما قد يترسض له سلطانه من خطر ، بسبب وجود خلافة علوية ، يعطيها الجند ، ويعترف
 بها الدين ، ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء^(٤) .
 وقد ذكر ابن الأثير^(٥) أن معز الدولة بعد أن أهان الخليفة المستكفي ، وقبض عليه
 وسمل عينيه ، وأجلسه للطبع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) على العرش من بعده ، أصبح هذا الخليفة
 الجديد العلوية في يده ، « فازداد أسر الخلافة إدارا » ، ولم يبق لهم من الأسر شيء البتة .
 وقد كانوا يرأسون ويؤخذ أسرم فيما يفعل ، والحرمة فاعمة بمض الشيء . فلما كانت أيام
 معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدير
 إقطاعه وإخراجاته لآخر ، وصارت الوزارة لمز الدولة يستوزر نفسه من يريد . وكان من
 أعظم الأسباب في ذلك أن الدين كانوا يتشيعون وينالون في التشيع ، ويمتدنون أنف
 العباسيين قد قصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها . فلم يكن هتدم باعث ديني يمنهم على
 الطاعة ، حتى لقد بلغت أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة
 من العباسيين ، والبيعة للمز لدين الله العلوي أو لنهره من العلويين ، فكلهم أشار عليه

(١) حري يعني جدير أ .

(٢) The Caliphate, p. 61

(٣) Hitti, History of the Arabs, p. 411

(٤) Noeldeke, Sketches from Eastern History, p. 88.

(٥) ج ٨ ص ١٦٢

بذلك ، ما عدا بعض خواصه فإنه قال : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تستقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتل لقتلوه مستحلين دمه . متى أجلسك بعض الملوين خليفة ، كان ملكك من تمتد أنت وأصحابك صحة خلافة ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوه ... فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونبيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها . وتسلم عز الدولة العراق بأسره ، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه من الدولة مما يقوم بيمض حاجته .

« ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصع ، فدخلوا عن تحويل الخلافة إلى الملوين . ولكن مما لا ريب فيه أن بنى بويه كانوا على اتصال بالفاطمين ، وأنهم سمحوا لدعاة خلفائهم بنشر عقائد مذهبهم في بلاد العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه .

وقد حاول العزيز الفاطمي أن يجذب إليه البويهيين الذين كانوا يمتنعون للذهب الشيء ، فأرسل في سنة ٣٦٩ هـ — على ما ذكره ابن الأثير^(١) — إلى عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) بن ركن الدولة رسولا من قبله ، « وما زال يبعث إليه برسالة بعد رسالة ، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية »^(٢).

على أننا نرى هذه السياسة التي كانت تغطى على التودد وحسن النية تتبدل في أواخر عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لنزوح مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه . فقد ذكر البندادي^(٣) أن عضد الدولة « تأهب لقصد مصر واتزاعها من أيدي الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين . ادخلوا مصر إن شاء الله آمين » .

وقد قيل إن ما قام به عضد الدولة كان نتيجة لشك في نسب الفاطميين ، حتى إنه عقد مجلساً حضره الملوين الذين أقروا بطلان هذا النسب . ويقول القريري^(٤) : « ثم

(١) ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط يدار الكتب المصرية ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٤) أتمام الخفا ص ١٥ .

ملك فناخسرو بن الحسن الديلمي ببغداد ، فقرب ما بينهما (أى بين المزيرو وعهد الدولة) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذى بمصر يقول إنه علوى منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضموا خطوطكم بأنه ليس بعلوى ولا من ولد أبى طالب . ثم أنفذوا إلى زرار بن معد رسولا يقول له : تريد أن نعرف من أنت ، فنظم ذلك عليه .

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس السياسية التى عقدت ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، وأنكر فيها نسب العبيديين إلى على وقاطمة . لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة العاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمى فى بلاد الموصل ، فكروا فى القضاء على مذهبهم بالظن فى نسبهم إلى على وقاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل فى هذا النسب فى نفوس المسلمين .

وبروى أبو الحسن فى تاريخه أنه « فى سنة ٤٠٢ هـ فى شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسى محضراً فى معنى الخلفاء المصريين ، والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاء والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديسانية ؛ قالوا : وهم منسوبون إلى ديسان بن سعيد الطرمى إخوان الكافر بن ، ونُتف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدين ما أوجب الله على الممء أن يفتروه للناس . فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن زرار الملقب بالجامك — حكم الله عليه بالبوار والغزى والنكال — ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد — لا أسده الله — فإنه لما صار إلى الغرب نسى ببهد الله وتلقب بالهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأعاس — عليه وعليهم لعنة — أدياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يملكون أن أحداً من الطيبين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدياء . وقد كان هذا الإنكار شائناً بالخرمين فى أول أمرهم بالغرب ، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كدسهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفاسق فجار وزنادقة ، ولذهب الثنوية والجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولمنوا السلف ، وأدعوا الربوبية . وكتب فى [شهر]

ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة»^(١) .

« وكتب خلق كثير في المحضر للذكور منهم الشريف الرضى والرضى أخوه ، وابن الأزرقي الموسوي ، ومحمد بن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله ابن الأكنافى ، والقاضي أبو القاسم الجزرى ، والإمام أبو حامد الإسفراينى^(٢) والفقهاء أبو محمد الكشغلى^(٣) والفقهاء أبو الحسين القدورى^(٤) الحنفى ، والفقهاء أبو على بن حكان ، وأبو القاسم التنوخى^(٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيرى . فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان في عين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام في المحضر»^(٦) .

على أن ما رواه أبو الحسن في هذا الكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه في هذا المحضر الذى نرى فيه نسب الفاطميين ، يعارضه هذه القصيدة المشهورة لشريف الرضى ، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعهم بهم صلة النسب ، قال :

ما مقامى على الموان وعندى مقول صارم وأنف حى
ألبس اللؤلؤ فى بلاد الأمادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولاى إذا ضامى البعيد القصى
لفت عرقى بمرقه سيدا الناس جميعاً محمداً وعلى .

ولم يكن هذا كل ما فعله العباسيون فى سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضايعون جهودهم فى نشر دعوتهم عن طريق دعوتهم ،

(١) أبو الحسن : التاجم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه فى الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثة مائة ، كما قام بالتدريس فى مسجد عبد الله بن المبارك فى قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سمعته متفقه الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ - ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ - ٢٠) .

(٣) يفتح الكاف ، ومنه الفاء ، نسبة إلى كشغل إحدى قرى خراسان .

(٤) يضم القاف والراء ، انتهت إليه رسالة أصحاب أبى حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب فى الفقه يسمى مختصر القدورى .

(٥) هو على بن الحسن بن على بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبى الفداء المبرى ، وأخذ عنه ، ونقله قضاء كثير من الناس كاللذان وقرميس . وألف كتاب نشوار الحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ - ١٩٢١) الذى ترجمه إلى الإنجليزية د . م . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو الحسن : التاجم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

ويصادفون كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا الحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . ولقد رأى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطمنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم^(١) ، كما يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر أيضاً « لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين^(٢) » .

على أننا نلاحظ تبديلاً ظاهراً في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليبجار (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) الذي اتخذ من تقريبه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقريب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه ، حتى إن أبا كاليبجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس ، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعوة في مصر ، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين .

واسكن السفنصر لم يفر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولقد رأى يؤيد أبا الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ، ويتعهد له بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم بيعت داعيته الجريء هبة الله الشيرازي سفيراً من قبله لإثارة حسنة جند البساسيري ، وحتمهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي . ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإفادهم إليه من بلاد الشام ، وأرسل إليه كتاباً يقول فيه : « ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في بلاد العراق ، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه في فضائل الآفاق ، المشمرين عن مساعد الجند بما يحمل عرصاتها بغيب عذله مشرقة بأعجم السمود ، ويسعد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة للعود ، مقسولة درجها من وطء أقدام الأبحاس بما الإيمان ، مقصورة غرفها^(٣) على الثناء منها على أهل العدل والإحسان ، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطورك طوق ولاية رجالها ، ويقم على رأسك ، لمزية المتقدمة ، راية جمالها ، وينوط بك أمورها كلها ، ويكل إليك عقدتها وحلها^(٤) » .

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

(٣) في الأصل فرقها ولعله تحريف من غرفها .

(٤) البصرة المؤيدية المؤيد في الدين ، خطوط مكتبة القاهرة الأول ، ورقة ١٨٤ .

أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليبجار تسليم هذا الداعي الجريء إليه ، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك . وهاك عبارة للزويد في الدين^(١) التي تبين لنا حجة العباسيين على أبي كاليبجار وتهديدهم إياه : « أنه إن كانت دعوة تترى إليهم (الفاطميين) في الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت في الخفاء والسر ، مثل خبيثات الصدور ومكنونات القلوب . وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (يعني هبة الله الشيرازي) الفاعل الصانع من الوقوف في بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، ولتجرد لرفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سومع في بابيه وأهل الاستئناق وتسليمه في يد صاحبنا ، فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان واليهود بيننا وبينكم (أي بين العباسيين والبويهيين) ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم (يعني التركانيين) .

إذن فقد كانت هناك علاقات مودة ووفاء بين أبي كاليبجار والفاطميين ، يعمل على توثيقها مؤيد الدين الشيرازي داعي دهاة الفاطميين ، وأن أبا كاليبجار اتخذ من تقربه إلى هبة الله الشيرازي وإلى الفاطميين سلاحاً يشهره في وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين ما يبتغونه من التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين^(٢) . وكان من أثر ذلك أن تقرب أبو كاليبجار من للزويد ، وأخذ يسمع محاضراته ويدرس كتب الاسماعيلية^(٣) .

وقد نقل هارولد باون^(٤) عن كتاب fars-nāmah أن الدعوة لطائفة الإسماعلية أو السَّمية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الهيمالة في فارس على يد ذلك الداعي القدير ، الذي نجح أخق في تحويل هذا الأمير (أبي كاليبجار) إلى عقائد هذا للذهب .

وفي الحق أن الدليلة قد أصبحوا — كما يقول للزويد في الدين^(٥) — « إلى صاحب

(١) السيرة للزويدية ص ٩٥ - ٩٦

(٢) السيرة للزويدية ، مخطوط ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥

(٤) Harold Bowen : The Last Buwayhids, J.R.A.S. (1929), p. 234.

(٥) السيرة للزويدية ص ٤

مصر داعين وباسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذوه الكل سرّاً ومفزعاً في كل شيء »^(١) . ولو أن أبا كاليبجار « استقصى الأمر ، لوجد ندماً أكثرهم بذلك » دائنين (أى آخذين بمذبهه) وبشماره منادين^(٢) .

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم بنال على أخيه طغرل بك ، واتهمز الباسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن مسلة ، لكن الخليفة « استنم بدمام »^(٣) قريش فغاه من القتل^(٤) .

كان أبو الحارث الباسيري من قواد بني بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة المباسي والسلطان البويهي معه مسؤولي السلطة ضيق الجانب . ويقول الخطيب البغدادي^(٥) : « إن أرسلان التركي المعروف بالباسيري كان قد عظم أمره واستفحل شأنه ، لدم نظرائه من مقدسي الأتراك السموم بالأسفسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره وطار اسمه ، وتبتهت أسراء العرب والنجم ، ودعى له على كثير من النابر العراقية ، وبالأهواز ونواحها ، وجبى الأموال ، وخرب الضياع . ولم يكن الخليفة القائم بأسر الله يقطع أسراً دونه ولا يحل ويعقد إلا من رآه » .

وقد عز ابن الأثير^(٦) تبدل العلاقة بين الخليفة القائم وبين أبي الحارث الباسيري إلى تقريب الخليفة أبا القاسم وأبا سعد صاحباً قريش بن بدران الثميلي الذين وصلا إلى بغداد سرّاً ، فامتعض الباسيري من ذلك وقال : هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلال أصحابي ، ونهبوا وقصروا البشوق وأسرفوا في إهلاك الناس ، وأراد أخذهم فلم يمكن منهم . . . وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته ، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) . واجتازت به

(١) المصدر نفسه ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٩

(٣) الدمام الحرة ، يريد أنه تمنع منه بدمام قريش فغاه من القتل . في الأصل واستنم بزمم قريش

وهو تحريف .

(٤) التنبؤ الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢

(٥) كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠

(٦) ج ٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥

سفينة لبعض أكارب رئيس الرؤساء ، فتمها وطالب بالضرية التي عليها . وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب ، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء وحواشى الدار . . . وقال : ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذى قد خرب البلاد ، وأطع التتر^(١) ، وم فرع من السلاجقة .

أما الخليل البندادى^(٢) فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنه سوء عقيدته (يعنى الباسيرى) . وشهد عنه جماعة من الأتراك أن الباسيرى عرفهم ، وهو إذ ذاك بواسط ، حزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة طغرل بك يستمضه على السير إلى العراق .

وأما الذهبي^(٣) فيرى أنه قد « تحقق عند القائم بأنه (الباسيرى) يكاتب المصريين (يعنى العاطميين فى مصر) ، وكاتب الملك الرحيم بأمر بإبعاد الباسيرى فأبعده . وكانت هذه الحركة من أعظم الأسباب فى استيلاء طغرل بك على العراق » .

والواقع أن العداء الذى قام بين الخليفة العباسى وبين الباسيرى كان فى حقيقة الأمر عداء بين العباسيين والبرانيين ، وبسبارة أخرى بين السنيين والشيعة . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بنى بويه من العاطميين على يد لأويد فى الدين هبة الله

(١) كان ابن سلمة المعروف رئيس الرؤساء قد وذر الخليفة القائم ، وكان يكره بنى بويه لتشيعهم ، ويسمى جهده فى إحلال السلاجقة السنيين محلهم فى حكم بغداد ، وبذلك يستطيع الباسيون القضاء على القاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التى بحث بها لأويد دية الله الشيرازى ، وكان سميراً القاطميين إذ ذاك فى العراق ، إلى وزير طغرل بك . ليقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، ويقرب بين العاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهناك بعض ما جاء فى هذه الرسالة : « يعلم سيدى الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن - صور الكندى) أنى كنت غاضباً حضرة وهو يومئذ مقيم بالارى ، غاضباً لأودته ومطالباً لانشاح الحال (اشرح الاشتباك والمضى المراد هنا الاختلاف) بينى وبينه ، لما كان يلقى من محاسن أوصافه وجبل غده وحصلاله ، ولأن يكون التصارف بيننا سلباً إلى التمازف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وثأكد نسب المودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه أو معروف أو إصلاح بين الناس) (سورة النساء ٤ - ١١٤) واتفق من الأمر سبق أن سلمة إلى باطله . حتى عمل سريره ونفذ كيدته ، وحصل الركاب المالى (السلطان طغرل بك) ببغداد . وانبثت الكتب بيننا وشيلاً يكون قصده القضاء على الخليفة (القائم) والى الله عليه والتبليغ بعده إلى مصر » السيرة لألوية ، مخطوط ص ٢٢٢ - ٢٢٣

(٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠

(٣) تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ح ٣ ورقة ٢٢

الشيرازي ، وأدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك في أنه كان بين صفوف جند بني بويه من الذيل والأراك عدد غير قليل على رأسهم البساسيري ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين ، فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ أبي الحارث البساسيري وأنصاره وإبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل بذلك لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجد الخليفة العباسي بالسلاجقة أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة فاستعانوا بالقرس على العرب في تأسيس دولتهم ، ثم استعانوا بالأتراك على القرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا « بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك السلجوقي لينتشلهم من تحكم البساسيري (وأنصاره) ، حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر ، بل أوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقبضهم شر السلاجقة . وكانت الموامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه ، هي نفس الموامل التي دفعتهم إلى الاستنجد بالأتراك »^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد أرسل الخليفة القائم إلى طغرل بك ، أبا محمد هبة الله بن محمد ابن الحسن بن للأمون يدعوهم إلى بغداد^(٢) . ويقول ابن الأثير^(٣) في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرل بك « أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها » . وقد أهد طغرل بك ذلك الأمر الخطير هدته . . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عقد نظامها ، وأجفل الناس إلى قريبتها ، وعسكر الأتراك بظاهرها . « وسمع الملك الرحيم بقرب طغرل بك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها ، وطارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في محتاه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعني للصربين ، وأن الخليفة له على الملك عبود ، وله على الخليفة مثالا . فإن آثره فقد قطع ما بينهما ، وإن أبده وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وهنه (يعني البساسيري) منفصلون »^(٤) .

(١) حسن إبراهيم حسن ، وحل إبراهيم حسن : كتاب التظم الإسلامية ص ١٠٤

(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوقي ص ٨ - ٩

(٣) ج ٩ ص ٢٢٧ (٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ - ٢٢٨

على أن الأنزك الذين رضوا بإبعاد الباسيري ، أدركوا أن الخليفة لم يقصد بصله هذا إلا إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طنزليك ؛ وأظهر هؤلاء تدميرهم للخليفة ووزره . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقيل واصلته بينه وبين طنزليك . فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد الزم على الاعتضاد بالسلاجقة وإزالة سلطان بنى بويه . فأشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يمددوا بالطاعة ويخطبوا لطنزليك ، الذى استطاع بذلك أن يدخل بغداد دون كبير عناء^(١) .

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة هبة الله الشيرازي إليها ، وقيام للناس بين النصيرين العربي والتركى في جيش الباسيري ، وعودة طنزليك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم بنال — كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة الباسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للعاطليين على منابر بغداد سنة كاملة .

وقد ذكر نظام الملك^(٢) أن السعيد نصير بن أحمد الساماني دان بمقائد الإسماعيلية ، وأن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله ؛ فلما أدرك نصر الخطر المهدق به ، نزل عن الإمارة لابنه روح الذى عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده . وذكر المقرئى^(٣) أن نصير بن أحمد الساماني أمير خراسان يث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية وبعد بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا في حسين ألف مملوك يعطيونى ، وليس على المهدي بهم كلمة ولا مشورة ، فإن أمرنى بالسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقى بين يديه وامتلئت أسره » .

(د) في فارس :

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في بلاد فارس منذ أيام عبد الله من ميمون القنداح ، الذى أرسل الدعوة إلى هذه البلاد ، كما أرسل الحسين الأهوازي إلى سواد الكوفة ،

(١) بن الأثير ج ٩ ص ٢٢٨

(٢) Siyaset Nāmeḥ, vol II, pp. 2188

(٣) المتن الكبير ، مخطوط ٢١٤٤ ، المكتبة الأعلىية ببغداد ، ورقة ٢٢٣ أ ب .

والخلافى وأبا صفيان إلى الغرب ، وابن حوشب إلى اليمن . ومن أشهر دعاة في بلاد فارس « خلف » الذى قام بنشر الدعوة الإسماعيلية في بلاد الرى وقمّ وقاشان ، الواقعة بين أصهان والجبل ، وطبرستان ، وتسمى أيضاً مازندران ، وتقع بين الرى وقوس وبحر قزوين وبلاد الديلم . وكان خلف يشتغل في بدء أمره بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن من أن يجمع حوله لقيفاً من الإسماعيلية ، عرفوا باسم الخلفية نسبة إليه ، وأن يجذب إليه طائفة من رجال العلم من أمثال الداعي غياث الذى أصبح في عهد ابنه أحمد بن خلف نائبا عنه في رئاسة الإسماعيلية أو الخلفية ، كما كانت تسمى أيضاً في فارس ^(١) .

وكذلك عمل غياث على جذب كبار الأسماء في هذه البلاد إليه . ومن هؤلاء الأمير الحسين بن على المروروذى ، الذى كان يتمتع بنفوذ كبير في الطائفتان وهرة والغفور ، كما عمل على جذب كثير من العلماء ، حتى إنه جعل أبا حاتم معروف النيسابورى الشاعر (٨٣٧٢) نائباً عنه في نشر الدعوة الإسماعيلية في خراسان ^(٢) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدعوة الإسماعيلية في فارس اصطفت بالصيغة العلمية والفلسفية ، بخلاف ما كانت عليه في العرب . ففي فارس يستطيع أهلها فهم الدعوة الإسماعيلية مدرجاتها المختلفة الصعبة ؛ ولا عجب في ذلك فقد تأثروا منذ عهد بيد بنظر يات للتناسخ والحلول من سُنّة الهند وفلاسفة اليونان ، وخاصة لذّين هروا من اصطهاد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٧ م) إلى بلاد فارس حيث تلقاهم كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٠ م) ورحب بهم وفتح لهم جامعة في جديساور . أضف إلى ذلك ما تركته مدرسة حران من أثر في نشر الفاسفة اليونانية ، وتلق القرس الملوين ، واعتقادهم أحقّتهم بالملك دون الأمويين والعباسيين ، ولا سيما بعد أن ارتبطوا مع الملوين بالمصاهرة . ويقول دى جوييتو ^(٣) : « كانت العقيدة الثابتة عند القرس ، أن الملوين وحدهم يملكون حق حل الناج ، وذلك بصفتهم للزدوجة ، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أهم

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) Nizam el-Mulk : Siyasat Nāmeḥ, vol. II, pp. 271-2. (٢)

De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, p. 275. (٢)

« بيى شهر بانوه » ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك القرس ، ووارثى الأئمة رؤساء الدين الإسلامى حقاً .

ومن أكبر دعاة الإسماعيلية فى الدور المغربى فى فارس ، أبو حاتم الرازى (+ ٣٢٢ هـ) الذى قام بدور هام فى طبرستان والديلم ، وفى أصبهان والرى ، حيث تبمه جماعة من كبار رجال الدولة مثل الأصغر بن شيرويه أمير قزوین ، وقائده مرداوىج بن زيار الديلمى ، وكأما من قبل تحت رياسة يوسف بن أبى الساج أمير الرى من قبل العباسيين ^(١) ويظهر أن تأثير أبى حاتم الرازى كان كبيراً بين هؤلاء الأسماء ، حتى إن يوسف بن أبى الساج فكر فى خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) والمخول فى طاعة الإمام العلوى فى القيروان ، وهو عبيد الله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٣ هـ) ، كما عزم على شق عصا الطاعة للخليفة العباسى ، وإظهار الدعوة للخليفة الفاطمى إذا تم له جمع خراج واسط والكوفة وسقى للفرات ^(٢).

كذلك بث مرداوىج بن زيار إلى عبيد الله المهدي الهدايا والأموال السكينة ، وأعلن رغبته فى المخول فى طاعته .

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية محمد بن أحمد الندى (ت ٣٣١ هـ) ، وكانت علماً أدبياً ، اشتهر بحرية الرأى . وقد أرساه أستاذه الحسين بن على الروروذى داعى الإسماعيلية فى خراسان ، والذى كان قد استجاب إلى دعوة الداعى غيث كاكدم ، بأن يسمل على جذب نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ) أمير خراسان وماوراء النهر إليه . وقد وفق الندى فى ذلك إلى حد كبير وذكر ابن الدم أنه « لما تمكن الحسين بن على الروروذى من بلاد خراسان ، حبسه نصر بن أحمد ، فأت فى حبسه ، فخلقه السنى ، واستنوى نصر ابن أحمد وأدخله فى الدعوة ، وأغرمه دية الروزى مائة وتسعة عشر ديناراً ، فى كل دية ألف دينار ، وعزم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالأمر » ، وكان ذلك حوالى سنة ٣٣٠ هـ . ومات نصر بعد ذلك بقليل ^(٣).

(١) كان مرداوىج بن زيار أحد قواد الأصغر أمير قزوین ، إلا أنه طرده ، واستولى دل بلاده ، ثم فتح الرى وأصبهان .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) ابن الدم : الفهرست ص ٢٩٦ .

من ذلك نستطيع أن نقول إن نصر بن أحمد أخلص للفاطميين ، وإن اتصاله بمبيد الله
الهدى ، وتقديم مساعدته الحربية له ، كان يستند إلى شيء كثير من الصحة ، كما يؤيد هذا
الرأى ما ذكره نظام الملك عن نهاية نصر بن أحمد ، من أن قواده سخطوا عليه لاعتناق
عقائد الإسماعيلية ، ودبروا مؤامرة لاغتياله ، فنزل عن الإمارة إلى ابنه نوح الذى عمل
لقضاء على هذا المذهب وعلى أنصاره فى بلاده .

الباب الحادى عشر

الثقافة الفاطمية

١ - مراکز الثقافة الإسلامية :

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب ؛ بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، إلى العربية ، واضع ملكات للعلمين أنفسهم في البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلطين والأمراء ، رجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ولا غرو ، فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ، أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى مدى هذه النهضة في بلاط كل من السامانيين والفرزنويين والبوهميين والحدانيين في الشرق ، وفي بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر ، وفي بلاط الأمويين في الأندلس .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية . وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التى خلفها للمنزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر كبير في هذه النهضة العلمية التى يتميز بها العصر الفاطمى ، على الرغم مما اعتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أحباب الخلافة العباسية من ضعف ووهن . ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم نتيجة لذلك .

يقول ابن خلدون^(١) في الفصل الذى تكلم فيه على « أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر

العرمان وتنظم الحضارة : « إن تعليم العلم من جملة الصنائع ... وإن الصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والفلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على العاش . فتنى فضلت زادت أعمال أهل العرمان عن مصائبهم ، انصرفت إلى ما وراء الماش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم من نشأ في القرى والأمصار غير المتعدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي ، لعقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قرناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (زادوا) على المتقدمين وقاؤوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر (تفرق) سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام » .

كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ — أصفهان أو الري حيث أقام بوجه عام صاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد . وكان بلاط بني بويه هناك كمية يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ — البلاط الساماني في بخارى حيث كانت مكتبة نوح بن نصر الساماني — كما يقول ابن خلكان — ^(١) عديمة للمثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه ، فضلا عن معرفته » .

٣ — بلاط شمس المالقي قاوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين ؛ وقد وصفه الثعالبي ^(٢) فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان ، ينبوع العدل والإحسان ، ومن جمع الله له إلى غرة ثلاث بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم » .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣

(٢) يتيمة النشر ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧

٤ — بلاط خوارزم في خبوة ، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني بن مأمون القدي آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي .

٥ — بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة ؛ وقد تمتع بشهرة واسعة ، فقتل كثيراً من المؤلفات إلى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله . وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتاباً مع أحد أشراف دولته ، يقول فيه : قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم في فنه مثل فلان وفلان ، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطى ليكون لهم شرف المثول بين يدي ، وتقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم ؛ وأرجو من أمير خوارزم أن يسدى إلينا هذا الجليل^(١) .

ولكن في العشرين سنة التي تخللت سنتي ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م) ، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، زالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) ، واغتيل شمس المعالي على أيدي التاتاريين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . كما قتل مأمون الثاني على أيدي التتار ، وضم السلطان محمود الغزنوي بلاده إلى أملاكه في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب في بلاد منافسيه .

٦ — بلاط الخدائين في الموصل وفي حلب خاصة : فقد كانت حضرة سيف الدولة « مقصد الوفود وموسم الأديباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخدماء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم القدر . وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاعتزاز لما يمدح^(٢) . فلو أدرك ابن الرومي زمانه لما احتاج إلى أن يقول :

ذهب الذين تهزّم مدائحهم هزّ الكفاة عوالي المرائن^(٣)

٧ — بلاط الطولونيين والإحشيديين والفاطميين في مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطفعة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال : القاضي نكار بن قتيبة ، وأبا الفيز ذاك الثون المصري المتصوف ، والربيع ابن سليمان نليذ الإمام الشافعي ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأول مؤرخي مصر

(١) Browne: Lil. Hist. of Persia, vol II, pp. 103-4.

(٢) المرائن الرماح والكفاة جمع كفى ، وهو الجبل اللابس درعه ، وعالية للربح ما يركب فيه السنان ، وهي ضد سائمه ، والجمع التوال .

يقول : ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهزّون له كما يهز الجبل عالية الريح حين يجتبره . أى من الأريحية الشمالية : يتيمة للفرج ٢ ص ١١

الإسلامية . وبلغ الأدب بمصر في عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم . فقد روى القريري^(١) عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي ، الذي قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » ، أنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثني عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشرة كراسة ، فكيف يكون عددهم ؟ وكيف يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال ؟^(٢) .

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والوزراء والشعراء . وكان مسجد عمرو وجامع أحمد بن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية . وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، ولحقوا بها مكتبات تحوى على مئات الألوف من المصنفات . فترى في مكتبة القصر الشرق عدداً من الرفوف مقسماً إلى أقسام لكل قسم منها باب . وكانت هذه المكتبة ، على ما رواه القريري^(٣) ، تحتوى على مائتي ألف مجلد ، عدا الكتب الأخرى ، وفي اللغة العربية ، والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والكيمياء ؛ هذا عدا للمصاحف ومجموعة ابن البواب .

٨ — بلاط الأمويين في قرطبة : وكما ناقش أمويو الأندلس العباسيين في العراق والفاطميين في المغرب ومصر ، نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصفهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافذة للعلم وحكبة لرجال الأدب حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتمرد من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والفرجيين والفقهاء وغيرهم . وكانت قرطبة — كما يقول القريري^(٤) — الناية ، ومركز

(١) خط ج ١ ص ٣٢٦

(٢) حسن ابراهيم حسن : الجمل في التاريخ المصري ص ١٥٢

(٣) خط ج ١ ص ٤٠٩

(٤) فتح القليب ج ١ ص ٢١٨

الراية ، وأم القرى ، وقرارة (مستقر أو مركز) أولى الفضل والتميز ، ووطن أول العلم والنهي ، وقلب الإقليم ، وبنبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ،^(١) وبستان غمر الخواطر ، وبمردد القرائح . ومن ألقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفاتحة . والسبب في تميز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أقطم القرطبي لم يشتمل إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب .

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون . فقد جمع الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أربعمائة ألف مجلد^(٢) .

وبما يدل على كثرة هذه الكتب أن فهارس دواوين الشر التي حوتها مكتبة المستنصر بلغت ٤٤ كراسة ، كل منها في عشرين ورقة . فإذا كان هذا العدد الكبير مقصوراً على الدواوين ، فكيف يكون عدد فهارس المؤلفات في العلوم والفنون الأخرى^(٣) ؟

ولم يكن اقتناء الكتب في الأندلس مقصوراً على الأسراء والخلفاء ، بل اهتم الأفراد باقتناء الكتب في مكاتبهم الخاصة ، واعتبر ذلك التمسك مظهراً من مظاهر البهاة والافتخار^(٤) .

وقد أصبحت قرطبة مركزاً هاماً لثقافة الأوربية ، حتى إن الطلبة كانوا يفدون إليها من جميع أنحاء أوروبا ليلتحقوا العلم على أساتذتها الأعلام ، ولم يكن تشجيع العلم والعلماء مقصوراً على الخلفاء والأسراء وذوي اليسار ، بل كان الوزراء أثر كبير في ذلك ، فقد كان ابن أبي عامر الذي تولى الحجابة في عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر محباً للعلوم والآداب ، مكرماً للمشتغلين بها . وكان يعقد في كل أسبوع مجلساً بقرطبة يجتمع فيه العلماء والآداب للمناظرة بحضرته^(٥) .

(١) يمين الدار التي تصب فيها سمائم العقول ما فيها من علم وفضل

(٢) المقرئ : فتح الكليب ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧

ذكرنا مول المقرئ هذا بما رأيناه عياناً في مكتبة العلامة المنصور له أحمد تيمور باشا ، فطالما تردنا على خزائن كبة بدار الكتب المصرية ، وكلما رأينا كتاباً نفيساً أو محظوظاً نادراً منها وجدنا له عليه تعليقاً عمياً وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء . هذا مع العناية بتظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها صانطة تامة .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٦

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٨

(٥) المراكشي : للمعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ ، ٢٤ .

٢ - مراكز الثقافة في مصر في عهد الدولة الفاطمية :

(١) القصور والمساجد :

وإن في وصف قصر الوزير ابن كلثوم وبيان ما تركه من الثروة ما يكفي لأن يبين ثروة البلاد في ذلك العصر . ولقد سبق أن ذكرنا أن ابن كلثوم كان يشجع العلوم والفنون ، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة في بيته في كل يوم خيس ، ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته . وكان يحضر هذه الاجتماعات القضاة والفقهاء ، وأساتذة القراءات والنحاة ، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتازة ، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهي الاجتماع فينشدونه مدائحهم .

وكان يجمع في قصره عدداً كبيراً من الموظفين : يشغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن ، وبعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب . وكان هؤلاء السامخ راجعون ما يكتبونه ، ويضيفون إليه علامات الشكل والنقط ؛ وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلثوم رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم ، يلقب بالزلازلى ، وهو صاحب كتاب الأسجاع .

وجعل ابن كلثوم في قصره جماعة من القراء والأئمة ، وعين لهم الرواتب الخاصة وוכל إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذى بناه في هذا القصر .

وكانت المساجد مثابة للسما ، وخاصة فقهاء المذهب الشيعى الذين كان عليهم أن يحاضروا الناس في عقائد المذهب الاسماعيلى ؛ وكان بعض الوزراء والقضاة يشتركون في تأليف كتب في هذا المذهب يدرسها الأساتذة في تعليم الناس . ومن أعظم تلك الكتب الكتاب الذى ألفه يعقوب بن كلثوم في الفقه الشيعى ؛ وكان على القضاة أن يصدروا عنه في أحكام محاكمهم التى كانت تعقد في المساجد عادة ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوه فيها بينهم . ولا ننسى أن نذكر في هذا المقام ما كان من تحويل الأزهر إلى جامعة في عهد المزي^(١) .

(١) انظر العبارة التى أوردها عن الرسوم الفاطمية في المساجد والمكاتب .

وأم خصائص الأزهر أنه ، وإن بدأ كنيته من المساجد ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب الكثير من مختلف العلوم والفنون .
وأول من فكر في تحويل هذا الجامع إلى جامعة هو يعقوب بن كلس ، وكان يدين باليهودية أولاً ، ثم تحول عنها إلى الإسلام ؛ وهو القى أشار على المزمع الفاطمي ففتح مصر .

ولما صارت الوزارة إلى ابن كلس ، سار على ما كان عليه الوزراء من قبله من حيث تشجيع العلوم والآداب^(١) . وفي سنة ٣٧٨ هـ وقف المزمع الجامع الأزهر على العلم ، فأصبح نبراساً للجامعات الإسلامية . ولقد رغب الخلفاء الفاطميون في جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية . ولكي يشجع الطلاب وطيبين وأجانب ، كان يقدم إليهم المأكل والسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية إلى الآن . فقد خلفوا مصر رثاء هاما هو الجامعة الأزهرية . ويمكننا أن نقدر الجهود التي بذلها الفاطميون في أيامهم من نظم التعليم التي بقيت في الأزهر حتى الآن .

حقاً لقد فقدت هذه الجامعة إلى وقت ما شيئاً من أهميتها بسقوط الفاطميين . ولا غرو فقد عني الأيوبيون — وهم السنيون الثلاثة — بخريب ما تركه الفاطميون من آثار لنعميم عقائد الشيعة الفاطمية . وقد مضى على الأزهر نحو من قرن قبل أن يسترد شيئاً من عطف الحكومة ورجال الدولة .

ولما جاء الظاهر بيبرس زاد فيه وشفف بما يدرس هناك من العلوم ، وأعاد إليه الخطبة . ومن هذا الحين ابتدأ الأزهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرفق ، حتى صار الطلاب يُهرَّعو ، إليه إلى يومنا هذا من كل أرجاء العالم الإسلامي لإنعام دراساتهم .

أما العلوم التي تدرس في الأزهر ونظم التعليم فيه ، فمن الممكن أن نقول إنها بقيت تقريباً كما كانت عليه في عهد الفاطميين . فقد كان يدرس فيه التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، كما بينا ذلك أثناء الكلام

عن التتاليم الفاطمية في الأزهر وفي مكتبة دار العلم ودار الحكمة . ومع أننا لا نعلم إلا القليل من نظم التعليم وأكثر المواد التي ذكرناها آنفاً ، فما لا شك فيه أن الفاطميين كانوا أول من أدخل ذلك في الأزهر .

(ب) المكتبات :

ولم تكن المكتبات أقل أهمية من المساجد في بث عقائد المذهب الاسماعيلي بين الناس ؛ لهذا بذل الخلفاء ووزراؤهم مجهودات عظيمة في زيادة عدد الكتب التي تناول شتى فروع العلم ، حتى فاقت مكتبة القصر كل المكتبات الإسلامية في العالم في ذلك الحين .

وقد كان الخلفاء الفاطميون ذوى شغف بتشجيع من يميل إلى عقائد المذهب الشيعي . ففي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أسس الحاكم دار الحكمة ، وألحق بها عدداً من أساندة العلوم العقلية كالنفسير والفقه ، وكالعلوم الطبيعية أو العقلية ، وكانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التي أمدت بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة . وكان يباح للناس الانتفاع بها ، فيأخذون ما يحتاجون إليه من المداد والأقلام والأوراق والماسد . وكان مشهورو الأساندة المتصلين بدار الحكمة يقيمون مناظرات يحضرها الحاكم ، فيصلهم لأجلها بالمبات ويخالف عليهم الخلق .

ويحدثنا القريزي عن مؤلف كتاب "الدخائر" الذي زار هذه المكتبة فيقول : " وكنت بمصر في القساط في العشر الأول من المحرم سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جلا موقرة كتباً مرسلة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي ؛ فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدهر^(١) هما يستحقانه وغلماهما . ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول : " إن الكتب التي نقلت إلى دار الوزير ووفاء لخدمة آلاف دينار ، بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار . أضف إلى ذلك أن الكتب التي كانت بدار العلم وغيرها من الكتب التي صارت

(١) يحدثنا ابن ميسر أن أبا غالب حمد الظاهر بن فضل بن الموفق في الدين تولى الوزارة ثلاث مرات ، وقتل في نفس اليوم الذي قتل فيه ابن حمدان .

إلى عماد الدولة بن أبي الأفضل بن المحرق والتي حملها معه إلى الإسكندرية^(١) ، وكذا الكتب التي ظفرت بها بنو لؤثة ، كان خسارة فادحة لحقت بدور الكتب .

ذلك أن عددا عظيما من هذه الكتب قد بيع أو نهب ، أو حل في النيل إلى الإسكندرية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ - ١٠٦٩ م) وما بعدها . ويقول هذا المؤرخ إن عددا غير قليل "من الكتب الجليلة للقدار المدسومة المثل في سائر الأمصار حصة وحسن خط وتجليدا وغاية" ، قد اتخذ من جلودها جبيدم وإمازم نعالا وأحذية ، ثم أحرقوا أوراقتها ، زعما منهم أنها تحوى كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم^(٢) (يعني أهل السنة) .

وقصارى القول ، فإن الكتب التي كانت بمكتبة القصر ودار العلم ، إما أن تكون قد سرقت أو أغرقت في النيل ، أو حلت إلى سائر الأقطار ، أو آلت إلى الإحراق . أما ما تعرض منها لاجور فقد سفت عليه الرياح القرباب ، فصار تلالا عرفت بتلال الكتب^(٣) . وقد بدأت هذه الحن التي حاقت بمجموعتي الكتب (بمكتبة القصر ودار العلم) سنة ٤٦١ هـ ، وتوالت عليها سنون عدة . على أنه في الوقت الذي سقطت فيه الدولة الفاطمية ، أي بعد هذه الفترة التي تملأت سنتي ٤٦١ و ٤٦٥ هـ بنحورن ، كانت لا تزال هناك مكتبة كبيرة في قصر العاصد آخر الخلفاء الفاطميين .

ويظهر أن هذه المكتبة قد استعادت شيئا من سابق عظمتها وروائها ، إما باسترجاع بعض كتبها التي ضاعت في هذه الحن ، أو بإضافة كثير من الكتب الجديدة . يؤيد هذا القول ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت هناك سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) مكتبة عظيمة في قصر آخر الخلفاء الفاطميين ، وأن هذه الكتب قد تم بيعها شيئا فشيئا على يد رجل خبير يدعى ابن صورة ، واستغرق هذا البيع بضع سنين .

ولم يبق من هذه الكتب شيء كثير ؛ فنها ما حل إلى المدرسة القاضية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البَيْسَانِي^(٤) سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقرئ أن المكتبة

(١) نقلت هذه الكتب إلى بلاد المغرب بعد وفاته .

(٢) المقرئ بنو خطط ج ١ ص ٤٠٩

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كان شافعي المذهب . نقله أبوه قضاء بيسان (وهي بلدة من بلاد الأردن بين حوران ودمشق) ،

ومن هذا لفظ اشتق اسمه (البيسان) نسبة إلى هذه المدينة . قدم القاهرة ، وحكم في ديوان لإشاه في

التي كانت هذه المدرسة قد اشتملت من الكتب على ما قدر بمائة ألف مجلد ، آلت كلها إلى الصياع سنة ١١٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م) في غضون المجاعة التي أصابت البلاد في ذلك الوقت ، إذ باع طلبة هذه المدرسة جميع ما كان فيها من الكتب ، وكاوا يبيعون كل مجلد برغيف^(١) .

وقد اختلف المؤرخون في مسألة عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر في ذلك الوقت . فذكر أبو المحاسن^(٢) أنها بلغت مليون مجلد ، وقال ابن واصل إن هذه المكتبة اشتملت على مائة وعشرين ألف مجلد^(٣) ؛ وبذلك خالف ابن واصل وأبو المحاسن وغيرهما من المؤرخين من أمثال ابن أبي طى وابن الطوير وعما الدين الأصفهاني^(٤) ؛ فقد ذكروا أن هذا العدد بلغ مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) وستائه ألف (٦٠٠,٠٠٠) ومليونين (٢٠٠٠٠٠٠ - ٢٠٠٠٠٠٠) على التوالي .

وبعد سقوط الدولة الفاطمية ، حل من مكتبة القصر مائة ألف مجلد إلى المدرسة الفاصلية التي تأسست سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م)^(٥) على ما تقدم . وهذا يحمل ذلك التقدير الذي أتى به ابن واصل غير صحيح . بيد أن العدد الذي ذكره ابن الطوير هو ثلاثة أمثال العدد الذي ذكره ابن أبي طى ، على حين أن العدد الذي أورده عماد الدين الأصفهاني يبلغ عشرة أمثال ما أتى به ابن أبي طى .

سأبداً المصلحة الخاطئة التي لم تكن (سنة ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ و ١٠٣٠ - ١٠٤٩ م) ، وترقى حتى صار صاحبه هذا الديوان . ولما قدم أحد الدين شيركوه الديار المصرية ، اتخذه كاتباً له (سكرتيراً) . فلما مات أحد الدين وآلت الوزارة إلى صلاح الدين ، استخلص الديوان واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية ، ثم جعله وزيراً له ومسيراً ؛ فظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، حيث مات وهو في طريقه لقتال الملك العادل بن أيوب ، وكانت إذ ذاك يسير لأخذ مصر . (ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٩) والمقريزي (غلط ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٧)

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) طبعه جوفينول ج ٢ ص ٤٨٢

(٣) ابن واصل ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٧٠ ، ورقة ٣٢ ب .

(٤) ذكر أبو شامة ، فقلنا عن عماد الدين الأصفهاني ، أن بيع مقتنيات القصر استغرق عشر سنين ، وأنه قد خصص يوماً في الأسبوع لبيع الكتب بطريق المساومة ، قيمت بأعش الأثمان . وتبعثرت المجلدات - وبعضها يشتمل على خمسين جزءاً في شتى الأماكن - حتى استعمل جميع كل أجزاء الكتاب الواحد . ويريدنا عماد الدين الأصفهاني أن هذه الكتب كانت تباع بالوزن (أبو شامة ، طبعه للقاهرة ج ١ ص ٢٦٨)

(٥) المقريزي مخطوط ج ٢ ص ٣٦٦

لكننا لو طرحنا عدد الكتب التي حملها البيهقي من هذه المكتبة ، وهو ١٠٠.٠٠٠ مجلد من مجموع الكتب الذي ذكره ابن أبي طي ، وهو ٢٠٠.٠٠٠ مجلد ، لما بقي لابن صورة إلا عدد قليل جداً يقول يمينه على صم السنين ، وكيف يعقل هذا إذا علمنا أن مدرسة واحدة وهي الفاضلية كان نصبها نصف مجموع هذه الكتب ؟ أضف إلى ذلك ما ذكره ابن ميسر^(١) ، وهو أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجلي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، صادر الخليفة الأمر كافة ممتلكاته ، فكان من بينها خمسمائة ألف مجلد (٥٠٠.٠٠٠)^(٢) نقلت كلها إلى مكتبة القصر .

وليس من السهل أن نأتي بإحصاء دقيق لهذه الكتب ، إذا عرفنا أن هذا التقدير الذي أتى به المؤرخون على اختلافهم يشير إلى ظروف عدة ، أي قبل هذه المجاعة التي انتابت البلاد في أيام الخليفة المستنصر (٤٦١ - ٤٦٥ هـ) وبمدها ، وكذا قبل سقوط الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وبمده .

ويظهر أن العدد الذي أورده ابن الطوير : وهو ٦٠٠.٠٠٠ ، يقرب من العدد الحقيقي لهذه الكتب ، التي كانت في هذه المكتبة في هذه الظروف كلها .

أما المكتبة الكبرى التي كانت في القصر وما أودع فيها من الكتب الجليلة القدر ، فقد كان لها أن تمنى ما عاناها غيرها من المصائب والبلايا التي حلت بالخلافة الفاطمية في عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤) وانتهت بسقوط الفاطميين .

ولمذ ضاع أغلب الكتب التي كانت في القصر وفي دار العلم في غضون الشدة التي حلت بالبلاد سنين طويلة في عهد المستنصر ؟ ونزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة « خنة » مكتوبة بخط محلي بالذهب والفضة ؟ وذهب ذلك كله فيما أخذه الأتراك في مقابل ما كان متأخراً لهم من الأرزاق ، فلم يبق في خزائن القصر الخارجية شيء مطلقاً . أما الخزائن الداخلية التي يتصذر الوصول إليها ، فقد عثر

(١) تاريخ مصر ص ٥٧

(٢) أورد ياقوت في كتابه إرشاد الأديب (ج ٥ ص ١٥٠) أن مكتبة الوزير أبي القاسم بن مباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ابن خلكان (ج ١ ص ٩٣ - ٩٥) اشتملت على ٢٠٦.٠٠٠ مجلد .

فيها على صناديق ملائى بالأفلام ، براها وشذب أطرافها ابن مقلة وابن البواب وغيرها من الخطاطين^(١) .

وقد ولع الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم منذ العصر الأول من خلافتهم باقتناء الكتب الخطية النادرة في مختلف العلوم . وقد تحققت أغراضهم ، فزافت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكتبات العالم الإسلامى .

وكان للوزير يعقوب بن كلس بصير العلوم والآداب مركز رفيع بين وزراء الفاطميين ، فقد كان يحب العلم ويجمع بداره العلماء ؛ وكان يسعد مجلساً في كل ليلة جمعة ، يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وتحمضه القضاة والعقلاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث . وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون ينسخون كتب الحديث والفقه والآداب حتى الطب ، وكانوا يمارسونها^(٢) ويشكلونها وينقلونها .

وقد صنف يعقوب نفسه كتاباً في الفقه أخذه عن المزمز وابنه المزيز ، يتناول فيه الكلام على العقائد الفاطمية ، ويعرف بالرسالة الوزيرية . وفي رمضان سنة ٣٦٩ (مارس — أبريل سنة ٩٨٠) ، دعا ابن كلس الناس على اختلاف مراتبهم إلى اجتماع وقرأ عليهم من تصانيفه ؛ وكان يسعد المجالس بالجامع المتين ، فيقرر المسائل التفهية على حسب المذاهب التي وضعا^(٣) .

ولا غرو فقد استفادت مكتبة القصر أيما استفادة من غيره ابن كلس وولمه يجمع الكتب ، هذا إذا صح القول بأن عددا عظيماً منها قد نقل من داره إلى هذه المكتبة بعد وفاته .

وقد روى المقرئى عن ابن الطوير أن المكتبة كانت في المارستان المتين في القصر الشرقى ؛ وكان بها عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام ، لكل قسم منها باب وزاد هذا للورخ أن هذه المكتبة كانت تحتوى على مائتى ألف كتاب مجلد ، عدا الكتب الأخرى

(١) المقرئى خطط ج ١ ص ٤٠٨

(٢) يقاتلون بين نسخ الكتاب الواحد .

(٣) ابن منجب ص ٢٢

وقد أتى المقرئى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) ببيان موجز عن هذا الكتاب الذى صنفه ابن كلس ، وقال إنه كان في حوزته ، وإتته يتكلم من أصول المذهب الإسماعيلى .

وقد اشتملت هذه الكتب على مصنقات في الفقه في جميع المذاهب ، واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير ، والدلك والدين والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن اليوباب^(١) وغيرها من مشاهير الخطاطين .

وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يتبرجل ، ثم يسير إلى دكة مرتفعة فيجلس عليها ؛ فيأنيه الخازن بنسخ من المصنف مختلفة الحجم ، ويكتب أخرى في مواضع مختلفة لمصادقة الخليفة على اقتنائها^(٢) .

وقد روى المقرئ من مؤلف كتاب « الخزائر » أنه كان في القصر أرحون خزانة من مجاتها خزانة بها ١٨٠٠٠^(٣) مجلد في العلوم القديمة^(٤) . وذكر أبو شامة ، نقلا عما أورده ابن أبي طي عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التي باعها الأيوبيون في عهد صلاح الدين .

وقد وصف هذا المؤرخ مكتبة القصر بأنها كانت من مجائب الدنيا فقال : « ويقال لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر . ومن مجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ؛ ويقال إنها كانت تشمل على ٦٠٠٠٠ كتاب ، وكان فيها من المخطوط المنسوبة أشياء كثيرة^(٥) » .

ولقد رآب الخلفاء الفاطميون في جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد ، حتى لا يتاح لمساكنب بغداد وفرطية اقتناء هذه الكتب . لذلك نجح الفاطميون في جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التي لم يكن لها وجود في المكتاب الأخرى .

(١) ذكر ياقوت (إرشاد ج ٥ ص ٤٤٥ - ٤٥٢) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٥ و ٤٣٦) وأبو البند (ج ١ ص ١٦٠) ترجمة علي بن ملال الكاتب المعروف بابن اليوباب ، وهو شاعر وخطاط مشهور ما بين سنة ٤١٣ هـ .

(٢) المقرئ : مخطوط ج ١ ص ٤٠٩

(٣) لا بد أن يكون هذا العدد أكثر من ١٨٠٠٠ مجلد ، لأن بعض هذه الكتب كان يقع في أكثر من مجلد واحد .

(٤) المقرئ : مخطوط ج ١ ص ٤٠٩

(٥) كتاب الروشدين لأبي شامة (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٢٠٠ . وقد روى هذا الكاتب من عماد الأصفهاني أن عدد كتب هذه المكتبة يبلغ ٢٠٠٠ و ٢٠٠٠ كتاب .

ووجدنا المسبحي أن كتاب العين للخليل بن أحمد^(١) ذكر عند الخليفة العزيز ؛ فأمر خازن مكتبته فأخرج من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من هذا الكتاب ، منها نسخة من خط الخليل نفسه .

وفي مناسبة أخرى أحضر رجل إلى الخليفة نسخة من تاريخ الطبري كان قد اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر الخليفة خازن مكتبته أن يحصل على نسخ أخرى من هذا الكتاب ، فحصل على أكثر من عشرين ، منها نسخة بخط الطبري نفسه . وذكر عنده أيضاً كتاب الجعفة لابن دريد ، فأحضر في الحال أكثر من مائة نسخة منه^(٢) .

أما ما كان من مقتنيات المكتبة الملحقه بقصر الخلفاء الفاطميين ، وما كان لها من شهرة في أنحاء العالم الإسلامي ، فقد دلل عليه أسامة بن منقذ فيما أورده لنا من حقائق رواها عن أبيه فقال ما نصه : « وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدثني أنه لما توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه رحمه الله ، وهو إذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضي الإمام للصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله ، عائداً ومسلماً بمعرفة قديمة كانت بينهما ، ويد كانت عنده للجد سعيد الملك ذى المناقب أبي الحسن علي بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصل بصلات سنية ، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلاته كتباً يقرحها من خزائنه كتبه ، فأجابته إلى ذلك ؛ فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب ، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التي في الساحل ؛ فتغير عليه الهواء ، فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فبطل بأمره وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدي سعيد الملك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعى كتب الإسلام ، وقد وقعت لك رخيصة ، فهل أجذك حريصاً ؟ فسير إليه من يومه وليله عتق عز الدولة أبا الرهف

(١) انظر ترجمته في إرشاد الأريب لياقوت (ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨٢) وابن خلكان ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٨ . وقد مات الخليل سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ على ما ذهب إليه ياقوت (إرشاد ج ٢ ص ١٨٠) وأما لنا ابن خلكان بتاريخين لوفاته هما ١٧٠ و ١٧٥ هـ .

(٢) القريزي : شطوط ج ١ ص ٢٠٨

نصرا رحمه الله ، وسير معه خيلا كثيراً من غلمانة وجنده وظهرا الركوبه وحمل أمتاله ، فأتاه وحمله وما معه ؛ فأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة ^(١) .

(ح) دار العلم :

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغين بنشر المذهب الشيعي ؛ فكان من ذلك أن جعل العزيز الجامع الأزهر مقراً للطلاب تحت إشراف وزيره الكبير يعقوب بن كلس ، فنقل إليه وإلى غيره كثيراً من المصاحف والكتب .

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أنشأ الحاكم جمعية علمية « أكاديمية » على مثال « الأكاديميات » الموجودة ببغداد وغيرها من البلاد ، وأطلق عليها دار الحكمة . فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء ؛ وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت ما لم يجمع مثله في مكتبة من المكتبات . وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على خدائها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج إليه الطالبون والفساخ من الخبر والأفلام والحجرات والورق ^(٢) .

وفي سنة ٤٠٣ هـ عقد الحاكم في قصره مجلساً من مشاهير العلماء في الرياضة والنطق والفتنة والطب وغيرها من العلوم ، فتناظروا في شتى المسائل . وعند إفضاض هذا المجلس منع الخليفة هؤلاء العلماء الخلق والجواهر الثمينة ^(٣) .

ولقد أمر الخليفة الحاكم بنقل الكتب التي كانت بدار الحكمة ^(٤) إلى مساجد الأزهر والحاكم والفس ، فخص الأزهر منها بما يقرب من النصف .

٣ — العلوم التي اشتغل بها الفاطميون

(١) التصير :

وقد أخذ المسلمون يحفظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علمائهم بين العلوم التي

(١) Derenbourg : Vie d'Ousâma, pp. 503 et 504.

(٢) المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٥٨ و ج ٢ ص ٣٤٢) ، عن المسبحي .

(٣) لم تلت أن انتقلت هذه الاجتماعات من دار الحكمة في القصر . وهذا التغير من جانب الحاكم مما لا ندش له ، إذا علمنا أن موظفيه توقعوا عن تنفيذ أوامره بما أصاب عقله من خيل وسياسة من اضطراب .

(٤) وتسمى دار العلم أيضاً . وقد وزعت معظم الكتب التي كانت بدار العلم ، على ما ذكره المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥) على المساجد الثلاثة التي ذكرناها قبل .

تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التي أخذها العرب من غيرهم من الأمم . وأطلقوا على الأولى العلوم العقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكيمة ، ويطلق عليها أحياناً علوم الحكم ، أو علوم الأوتل أو العلوم القديمة ، أو العلوم القديمة .

وتشمل العلوم العقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب ..

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا .

اتخذ الباطنية التفهيم وسيلة لشرب مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع ، أى الذى لا يوافق العقائد الإسلامية ، فزعموا بفسر قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً)^(١) بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى أسألوهم أن يظنكم على أسرار المذهب الباطنى ، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) بأن السماء هى الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هى العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) أن الجنات هى الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هى العلم الباطنى^(٢) . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى فى سورة الحشر (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين)^(٣) ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبى طالب . وتفسير قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)^(٤) أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وأن إبليس وآدم للشهوران فى القرآن هما أبو بكر وعلى ، إذ أسرى أبو بكر بالسجود لعل والطاعة لله فأبى واستكبر^(٥) .

(١) سورة نوح آية ٧١ : ١٢

(٢) Guyard · Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélites (Paris, 1874), p. 209

(٣) ١٦ : ٥٩

(٤) سورة الرحمن ٥٥ : ٥٠

(٥) النزاد : فضائح الباطنية (نشره جولد تسيهر - لندن سنة ١٩١٦) ص ١٣

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر ، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية ، كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن وألفوا كتباً كثيرة أسماها « أحكام القرآن » ، واستماتت الفرق الإسلامية بكتاب الله وأخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه .

(ب) اللغة والنحو :

وعن نبح في اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمي لمصر بقليل أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوى المصرى . رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أبي الحسن على بن سليمان الأخفش النحوى ، وأبي إسحاق الزجاج ، وابن الأنبارى ، ونفطويه ، ومشهورى أدباء العراق . وكان من علماء عصره ؛ فقد نبغ في التفسير ، واللغة ، والنحو ، والأدب ، والشعر ، فن كتبه : كتاب إعراب القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ : وكتاب التفاحة في النحو ، وكتاب السكافى في النحو أيضاً ، وكتاب أدب الكتاب ، وكتاب في الاشتقاق ، وتفسير أبيات مبيوه ، وكتاب طبقات الشعراء .

وعلى رغم ما أخذ عليه من الشح والتعامل على زملائه من علماء عصره ، تهافت الناس على درسه . وأخذ العلم عليه كثير من الناس ، وأفادوا من علمه وسعة اطلاعه . وقد توفي أبو جعفر الدحاس في شهر ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة^(١) .

وكان أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى لنوىاً نحويًا . وقد اتصل بالخليفة العزيز الذى طلب إليه أن يؤلف كتاباً « يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون أن أن الكلا . كله اسم وفعل وحرف جاء لمعى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى الحرف الذى جاء لمعى ، وأز يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم »^(٢) . وقد وقع هذا الكتاب فى ألف ورقة . وصر كتب القيروانى كتاب التعريض .

وعن شتهر بالنحو فى العصر الفاطمى أبو طاهر النحوى . وكان يتولى ديوان الشام فى عهد الخليفة الحاكم . وقد ذكرنا من قبل أن أبا طاهر وجه نظر هذا الخليفة إلى ما كان

(١) ابن علكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) ابن علكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٩

يعانيه المسلمون من محاربة قهيد بن إبراهيم النصراني ، الذي اتخذ الحاكم وزيراً له ، مما أدى إلى قتله . ولكن يظهر أن الخليفة قد ندم على قتله بدليل قتل أن طاهر بعد ذلك بقليل ^(١) وكان أبو الفضل جعفر لم يوافقوا ، وقد على الخليفة الحاكم ، فأعجب به ، وخلع عليه ، وأعطاه إقطاعاً ، ولقبه « عالم العلماء » وجعله يجلس في دار العلم يقوم بتدريس اللغة والنحو . وكان الحاكم يرجع إليه في كثير من أمور الدولة ^(٢) .

ومن علماء اللغة والنحو في العصر الفاطمي أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيري ^(٣) . ولد بها سنة خمس وأربعين وثلثمائة . وتوفي بمصر سنة ٤٢٣ هـ ، وذلك في عهد الخليفة الفاطمي . وكان من أهل البصرة ، وقد نشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب . وكان النجيري من أمثال أهل بيته ، وعن طريقه روى في مصر أكثر الكتب القديمة في اللغة والشعر وأيام العرب . وكان راوية لغة والشعر وأيام العرب ، وقد أخذ أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ اللغة عن أصحاب النجيري ^(٤) .

ومن علماء هذا العصر أبو الحسن علي بن إبراهيم النحوي . وكان من أهل الحوف ^(٥) . وقد أخذ العلم على أبي بكر الإدريسي ، كما أخذ العلم على أيدي جماعة من علماء المغرب ، وصنف كتاباً كبيراً في النحو لم يذكر لنا اسمه ابن حلكان الذي رجحنا إليه في ترجمته ، كما صنف في إعراب القرآن كتاباً يقع في عشر مجلدات ، كذلك كان أبو الحسن عالماً باللغة والتفسير ، وقد أخذ العلم عليه كثير من الطلاب . وتوفي في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي سنة ٤٣٠ هـ ^(٦) .

ولد أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن إبراهيم بن الأغلب السعدي بمزبرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ، ثم وفد إلى مصر حول سنة ٥٠٠ هـ ، واتخذها مقراً له . وقد اشتهر باللغة ، وكان

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٩ - ٦٠ . انظر هذا الكتاب ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) ابن حجر : رقع الإصر من قضاة مصر ، ورقة ٤٣ ب . انظر ص ٣١١ من هذا الكتاب .

(٣) بفتح النون وكسر الهمزة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء ، نسبة إلى نجير (ويقال بنجار) ، وهي محلة أو قرية بالبصرة .

(٤) ابن حلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٧٣ - ٧٥ .

(٥) بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وكسر الفاء ، نسبة إلى الحوف . وذكر ياقوت أنه ولد بشبرا الخيمة من أعمال الشرقية بمصر .

(٦) ابن حلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

من أئمة الأدب في عصره . وقد صنف كتاب الأفعال ، وكتاب أبنية الأسماء ، وكتاب الدررة المخلصة في المختار من شعر شعراء الجزيرة (يعني جزيرة صقلية) ، وكتاب تسع السبع جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس . وتوفي بمصر سنة ٥١٥ هـ ^(١) .

(ج) الأدب :

١ - الشعراء في الصدر الأول من عهد الفاطميين

(٣٦٢ - ٤٦٦ / ٩٧٢ - ١٠٧٣)

(١) الشعراء في عهد العزيز :

أكثر رجال الأدب في قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ، لما كان يندقه هؤلاء من المطايا الجزيلة والغلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والمهابة بالشراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعة ، فاعتزل بعضهم بيلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين ، وإن كانوا في مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعة كابن هاني وغيره ، فقد انتشر النلو في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين . وكثيرا ما دفع بهم هذا النلو إلى الكفر والإلحاد في رأي أهل السنة . ولكن الإسماعيلية أنفسهم يتفون الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، كما يتفون أسماء الله الحسنى ، ويخلعون صفات السابق . وهو الله ، وأسماء الله الحسنى ، على الإمام ، مع اعترافهم بأن الإمام من البشر . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين : « إن أولياء الله (الأئمة) من طينة الأرض معجونون ، وللكور والفساد من حيث أجسامهم مضمونون ، يسكهم الشراب والطعام ، وتلحقهم الأمراض والآلام ، ويقضى عليهم عند استيفاء أيامهم الحجام » ^(٢) .

ولما كان ابن هاني أول من ضرب المثل في ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده ، رأينا أن نأتي بشيء من سيرته ، عسى أن تبين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التي

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٣ ص ١١ - ١٢ .

(٢) المؤيد في الدين : المجالس المزيديّة ج ١ ص ٦١ نقلا عن مقدمة الرسالة الواصلة للدهلي أحمد حيد الدين الكرمانلي ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين ص ٩ .

كانت تظهر لدى الخلفاء الفاطميين في نشر دعوتهم ونجاح سياستهم . ويلقب أبو القاسم محمد بن هاني* بأبي الحسن أيضا ، وكان من قبيلة أزد . وقد ولد في إشبيلية في بلاد الأندلس ففغضى بها أيام صباه . وكان أبوه هاني* من قرية من قرى المهديّة في شمال إفريقيا (في بلاد تونس الآن) . وقد تجلّت مواهبه في الشعر والفلسفة ، وانتقل إلى الأندلس ، فولده له محمد الذي اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، وانهمك في الللاز واتهم بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر عنه ذلك ، نفى عليه أهل هذه المدينة وأخذوا يستتوبون الظن بالملك بسببه ، حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب هاني* ، فأشار عليه بذلك بالبعد عن هذه المدينة ريثما ينسى الناس ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (سنة ٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ ، ٩٥٨ أو ٩٦٤ م) ، فلقى جوهر القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر وبجي ابني علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي أمير المصيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا في إكرامه والإحسان إليه ، فنى خيره إلى المزعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه بالغ في الإسام عليه . ثم توجه للز إلى الديار المصرية ، فشيعة ابن هاني* ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والحق بمولاه . وقد أمد ابن هاني* معداته للوحيول وسار يريد مصر . فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما في مجالس الأنس والطرب . ويقول ابن خلكان إنهم هربوا عليه فقتلوه . وفي رواية أخرى أنه خرج سكران ، فنام في الطريق فوجد ميتا في الصباح ، فلم يقف الناس على سبب وفاته . وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ (٣٠ إبريل سنة ٩٧٣) ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل : اثنتان وأربعون^(١) .

ولقد ناط المز بن هاني* الآمال السكبار ، عماء أن يحاكي الشعراء العباسيين ويبذم ، يؤيد هذا القول أنه لما بلغت المز وفاة ابن هاني* وهو بصمر ، أسف عليه أسفا شديدا وقال : " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك " .^(٢)

ولا شك في أن المز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هاني* الذي يقع

(١) ياقوت - إرشاد (ج ٧ ص ١٢٦ و ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٥) ، المقري -
للح الطيب (ج ٢ ص ١٠١) ، أبو الحسن - طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٨)
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٥

في مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم في مدح المز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخي على أن ابن هاني قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعي في صباه . غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد ؛ بذلك على هذا ما كان من إظهار هذه المواطف حال وصوله إلى بلاد المغرب .

ويظهر لنا أن ابن هاني أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرهم ، لا حبا في عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن يسب لحسامه من صفات التشيع ما نسب إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك في هذين البيتين :

لي صارم وهو شيعي كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا للمز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل^(١)

وربما كان أمر اعتناقه للمذهب الشيعي راجعا إلى ما لقيه من عطف المز وكرمه ، كما يتبين لنا من إحدى قصائده في مدح المز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل إلى المز ماعا في صلاته وعطاياه ، فيقول :

٢٧ وطيفت أسأل عن أغر^(٢) محجل^(٣) فإذا الأنام جيلة^(٤) وهما^(٥)
٢٨ حتى دُفنت إلى المز حليفة فملت أن المطلب خلفه
٢٩ جود كأن اليم^(٦) فيه نفاة^(٧) وكأنما الدنيا عليه غثاه^(٨)

ويقول ابن هاني في قصيدة أخرى رائدة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان في مدح المز :

٢١ قد كان رشح حديده أجلا وما صاغت مضاربة الرقاق قيون^(٩)

(١) ديوان ابن هاني ص ١٨٢

(٢) الأغر السيد في توبه .

(٣) التجميل يفاض يكون في قوائم القوس ، وقيل هو أن يكون البيضاء في ثلاث من دون الأخرى في رجل وحين .

(٤) الجيلة بمعنى الطيبة والخليفة والفرزة .

(٥) بر الذهب وهي السواد .

(٦) ألم البحر .

(٧) السائة البصفة .

(٨) غثاء الزبد - ديوان ابن هاني ص ٧

(٩) القيون الحدادون .

ملاحظة : الأرقام التي على يمين الأبيات تشير إلى ترتيبها في قصائدها .

٢٢ وَكُنَّا يَلْقَى الضَّرِيَّةَ دُونَهُ
 ٢٣ هَذَا مَقْدُومُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
 ٢٤ هَذَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ الْأَوَّلِيِّ الْقِيَامِ
 ٢٥ وَصَوَاهِلُ ، لَا الْهَضْبُ يَوْمَ مَنَارِهَا
 ٢٦ عُرِفَتْ بِسَاعَةِ سَبَقِهَا لَا أَنَهَا
 ٢٧ وَأَجَلَ عِلْمِ الْبَرِّ فِيهَا أَنَهَا
 ٢٨ فِي النِّيثِ شَيْءٌ مِنْ تَدَاكٍ كَأَمَّا
 ٢٩ أَمَا الَّذِي هُوَ الَّذِي أُولَيْتُنَا
 ٣٠ وَأَذْنٌ لَهُ يَفْرُقُ أَمِيَّةً مَلَنَّا
 ٣١ النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظَلَمَ
 ٣٢ فَارَزَقَ عِبَادَكَ مِنْكَ فَضْلَ شَفَاعَةٍ

بِاسْمِ الْمَرْءِ أَوْ اسْمِهِ الْخَزُونِ
 هَذَا الْمَرْءُ مَتَوَّجًا وَالْهَيْدِ
 بِدَا إِلَهٍ وَغَيْبِهِ الْمَكُونِ
 هَضْبٌ ، وَلَا الْبَيْضُ الْخَزُونِ
 عَلِمَتْ بِهَا يَوْمَ الرَّهَانِ عِيُونِ
 سَمِعَتْ بِجَانِحِيهِ وَهِيَ ظُنُونِ
 مَسَحَتْ عَلَى الْأَنْوَاءِ مِنْكَ عَيْنِ
 فَكَأَنَّ جُودَكَ بِالْخُلُودِ رَهِينِ
 مَا كُلُّ مَا أَدُونُ لَهُ مَا أَدُونُ
 وَالْقَوَقُ أَنْتَ وَكُلُّ فَوْقِ دُونِ
 وَأَقْرَبُ بِهِمْ زُنْفَرُ فَأَنْتَ مَكِينُ^(١)

وعلى هذا النحو نظم ابن هاني مدائحه في المزمع مليا ما آثره مشيدا بأحقية القاطمين بالخلافة .

ولم يبق ابن هاني أن يعلى من شأن الانتصار الذي حازته جيوش المزمع على جند البيزنطيين في سورية حيث يقول :

١ يَوْمَ عَرِيضٍ فِي الْفَخَّارِ طَوِيلِ
 ٢٠ لَوْ أَبْصَرْتَكَ الرُّومُ يَوْمَئِذٍ دَرْتِ
 ٢١ يَا لَيْتَ شَعْرَى عَنْ مَقَاوِلِهِمْ إِذَا
 ٢٢ وَثَدُوا وَدَادَا أَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ
 ٢٣ قُلْ لَقَدْ مُسْتَقْبَحٌ مُورِدُ الْجَمْعِ الْقَدِيِّ
 مَا تَنْقَضِي غَرَرٌ لَهُ وَحُجُولُ
 أَنْتَ إِلَهٌ بِمَا تَشَاءُ كَفِيلِ
 سَمِعْتُ بِذَلِكَ عَنْكَ كَيْفَ تَقُولُ
 صَلَاحٌ وَكُلُّ نَاكِلٍ مُشْكُولُ
 مَا أَصْدَرْتَهُ لَهُ قَتَا وَنُصُولُ

(١) ديوان ابن هاني ص ٢١١ - ٢١٦ .

صدر ناسر ديوان ابن هاني هذه القصيدة بمقدمة نقلها فيما يلي : " وقيل إن هذه القصيدة أول ما أنشده بالعمروان ، وأنه (المزمع) أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! مالي موضع بيع البيت إذا يسد " ، فأمر له ببناء قصر ، ففهم عليه ستة آلاف دينار ، وحل إليه آله لشاكل القصر والبيت ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار " .

- ٢٦ سَلَّ رَهْطَ مَنْوِيلٍ وَأَنْتَ غَرَرْتَهُ فِي أَى مَرَكَّةٍ نَوَى مَنْوِيلٍ
 ٢٧ مَنَعَ الْجَنُودَ مِنَ الْفُفُولِ رَوَاجِهَا تَبَّاهُ بِالْمُنْيَاتِ قُفُولِ
 ١٠٣ مَنَ يَهْتَدَى دُونَ الْمَرْخِلِيَّةِ إِنْ الْهَدَايَةَ دُونَهَا تَضْلِيلُ^(١)
 ومما قاله في عيد النحر يمتدح المزيدي ذكر هذا السيد :
 ١٩ هَذَا ابْنُ وَحْيٍ اللَّهِ تَأْخُذُ هَذِيهَا عَنْهُ الْمَلَائِكُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا
 ٣٠ ذَعَرَتْ مَوَاكِبَهُ الْجِبَالُ فَأَعْلَنْتْ هَضْبَاتُهَا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلًا
 ١٠٨ وَعَلَّتْ مِنْ مَكْنُونٍ نَسَرَ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ فِي الْمَلَكُوتِ مِكَائِيلًا
 ١١٢ نَوَكَانَ آتَى الْخَلْقَ مَا أَوْثِقَهُ لَمْ يَخْلُقِ التَّشْبِيَةَ وَالنَّثِيلًا^(٢)

(ب) الشعراء في عهد العزيز والمحكم (٣٦٦ - ٤١١ / ٩٧٥ - ١٠٢١) :

لقد قدمنا ما كان من أثر الأموال التي كان ينفقها الوزير ابن كلس والخليفة العزيز على الشعراء ، مما دفع بهم إلى نظم القصائد الرائعة . والآن نأتى بأمتلة قليلة تبين أعمال الشعراء في هذا السبيل :

من هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبي الجرع ، وهو من الشعراء الذين عاشوا في زمن العزيز والمحكم . ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم في يده ، فظم ابن أبي الجرع قصيدة يظهر فيها شديداً حزنه لمرض الوزير ، ويصف ما كان لنهج العزيز عليه من أثر . وفي ذلك يقول :

يَدُ الْوَزِيرِ هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ أَلَمَتْ رَأَيْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ذَلِكَ الْأَلَمَ
 تَأْمِلُ الْمَلِكُ وَانْظُرْ قَرَّطَ عِلْتَهُ مِنْ أَجَلِهِ وَاسْأَلِ الْقِرَطَاسَ وَالْقَلَمَ
 وَشَاهِدِ الْبَيْضَ فِي الْأَعْمَادِ حَامِئَةً إِلَى الْعَدَا ، وَكَثِيرًا مَا رُوِيَ دَمًا
 وَأَنْفُسُ النَّاسِ بِالشَّكْوَى قَدْ انْصَلَتْ كَأَمَّا أَشْمَرَتْ مِنْ أَجَلِهِ سَقَمًا
 هَلْ يَنْهَضُ الْمَجْدُ إِلَّا أَنْ يُؤْيِدَهُ سَاقُ تَقَدَّمَ فِي لِنَهَاضِهِ قَدَمًا

(١) ديوان ابن حاتم ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٢) ديوان ابن حاتم ص ١٥٣ - ١٦٠ .

لولا العزيزُ وآراه الوزيرُ معا تَحَيَّيْتَنَا خُطُوبَ تَشْعِبٍ^(١) الأما
 قُلْ لِهَذَا وَهَذَا أَنَا شَرَفٌ لَا أَوْهَنُ أَفْهٌ رُكْنِيهِ وَلَا انْهَدَمَا
 كَلَّا كَمَا لَمْ يَرْلُ فِي الصَّالِحَاتِ يَدَا مَبْسُوطَةً وَلِسَانًا نَاطِقًا وَفَا
 وَلَا أَصَابِكَا أَحَدَاتُ دَهْرِكََا وَلَا طَوَى لِسْكَمَا مَا عَشْنَا عَلَا
 وَلَا انْصَحَتْ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ عَافِيَةٌ فَقَدْ نَحَرَتْ بِمَا أَوْلَيْتَنِي الْعَمَلَا^(٢)

يضاف إلى ذلك ما أورده لنا ابن خلكان^(٣) ، وهو أنه غداة وفاة ابن كلثوم زار
 الشعراء قبره ، فقرأه مائة شاعر ، فأجيز كل منهم .

ولم تقتصر هذه المنح على الخلفاء والوزراء ، بل كان لهم من كبار رجال الدولة يد في
 ذلك أيضاً . ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح ، وكان من الأسراء الذين يسرون في ركاب
 الخليفة العزيز إذا خرج في اللوكب . ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الهاكم قصيدة
 يمدح فيها الفضل ، نذكر منها هذه الأبيات :

إِنَّمَا الْفَضْلُ غُرَّةٌ فِي وَجْهِهِ الْمَدَامُحِ
 أَزْجَحِي رِيَّاحُهُ عِبْقَاتُ الرِّوَامُحِ
 كَمِيَّةُ الْجُلُودِ كَفَهُ بَيْنَ غَادٍ وَرَامُحِ
 إِنَّمَا تَصْلَحُ الْأُمُورُ بِرَأْيِ ابْنِ صَالِحِ^(٤)

ومع ذلك فإن ما أظهره الوزراء من جود وكرم لم يكن إلا صورة معصرة لمبات الخلفاء
 أنفسهم ، وعلى الأخص في الصدر الأول من أيام الفاطميين ، حين كانت سطوة الخلفاء
 لا تزال في أشدها . بذلك على حجة ما نقول هذه الأبيات التي نوردتها من هذه القصيدة
 التي أنشدها الشاعر المشهور أبو حامد الأنطاكي يمدح فيها العزيز ووزيره ابن كلثوم .
 كان أبو حامد أحد من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ، وكان من مشهورى

(١) تشعب بمعنى تصدع .

(٢) المقرئى خطه ج ٢ ص ٧

(٣) ج ٢ ص ٤٤٣

(٤) القنابلى : نتيحة الشعر ج ١ ص ٢٤٧

الشعراء . وقد تكلم عنه الثعالبي في كتابه « بنية الدهر » (ج ١ ص ٢٣٨) فقال :
 « هو نادرة الزمان وجملة الإحسان . . وهو أحد المداح المحيدين والشعراء المحسنين ، هو
 بالشام ثاني حجاج بالعراق . وذكر ابن خلكان أنه أقام بمصر زمنا طويلا ، وأن معظم
 شعره قد نظم في مدح أمراءها ورؤسائها ، فمدح من الخلفاء الفاطميين للمز والمزير والحاكم ،
 وشاد بدكر جوهر وابن كلث وغيرهما . وقد ذكره المسبحي في كتابه « تاريخ مصر »
 فقال إن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ - ١٠٠٩ م ^(١)) . ومن هذه الأبيات تبين أن
 الوزير كان يستمد نفوذه من نفوذ مولاه وتضييده :

لم يدع للمزير في سائر الأور ضي عدوا إلا وأخذ ناره
 كل يوم له على نوب الدهر ر وكر الخطوب بالبدل غاره
 ذو يد شأنها التيرار من البخر حل وفي حومة الندى كراه
 قد أفلت عن المزير عداه بالمطايا وكثرت أنصاه
 هكذا كل فاضل يده تمحى وتضحى نقاعة ضراره
 فاستجره فليس يأمن إلا من تغيا ظلاله واستجاره
 وإذا ما رأيت مطرقا يسحل فيا يريده إنكاره
 لم يدع بالذكاء والدهن شيئا في ضمير النيوب إلا أثاره
 لا ، ولا موضعا من الأرض إلا كان بالراى مدركا أقطاره
 زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره ^(٢)

(ج) الشعراء في عهد الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥) :

هكذا كان تشجيع الشعر والشعراء على يد الفاطميين ، مما دفع بكثير من الشعراء إلى
 هجرة أوطانهم والاستقرار في مصر رجاء التمتع بسجاء الفاطميين ورجال بلاطهم . ولا غرو
 فليهم لم يلقوا من تشجيع في بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد ، وقد ذهب ما كان لهم من

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الثعالبي ، بنية الدهر ج ١ ص ٢٣٩

حول وطول . بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يقد عليه من الشعراء النابيين ،
سنيين كانوا أو شيعيين .

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكي من أهل بندگان ، وكان تقيهاً مالكيًا مبرزاً ،
كما كان أديباً وشاعراً . وقد وصفه أبو بكر البندادي في كتابه « تاريخ بندگان » فقال إنه
كان ثقة في الحديث ، وأنه لم يلق من الدالسين أحداً أفقه منه ^(١) . وكان عبد الوهاب هذا
من كبار الشعراء الذين تركوا بندگان وارتحلوا إلى القاهرة .

ولقد تولى ابن نصر القضاء ببادرايا وبأكسايا ، وهما مدينتان تقعان على مقربة من
التبروان . وقد روى ياقوت عن ابن بستم ، أنه تولى القضاء أيضاً بمدينة إشعرد الواقعة في
أرض الجزيرة ، على مقربة من نهر دجلة ، على مسيرة يوم ونصف يوم جنوباً من مينا فارقين .
وخرج في أخريات أيامه إلى مصر بعد أن نبذته بندگان ^(٢) .

ويحدثنا ياقوت أنه في اليوم الذي رحل فيه ابن نصر المالكي عن بندگان ، خرج كبار
رجالها يودعونه ، فقال هذا التقي والشاعر الكبير ، مبعراً عما كان يشربه من ألم الفراق ،
إنه ما فارق هذه المدينة « عن كره لها ، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه » ، ثم ختم كلامه
بهذه الكلمات : « لو وجدت بين ظهرائكم رغيين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم
لبلوغ أمنية » ^(٣) .

ولقد أصاب ابن بستم حيث يقول هذه الكلمات التي تنطوي على غاية الاحتقار :
« والخبز يومئذ كل ثمانية رطل بدينار . وهذا في غاية القم لهم ، لأنه أراد أن يجبرهم
بقسوط (بقاطرة في الأصل) همتهم وخسة نفوسهم » ^(٤) ،

وقد أظهر ابن نصر ما كان يجزع نفسه من حزن لمفارقة بندگان في إحدى قصائده ، وفيها
يودع بلده ويشير إلى هذه الأحوال التي أحاطت برحيله حيث يقول :

سلامٌ على بندگان من كل منزل وحق لها مني السلام المضاعفُ

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢ والكتبي ج ٢ ص ٢٧

(٢) ياقوت : سبب البلدان ، انظر لفظ بندگان .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢

(٤) ابن الجوزي ، مكتبة بوليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرق ، مخطوط

فوالله ما فارقتهما عن قَلْبِ لَهَا وإنى بشطْنِ جانبِها لعارف
ولسكنها ضاقتْ على رُحْبِها ولم تكن الأرزاقُ فيها تساعف
وكانت كَيْفَلِي كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالِف^(١)

و يصف لنا ابن نصر في قصيدة أخرى معيشته في بغداد فيقول :

بِغَدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْفُقَايِسِ دَارُ الصَّنَكِ وَالضَيْقِ
أَصَحَّتْ فِيهَا مُضَاعَاةٌ بَيْنَ أَظْهَرِمَ كَأَنَّ مَصْحَفَ فِي بَيْتِ زَيْدِي^(٢)

هكذا كان ما عاياه هذا الفقيه الكبير ، والقضى والشاعر المشهور ؛ فقد بلغت معاملته الناس له إلى هذا الحد من الإهمال ، حتى هام على وجهه في شوارع حاضرة العباسيين ، حيران لا يولى على شيء . وقد لجأ في النهاية إلى القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية الشيعية واتخذها مقراً ووطناً ثانياً له .

رحل ابن نصر إلى مصر^(٣) ، واجتاز في طريقه مرة الثمان^(٤) ، وبها يومئذ أبو العلاء الممرى ؛ فأضافه عنده ، ثم أشار إلى هذا الحادث في قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

وَالْمَالِكِيُّ ابْنُ نَصْرِ زَارَ فِي مِصْرَ بِلَادِمَا نَحْنُ نَحْنُ الدَّائِي وَالْمِصْرَا
إِذَا نَعَمَ أَحْيَا مَالِكًا جَدَلًا وَيَنْشُرُ الْمَلِكُ الضَّلِيلَ^(٥) إِنْ شَرَا^(٦)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٣

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

(٣) أيد ابن الجوزي (مكتبة بولديان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٠ " ١ ") هذا القول ، مستنداً إلى ما ذكره ابن عساكر من أن ابن نصر وصل إلى دمشق في طريقه إلى مصر سنة ٤١٩ هـ . ويظهر لنا عدم صحة هذا القول وهو أن ابن نصر وصل إلى مصر سنة ٤٢٢ قبل . فانه يقليل . وغير محتمل أن يكون قد أقام سنتين في دمشق والمصر ، لأن عبارة " اجتازاً إلى مصر " تعبر أن إقامته كانت قصيرة الأمد . " وذكره الخافض ابن عساكر وقال : قدم دمشق سنة تسع عشرة وأربع مائة تحت آ إلى مصر " .

(٤) هي مدينة من أعمال حمص ، تقع بين مدينتي حلب وحماه .

(٥) الملك الضليل لقب لأمرئ القيس الذي عدّه النسي صل الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكتبي (ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التي ذكرها في كلامه عن ابن نصر .

(٦) أبو العلاء الممرى : ديوان سقط الزند ص ١٣٤

ولما وصل إلى مصر ، استقبله الناس أحسن استقبال . وقد وصف ذلك ابن خلكان^(١) في هذه العبارة حيث يقول : « لحمل لواءها ، وملأ أرضها وسماها ، واستتب ساداتها وكبراءها ، وتناهت إليه الرائب وانثالت في يديه الرغائب » . وقد زاد هذا الكاتب فذكر أن ذلك كان في خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ، وهي نفس السنة التي مات فيها . وذكر لنا ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : إنه ما كاد يصل مصر حتى مات من أكلة اشتهاها ، وقال وهو على فراش الموت : « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا » .

٢ — الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين

(٤٦٦ — ١٠٧٣/٥٦٧ — ١١٧١)

(١) الشعراء بين سنتي ٤٦٦ — ٤٨٦ هـ

لقد أمدنا كاتب من الكتاب المعاصرين لهذا العهد ، وهو عماد الدين الأصفهاني^(٢) ، بمادة غزيرة استعنا بها في كتابة الدور الذي قام به الشعراء في الشطر الأخير من أيام الدولة الفاطمية .

ولد أبو عبد الله محمد بن الرجا ... هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ؛ وكان قسماً شافئياً للذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها ، وأتقن المحادثة وفنون الأدب ، واتصل بخدمة الوزير عَوْن الدولة بن هبيرة ، فأحسن إليه وقربه وشمله بسلطانه . فلما توفي الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق ، فوصلها سنة ٥٥٢ هـ (١١٦٥ م) ، وهناك عهد إليه بإدارة البريد . وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فوض إليه التدريس بالمدرسة في دمشق . فلما توفي نور الدين ذهب إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً ، وبقي فيها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . ولما عاد إلى دمشق ،

(١) ج ١ ص ٣٨٣

(٢) انظر ياقوت ، إرشاد الأريب ، (ج ٨ ص ٨١ — ٩٠) ، وابن خلكان ج ٢ ص ٩٧ — ١٠٠ ، وأنا القفا (ج ٨ ص ١٠٥)

وحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين ، فحاز ثقته . ولما توفى صلاح الدين عاد إلى دمشق وكرس بقية حياته على الأدب حتى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

على أن هناك كثيرين من الكتاب المعاصرين غير عماد الدين ، من أمثال عمارة البني وأسامة بن منقذ ، وكانا يتصلان بغيرهما من شعراء هذا العصر بروابط المودة والصداقة . وقد أمدنا كل منهما بمعلومات عن هذا الموضوع . وكذلك الحال مع ابن ميسر الذي استقى أخباره من بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين .

والعصر الذي يتكلم عنه عماد الدين في كتابه يمكن تقسيمه قسمين :

الأول — ويبحث في الشعراء الذين عاشوا في اللفة التي تتخلل سنتي ٤٨٦ و ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م) وذلك في عهد الخلفاء المستعلي (٤٨٧ — ٤٩٥ / ١٠٩٤ — ١١٠١) والآخر ٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠) والحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ / ١١٣١ — ١١٤٩) والظاهر (٥٤٤ — ٥٤٩ / ١١٤٩ — ١١٥٤) .

الثاني — ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين ، وهما الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ / ١١٥٤ — ١١٦٠) والعاقد (٥٥٥ — ٥٦٧ / ١١٦٠ — ١١٧١) .

لقد بينا من قبل أن كثيرين من الشعراء هاجروا إلى مصر رغبة في التمتع بتضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وضر بنا ذلك مثلاً هذا الشاعر الكبير عبد الوهاب بن نصر المالكي . ولقد أمدنا عماد الدين الأصفهاني بقوائد عظيمة عن غير من ذكرنا من الشعراء الذين غادروا بلادهم إلى مصر فأنقذوها دار إقامة .

(ب) الشعراء بين سنتي ٤٨٦ — ٥٤٩ / ١٠٩٣ — ١١٥٤ :

زل مصر أبو الفتيان مفضل بن حسن بن خضر المسقلاني ، فتمتع بما أعدته عليه الأفضل ابن أمير الجيوش من صلات . ولقد امتدحه ابن خضر في قصيدة تقتطف منها هذه الأبيات :

١ أقولُ والنجمُ مرقومٌ بقرنه سطرانظرتُ وضوءه المصح مسنم
٣ أمه خديجة أحصى في زجاجته يدير أم مأوها في وجنيه دم ؟

٤ صيغ الصباح ضياء من مياحه فاستنبت حلكا في شعره المم^(١)
وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه إلى مصر شاعرا آخر ، هو أبو الحسن علي بن إبراهيم
لللقب بابن الملائى ، من أهل معرة النيمان منبت الشاعر أبي الملاء المرى . أتى ابن الملائى
إلى مصر غاز تشجيع الأفضل وتيم بما أعذقه عليه من صلات . يدل على ذلك هذه الأبيات
القليلة التى نقلها من قصيدة يمدح فيها ولى إحسانه ونمته حيث يقول :

٣ فكك مصر والحجيج وقوده ويمناه ركن البيت والتيل زمزم
٤ وشاكر ما تولى مير بجزه ولو أنه فى كل عضوه م^(٢)

وهناك طائفة أخرى من الشعراء الذين وفدوا على مصر ، رجاء الحصول على ما حصل
عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم . ومن بينهم أبو الحسن علي بن جعفر
ابن البوين^(٣) ، وهو من أهل المرة أيضا . ولقد اعتمد عماد الدين فى عبارته على ما ذكره
أسامة بن منقذ^(٤) ، وهو أن ابن البوين « حازقة الأفضل وتال حفارته ، وأنه أفاض
عليه من سحائب إحسانه ، وأدر عليه حلوبة إنسانه ، ولقبه بأمين الملك واستطعمه » .

وبحسن بنا أن ننقل هنا بضمه أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

يامن تنافس فيه السم والبصر كما تنابر فيه الشمس والقمر
ومن تحكم فى الأرواح فاحتكت ألا يحكم فيها بدمه بشر^(٥)

وقد أمدنا أيضا عماد الدين بمعلومات نافعة عن ابن الحسن علي بن محمد الأحفش ،
وهو شاعر من أشراف النازبة ، أجاد فى مدح الخليفةين الأسر والحافظ وغلا فى تمجيد
الفاطميين وإعلاء شأنهم . يدل على صحة ذلك هذا البيت الذى نقله من قصيدة يمدح
فيها الخليفة الأسر :

(١) عماد الدين الأصفهاني ، المكتبة الملكية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٨١ (ب) .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٢٣ (ب)

(٣) ذكر أسامة بن منقذ (Derenbourg, Vie d'Ousâma, p. 504) اسم ابن البوين فقال : إن
وجه سعيد الملك أبا الحسن علي بن منقذ اتخذ كاتبا له . وزاد على ذلك أنه تقابل معه فى بيت أبيه ببغداد ،

فلم يعرفه أبوه كغيره . لكنه لما سمع اسمه عرفه واحتق به وقال له : أنت الشاعر النحوى الكاتب ؟
(٤) لم يذكر أسامة شيئا من ذلك فى كتبه . ونحن نظن أن عماد الدين دون هذه العبارة بعد أن التقى
بأسامة فى سورية أو فى غيرها من البلاد .

(٥) عماد الدين الأصفهاني شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٤٣ (ا)

إلى ذروة النور التلاني^(١) إنه إلى ذروة النور الإلهي يُنسب^(٢)
وقال هذا الشاعر في قصيدة أخرى يمتدح فيها الخليفة الحافظ :

بَشَرٌ في العين إلا أنه من طريق العقل نورٌ وهدي
جلُّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدًا^(٣)

هذا كان حال الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر . أما غيرهم من الشعراء
المصريين الذين رحلوا عن بلادهم ، فإنهم لم تلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير في عاصمة
المباسين . وجعفر بن أبي ربيد مثل صالح لما ذكرنا ، فقد عبر عما خالج ضميره من أسى
بعد مفارسته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قُصِدْنَا ببغدادَ شوقاً لأهلها ولا حفيت مذقط أبصارنا عنا ؟
ولا أننا أخفرا على مصرَ بلدةً سواها ، ولكنَّ لقاديرَ ساقنا^(٤)

وقد يتبين مبلغ جود الخلفاء الفاطميين وكرمهم من هذين البيتين اللذين نظمهما
أبو العباس أحمد بن مفرج^(٥) ، أحد الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفة الحافظ ، الذي أمر
الشعراء أن يختصروا قصائدهم إذ يقول :

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصراً لم لا أمرتَ نداً كفيك بمختصر ؟
واقه لا بد أن تمرى سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر^(٦)

والآن نسوق مثلاً آخر من الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد
الفاطمية ؛ مثل أبي الحسن بن الزُّبَيد^(٧) الذي وصفه عماد الدين ، نقلاً عن القاضي الفاضل ،
قال : « وإنه في فقه لم يسمح الدهر بمثله » . وقد قال يحيى^(٨) الخليفة الحافظ بالانتصار على
الصليبيين : « الحمد لله الذي فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ... وحمل أيمامه

(١) ذكر هذا القطف في المخطوط " العائلي " ويظهر أنه نسخ خطأ بدل لفظ التلاني أي العلوي .

(٢) لمصدر نفسه ، ورقة ١١٨ (١)

(٣) لمصدر نفسه ، ورقة ١٤٢ (١)

(٤) لمصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (١)

(٥) عماد الدين الأصبهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٠٨ (ب)

(٦) أطلق عليه عماد الدين (مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ " ب ") اسم أبي علي حسن بن ربيد .
وخالفه في ذلك عبارة أبيه (ص ٣٥) حيث أطلق عليه علي بن الزيد ، ومما في مكان آخر (ص ١٤٤)
للكرم علي بن الزيد .

واضحة الجبول والفرد ، مخصوصة بالفتح والظفر ، يَحْتَقِ النصر على جنوده ، ونير
السمادة أمام جنوده ، ندأل الله أن يحمل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أهوائه
وعُدده ^(١) .

هذا ، ولم تقتصر مدائح ابن الزبد على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل تعدتهم إلى
غيرهم من الوزراء وكبار رجال الدولة ، فقرأ بمدح الأفضل في قصيدة يقول فيها :
خلع الزمانُ على حُلَّةِ مَفْخَرٍ شَرَكًا بمدح الأفضل المفضل
بَلَقَى الدَّمَاحَ بِالنَّسَاجِ واهبا ويصدق الأقوال بالأفعال ^(٢)
ويعمدح ابن الزبد هذا الوزير في قصيدة أخرى فيقول :

لولا وجودك في الزمان وجودك الـ سُحْبَى المكارم بعد بُدْ وفاتها
لم يُعْرِفِ المعروفُ في الدنيا ولو طغنا عليه في جميع جهاتها ^(٣)

وقد ذكر عمارة ^(٤) ابن الزبد عند كلامه عن الكتاب في عهد الوزير ابن رزيك ،
فوصفه بأن كان من رجالات الدولة الذين نالوا حظوة لدى الوزير ، وأنه كان يتردد عليه ؛
وزاد أنه كان فاطميا مغاليا . وقد بلغ من وقائه لبني رزيك أن خاطر بعيانه في المقاطع من
هذا الوزير ، وقايل عنه أشد قتال ، ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه . وهنا
ألقى بنفسه على الوزير ووقاه من الضربات التي أنهالت عليه ، وبذلك هيا السبيل
لنبجاة الوزير .

فليس من عجب إذا ارتفعت مرتبة ابن الزبد وعلت منزلته في عين الوزير ، فأمر
الشعراء أن ينظموا القصائد في مدحه ^(٥) . وقد أشار عمارة اليمني إلى ذلك في بعض قصائده
حيث يقول :

أوجِبَتْ في ذمة الأشعار والمطلب دينا أبا حسن يبقَى هل الحُجب

(١) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب)

(٢) المصدر نفسه ، ورقة ١١٨ (ب)

(٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٢١ (ب) .

(٤) ص ٣٥ و ١٤٤ و ١٤٥ .

(٥) حجارة اليمنى ، النكت المصرية (ص ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ - ٥٣ و ٦٣ - ٦٥ و ١٤٦ و ١٤٧)

أياك البيض لا تُحصى ، وأفضلها يومٌ خُصصت به في قاعة الذهب
وقيت للصالح الهادي وقد غدرت به الصنائع من ناء ومعة قرب^(١)

وعلى الرغم مما قام به ابن الزبد في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، فقد ختمت حياته
بأساة محزنة . فقد روى عماد الدين عن القاضي الفاضل ، أن رجلا بدعي ابن قادوس^(٢)
نظم بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن بن الخليفة الحافظ ، ثم دسهما ضمن أوراق لابن الزبد
وسعى به إلى الحسن فأمر به فقتل^(٣) :

ولقد أتى عماد الدين بعبارة أخرى رواها عن علي بن عباد^(٤) ، وهو من أهل
الاسكندرية ، وكان شاعرا نابها ، نال في بلاط الحافظ الفاطمي حظوة كبيرة . ولما اعتقل
أبو علي الوزير الأفضل الخليفة الخليفة الحافظ ، نظم ابن عباد قصيدة يهني فيها الوزير
وفيها يقول :

تبسم الدهر لكن بمد تعبسي وقوض الدهر لكن بعد تمريسي
إذا دعونا بأن تبق لأفئنا دعاؤنا : فابق يا ابن السادة الوسوس
وقد أعاد إليه الله خانمسه فاسترح الملك من صخر^(٥) بن إبليس^(٦)

(١) المصدر نفسه ص ١٤٦

(٢) ذكر عبارة (ص ٣٥) أبا الفتح محمد بن قادوس في سياق كلامه على رجال الأدب الذين اتصل
بهم في مصر : فوصفه بأنه من مشهورى شعراء هذا العصر . ويسميه ابن ميسر (ص ٩٧) القاضي المفضل
أبا الفتح سمود بن قادوس ، ويذكر أنه توفي في ٧ محرم سنة ٥٥٣

(٣) عماد الدين الاصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب) .

(٤) اللفظ الذي جاء في المخطوط هو ابن عباد . ومع ذلك فقد ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات عباد
وعباد و د . وواضح أن اللفظ الأخير خطأ ، إذ لا يتسمى به غير القبط عادة . أما لفظ عباد فهو
الصحيح (مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٩٧ (ب) وما يتبعها) . انظر ابن ميسر (ص ٨١)

(٥) هو اسم ابن الذي أخذ الخاتم من سليمان بن داود ، الذي يوزن هذا الشاعر في قصيدته بيته
وبين الوزير . (انظر تفسير الخلاص - طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ - ج ٢ ص ١٣٨) . وهذه الأبيات
مبارة عن مقارفة بين الوزير الأفضل وسليمان الذي فقد خاتمه وملكه . ولكنه استرده بعد أربعين يوما
(انظر لاب الرابع عشر من هذا الكتاب) .

(٦) المصدر نفسه ، ورقة ٩٨ (١)

ذكر ابن ميسر (ص ٨١) أنشط الأول من البيت الأول وذكر البيت الرابع كما يلي :

هذا سليمانكم قد رد خاتمه واسترح الملك من صخر بن إبليس

وزاد ابن ميسر على ذلك أن عبادا لما أنشد البيت الرابع في حضرة الوزير ، قام القاضي عبد الله محمد
ابن ميسر طرنا لهذا البيت ، فكان ذلك سببا لعرضه عن القضاء وقتله ، بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله .

وهذا البيت الذي هجا فيه ابن عباد الخليفة كان سبباً في قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله ، واسترجع ملكه بعد وفاة هذا الوزير .

ولم تقتصر مدائح الشعراء على الخلفاء العاطميين ووزرائهم ؛ فقد كان لثير هؤلاء من كبار رجال الدولة نصيب وافر من مدائح هؤلاء الشعراء الذين طمعوا في صلاتهم . ومن الأدلة على هذا أبو الفضل جعفر بن المفضل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده في مدح الوزير الأفضل .

وقد بين لنا عماد الدين ما كان بين المهذب ووالى الاسكندرية من علاقات ، ويقول إن أحد الحاضرين سأل المهذب أن ينظم شعراً يصف فيه خاتم الأمير وقد ضاق عن خنصره ، فقال مرئجلاً :

فَصَّرْ في أوصافك العالمُ فاعترف النار والناظم
من يكن البحرُ له راحةً يضيق عن خنصره الخاتم^(١)
فَأَمَّرْ له الأمير سطاء فأخذه ، فستل أن يصف غزالاً قد استأنس في حجر الأمير ،
فَأَنشد على القور :

عَجْتُ لجراءة هذا الغزال وأمرٍ نخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جائبها فكيف اطمان وأنت الأسد^(٢)
فَأَمَّرْ له الأمير بعده آخر ، فسأله الرجل بمحتناً أن ينظم في هذه الشبكة المدونة على
هذه الدار فقال :

رَأَيْتُ بيباك هذا المنيف شبا كأقْدركنى بعض شك

وفكرت فيما جرى لى قلت مكان البحار يكون الشبك

فقال الأمير لمحتنه : دعه وإلا أخذ ما شلى^(٣) .

وهكذا كان كرم الخلفاء العاطميين ووزرائهم وقادة عصرهم . فلا ندهش إذا غلا

(١) عماد الدين الأسفهان ، خطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٢) المصدر نفسه ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٣) المصدر نفسه ورقة ٨٧ (ب) .

بعض هؤلاء الشعراء في مدحهم ، حتى أدى بهم ذلك إلى الإلحاد وللروق عن الدين . وكان عماد الدين ، كما بينا ، سنيا ، يرى أن الشعر الذي يتعرض لهذه المسائل يؤدي بصاحبه إلى الخروج عن الدين . لذلك لا نجد في هذا الكتاب القيم الذي خلفه عماد الدين ، إلا أمثلة قليلة من هذه القصائد التي نظمها علاء شعراء الفاطميين .

هذا ، وكان ابن الضيف ، وهو من شعراء الفاطميين الذين عاشوا في عهد الخليفة الأمر ، ملحداً في نظر عماد الدين ، الذي أبى أن يردع كتابه . بعض القصائد التي نظمت في مدح الفاطميين ، معللاً ذلك بهذه الكلمات :

« ان الضيف كان من دعاة الأدعياء ، للتالين لهم في الولاء . وكان في حدود سنة خمسمائة في عهد أسرهم . وله فيه مدائح كثيرة . . . وكنت هازماً على خطه ، لأنه أساء شعرها وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كعراً .. لكنني لم أر أن أتذكر كتاباً منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر » (١) .

(ج) الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ - ١١٧١ م) :

والمهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير (٢) ، الذي وصفه عماد الدين بقوله : « ولم يكن في زمانه أشعر منه » (٣) ، مثل ثبوت الشعراء الذين جذبهم تعصيد الخلفاء الفاطميين

(١) عباد الدين الأصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٢ ب وما يتبعها .

(٢) ذكر عبارة (ج ١ ص ٨٦ و ٩٦ و ١٨٤ و ٢٦٨) و (ج ٢ ص ٥١٤ و ٥٥٥ و ٥٧٣ و ٦٠٠ و ٦٠٢ و ٦٣٦ و ٦٣٧) قرشيد بن الزبير ، ولديه أحمد والحسن . ووصف ولديه (ج ١ ص ١٨٤) بأهما شاعران فاهيان ، عاشا في زمن الوزير الصالح بن رزيك . وفي إحدى قصائده (ج ١ ص ١٨٤) مدح عبارة أحمد هذين الشاعرين (البيت الأخير من هذه الصفحة هو في مدح الحسن) ويقول في « النكت المصرية » (ص ٣٥) إن الحسن كان من مشهودي شعراء هذا العصر ، ممن كانوا يحضرون مجلس الوزير ابن رزيك . وقد مياه عبارة المهذب في موضع آخر (ص ٤١٥) .

وقد أتت أسرة ابن منقذ (أسرة أسامة) (ص ١٨ حاشية ٢) و (ص ٢٠٧ و ٢٨٩ حاشية ٦) و (ص ٩ و ١٠ و ٣٢ و ٦٢١) و عماد الدين (المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٣٥ ب) وابن ميسر (ص ٩٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٦٣) على ذكر أبي الحسن الملقب بالقاضي قرشيد أحمد ابن الزبير .

وقد أورد المكتبي (ج ١ ص ١٥٩ - ١٦١) نبذة عن الحسن بن علي بن الزبير ، وقال أنه اتصل بالوزير ابن رزيك ، فاستفاد كثيراً من وراثة اتصاله به (المصدر نفسه ص ١٥٩) .

(٢) عباد الدين الأصفهاني ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٣٧ ب .

وزرائهم وغيرهم من عليّة القوم ، آملين في نيل عطايام والتمتع بصلاتهم .

وإليك ما قاله في قصيدة طويلة يخاطب بها الوزير الصالح طلائع بن رزيك ويصفه بأنه بطل من أبطال المسلمين حيث يقول :

أفارسَ المسلمين اسمعْ ، فلا سمعتْ
عداك غيرَ صليل البيض في القلْبِ
مقال ناء غريب الدار قد عديم الـ
أبصار ، لولاك لم يسع ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد آنست
فضاق منها عليه أوسع السبل
وكيف ألقى من الأيام مرزبة
حلتْ ولي من نورزبك كلٌّ ولي ؟^(١)

هذا من جهة الوزراء . أما من جهة الخلفاء الفاطميين ، فإن الشراء كانوا يدركون ما بينهم وبين وزرائهم من تباين في الرتبة ؛ يدل عليه ما قاله هذا الشاعر في إحدى قصائده يتحدث فيها رضوان بن الولتخشي حيث يقول :

ما كان بَعْدَ أمير المؤمنين فتى فيه الشجاعة إلا أنت والنبيل^(٢)

ويمدح ابن الزبير هذا الوزير في البيت الآتي مترنما بحجوده وكرمه حيث يقول :

لا يرتضى في الجود سَبَقَ سَوَالٍ مَنْ يرجوه حتى يسبقَ الآمالا

وإن هذا البيت الذي نرويه لابن الزبير ، ليدلنا على مبلغ ما كان يلقاه الشراء في

مصر من حفاوة وإكرام .

حيثُ اغتربتُ فلى من هفتى وطنٍ آوى إليه وأهلٌ من ذوى الأدب^(٣)

وقد شاد بعض الشراء بذكر الفاطميين وأنصارهم ، وهم في بلادهم لم يقدوا إلى مصر

في وقت من الأوقات . ومن بين هؤلاء للهبذ بن أسعد ، وكان من أهل الموصل ، ثم اشتغل

بالتدريس في مدرسة حمص . وكان من الفقهاء الأعلام ، ومن الشراء النابيين . استمع

الأصفهاني لشعره عند ما لقيه بمحصر سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ - ١١٦٨ م) . وهو مثل حتى

لهؤلاء الشراء الذين بشوا بقصائدهم رغبة في عطاء الوزراء ونوالهم .

وقد قال عماد الدين إن ابن أسعد نفسه أنشده في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ - ١١٧٠ م)

(١) عماد الدين الأصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ شرحه ، ٣٩ (١)

(٢) المصدر نفسه ، ٤٢ (١)

(٣) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) .

قصيدة يمدح فيها الوزير ابن رزك ، وكان قد نظمها وبث بها إليه ، وأنته من هذا الوزير جائزة سنية . ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

- ٩ هادى الدعاة أبو الفارات خيرُ فنى أدنى عطياته أدنى أمانيكَا
١٤ يشكو إليك بنو الآمال قمرم فيَنشون ويثُ المال يشكوَا
١٥ يخافك النَّكُّ ناد عك مزله وُبُقِرُ المرء عن بعدٍ فيرجوَا
٣٠ مَنْ أرتجى يا كرم الدهر تنعش جدواه إن خاب سعى في رجايبكا ؟
٣١ أأمدحُ التركُ أبنى الخيرةَ عندهم والشعر ما رال عند الترك متروكا ؟^(١)

ونادى الدولة الفاطمية وغدا الأيوبيون أصحاب النفوذ في مصر ، نظم ابن أسعد قصائده في مدح نور الدين وصلاح الدين . ولقد زاد عماد الدين أن صلاح الدين لما رحل عن مصر إلى بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) وعسكر بظاهر حمص ، قصده ابن أسعد ومدحه . وكان القاضي الفاضل لا يزال يذكر هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد عن الترك (سطر ٣١) ، فأشده صلاح الدين وقال له : « فمجل جائزة لتكذيب قوله وتصديق غلته » ، فأجابه إلى ذلك صلاح الدين^(٢) .

ولقد ساعد ما بذله الفاطميون من عطاء وما أغدقوه من صلات على زيادة أعمارهم وأشياهم . ولا غرو فإن هذا الإطار الذى صاغه قلم شاعر نابِه كان أسعد في مدح الفاطميين ، قد اشتهر أمره وذاع خبره في كافة الأقطار الإسلامية . ويتبين لنا ما كان من إغداق الفاطميين الهبات على الشعراء من هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد^(٣) يبر فيه عن أمنيته و السودة إلى وطنه — الموصل — ويذكر أن تحقيق هذه الأمنية يتوقف على جود ابن رزك وكرمه :

فنى بلإبى من قريبٍ فإننى بمجود ابن رُزَيْكٍ على القرب وائق^(٤)
وله يكن لهذا الجود الذى أظهره الفاطميون إلا غرض واحد ، هو تعظيم خلافتهم

(١) المكتبة الأهلية بياديس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) - ١٧٨ (ب)

(٢) المكتبة الأهلية بياديس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٨ (ب)

(٣) ذكر ابن حلكان (ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩) المذهب عبد الله بن أسعد ، وهو من أهل الموصل ورزىل حمص ، في العبارة التى أوردتها عن الوزير ابن رزك .

(٤) عماد الدين ، مخطوط ٣٣٢٩ ورقة ١٨١ (ب) .

ولا كبارهم سلطان دولتهم . وكان ذلك هو الغرض الذى كانت ترمى إليه أعمالهم .
ولقد عرف الوزير ابن رزيك ما للشراء من أثر . فكان يؤثر هؤلاء الشراء على
نفسه ، وكان ينزلم منزلة أصدقائه . ولا غرو فقد كان بعض وزراء الفاطميين شراء
(بطليعتهم) . فكان طبيعا أن ينصروا الشر والشراء بدليل ما كان هنالك من روابط
بين ابن رزيك وهذا الفقيه والشاعر المشهور ، وهو نصر بن عبد الرحمن ، وكان من أهل
الإسكندرية ، وقد لقيه عماد الدين فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) . وقد
أورد لنا عماد الدين قصيدة نظمها ابن رزيك ، يرد بها على قصيدة أخرى يمتدحه فيها هذا
الشاعر . وفيها يقول الوزير :

أهدى لى القاضى الفقيه عرائسا	فيه بديعُ الوشى من تنميقه
فأجأتُ طرفى فى بديع رياضه	من ورده وسهارة وشقيقه
فكأنما اجتمع الأحياءُ فانبثرتُ	يد عاشقٍ تهوى إلى معشوقه
نزهتُ فى بستانِ ظلمك ناظرى	فخطبتُ من زهر الزُما بأنيقه
وأما أرى تقديمَ حاجةٍ صاحبي	من دون حاجاتى أفلَّ سقوقه
وكذا الكريمُ هملَ لحقوقه	لا مهمل أبدا حقوقَ صديقه ^(١)

ولم تقتصر جميع قصائد ابن نصر على امتداح الوزير ، فقد خص بعضها بالإشادة بذكر
الخلفاء الفاطميين . بيد أننا ، لسوء الحظ ، نرى عماد الدين لم يضرب لنا أمثلة مما قاله هذا
الشاعر فى مدح الخلفاء . ويحتمل أن يكون ذلك لما كان من غلو هذا الشاعر فى تعظيم
الفاطميين والإشادة بذكورهم ، كما يتجلى ذلك من وصف عماد الدين الأصمهانى لابن نصر
حيث يقول : « وما أكله ، لولا أنه من مداح للصرى واقفه له عافر ١ » ^(٢) .

ولقد روى لنا عماد الدين بضعة أبيات نظمها أحد الشراء ، وقد اتصل به أن رجلا من
أنصار الشراء بحث إليه مع رسول بنصف دينار فلم يوصله إليه :

أنا نصف دينار مماعا فهمتنا له فى نصف شكير
وهذا محك لوصول هذا فوصل مثله قدرا بقدر

(١) المكتبة الأملية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٦٩ (١)

(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٩ (١)

ولو زدتم على الإحسان زدنا وأحسنا لواحدة بعشر^(١)
ولقد أمدنا أبو محمد هبة الله بن علي بن عرام السديد^(٢) بمثل آخر لشاعر هبر عن استيائه
وسخطه ، وقد خابت آماله في اكتساب جائزة رجل من أنصار الشعر بعد أن مدحه على
غير جدوى فقال :

أنعتُ نفسي وفكري في مدح قومٍ لثامٍ
وغرني حسنُ بشرٍ منهم وطيبُ كلامٍ
فما حصَلتُ لديهم إلا على الإعدام
ولو جعلتُ قريضي صرائياً في الكرام
لحزتُ ذكراً جليلاً يبتقى على الأيام^(٣)

ويقول ابن عرام من قصيدة أخرى يمدح فيها الوزير رضوان بن الوائشي ، ويشيد
في بعض أبياتها بذكر الأسرة الحاكمة ويصفها بأنها عامل قوى من عوامل تمكين قوة
الإسلام يقول :

جددتُ بمد دروسه الإسلاماً ومحوته عنه الظلم والإغلاما
وطويتُ راياتِ الضلال مجاهداً ونشرتُ في غرِّ الهدى أعلاما^(٤)

ومن شعراء أسوان الذين تبنوا في أواخر الدولة العاطمية : المهذب أبو محمد الحسن بن
علي بن الزبير الذي وصفه عماد الدين الأصفهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة المعصر
بقوله : « ولم يكن في زمانه أشعر منه » ، وله كتاب في النسب .

ومن هؤلاء الشعراء أحد بن علي بن إبراهيم بن علي بن الزبير ، ويعرف بالرشيد ، وكان
غزير العلم واسع المعرفة ملماً بالهندسة وعلم النجوم والمنطق والسير والموسيقى والطب . وقد تأنق

(١) عماد الدين الأصفهاني ، المكتبة الأملية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ١٤٢ (ب) . وقد
زاد هذا « تب أن هذا الشاعر عاش في أيام الوزير ابن رزيك » (شرحه ورقة ١٤٣ « ١ ») .
(٢) نفس عماد الدين الأصفهاني (شرحه ، ورقة ١٧٦ « ب ») عن قاضي أسران الذي أهلى إليه
ابن عرام ديوانه ، فنقل عنه عبارته التي يصف فيها هذا الشاعر . وقد مات ابن عرام سنة ٥٥٠ هـ
(١١٥٥ م) ، ووصفه الأصفهاني بأنه كان شاعراً لاهياً .

(٣) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٧٦ (ب) .

(٤) المصدر نفسه مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

العلم باليمن والإسكندرية وأسوان . وقد ولى ثمر الإسكندرية في أواخر عهد الفاطميين ثم قتل في سنة ٥٦٣ هـ بتهمة اشتراكه مع أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ، فحبسه شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي وقتله .

ومن نفع في أسوان أيضاً أبو عبد الله بن عبد الوهاب بن أبي حاتم الذي اشتهر بالحديث ، وأبو يعقوب إسحق بن إدريس واشتهر بالحديث أيضاً ، وأبو الحسن قنبر بن موسى بن قنبر عمارة اليمنى :

خلف لنا عمارة بن أبي الحسن الحسكي نعم الدين أبو محمد سيرته ، وكان من أهل تهامة باليمن ^(١) . وفي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ — ١١٥٥ م) حج إلى مكة ، وبث به القاسم بن فليته أمير مكة رسولا من قبله إلى مصر ، فدخلها في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، فتلقاء الخليفة العاضد ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالمعطف والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحهم في قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام في مصر إلى شوال سنة ٥٥٠ هـ ^(٢) . ثم عاد إلى مكة ، ومنها أغذه أميرها بمهمة أخرى في صفر سنة ٥٥١ هـ (إبريل سنة ١١٥٦) ^(٣) . ومن ثم أقام في القاهرة وصار من مشاهير شعراء البلاط في عهد الخلفيين العاضد والقاضد ، آخر خلفاء الفاطميين . وقد شق في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (إبريل سنة ١١٧٤) .

كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الأدبي ، ذلك النفوذ الذي عملوا على تأييده بطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب ، أثر عظيم في نفس عمارة اليمنى ، حتى أصبح من أنصارهم ومن الشعراء الملائين لهم . وكان عمارة هذا شاعرا سنيا شافعي المذهب ؛ ظهرت له أعمال عظيمة في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولكنه قتل في آخر أمره لاشتراكه في اللؤامة التي قامت لتقويض سلطان الأيوبيين .

وهو من الأمثلة الواضحة على تعلق الفاطميين بالشعراء والاستفادة من شعرهم . ويحسن

(١) التكت المصرية ص ٧ ، ٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ — ٣٤ ، ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ .

انظر أيضاً حاد الدين الأمشاني ، المكتبة الألفية بباريس ، خطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ٢٥٧ (١) وما يتبعها ، وجماعة اليمن (ج ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ — ٤٧٧) ، وابن دسوقي (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) .

بنا أن ننقل بعض آيات من أولى قصائده ، وقد أشدها في قاعة الذهب في قصر الخلفاء الفاطميين :

- | | |
|----------------------------------|--|
| ١ الحمدُ للذي بعد العزم والمهمر | خدا يقوم بما أولت من النعم |
| ٣ قرّ من بُعد مزار العزم من نظري | حتى رأيتُ إمام العصر من أم |
| ٤ ورُحْن من كعبة البطحاء والحرم | وفدا إلى كعبة العروف والمكرم |
| ٦ حيث الخلافة مضروبٌ سرادقها | بين النقيضين من عفو ومن قَم |
| ٧ وللإمامة أوارٌ مقدسةٌ | تجلو للبقيضين من ظلم ومن ظلم |
| ٨ وللنبوة آياتٌ تنصُ لسا | على الحقيقة من حكم ومن حكم |
| ٩ وللمكارم أعلاّمٌ تعلنا | مدح الجزيلين من بأس ومن كرم |
| ١٠ ولعلّى أنسٌ تنى محامدها | على الجيدين من فعل ومن شيم |
| ١٢ أقمتُ بالعازم المصوم معتقدا | فوزَ النجاة وأجر الير في التَّهم |
| ١٣ لقد حيى الدينَ والدنيا وأهلها | وزبرهُ الصالح الفراج للشم |
| ١٤ اللاسُ الفخرُ لم تنسج غلائله | إلا يدُ الصانعين السيفُ والقلم |
| ١٥ وجوده أوجد الأيام ما اقترحت | وجوده أعدم الشاكين للعدم |
| ١٦ قد ملكته العوالى رِقٌّ ملكة | نُعيمُ أنفِ الثريا عرة الشم |
| ١٧ أرى مقاما عظيم الشأن أوهمي | في يقطى أسها من جملة الحلم |
| ١٩ ليت الكواكب تدنو فأنظنها | عقود مدحٍ فإرضى لكم كلّي |
| ٢٠ ترى الوزارة فيه وهي باذلة | عند الخلافة نصحا غير متهم |
| ٢٢ حليلةٌ ووزير مددٌ عدلها | ظلا على مَعْرِق الإسلام والأمم |
| ٢٣ زيادة الليل نقصٌ عند فيضها | فأعسى بتعاطى مِنّة العديم ^(١) |

ولقد ذهب الخليفة الفاتز و وزيره في استحسان هذه القصيدة كل مذهب ، كما يحدثنا بذلك عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع إليه نورير خمسمائة دينار ، وأنته مثلها من السيدة أحت الخليفة . يصف إلى ذلك

هذه الرسوم التي أطلقت له من دار الضيافة في مناسبات كثيرة مما لم يطلق لأحد قبله ، وما كان أيضاً من الولائم التي أقامها أسراء الدولة في بيوتهم تكريماً له ، ومن نظمه في سلك جلساء الوزير ، يدل عليه ما ذكره عمارة وهو : « فأوسنى إكرامها توقيراً وإناسها توقيراً »^(١).

بقى عمارة في مصر يرح في بمبوعة الرقاعة والمجد . وقبل رحيله زمن قصير ، أشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ، فنفحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير ابن رزيك مائتي دينار لقصيدة أخرى أنشدها له في داره كما كان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعي اليمن السابق وقد مات ، فأشير على ولده ووريثه أن يعدل عن دعواه في المطالبة بها . ومحدثنا عمارة عن هذه المسألة يقول : « فلما وقف عليه (كتاب الوزير إليه) صاحب عدن ، أسقط عن الآلاف الثلاثة وأرأى منها »^(٢).

ولما مات ابن رزيك آلت الوزارة إلى شاور^(٣) ، فقتله أعياءها نسمة أشهر^(٤) . فقرب هذا الوزير عمارة إليه ، وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ، فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته مرتين في كل يوم ، ونال الخبير الكثير على يديه . ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك^(٥) وذوى قرباه وغيرهم من الأمراء ، وختم هذا الشاعر قوله بهذه الكلمات : « ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت قدوم هُنت بدم »^(٦).

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن إليه الوزير الصالح بن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان ، ومحبه لما امتاز به من حسن الصبغة وسمو اللوالب ، على الرغم من اختلافه عنهم في العقائد للذهبية^(٧).

(١) المصدر نفسه ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨ و ٤٠

(٣) التكت المصرية ص ٦٨

(٤) المصدر نفسه ص ٧٣

(٥) المصدر نفسه ص ٩٣ - ١٢٠

(٦) المصدر نفسه ص ١٢٠

(٧) ابن علكان ج ١ ص ٤٧٦

ولقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار إلى ذلك في ديوانه بيضمة أبيات . خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي . ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه . ولكن عمارة لم يكن بالرجل الذي تنفع معه الحيلة . فرفض في شيء من الحصافة ، ولم يتأثر بنصح الوزير^(١) . ويشير عمارة إلى هذا الاختلاف في العقيدة الذي كان بينه وبين الفاطميين في هذا البيت :

مذاهبهم في الجود مذهب سُنَّة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع^(٢)

ولما مات ابن رزيك في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم أشعاره ، وظل على ولائه لفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم ، وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب ، من أمثال ابن واصل والقلعشندي والقريري . ولقد نظم عمارة شعراً كثيراً في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاص هذا الرجل لفاطميين أفساه عن عطف هذه الدولة الجديدة . ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين ، وعنوانها : « شكاية للتظلم ونكايه المذموم »^(٣) .

ولا عرو فان تحيز عمارة لفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته الحافلة بشنقه في رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) لانتهاكه بالاشترار في التأسر لإعادة سلطان الفاطميين^(٤) .

(د) النشر :

ومن الكتب التي تعرضت للكلام عن هذا العصر كتاب « المقد القريد » لابن

(١) ليكت المصرية ص ٤٥

(٢) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و ٤٩٣

(٣) ديوان عمارة الجزء ١ ص ٢٨٧ - ٢٩١

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٧ - ٢٨٨

ابن دقاق (ج ٥ ص ٩٣ - ٩٤) ، مقلا عن ابن التوج (+ ٧٣٠ / ١٣٣٠) في كتابه غلط مصر المسمى بزياد المتنقل وانماظ التأمل . انظر الحاشية التي كتبها ميو ديربور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢)

عبد ربه^(١) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، وكتاب «الأغاني» لأبي القرج الأصفهاني^(٢) المتوفى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ، «رسائل» الخوارزمي^(٣) المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) ، و«رسائل» بديع الزمان الهمذاني^(٤) المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ - ١٠٠٨ م) - وهذه الرسائل تصف لنا العداء بين السنين والشمسين - وكتاب «الفهرست» لابن النديم^(٥) المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) ، «ونشوار المحاضرة»^(٦) للتنوخي^(٧) المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) .

وهناك أيضا كتابان من الكتب التي ألقت في عهد الفاطميين : وهما «ديوان الشريف الرضي» المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ، والرسائل التي يطلق عليها «رسائل الحاكم بأمر الله والفاطميين بأمر دعوته» ؛ كتبها في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ - ١٠١٨ م) كثيرون من الجماعة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢١ م) . ويعتبر المؤرخون قصيدة الشريف الرضي ذات شأن في هذا الموضوع^(٨) . وعلى الرغم من أنها لم تظهر في ديوانه بادئ ذي بدء ، أجمع كثير منهم على صحة نسبتها إليه - على ما سيظهر بعد - بدليل إسنادها إليه في كثير من المصادر التي عاش كاتبوها بعد الشريف الرضي .

ومن كتب الأدب التي ظهرت في العصر الفاطمي : كتاب «بتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي^(٩) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)^(١٠) ، وكتاب «سقط الزبد» و«الزروميات»

(١) ياقوت : إرشاد الأديب ج ٥ ص ١٤٩ - ١٦٨ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٣) الثعالبي ، «بتيمة الدهر» (ج ٢ ص ١١٤ و ١٢٥ و ١٢٦) والسماقي «كتاب الأنساب»

ورقة ٢٠٩ ب ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٢٣ - ٦٢٤) .

(٤) ياقوت «إرشاد الأديب» ج ١ ص ٤٠٨ . ابن خلكان ج ١ ص ١٠ - ١١ .

(٥) ياقوت «إرشاد الأديب» (ج ١ ص ١٤٦) . قال الأستاذ مر جليوث في مقعته لكتاب «وتجارب الأمم» لمسكويه (ص ٨) إنه لم يكشف لأن إلا جزء واحد من أجزاء هذا الكتاب الأحد عشر .

(٦) الثعالبي ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٥ . ياقوت «إرشاد الأديب» ج ٦ ص ٢٥١ - ٢٦٧ .

ابن خلكان ج ١ ص ٥٦٣ - ٥٦٥ .

(٧) ديوان الشريف الرضي ص ٩٧٢ - ٩٧٣ .

(٨) ذكر السماقي (كتاب الأنساب ورقة ١١٥ أ) أن الثعالبي كان يخط جلد الثعالبي ، فاشتق

اسمه من هذا القلط .

انظر أيضاً ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦) وأبنا القفا (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٩) وردت هذه السنة في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) وأبنا القفا (ج ٢ ص ١٧٠) ، وذكر

وستنغلد في كتابه Gesch. der. Ar. رقم ١٩١ : سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ .

لأبي الملاء المرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) يمثل هذه الفوائد .

(٥) الفلسفة :

١ — إخوان الصفا

من أشهر فلاسفة العصر الفاطمي هذه الطائفة التي تعرف باسم « إخوان الصفا » . وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، حتى قيل إنها إسماعيلية^(١) . وكانت هذه الطائفة — كما يقول الأستاذ براون^(٢) — موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة ، وحلوا ردها من الزمن محل المنصر التركي ، وأصبح لهم النفوذ الفعلي التام في بغداد حول منتصف القرن الرابع (٢٣٤ / ٩٤٥) . ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتم ما بدأه المنزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف .

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة . وقد أخذوا كثيراً من مبادئ الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة ، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً^(٣) . وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف ، وتدل في الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرق العقلي . وتتألف دائرة المعارف هذه من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعي ، ولها من وراء هذا أغراض سياسية . وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر في الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف . ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعات ، فتد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى ، وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي .

وجملة القول في آرائهم أنها مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ماعاماه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من

(١) يرى البعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الإسماعيلية ، وأهم اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم . العلمي ؛ وكان لم فرع في بغداد .

(٢) Lit. Hist of Persia, Vol. 1 p 292.

(٣) دي س : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥ .

كفاح ، وما استهدقوا له م وأسلافهم من ظلم ؛ وتبين منه ما كان يخرج في نفوسهم من أمل ، وما تواصوا به من الصبر . وهم يلتصقون في هذه الفلسفة الروحية سلبى لنفوسهم أو تطهيراً لها . وهذه الفلسفة هي دينهم ، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى للموت ، لا اعتقادهم أن ملاقة الموت في سبيل صلاح الإخوان هي الجهاد الصحيح . وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض^(١) ، فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه في هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده ، فيجب على ذى المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله ، وعلى ذى العلم أن يعلم أحياه الجاهل . غير أن العلم — كما نراه في رسائل الإخوان — حبس على خاصة المتبصرين من أفراد الطبقة العليا^(٢) .

من هذا رى أن الفرض الذى كان يرمى إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم . ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم ؛ فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم في التأويل . كما أن الفلاسفة ، وللتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم العقلية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر في الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتابتهم طوائف الإسماعيلية ؛ كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية في فارس والشام ، كما أفاد آخرون في تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا^(٣) .

وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من العلماء من مؤلفي هذه الرسائل وهم : أبو سليمان محمد بن نصر البستي ، ويسى أيضا المقدسى (أو المقدسى) ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجورى (أو المهرجنى) ، والموقى ، وزيد بن رفاعه . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسى كما يتضح من أسمائهم . وكان من بينهم أيضاً ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذى « انتهت بهوته » (سنة ٤٢٨ هـ) — كما يقول Dietrich^(٤) — حركة الفلسفة في الشرق^(٥) .

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) دى يور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٨٦ م . ونشرت أيضاً في ثلاثة أجزاء (مجلد ١٣٠ هـ) في ثلاثة أجزاء ، تصنيف أحمد بن عبد الله .

(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I, p. 293 .

٧ - أشهر فلاسفة الإسماعيلية

(١) أبوحاتم الرازي (٢٢٢ هـ)

أنجبت الدعوة القاطمية في الشرق في عهد عبيد الله المهدي دعوة هلاء ، كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف ، حيث أخذوا على عاتقهم النضال في الدفاع عن الدعوة بالفلم واللسان ، والعمل على جذب العامة والأسراء بنفس هذا السلاح الملى الخطير . ومن هؤلاء الدعاة : أبوحاتم الرازي ، وبسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازي الوردستاني . وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الرى ؛ ويمثل نشاط الدعوة القاطمية في عهد إمامة عبيد الله وخلافته . وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في شمال إفريقيا ، واستغل رواج هذه الدعوة في بلاد فارس منذ أيام عبد الله ابن ميمون القداح ، فدخل كثير من أهالى هذه البلاد في المذهب الإسماعيلي^(١) .

وكان أبوحاتم من كبار دعاة الإسماعيلية ، واشتهر بدعوته إلى المذهب القاطمي ، ولعب دوراً عظيماً في الشؤون السياسية في طبرستان والديلم ، ولا سيما في أصفهان والرى ، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة ، مثل أسفار بن شيرويه وسرداويج بن زيار^(٢) وغيرهما . وكان لجهود أبي حاتم أثر فعال في اتصال سرداويج بعبيد الله . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء اشارة سفراء عبيد الله المهدي إلى أسراء للشرق وعامته .

ويرى بعض السنين أبا حاتم الرازي بكثير من التهم ، فيذهب بعض إلى أنه باطنى زنديق . وبسميه بعض آخر باعتناق مبادئ التثوية والدمرية^(٣) الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له . وهذه اتهامات يرمى بها السنين جميع دعاة الإسماعيلية تقريباً . ومهما يكن من

(١) فقه المالك : سياسة قامه ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) من أنديلم ، وكانوا جميعاً يهاون إلى الشيعة . ومن قواده علي بن بويه رأس البويعيين . يقول السيراط (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) : كان " يريد قصد بغداد وأنه مسلم لمصاحب الجوس ، وكان يقول : أنا أ - دولة المعجم وأمن دولة العرب " . كما كان على صلة بعبيد الله القاطمي ، فهأياه وعرض عليه مساعدته حسب " يمت بالمرسل يحملون المال الكثير للمهدي في شمال إفريقيا ، وأعلن رغبته في الدخول في طامته " . ومات سنة ٢٢٢ هـ بعد أن فتح الرى وأصفهان وطرده سيده أسفار .

(٣) الدهادي الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ . ابن التميمي : القهرست ص ٢٦٦ . نظام الملك . سياسة

قامه ج ٢ ص ٢٤٧ .

شيء فإن هذه الاتهامات لا تقتل من أهمية أبي حاتم ؛ فقد كان علماً من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في فارس في القرن الرابع الهجري ، كما استغل هذه النهضة ذاتها في الإشادة بإمامة عبيد الله المهدي وتقديسه .

عاصر أبو حاتم الرازي عبيد الله إماماً وخليفة ، لذلك كانت له نظريات كثيرة في مبدأي السر والظهور ، حتى قالوا عنه : إنه أول من وجّه هذين المبدأين في الإسلام توجيهاً جديداً . وعلى الرغم من أن إخوان الصفا كثيراً ما أوردوا في رسائلهم لفظي « الكشف والستر » (أو السر) ، لم يقصدوا بهما — كما قال الدكتور حسين المهداني — ما كان يقصده أبو حاتم ، كما فعل الفلاسفة الإغريق الآخرون بذكرهم معاني الكشف والسر . بخلاف ما يقصده الإسماعيلية^(١) ، الذين ذهبوا إلى أن « السر » الإسماعيلي ، هو الدور الذي يعمل فيه الإمام مخفياً في دار هجرته ، والذي ينشط فيه دعائه في نشر الدعوة . وأما دور الظهور أو الكشف الإسماعي ، فهو الدور الذي تشرق فيه شمس الإمامة على الكون ، فيظهر الإمام للستور ، كما ظهرت الشمس من مفرجها بظهور المهدي .

ومن أهم مؤلفات أبي حاتم الرازي : كتاب « الزينة » ، ويحتوي على ١٢٠٠ صفحة . وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمي ؛ وتناول فيه الأمور الفقهية ، وفلسفة ما وراء الطبيعة ، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية ، والمعلومات الجغرافية القيمة . ويقول الإسماعيلية إن ذلك الكتاب يبحث في اللغة وحدها ، ولذلك لا يمدونه من كتبهم السرية .

ومن مؤلفات الرازي كتاب « أعلام النبوة » ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الإسماعيلي . وقد تناول فيه الكلام على نظريات الإسماعيلية في الرسل ، وفي الله تعالى ، وفي النفس والهيولى والزمان والمكان ، وغيرها . وفي هذا الكتاب يرد الرازي على أحد الزنادقة الملاحدة . ولا يقل كتاب « الإصلاح » أهمية عن هذه الكتب . وقد ذكره حميد الدين الكرماني . داعي الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس . ويتكون من ٥٥٠ صفحة ، وترجع أهميته إلى ما أورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية ، وما ذكره

من الأنبياء^(١). ويذكر ابن التديم^(٢) له كتاب «الجامع» ، وليس له الآن وجود ، كما أنه غير معروف للبهرة من الإسماعيلية .

من هذا نرى كيف أسهم أبو حاتم الرازي في الإشادة بعبيد الله المهدي ودولته ، وفي النهضة بالمذهب الإسماعيلي في شرق الدولة الإسلامية ؛ كما أسهم في نشر الثقافة الإسلامية عامة ، فتكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما إلى ذلك ، وحاول في هذا كله أن يشرح نظريات الإسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فإنه لم يسلم من اضطهاد السنيين ، وخاصة الديلمية ، واضطر إلى الاختفاء في آخريات حياته ، ومات ، على ما يقال ، في سنة ٣٢٢ هـ ، وذلك بعد تولية الخليفة الفاطمي القائم بقليل .

(ب) أبو عبد الله النفسى (٣٣١ هـ) :

ومن هؤلاء الدعاة العلماء أبو عبد الله بن أحمد النفسى البزعي الذي قتل في سنة ٣٣١ هـ في غضون المحنة الكبرى التي ألمت بالإسماعيلية للشرق . وكان قد تنلمذ على الداعي الأمير الحسين بن علي المروروزي ، داعي خراسان ، وكان الحسين قد استجاب للداعي غياث ، كما كان من أعظم تلامذته علماً ودراية . وقد نهج النفسى نهج أستاذه المروروزي في التقرب إلى أمراء عصره ، وإلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني ؛ فلم يتوان في أداء مهمته على أكمل وجه ، حتى استطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان . و. يكثف بما أحرز من نجاح في هذه السبيل ، بل عبر نهر جيحون وأبحه إلى بخارى ، حيث نجح نجاحاً هائلاً .

وكان لمؤلا الأسماء الفضل في معاونة النفسى ببخارى ، حتى تحول كثير من رجالانها إلى المذهب الإسماعيلي . ويفصل هؤلاء وجد النفسى طريقه إلى قلب نصر بن أحمد الساماني ، الذي رجب عبادته وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة قريبة تمكن بها النفسى من جذب نصر بن أحمد ورجال بلاطه إليه . وكان نصر من أكبر معارضي المذهب الإسماعيلي ، فقص على أستاذ النفسى وسجنه حتى مات . وقد استغل النفسى كل هذا

للإشادة بزعامة عبيد الله المهدي ؛ فطلب دية أستاذه ، ومقدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها إلى الخليفة الفاطمي ، فكات موافقة الأمير الساماني على دفع هذه الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الإسماعيلي أولا ثم لعبيد الله المهدي ثانيا^(١) .

وفي الحق إن علاقة النفسى بالبيت الساماني تكون فصلًا ممتازًا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ببلاد المشرق في عهد عبيد الله الفاطمي ؛ فقد أصبح هذا الداعي للعالم صاحب الأمر والنهي في دولة نصر بن أحمد الساماني ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهوده في جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلي سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ، وخصوصا بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلي .

وبما آل إليه مصير النفسى ، نستطيع أن نتبين مدى تغفل للمذهب الإسماعيلي في خراسان و بلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع أن نشاهد لونا من ألوان إخلاص الدعاة لمذهبهم وتخليقتهم الفاطمي ، كما استدل على مدى ما كان يدايه الدعاة المخلصون من عنت واضطهاد . فيرى ابن النديم^(٢) أن نصر بن أحمد الساماني ندم في أخريات حياته على ابداعه وراء النفسى ؛ ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أغموه ، قتله وقتل معه كثيرين من رؤساء الدعاة ووجوههم من قواد نصر الذين دخلوا في المذهب الإسماعيلي .

ويرى نظام الملك أن قواد نصر من السنيين دروا مؤامرة على العرش الساماني ، لانضمام صاحبه إلى المذهب الإسماعيلي ، وتقر به من الإسماعيلية أنصار هذا المذهب . وقد استقر رأيهم على عزل نصر وتنصيب كبير قواده على العرش ، وعولوا على إقامة حفل كبير يملكون فيه بدء تورتهم . إلا أن أحد المجتمعين أفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح ، فتمحايلا على كبير القواد وقتلاه ، ثم خلع نصر بن أحمد نفسه ، وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية بعد أن قتل النفسى^(٣) .

وإن ما حل بهؤلاء الإسماعيلية بعد نكبة كبرى ، حتى إهم أطلقوا عليها اسم « الحنة

(١) طه أحمد شرف ، تاريخ الإسماعيلية السياسية مخطوط ج ١ ورقة ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٦ .

(٣) رسالة فامة ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

العظمى». ولا غرو فقد كان لهذه الحقبة أثرها في وقف انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٨٣١ هـ)، إلى أن رفع ناصر خسرو^(١) منارها بعد قرن ونصف قرن تقريباً. ثم تبعه في ذلك الحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس الدعوة البرارية في خراسان وفارس والشام. وهكذا قام التسقي بدور خطير في الناحية السياسية بتأليف جبهة قوية موالية لعبيد الله المهدي، كما قام بدور خطير أيضاً في الناحية المذهبية بشهر المذهب الإسماعيلي في خراسان وما وراء النهر.

أما من الناحية العلمية، فقد فاق التسقي كثيراً من الدعاة العلماء ولا غرو فقد ذاعت شهرته في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي، كما كان من أحرار الرأي في خراسان. ومن أشهر مؤلفاته كتاب «المحصل». ويظهر أن هذا المؤلف من الكتب التي تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلي؛ وقد جاء فيه، على ما ذكره صاحب كتاب «الفرق بين الفرق»^(٢). أن المبدع الأول أمدع النفس، ثم إن الأول والثاني مدر العالم بتدبير الكواكب السبعة والطالع الأربع. ويرى البغدادي: «أن هذا في التحقيق معنى قول الجوسس: إن اليزدان خلق أهرمن، وأنه مع أهرمن مدران للعالم؛ غير أن اليزدان فاعل الخيرات، وأهرمن قاع الشرور». وقد لعبت يد الدهر بهذا الكتاب، ولا نعرف عنه شيئاً إلا عن طريق السكرماني، داعي الحاكم، في كتابه «الرياض». وكان التسقي في هذا الكتاب يرى إلى التوفيق بين أئمة الرازي وزميله أو تلميذه أئمة يعقوب السجستاني.

ولم يكن هذا كل ما بذله التسقي من جهد في التأليف؛ فقد ألف أيضاً كتاب «عنوان الدين»، وكتاب «أصول الشرع»، وكتاب «الدعوة المنجية»^(٣)، وكتاب «كون العالم»، وهو خاص بالملك ووصف العوالم «الكورموجراف»، لكنه مؤسس على المبادئ الدينية، وقد أثر عليه ضمن مجموعة خاصة ومن الغريب أن ذلك الداعي العالم الفيلسوف غير معروف لإسماعيلية اليوم^(٤).

(١) ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة في عهد المستعصر العاطمي الذي عينه قائماً له «حجة» وخراسان وماشجان؛ فكانت جماعة هناك يعرفون بالناصرة، وهم يفتخرون اليوم لأغخان.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٧٨.

(٣) ابن القيم: الفهرست ص ٢٦٨.

(٤) Ivanow A Guide to Ismaili Literature, p. 35

(ج) أبو يعقوب السجزي (٣٣١ هـ) :

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلي ودعائه : أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني ، ويلقب ددان : وكان من كبار الدعاة ، كما كان اليد اليمنى للداعي السفي . وكان الجدل والمناظرة يقومان على قدم وساق في مسألة النبوة التي شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقد أولى الملاسفة وأحرار الرأي هذا الموضوع كثيراً من العناية ، حتى أضى عامة الدعاة الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي من أحرار الرأي ، أو على الأقل ، كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار الحرية في الرأي . وقد أدرك أبو يعقوب السجزي هذه النهضة ، وهذه المساجلة العلمية ، وأدرك أستاذه الرازي الداعي الأول ، ورآه يناظر الطيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي في كتابه « أعلام النبوة » . فسام أبو يعقوب في هذه المناظرة ، واتخذ من الفلسفة سلاحاً شهرة على نقاد المذهب الإسماعيلي ؛ فكان هذا علماً من أعلام الدعاة الإسماعيلية ، وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي ^(١) .

ولأبي يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي في ذلك الحين بوجه عام ، وفي نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . وقد ذكر البغدادي ^(٢) بعض هذه المؤلفات فقال : « وصنف لم أبو يعقوب السجزي كتاب « أساس الدعوة » ، وكتاب « الشرائع » ، وكتاب « كشف الأسرار » . وذكر إيفانو أكثر من عشرين مؤلفاً للسجزي ، ولا يزال أكثرها يتمتع به البهرة — وهم الإسماعيلية الحديثون — اليوم . ولا نستطيع أن نتبع كل هذه المؤلفات بالبحث ، وإنما نتناول أهمها وأعظمها أثراً .

١ - كتاب إثبات النبوة ، وينقسم إلى سبع مقالات ، ونسبه المقالة الباب ، وتنقسم كل مقالة إلى اثني عشر فصلاً . ويتناول السجزي في كتابه هذا موضوع إثبات النبوة من جميع النواحي ، أي من الناحية الطبيعية والناحية الروحية ، وغير ذلك ، ويتعرض لذكر الأمور التي تتفق عليها الرسل ، والتي يختلفون فيها . وأهم من هذا كله ما ذكره

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ .

السجزي من أدوار الرسل ، والأدلة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرض لما أسماه عجائب القرآن والشريعة^(١) .

٢ — كتاب الينابيع ، وهو في حوزة البهرة ، وينقسم إلى أربعين ينبوعاً ، تناول فيه موضوعات كثيرة أهمها : « ماهية المبدع » ، وعالم العقل والفس ، والزمان والمكان والهيولى ، وسبب الخلق ، وبدء الخليقة ، والملائكة ، وعدم قابلية العقل للفناء ، ومعاني الجنة والنار ، ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم ، والوحدة والتعدد ، والبهت والنواب والمذاب ، والفرق بين تأييد الله وتأييد الخلق^(٢) . ويرى الدكتور حسين المهداني أن الدعاء كما يترسمون في مولفاتهم نظام التأليف الذي سلكه أبو يعقوب السجزي في كتابه « الينابيع » ، حتى إذا إذا وزا بين كتاب زهر المعاني القيم ، الذي ألفه الداعي إدريس عماد الدين عن الدعوة الإسماعيلية ، وبين كتاب الينابيع هذا ، لوجدنا أن الخطوة التي انتهجها الداعي إدريس هي نفس الخطوة التي انتهجها السجستاني من قبل^(٣) .

٣ — كتاب الموازين ، وقد قسمه السجستاني إلى تسعة عشر ميزاناً ، تكلم في كل كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلي بصلات وثيقة : فتناول في أحد موازينه « معرفة الحقيقة » ، وفي آخر وجوب معرفة « المبدع » ، وفي آخر « العقل » ومعرفة أسننه ، كما فصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن « الأصولين »^(٤) (العقل والعس) . ومن أهم هذه الموازين ما وقعه على النطقاء ، والأسس والأئمة ، والحجيج والدعاة ، أي غير ذلك من الموضوعات التي تقيد الباحث في تاريخ التطور العقلي للمذهب الإسماعيلي^(٥) .

٤ — كتاب النعرة ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذي نسبناه إلى النسفي ، وإن كان بعض الإسماعيلية ينسبونه إلى الكرماني ، داعي الفاطميين في فارس في عهد

(١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 31, 3. .

(٢) Ivanow : Ibid., p. 33 .

(٣) Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A S., 1933), p. 267 .

(٤) الأصول - هما العقل والفس ، والفروع الثلاثة : هي الزمان والمكان والهيولى .

(٥) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 34 .

الحاكم بأمر الله؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع، وأن الكرمانى كان قد اطلع عليه وأشار إليه في كتابه.

هؤلاء هم أشهر دعاة عبيد الله في بلاد المشرق. وقد استطاعوا أن يرفعوا علم الدعوة هناك عالياً، وأن يجذبوا الأسماء إلى عبيد الله المهدي. وأم من ذلك كله أنهم أسهموا في النهضة الإسلامية العقلية في ذلك الحين؛ فلم يكونوا كثير من علماء المذاهب الأخرى، في عزلة عن الحياة الثقافية التي تحيط بهم. ويظهر أن مدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله، كان لها أثر كبير في تربية هؤلاء الدعاة الحيوية والمبادئ التي تساعد على جذب الناس إليهم، كما كانت تمد هذه البلاد من حين إلى حين بدعاة درسوا في تلك المدارس، وتخرجوا على كبار أسانذتها^(١).

(د) أبو حنيفة النعمان المغربي (٣٦٣ / ٩٧٣ — ٩٧٤):

ينسب أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون إلى قبيلة تميم. ويسميه الإسماعيلية «سيداً القاضى النعمان» ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى المشهور كما يسمونه أحياناً باسم «سيداً الأوحى»، وأحياناً «القاضى الأجل»؛ ويعرف عندهم أيضاً بأبي حنيفة الشيعة^(٢).

عاصر أبو حنيفة الفاطميين في المغرب، واعترف غير مرة أنه دخل في خدمة عبيد الله الفاطمى حول سنة ٣١٣ هـ (٩٢٠ م) وكان النعمان مالئاً للمذهب كسائر أفراد أسرته، ثم انتحل للمذهب الإسماعيلى فأخلص له. وكان عمله الرئيسى في أيام المهدي والقائم والمتصور مقصوراً على الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الإسماعيلى، كما تولى القضاء في طرابلس في أيام القائم، واتخذ للمتصور والمزقاضيا لها. ولما جاء إلى مصر كان أحد أبنائه يتقلد منصب القضاء. وعلى الرغم من بقاء أبي طاهر القاضى السنى في منصبه كانت ريادة القضاء الفعلية في أسرة النعمان.

وبعد النعمان من أهم دعاة الدعوة الإسماعيلية. ويذهب الداعى إدريس عماد الدين

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: عبيد الله المهدي من ٢٤٥ وما يليها.

(٢) Fayzee: The Ismailian Law of Mut'a (J.B.B.R.A.S. 1929) p. 85.

إلى أن التعمان كان مشرعاً ، وأنه كان دعامة من دعائم المذهب الإسماعيلي . وعلى الرغم من أن كتاب « العميون » للداعي إدريس لم يذكر رتبته في الدعوة ، فإنه من الأرجح جداً أن يكون قد وصل إلى رتبة الحجة^(١) ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه اشتغل بالقضاء . ويقول ابن خلسكان^(٢) عن التعمان : « قاضيه الواصل من المغرب معه ، أبو حنيفة التعمان بن محمد الداعي » . والحق أن أبو حنيفة التعمان كان رئيساً للقضاء كما كان داعياً .

وقد أثار الدعوة الإسماعيلية بكثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي ، وفي المناظرة ، والتأويل ، والمقائد ، والسير ، والتاريخ ، والوعظ ، وغير ذلك . ومن الثابت أن التعمان ألف بضعة وأربعين كتاباً ، بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتاباً ، وضاع الباقي .

وأهم هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام » ، واسمه الكامل « دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام » . ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة . ويعتز به البهرة في اليمن والمهند . وبذهب الداعي إدريس في كتابه « العميون » إلى القول بأن الخليفة المزمع هو الذي حث التعمان على تأليفه ، وكان قد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة ، فتناولوا الكلام على الأحاديث الموضوعة ، والاختلاف في الرواية ، فذكر لهم المزمع الحديث المشهور : « إذا ظهرت البدع في أمة ، فليظهر العالم علمه ، وإلا فاعليه لعنة الله » . ونظر المزمع لذين الله عليه الصلاة والسلام إلى القاضي التعمان بن محمد ، رضوان الله عليه ، فقال : أنت المسمى في هذه الأوراق يا سنان ، ثم أمر بتأليف « دعائم الإسلام » ، وأصل أصوله . وفرغ فروعه ، وأخبره مصحيح الروايات عن الطاهرين من آباءه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) .

ويعد كتاب الدعائم أهم المراجع في فقه الإسماعيلية . وقد استغل التعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب ، حتى إننا نراه يزيد قواعد الإسلام ، فيجعلها سبعا ، ذلك العدد الذي يقضيه الشيعة عامة ، فيضيف « الولاية » ، وهي حب أهل البيت ، ثم « الطهارة » إلى القواعد الخمس المعروفة عند السنيين^(٤)

(١) Fayzee : Kadi an-Numan (J.R.A.S., 1934), p. 12

(٢) وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) حماد الدين إدريس : عيون الأعيان (المجلد الأسبوعية الملكية سنة ١٩٣٤) ص ٢٢ .

(٤) H. Hamdani : (J.R.A.S., 1933), p. 369.

وقد أخذ دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب الدعائم في أحكامهم ، كما أخذ الخلفاء الفاطميون يشجعونهم على ذلك . فقد أرسل الخليفة الحاكم (٤١١ هـ) في شهر ذي القعدة من سنة ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) إلى هارون بن محمد داعية في بلاد اليمن ، رسالة جاء فيها : « ولتكن فتواك للمستفتين في الحلال والحرام من كتاب دعائم الإسلام دون سواء من الكتب المتفلة ^(١) » . كما نهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه « مصنف الوزير » مسجع كتاب الدعائم . وأطنب الدعاة المتأخرون في مدح هذا الكتاب ، فدكروا « حميد الدين السكرماني » داعي الحاكم في طرس ، في كتابه « راحة العقل » ، وأشاد به حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث . وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم في مجالسه التي كان يلقبها على أبي كاليبجار البويهى . وفي ذلك يقول المؤيد ^(٢) : « وكان بناء المجلس التي تعقد محضرته في ليالى الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن ، وينتهى من كتاب دعائم الإسلام » .

وقد ترك النعمان المغربي في مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته ، لا يزال أكثر ما بقي منها في حوزة البهرة . وقد أعاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات . ولا غرو ، فإن النعمان ضرب بسهم في جميع النشاط العلمى . ومن أم كتبه ، كتاب « الإيضاح » ؛ وكان مطولاً جداً ، حتى قيل : إنه شغل مائتين وعشرين كراسة ^(٣) .

ومن كتب النعمان : كتاب « الزبوع » ، وكتاب « مختصر الآثار » ، وكتاب « الطهارة » . ومن كتبه الفقهية التي لعبت بها بدا الدهر : كتاب « مختصر الإيضاح » ، وكتاب « كيفية الصلاة » ، وكتاب « مهارج الفرائض » وغيرها .

وما يؤسف له أنه لم يثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التي ألف فيها « الرسالة المصرية » في الرد على الشافعى ، و « الرسالة ذات البيان » في الرد على

(١) أى الفتاوى والدعوى .

Fayzee . Cadi An-Numan (J.R.A.S. 1934), p. ٤٥.

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦٢

Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S 1933), p. 369. (٣)

ابن قتيبة ، وكتاب في الرد على أحمد بن مريح البغدادي ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » .

وقد بقي للنعمان من كتب التأويل كتاب « أساس التأويل » ، وكتاب « تأويل الدعائم » . وقد ضاع من كتبه في هذه الناحية كتاب « نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل » .

وبما حلفه النعمان من كتب العقائد : كتاب « للقصيدة المختارة » ، وكتاب « المهمة » . ومن مؤلفاته في العقائد التي لعبت بها يد الدهر : كتاب « الدعاء » ، وكتاب « الشروط » ، وكتاب « التصانيف » « التعاقب والانتقاد » ، وكتاب « الحلى والنياب » .

أما كتبه في الأخبار والسير ، فقد بقي منها كتاب « شرح الأخبار » ، وقد ضاعت الأرجوزة التي تسمى « ذات اللين » ، والأرجوزة المسماة « ذات الحن » . ومن أشهر كتبه التاريخية « افتتاح الدعوة الزاهرة » ، وهو من الكتب الخطية المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة . وقد اقتبس منه المقرئ وغيره من المؤرخين ، وكتاب « مناقب بني هاشم » ؛ ولم يقف له الناس على أثر .

ومن مؤلفات أبي حنيفة النعمان في الوعظ ذلك للكتاب الممتع « المجالس والمساربات » الذي سقتدول الكلام عليه فيما بعد ، وكتاب « معالم الهدى » و « الرسالة إلى المرشد الداعي بهر في تربية المؤمنين » ، وقد ضاع كل منهما للأسف .

ومن الكتب التي تنسب إلى أبي حنيفة النعمان : كتاب « تأويل الرؤيا » ، وكتاب « منامات لأئمة » ، وكتاب « التفرع والتصنيف » ، وكتاب « مفاتيح النعمة » ، وقد ضاعت كلها ، كما ضاع من كتبه في الحقائق كتاب « حدود المعرفة » ، وكتاب « في الإمامة » . وكتاب « إثبات الحقائق » ، وكتاب « التوحيد والأمانة » .

ومن الكتب التي تنسب إلى النعمان ولم تثبت صحة هذه النسبة بعد : كتاب « تقويم الأحكام » ، وكتاب « الراحة والتسوية » ، وكتاب « سيرة الأئمة » ^(١) .

وبما تمتاز به تأليف النعمان ، عدم الإغراق في التأويل الذي نلسه في تأليف زميله

جعفر بن منصور البجلي ، ذلك التأويل الذي اشتهر به دعاة الإسماعيلية في الدور القدامى ، أو دور السمر ، وقد أسرف في هذه الناحية دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس خاصة . ولا عجب فقد كان أبو حنيفة النعمان يخاطب عقولا لا تدرك جوهر الفلسفة الإسماعيلية ، ولذلك يعتبر من هذه الناحية خير من يمثل للمدرسة الإسماعيلية القديمة ، التي التزمت عدم إثارة شعور الرعايا المستعبدين على الحكم الفاطمي .

ولنلق الآن نظرة على مؤلفي النعمان القديسين : « المجالس والمسايرات » و « المهمة وفضل الأئمة » .

فكتاب « المجالس والمسايرات » يقع في ثلاث مجلدات ، إلا أنه ينقسم قسمين : يطلق على القسم الأول منهما ، اسم « النصف الأول » ويشمل « المجلد الأول » وهو في ٣٧٣ صفحة . أما القسم الثاني ، فيشتمل على مجلدين يكونان « النصف الثاني » ، ويشملان ٦٧٢ صفحة .

ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » خير ما ألف في وصف حياة الخلفاء الفاطميين في الدور المغربي ، فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز خاصة . ويعد أهم المراجع التي تناولت تاريخ الفاطميين في الدور المغربي . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على شيء غير قليل عن حياة الخلفاء الخاصة ، وعن وصف قصورهم ، وأوقات فراغهم .

وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة ، عن نظام الحكم في عهد المعز . فمن نصائح يسيدها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى أعمال يقوم بها هذا الخليفة . ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتّامين في دولته . كما تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت ، مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما علي بن أبي طالب ، إلى غير ذلك . هذا إلى تصديده للرد على خصوم المذهب الإسماعيلي . ومهما يكن من شيء فإن كتاب المجالس والمسايرات يكشف عن غزارة معلومات النعمان في المسائل القضائية والفقهية ، ويبين أن المعز لدين الله كان — على الرغم من صغر سنه — أستاذا لهذا العالم المبهري ، ومن نوابغ علماء عصره .

ويستبر كتاب « المجالس والمسايرات » من أم المراجع التاريخية المعاصرة المزم ؛ فقد تناول في أسباب علاقة المزم بالأمويين في الأندلس ، وشرح أسباب العداء الذي قام بينهم وبين الفاطميين ، ووازن بين حقوق كل من هذين الفريقين ، كما كشف عن مخاوف عبد الرحمن الناصر الأموي من أساطيل المزم ، وخوفه على عرشه من أن يقع في أيدي الفاطميين كما تكلم على الحملات البحرية التي شنّها المزم على الناصر وخلفائه ، وعرض لجهود الأمويين في إفريقية . ولأول مرة في تاريخ الأندلس ، يتصل عبد الرحمن الناصر الأموي بالزم ، يتزلف إليه تارة ، ويهدده تارة أخرى . وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب في الأدب والمنطق ، لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين ، في الإثبات والدفع وما إلى ذلك .

وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المزم بالدولة البيزنطية ، فأوضح اعتماد الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ، وصوّر ما حل بالروم وحلقائهم أمام أساطيل المزم تصويراً رائعاً ، وذكر الرسائل التي بثت بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستئجار عطف المزم ومهادته .

ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة إقريطش (كريت) الذين كانوا تحت حكم المباسيين ، يطلبون النجدة من المزم لدين الله لحرب الروم . ومن دراستنا للنوائق التي تبودلت بين أهل إقريطش المسلمين وبين المزم لدين الله ، نرى مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ .

كما صوّر كتاب « المجالس والمسايرات » موقف المزم لدين الله من صاحب سبجاسة وفاس ، فيبين الأسباب التي أثارت غضب المزم على صاحب سبجاسة ، ويذكر أن ذلك المصعب كان راجعاً إلى تلقيبه بألقاب الخليفة للمزم ، ومنها لقب « أمير المؤمنين » ، كما يعرض لرحلة جوهر الصقلي السكبري على بلاد المغرب (٨٣٤٧) عرضاً يدل على صدق الرواية ونجوى الدقة .

ومن دراسة كتاب « المجالس والمسايرات » ، نرى كيف كانت المزم يروى مصره إلى بلاد انشراق ، ويمد المدة لإحضارها ، ويعني أنصاره بامتلاك الشام ، إلى غير ذلك .

أما من الناحية للذهبية فإن كتاب « المجالس والمسايرات » يعد أم كتب الدعوة الإسماعيلية ، لأن مؤلفه النعمان استمد مادته من الإمام المعز الفاطمي ، وقد عدّه أنصار المذهب الإسماعيلي من أم مراجعهم الدينية .

كذلك يعد كتاب « المجالس والمسايرات » ، قطعة أدبية رائعة ، يمتاز بأسلوب رقيق سهل ، كما يمتاز بانسجام ألفاظه ومعانيه . ولا غرو فقد سمع النعمان عن الخليفة المعز أشهر رجال عصره علماً وأدباً ، ودبجه بأسلوبه القوي الجذاب .

وصفوة القول أن هذا الكتاب سرآة صادقة للأدب الإسماعيلي والمقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه للباحثون في تاريخ الماطيين في الدور المتربى بوجه عام ، وفي عهد المعز بوجه خاص .

أما كتاب « الهمة وفضل الأئمة » فيتكون من جزأين ، يشغل كل منهما ٤٦ صفحة ، وقد قسم المؤلف الجزء الأول إلى ثمانية فصول ، والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلاً .

وترجع أهمية هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٤ ، إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى ، أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة ، وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها .

ويتناول هذا الكتاب بقرنيه الحدود الدينية ، ويهتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين ، وهم الدعاة ، ونحو الأئمة . كما يشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم . فنراه يمدد الفصل الثالث من الجزء الثاني^(١) لنعي « أتباع الأئمة عن الحسد والبغى والشر والحقد وسوء الظن » . ويقصر الفصلين الرابع^(٢) والخامس^(٣) من هذا الجزء على « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالنواضع لله تعالى ولم (أي للأئمة) ، وإطراح (ترك) الكبر والأئمة ، وإعطاء الحق الذي يلزمهم » ، و « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالحلم

(١) كتاب الهمة ج ٢ ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ - ٥٧ .

والفقو والوقار والسكينة . - وأهم من ذلك أن مؤلفه يعمل على تأليف قلوب الأنبياء على ما نراه في الفصل السادس^(١) ، ويختص بما « ينبنى لأتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد والتبادل » . -

ويهدف كتاب المهمة إلى جذب المستجيبين إلى أئمتهم ؛ فيشيد بفضل الأئمة الإسماعيلية كافة ، ويبين حاجة العالم^(٢) إليهم في عبارات خلافة ويحثهم على المستجيبين وجوب « الوفاء بسوء الأئمة ورعايتهم ، وذكر ما أخذ لهم منها^(٣) ، ويبين للأتباع أن اتصالهم بالأئمة والجهد معهم ، جهاد في سبيل الله^(٤) .

وبعد كتاب المهمة من أم وأقدم كتب الاشتراع المالى عند الإسماعيلية ، فيبنى مؤلفه اشتراعه المالى على أسس مستمدة من القرآن الكريم ، تحمل المستجيب على أن يؤدي الأموال للإمام وهو طائع مختار . ولذلك خصص السمان الفصل السادس^(٥) من الجزء الأول لما يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات . - ونراه يقرر على الأتباع وجوب دفع خمس أموالهم لإمامهم ، مستندا في ذلك على بعض الأحاديث النبوية ، وأحاديث الأئمة ، إلى أن يقول : « فاعلموا أيها المؤمنون - كما علمكم الله - أن ما غنمتم من شيء . - أى كسبتموه ، فإن الله خمسة » ، تقتربون به إليه ، و « لرسول » ، تدفعونه إلى إمام عصركم ، ثم إليه الأمر فيه ، وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته ويتاماهم وأبناء سبيلهم^(٦) . وهذا يفسر قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة ولرسول وقضى الفرق - واليتامى والمساكين وابن السبيل »^(٧) . ويؤكد في شرحه وجوب دفع الخمس لإمام الزمان ، لأنه هو الذى حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته .

كما يفسر اعتماد الأئمة الإسماعيلية على قرباتهم من الرسول ، ومحاربتهم العباسيين من

(١) أصدر نفسه ص ٥٧ - ٨٠ .

(٢) سعى الفصل الأول من كتاب المهمة « في وجوب طاعة الأئمة » (ص ٨ - ١٣) .

(٣) وهو عنوان الفصل الثالث من الجزء الأول ص ١٣ - ١٩ .

(٤) كتاب المهمة ج ١ ص ٢٤ - ٣٠ .

(٥) أصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ - ٣٧ .

(٦) كتاب المهمة ص ٢٣ .

(٧) سورة الأنفال ٨ : ٤١ .

هذه الناحية ، فيقولون إنهم أحق بوراثة الرسول من العباسيين ، لأنهم أهل بيته للقر بن . ولم يكف الثمان بحمل الأتباع على دفع خمس أموالهم للأئمة ، فيقول : « ضل جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه في كل عصر ، إلى إمام ذلك الزمان ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أمر الله عز وجل ، مع زكاة أموالهم ^(١) » .

ولكى يربط الثمان بين الأتباع والخلفاء ، عقد عدة فصول أشاد فيها بالأئمة ، وحتم على الأتباع تقديسهم ، والتأديب في طلب الحوائج منهم ^(٢) ، شارحا طرق توصيل دعاويهم إلى أئمتهم . كما نراه ينهى الأتباع « عن إنكار أفعال الأئمة » ، ويأمرهم « بتلقيها عنهم بالقبول » ، ويأمر الأشياع « بتحرى ما وافق الأئمة صلوات الله عليهم ^(٣) » . وبهذا وضع الثمان دستور المذهب الفاطمي ، الذي يجب على المؤمنين (الإسماعيلية) أن يسيروا على هديه مع أئمتهم .

من ذلك نرى أن المزمق أقاد من مؤلفات رجال دعوته ، وبخاصة تلك المؤلفات التي حاول أصحابها ربط الأشياع بإمامهم الخليفة الفاطمي . ويعد كتاب المهمة من الكتب النادرة ، التي ضربت بسهم في دم أوامر المحبة والوفاء بين رياسة الدعوة في المنصورية ثم في القاهرة ، وبين الأتباع في سائر أرجاء العالم الإسلامي .

وقد أهتم الثمان اهتماما بالغا بتحديد العلاقة بين الدعوة ومستجيبهم من جهة ، وبين الأئمة من جهة أخرى ؛ فوضع الخطوط الرئيسية التي يجب على الدعوة أن يسلكوها في جذب الأشياع وحشهم على التبحل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والنفاس لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيرا . وكذلك بين الثمان في كتابه كيف يختار الدعوة مستجيبهم ، فألزهم أن يدرسوا حالة الأتباع النفسية والمعنوية دراسة وافية ، حتى يوصلوا إلى عقولهم المعارف التي يستطيعون تمثيلها وفهمها .

كما ينصح الثمان جماعة الدعوة بالتقرب إلى للدعويين ، فيجبل الداعي من نفسه للربدين أبا وأحبا ومعلما ، ويشير على الداعي بأن يقرب إليه من حسن نيته وصفت

(١) الثمان : كتاب المهمة ج ١ ص ٣٢ .

(٢) انظر الفصل الثامن من الجزء الثاني ، من كتاب المهمة ج ٢ ص ٧٨ - ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٠ - ٨٨ .

سريرته ، دون اعتبار لجاء أو المال . « فإن التقريب على الدين والتفضيل به ، والتزقيع لأهله ، أقرب سبباً إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه »^(١) ؛ كما يظهر أمامهم بمظهر الهيبة والوقار ، مع لين الجانب ، وحسن الصمت ، وقلة الكلام ، مستشهداً بقول جعفر الصادق : « اطلبوا العلم ، وتزبنوا معه بالوقار والحلم ، وتواضخوا لمن تتعلمون منه ، ولن تعلمونه . ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم ... من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وحوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوا مقعده من النار ، إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها »^(٢) .

كذلك يحتم العمان على الدعاة أن يكونوا قضاة نزيهين ، يحكون بين المستجبين بالقسطاس المستقيم ، جاعلين نصب أعينهم صلاح أحوال الأشياء . ولهذا قصر المؤلف الفصل العاشر من الجزء الثاني^(٣) على « ذكر ما ينبغي لمن استمرى أمر رعايا الأمة ، من السير بالعدل قيسن ولوا أسره من الأمة » .

هكذا كان للعمان أثر لا يبدله أثر في النهضة الثقافية للدعوة الإسماعيلية . لذلك يحق العلماء أن يسموه « للشرع الإسماعيلي » . ولا غرو فقد كان ساعداً للعز الأيمن ، ولسانه الناطق ، واستحق هذا كله أن يترفع على عرش الدعوة الإسماعيلية في المغرب ، وأن يورث أبناء هذه الزعامة في مصر ، حيث تولى في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه للعز لدين الله .

(هـ) جعفر بن منصور النيصوري^(٤) :

اشتهر جعفر بن المنصور (بن حوشب) منذ نعومة أظفاره بحب العاطبيين . واختلف مع أخيه ' أبي الحسن بن منصور ، الذي تار على الخليفة المهدي في أحيات حياته . وغادر جعفر بلاد اليمن حنقاً على أخيه ، وقصد بلاد المغرب في سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) . ويظهر

(١) العمان : كتاب الحمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ - ٨٨ .

(٤) انظر : طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي ، مخطوط ج ١ ورقة ٢٨١ - ٢٨٢ .

أنه كان يرسل أخاءه ، ويؤنبه على ما اقترفه مع الفاطميين ^(١) .

وقد تمتع جعفر بمركز رفيع في الدولة الفاطمية ، في المغرب ثم في مصر . وكان موضع تقدير القائم والنصور ، كما نال تقدير المزم ، حتى اتخذ « باب أبراه » في مصر ، وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل الإسماعيلي ، كما كان لقراره من بلاد اليمن حياً في النهوض بالمذهب الإسماعيلي ، أثره في تقدير الخلفاء الفاطميين له ، ومحبتهم إياه ، وعظمتهم عليه .

وقد ترك جعفر كثيراً من الآثار العلمية التي لا تزال عند البهرة إلى اليوم . ومن أهم مؤلفاته كتاب « تأويل الزكاة » ، وهو مكتبة الجامعة بليدن . وقد ألقاه ، على ما يبدو ، في عهد المزم لدين الله . ومنه نقف على غلو الإسماعيلية في تأويلهم ، حتى لقد ذهب هذا العقبة الإسماعيلي إلى تأليه الأئمة ، مؤيداً في ذلك النظرية الإسماعيلية التي تقول : « من عرف إمام زمانه عرف ربه » . ويقول دى غوبه ^(٢) في كتاب « تأويل الزكاة » : إن به كثيراً من مبادئ القرامطة الخارجة على الدين . ويذهب الأستاذ ماسينيو ^(٣) إلى القول بأن جعفر ألف هذا الكتاب في سنة ٥٣٦هـ ، ويسميه تأويل الفرائض . ويذهب الأستاذ إيتيه ^(٤) إلى أن كتاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر للسمى « الفرائض و حدود الدين » .

ولجعفر بن منصور اليمن من الكتب أيضاً كتاب « سرائر النطق » ، وكتاب « أسرار الطغاة » الذي سقتاراه بالتفصيل . وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الكتب المصرية ، بمكتبة تيمور باشا ، تحت رقم ١٨٤ عقائد . وله من الكتب كتاب « الكشف » ، وهو كتاب قيم في التأويل ، أول فيه بعض آيات من القرآن في شيء كثير من النلو . من ذلك ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى : « ولتئين والزيتون ، وطور سينين » ، وهذا البلد الأمين » ، بأن التئين هو الحسن ، والزيتون هو الحسين ، وطور سينين هو سيدنا

(١) الحادي إيمان : كشف أسرار القباطية وأشعار القرامطة ص ٤٠

(٢) Memoires sur les Carmathes du Bahraïn, vol. II pp. 169-170.

(٣) حجب نامه ص ٣٣١ .

(٤) A Guide to Ismaili Literature, p. 31

محمد صلى الله عليه وسلم ، والبلد الأمين على بن أبي طالب ، الأمر الذى حذاه على أن يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم إذاعة أسرارها .

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب « الفترات والقرانات » ، ويسمى « الجفر الأسود » . ويظهر أنه كتاب « الجفر » الذى ينسب إلى جعفر الصادق . ويعتقد الإسماعيلية أن على بن أبي طالب هو الذى وضع أصوله ، ليستبقى علم التأويل والباطن فى سلالة . كما يظهر أن « الجفر الأسود » من وضع أحد الدعاة المتأخرين ، لأنه يتناول حوادث وقعت فى القرن الخامس الهجرى . ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء مع أعدائهم ، ويتعرض لشرح تأثير السكواكب فى الدعوة وأطوارها ؛ فهو إذن نوع من اللامع التى أغرم بها الإسماعيلية . ومهما يكن من شيء ، فإن جعفر اسلك فى مؤلفاته هذه مسلك التأويل حتى إنه نادى بمبدأ استمرار الأديان والحلول ، أى حلول الأنبياء من شخص إلى آخر^(١) .

وبهذا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصباً فى دراسة عقائد المذهب الإسماعيلى . ويقص علينا الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » ، ما يشرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الإسماعيلية . ذلك أن أبا حنيفة النعمان المغربى ، قاضى قضاة الميزانين لله ، مرض وهو بمصر ، فزاره كثير من عليه القوم ، ومنهم جعفر ، باب أبواب للمز . ولما أبل أبو حنيفة من مرضه ، سأله المز عن زاروه ، فذكر أسماء جميعاً سوى جعفر ابن منصور . فأخذ المز يطرق جعفرًا ، ثم قدم إلى أبي حنيفة رسالة ، وطلب منه قراءتها ، وسأله عن مؤلفها . وقد نالت هذه الرسالة إعجاب قاضى القضاة ، حتى إنه قال للخليفة للمز : إنها من تليف مولانا الخليفة ؛ فأجاب المز بأنها من وضع مولاة الرئيس جعفر بن منصور^(٢) . وفى وصف المز جعفرًا بالرئيس والمولى ما يشعر بملو مكانته . لذلك زل القاضى أبو حنيفة على التور ، وذهب إلى دار جعفر الداعى ، وعبر له عن احترامه وتقديره . هكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان . وصفاة القول أن جعفرًا أحد اثنين يمدان من أشهر

Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S. 1933.) p. 371. (١)

Ibid. (٢)

الدهاة الذين أنجبتهم مدارس الدهوة في بلاد المغرب خاصة . وقد مات بعد رحيله إلى مصر مع المزم .

ولنعرض الآن لكتاب أسرار النطقاء لجعفر بن منصور الميني .

يمد هذا الكتاب من أقدم مصادر الإسماعيلية التي تتناول تاريخ الأئمة المستورين ، ومن أم الكتب التي ألقت اللدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره ، كما يمد من أحسن الكتب التي تمثل الأدب الإسماعيلي القديم أصدق تمثيل .

وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً . ولهذا يمد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن المراجع في تاريخ الأئمة من على ابن أبي طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول بعض المبادئ الشيعة ؛ من ذلك نظرية « النية » ، أي اختفاء الإمام ، ونظرية الإمام الصامت^(١) ، إلى غير ذلك .

ويكاد يقتصر كتاب أسرار النطقاء على الرد على الموسوية الاثنا عشرية ، فينقض آراءهم في وضوح ودقة ، مما يدل على تضلع جعفر في النقاش الكلامي . كما يمد هذا الكتاب من أم المراجع التي تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة ، التي ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق ، كالوسمية والأبطحية ، نسبة إلى الأبطح ، أحد أبناء جعفر الصادق ، والمحمدية ، نسبة إلى محمد بن جعفر . ونرى جعفر يرد رداً شديداً على أنصار هذه الفرق ، ويبرهن لهم على بطلان دعاويهم ، ويعمل على جذبهم إلى طائفة الإسماعيلية ، كما يستبر هذا الكتاب مرجعاً هاماً في تاريخ علي الرضا (ابن موسى الكاظم) وأبنائه حتى الإمام المنتظر (٢٦٠ هـ) .

كذلك تعرض جعفر في كتابه لتاريخ الأئمة الإسماعيلية المستورين ، فذكر معلومات ذات غناء عن إسماعيل بن جعفر ، وشرح موقفه من أبيه جعفر ، وأخيه موسى^(٢) ، وتناول انتقال الإمامة إلى إسماعيل . ويستدل على صحة دعوام بأحاديث عن جعفر وسواه ليؤكد صحة

(١) لكل نبي عند الإسماعيلية إمام ، يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أي على أساس النطق . ويبلغ هذا الأساس ستة أئمة بالتوالي ، يسمى كل منهم « الصامت » . وعندما أن حل ابن أبي طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة ، حتى جعفر الصادق ، أئمة صامتون . فكل زعيم المايدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق أئمة صامتون .

(٢) انظر كتاب أسرار النطقاء (من المختصر) ص ٨٥ - ٩٤ .

إمامة إسماعيل . وإن ما كتبه جعفر بن منصور الهميني عن إسماعيل بن جعفر ، ليصور حياة الإسماعيلية ونشأتهم أصدق تصوير ؛ فقرأ يعرض للعلاقة إسماعيل ببعض غلاة المذهب الإسماعيلي ، ويناقش مسألة وفاة هذا الإمام ، أو اختفائه ، فلا يقر أن وفاته حدثت في حياة أبيه جعفر الصادق .

وكذلك عرض جعفر بن منصور لشرح بعض خصائص المذهب الإسماعيلي ، كالإمام المستقر والإمام المستودع . فيقول مثلاً : « إنه لما غاب إسماعيل ، أحضر جعفر ولده (محمد ابن إسماعيل) ، وجماعة صحبه ، وسلم إليه الإمامة بمحضر منهم في مجلس أبيه . واستودع منزلته حبيته ، كما فعل أبوه إسماعيل بالكش المنسوب بين يديه قبله ، وجعله سقراً عليه من فرعون وقته . وجلس الصادق مجلسه ، كما جلس يعقوب مجلس يوسف عند غيبته ^(١) » . كما ذكر كثيراً من التأريلات ومبادئ الإسماعيلية كاللحجة والاستبداد وما إليهما . ومهما يكن من شيء فإن جعفرًا قد أجاد في وصف دور استتار الأئمة الإجابة كلها . وملاً بالتأويل الغالي والمتدل ، مما يجعلنا نعتقد أنه من أشهر رجال التأويل في المور المغربي ، كما يعتبر الثمنان المشرع الأول في هذا الدور .

لذلك يعد كتاب « أسرار النطفاء » من كتب المناظرات الإسماعيلية القيمة ، حتى إن هذه الطائفة قد اتخذته أساساً للرد على مخالفهم . كما يعد من كتب التأويل وكتب التاريخ التي توضح للقارئ شيئاً غير قليل من تاريخ كبار أئمة الإسماعيلية الأوائل ، وقيمهم ومن يدعون الإمامة . ولا يغلو هذا الكتاب من الغلو المذهبي ، ولا سيما حين يوازن بين الأئمة والأنبياء ، أو يؤول بعض الآيات القرآنية ، وسنن الأنبياء وأفعالهم ، بما لا يتفق مع العقل . وعلى الرغم من ذلك كله ، لا ننكر أن هذا الكتاب وغيره من مؤلفات جعفر ، من الكتب التي رفعت منار الدعوة الإسماعيلية في عهد المزلزين الله .

هكذا سميت الدعوة الإسماعيلية بأدائها في عهد هذا الخليفة ، وبلنت أوجها على يد الإمام المعز نفسه ، وقاضى قضاته الثمنان . وباب أبيه جعفر بن منصور . وكان لهذه المدرسة التي نَفَذَها هؤلاء الثلاثة أثرها فيما بعد ، واستطاع أحد تلاميذها ، وهو حميد الدين

(١) أسرار النطفاء (من المتشبه) ص ٩٩ .

الكرمانى ، أن يرفع منار الدعوة في عهد الحاكم في كل من فارس ومصر . وكان للزيد الشيرازى والحسن الصباح أثرًا من آثار هذه المدرسة ^(١) .

(و) حميد الدين الكرمانى (٤٠٨ هـ) :

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرمانى ، وكان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويلقب بحجة العراقيين ، وكبير الدعاة الإسماعيلية بمزبرة العراق . ويبدو أن الكرمانى كان يتبوأ مكانة رفيعة بين طبقة الدعاة الفاطميين ، يدل على ذلك ما ذكره الداهى إدريس في كتابه « عيون الأخبار » حيث يقول : « حتى ورد إلى الحضرة الشريفة للنبوية الإمامية ، ووفد إلى الأبواب الزاكية الحاكية باب الدعوة الذى عنده فصل الخطاب ، ولسانها الناطق بفصل الجواب ، ذو البراهين المضئية ، واللائل الواضحة الجليلة ، مبين سبل الهدى للمهتدين ، حجة العراق أحمد بن عبد الله الملقب بحميد الدين الكرمانى قدس الله روحه ورضى عنه » ^(٢) .

ولم يكن الكرمانى داعياً للدعاة في عهد الحاكم برغم تضلمه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية لأن داعى الدعاة في عهد هذا الخليفة كان « حُتَكِين الضَّيْف » .

ونقول آسفين إن للمعلومات التى نستطيع على ضوئها أن نصور شخصية الكرمانى وتترجم له ترجمة وافية ، نادرة . « وأصبح كل ما يعرف عنه هو اسمه ، وإن كان يعد في مرتبة حجة مزبرة ، وأنه عرف في تاريخ الدعوة الإسماعيلية بلقب حجة العراقيين » ^(٣) ، مما يدل على أنه كان يقيم بالعراق وينتقل بين بغداد والبصرة . وقد وفد الكرمانى على مصر حين استدعاء داعى الدعاة حُتَكِين أثناء قصة الدرزى وأصحابه في سنة ٤٠٨ هـ ، حتى يستطيع أن يعادل أصحاب هذه الفتنة الذين زاغوا عن دعوة الإسماعيلية إلى حد تأليه الحاكم . وقد ألف الكرمانى في الرد على الدرزية رسالة سميت « الرسالة الواعظة » يرى فيها الحاكم من ادعائه الألوهية : وتاريخ وفاة الكرمانى لا يخلو من النموذج أيضاً . فقد اختلف المؤرخون اختلافاً

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وطلح أحمد شرف : الميز لابن الله ص ٢٥٨ وما يليها .

(٢) الداهى إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر المصطفى المختار ، ج ٦ ورقة ٤٥ .

انظر الكرمانى : رسالة العقل ، نشره ، محمد كامل حسين ، وعبد مصطفى حلمى ، ص ٢

(٣) رسالة العقل ، مقدمة ص ٣ .

كبيراً في سنة وفاته ، فذكر إيفانوف أنه توفي بعد سنة ٤٠٨ هـ^(١) .

وقد ترك الكرماني طائفة من المؤلفات بعضها كتب طوال ، وبعضها الآخر رسائل قصيرة ، عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى ، مما يشهد بفسوخ قدمه وعلو كعبه في العلم ونضله في قمة الدعوة . ومن أهم مؤلفاته : كتاب المصاييح في إثبات الإمامة . وتنبيه الهادي والمستهدي وكتاب معاصم الهدى ، والإصابة في تفضيل عليّ على الصحابة ، والأقوال الذهبية في الدفاع عن أبي حاتم الرازي ، وفصل الخطاب وإبابة الحق المتجلى عن الارتباب ، وكتاب الحصول ، ورسالة الوضعية ، وكتاب الرياض أو الإصلاح بين الشيخين ، عدا رسائل كبيرة نخص بالذكر منها : الرسالة العنصرية في معنى التوحيد ، ورسالة النظم في مقابلة الموائل بعضها ، والرسالة لمضيئة في الأمر والأمر والمأمور ، والرسالة اللازمة في صوم شهر رمضان ، ورسالة للروضة في الأزل ، والرسالة الزاهرة ، والرسالة الحاوية في الليل والنهار ، ورسالة مباهم البشارات ، والرسالة الواعظة ، والرسالة السكانية ، ورسالة المعاد ، والنفوس ، والمقادير والحقائق ، وتاج العقول ، وميدان العقل ، وكتاب القدر والإزمام ، وإكمال النفس ، وكتاب المقاييس ، وكتاب المجالس البهائية والبصرية ، ورسالة الثمري في الخواص ، وكتاب راحة العقل ، مما يشهد بما يتمتع به هذا الفيلسوف من منزلة في عالم الفلسفة^(٢) .

ومن أشهر كتب الكرماني التي تدل على تبحره في الفلسفة وإحاطته بشاردها وواردها كتاب راحة العقل ، الذي لا ينقسم إلى أبواب ومقالات ، وإنما ينقسم إلى أسوار ، ويشمل كل سور عدة مشارع ، ويصبح للكتاب كأنه مدينة . ويشتمل هذا الكتاب إلى سبعة أسوار ، وكل سور إلى سبعة مشارع . ويتألف الكتاب من ٧٩ مشرعا . وهذه الأسوار السبعة تقابل السيارات السبعة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمرة ، وهي لها تأثير على المواد الجسمانية من معدنية ونباتية وحيوانية . أما المشارع فهي تقابل الأفلاك الكبار والصغار . وإن للتأمل في كتاب الكرماني ليلس

Ivanov : A Guide to Ismaili Literature, p. 43. (١)

(٢) الكرماني : راحة العقل ، مقامة ص ٤ - ٩ .

ولوحه بالتأويل المعروف عن دعاة الإسماعيلية . وهو يريد أن يضم كتابه : المعارف والخصائل التي ينبغي أن تتحلل بها النفس الإنسانية علماً وعملاً ، قيثماً لمن يقرؤه ويستوعب ما فيه ، الراحة ، والهداية ، والسعادة ، والنجاة . ولذلك سمى الكتاب : راحة العقل . فهو إذن قد مزج بين تعاليم الإسماعيلية وأقوال الفلاسفة ، ووازن بين سرانيب الدعوة والدين ، وظهر أثر ذلك في كل مشروع من مشاريع الكتاب . كما عرض الكرمانى لأهم الأسس التي تقوم بها الدعوة الإسماعيلية ، لذلك يد هذا الكتاب من كتب الفلسفة العامة ، لأن قيمته الفلسفية ليست أقل من قيمته من وجهة نظر الإسماعيلية^(١) .

وإن الفاحص لهذا الكتاب ، ليتبين بوضوح أن مؤلفه لم يهدف إلى دراسة المذهب الإسماعيلي فحسب ، بل إنه عرض لكثير من المشكلات التي تدور عليها مباحث المتكلمين ومناهجهم وكذا مناهج الفلاسفة ومذاهبهم . فلا عجب إذا عد الكرمانى بحق شيخ فلاسفة الإسماعيلية ، إذ استطاع أن يوفق بين آراء أبى حاتم الرازى وأبى يعقوب السجستاني أستاذ الكرمانى^(٢) .

والكرمانى فوق ذلك كله عدة رسائل عرفت في أدب الإسماعيلية باسم رسائل الكرمانى ، وهي تشتمل على ثلاث عشرة رسالة . وله أيضاً كتابان ، أحدهما يعرف بالجلال البندادية والآخر يعرف بالجلال البصري ، جمع فيهما محاضراته للتأويلية في العراق والبصرة وبنداد^(٣) . ومن غريب الاتفاق أن يكون الكرمانى في العراق ثم ينتقل من حين إلى آخر إلى البصرة في نفس الوقت الذي كان فيه جماعة إخوان الصفا في العراق والبصرة ، مما حداً أكثر الباحثين إلى القول بأن هذه الجماعة كانت من الإسماعيلية . وقد ذكر الدكتور محمد كامل حسين بعد أن اطلع على كتاب « راحة العقل » أن آراء جماعة إخوان الصفا تتفق مع آراء الكرمانى ، بدليل ما نراه في كتاب « راحة العقل » من فقرات كاملة لا يختلف أسلوبها عن نفس الأسلوب المعروف في بعض رسائل إخوان الصفا^(٤) .

(١) المصدر نفسه ص ١١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين مقدمة الرسالة الواصلة ص ٢ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

وقد الكرماني على مصر سنة ٤٠٨ هـ ، ويذكر الداعي إدريس أن الامام الحاكم بأمر الله الفاطمي بث في طلبه إلى مصر حين ظهرت بدعة تأليه الحاكم . وقد هال للكرماني ما رآه في مصر من اضطراب الدعوة الإسماعيلية ، ووصف ذلك في رسالته « مباسم البشارات بالامام الحاكم » ، كما وضع رسالة أخرى عنوانها : « الرسالة الواقعة في نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، يدحض فيها فكرة تأليه الحاكم ويفندها ، وينيت عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله ، تلك العقيدة التي تحدث عنها الكرماني في كتابه الأخرى ، فقال : « إنه تعالى واحد ولا شريك له ، وأن كَيْسِيَّتَهُ محال ، وهو سبحانه متعال عن الانقسام ، وبريء من أنحاء النقصان ، وإن تُنْزَلُ بصفة أو قيل عنه شيء من الصفات ، فذلك الصفات هي مأخوذة ، مستعارة من الموجودات التي هي واقعة تحت الوجود المخترع »^(١).

ومثل هذه العبارات التي ذكرها الكرماني وردت معناها جميع علماء الدعوة الإسماعيلية هي عماد التوحيد عندهم . وهم في ذلك يشتركون مع علماء المعتزلة في نفى الصفات والتنزيه . ولكن الإسماعيلية جعلوا أسماء الله الحسنى للمبدع الأول ، الذي سماه الإسماعيلية السابق والقلم ، والذي يعرف عند الفلاسفة بالعقل الكلّي^(٢) . وخلصوا على السابق جميع الصفات التي جعلها الفلاسفة للعقل الكلّي ؛ وذلك جعل الإسماعيلية هذه الصفات التي تصف بها السابق الإمام أيضاً . ومنها أسماء الله الحسنى التي نفوها عن الله سبحانه وتعالى . ولهذا نرى شعراء الإسماعيلية يمدحون الأئمة بأسماء الله الحسنى تشبهاً مع عقيدتهم في تنزيه الله تعالى عن الصفات ، وأن الامام في عصره مثل السابق — أي الله — مع اعترافهم بأن الإمام من البشر . من ذلك يتضح أن الإسماعيلية لم يؤمنوا بأئمتهم . بيد أن بعض دعايتهم غلوا في تعجيد الأئمة الطاطبيين ، فنسبوا إليهم الألوهية طوراً ، ومعرفة النيب طوراً آخر ، وفيهم قال الكرماني^(٣) : « إن أعظم الفرق ضلالاً فرقة الثلاثة ضلّت وأصلت غيرها ، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة » .

(١) الكرماني : راحة العقل ص ٣٧

(٢) محمد كامل حسين : مقدمة الرسالة الواقعة في نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله للداعي أحمد حيد الكرماني (فصل من مجلة كلية الآداب : ص ٩ جلسة القاهرة مايو ١٩٥٢ ص ٨) .

(٣) المرجع نفسه .

وهكذا ترى أئمة الفاطميين ودعاتهم يتبرأون من أمثال هذه القلالت التي ينفلوا أصحابها في الأئمة . ولذلك ترى الكرمانى ، يرمى في رسالته الواعظة أصحاب هذه البدعة بالضللال والكفر ، ويرد على الحسن الأخرم القزغانى ، أحد الدعاة الملاة الذين قالوا بألوهية الحاكم^(١) .

(ز) المؤيد في الدين هبة الله الشهرزى :

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلى المؤيد في الدين هبة الله الشهرزى وعرف أحيانا بالمؤيد فقط . ولكن اللقب الذى غلب عليه هو المؤيد في الدين . يدل على ذلك أن الملك أبا كاليبجار البويهى أرسل إليه يقول : « نشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد في الدين عصمة أمير المؤمنين أبى النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده »^(٢) . وكان المؤيد في الدين يسمى هبة الله . كما تتفق النصوص التاريخية على تسميته السلطان نسبة إلى سلطان الفارسي^(٣) . وقد انحدر المؤيد من أسرة اتخذت التشيع لها ديناً والفاطمية مذهباً . فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمى بشيراز ، وكان يستمع باحترام الناس وتبجيلهم . وقد راسل الخليفة الحاكم الفاطمى . واختلف المؤرخون في السنة التى ولد فيها للمؤيد في الدين ، فذكر الدكتور حسين المهدانى أنه كان في التاسعة والعشرين ، حين طلب إليه أن ينادر بلاده في سنة ٤٢٩ هـ ، أنه أنفى أن ولادته كانت في سنة ٤٠٠ هـ^(٤) . ولكن الدكتور محمد كامل حسين يذكر أنه ولد في سنة ٣٩٠ هـ ، معتمداً في ذلك على يتيين من الشعر وردا في ديوان المؤيد مخاطب بهما الخليفة المستنصر الفاطمى :

لَمَّا فِي هِجْرَةٍ إِلَيْكَ تَمَنَّيْتُ
قَدْ تَمَنَيْتُهُ وَإِنِّي غَلَامٌ
وَتَدَانِي مِنْ أَرْبَعِينَ إِلَى السَّنِ
وَلَمْ يُقْصَرَ لَتَمَنِيْ ذِمَامٌ

(١) يقول الدكتور محمد كامل حسين : ومع ذلك كله ، فإن أرائق على مذاهب إليه المؤرخون من أن الحاكم كان يميل إلى ادعاء الألوهية .
انظر مقدمة الرسالة الواعظة ص ١٠

(٢) المؤيد في الدين : ديوان المؤيد في الدين ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩)
مقدمة ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه مقدمة ص ١٩ .

(٤) Hamdani (J.R.A.S.), 1932, part i, p. 130.

وذلك يدل على أنه بلغ الأربعين من عمره سنة ٤٢٧ هـ .

أخذ المؤيد يرقى مدارج الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رئاسة الدعوة في شيراز ، وأصبح حجة جزيرة فارس حول سنة ٤٢٩ هـ ^(١) :

انصل المؤيد بالسلطان « أبى كاليبجار البويهى ، واستطاع بدهائه أن يكسب عطفه ، وأن يظل في شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلى . ثم لم يلبث أن توفقت حالته بالسلطان البويهى حتى طمع في إدخاله في الدعوة الفاطمية ، واستطاع المؤيد في الدين بقوة حجته وبلاغته أن يقربه من الدعوة ، ويرفقه في الدخول فيها ، فكتب إليه يقول : « إني أسلت نفسى ودينى إليك ، وإني راض بمحلة ما أنت عليه » ^(٢) . ودخل أبو كاليبجار في الدعوة الفاطمية ، وأخذ مجتمع للمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلى . ولم يكنف المؤيد بنشر هذه الدعوة في شيراز ، بل سافر إلى الأهواز وأدخل في الأدان عبارة « حتى على خير للعمل ، وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمى » ^(٣) .

وقد أحس الخليفة العباسى مما قام به المؤيد في الدين هبة الله من نشاط في الخفاء ، فكتب إلى كاليبجار يطلب إليه أن يقضى المؤيد عن مدينة الأهواز ، فكتب أبو كاليبجار إلى المؤيد يطلب إليه إما أن يترك مذهبه أو يرحل عن هذه المدينة ^(٤) . ولكن المؤيد لم يلتق بالالانذار أبى كاليبجار بل أجمع في نشر الدعوة ، وأخذ ينرى الديلم بالعصيان ويشير للفتنة . ولم يجد بداً آخر الأمر من أن يشد الرحال إلى الموصل ، ولجأ إلى قرواش بن المظفر العقيلي وطلب إليه أن يمد له يد العون في نشر الدعوة الفاطمية في بلاده . ولكن قرواش لم يستجب لدعوته لأنه كان يطمع في التقرب إلى العباسيين . فلم يجد المؤيد بداً من الرحيل إلى مصر . وقد اختلف للورخون في السنة التي وصل فيها إلى مصر ، فذكر إغناووف أنه وصل في سنة ٤٣٩ هـ ^(٥) ، وذكر الدكتور حسين الهمدانى أنه دخل مصر في سنة ٤٣٠ هـ .

(١) ديوان المؤيد في الدين داهى الساعة ص ٢٢ .

(٢) السيرة الزيدية ص ٦١ .

(٣) ديوان المؤيد في الدين ص ٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠ .

(٥) السيرة الزيدية ص ١٢٦ .

ولكن المؤيد نفسه يذكر أنه لقي بمصر عند وصوله أبا سعيد التستري الذي قتل في سنة ٤٣٩ هـ .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن المؤيد جاء إلى مصر بين سنتي ٤٣٦ ، ٤٣٩ هـ . وأنه أخذ يتردد على أبي سعيد التستري ويقترب إليه . فلما قتل التستري في سنة ٤٣٩ هـ ، تقرب المؤيد من الوزير أبي نصر الفلاحى ، وطلب إليه أن يمهده السبل لمقابلة الخليفة المستنصر بالله . وقد تحققت أميته ، ومثل بين يديه في آخر شهر شعبان سنة ٤٣٩ هـ .

وقد وصف المؤيد مقابلته الأولى للخليفة المستنصر في هذه العبارة فقال : « وكنت في مسافة بين السقيفة الشريفة والمكان الذي أُلح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعة وغلبتني التبرّة ، وتمثل في نفسي أننى بين يدي رسول الله وأمير المؤمنين مائل ، وبوجهي إلى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوفي إلى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعه حسنة بنطقه ، فوجدته يسجدة المهابة مَنقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت على ثوبى المقود ، رأيت بنانا يشير إلى بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام . فطلب أمير المؤمنين خلد الله ملكه وجهه عليه زجراً ، على أننى مارفت به رأسا ، ولا جعلت له قدرا ، ومكنت بحضرته ساعة ، لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول ، وكلما استرد^(١) الحاضرون منى كلاما ازددت إعجابا ، ولتصقبة التى اقتحاما . وهو ، خلد الله ملكه ! يقول : « دعوه حتى يهدأ وبستانس » . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترسفتها ، وتركتها على عيني وصدرى ، ودعيت وخرجت »^(٢) .

وقد تقلد المؤيد ديوان الإنشاء وزيد في رزقه ، وعلا قدره في نظر الخليفة المستنصر . وقد استغل هذا الداعى عمله بديوان الإنشاء ليوسع نطاق الدعوة الفاطمية إلى بغداد . فلما علم أن طنطريك السلجوق حاول ، بعد أن دخل مدينة الرى سنة ٤٤٤ هـ ، أن يهادن البيزنطيين ويحالفهم للاستيلاء على أملاك الدولة الفاطمية في بلاد الشام وأعلى الجزيرة ،

(١) يبدو أن مصحبا استرد .

(٢) الحيرة المؤيدية ص ١٢٧

كاتب الكندري وزير طغرل بك يستميله إلى الفاطميين . ولكن طغرل بك دخل بغداد في سنة ٤٤٧ هـ . ولا مهرب الباسيري ، اتصل به المؤيد وأنهى إليه بأن الفاطميين على استعداد لشد أزره وإمداده بالمال والسلاح . كما أخذ يستميل أسراء العرب والأكراد ويخلع عليهم خلع الفاطميين وينفق عليهم الأموال الجمة .

ونجحت خطة المؤيد ، فانتصرت جيوش الباسيري على جيوش طغرل بك ، وانتشرت الدعوة الفاطمية في العراق ، وخطب المنتصر في بغداد . ولكن الباسيري ما لبث أن تفرقت جموعه ، ونجح طغرل بك في طرده من بغداد في سنة ٤٤٩ هـ ، وأخفقت خطة المؤيد إخفاقا تاما . ولكن الخلافة الفاطمية قدرت الجهود التي بذلها هذا الداعي في نشر الدعوة ، فأستندت إليه أمر رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعي الدعاة في سنة ٤٥١ هـ . على أن حياة للمؤيد بعد تلك السنة أصبحت غامضة أشد الغموض ، وظلت على ذلك حتى توفي سنة ٤٧٠ هـ ^(١) .

كان للمؤيد بارعا في الكتابة بالعربية والفارسية ، وقد خلف عددا لا يستهان به من الكتب لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم ^(٢) . ومن المؤلفات التي تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » ، و « ديوان المؤيد » ، و « سيرة المؤيد في الدين » ، و « شرح المآد » ، وكتاب « الإيضاح والتبصير في فضل يوم القدير » ، وكتاب « الابتداء والانهاء » ، وجامع الحقائق في تحريم الاحوم والألبان » ، و « قصيدة الإسكندرية » ، ونسب أيضا بذات الدوحة ، وكتاب « تأويل الأرواح » ، وكتاب « تهج العبادة » ، وكتاب « المسألة والجواب » ، وكتاب « أساس التأويل » ^(٣) . ومن أهم آثار المؤيد التي تكشف عن تعمقه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة يشرح فيها المذهب الفاطمي . وبلغ عدد هذه المحاضرات ثمان مئة محاضرة ، ويرجع الدكتور محمد كامل حسين أن المؤيد

(١) ديوان المؤيد في الدين ، مقدمة ص ٤٩ .

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 43 (٢)

Ibid., p. 413. (٣)

التي يحض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعي الدعوة في سنة ٤٥٠ هـ^(١). وبعد ديوان المؤيد في الدين من أم مؤلفاته ، لأن شعره في هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية ، والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . من ذلك قوله :

وَمِ أَوَّلِ الْأُمَمِ أُمَّةُ الْهُدَى عِصَّةُ مَنْ لَا ذِيَهُمْ مِنَ الرَّدَى
مَفْرُوضَةٌ طَاعَتُهُمْ عَلَى الْأُمَمِ قَاطِبَةٌ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
افْرَأْ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ثُمَّ أَوَّلَى الْأُمَمِ بِهِمْ مَوْصُولَا
ثَلَاثُ طَاعَاتٍ غَدَّتْ مَقْلُومَةٌ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَقْلُومَةٌ^(٢)

كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإيجاز القرآن والرأى والقياس ، كما عرض لنظرية القتل والمقتول . فالإسماعيليون يذهبون إلى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم . وكذا أن النبي كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من قام مقامه في كل عصر يعلم هذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز معانيه ويؤولها ، لأن له معاني غير المعاني التي تتداولها ألسنة العامة ، وهذه المعاني هي سر إيجاز القرآن ، وإيجازه ليس في معناه بل في معناه . وفي ذلك يقول المؤيد :

إِنْ كَانَ عِجَازُ الْقُرْآنِ لَفِظًا وَلَمْ يَنْسَلْ مَعْنَاهُ مِنْهُ حَقًّا
صَادِقُ مَعْتُودِهِ تَحْلُولًا مِنْ أَجْلِ أَنْ أَنْكَرْتُمْ تَأْوِيلًا^(٣)

والإمامة في نظر الإسماعيلية هي قيادة العالم ، وتحتل معرفة الحقيقة إليه . ولا يد من وجود هذا المرشد في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين استقصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وَتَأْوِيلُهُ مَسْتُودَعٌ عِنْدَ وَاحِدٍ وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْهُ فَزُورًا تَأُولَ

(١) ديوان المؤيد في الدين مقدمة ص ٦٠ .

(٢) ديوان المؤيد ص ٦١ .

(٣) ديوان المؤيد ص ١٠١ .

وَأَتَّخِذْ بَيْتَ النُّورِ لَا شَكَّ بِأَبِهِ أَبُو حَسَنِ وَالْبَيْتَ مِنْ بَابِهِ يُؤْتَى
لَهُمْ قَوْمٌ بِهِ خُصُّوا ، أَقَامَهُمْ رَبُّ الْوَرَى الْوَرَى فِي أَرْضِهِ عَلَمًا^(١)
ولم يأخذ الفاطميون بالقياس في التفسير والتفقه وطعنوا في فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى
أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا
لفظه ، يتضح ذلك من قول المؤيد :

وَهُوَ الَّذِي قَدْ حَرَّفَ الْكِتَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَجَانِبِ الصَّوَابِ
يَثْبُتُ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ فِيهِ وَحُكْمُ آيٍ أُحْكِمَتْ يَنْفِيهِ^(٢)
كما يستند الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت ، وأن هذه
العلوم هي علوم الباطن ، ولذلك سمو الباطنية . لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم .
قال المؤيد :

وَرُبُّ مَعْنَى صَنَعَهُ كَلَامٌ كَنَلْ نَوْرَ صَنَعَهُ غَلَامٌ
بَاقِي بَقَاءِ الْحَبِّ فِي السَّائِلِ فِي مَثَلٍ مِنْ أَحْرَزَ الْمَثَلِ^(٣)
وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية التَّحَلُّلِ وَالتَّحْوِيلِ^(٤) أي
تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويمثلها من الأمور الجسمية المحسوسة . وهذا
الاسم مأخوذ من أقوال الفاطميين : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَمْ تَتَلَّ دَالًّا عَلَى مَحْوِهِ فَمَرَوْا لِلْمَثُولِ
بِمَثَلِهِ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لِمَا هُمْ
يَتَذَكَّرُونَ)^(٥) . فأخفى الله سبحانه المَثُولِ وسره وجعل مثله طريقا إلى معرفته اختياراً
لعباده وامتثالاً له . قال المؤيد :

وَالَّذِي قَالَ فِي الْكِتَابِ تَعَالَى مَثَلٌ ذَاكَ تَحْتَهُ مَثُولٌ

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤

(٣) ديوان المؤيد ص ١٠٦

(٤) الظاهر والباطن يقابلهما التَّحَلُّلُ وَالتَّحْوِيلُ . فالتَّحَلُّلُ = الظاهر ، والتَّحْوِيلُ = الباطن . ولكل مثل
مَثُولٍ كما أن لكل ظاهر بائناً . واقع يضرب الأمثال للناس . أما بواطن هذه الأمثال أو يمثلها فلا بد له
إلا الأئمة ، لأنهم وحدهم أصحاب علم الباطن .

(٥) سورة الزمر ٣٩ : ٢٧ .

أقصد : حَمَّا مَثَوَلَهُ دُونَ التَّلِّ ذَا إِبْرَ النَحْلِ وَهَذَا كَالْعِلِّ^(١)
 كما رد المؤيد على الفرق المختلفة في تفسير رؤية الرحمن ، ورد على الفرق التي أثبتت
 رؤية الرحمن أو أنكرتها . فاثبت أن الرؤية تنقسم قسمين : أحدهما محسوس والآخر معقول
 وهو رؤية العقل . فالبصر لا يتعدى البصيرات الجسمية والمقل لا يدرك إلا المدركات العقلية .
 والرؤية إما رؤية حِسِّ أو رؤية عَقْل . قال للمؤيد :

فَالْعَقْلُ لِلْمَرَّةِ أَدَاةٌ كَالْبَصَرِ ذَا : بَاطِنٌ فِيهِ وَهَذَا قَدْ ظَهَرَ
 كَلَامُهُ يُدْرِكُ بِالْجَوَاسِثِ مَقَالَةٌ صَحَّتْ بِهَا مُعَارَسَةُ
 وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَقُولِ اللَّهُ يَقُومُ : كَيْ تَذَرِكُهُ حَاشَا^(٢)

كما تنال أن يكون كالصور مجعما كما يلاقيه البصر
 فكأن المؤيد قد رفض أقوال اللبثين لرؤية الله تعالى بالأبصار ، كما رفض أقوال
 اللبثين لرؤية الله تعالى بالقول ، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالقوا
 المعركة الذين رفضوا الصفات . يدل على ذلك قوله :

فَالْمَرْقَاتَانِ اجْتَمَعَا مُشَبَّهَةً خَبَلَةً عَشَوَاهُ جَمَلٌ وَعَمَّةٌ^(٣)

أما نظر المؤيد إلى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير
 ذلك من الصفات الجسمية ، فإل للمؤيد في ذلك رأيا يتفق مع التأويل الذي ذهب إليه
 الإسماعيلية . فهو يرى أن اليد هي النعمة ، وهي القوة ، كما يتبين ذلك من قوله :

وَقَاتِلْهُ وَجْهٌ وَيَدٌ وَقَوْلُهُ : هَذَا لِيَدِهِ رَشْدٌ

وَقَاتِلْ : ذَلِكَ حُكْمٌ بَاطِلٌ إِنْ صَحَّ ذَا ، فَاللهُ شَخْصٌ مَائِلٌ^(٤)

أما رأى للمؤيد في الأحرف التي وردت بأوائل السور كقاف ونون وكيعص ، فإنه
 يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معاني مستورة خفية
 لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض للمؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الغاطميين

(١) المصدر نفسه ص ١٠٧

(٢) يعني أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

(٣) ديوان المؤيد ص ١١١

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤

الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بجمعة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبيد الأنبياء عن المعاصي . كما سعى الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق — كما قالوا — قسيان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن الهائم ، وهو النطق عما في الدنيا ، والآخر النطق عما في القدر الآخرة الذي يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والتفك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض لزواج النبي بزينة بنت جحش^(١) .

ومن أم الكتب التي تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية^(٢) . فقد عرض مؤلفه للعقائد المذهب الإسماعيلي في إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ولكنه مسها ماً رقيقاً في الوقت الذي عرض فيه لأصول هذه العقائد التي لا بد من أن يلم بها المستعجب . ذلك لم يسرف في التأويل إسرافاً يتقل على السامع الذي لا يمهله به علم الباطن من قبل . ذلك نراه يمرض للسيادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن . وقد انفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله وأهل ذكره وأسرف في تمجيده . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبي ، فقد عمد الداعي إلى أن يتخذ من هذا المدد أصلاً من أصول الدين ، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنين عشرة سنة ، فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر^(٣) . ولم ينفرد بفلسفة الدعوة

(١) انظر مقدمة ديوان المؤيد من ١٣٤ - ١٥٢ .

(٢) ذكر إيفانوف في كتبه « المرشد إلى أدب الإسماعيلية » A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد في اثنين هبة الله الشيرازي ، وأنه غير كتابه المعروف باسم « المجالس المؤيدة » . ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذي قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية في نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد في ادبي ، ويشك في قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد في كتب المجالس يختلف عن التأويل الذي ورد في كتاب المجالس المؤيدة ، كما يرى الدكتور محمد كامل حسين أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين في مسألة واحدة ، كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على اللغة في آرائه أكثر من اعتماد على التأويل ، بخلاف المؤيد في الدين يؤثر التأويل . وقد علق ناسر كتاب المجالس المستنصرية على القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعي علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي .

راجع كتاب المجالس المستنصرية للداعي علم الإسلام ثقة الإمام (القاهرة ١٩٤٧)

(٣) كتاب المجالس المستنصرية ، مقدمة من ١٧

الإسماعيلية بانحاذ الأعداد أصولاً لآراء دينية ، فقد اتخذ القيثاغوريون من كل عدد أصلاً لدراساتهم ، كما اتخذ المبريون العدد سبعة أصلاً لبعض عقائدهم ، كما فعل الحراثيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلاً لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مُتَلَكِّين^(١) . والزرادشتيون مُتَحَسِّين . وهالك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب :

- ١ — توحيد الله وتنزيهه ونفى الإشراف والقرناء .
- ٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ ، وأن عمداً خاتم النبيين .
- ٣ — القول برعاية صلى بن أبي طالب ، وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً .
- ٤ — التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .
- ٥ — إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين وجوب الأخذ عن الأئمة .
- ٦ — القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا الباطن دون الظاهر^(٢) .

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى مشر المومنت بما يوحى بأن الدعوة كانت تُوجَّه إلى الرجال والنساء .

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً : عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل ، وعرض في المجلس الثاني إلى المجلس السادس للفرائض والسنن ، وعرض في المجلس السابع عشر إلى المجلس الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة ، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار ، ومعاملة الزوجين ، ومعاملة المبيد . وتعرض في المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان^(٣) .

(٥) الطب :

وكنا زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا في الطب بأوفر سهم ،

(١) المصدر نفسه ، مقالة ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، مقالة ص ١٨ .

(٣) انظر كتاب المجالس المستنصرية ص ٥ - ١٤٧ .

كذلك حفل الغرب الإسلامي ، وخاصة مصر ، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر . ومن هؤلاء توفيل طيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانياً .

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح ، وقلدوهم المناصب العالية ، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكلليات الطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والسكاحين ، أي الذين يعالجون أمراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبهوا في هذا العصر .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي ، وقد نشأ في بيت المقدس ، حيث درس الطب على راهب يقال له أنبا زخريا بن ثوبة ، وعلى أحمد بن أبي يعقوب ؛ ثم تنقل في كثير من المدن في طلب هذا العلم ، وتوفر على دراسته حتى فُيغ فيه ، كما أنقن طريقة تركيب الأدوية . ثم اتصل بالحسن بن عبد الله بن طنجج الإخشيد وإلى الزملة وما يليها من البلاد الساحلية في عهد الإخشيديين ، فقر به إليه ، ثم سحبه يعقوب بن كلثوم وصنف له كتاباً في عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المزمّلين الله الفاطمي . ولأبي عبد الله التميمي عدة مؤلفات في الطب منها : كتاب مخلص النفوس الذي قال فيه : « هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه ، مختصر نافع القتل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان يوسع ذوات السم من الأغصان والسماتين وأنواع الحيات المملوكة السم والمقارب الجمرات ^(١) وغيرها ، وذوات الأربع والأرسمين رجلاً ، ومن لدغ الرتيلاء ^(٢) والمضليات ^(٣) ، مجرب ليس له مثل » . ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه للسمي « مادة البقاء » .

(١) الجمرات (على وزن فاعله) عقرب تخرج منها .

(٢) الرتيلاء أو الرتيلاء أنواع من الهواء ، كالذي ياب الذي يطير حول المراج ولسمها مودم مؤلم .

(٣) سم عطائية (يفتح السين والقاء والياء) دويبة سامة كالبرص وجمعها عطاء وعطائيات .

وله من الكتب أيضاً كتاب « الفحص والأخبار » ، ومقالة في « ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه » . وقد عاش المتبني إلى ما بعد سنة ٣٧٠ هـ^(١) .

ومن أطباء المعز موسى بن المازار الإسرائيلي الذي حذق صناعة الطب ، كما اشتهر في هذا العلم أيضاً ابنه إسحاق بن موسى ، وكان مقرباً من المعز ، ولكنه مات في شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ ، غزن الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته ، وعين مكانه أخاه إسماعيل ابن موسى — وكان قد تحول إلى الإسلام — وابنه يعقوب بن إسحاق . ومن كتب موسى بن المازار في الطب « الكتاب المعزى في الطب » الذي ألّفه للخليفة المعز ، وكتاب الأقرباذين^(٢) .

ومن نبغ في الطب في عهد الخليفة العزيز أبو الحسن علي بن رضوان . وقد خلف كثيراً من الكتب التي تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه في هذه الناحية ، كما أن له كتباً في الفلسفة والنطق وغيرها من علوم الحكمة^(٣) . وقد أحصى له لسكرت^(٤) ، نحو سبعين مؤلفاً . نشأ هذا الطبيب فقيراً بعدما ، لكنه أصبح بفضل جده ومنابرته رئيس الأطباء في عصر تفوقت فيه القاهرة على غيرها من الحواضر الإسلامية ، كبغداد وقرطبة . وكان لهم التنجيم شأن يذكر في عصر الفاطميين ، حتى كان الخلفاء أنفسهم يمولون كثيراً على التنجيم ، ويعتقدون أن للطالع تأثيراً كبيراً في صاحبه . ويرى علي بن رضوان ، ذلك الفيلسوف المشهور والطبيب الماهر ، أن طالعاً يدل على أنه خلق ليكون طبيباً ، فدقته هذه العقيدة إلى تحصيل الطب .

وكان علي بن رضوان من المجددين في صناعته ، ولو أن تجديده — على ما قول بعض خصومه — محدود إذا ما قورن بالفارابي وابن سينا مثلاً . على أن عمله لم يكن مقصوراً على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء كجالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، كما يتجلى ذلك من قوله في ترجمة حياته : « وكنت

(١) ابن أبي أصيبعة : حيون الأنبياء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٧ - ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) حيون الأنبياء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٥ .

(٤) Leclerc : Histoire de Medecine Arabe, tome II, pp. ٥٥٢ et seq. (٤)

هذه الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيرها فى كل سنة ، إلى أن قررتها على هذا التقرير القى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أنصرف كل يوم فى صناعته بمقدار ما ينق من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة ، وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة للكروب وإساف المحتاج^(١) .

من هذا يتبين أن علياً بن رضوان كان مجدداً فى صناعته ؛ فكان يدون مشاهداته ، ويغير ما دلت التجربة على فساد ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشماً ، كل همه الكسب من صناعته ، بل كان طبيباً إنسانياً ، يصرف اهتمامه لإساف الملهوف ومساعدة الفقير والمحتاج ، ولا يفكر فيما وراء ذلك من طلب المال . وهذا أقصى ما تنتجه إليه همه الطبيب الكامل^(٢) . وكانت حياة ابن رضوان كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل إلى أن مات حول سنة ٤٦٠ هـ^(٣) .

ولم يفت ابن كلس أن يعمل فى قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بقصص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التى كانت تعطى إليهم بدون ثمن . ومن نبغ فى الطب أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصارى ، طبيب الخليفة الحاكم الخاضع . وكان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه المميز . وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير فى إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود وإعادتهم إلى صرا كرم^(٤) . ومن أطباء هذا العصر رجل يهودى كان حامل الذكر يرتزق بمدلولة أهل الجراح . واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن . ورغم عناية ابن مقشر وغيره من أطباء الحاكم بمدلولة علاجه لم يبرأ من هذا الجرح . ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء بإسفاً ، شفى بعد ثلاثة أيام ، فنهجه الحاكم ألف دينار وخلع عليه ، ولقبه « بالفقير النافع » ، وجعله من أطباء الخاضع^(٥) .

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٠٠

(٢) المصدر نفسه — انظر ترجمة علي بن رضوان فى ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٥

(٣) القفلى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ - ٤٤٤

(٤) يحيى بن سديد : صلة تاريخ أوتريخا ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٦ . القفلى : إخبار العلماء بأخبار

الحكماء (طبعة لايبيك ١٩٠٣) ص ١٧٨ - ٤٣٨ .

(٥) القفلى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨

(و) الرياضيات :

ومن أشهر الرياضيين في عهد الفاطميين أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، وقد نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها . « وكان — كما يقول ابن أبي أصيبعة^(١) — فاضل النفس ، قوى الذكاء متفهما في العلوم . لم يماثله أحد من زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه . وكان دائماً الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محباً للخير . وقد نلص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها ، وكذلك نلص كثيراً من كتب جالينوس في الطب . وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية ، إلا أنه لم يباشر أعمالها » .

ولما اتصل بخبره بالحاكم الفاطمي ، تآقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نى إلى هذا الخليفة أنه قال : « لو كنت بمصر لسلت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فقد بلغتني أنه ينحدر من موضع عال هو في طرف الإقليم المصري . فازداد الحاكم إليه شوقاً وأرسل إليه سرّاً جلة من المال وأرغبه في الحضور . فصار نحو مصر . ولما وصلها خرج الحاكم لقاؤه ، والتقى بقرية على باب القاهرة المزينة تعرف بالخندق ، وأمر بإزالته وإكرامه واحترامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فصار معه جماعة من الصناع للتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له .

ولما سار إلى الإقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهي في غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز ، تحقق أن الذي يقصده ليس بمحكّم ؛ فإن من تقدمه في المصور الخالية لم يعزب عنهم علم ما عليه ، ولو أسكن لفنونه . فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة إيسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فمأينه وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد أنه لا يمشى على مواقة مراده ، وتحقيق الخطأ والتلبه عما وعد به ، وعاد خيبلاً منخذاً ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهراً وواقفه عليه .

ثم إن الحاكم ولده بعض السوابين ، فتولاهما رهبة لا رغبة ، وتحقق الناطق في الولاية ؛ فإن الحاكم كان كثير الاستعانة سريعاً للدماء بشير سبب أو بأضف سبب من خيال يتخيله ، فأجال فكرته في أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والجلال ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحيط على موجوده له بيد الحاكم ونوابه ، وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك في موضع من ممرله ، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم . وبعد ذلك يسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج عن داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر أحد جوامع القاهرة ، وأقام بها متنسكاً متزجراً مقتنعاً ، وأعيد إليه ماله من تحت يد الحاكم ، واشتمل بالتصنيف والنسخ والإفادة . وكان له خط قاعد في غاية الصحة ، كتب به الكثير من علوم الرياضة ... ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل^(١) .

وكان ابن الهيثم غزير العلم واسع الاطلاع كثير التصنيف . فن كتبه : كتاب السماع الطبيعي ، ويتناول ستة أمور هي : المبادئ الكونية والطبيعية ، والمكان ، والغلاخ ، وما لا نهاية له . والزمان والحركة والحرك الأول ؛ وكتاب الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وهي التي تعرض في الجو كالسحاب والضباب والرياح والأمطار والزلزال والبرق والصواعق ، وكتاب النبات والحيوان ، وكتاب السماء والعالم ، وكتاب النفس ، وكتاب فيما بعد الطبيعة ، فبين أن الإله واحد وأنه حكيم لا يحمل ، وقادر لا يسجز ، وجواد لا يبخل . ثم تفرغ ابن الهيثم لدراسة علوم الفلسفة ، وهي ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، وإلهية^(٢) .

وقد بين لنا ابن الهيثم نفسه آثاره في الرياضيات في هذه العبارة فقال : « فاصنعت في العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتاباً (أحدها) شرح أصول إقليدس في الهندسة والعدد وتلخيصه (والثاني) كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والمعدية من كتاب إقليدس وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقستها ، وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور

(١) ابن أبي أسيمة ج ١ ص ٩٠ - ٩١

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٢ - ٩٣

التحامية والحسية والمطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتفاض توالى إقليدس وأبولونيوس (والثالث) شرح المجلد^(١) وتلخيصه شرحاً وتلخيصاً برهانياً لم أخرج منه شيئاً إلى الحساب إلا الديمر . وإن أحر الله في الأجل وأمكن الزمان من الفراغ استأنفت الشرح للمستعصى لذلك الذى أخرجه به إلى الأمور العددية والحسية (والرابع) الكتاب الجامع فى أصول الحساب وهو كتاب استخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع إقليدس فى أصول الهندسة والعدد ، وجعلت السلوك فى استخراج المسائل الحسية بجمته لتحليل الهندسى والتقدير العددى ، وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم (والخامس) كتاب تلخصت فيه علم المناظر من كتابى إقليدس وبطليموس ، وتمتته بمعاني المقالة الأولى للمقودة من كتاب بطليموس (والسادس) كتاب فى تحليل المسائل الهندسية (والسابع) كتاب فى تحليل المسائل العددية بحجة الجبر والمقالة مبرهن (والثامن) كتاب جمعت فيه القول على تحليل المسائل الهندسية والعددية جميعاً ؛ لكن القول على المسائل العددية غير مبرهن ، بل هو موضوع على أصول الجبر والمقالة (والتاسع) كتاب فى المساحة على جهة الأصول (والعاشر) كتاب فى حساب العملات (والحادى عشر) مقالة فى إجازات الحفوز والأبنية طابقت فيها جميع الحفوز والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع الحفوز الثلاثة : المسكأ والزائد والنقص (والثانى عشر) تلخيص مقالات أبولونيوس فى قطوع الحفوزات (والثالث عشر) مقالة فى الحساب الهندسى (والرابع عشر) مقالة فى استخراج سمت القبلة فى جميع المسكونة بمداول وضعتها ولم أورد البرهان على ذلك (والخامس عشر) مقالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية ولا يستغنى عنه بشئ سواء (والسادس عشر) رسالة إلى بعض الرؤساء فى الحث على عمل الرصد النجومى (والسابع عشر) كتاب فى المدخل إلى الأمور الهندسية (والثامن عشر) مقالة فى انتزاع البرهان على أن القطع الزائد والخطان اللذان لا يلتقيانه (لا) يقربان أبداً ولا يلتقيان (والتاسع عشر) أجوبة سبع مسائل تعليمية سئلت عنها يبيد فأنجبت (والعشرون) كتاب فى التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتطلين ، وهو مجموع مسائل

(١) وهو الكتاب الاسمى فى الفلك لبطليموس

هندسية وهندية حللتها وركبتها (والحادى والعشرون) كتاب فى آلة الظل اختصره وخلصه من كتاب إبراهيم بن سنان فى ذلك (والثانى والعشرون) مقالة فى استخراج ما بين بلدين فى البعد بجهة الأمور الهندسية ، (والثالث والعشرون) مقالة فى أصول المسائل الهندية الصم وتحليلها (والرابع والعشرون) مقالة فى حل شك على إقليدس فى المقالة الخامسة من كتابه فى الأصول الرياضية (والخامس والعشرون) رسالة فى برهان الشكل الذى قلناه أرشميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه ^(١) .

وبلى ذلك ما ألفه ابن الهيثم من علوم الطبيعة والإلمية وهى أربعة وأربعون كتاباً ^(٢) ، ومن العلوم للبطونية وهى ثلاثون كتاباً ^(٣) .

(ز) الفلك والنجوم :

كان لعل النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يستمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على التنجيم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن بويه النخعي الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها . وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرئاسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد ^(٤) . ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

فمنذ الست والتسمي نَ قَطَعُ القول فى المُذَر

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سنة ست وتسعين ومائتين . وكان لهذه المفيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية . وكذلك حذو الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقاق ^(٥) أن مدينة

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٥ - ٩٨

(٤) حجارة اليمنى : تاريخ اليمنى (طبعة فخرى كامل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠

(٥) الانتصار لواطعة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

القاهرة التي بناها جوهر الصقلي سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي يسمى « القاهرة » .

وذكر المقرئى^(١) : « أن القائد جوهر لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالماً لوضع الأساس وطالماً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة ، فوقموا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فانفق أن غرايا وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فالتقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح للمنجمون : القاهرة في الطالع ، ففضى ذلك وقتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو ظاهر ذلك ، فسموها القاهرة » .

كذلك أهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم ، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المنظم أطلق عليه « الرصد الحاكمى » . واستعان بأبى الحسن على بن يونس للنجم المصرى التوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج الحاكمى^(٢) المعروف بالزيج الحاكمى وزيج ابن يونس الذى يقول فيه ابن خلكان^(٣) : « هو زيج كبير رأيت في أربع مجلدات ، بسط القول والميل فيه ، وما قصر في تحريره . ولم أرفى الأزياج على كثرتها أطول منه : وذكر أن الذى أمره بعمله وابتدأ له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر »^(٤) .

وفي سنة ٤٠٤ هـ نهى الحاكم أن يسترشد الناس بالنجوم ، وأن يباشروا علم ذلك ، وأمر بتفريق جميع المنجمين عن البلاد فاستنابوا بقاضى القضاة مالك بن سعيد العارقي .

(١) غلطج ١ ص ٢٧٧

(٢) الزيج بكسر الزاى هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ومنه يستخرج التنجيم ، أمضى صاحب الكواكب لسنة وهو فارسى . انظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٧ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ .

(٤) كان ابن يونس فوق شهرته في علم النجوم يحيد نظم الشعر ، ومن شعره :

أحل نشر الربيع عند هبويه رسالة مشتاق لوجه حبيبه .

ينفى من تحيا النفوس يقره ومن طابت الدنيا به وبطيه

ونابرا على يديه ، لأن الحاكم عند ذلك جريئة ، وبذلك ألغيت عقوبة النفي . وعومل نفس هذه المعاملة المشتغلون بالموسيقى ^(١) .

وقد ذكر أبوالمحسن ^(٢) عند كلامه على وفاة الحاكم أن « الحاكم كان ينظر في النجوم ، فنظر مولده ، وكان قد حكم عليه بالقطع في هذا الوقت ، فإن تجاوزه عاش نيفاً وثمانين سنة . وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل ويطوف القاهرة ؛ فلما كان تلك الليلة قال لوالده : على في هذه الليلة وفي غد قطع عظيم ، والليل عليه علامة تظهر في السماء طلوع نجم سماء ، وكأني بك وقد انتهكت وهلكت مع أختي ، فإني ما أخاف عليك أضر منها ... فقبلت الأرض وقالت : إذا كنت تتصور هذا فارحني واقض حقي ، ودع ركوبك الليلة ، وكان يجربها ، فقال : أفعل » . وكان ضجر الحاكم وخروجه آخر الليل سبب قتله .

(ح) التاريخ :

وكما حفل العصر الفاطمي بطائفة من المفسرين والأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء والمنجمين والرياضيين ، كذلك زخر بطائفة من المؤرخين والرحالة . لذلك نرى أن تأتي بأهم المؤلفات التاريخية والأدبية التي يعتمد عليها في بحث العصر الفاطمي .

ومن هذه المؤلفات كتاب « صلة تاريخ الطبري » لـ **عريب بن سعد** ^(٣) المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م) ؛ وقيمة هذا الكتاب في أن عريب بن سعد قد أضاف كثيراً إلى تاريخ الأندلس وشمال إفريقية (بلاد المغرب) . ولم يمدنا الطبري بشيء يستحق الذكر عن الفاطميين ، مع أنه تقدم عريب بن سعد ، لأن كلامه عنهم يحوطه شيء من التعموض والإيهام غير قليل .

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ .

(٢) انجم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٧ .

(٣) لا يعلم عنه شيء ، غير أنه شغل منصب الكتابة في بلاط الحاكم الثاني ٣٨٠ - ٣٦٦ هـ (٩٦١ - ٩٧٦ م) في قرطبة ؛ وفي حكاية ألف عريب هذا مختصراً لتاريخ الطبري . انظر مذكره دوزي (Dozy) عن عريب في كتاب « البيان المغرب » لابن خلدون (ص ٤٢ - ١٢ Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, I, 134, 236, and note : Wüstenfeld, Gesch. der Arab., No. 136 : Encyclopedia of Islam, s.v.

أما من العلاقات التي كانت بين الفاطميين في شمال إفريقية ومصر إلى أن تم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد الفاطميين (سنة ٣٥٨ هـ)، فإننا نذكر من بين المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم في بحثنا لتاريخ مصر في هذا العصر وعاشوا في الصدر الأول من أيام الفاطميين، وكتبوا عن تاريخ هذه البلاد في هذا العهد: ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م)، وأوتينا^(١)، (سعيد بن بطريق) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)، وأبا عمر الكندي^(٢) المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)، وهريث بن سعد المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧ م)، وأيا على منكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م). وقد اقتصر الطبري في تاريخه الذي ينتهي في عام ٣٠٢ هـ على ذكر المجهودات الأولى التي بذلها المهدي في سبيل غزو مصر. وقد تناول عريب بن سعد وسكويه الكلام على هذه الغزوات بشيء من الإسهاب. وقد أمدنا أوتينا والكندي، وهما مصريان المولد والدار وأقدم هؤلاء للمؤرخين بعد الطبري، بمعلومات أكثر تفصيلا وإسهابا في هذا الموضوع. وكتاب «المغرب في حلى القرب» لابن سعيد التوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م)^(٣) قد تضمن جزءا من كتاب ابن زولاق^(٤) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) السى «كتاب العميون الدمع في حلى دوة بنى طنج»^(٥). وهذا الكتاب يتناول سيرة الإخشيد؛ كتيبه مؤلفه في سنة ٣٥٠ هـ بأسر أبي الحسن على بن الإخشيد، ثم أتم ابن زولاق أيضا كتاب الكندي الذي يتناول الكلام على ولاية مصر إلى سنة ٣٣٤ هـ، وهي السنة التي مات فيها الإخشيد. أضف إلى ما تقدم، أن ابن زولاق ذيل كتاب الكندي^(٦) منذ وفاة الإخشيد إلى أن وصل العز الفاطمي إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية باسمه سنة ٣٦٢ هـ^(٧).

Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 108 (١)

Ibid. No. 124 (٢)

(٣) ورد هذا التاريخ في كتاب «فوات الوفيات» للكتبي (ج ١ ص ١١٢)؛ أما السيوطي فقد ذكر في كتابه «حسن المحاضرة» طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٢٢٠) أنه توفي سنة ٦٨٥ هـ (٤) ذكر ياقوت: إرشاد الأدب (ج ٣ ص ٧) أنه توفي في يوم الأربعاء ٢٦ ذي القعدة سنة ٣٨٧ هـ، وذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) أن وفاته وقعت في يوم الثلاثاء ٢٥ من الشهر نفسه، وذكر السيوطي (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩) أنه توفي في شهر ذي القعدة من هذه السنة.

(٥) ابن سعيد: كتاب المغرب ص ٤ — ٤٥.

(٦) كتاب الولاية والفتنة ص ٢٩٢ — ٢٩٨.

(٧) ابن سعيد: كتاب المغرب ص ٥.

ومن الكتب المعاصرة للدولة الفاطمية تاريخ ابن زولاق للتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ،
المسمى « فضائل مصر وأخبارها وخواصها » ؛ أنى فيه مؤلفه على تاريخ مصر منذ عصورها
الأولى . وابن زولاق حجة لا يستهان به فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين : أولاً
لأنه كان مصرى الجنس ومن أهلها ، وثانياً لأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه فى مادة
التاريخ . وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الأصلية عن تاريخ مصر ، من أمثال
كتاب « فضائل مصر » ، وهو عبارة عن خطط أو وصف « طبوغرافى » لمصر القديمة ،
تناول فيه مؤلفه — على ما ذكر ابن خلكان ^(١) — الكلام على هذا الموضوع من جميع
نواحيه ، وكذا كتاب « قضاة مصر » الذى جعله مؤلفه ذبلاً لكتاب القضاة لأبى عمر
السكندى إلى سنة ٢٤٦ هـ ، وأنه فيما بعد ابن حجر العسقلانى التوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) .

ومن الكتب التى ألفها ابن زولاق فى تاريخ مصر سيرة كافور وجوهر والمز
والعزيز . بيد أنه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ؛ ولا يعرف عنها شيء
الآن إلا ما أخذ منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده . هذا ، وتصانيف ابن زولاق
التي بقيت إلى اليوم هي ^(٢) :

١ — تاريخ قضاة مصر .

٢ — وسيرة الإخشيد المسماة « العيون الدعيج ... الخ » التي نقلها ابن سعيد فى
كتاب « المغرب »

٣ — وكتاب فضائل مصر ، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ،
ويختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . أما هذا المخطوط فقد أمدته
بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى عام ٣٨٦ هـ . وقد أم هذا
المؤلف الذى وضع أساسه ابن زولاق رجل من الأتراك ، يلوح لنا أنه أدخل عليه معلومات
استقاها مما كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق ، من أمثال أبى الفرج بن
الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ، الذى عرف حفيده باسم سبط بن الجوزى

(١) ج ١ ص ١٦٢

(٢) أنى ياقوت فى كتابه إرشاد الأريب (ج ٣ ص ٧) على أسماء الكتب التى صنفها ابن زولاق .

التوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) ، والدهي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) .

ومن مؤلفات العصر الفاطمي . كتاب « الديارات » لأبي الحسن علي الشافعي^(١) للتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م)^(٢) (برلين مخطوط فيار ١١٠٠) . وقد انصل الشافعي بخدمة العزيز ، فولاة خزاعة كتبه واتخذ جليسا له ونديما ؛ وذكر في كتاب « الديارات » أخبارا عن الأديرة في العراق والوصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل عن كل منها من الأشعار ، وما جرى فيه من حوادث وأمر . على أن هذا الكتاب على نقاسته لم يدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمي ، اللهم إلا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسي بـبنة وزيره الحسن بن سهل .

وهناك كتاب آخر هو كتاب « كنائس وأديرة مصر » لأبي صالح الأرمي التوفى سنة ٦٠٥ — ٦٠٦ هـ (١٢٠٨ م) ، وقد ألفه عقب غزو الأكراد والفرز هذه البلاد تحت قيادة شيركوه . كتب أبو صالح جزءا لا يستهان به من مؤله ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه هو بنفسه في زيارته لـكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها ، والكتاب مملوء بأمانة كثيرة عن الخيرات التي أعندتها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط^(٣) .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عن الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمستبجى^(٤) المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٢٩ م) ، الذي كتب عن مصر كتابا مسجها هو « تاريخ مصر » ، يقع في ستة وعشرين ألف صفحة^(٥) ؛ ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الإسكور بال

(١) ذكر ابن خلكان قولا عن كتاب (التامى) لأبي إسحاق العباسي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ أن الشافعي صاحب وشكير بن زيار الديلمي ، قتل في سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ — ٩٣٨ م) بالتقرب من أسبهان . وزاد ابن خلكان على ما تقدم فقال يظهر أن الشافعي اسم ديلمى شبه النسبة ، ويحتمل أن يكون أبو الحسن علي الشافعي من أبناء هذا الرجل فنسب إليه وبقي النسب في أولاده . ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧) .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) ثلاثة تواريخ لوفاة الشافعي ، وهي سنة ٣٩٠ هـ وصفر سنة ٣٨٨ هـ و ١٥ صفر سنة ٣٨٨ هـ ، وذكر هو التاريخ الأول . أما الثاني فقد نقله عن المسجى ، وذكر الثالث نقله عن شخص لم يذكر اسمه .

(٣) زهم إيفتس (R. T. A. Evetts) في مقامته لكتاب أبي صالح أن كتاب الديارات لـشافعي قد ضاع ، ولا يعرف لدينا إلا من طريق اللبارات التي اقتبسها منه غيره من الكتاب .

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣ و ٦٥٤) . السيويني (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٢١٩ . (٥) يقول ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣) إنها وقمت في ثلاثة عشر ألف ورقة .

بالأندلس ، وهو واحد من جملة تصانيفه التي بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود ، اللهم إلا في هذه المقتبسات التي نجدتها في المصادر الأخرى .

وقد كان المسيحي رجل فضل وعلم ، وكان على زى الأجناد . انصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢١ م) ، ونقل في أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم نقل « ديوان الترتيب »^(١) . ولا غرو فإن المسيحي حجة دامغة في تاريخ مصر في المصد الأول من أيام الفاطميين^(٢) .

ويجب ألا ننسى ثلاثة من الكتاب المعاصرين لفاطميين ، وهم مسكويه^(٣) المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وهلال الصائلي^(٤) المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) ، وأبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)^(٥) .

أما تاريخ مسكويه للسي « تجارب الأمم » فهو « على وجه العموم من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية »^(٦) . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث التي أعقبت مادونه الطبرى في تاريخه (وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ)^(٧) . وقد استطرد أبو شجاع في سرد

(١) رجم دى سلان (De Slane) في ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١) أن هذا الديوان كان في نفس المكان الذي يوجد فيه ديوان الرواتب ، وهو المثل الذي تنظم فيه الرواتب وتقدم مستحقها .

(٢) ذكر تصانيف المسيحي من جاء بعده من المؤرخين « كابين منجب » ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقرئ ، وأبي الحسن ، والسيوطي .

(٣) غنط الكتاب في صحة ثبوت القتب له أو لأبيه ، فيضهم كالتنوش (نشرار الحاضرة ص ١٧٣) وحاجي خليفة (رقم ٢٤٢٠) يزعم أن القتب متصل بأبيه ، في حين يقول غيرهم من أمثال يدع الزمار الحذافي (ص ١٥٧ ، وقد ساء مشكويه) وياقوت (إرشاد الأريب ج ٢ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٢) والقفطي (ص ٢٣١) وابن أبي أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٥) بأن القتب متصل به هو .

انظر المناقشة التي أوردتها الأستاذ مرجليوث (Prof. Margolionth) عن هذا القتب في مقدمته لكتابه مسكويه (ص ١١) ووستفيلد في كتابه (Gesch. der Ar. No. 182) .

(٤) نشر مستر أمدرود (Mr. Amedroz) ترجمة حياة هلال الصائلي من تاريخ سبط بن الجوزي ، وتتناول في جملتها الكلام بوجه التفصيل عن اعتناق هلال السلام .

انظر أيضاً ياقوت (إرشاد الأريب ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٢٦٧) ووستفيلد (Wüstenfeld : Gesch. der Ar. No. 198)

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٩١ - ٩٢

Prof. Margolionth : Preface to Miskawaih, p. VI (٦)

(٧) يقول القفطي (ص ٢٣١) إن تاريخ مسكويه ينتهي إلى سنة ٣٧٢ هـ .

الحوادث (وتنتهى فى سنة ٣٨٩ هـ) ؛ وتلاه هلال الصائى* فى تاريخه الذى ذيل به أمدروز (Amedroz) كتاب الوزراء ونقله عنه الأستاذ مرجليوث .

ولقد استمد مسكويه معلوماته التاريخية شفوياً عن تولوا الزعامة فى هذه الحوادث ؛ نخص بالذكر منهم الوزير الملبى فى بغداد المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وأمين خزانته^(١) ، وهو أبو الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) فى الرى . وكان لمسكويه ضلع فى كثير من الحوادث المهمة ، كما كان لهارة البنى وأسامة بن منقذ من بعده ، وهذا من الأهمية بمكان لمؤرخ مثله ، وعلى الأخص لأن للنصاب التى تقلدها كانت تلقى على طاقه كثيرا من المسئولية ؛ كما أنه كان فى استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم^(٢) .

وقد أسهب مسكويه فى تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه ؛ ولكنه لم يغفل أيضا أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للمباسبين ، مما له صلة بالجهود التى قام بها الفاطميون لتفتح مصر ، وكذلك العلاقات التى كانت بين المباسبين والبيزنطيين فى ذلك الوقت .

وقد أعقب ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراوى وزير الخليفة العباسى للقنشى ٤٧٩ — ٤٨٧ هـ (١٠٨٢ — ١٠٩٣ م) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على اللة التى بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ . وقد وقع أبو شجاع عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ فى أغلاط لم يشر إليها الأستاذ مرجليوث عند نشره تاريخ مسكويه ؛ ذلك أن أبى شجاع قد دون فى هذه السنة حوادث وقعت بعدها بخمس سنين أو عشر سنين . ومن الأمثلة التى تؤيد صحة هذا القول مسألة موت الخليفة الفاطمى العزيز وتولية ابنه الحاكم^(٣) التى حدثت فى سنة ٣٨٦ هـ ، وما يتعلق أيضا بقتل برجوان ، وإسناد منصبه^(٤) إلى الحسين بن جوهر فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ .

ولم يظهر للآن من تاريخ هلال إلا جزء واحد ذيل به . مستر أمدروز* كتاب

(١) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ٩٥

(٢) Prof. Margolionth : Preface to Miskawih, p. VI

(٣) ج ٣ ص ٢٢١

(٤) ج ٣ ص ٢٢٠ — ٢٢٢

الوزراء ، وقله عنه الأستاذ سرجوليوث . ويتحدث كتاب الوزراء عن التمديلات التي أدخلت على قانون الوراثة في عهد الفاطميين منذ ابتداء عهدهم .

وكتاب « الآثار الباقية » للبيروني^(١) المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)^(٢) يتناول الكلام عن نظم الطوائف والجماعات المختلفة . وهو حجة اعتمدت عليه في البحث عن الاحتفال بالأعياد القومية والدينية في عهد الفاطميين .

وماأسف له أخذ الأسف ضياع مؤلفات القضاى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ؛ ومن بينها كتاب « ميون الماروف وفنون أخبار الخلاف » ؛ وهو مختصر كتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين » . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٤٩١ ، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلى الذى لميت به يد الصياع . ومع ذلك فقد خلف لنا من جاء بسد القضاى من الكتاب ، من أمثال الفقه شندى والمقرئى وأبى المحاسن ، بعض شذرات فقلوها من هذا الكتاب . وجاء رجل من الأتراك — مجهول الاسم — فاختصر كتاب القضاى الذى أخذته مؤلف المخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ واستمر يسرد لنا الحوادث حتى عام ٩٢٦ هـ (١٥١٩ — ١٥٢٠ م) . وهذا المختصر يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويمتوى الجزء الذى منحصر بين وقتى ١١٥ و ١٢٦ من هذا الكتاب للسبب إلى القضاى ، وللوجود الآن بباريس ، على معلومات ذات غناء عن الخليفة الحاكم القاطمى . أما مؤلفات القضاى فقد عددها ابن خلكان^(٣) ؛ فذكر منها كتاب « مناقب الإمام الشافعى » ، وكتاب « تواريخ الخلفاء » ، وكتاب « خطط مصر » . ويظهر أن المقرئى نقل هذا

(١) " من أمال خوارزم أو خوارزميا وهى كيفا الخالية ؛ وبمارة أدق ، أحد مواطنى سحر (Berun) من أحياء عاصمة هذه البلاد . وكان يطلق على كل منهما (الحى والخامرة) اسم حورازم ، أو أحد مواضع أحد أعمال الخامرة ، ويسمى (Berun) أيضا " Sachau's Preface to Beruni's

Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. vii

ومن أراد التوسع فليرجع إلى ما جاء فى مقدمة نسخة العربية (ص ١٧ و ١٨) ، وكتاب الأنساب للمعلى ورقة ٩٨ ب (طبعة Gibb Memorial) حيث نقلت النسخة الأصلية " Beruni " خطأ .

(٢) يقول حسانى خليفة (رقم ٩٣٥٩) إن وفاته وقعت فى سنة ٤٣٠ هـ ، بخلاف ابن أبى أصيبعة

(ج ٢ ص ٢٢) ، فإنه ذكر أن ذلك كان فى سنة ٤٤٠ هـ .

الكتاب رمرت ، وأودعه كتابه الذى يعرف أيضاً بهذا الاسم .
والفصاعى ثقة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وكان من الثائمين فى الكتابة ،
حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبى القاسم الجرجانى (تقلد الوزارة سنة ٤١٨ هـ
وتوفى سنة ٤٣٦ هـ)^(١) يهد إليه فى أن يكتب العلامة^(٢) .

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر صلة كتاب أوتينا المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق » ، الذى كتبه يحيى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ؛ فقد تصدى
لكلام من المدة التى بينت سنى ٣٢٦ و ٤١٧ هـ (٩٣٨ - ١٠٢٦ م) . ولما كان من
المحتمل أن يحيى بن سعيد مصرى المولد ، وأنه قضى من حياته فى هذه البلاد مدة تقارح
بين خمسة وثلاثين وأربعين عاماً - كان ذلك كله مما يجعل لكتابنا فائدة خاصة بالنسبة
إلى الزمان الذى عاش فيه ، وللمكان الذى قضى فيه هذه الحقبة من عمره ، وهو مصر^(٣) .

وكتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) -
الذى يصد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابى* - وكتاب « الأنساب » لسماعى التوفى
سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦-١١٦٧ م) - كتاب جليل أيضاً من ناحيتى النسب والجغرافية -
وكذا تاريخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) . ولا يخفى ما لكل من هذه
الكتب من أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين .

ويظهر أن ابن القلانسى قد نقل كتاب أبى شجاع وكتاب هلال الصابى* ، إذا جاز لنا أن
نقول إن تاريخ أبى شجاع قد بنى على تاريخ هلال . ويلاحظ لنا أن كتاب ابن القلانسى مما
يمكن عدّه من المصادر الأصلية منذ مستهل القرن السادس من الهجرة ، كما يظهر من وصفه
للأحوال التى أدت إلى قتل الوزير الأفضل بن بدر الجبالى .

ويجب أن نشير فى هذا المقام إلى ما كتبه عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ،

(١) ابن منجب : كتاب « الإشارة إلى من قال الوزارة » ص ٣٥ و ٣٧ .

(٢) كانت العلامة أو الإشارة التى يديل بها القضاة الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية تشمل
هذه الكلمات : « الحمد لله شكراً لله » .

(٣) انظر لفظ أنطاكي (Antaki) فى دائرة المعارف الإسلامية . Brockelmann , Gesch. der

وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . فقد شاهد كل منهما ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين . ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين . وقد أمدنا في ديوانه وكتابه المسمى « التكت المصرية » بقوائد عظيمة عن هذين الخلفيتين والوزراء ، وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في محبوبة كرمهم وقصيح عطهم . ولا غرو فقد أتحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية^(١) .

أما أسامة بن منقذ فكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعائهم ، وله تصانيف عدّة في فنون الأدب . رحل عن بغداد كمكظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رُزْ بك سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه ، وما وقع فيها من حوادث . نخص منها بالذكر الحركة التي دارت بين جند الخليفة الفاطمي وأنصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ ، والوقعة التي دارت رحاها بين أتباع الوزير بن ابن السلال وابن مصل سنة ٥٤٤ هـ ، والوقعة الفاصلة بين أتباع هذين الوزيرين في السنة نفسها . كذلك قتل الوزير ابن السلال سنة ٥٤٨ هـ ، والخليفة الحافظ وإخوته وبني عمه سنة ٥٤٩ هـ ، والثورة التي أثارها الأهليون على قتلة الخليفة وبعض أهل بيته : وهما الوزير عباس وابنه نصر اللذان لقيتا حتفهما بهد ذلك بقليل — كل هذه المدومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابه^(٢) .

ومن مؤرخي العصر الفاطمي ابن أبي طي ، واسمه يحيى بن حميدة (أو حامد كما في رواية أخرى) ، ويكنى بابن أبي طي . وأصله من حلب ، وتوفى — كما يروي حاجي خليفة^(٣) سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ — ١٢٣٣ م) . وكان والده أحد أشراف بلده وطرده نور الدين

(١) انظر ابن حلكان (ج ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٧) .

Derenbourg, tome. II. Notices en Arabe par 'Oumâra et sur 'Oumâra (Paris, 1909).

(٢) انظر إرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ١٧٢ و ١٧٦ . ابن حلكان ج ١ ص ٧٨ و ٨٠ .

Derenbourg, Anthologie des textes, arabes inédits par Ousâma et sur Ousâma (Paris, 1893).

(٣) رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ الخ .

تخروجه في آرائه على الدين . ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد الشيعية التي كان الفاطميون يحدّون في نشرها في البلاد السورية . وأما ابنه يحيى فقد اعتنق تلك العقائد ؛ يؤيد هذا كتابه « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية » . وقد أتى على مؤلفات ابن أبي طى في السير والتواريخ حاجي خليفة^(١) ووستنفلد^(٢) . ومن المحتمل أن يكون انتشار العقائد السنية في بلاد الشام في ذلك الوقت هو السبب في أنه لم يصل إلينا من مؤلفات هذا المؤرخ إلا القليل . وقد وضع أبو شامة والمقرئ ترجمة ابن أبي طى لحياة صلاح الدين^(٣) في متناول أيدينا ، إذ أمدّا كل منهما بشذرات من كلامه . وكذلك بقي من مؤلفاته أيضاً شرح لامية العرب للشنفرى ؛ وقد ألفه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م)^(٤) .

ومن مؤرخي العصر الفاطمي أيضاً : أبو عبد الله محمد بن سعد القرطبي^(٥) . وكان أبو عبد الله محمد بن سعد القرطبي من ولد عمار بن ياسر ؛ وكان مولداً بالتاريخ ، رحل إلى اليمن وبلاد الهند ، وصنف كتاب « تاريخ مصر » في عهد الفاطميين . وقد وقف عليه ابن سعيد واستماه من رجل كان هذا الكتاب في حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه للغرب . ومحمد بن سعد القرطبي هذا من أحفاد محمد بن جعفر القرطبي ؛ وكان معاصراً للإخشيديين في مصر ، قلده مؤسس الحسبة بمصر ثم قلده الخراج^(٦) ، ثم نقله خراج مصر والشام في عهد ولاية تكتين^(٧) — ولي تكتين ثلاث مرات .

(١) رقم ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣١٢ ، ٤٦٤٧ ، ٧٢٢١ ، ٧٩٠٧ ، ٨٢٢٦ ، ١٠٩٤٠ ، ١٣٠١٩ .

(٢) Geschichte der Araber, No. 315.

(٣) حاجي خليفة رقم ١٠٩٤٠ .

(٤) انظر أيضاً (Hartwig Derenbourg : Vie d'Ousâma, Historiens orientaux des croisades, Vol. I, p. 403, n. 3, Introd. p. 4.)

(٥) لمرة اشتقاق هذا اللفظ ، راجع القاموس المحيط (طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ وكتاب الأسباب للمصنف ورتة ٤٤٧ . وهذا اللفظ منسوب إلى القرط الذي يملأ في الأذن ، أو إلى قروط ، وهو اسم يطلق على بعض أنواع بني كلاب إغرة قُرط وقُريط وقُرَيْط . والقرطبي الذي نحن بصدد الكلام عليه ، مشتق اسمه ، على ما ذكره ابن سيد (كتاب المغرب ص ٩٩) من القروط الذي تأكله الثواب بمصر .

(٦) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٨ .

(٧) المصدر نفسه ص ٩ .

ولي تكتين مصر ثلاث مرات (٢٩٧ - ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١١ - ٣١٦ هـ)

مؤرخو النظم :

ومن مؤرخي النظم الإدارية ، الماوردي ^(١) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) في كتاب « الأحكام السلطانية » . وهو أول ما كتب بالعربية عن هذه النظم في الإسلام ؛ ويمد من أعظم المصادر لما كتبه عن إدارة الشؤون العامة في أيام الفاطميين . على أن للنموس الذي يحيط بأسلوب الماوردي ، مما يزيد في قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن طباطبا الذي ألف كتاب « الفخرى في الآداب السلطانية » ^(٢) سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) ، والقنفذ الذي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، بل ما كتبه ابن خلدون والمقريزي ، على الرغم مما يعيب أسلوب هذين في كثير من الأحيان من ركاكة وغوض .

وكتاب « الإشارة إلى » ^(٣) من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ^(٤) .

أما كتاب « الإشارة » لابن منجب ، فقد أمدنا بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين ، لأن ابن منجب كان من أعيان زمانه ، وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في الخليفة الأسمر ، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ؛ وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين ^(٥) .

(١) كان الماوردي ، على ما ذكر السمعاني (كتاب الأنساب ورقة ١٥٠٤) يصحح ما ورد ، ومنه عرف بهذا القاب .

انظر أيضاً إرشاد الأريب لياقوت (ج ٥ ص ٤٠٧ - ٤٠٩) وابن خلكان (ج ١ ص ٤١٠ - ٤١١) ول' القفا (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٢) وصف الأستاذ نيكلسون في كتابه « تاريخ العرب الأدبي » (ص ٤٥٤) حاشية (١) (Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 454, No. 1) كتاب ابن طباطبا في العبارة الآتية : « وهو كتاب منيع عن السياسة الإسلامية . وإن ما يمتاز به أسلوبه من سهولة ، وعبارة على اختلاطها من شويق وإمتاع ، كل ذلك جعله خديراً بما يستحقه من إعجاب وامتنان . وإذا صرفنا النظر عن القرآن ، فإن لا أعرف كتاباً غير هذا يصلح لأن يكون مقفلة للأدب العربي » .

(٣) ذكر ياقوت (إرشاد الأريب) هذا القبط « في » .

(٤) أورد ياقوت سيرة ابن منجب في كتابه « إرشاد الأريب » (ج ٥ ص ٤٢٢) ، حيث ذكر أنه توفي سنة ٥٤٩ هـ ، وألفرد له أيضاً ابن ميسر (ص ٨٧) وغيره ترجمة خاصة به .

(٥) يمكن الرجوع إلى كتاب « إرشاد الأريب » لياقوت (ج ٥ ص ٤٢٢ و ٤٢٣) لمعرفة حياة ابن منجب .

والمقرئى كلام مستفيض من قانون الوراثة في عهد الفاطميين ، عند كلامه من الفقيه المالكي محمد بن الوليد الطرطوشى . ويحدثنا ياقوت أن الطرطوشى ينتسب إلى مدينة طرطوشة^(١) التى ولد فيها سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وطرطوشة مدينة بالأندلس تقع إلى الشرق من مدينة بلنسية التى تتصل بالسكورة المسماة باسمها .

وقد تنقل الفقيه الطرطوشى فى الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء فى أمهات العواصم الإسلامية ، من أمثال مكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ؛ ثم رحل أخيراً لمشاهدة مصر ، ونزل الإسكندرية واستوطنها ، وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . ولم يلبث أن تقرب إلى الوزير للأمان ، وأهدى إليه كتابه « سراج الملوك »^(٢) .

وكان من مظاهر سرور الوزير بإهداء الطرطوشى له هذا الكتاب ، أن رتب له خمسة دنانير فى كل يوم من مال الجوالى ؛ فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجبالى قد أجراها عليه .

الجغرافية والرموز :

كان لاتساع نطاق التجارة فى هذا العصر أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتعميد السبل أمام السكاشرين والرحالين . فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ، ووضوا فى أوصافها للكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها ، وصفاً دقيقاً مبنياً على للمشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هى خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التى اكتبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التى خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا فى العصر العباسى الثانى . ويعتبر ابن خرداذبة الفارسمى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى من أقدم جغرافئى المسلمين فى العصر

(١) ذكر السمعاني هذا اللفظ فى كتاب الأنساب (ورقة ٣٧٠) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٩٠٧) . وغالبه فى ذلك ياقوت ، فذكره فى « معجم البلدان » طرطوشة .
(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٠٩) أن هذا الكتاب ليس « سراج الملوك » وإنما هو كتاب « سراج الهدى » .

العباسي ، فقد خلف لنا كتابه « السالك والمالك »^(١) ، ويعتبر بحق من أئمة الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة العربية وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبله ، ويصل إلى الهند والصين .

ومن جغرافيه هذا العصر : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح اللقب المتوفى حول سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب « البلدان . وقد قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته في كتابه ، والمهداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٧٣ م) ، وقد ألف كتابه « صفة جزيرة العرب » . وكان أبو الحسن علي السعدي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٥٦ م) من كبار الرحالة المسلمين ؛ وقد زار كل أرجاء العالم تقريباً ، فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنيب ، وسحب التجار إلى بحار الصين ، كما زار زنجبار وسواحل إفريقيا الشرقية والسودان ، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى^(٢) وبلاد الشام وفلسطين ، وزار مصر في عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ .

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة في القرن الرابع الهجري شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف ، بإسحاق المقدسي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وكتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية^(٣) .

ومن المصادر التي عاش مؤلفوها في الأيام الأخيرة من عهد الفاطميين كتاب سفرنامه (Safar Nāmah)^(٤) لناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م) . وهو كتاب له أهمية في تاريخ الفاطميين ؛ لأنه فضلاً عن أن ناصر خسرو كان إسماعيلياً ينتصر للمذهب الإسماعيلي ، فإن هذا الوصف السهب الذي كتبه عن زيارته لمصر (٤٣٩ - ٤٤١ هـ) في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومنح رخائها ووفرة ثروتها في العصر الفاطمي^(٥) .

(١) نشره دي غوبه في لندن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤ - ١٨٣) ، ويليه لب من كتاب المراج وصحة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكتاب الكبيدادي ، ويشمل الباب الحادي عشر من هذا الكتاب وعنوانه : في ديوان البريد والسلك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب (ص ١٨٤ - ٢٦٦) .

(٢) ذكره محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص ٣٩ .

(٣) نشره دي غوبه (لندن ١٩٠٦ م) .

(٤) طبع المسيو شفير (Schéfer) مثله بالفرنسية وترجمته الفرنسية مع الحواشي والتعليقات

(٥) استفاد ستانلي لينبول Stanley Lane-Poole وأوليفر O'Leary من وصف ناصر خسرو لمصر

فيها كتابه من الدولة الفاطمية في مصر .

وقد آمدنا ناصر خسرو حين زيارته لمصر في سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) في عهد المستنصر، بوصف ضانيه عن ثروة البلاط العاطسي وأهله، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء . وكان ناصر خسرو وزيراً في خراسان؛ ثم اعتزل الأعمال السياسية ومال إلى الدين؛ فخرج بيت الله، وأصبح داعياً للإسماعيلية . وإنه ليقص علينا في كتابه « سفر نامه » . ما لاقاه في رحلته إلى مكة، ثم إلى دمشق فبيت المقدس، وأخيراً إلى القاهرة التي وصل إليها في السابع من صفر سنة ٤٣٩ هـ (٧ أغسطس سنة ١٠٤٧)، فأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ .

وسد أن شاهد كثيراً من المدن المظلمة في بلاد الفرس والعراق، رأى أن القاهرة قد فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامي في النظافة والجلال . وكان مغالياً في عقائد الإسماعيلية، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسي للمذهب الذي يدين بقائده، كما اعتقد أيضاً أن الفاطميين هم الأئمة حقاً؛ وقد عبر عن كل ذلك في كتابه .

ثم اعتزل السياسة، فخرج بيت الله، وعينه الخليفة المستنصر كبيراً لدعاة الإسماعيلية في خراسان، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسي للمذهب الذي يدين بقائده، كما اعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً .

وإن في وصف المقرئ الآتي لبعض المصورات الثمينة المتقنة الرسم، ليدل على ما كان يحده العاطميون من لذة في الجغرافية والتاريخ . وتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من إبداع وإتقان إذا ما نظرنا إلى مقدار ما أضيق على صنمها من الهداير . ويقول المقرئ في ذلك إن المزمخلف لنا خريطة كان قد أمر بسماها سنة ٣٥٣ (٩٧٣ - ٩٧٤ م) من الحرير الأزرق الشترى^(١) والنزفوي^(٢) المنسوج بالذهب، وكان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم، بما فيها من جبال وبحار وأهار وطرق ومدن . ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . وكان مكتوباً في أسفل هذا المصور: « بما أمر

(١) نسة إل ثمر، وهي معرفة من شتر، أشهر مدن غوزستان (انظر Dozy, Supplément)
(٢) الترتب طائر يرى في النذر والمستنقعات (انظر هذا اللفظ في مصمم البلدان لياقوت) . ومن هذا اللفظ قبل تماش قرقيس، وهو نوع من القماش كان يصنع أولاً في بلاد اليونان، ثم أدخلت صناعته إلى مصر، فصار يصنع غالباً في دياط وتنيس . وهذا القماش مشهور بألوانه اللامعة التي تتميز دائماً، لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس .

بصلة المزددين الله ، شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً للعالم رسول الله ، في سنة ثلاث وخسين وثلاثمائة . وهذا المصور الذي كلف المزدتين وعشرين ألف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الأتراك سنة ٤٦٠ هـ .

وقد وصف لنا المقرئ ^(١) مصوراً آخر تركه الحاكم ؛ فقال : إن ذلك العمل القبيح الدقيق كان محل بكيتين من الجواهر والأحجار الكريمة ، وقد كُفَّ الحاكم سبعمائة ألف دينار ، غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين ألفاً فقط .

وكان هناك بالمصر مصورات أخرى كثيرة كان حفظها كخط المصورات التي تكلمنا عنها . فإن المقرئ يستطرد في الكلام فيذكر أنه قد وجد بالمصر نحو ألف متر من ركشة بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم ، وموجز لحياة كل منهم ^(٢) . وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان بناله الصناع الحاذقون من الفاطميين ؛ وهي تبين لنا أيضاً كيف كان للمسلم الفاطميون بممالك العالم المروقة لهم في القرن الثاني عشر الميلادي .

ومن المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي (أو المقدسي على الأصح) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ؛ وهو كتاب قيم من الناحيتين الجغرافية والتاريخية . ومن هذه المصادر أيضاً كتاب « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » لأبي عبيد البكري المتوفى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٩٤ م) . وهذا الكتاب أحد أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب « المسالك والممالك » .

(١) حط ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) المصور نفسه ج ١ ص ٤١٥ .

انظر كتاب « صفة جزيرة العرب » لهيدان (طبعة 1884 Müller, Leyden) (ج ١ ص ٦ - ٥) ، وخريطة العالم للإدريسي ، (Charta Rogeriana Weltkarte und Kleine Idrisikarte) (Stuttgart, 1926-1927) Konrad Müller وهو عمل مدهد جداً طبعه ميرو (Müller, 1926-1927) . ومعه مجموعة من خرائط أخرى رسمها الإدريسي (١٢٥١/٦٤٩٤) الذي عاش في القرن السادس الهجري ، وهو المصمم الذي نشير إليه في كلامنا الآن . وهذا العمل الدقيق الذي قام به الإدريسي يربطنا بمعرفة العرب بممالك العالم المختلفة - سومتها - بل قد لنا أن نعلم أن العرب كانوا لا يجهلون ألمانيا والسويد والنرويج ، ونحوها من الأصقاع المختلفة . ومن المحتمل أن تكون معلومات الإدريسي هذه نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا في الحروب الصليبية . انظر أيضاً (Stuttgart, 1927) « Arabische Welt und Länderkarten » (Mapae Arabicae) والمجلد الثاني (Stuttgart, 1927) . ولا شك في أن جميع الممالك التي ذكرها الإدريسي كانت مثلة على تلك المستورد المغربية التي كانت بقصر الفاطميين .

الباب الثاني عشر

الفن الفاطمي

١ - تخطيط المرد :

(١) تأسيس صربنى المهديّة والمنصورية :

أقام عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التي أسسها عقبة ابن نافع ، واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها « المهديّة » . وقد عزا البكري^(١) بناء هذه المدينة إلى محاولة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ومن معهم من كتامة قتل المهدي والتفكيك بأهل القيروان .

خرج المهدي إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبنى فيه مدينة حصينة يستصحبها إذا خرج عليه أحد الخوارج . وقيل إنه وجد في بعض الكتب ما يدل على خروج أبي يزيد محمد ابن كيداد على دولته^(٢) . ووفق المهدي إلى موضع المهديّة ، وهي متصلة بالبحر كهشة كف متصلة بزند ، فتأملها ، فوجد فيها راهباً في مفارقة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء . فأعجبه هذا الاسم ، فبناها وجعلها دار مملكته^(٣) .

تقع المهديّة على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان . وقد ذكر البكري^(٤) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منها ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً ، ووزن كل سيار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرباط . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات . وأقيم بها ثلاثة وستون صهر بماء حار ما كان يجري فيها من القنوات .

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) انظر لفظ المهديّة في معجم البلدان لياقوت .

(٤) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٩ .

ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافذة للسلع التي كانت تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها^(١) . ومرسى المهديّة « منقور في جبر صلد يسع ثلاثين مركباً ، على طرف المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد . فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة . ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقتها مراكب الروم^(٢) .

وقد بنى المهدي بمدينة المهديّة داراً للصناعة سمع أكثر من مائتي مركب ، وفيها قيوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر^(٣) .

فرغ المهدي من بناء حاضرتة الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ . قال : « اليوم أمنت على القاطنين » ، يعني بناته . ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الحدكاكين ورتب فيها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصاً بها ، فقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة أهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة^(٤) .

وقد أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهديّة ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً ، وأحاطها بسور وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الحدكاكين بحرهم وأهاليهم وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائبتهم ، وذلك أن أموالهم عندي ، وأهاليهم هناك . فإن أرادوني بكيد وم زويلة ، كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادوني بكيد وم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك ، وبقيت بيني

(١) المصدر نفسه

ذكر البكري (ص ٨٤ - ٨٦) أن السفن التي كانت تخرج من المهديّة كانت تمر في طريقها إلى الإسكندرية بكثير من الموانئ كمينّة قايس ، ومرسى الأندلسيين ، ومرسى مدينة أطرابلس ، ولبدة ، وسرت ، وأجنادية ، وسوسة ، وبرقة ، وثني ، وطبرق ، والجزيرة ، والسلام ، والأندلسيين ، ثم تصل إلى الإسكندرية .

(٢) البكري ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠ - ٣١ .

وبينهم سوراً وأبواباً . فأننا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأننى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً ، وبينهم وبين حرمهم نهاراً^(١) .

ويظهر أن المهدي حذا في ذلك العمل حذو أبى جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ .

وقد ظلت المهدي عاصمة آهلة بالكان حتى أرسل إليها رودجر صاحب عقيلة أحد قواده سنة ٥٤٣ هـ ، فاضطر إليها الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس إلى الحرب . وبقيت هذه المدينة في أيدي الفرنجة حتى قدم عبد المؤمن إلى إفريقية سنة ٥٥٥ هـ فاستولى عليها .

وقد بقيت مدينة المهدي حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة الفاطمى القائم ، وولى ابنه للنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبى يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فأخذ مدينة صيرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ ، فسبغت المنصورية نسبة إليه .

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب : الباب القبلى ، والباب الشرقى ، وباب زويلة ، وباب كُتامة ، وباب المتوح . وكان جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير . وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرتة الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات ، فزدهمت فيها الصناعة والتجارة ، وأصبحت على جانب عظيم من التقدم ، وغدت حاضرة الفاطميين إلى أن قدم الخليفة المعز بن المنصور مصر في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، فأصبحت مدينة القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية^(٢) .

(ب) تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أهم ما يرى إليه ولاة المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية التى فتحوها ، أن يؤسسوا قاعدة للمكهم تسع جندهم ، وتأوى أنصارهم ، وتضم بين جوانبها

(١) انظر ليكرى : المغرب ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ - ٣٢ ، ٨٤ .

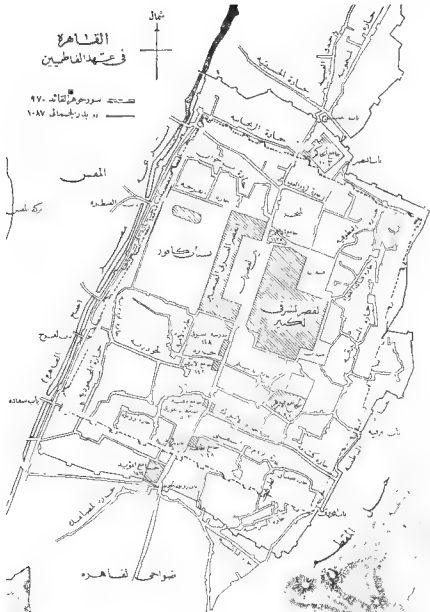
انظر لفظ المهدي في معجم البلدان لياقوت .

(٢) ليكرى ص ٢٥ . انظر لفظ المنصورية في معجم البلدان لياقوت .

القاهرة في عهد الفاطميين



مساحة سور حصار القاهرة ٩٧٠
وحد بدار الجهاد ١٠٨٧



مقياس الرسم ١:٢٥٠٠٠
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١

دواوين حكومتهم ، ثم يتون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس مدينة القسطنطين . وجاء بعده صالح بن علي العباسي ، فأسس هو وأبو عون مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر ، فوضع أساس القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، بعد أن استولى على مدينة مصر^(١) ، كما وضع أساس قصر مولاه المنز .

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتحاد القسطنطين أو العسكر حاضرة لمصر ، وتفكيره في تأسيس حاضرة جديدة تنفي بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف أبي جعفر المنصور عندما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمامه حواضر إسلامية عدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة لخلافته . ولكنه نظر إلى المدينة المنورة ، فوجدها لا تصلح لأن تكون حاضرة لخلافته : فقد اتسعت رقعة الدولة العباسية في أيامه ، ولم تكن المدينة بحيث تتوسط هذه البلاد . كذلك وجد دمشق حافلة بآثار الأمويين وذكرياتهم ، ولا تستطيع أن تقف في وجه البيزنطيين الذين كانوا يهددون بلاد الدولة العربية . كما وجد الكوفة تنبع عليها وأولادها . أما الحشمية ، فكانت قريبة من الكوفة . وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، وخاصة بعد واقعة الزاوية . لهذا فكر المنصور في الاتجاه إلى الشرق ، حيث كان أنصاره من الفرس فأسست الدولة العباسية على أكتافهم ، فأسس مدينة بغداد لتكون حاضرة لدولته .

كذلك فعل كل من قسطنطين والإسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن رومة لا تصلح لأن تكون حاضرة لدولته ، لتربها من بلاد اليونان موطن الديمقراطية ؛ فحول وجهته نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردي القديم . ورأى موقع بيزنطة ينفي بأغراضه ، فأتخذها حاضرة له ، وظلت هذه المدينة حاضرة للدولة الرومانية الشرقية إلى أن فتحها المسلمون على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م .

أما الإسكندر فقد اختار موقع قرية « راقودة » لتأسيس مدينة الإسكندرية واتخذها حاضرة لدولته في مصر ، لتربها من بلاد اليونان ووقعها على البحر الأبيض المتوسط ،

(١) كانت تطلق على القسطنطين والعسكر والقسطنطينية .

ولأن اليونان بلاد بحرية . ومن ثم كان من الضروري أن تتخذ حواضرها على البحر
لنجدها عا تحتاج إليه من الأنوات وترسل إليها النجيدات .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر القاطنين الذين يقيمون دولتهم
على أغاض دولة أخرى ، أن يتخذوا حاضرة جديدة تفي بمحاجات دولتهم الناشئة .

وضع جوهر أساس القاهرة عاصمة القاطنين الجديدة ، والتي لا تزال إلى اليوم ، في
١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ . ولما فرغ من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمي المدينة كلها
لنصورية نسبة إلى النصور أبي العز ؛ وظلت هذه التسمية حتى قدم للز مصر فسميها
القاهرة المزينة . وتقع هذه المدينة شمال القطاط ، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة
جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمي المدينة كلها للنصورية
نسبة إلى النصور أبي العز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم للز إلى مصر ، فسميها
القاهرة للزينة .

وقد اختلف للزخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق إنها سميت
كذلك ، لأن أساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا
بديار مصر ، وهو كوكب يقال له « القاهرة » . ويقول للقرنزي إن القائد جوهر لما
أراد بناءها ، أحضر للنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهرة مصر ، ليقم بها الجند ،
وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً ، فاختروا
طالما لوضع الأساس ، وطالما لوضع السور ، وجعلوا بدار السور قوائم خشب بين كل قائمين
حبل فيه أجراس ، وقالوا للمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين
والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن قرأوا وقع على حبل من تلك
الحبال التي فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن المال أن النجمين قد حركوها ، فألقوا
ما بأيديهم من الطين والحجارة ، وبنوا فصاح النجمون : « القاهرة في الطالع » ، فضى ذلك
وقتهم ما قدوه . ويقال إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر
الملك ، فسموها القاهرة .

ونحن لا نستبعد ذلك ، ولا سيما أن المرز ، على ما ذكره ابن القلانسي ، كان مغرماً بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه في كل ما يتعلق بحياته الخاصة ، وفي أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التي يخلقها الناس ويتحدثون بها عن تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر القريري نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت للقاهرة ، لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذاً من قول المرز لجوهر عند مسيره لفتح مصر : « ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

وتقع القاهرة المزينة شمالى القسطنطية ؛ وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية .

أما الجهة الغربية فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين وتمتد شمالاً بباب النصر ، وجنوباً بباب زويلة ، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن) ، وغرباً بباب السعادة وباب الفرنج وباب الخوخة .

وكانت للقاهرة المزينة تشمل أحياء جامع الأزهر والجلالية وباب الشرية واللوسكي والنفورية وباب الخلق^(١) .

ويقال إن المرز لما قدمها في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها وقال : « يا جوهر أفا تترك عمارتها ههنا^(٢) » ، يريد القس^(٣) .

وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد القريري بقاياه سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) ؛ وقد تحلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » ، وكان يسع عشرة آلاف من الجنود ، ولا زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين وإلى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بمخان الخليلي ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد ، بعد أن بنى المرز

(١) القريري : تخطيط ١ ص ٢٧٣ .

(٢) 'قريري : انماط الحفا ص ٧٤ .

(٣) وكانت تقع على النيل عند جامع أولاد عثمان الآن .

بأنه قسرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لولاء المزم على جانبه الشرقى ، عند مبدأ هذه المدينة الفناء الذى أشأها كافور ، واستحوذ عليها الخلفاء الفاطميون فيها بعد .

وقد اختط طريق عام يمتدق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة القسطنطينية مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح ، وكان يوصل إلى الفناء الواقع فى الشمال . وإلى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمادى سنة ٣٥٩) بعد أن وضع أساس الماسحة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . وإلى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة القسطنطينية التى ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهلى حتى نهاية عهد الفاطميين . وإلى الغرب تقع القلعة ، وكانت تمتد إلى النيل ؛ وظلت ميناء القاهرة إلى أن تمحى مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، فهد ذلك السيل لتأسيس بولاق .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هى بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب المدينة التى أسسها جوهر (القاهرة) كان يبلغ ألفا ومائتى متر . ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً (الفدان ٢٢٠٠ متر مربع) ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين ، وخمسة وثلاثين للمكان المحصى لاستعراض الجنود ، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذى أعلمه أمير الجيوش بدر الجبالى فى مساحة المدينة ستين فداناً . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ؛ وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم ، وهى باب زويلة و باب الفتوح و باب النصر ^(١) .

٢ - المنشآت المعاصرة المدينة

(١) القصور والحدائق والمباني :

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة القسطنطينية فى سنة ٣٥٨ هـ ، هكفى السهل

(١) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 21

الرملى الذى يقع إلى شمالها ، ويحده من الشرق تلال المقطم ، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين . وقد بنى فى هذا المكان القصر الشرقى الذى أعده لاستقبال مولاة الخليفة المزم ، وأخذ حول هذا القصر دورا للجند والموظفين والأتباع . وموضع هذا القصر هو المكان الذى يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلي الآن . وقد بنى العزيز كثيرا من المنشآت التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده ؛ فبنى « القصر الغربى » الذى يقع غربى القصر الشرقى . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من قصر المزم ؛ لذلك أطلق عليه « القصر الغربى الصغير » تمييزا له عن « القصر الشرقى الكبير » . وكان يقع مكان سوق النعاسين وجامع قلاوون تقريبا . وبين القصرين ميدان فسيح لمرضى الجند ، أطلق عليه « بين القصرين » .

وقد ذكر ابن دقاق أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير : وهى باب الذهب ، وتعلموه منظره يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف بـ « رحبة العيد » . وبجواره دار الضيافة ، وتسمى بـ « دار سعيد السعداء » ، وباب قصر الشوك ، وباب الدلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقال له الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقى من القصر ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة ، أعنى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزان القصر^(١) .

وقد رار ناصر خسرو القصر الخلاق ، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهوا وعشرة أبواب . وكان موضعه وسط القاهرة التى كان بها عشر حارات . وكان حراسه ألفا ، منهم خمسمائة فارس ، وخمسمائة راجل . وإذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق ، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس^(٢) . كما تعرض القرينى لوصف هذا القصر ، فذكر أنه كان به عشرة آلاف من الأشرف ، وثمانية آلاف من الخدم . كما ذكر ، نقلا عن ابن عبد القاهر ، أنه

(١) ابن دقاق : الانصاريج ٤ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٢٨ .

كان بالقصر الخلافي حين استولى عليه صلاح الدين عند سقوط الدولة الفاطمية اثنا عشر ألفا كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده . كما ذكر هذا المؤلف أن هذا القصر قد جرده الخليفة الأمر في سنة ٥٢٢ هـ ، وكان مجلس في أعلاه ، وبشاهد ذكر الصوفيين من نافذة حملت لذلك ، وأوليتهم بين أيديهم ، والشموع تضيء لهم . وكان تقام لهم اللوائد ، وعليها مائدة وطاب من سائر أنواع الأطعمة^(١)

وكان الخلفاء فوق ذلك يتنون المناظر ، فبنوا بالمقس ثلاثا منها ، إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، والثالثة يقال لها الزاهرة والفاخرة والفاخرة . وكان الخليفة في إحدى هذه المناظر يمرض المساكين يوم الصدير ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب^(٢) .

وقد أنشأ الفاطميون كثيرا من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات ، وكانت كلها ملكا خاصا للخليفة . وكانت الدكاكين في القاهرة كذلك ملكا خاصا له ، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا بالطين ، يفصل بعضها عن بعض حداثق بهيجة^(٣) .

(ب) دور العلم :

كانت سياسة الفاطميين الدينية تقوم على نشر عقائد الإسماعيلية مما ساعد على قيام مجالس لدراسة المذهب الشيعي في مصر ولا سيما في عهد الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب ابن كلث . فكانت حلقات الدرس تعقد بالجامع الأزهر ، كما كانت دار الوزير يعقوب ابن كلث مجلسا يحضره الفقهاء . وكذلك كان شأن جامع عمرو بمدينة الفسطاط ، وكانت مركز الحركة التجارية والعلمية في ذلك العصر . كما أنشأ الخليفة الحاكم دار العلم في القاهرة . ولم تقتصر مجالس العلم أو حلقات الدرس على القاهرة وحدها ، وإنما غطرت بها مدن أخرى مثل الإسكندرية ، فأقيمت بها في نهاية العصر الفاطمي حلقات أخرى للدرس ، اهتم بها

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٨٤ وما يليها .

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٠٤ .

(٣) قاصر عمرو : سفر نامه ص ١٣٢ .

الوزير رضوان بن الوخشي في سنة ٥٣٢ هـ ، والعاذل سيف الدين علي بن السّار قبل سنة ٥٤٨ هـ . وكانت حلقات القوس هذه تركّز اهتمامها على نشر المذهب الشيعي بين الناس . وظلت الحال كذلك حتى جاء صلاح الدين الأيوبي ، فأكثر من إنشاء المدارس السنية ليقضي على الخلافة الفاطمية وعلى للمذهب الشيعي ^(١) .

أما كلمة مدرسة بالمعنى الاصطلاحي فقد ظهرت أول ما ظهرت في نيسابور ، ثم في عدة مدن أخرى إلى أن جاء نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي فأسس مدرسته المعروفة باسمه في بغداد في سنة ٤٥٧ هـ ، وخصصها للمذهب الشافعي . ثم اقتدى الناس به من حيثئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر ، وفي بلاد الجزيرة وديار بكر .

ولما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، أبطل للمذهب الشيعي من مصر ، وأقام المذهب الشافعي والمذهب المالكي ، مقتدياً في ذلك بالملك نور الدين محمود بن زنكي ، الذي بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب وغيرها ^(٢) .

٣ — المنشآت الحربية : أسوار القاهرة ومناظرها

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، ضم الخطط التي تكونت فيها القاهرة المزينة . وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع بخارجها بظاهر القاهرة ؛ وهو خطط وأحياء جديدة ، تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل للعظم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية ^(٣) . وكان سور المدينة الغربي بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً . وفي سنة ٤٨٦ هـ ، في وزارة مدر الجمالي وخلافة المستنصر بالله الفاطمي ، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر .

(١) القرطبي : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٣) القرطبي : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

ولما اختط جوهر مدينة القاهرة ، جعل لها أربعة أبواب : هي بابا زويلة ، وباب النصر وباب الفتوح . ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف باسم بن نوح عليه السلام . ولهذا سمي « باب القوس » . وقد صرته المزم عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرّون منه تبرّكا . أما الباب الثانى فقد تشابه منه الناس وهجروه . ويقول القلقشندى ^(١) إن جوهر اسمى بابى زويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجالى وزير الخليفة المستنصر مصر سنة ٤٦٥ هـ ، بنى باب زويلة الكبير ، ونقل باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى به الآن ، كما بنى باب الفتوح فى مكان آخر غير الذى بنى فيه جوهر بابا . وإن هذه الأبواب الثلاثة من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الزها .

وعما هو جدير بالملاحظة أن المناظر التى كانت تستخدم أما كنقطة ، كانت فى الواقع تستخدم فى أغراض عسكرية ، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة القاطية أو على تلال القلعة المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً ، وبدليل خروج الخلفاء إليها فى حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبّلها عند هودتها من ميدان القتال . ويدعونا هذا الزعم إلى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة عسكرية أحس أمير الجيوش بدر الجالى وزير الخليفة المستنصر بالحاجة إليها حين أشرف على إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها . وسرى ذلك فى شيء من الإسهاب عند كلامنا على الحالة الاجتماعية .

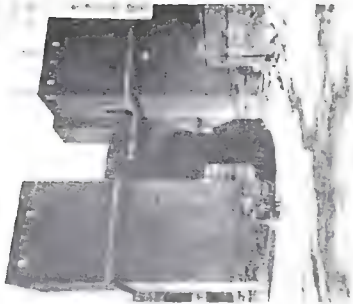
٤ — المنشآت الدينية : المساجد

(١) الجامع الأزهر :

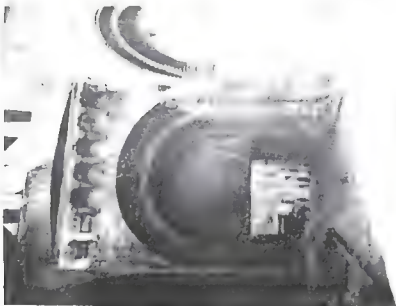
ولما تم لجوهر الصلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأسس مدينة القاهرة فى نفس القيلة التى دخل فيها مدينة مصر (أى الفسطاط والمسكر) ، لم ير أن يفتاح " السنين فى مساجد " بإقامة شعار المذهب الماطلى ، حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع أساس الجامع

(١) صح الأضواء ج ٣ ص ٣٥٢ . للقرنيزى : مخطوط ج ٦ ص ٣٨١ .

باب النصر، بني سنة ١٨٤٥ هـ



مسجد بني سنة ١٨٤٥ هـ



الأزهر في يوم السبت ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ ^(١) .

وبشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، هذا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التي بناها جوهر فقيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون في صفوف متوازية . وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن ككتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد ، وسقف المقصورتين من الخشب اللين الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص ، وزينت حيطاته بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل .

وقد أشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمة » ؛ ثم أقيمت به تسعة محارب أخرى ، لم يبق منها جميعاً سوى ستة أشهرها اثنتان : أحدها بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب النقي . وللجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المحرط الجميل الصنع . وقد نقل للنير الأصيل القى أنشاء جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس ، وفي ليالي رمضان والمواسم .

وكاوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الليقاني ، ومهنته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يعرف الأوقات بالنظر في الزلزلة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن

(١) انقريزي : عجلج ٢ ص ٢٧٢ ، قلقشنده : صبح الأشج ٣ ص ٣٦٤ .

الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشماثر ، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون . ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يقوب بن كلس على الخليفة المميز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية . وقد عمل الخليفة المميز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المال كل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأشتوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف ، وأهدوا إليه المهابت الجليلة ، فاستغنى بذلك .

وكان الخليفة المميز بالله الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجامعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرون القرآن إلى صلاة العصر .

وفي الوقت نفسه نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا ، فحس الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان في محرابه منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب المسجد العتيق ، فاقتلعهما صلاح الدين وغيرهما من المناطق في كافة المساجد ، وذلك في ١١ ربيع الأول سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، أي بعد سقوط الدولة الفاطمية بستين^(١) .

ولقد تماقت الزيادات على البناء الأصلي ، وزيد في العيين الموقوفة عليه عاما بعد عام ؛ وتحول الأزهر من مسجد إلى مركز عظيم للعلم ، وغدا يشغل مساحة قدرها ١٣٠٠٠ متر مربع ، وبلغ عدد أعمدته ثلاثمائة وخسة وسبعين .

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المنز ، فاستغنى

عما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وكان العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر إلى جامعة ، وأول من ابتني بجواره داراً لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون كما تقدم ؛ فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر . وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق ، وأغدق عليهم وزيره ابن كلثوم الصلوات .

وفي سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الأسمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرها . وفي عهد الأيوبيين حل بهذا الجامع الدمار ، لما قام به هؤلاء السنيون القنالة من إزالة آثار الفاطميين الشيعة ؛ فأبطل صلاح الدين الخطبة في الأزهر ، كما انتزع كثيراً من الأوقاف التي وقفها عليه الحاكم الفاطمي . وظلت صلاة الجمعة معطلة في هذا الجامع نحواً من قرن ، إلى أن أسمر الملك الظاهر بيبرس بإقامة الخطبة من جديد ؛ وقدم إليه الهبات واتخذ مسجداً للحلم ، وذلك سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) .

ولقد سار بعض الأسماء على مثال الظاهر . ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجداً وداراً للحلم كما كان أيام الفاطميين ، فأزهر وأينع . وفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أضر به الزلزال الذي كان عصر في ذلك العهد ، فسقط الجامع ؛ فتولى الأمير سلاسل عمارته ، ووجد ما تصدّع من بنيانه ؛ ومن ثم بنيت حوله المدارس التي ألحقت به فيما بعد ، ولا تزال تابعة له إلى اليوم ^(١) .

(ب) جامع الفرافرة :

في سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م) أنفقت نفريد زوجة المزمزم المالكة على تشييد مسجد لها بالفرافرة . وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ؛ وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة عام وصهرج . واحتفظ هذا المسجد على شكل صومع الزوايا ؛ وفي جوانبه أروقة كالأزهر ؛ بيد أن نقوشه كانت في غاية الإبداع . أما بابها فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحاً بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر باباً

مربية ، أمام كل باب قطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مُكَنَدَجَةً^(١) مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت القوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبيعياً ؛ وقد حاول النقاشون أن يحاكيوها فما استطاعوا^(٢) .

وقد أسمرت زوجة المزم الحسن بن عبد العزيز المحتسب الذي رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة في سنة ٣٦٦ . وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام ونثر ؛ وكان — كما يقول المقرئ^(٣) — قصراً فخماً يسر الناظرين ، يتردد عليه أهله طلباً للراحة . وكان بهذا القصر قطرة مقامة على قيو يستظل به المسافرين من الشمس .

وفي الخطط للمقرئ^(٤) أن اثنين من الفنانين كان ينافس أحدهما الآخر : هما التصوير وابن مزير العراقي ، وكان يشتمان بحماية الوزير وتمضيده . وكان من أمرهما أن صور أحدهما راقصة في ثياب بيض في قوس ملون بالسواد ، يحسبها الناظر داخلته فيه ؛ وصور الآخر فتاة أخرى بثياب حمراء في قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وقد نالا بذلك إعجاب الوزير ، فخلع عليهما ووهبهما ذهباً كثيراً . ويزيدنا المقرئ أنه كان في إحدى دور القرافة صورة للكنائى أحد نقاشي جامع القرافة ، تمثل يوسف عليه السلام يتهاى للراحة وهو في الحب .

(ج) جامع المنقس^(٥) :

بنى هذا الجامع الخليفة الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمنقس ، وكانت ميناء مصر في ذلك الحين . وقد بينا أن الأوقاف التي وقفها الحاكم شملت جامع الحاكم والجامع الأزهر ودار العلم وجامع المنقس . وذكر المقرئ أن الكتاب الذي تضمن وقفية الحاكم نص على

(١) هو لفظ عرب عن كَنَدَه ومعناها عجوف .

(٢) المقرئ خط ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٨٦ .

(٤) ج ٢ ص ٣١٨ .

(٥) المنقس أو المكس أو المكسم (لفظ يحتمل أن يكون مشتقاً من رجل روماني اسمه مكسيموس (Maximus) هو ميناء القاهرة على النيل .

أن يصرف جميع ما يتبقى مما تصدق به الخليفة على هذه الأماكن فيما يتطلبه جامع القس ؛ هذا عدا ما وقفه الخلفاء العاطميون عليه من النخل الكثير^(١) .

(د) جامع راشدة :

اشتق اسم هذا الجامع من اسم الخطة التي بنى فيها ، وهي خطة راشدة . وقد روى لنا ابن دقاق والمقرئى أنه بديء ببناء هذا الجامع في ١٧ ربيع الثاني سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ — ١٠٠٣ م) . وكان في المكان الذي بنى فيه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى . وفي رمضان سنة ٣٩٥ هـ تم بناؤه وفرش وعلقت فيه القناديل وأصبح معدا للصلاة^(٢) .

وفي رمضان سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) صلى الحاكم الجمعة وأقام الخطبة في جامع راشدة . وفي سنة ٤٠٠ هـ علق فيه تنور من الفضة وقناديل من الفضة الثقيلة الوزن . وفي رمضان سنة ٤٠٣ هـ صلى الحاكم الجمعة في هذا الجامع ، وعليه عمامة خالية من الجواهر ، وكان يحمل سيفاً محلى بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة ومشى الناس في ركابه ؛ فكان يتناول بيده شكاياتهم ويقف لبحثها واستقصاء أسبابها^(٣) .

(هـ) جامع الحاكم :

بنى هذا الجامع خارج باب الفتوح الأول الذي أشاء جوهر ، فلما أنشأ بدر الجالى الأبواب الحديدية ، والصور الجديد صار للمسجد بداخل القاهرة ، وقد أسسه الخليفة العزيز في شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ ، وصلى فيه صلاة الجمعة سنة ٣٨١ هـ ، ثم تولى العزيز دون أن يتم هذا الجامع ، فأمر ابنه وخليفته الحاكم بإتمامه ، وبدأ العمل فيه في شهر صفر سنة ٤٠١ هـ ، وأفتى على إتمامه أرجين ألف دينار وأمر بعمل تقدير ما يحتاج إليه هذا الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل ، فبلت النفقة خمسة آلاف دينار . وفي سنة ٤٠٤ هـ وقف الحاكم على هذا المسجد عدة أوقاف للإنفاق عليه . ولما تم بناء الجامع الحديد علق

(١) المقرئى غلط ج ٢ ص ٢٨٣

(٢) ابن دقاق ج ٤ ص ٧٨ ، ٧٩ . المقرئى غلط ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) المقرئى غلط ج ٢ ص ٢٨٢

على أبوابه ستوراً ديقية ، وعلق فيه أربعة تنانير من الفضة ، وفرشه بالحصر ، ونصب فيه منبراً . ثم زاد الخليفة المستنصر في هذا المسجد ، كما زاد فيه أمير الجيوش بدر الجبلى ، وظل هذا الجامع حتى حدث زلزال سنة ٥٧٠٣ هـ ، فسقطت مآذنه وتهدمت سقوفه وجدرانه ^(١) .

(و) الجامع الأقر :

وقد بناه الخليفة الأمر أمام قصره سنة ٥١٩ هـ ، ووقف عليه الأوقاف ، ورتب له المؤذنين والخطباء . وقد جده الأمير بليغا بن عبد الله السالى أحد عماليك الظاهر بيبرس في سنة ٥٧٩ هـ (١٣٦٦ — ١٣٦٧ م) . ولعل أبداع ما في هذا المسجد واجهته الغربية الفنية بأنواع الزخرفة ، كما أن بها حنايا تنتهى بطاقيات وعقود ومقرنصات . وقد بنيت العقود على الطراز الفارسى تقوم على عمد من الرخام . والسقف مضطى بقبوات صغيرة ^(٢) .

(ز) جامع الصالح :

ومن مساجد الفاطميين جامع الصالح الذى بناه الملك الصالح طلائع بن رزك ، وقد أراد أن يتخذ مدفناً لنفسه ، وبني فيه صهر بجا عظيماً تملؤه ساقية أطعمه على خليج القاهرة الذى يطلق عليه خليج أمير المؤمنين . وقد تهدم هذا الجامع في زلزال سنة ٥٧٠٣ هـ . إلا أن الأمير سيف الدين بكتسر الجوكندار عمره وأصاح ما تهدم منه . ولهذا الجامع أربع جهات مشيدة بالحجر . وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق . ويقع باب المسجد الرئيسى واجهته الغربية . وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ، ويحمل عقوداً حاقاتها محلاة بالزخارف . ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار ^(٣)

٥ — كنوز الفاطميين

كان من المنتظر أن نعرض هنا للكلام على القنون الفرعية بعد أن تكلمنا على القنون

(١) المقرئى : غلط ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٢) المقرئى : غلط ج ٢ ص ٢٩٠ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٤ .

(٣) المقرئى : غلط ج ٢ ص ٢٩٢ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٥ .



Figure 1: A large, ornate building with a prominent dome and arched windows, likely a historical or religious structure.

العربية ، ولكننا آثرنا أن نتناول هذا الموضوع من جهة النظر التاريخية ، فأحلنا موضوع الكلام على الفنون الفرعية إلى الفصل الذى عقدناه من تطور الصناعة فى العصر الفاطمى ، باعتبار هذا الموضوع من الصناعات كما ينظر إليه للتورخ ، لا كما ينظر رجل الفن . وسوف أنكمل هنا عما حكاه المؤرخون من التفائس والتحف والألطف التى حوتها كنوز الفاطميين ، وما بهرم منها ، وما تناولوا أخباره فى كتب التاريخ والأدب معا .

استقر المزمذ وصوله إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) هو وأسرته وحشمه وأتباعه وغلمانه وعبيده فى القصر الذى ابتناه وأثنته له جوهر القائد ؛ وفى إحدى غرف القصر اتخذ المزم عرشه الذى نقل المقرئى^(١) لنا وصفه من كتاب « القضاير والتحف » . فقد ذكر أنه كان به من الذهب ما يزن ١١٠٠٠ ر. ١١٠ مثقال ، كما كان ما رصع به الستر ١٠٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفة الألوان ؛ وكان هذا الستر - وهو من عمل الوزير اليازورى - موضوعاً قبالة العرش ، وقد حُلّى بما زنته ٣٠٠٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

وقد نقل كل ذلك إلى الإيوان الممد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فندا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضع أمام الإيوان قطعة من المسجد على هيئة درقة^(٢) مرسمة بالأحجار الكريمة ؛ فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويصمى ما حوالىها^(٣) .

ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة^(٤) التى أمر المزم

(١) مخطوط ج ١ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٢) م. ب. ب. من لغة فارسية هو " درجعة " ، وهى درع يصاوى الشكل غالباً ، وفيه نقوشات فى وسطه ، وله قبض فى ظاهره ؛ ويترأخ طوله بين قدم وقصف وقصمين . وتتمنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السمكية ، وأحياناً من جلد الخنازير (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) .

(٣) أمريزى مخطوط ج ١ ص ٤١٥ . أبو الحسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧ .

(٤) القبط التى استعمله المقرئى هنا هو " شعية " ، ويريد به طبعاً السطور التى كانت تكتب بها الكلمة . وقد حاول كترمير (Quatremère) الكلام على اشتقاق هذا اللفظ فى المجلد الثانى من تاريخ المائليك فى مصر الذى حرره عن المقرئى (ويحرف باسم كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك) . وتبعاً لما ذكر كترمير ، نجد هذا اللفظ (شعية) مستعملاً فيما يأتى :

١ - نادرة مربية فى أهل الحوائط ، تترك مفتوحة عادة ، أو ترين بالزجاج حسبما يشاء المربى من =

بملها للكعبة ، كما بين لنا هذا أيضاً كيف نافست مصر بنداؤ ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففي يوم عرفة أمر المزمع بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإبروان الذي جعله لعقد المجالس الرسمية .

وكانت هذه الكسوة مرسمة الشكل من ديباج أحر ، ومعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ؛ وكان في حافتها اثنا عشر حللا ذهبيا ، في كل حلل أربعة ذهبية ؛ وفي داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش في حافتها الآيات التي وردت في الحج^(١) بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ؛ وكانت موضوعة في القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه^(٢) .

وقد أمدنا ابن ميسر ببيان موحز عن كنوز المستنصر استمدته من مجلد ضخم يقع في نحو العشرين كراسة ؛ وقد اطلع عليه بنفسه . وكان يشتمل على بيان بما في تلك الكسوز من طرّف وأثاث وملابس وذهب وغيره ، مما قل من القصر في غضون ثورة الأتراك وبسدها . ويقول ابن ميسر أيضاً ، إن من هذه النفائس ما أرسله الباسيري إلى مصر

= مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة ، طبع وترجمة ديفر ميري وسانجيني D.C. Delémery et B.R. Sanguenetti ، باريس سنة ١٩١٤ ج ١ ص ١٩٩) . وفي هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق ، إنه أربعة وسبعين من شمسيات الزجاج ؛ وجه ذكر شمسيات الزجاج في عبارة القرى من جامع قرطبة في كتابه " نفع الطيب " (ج ١ ص ٢٩٢) . وعند كلام المقرئ على المسجد الجامع بمراكش ورد في نص هذا الجزء (ص ٢٦٧) ما يأتي : " روى أعلام ثلاث شمسيات تسمى رمانات " وفي كتاب هست المسى " مراكش ووزان " ص ٢٦٥ (Host : Morocco and Fez) جاء لفظ شمس ، ويراد بها النافذة .

٢ - معلقة : فقد جاء في تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من غيمته وعليه الشمسية ؛ وهنا أقول إن كثر غير استعمال في هذا الموضوع لفظ parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيارات . لكنني أفضل استعمال لفظ (umbrella) الذي هو المظلات التي يتصاها الرجال ، لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة . ٣ - الكسوة أو السور ، فقد جاء ذلك في المقرئ في خطه (نقلنا عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص ٤٤ ، وعن الأول أخذ كثر غير) . فإنا نجد في المقرئ " أن المزمع بنصب شمسية (يراد بها هنا كما قلنا الكسوة التي منعتها البتر) التي عليها الكعبة على إبروان القصر .

انظر ترجمة كثر غير لكتاب " السور في معرفة دول الملوك " (Histoire des Sultans Mamlouks)

المقرئ ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ٢٨٠ - ٢٨٦

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران ٣ آية ٩٥ ، وسورة براءة ٩ آية ٣

(٢) ابن ميسر ص ٤٤

سنة ٤٥٠ هـ^(١) ، حين أقام الخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد ؛ وقد استولى عليها الأتراك أيضاً سنة ٤٦٠ هـ . وكان مما بحث به البياصري ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخشروناني^(٢) ، وعشرون ألف سيف محلي بالذهب^(٣)

يضاف لهذا كله مقادير كبيرة من الصّحاف وقطع البلور^(٤) ، وأواني الذهب والفضة المحلاة بالذهب ، وأصص الزهر المقوش عليها اسم هرون الرشيد ، وثمان وعشرون صينية أخرى محلاة بالذهب أيضاً ، فَوْمٌ كل منها بثلاثة آلاف دينار ، كانت مهداة من إمبراطور الروم إلى الخليفة العزيز ، وأطباق أخرى مزينة بالذهب ، وكثير من الصناديق لللاي بالحرير المحلاة بالألوان والأحجام ، المصنوعة من الذهب والفضة والساج والأبلوس وغير ذلك ، مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة^(٥) ؛ وصناديق عدة من السكاكين ومفضضة ، بمقايض مختلفة الأنواع ، كلها مرصعة بالأحجار الكريمة أيضاً^(٦) .

يضاف إلى هذا أيضاً نسجج بدیع مطرز بالذهب ، وكافة أنواع الأواني الخزفية ، وعدد

(١) يقول المقرئ (خطوط ج ١ ص ٤٣٩) : إن هذه الذخائر أرسلت إلى القاهرة سنة ٤٤٧ هـ ، وفيها بدأت العلاقات الدبلوماسية بين البياصري والخليفة العباسي القائم ، وانتهت باستيلاء البياصري على بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، فأصبح في مركز يسمح له أن يستول على ما في قصر الخليفة من الذخائر . غير أن سلطة البياصري لم تستقر في بغداد قبل سنة ٤٥٠ هـ . وعليه فإن عبارة ابن ميسر (ص ٢٠) أقرب إلى الصواب .

(٢) الخشروناني أو الخشروناني نوع من القماش ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس

(انظر Lane's Arabic-English Lexicon)

(٣) يقول المقرئ : وكان من بين ممتلكات قصر الخليفة القائم التي أرسلها البياصري إلى مصر ، ثوبه الخاص وحملته التي فيها يديه (وكانت مخفوفة في صندوق من المرمر) ، وشباك نهم يصده المقرئ بأنه كان كثره في مجلس فيها الخليفة ويعتمد يديه على حافته ، وكان مصنوعاً من الخشب المتضام (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ويقول المقرئ أيضاً : إن هذا الشباك نقل إلى دار الوزارة واستعمله الأسفل ، وبقى في الدار بعد وفاته إلى نقل أخيراً إلى دار الأمير بيبرس . أما عمامة الخليفة العباسي وثوبه الخاص ، فقد أعادها صلاح الدين إلى بغداد سنة ٥٦٧ هـ

(٤) ذكر المقرئ (خطوط ج ١ ص ٤١٤) أن أبا سعيد النهرواني أحد أمته البيع اشترى في أيام قليلة ثمانية عشر ألف قطعة من البلور ، قيمة بعضها ألف دينار .

(٥) ذكر المقرئ أيضاً (ج ١ ص ٤١٤) أن بعض هذه الحايير قومت الواحدة منها بألف دينار ، هذا الأحجار الكريمة التي كانت مرصعة بها .

(٦) ذكر المقرئ (خطوط ج ١ ص ٤١٤) أن هذه السكاكين بيعت بأبخس الأثمان ، وبلغ منها كلها ستة وثلاثين ألف دينار .

كبير من الشُّطْرَنج رفته من الحرير ، وقطعه من الذهب والفضة والماج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وأربعائة صندوق ملائى بالقطع الذهبية (حولت فيما بعد إلى نفود تقاسمها الثوار) ، ومائة زنة ما فيها من الحلى سبعة عشر رطلا ، وثمان وثلاثون زورقا تابعة للدوة ، أحدها من الفضة^(١) .

واشتملت الذخائر — زيادة على ماتقدم — على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ؛ ويقال إن بوران^(٢) بنت الوزير الحسن بن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة المباسى المأمون ، وعدد كبير من الرأى المصنوعة من الصلب والحلابة بالذهب والفضة ، والمحلى بعضها بالأحجار الكريمة أيضاً ، وستة آلاف إناء للفرجس ؛ واثنين وعشرين ألب تتال من المنبر ، وثمان مئة تتال من الكافور على هيئة البطيخة ؛ وكان أحدها محفوظاً في شبكة من الذهب ، وهو مرمع بالأحجار الكريمة ، وزنته ثلاثة آلاف متقال ، وآخر كان يزن ستة عشر ألف متقال ؛ ونخلة من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة ، وكان ثمرها كذلك أيضاً ، ومع هذا يحالها الناظر طليعية .

وبما بيع في هذه الأثناء طائوس من الذهب مرمع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة ، وعيناه ياقوتتان وریشه من الزجاج الموه بالذهب ، وديك من الذهب مرمع بالؤلؤ ، ومنضلة قوائمها من العقيق^(٣) .

وليس هذا كل ما تركه المستنصر من الكنوز . فإذا استثنينا الأحجار الكريمة والطرز والطور والأسلحة ، وجدنا عددا عظيماً من الكنوز التي لا تُنَوَّم بمال في خزائن أخرى مثل خزائن الأثاث والفرش .

ويظهر أن خزائن القصر قد احتوت مرة أخرى على ثروة ضخمة من الكنوز بعد سقى الجماعة والوياء التي انتهب القصر في غصونها ، حتى روى الخليفة المستنصر نفسه في إحدى حجراته جالساً على حصير بالية لا بساً قبقاباً . وربما لم تكن تلك للثروة أقل

(١) المقيري غلط ص ٤١٤ و ٤١٥ .

(٢) وصف لنا الطبري (٢ . ١٠٨٤) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٦) والقريري (غلط ج ١ ص ٤١٥) هذه القطعة الدقيقة من الفن .

(٣) غلط ج ١ ص ٤١٦ .

بما كانت عليه سنة ٤٦٠ هـ كية وقية . ويظهر أنه رد إلى القصر بعض ما كان قد انتهب منه ، بعد أن أسندت الوزارة إلى أمير الجيوش بدر الجلالى سنة ٤٦٦ (١٠٧٣ م) التى صارت له السلطة المطلقة ، فشتت جميع العناصر المناوئة الثائرة وصادر بممتلكاتهم .

وقد وجد فى دار الأفضل (دار الملك) ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار من الذهب ، وسبعمائة طبق ما بين فضة وذهب ، وما لا يحصى من الأدوات كالذلا والصراف وأكواب الشراب ، والأباريق والقدر والأواني المستعملة فى اللين (الزبادى) ، وغير ذلك من القطع المختلفة من الذهب والفضة . وكان هناك غير ذلك شئ كثير من البركانى ^(١) الصينى الكبيرة الملوحة بالجواهر ، التى كان بضه منطلوما على هيئة عقود ، وسائر منثور .

وقد غافت دولة الرز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م) ، التى بنى مسجد القرافة وقصرها فى عهده ، دولة أبيه فى اتساع الزقمة : إذ دعى له على منابر الجوامع من بلاد العرب إلى المحيط الأطلسى . وكان الرز خبيراً بالجواهر ؛ وقد ابتدع نوعاً جديداً من المائم بحلة بخيوط الذهب ، وسروجا كذلك مسطرة بالعنبر ؛ كما كانت أسلحته مكففة بالذهب أيضاً ، واقتنى كثيراً من الطرّف يزين بها موائمه . وشقّف كخارويه بن أحمد بن طولون بموارح الطير النربية ، وجلب لذلك الطيور والحوانات من السودان . وكان منرم أيضاً بالصيد ، وخاصة صيد السباع . ومع هذا فقد كان ذكياً أديباً ، ورث أباه فى مواهبه السياسية ^(٢) .

ولقد ابتنى الرز كثيراً من المنشآت التى تنطق بفراة ثروته ، والتى يحتاج الكلام عليها إلى مجلدات ؛ وذلك كالجوامع المعروف بجامع الحاكم التى أسسه سنة ٣٨٠ هـ ، وقصر الذهب وجامع القرافة العظيم ، وقصور أخرى فى عين شمس ، وقصر البحر التى يقول فيه ابن خلكان لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب ^(٣) .

(١) جمع برنية وهى إثناء معروف .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المصدر نفسه : المجلد والصفحة .

الباب الثالث عشر

الحالة الاقتصادية

١ - موارد بيت المال

(١) الخراج :

لم يكذب فتح شمال إفريقيا حتى وجه الفاطميون أنظارهم إلى فتح مصر ، لعلهم أنهم سيجدون من ثروتها ما يساعدهم على نشر عقائدهم في ميادين أخرى أوسع مما في بلاد المغرب ، ولأنهم يستطيعون بذلك أيضاً نشر حضارة فاطمية تنافس حضارة الإمبراطورية العباسية ، بل تتفوق عليها .

وفي الحق الحق إن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز بعد أن فتحوا مصر بقليل ، كما تسقى لم بعد قليل أيضاً أن يقيموا الدعوة باسمهم في الموصل واليمن ، بل في بغداد أيضاً نحواً من ثمانية أشهر .

يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذي وضعه يعقوب بن كلس وعُلمُوج بن الحسن ، كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير في الحرم من سنة ٣٦٣ ، حتى لقد كان خراج القسطنطين وحدها يتراوح بين ٥٠٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار في اليوم ، كما زاد خراج مدن دمياط وتنبس والأشموين عن ٢٠٠.٠٠٠ دينار من تلك السنة ؛ وذلك كله أمر لم تعهده مصر من قبل^(١) .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة ، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض ،

(١) ابن ميسر ج ١ ص ٤٦ .

ذكر ابن لباس (ج ١ ص ٤٦) نقلاً عن المسيحي أن خراج مصر بلغ في عهد جوهر ١٢٠٠.٠٠٠ دينار .

لمعرفة خراج مصر في عصورها المختلفة منذ الأزمان القديمة ، راجع القهرس الذي عمله إلتس لكتاب

أبي صالح المسي " كنائس وأديرة مصر " (" Churches and Monasteries of Egypt ") (Evett's Index to Abu Salih's

وهذا يسمى العاملة أو المزارعة . وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على
جزية الرهوس على أهل الدمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض . ولم يكن الخراج ثابتاً ،
فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتصوير وتأمين وسائل الري ،
كما كانت جزية الرهوس في نقص مستمر لدخول أهل مصر في الإسلام .

وكان الخراج يحجب في عهد الفاطميين على خمسة أقسام : في كيهك ، وبرمهات ،
وبرمودة ، وأيب ، ومشرى . وما ذكره ابن مثنى يتضح أن الخراج كان يحجب عينا ، أى
على كل صنف من أصناف الثروة ، مع مراعاة وفرة الثروة وسلامتها من الآفات ومقدار فيضان
النيل . وقد أورد ابن مثنى ثبوتاً بأنواع المحاصيل وما يحجب من كل فدان ^(١) بالأرداب
أو بالدينار حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) :

اسم المحصول	الضريبة على الفدان بالأرداب	بالدينار
القمح والشعير	٣	
العدس	٣ - ٢ ١/٢	
الحبوب والحبوب والحبوب	٢ ١/٢	٣
قشور الكتان		٣ ~ ٥
القمح		١
العدس والشعير		٢
قشور القمح		١ ١/٢
الكرس والكرسويا والسلمج		١
الخطب الأصفر والأخضر		٢ - ١
الزيتون		٣
السهم		١
النخيل		١
القصب السكر إن كان رأساً		٥
و . . كان غلة		٢٠ و ٥ قرايط
الدغاس		٤
الزيتون		٣
السهم النيل	٥ - ١	
الزيتون		٣
النخل		٢
اللحم		١
المس		٢

اسم المحصول	الضريبة على القندان بالأراصب	بالدنانير
الكرم		٢
البيصل		٢
الشجر والكرم		٢
التعصب القلارعى		(١) ٣

كما تقدم يتضح أن مقدار الخراج كان ينفق مع غلة الأرض ، فإذا زادت هذه الغلة زاد مقدار الخراج . كما كان يختلف الخراج باختلاف المحاصيل . وإذا وازنا بين غلة القندان ومقدار الضريبة المفروضة عليه ، فإنه يتضح أن النسبة المئوية للضريبة كانت كما يأتي :

متوسط إنتاج القندان	النسبة المئوية للضريبة
١٠ - ٨	٣٠ ٪ إذا كان المزروع قمحاً أو شعيراً
	٢٥ ٪ إذا كان المزروع حباً
	١٧ ٪ إذا كان المزروع قنطاري (٢)

أما عن مقدار الخراج الذى فرض على الماشية ، فكان كما يلى :

نوع الماشية	الضريبة المفروضة بالدنانير
الجاموس :	
الراثب	٥
المالك	٣ - ٤
اللاحق	١ ١/٢ - ٢
أبقار الخيل :	
الراثب	٢
الأغنام البيضاء :	
الكباش والنسجة	١
الغنى والثنية	١/٢
البقرة (عجوزة)	١/٢
الغنمى : (الماعز) كل ١٠٠ رأس	٢٠
التحلل : كل ١٠٠ خلية ١٠ أوطال صل و ٥ - ٦ قناطير شع ٢٠ وطلا (٣)	

وكان ارتفاع الخراج فى عهد الفاطميين يختلف باختلاف المصور ، كما كان يرجع إلى وفرة الفيضان واستتباب الأمن ، والعناية بالمزارعين وتطهير الترع والجسور وتسميد الأرض ، كما يتضح من التثبيت الآتى :

(١) ابن مغازي : قوانين الدوليين ص ٢٥٩ - ٢٧٠ .

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٢٢ .

(٣) ابن مغازي : قوانين الدوليين ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

ارتفاع الخراج بالدینار	السنة	الخليفة
٢,٢٠٠,٠٠٠	٢٥٨ هـ	المقر
٢,٤٠٠,٠٠٠	٢٥٩ هـ	
٢,٢٠٠,٠٦٠	٢٦٠ هـ	
٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٦٢ هـ	
٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٨٦ هـ	المعز
٢,٤٠٠,٠٠٠	٤١١ هـ	الحاكم
٦٠٠,٠٠٠	٤٦٢ هـ	المستنصر
٢,٨٠٠,٠٠٠	٤٦٦ هـ	
٢,١٠٠,٠٠٠	٤٨٧ هـ	
٥,٠٠٠,٠٠٠	٤٩٥ هـ	المستمل
(١) ١,٠٠٠,٠٠٠	٥٤٤ هـ	الحافظ

(ب) الجوالى :

ومن موارد بيت المال في عهد الفاطميين : الجوالى ، وهى الجزية المفروضة على أهل النعمة الأحرار البائنين دون النساء والصبيان (والرهبان والعميد والمجانين والشيخ القاضى والفقراء الذين لا كسب لهم ، ومن مات منهم أو أـلم في خلال السنة) .

وكانت الجزية في العصر الفاطمى ثلاث طبقات تبعاً لثروة الأفراد . فالطبقة العليا ويدفع أفرادها ٤٤ ديناراً ، والطبقة الوسطى ٢ دينارين وقيراطين ، والطبقة السفلى دينار واحد وثلاث وربع وحبنتين . يضاف إلى كل طبقة ٢٢ درهم تدفع للموظفين القائمين بالحصيل (٢) .

وقد بلغ ارتفاع الجوالى في سنة ٥٨٧ هـ ٣٠٠,٠٠٠ دينار (٣) ، مما يدل على أن عدد أهل النعمة في مصر قد نقص نقصاً ملحوظاً . فإذا كان متوسط ما فرض على كل ذى دينارا واحداً وربع دينار ، فإن عدد من فرضت عليهم الجزية قد بلغ نحو ٢٢٠٠ ألف . وإذا كان هذا العدد يؤلف ربع أهل النعمة ، فإن عددهم لم يزد على مائة ألف في ذلك العصر .

(١) المقرئى : غلط ج ١ ص ٨٢ - ٨٣ . عمر طوسون : مالية مصر من عهد القراطنة إلى الآن ص ٥٤ - ٥٩ .

(٢) ابن مقلد : قوانين القرويين ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٣) المقرئى : غلط ج ١ ص ١٠٨ .

(ج) المكوس^(١) :

وكانت المكوس وهي الرسوم المفروضة الداخلية والخارجية وعلى الصناعة على نوعين : نوع يجبي من التجارة الخارجية الواردة إلى ثنور مصر مثل الإسكندرية ودمياط وتنبس ورشيد وعيذاب . وكان يجبي من تجار الروم الوافدين على هذه الثنور ٣٥ ديناراً عن كل ١٠٠ دينار . وقد انخفض هذا القدر في أواخر العصر الفاطمي حتى بلغ ٢٠ ديناراً عن كل ١٠٠ دينار . وبلغ خراج دمياط وتنبس والأشمونين ٢٠٠٠٠٠ دينار في السنة . وبلغ خراج القضاط وحدها ١٢٠٠٠٠ في اليوم^(٢) . وبلغ في آخر العصر الفاطمي ١٠٠٠٠٠ دينار . فإذا عرفنا أن الخراج بلغ في عهد الخليفة الحافظ ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، أدركنا أن الحالة الاقتصادية في ذلك العصر قد تدهورت بسبب اضطراب الأمن وتفاقم النزاع بين الوزراء والقواد .

وقد جرت عادة الفاطميين أن يبتاعوا من هذه السلع الواردة إلى ثنور مصر ما تمس الحاجة إليه ، على أن تستزل قيمتها من مقدار المكوس المفروضة على التجار . فإذا زاد ثمن ما يبتاع عن قيمة الضريبة المفروضة دفعت الدولة له ثلثي المبلغ المستحق المطلوب^(٣) .

أما النوع الثاني من المكوس فيتمثل في الرسوم المفروضة على الصناعة والتجارة المحلية . فقد كانت تفرض رسوم على الصادر والوارد من السلع المختلفة ، سواء أكانت غلات زراعية أم منتجات صناعية ، كما كان ثمة رسوم أخرى على البائعين مقابل استخدام الأماكن المخصصة لذلك ، وعلى ما يبيعه أو يشتريه التاجر ، وكذا على الصناع والسفن والسالح والذائع ، والمعدات ، وعلى اللوازم والكسايل ، كما يتضح ذلك من هذا القيثب الذي أورده القرزبي^(٤) .

(١) كلمة مكس تفيد معنيين : الأول هو نوع جديد من الضرائب فرض على التجارة . وهذه الكلمة آرامية الأصل . والثاني الثاني يرى فيه كلمة مكس تطلق على الجملة المحلية التي يجبي فيها المكس أو المكس (المعرك) . مثال ذلك الموضع الذي عرف باسم المكس أو المكس (قرية أم دنين حيث تقع حديقة الإزبكية الآن) . انظر جروهمان A. Grohman, Arabic papyri, vol. II, pp. 9-10.

(٢) ابن عيسر : تاريخ مصر ج ١ ص ٤٦ .

(٣) ابن مقلق ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٤) خط ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

المكس	مقدار الحصيد بالدينار
البحار	٢٣,٣٦٤
البحايل والقوايل	٩,٣٥٠
البز الوارد	٩,١٩٣
البز الصادر	٦,٦٦٦
الأسواق المختلفة : كمسوق النعم والنواصب والسلك والرتيق	٢,١٠٨
الحطب الطويل والملح	٦,٧٦
النوري	١,١٠٠
فندق القطن	٢,٠٠٠
الكبان والأبقار	٢,٢٠٠
الكبان الحطب الواردة للصناعة	٢,٠٠٠
الورق	٢,٠٠٠
رسم التفتيش بساحل لقلعة والأقوات	٧,٦٨
التنصاع والرطب	١,٧٠٠
مشاركة الجزارين	٢,٤٠
وارد الجبل	١,٠٠٠
الحمل الوارد من الوجه البحري	١,٠٢٠
الصوف	٢,٠٠٠
الشرب والتدبير	١,٥٠٠
الخلفاء (المصر)	١,٢٥
الحناء	٨٠٠
سوق السكرين	٥٠
الحل الحامض	٤٠٥
بيوت التزل	٣٥٠
زريبة النخيلة	٧٠٠
القناخريات	٢٣٦

هذا إلى ما كانت تحميه الدولة الفاطمية من الزكاة والوارث واحتكار الثوب والنظرون ودار الضرب ودار الطراز ودار العيار والأحياس^(١).

٢ — ثروات الخلفاء والوزراء

(١) ثروة الخلفاء :

لا شك أن ثروة الخلفاء كانت أعظم من ثروة وزراءهم ؛ وإن ما ذكرناه في وصف

(١) ابن سني : قوانين القرويين ص ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ .

عرش للمز وهدية جوهر إليه ، والكسوة التي عملت برسم الكعبة ، ليبن لنا مبلغ ثروة مصر في أيام الخلفاء ، وروثهم وحالة البذخ التي كانت تسود مظاهرهم . أما وصف القصر وما كان فيه من كنوز ، فذلك ما سنتكلم عليه بعد .

يقول لينبول : « إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر للوك الذين حكموا مصر حبا لمظاهره » . ومع هذا يقول : « إن ثروات الفاطميين كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد ، فإننا قرأ في القرى أن بنتين للمز قد تركت إحداهما (وإمها رشيدة) ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١٧٠٠٠٠٠٠ دينار كما جاء في القرى أى زهاء ٢ مليون جنيه) ، وترك الأخرى (عبدة) كثيراً من خزان الحلى والصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلاثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف نوب صقل ، وغير ذلك من الثخاثر ، حتى كان للشع الذي استخدم في الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . كما أننا قرأ أيضاً أن للمز اشترى ستارة من الديباج من فارس بما يقرب من اثني عشر ألف جنيه ^(١) » .

كانت الثروة التي تركها الحاكم — كما يقول أبو الحسن — عظيمة . ولا غرو فقد كان من بين الخلفاء الفاطميين مشهوراً بحب المظلة ، حتى إن أبا الحسن يقول ، إن الحاكم لما اتصل به خبر رسول إمبراطور الروم وأنه في طريقه إلى القاهرة ، وأنه قد يمثل بين يديه ، أمر بتزيين القصر ؛ فكان من بين الأكياس التي تحتوي على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ .

ونرى في العبارة التي أوردها أبو الحسن عن ثروة ست لأك أخت الحاكم ، أن تلك الثروة اشتملت على ثمانية جارية ، وثمان جرات ملأى بالملك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت وزن ثمانية مثاقيل ؛ وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار ؛ وكانت مشهورة بالكرم والحلم ^(٢) .

وقد أمدنا القرى ببيان آخر يضيئ هذا المقام عن نقله . لكننا نذكر شيئاً منه

(١) The Story of Cairo p. 183. (مقتبساً من المخطوط القرى ج ١ ص ٤١٥) .

(٢) القرى : مخطوط ج ١ ص ٤١٥ . أبو الحسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧ .

مثلاً الثروة التي كان الخليفة المستنصر يملكها في مبدأ سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ، تلك الثروة التي تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر ؛ وذلك كله ما ساعد على تنفيذ سياسة الفاطميين . وكان من ضمن ثروة المستنصر شيء كثير ورثه عن آبائه ؛ فأنتهبه الأتراك سنة ٤٦٠ هـ ، كما استولوا على بعض ممتلكات القصر ، وعرض البعض الآخر للبيع فيبيع بأبخس الأثمان ، ووزع كل ذلك عليهم . وهذا بخلاف ثلاثين مليون دينار من الذهب تقاسمها الثوار الأتراك و « ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق » . ويتبين لنا مما ذكره القريري أنه لم يتأخر شيء من عطاء الأتراك . ويمكن أن نضيف إلى هذا ، أن الأتراك إنما ثاروا على الخليفة الذي لا ناصر له ، رغبة منهم في الثأر من الجنود السودانيين المكروهين لهم ، والذين كانوا أنصار أم الخليفة ، وأن يجوزوا من الأسلاب ما تسمح لهم به الأحوال .

وكان من ممتلكات الخليفة الكثيرة التي لا تقوم بحال ، سيفه الخاص ، وسيف الخليفة للمر ، وسيف النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن علي رضي الله عنه ، وسيف جسر المصادق ، وكيات من الرماح والقيس وغيرها من الأسلحة ، وعشرة آلاف سرج ، بعضها كان يساوي سبعة آلاف دينار^(١) . وكذلك أكواب من العنبر ، وسبعة من الأحجار الكريمة تُقَوِّمُ بثمانين ألف دينار على الأقل (ويبتع بألفين فقط ١) ، وصندوق من الجواهر قوم بثلاثمائة ألف دينار (بيع بمخمسةائة ١) ، وأربع عشرة كيلة من الجواهر أيضاً ، وألف ومائتان من الخلوتم ما بين ذهب وفضة ، بيع ثلاثة منها مرمصة بالأحجار الكريمة باثني عشر ألف دينار^(٢) .

ومع أن المؤرخين لم يدونا بيان عن الثروة التي خلفها للماضد آخر الخلفاء الفاطميين مثل ما أمدنا به ابن ميسر والقريري ، فإنه من الممكن أن تبين مقدار ضخامة ثروة القصر في عهد آخر الخلفاء الفاطميين ، وقبل سقوط دولتهم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من الوصف الذي أوردته لنا القهبي — خلا عن ابن أبي ملي — الهدية التي قدمها صلاح الدين لنور الدين سنة ٥٦٩ هـ :

(١) غلط ج ص ٤١٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٤ .

« وذكر ابن أبي مليّ قال : وفي هذه السنة (٥٦٩ هـ) وصل الوفق بن القيسراني إلى مصر رسولا من نور الدين ؛ فاجتمع بصلاح الدين وأنهى إليه رسالة ، وطالبه بحساب جميع ما حصله من ارتفاع البلاد ثم أرسل (صلاح الدين) معه هدية على يد النقيصه عيسى (بن القيسراني) : وهي ختمة بخط ابن البواب ، وختمة بخط مُهَلِّيل ، وختمة بخط الحاكم البندادي ، وورقة مكتوبة بالذهب بخط يانس ، وورقة بخط راشد^(١) ، وثلاثة أحجار بَلْخَشِي ، وست قصبات زمرّد ، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل ، وحجر أزرق مئة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر وزنها ثمان مائة وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بَلَسْتَان ، وعشرون قطعة بلور ، وأربع عشرة قطعة جِرْجَع ، [و] خمسون صيني وزبادي ، وأربعون وكرتان (هكذا وردت في الأصل) هود قَمَارِي وزن أحدهما ثلاثون رطلا والأخرى إحدى وعشرون ، ومائة ثوب أطلس ، وخمسون ثوب حرير ، وسُلة قُلُقُلِي مذهبة ، وغير ذلك من اللّماش ، وقيمتها ٧٢٥٠٠٠ دينار ، وعدة من الخيل والظلمان والجواري والصلاح ، وحنة أحمال^(٢) من اللال^(٣) »

كما تبين لنا ضخامة ممتلكات القصر عند سقوط الفاطميين مما جاءنا به المقرئ يزي هلا عن القاضي العاضل حيث يقول : « وفي ثالث عشرية — يعني ربيعا الآخر سنة سبع وستين [وخمسة] — كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر . . . ومقدار ما عُدس أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، ما لا يفي به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشمل على مثله المالك العاصرة ، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة^(٤) . »

(ب) ثروة الوزراء :

وفي منتصف شهر رمضان من سنة ٣٦٢ هـ ، تمّثل الأشراف والإعماء وكبار الموظفين

(١) هذه الأسماء هي طبعا أسماء خطاطين مشهورين .

(٢) هو مقدار الجزية التي أرسل نور الدين رسولا يطلبها .

(٣) اللبسي ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرق ، رقم ٢٠٤ ، ورقة

١٤١ ب .

(٤) خط ج ١ ص ٢٩٦ .

بين يدي الخليفة ، فقدمهم إليه جوهر . وبعد ذلك تقدم قليلا إلى الأمام ، وأرى الحضور هديته التي أعدها لمولاه . وكانت — كما يقول المقرئ ^(١) — قفلا من ابن زولاق وهو من الثقات في هذا الموضوع — تتألف من مائة وخمسين فرسا مشرجة ملحمة ، بعضها مذهب وبعضها مريض ، والبعض الآخر مُتَعَبَر ، وإحدى ثلاثين قبة على نوق بخافي بالديباج والقرش . وكان من هذه البخافي تسع نوق محملة بالحرير ، كما كانت النوق الأخرى ولودا . واشتلت الهدية أيضاً على ثلاث وثلاثين بئلة ، كان منها سبعة ملحمة مشرجه ، تتبعها مائة وثلاثون بئلة معدة للقتل وتسمون بجيبا ؛ كما اشتلت على أربعة صناديق يرى مابداخلها ، وجعل فيها أواني الذهب والفضة . وكان في الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقه فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصعة بالجواهر . ولم يكن هذا كل ما قدمه جوهر لمولاه في هذا اليوم . فقد اشتلت الهدية أيضاً على سمائة آنية فيها طرائف مختلفة انتخبها له هذا القائد من ذخائر مصر .

وقد ترك لنا ابن إياس ^(٢) صحيفة طويلة عما تركه برجوان . غير أنه لا يمكننا الاعتماد طبعاً على كلامه إذا علمنا أنه يقول إن برجوان ترك مائتي مليون دينار ذهباً ، وخمسين أردماً من الهرايم الفضية . أما الهرايم ، فمع أن هذا القدر بعيد أن يتركه برجوان ، فإنه رغم ذلك ممكن القبول ؛ وأما الدنانير فأحسب ابن إياس قد غلط في تقديرها ، أو غلط الناسخون في نقلهم ذلك عنه . ولو قال مليونين ، لكان قريباً من الصواب ، وبخاصة إذا عرفنا أن المدة التي وليها برجوان لم تكن من الطول بحيث تتسع لجميع هذا القدر من المال

وفي الحق ، إن البَذَخ والإسراف هما من سمات الدولة الفاطمية كما قدمنا . فهذا ابن متعب يقول إنه لما مات برجوان وزير الحاكم ، وجد في خزان ملابسه ألف سروال ذيق ^(٣) وألف تكة حريرية ، وكية كبيرة من اللباس الأخرى والأثاث والآلات لموسيقية ^(٤) والكتب والطرائف المختلفة ^(٥) .

(١) خط ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٦ .

(٢) تاريخ مصر ج ١ ص ٥١ و ٥٢ .

(٣) نسبة إلى ديق بين الهرايم وتيس ، وقد اشتهرت بما كان يصنع بها من اللباس .

(٤) ذكر المقرئ أن برجوان كان شديد الويلع بالموسيقى .

(٥) ابن متعب ص ٢٨ .

ويعمدنا ابن منجب (ص ٢٣) أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة ألف دينار^(١) (أكثر قليلا من ٥٠.٠٠٠ جنيه) كل عام ، وأنه ترك بعد وفاته من الثمنان الثمان أربعة آلاف ، ومن الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينار ، ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار ، وأنه حين توفى كان عليه لتجارسة عشر ألف دينار ، فقضاها عنه الخليفة العزيز من بيت المال وأداها لأصحابها على قبره .

هذه هي حياة أحد وزراء المصدر الأول من أيام الفاطميين ، وتلكم هي ثروته الضخمة التي يعمدنا ابن منجب^(٢) أنها بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا مائتي ألف دينار خصصها لينفق منها في زواج ابنته ، وهذا ستائة حظية^(٣) ، وأرضا أعطيت له على سبيل الالتزام قدرت بثلاثمائة ألف دينار . ويعمدنا ابن خلكان^(٤) أيضا أن ما أخفق في تكفين ابن كلس وفي العطر الذي استعمل لتجهيز جسمه بلغ عشرة آلاف دينار .

أما من ثروة الوزراء الفاطميين في هذا العهد ، فقد أمدنا ابن ميسر بمعلومات طريقة في هذا الموضوع . فقد ذكر لنا في كلامه عن الثروة التي خلفها الأفضل (٤٨٧-٥١٥) ابن أمير الجيوش بدر الجبالى ، ما كان من ركوب الخليفة الأمر ٤٩٥ — ٥٢٤ (١١٠١ — ١١٣٠ م) إلى دار الوزير وختمه عليها بعد وفاته .

ففي صيحة الفد بعد صلاة العيد ، غُسل جنان الوزير وكُفّن وورى القراب ؛ ثم أُمس الخليفة بنقل ثروة الوزير إلى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكتاب يقومون بإحصائها . وتم ذلك في أكثر من شهرين بين سماع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضى صدر النهار في الجزء الذى عين من قصره لنقل تلك الثروة إليه ، كما كان يقضى سائر النهار في أحد دور الوزير ليمثل الترتيب اللازم . ويظهر لنا من عبارة ابن ميسر أن الخليفة قضى معظم وقته في الإشراف على نقل ما في دار الوزارة ودار الملك .

(١) انظر المقدسى (طبعة دى شوه) ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٣) أطلق الأستاذ مارجوليوث في كتابه « القاهرة وبيت المقدس ودمشق » (Prof. Margoliouth,

Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 27) عليهن زوجات .

(٤) ج ٢ ص ٤٤٣ ، نقلا عن ابن حساكر .

وكان الأفضل يحفظ لذلك في دار المعطاء ثمانية أكياس من حرير، في سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار؛ كما جعل في قاعة الخزائن بحوار الحشية التي كان يجلس عليها كبسين: في أحدهما دنانير، وفي الآخر دراهم ينفق منها إذا كان في الحرم. أما ما كان في مجلس المعطاء، فكان يسطى منها للمستجدين كما قدمنا وللشراء.

وقد ذكر القرطبي أن الأفضل كان إذا انفرط عقد المجلس أمر بكتابة ما أنفق من كل كيس على البطاقة التي كانت ترفق به، ثم يعضيها؛ وتبقى في الكيس ويحتم عليه. ولما جاء رجب سنة ٥١٢ (١١١٨ م) تضاعف عدد الأكياس وتوالى الإحسان بصورة تم عن البذخ؛ فأغدت المعطايا على الشراء في جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير، وعلى الفقراء بحى القرافة^(١).

والآن فلنعد إلى ثروة الأفضل، فنجد أن ابن ميسر يقول عنها: «فوجدوا له من الخاثر النفيسة ما لا يحصى: فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت للبراني^(٢) ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار، وخمسين أردبا دراهم ورق، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المزول برسم الرقم؛ وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب، كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها اللعائم المختلفة الألوان^(٣)؛ وثمانمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتيس برسم كسوة بدنه؛ ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة. ومن الطيب والتعاس والآلات ما لا يحصى عدداً؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياهه أربعين ألف دينار في السنة؛ ودواة يكتب منها مرسمة بالجواهر، قوّم جوهرها بأثنى عشر ألف دينار؛ وخمسمائة ألف مجلد من الكتب^(٤)».

وقد ذكر ابن ميسر أيضاً طرفاً من ثروة الأفضل العظيمة — نقلاً عن الخازن بالقصر —

(١) القرطبي ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤.

(٢) يحصل أنه دار الوزارة في القاهرة أو جناح من دار الملك.

(٣) هذه المسامير كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها اللعائم.

(٤) ابن ميسر ص ٥٧.

حسب ما ذكره ذلك الخازن الذي يقول إن هذا كان قُلًّا من كُثْر عما استطاع أن يتركه عند ما ذكر هذا الأمر .

هذا ، وقد ذكر متولى الخزائنة في القصر الذي استمد منه ابن ميسر هذه المعلومات الطريفة : « هذا ما حضرني حفظه في داره ؛ وأما ما كان في مخازنه ونحت يد عمله ، والحياة وضمان النواحي ، وأصناف الثلال والحبوب والقطن والسكران ، والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ، فما لا يحصى » .

أما عن أخلاق الوزير فيقول ابن ميسر : « كان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرحمة والتجار على صفة جميلة ... ولم يعرف أحد صودر في زمانه » ^(١) .

هذا هو مبلغ ثروة الوزير في العهد الفاطمي الأخير . وبما ذكره ابن ميسر والتقريرى نستطيع أن نبين ما كان هناك من القوة والثروة ، والحالة الاجتماعية ، والحياة الخاصة التي عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة . ولا نشك في أن الوزير في هذا العهد كان يتمتع بالسلطة المطلقة ، كما كان في قبضة يده خراج الدولة ؛ وكانت داره المحور الذي تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التي لم تكن تابعة للخلفاء إلا اسما فقط .

وإن كثيراً من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تصدر عند وفاتهم ؛ إلا أن بعضها كان يرد إلى من يختلفون من أبنائهم . فقد روى أبو الحسن أن أبا علي بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بد أبيه ، حس الخليفة الحافظ سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) واستولى على ما في القصر ، زاعماً أن ذلك كان لأبيه . غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد وفاة الوزير وجثتها في قصره ^(٢) .

٣ - وجوه الاتفاق

(١) الهبات والأعطيات :

وفي السنة نفسها وضع الحاكم في الجامع المتيق تنورا من الفضة يقوم بشرة آلاف

(١) المصدر نفسه ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) أبو الحسن ج ٣ رقم ١ ص ٢ .

درهم ، فضلاً عما وقفه هذا الخليفة على هذا الجامع من الأوقاف والمطايا . وقد زاد بعض أسماء مصر في بناء الجامع المتيق ، كما وقف عليه الخلفاء الفاطميون الأوقاف والمطايا .

على أن تلك الثروة الضخمة أغرت الفاطميين ، فأمرقوا في نفقاتهم التي جرم إليها البذخ وحب الظهور ، حتى لقد أصبح ذلك من مميزات الدولة الفاطمية ؛ فكانت النتيجة التي لا مناص منها أن انحطت أخلاق الأهلين ووقفت البلاد فريسة ذلك الانحطاط ، وكان ذلك أحد أسباب انحلال الدولة الفاطمية وسقوطها في النهاية .

وقد أسمر الخليفة الأمر عند انتهاء الذكر^(١) ، فجاءه بألف تصفية^(٢) من خزائن الكسوة^(٣) ، فوزعت على الحاضرين . وأمر صاحب بيت المال فأحضر ألف دينار من بيت المال ؛ ونثر كل ذلك على الناس من النافذة التي كان الخليفة يشاهد منها الذكر . واختفى بعض هذه الدنانير في الأرض ، فاشتغل كثير من الناس بربطه الأرض طلباً لها في الأيام القليلة التي تلت هذه الحادثة^(٤) .

على أنه في عهد انحلال الدولة الفاطمية ، لم يكن الخلفاء بأقل اتعافاً في سبيل الكرم مما كان عليه أسلافهم في أيامهم الأولى ؛ فقد ذكر ابن ميسرة أنه لما مات الأنصل ، كان على قبره أربعائة وعشرون شخصاً من القراء والوعاظ وللشدين ، فأمر الخليفة الأمر ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ (١١٠١ - ١١٣٠ م) لكل منهم دينارين ديناراً . وعلى الرغم من اعتراض أجد رجال بطائنه استكثرأ لذلك القدر ، أمضى الخليفة ما أراه ؛ وكان مجموع ذلك نحو الأربعة وثلاثين ألف دينار أخذت من بيت المال^(٥) .

(ب) المرواتب :

كان الموظفون في الدولة الفاطمية يتقاضون مرتبات كبيرة ، فضلاً عما كان يصل

(١) الذكر هو محمد الله ومجيدته ونزجه عن كل شائبة وتقص ؛ ولذلك أقوال يشهد بها بقر تيل خاص ونفقات خاصة ، مثل الحمد لله ! الله أكبر ! وغير ذلك .

(٢) ثياب تصنف من الحرير والقطن (انظر Dozy, Supplément) .

(٣) وبكسر الكاف أيضاً انظر القاموس المحيط لفيروز آبادي ؛ وهي مشتقة من كلمة كساه أي لباس .

(٤) الفريزي غلط ج ١ ص ٤٨٦ .

(٥) ابن ميسرة ص ٦٠ .

إليهم بطريق الهدايا من النقضة والذهب والملايس والأطعمة وما إلى ذلك بمقادير وفيرة ، تلك الهدايا التي كان أزواجهم وأولادهم وخدمهم يتقاضونها معهم .

وقد أمدنا القلقشندی بكلام مفصل بين فيه المرتبات التي كانت تعطى لكبار موظفي الدولة ؛ ومنه نعلم أن مرتب الوزير كان خمسة آلاف دينار في الشهر ، وأن ابنه أو أخاه كان يأخذ في الشهر راتباً يقارح بين مائتين وثلثائة دينار ، زيادة على رواتب أتباعه وحشمه التي كان متوسط مجموعها أربعائة وخمسين ديناراً في كل شهر .

وكان الكتاب يتقاضون رواتب كبيرة ، فضلاً عما كان يندق عليهم من هبات ويدفع لهم من أرزاق . فكان صاحب الإنشاء والمكانيات يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة وخمسون ديناراً ؛ وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً^(١) .

وهاك ما أمدنا به القلقشندی^(٢) عما كان يتقاضاه الموظفون على اختلاف درجاتهم

من مرتبات :

الوظيفة	الراتب بالدينار شهرياً	مخصصات أخرى
١ - الوزير	٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠ دينار ، ٢٠,٠٠٠ أودب من القمح والشعير ، ٨,٠٠٠ رأس من الغنم كسوة الشتاء والصيف والمواسم كعيد التذير وفتح الخليج وغرة شهر رمضان وأول العام
ولد الوزير أو أخوه	٢٠٠ - ٣٠٠	
حواشي الوزير	٤٠٠ - ٥٠٠	
٢ - حواشي الخليفة		
الأستاذون المختصون	١٠٠	
زمام القصر	١٠٠	
صاحب بيت المال	١٠٠	
حامل الرسالة	١٠٠	
صاحب الدفتر	١٠٠	
شاد الخلع	١٠٠	
زمام الأشراف الأقارب	١٠٠	
صاحب المجلس	١٠٠	

(١) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) ج ٢ ص ٥٢٥ - ٥٣٢ .

مضامير أخرى

الرواتب بالدينار ذهبي

الوظيفة

٥٠	الطبيب الخاص
١٠	الأطباء المساعدون
١٥٠	كاتب القسمة الشريف
٣٠	كاتب كاتب القسمة
١٠٠	الموقع بالقلم للتفتيش
١٢٠	صاحب قلاب
٧٠	حامل السيف
٧٠	حامل الرمح
٣٠ - ٥٠ لكل منهم	بنية الأزرار على الصاكر
١٠٠	قاضى القضاة
١٠٠	داعى الدعاة
١٠ - ٢٠ لكل منهم	قراءة الخضر
٣ - أرباب الدواوين ومن يجرى بحراهم	
٧٠	متولى ديوان النظر
٥٠	متولى ديوان التفتيش
٤٠	متولى ديوان المجلس
٤٠	متولى ديوان الجيوش
٣٥	صاحب دفتر المجلس
٣٠	الموقع بالقلم الجليل
١٠ - ٥	المعين
٤ - المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة واليها ٥٠ لكل منهم	
٢٠ - ٥	حاة الأهرام
٢٠ - ٥	حاة المناجات
٢٠ - ٥	حاة الجبال
٢٠ - ٥	حاة القباكين
٢٠ - ٥	حاة الأملاك

٥ - فراش القصور

خدمة الخليفة والقصور الثامن يتولون

تنظيفها ونصب السائر والمناظر ٣٠ لكل منهم

الرشاشون داخل القصر وخارجه ٣٠٠ شخص ١٠ - ٥ لكل منهم

مقدمو الركائبة ٥٠ لكل منهم

صبيان الركائبة ١٥ - ٥ لكل منهم

هذا عدا راتب المحتسب وصاحب البريد وناظر الطراز ونوابهم وأهوانهم وحاة الخزائن ومشارفهم وكتابهم ومن دونهم . كما أنه لم يرد ذكر لرواتب القضاة ، ومقدمي الأسطول ، وأرباب الرواتب المستقرة من ذوى النسب والبيوتات والصفاء والصاليك من الرجال

والنساء ، وكذا المتفقيين والقراء والمؤذنين في المساجد والمشهد وغيرهم من العمال والخدم . وكانت ميزانية الدولة للسنة المالية الجديدة تمد بمدد عيد الأضحي ، فيقوم الموظفون بإعداد استيوار النفقات في نهاية شهر ذي الحجة ، فيجتمع كتاب ديوان الرواتب ، أو إدارة للبيزانية ، وتعرض الاقتراحات الخاصة بها على هذه اللجنة تبين بها مقدار للصروفات عينا وورقا وغلة ، ثم تحرر نسخة من الاستيوار ، ثم تبيض ويدون فيها أسماء الموظفين وأعوالهم . ثم يرسل إلى خزانة القرش ، فيمد له وطاء من الحرير وشراية من الحرير الأخضر أو الأحمر . وتمد ديباجة (مقدمة) تدون بأسلوب جميل وعبارات راقية تناسب مقام الخليفة . ثم يرفع الاستيوار إلى صاحب ديوان النظر ليعرضه على الخليفة في أول شهر المحرم .

وكان موظفو ديوان الرواتب يصحرون الدقة الثامنة في إعداد البيزانية ، فلا يفتحون اعتمادات مالية من أبواب لا أصل لها في ميزانية الدولة ، أو من أبواب لا وفور فيها . كما أن من حقهم أن يقرحوا الاستثناء عن بعض الموظفين ، أو تعيين موظفين جدد . ثم ترفع اقتراحات البيزانية عن طريق ديوان النظر إلى الخليفة لاعتمادها توطئة لاستصدار مرسوم ربط للبيزانية^(١) .

وقد ذكر القرظي أن استيوار الرواتب عرض على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٦ هـ ، فأقره كإعفاء إليه . وقد بلغت رواتب المتفقيين والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر في هذه السنة . ٧٣٣٣-٧٣٣٤ دينار^(٢) .

وقد عرض استيوار الرواتب على الخليفة المستنصر في إحدى السنين ، فأقره ووقع على ظهره بخطه : « أفقر من اللذائق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدراك الأرزاق . فليجروا على رسومهم في الإحلاق ، ما عندكم يتفد وما عند الله باق »^(٣) . ولما رفع الاستيوار إلى الخليفة المحافظ ذيله بهذه العبارة : « لا يستكثر في ذات الله كثير الإعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتسويق والإبطاء . ولما انتهى إليه ما أرباب الرواتب عليه من

(١) للقرظي : خط ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢) المصدر نفسه خط ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٣) لقلقشني ج ٣ ص ٤٩٥٠ .

التلقى للامتناع من إيجاباتهم وحل خروجاتهم ، قد ضفت قلوبهم وقطعت قلوبهم ، وسامت ظنونهم ، شملهم برحمته ورافته ، وأمنهم بما كانوا وجابين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده ، تأكيذا للإنعام واللن ، وتهنئة بصدقة لا تُنفع بالأذى واللن . فليمتد في ديوان الجيوش للصورة لإجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما اتفوه ومهدوه من رواتبهم وإيجابها على سياقها لسكاتهم من غير تأول ولا تمنع ولا اعتدراك ولا تعتب . وليجروا في نسيبتهم على عادتهم ، لا يُنقص من أسرم ما كان ميروا ، ولا ينسخ من رسمهم ما كان يحكما . كرماً من أمير المؤمنين وفعلاً مبروراً ؛ وعملًا بما أخير به عز وحل في قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . وأمر الخليفة بنسخ هذا التوقيع وإرساله إلى جميع الهواوين الحكومية^(١) .

(ج) تقفات الجيش والأسطول :

كان الجيش في العصر الفاطمي يتألف من طوائف ثلاث : الأتراك ، والسودان . وقد بلغ عددهم ٥٠.٠٠٠ ، والماربة ومدهم ٤٠.٠٠٠ فارس و ٣٦.٠٠٠ من المشاة . وقد ذكر المقرئ أن رواتب الأتراك بلغت ٢٨.٠٠٠ دينار في الشهر ، وأنها بلغت في عهد المستنصر ٤٠.٠٠٠ دينار في الشهر^(٢) . وإذا كانت رواتب الجند من الأتراك قد بلغت ٤٠.٠٠٠ دينار ، فلا يبعد أن تجاوز رواتب الجند مليون دينار في السنة . هذا عدا ما كانت تنفقه الدولة على الطعام والملبس والسلاح وغيره .

وقد بلغ عدد سفن الأسطول في أواخر عهد الدولة الفاطمية عشرين سفينة بحرية عليها عشرة آلاف مقاتل ؛ هذا عدا الأسطول النهري الذي كان يحمل الغلات السلطانية والأحطاب وغيرها . وقد ذكر المقرئ^(٣) أن هذا الأسطول كان يتألف من ٥٠ سفينة و ٢٠ ديماس ، لسكل منهم رئيس ونواي لا يبرحونها . كما احتفظ الفاطميون بمواني صور

(١) المقرئ : خط ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) هذا ما ذكره المقرئ (خط ج ١ ص ٣٢٦) وهو يخالف ما ذكره الدكتور راشد الراوى (ساعة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٣٦٠) عن أن أرزاق الأتراك بلغت ٣٢٦.٠٠٠ دينار في الشهر .

(٣) خط ج ١ ص ٤٨٢ .

صور وعكا وعسقلان بعدد من الشوانى والشلنديات والسطحات ، جريتها ١٠ قواد و ٥٠٠٠ بحار . وكان راتب الجندى يتراوح بين دينارين وعشرين دينارا . فإذا كان متوسط راتب البحار ١١ ديناراً فتكون نفقات الأسطول $11 \times 5000 = 55000$ ديناراً شهرياً . هذا النفقات الأخرى .

وقد بلغ الأسطول الفاطمى وهو فى أوج عظمته ٧٥ شينياً (مدمرة) ، ١٠ سطحات و ١٠٠ خلات . وقد جرت العادة عند دفع نفقات الأسطول أن يحضر الخليفة ويجلس الوزير إلى جواره ، ويحضر صاحب ديوان الجيش ، ويجلس بداخل عتبة المجلس ، ويجلس كاتب الجيش إلى جانبه تحت العتبة على حصر مفروشة . ويقرش أمام المجلس أنطاع تُصب عليها الهرايم ، ويحضر الوزاؤون التابعون لبيت المال ، ثم يدخل مائة مائة فى البحارة كل بحسب نوع عمله ، فيقفون بين يدى الخليفة ، ويقرأ مستوفى الجيش أسماءهم واحداً واحداً من الكشوف التى دونت بها . فإذا نودى اسم البحار عبر إلى الجانب الآخر . وإذا بلغ عدد عشره ، وزن الوزاؤون نفقتهم ، ويسطى كل منهم خسة دنانير ، يساوى كل دينار منها ٣٦ درهماً ، فإذا دفعت نفقات الجند من آخرها ، تجهزت السفن وأخذت أهبتها هسراً^(١) .

(د) نفقات الخزائن والدرعياء والمواشم :

وقد بلغت نفقات خزائن الكسوة صيفاً وشتاء ٦٠٠ر٩٠٠ دينار ، وبلغ ما خرج من هذه الخزائن من الكسوى فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى ١٣ر٥٨٧ قطعة^(٢) . وقد حوت الأهرام السلطانية التى انتشرت فى أماكن مختلفة من مدينة القاهرة ٣٠٠ر٠٠٠ أردب^(٣) . وكان يتفق على خزانة البنودى للثة مبلغ يتراوح بين ٧٠٠ر٠٠٠ و ٨٠٠ر٠٠٠ دينار^(٤) ويتفق على خزانة التوابل ٥٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، وعلى خزينة الشراب ٦ر٥٠٠ دينار^(٥) . أما دار الفطرة التى بناها الخليفة العزيز بالله فقد كانت تحوى كميات كبيرة

(١) المترى : خط ج ١ ص ٤٨٢ .

(٢) المترى : خط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٤ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٠ .

من السكر والعسل والقلوب والزعفران والطيب والحقيق والحشكناج والبسندود والقنايد والقسق ، وينفق عليها ٧٠٠٠ دينار في السنة^(١) . وينفق على دار التبعة ، وتولى تبعة القصور ودار الوزارة والمناظر والحمامات واللانة وخزانة الكسوة ودار الضيافة وحاشية دار الوزارة ٣٠٦٥٠ دينار في السنة^(٢) . وينفق على دار العلم ٢٥٧ ديناراً في السنة مقابل شراء الحصر والورق والحبار والأقلام^(٣) .

وبلغت نفقات تسيير قافلة الحج ١٢٠٠٠ دينار ، منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠٠٠ دينار ، ونفقة القرين يوفدون لمرافقة الكسوة ٤٠٠٠٠ دينار . وكذلك نفقات ما يدفع لحماية القافلة وأجر الجلال وحفر الآبار في طريق قافلة الحج ٦٠٠٠٠ ديناراً . وقد ذكر القرينى أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة البازورى ٢٠٠٠٠ دينار^(٤) . وبلغت نفقات الاحتفال ببحر الخليج ٢٠٠٠ دينار^(٥) ، وبسائط شهر رمضان ٣٠٠٠ دينار^(٦) ، وبسائط عيدي الفطر والأضحي^(٧) ، وعن الكسوة في عيد الفطر ٢٠٠٠٠ دينار^(٨) ، وعيد النوروز^(٩) ، وخميس العدى ٥٠٠ دينار^(١٠) .

أما غرة أول العام فقد بلغت نفقاتها من الدنانير والرباعيات والقراريط ٣٠٠٠ دينار^(١١) .

(هـ) هبات الساجد والمكتبات وغيرها :

كان الفاطميون يمتدحون الساجد والمكتبات وسائل لشرب دعوتهم ، فقد كانوا يملكون فيها المقائد الفاطمية . لذلك بذل الخلفاء جهوداً خاصة لبناء مساجد جديدة وتأسيس مكتبات

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٢ .

(٣) القرينى ج ١ ص ٤٥٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧٧ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٨ .

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٣٦ .

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٣ .

(٩) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٣ .

(١٠) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .

(١١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .

كيرة . ولم يَقْصُرُوا من وقف الأوقاف وبذل العطايا والمبات للمساجد ولإتفاق في زيتها وزخرفتها بالمصاييح والتناير التي كان بعضها من الفضة ، كما نُقلت إلى المساجد من مكتبة القصر نسخ من القرآن الكريم مختلفة الأشكال والأحجام ، بعضها مكتوب بالذهب . وقد كانت هذه المساجد تزين بأجمل زينة وتضاء بالأوار الساطعة في اللواسب العامة ؛ وكان الخلفاء يشاهدون ذلك من المناظر .

ويقول الفلقشندي عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة الجمع الثلاثة الأخيرة من رمضان ، إنه كان من عادتهم أن يمنحوا ديناراً لموظفي كل مسجد يرون عليه في طريقهم إلى القصر في هذه الجمع . وكانت هذه المساجد كثيرة ؛ ولهذا يلاحظ الفلقشندي أن عدد الدنانير التي كانت تنفق في هذا السبيل كان عظيماً ، أما معرفة مقدار تلك الدنانير بالتحقيق فهذا ما لم يذكره الفلقشندي ولا غيره من المؤرخين

وكان من كبار الموظفين تسعة يعرفون بالأستاذين المحتسكين^(١) : منهم صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر . وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر . وكان راتب كل من قاضي القضاة وداعي الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طببي الخليفة الخاصين خمسين ديناراً^(٢) .

ولدينا فيما عساه من ثروة الخلفاء الفاطميين وأهبتهم وميلهم للمظاهر ميلاً شديداً ما يدلنا على ثروة كبار رجال دولتهم وسائر الشعب عامة ؛ فقد كان كل هؤلاء يمنحون كثيراً الهدايا والأطعمة في الأعياد الدينية وغيرها من سائر الأعياد العامة ، كما كانوا يكتسبون من بيت المال م وأزواجهم وأولادهم وأتباعهم مرتين كل عام صيفاً وشتاء .

ويمعينا أن قرأ عن مخصصات تبلغ ٦٠٠.٠٠٠ دينار ، أخذت من بيت المال عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لسبل الملابس المطلوبة لدار الكسوة التي أنشأها المزم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وقيت حتى سنة ٥٦٧ هـ ، وهي السنة التي سقطت فيها الدولة الفاطمية . وكان

(١) جمع أستاذ محتك ، رجل مدرب ، وكان يتلم بطرف من عمامته (معناه يحمل بعض عمامته تحت فكه) انظر (Lane's Arabic-English Lexicon) . ومن الأستاذة المحتسكين من يتولى شئ التابع ، وصاحب المجلس ، ويشه الآن كبير الأئمة ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ؛ وحامل اللواء ، وزمام الأتارب ، وزمام القصور ، ويهد إليه بإدارة شئون القصر (الفلقشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

عدد الكسى التى منحت لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم سنة ١٥١٦ ٥٨ ١٤٣٠^(١) .
وقد أمدا المقرضى بعبارة بين فيها الكسى الكاملة ، ومقدار قيمة كل كسوة ،
منها التى كانت تمنح للأسماء على اختلافهم ، وللموظفين والكتاب ، ودون أسماء جميعاً .
وقد كانت كسوة الأسماء من الحرير الدقيق المزركش بالذهب ، وقيمتها خمسمائة دينار .
وكان كبار الأسماء يتنازون بلبس الأطواق والأساور وحمل السيوف المجلاة^(٢) .
وكان موظفو المساجد يمنحون أعطيات معتادة فى مناسبات مختلفة ؛ فمن أمثلة ذلك
ركوب الخليفة لصلاة الجمعة ، أو للاحتفال ببعض الأعياد الدينية ، أو لزيارة أحد القصور ،
كدار الملك وقصر القرافة والهودج ومنازل العز التى كان من عادتهم الانتقال إليها
تديلاً للهواء .

٤ - الزراعة

(١) مساحة الأرض :

بلغت مساحة الأرض المزروعة فى عهد المماليك فى عهد الفاطمى ٢٨٥٧١٤ فداناً ، وفى
عهد وزارة بدر الجمالى نحو هذا القدر ، وانهدمت أو كادت فى أواسط عهد الخليفة المستنصر .
ولم يكن ذلك راجعاً إلى انخفاض ماء النيل أو الوباء ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى عدم
اهتمام الحكام بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلدجان وإقامة الجسور
ونحوها . ويمكننا أن نقف على اطراد النقص فى مساحة الأراضي المزروعة فى مصر وزيادة
مقدار انجراف الموضوع على فقدان من التبت الآتى (ص ٥٦٨) :

(ب) الانقطاع :

يرجع نظام الانقطاع^(٣) أو الالتزام فى الإسلام إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛

(١) المقرضى عطل (ج ١ ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

(٢) المصدر نفسه (ج ١ ص ٤٠٩) . أما الوزير فكان يلبس حقناً من الأحجار الكريمة ، ومثقباً
بلفه من تحت حلقه ، وجلباباً مصبغاً ، ودرعاً مفتوحاً من النحر إلى أسفل ، وأزراره من ذهب مثقب أو لؤلؤ .
وبذلك يمتاز من سائر موظفى الدولة . وقد منح بدر الجمالى هذا لأول مرة (التفتشنى ج ٣ ص ٤٩٠) .
(٣) يقال انقطع طائفة من الشيء أعقها ، وأعطى لها أذن لى فى اقتطاعها ، واستقطعه لها ما سأل أن
يقطعه لها : طائفة من أرض انجراف يقطعها الجنت فتجعل لهم خلتها وزقاً .

الحاكم	السنة الهجرية	المساحة المزروعة	مقدار الخراج بالدنانير	الضريبة على المدان بالدنانير
عمرو بن قيس	٢٠	٦٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٢
هشام بن عبد الملك	١٢٥	٢٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٢
المأمون	٢١٨	٢٠١٢٨٠٠٠	٤٠٢٥٧٠٠٠	٢
أحمد بن عاتلون	٢٧٠	٢	٤٠٨٠٠٠٠٠	٢
محمد الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	٤
للعرز بن الله	٣٥٨	٢٨٥٧١٤	٢٠٠٠٠٠٠	٧
المستنصر	٤٨٧	٧٦٥٢٥٠	٢٠٦١٠٠٠	٢

فقد أقطع أماساً من مُزَيِّنَة ، أو جُهَيْنَة ، أرضاً بقصد تسميرها ، فلم يعمرها ، وجاء آخرون فصرروها ؛ فاختصم الجهنيون ، أو المزيّنون ، إلى عمر بن الخطاب فقال : مَنْ كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها ، فصرها قوم آخرون ، فهم أحق بها . وأقطع عثمان ابن عفان عبد الله بن مسعود النهرين ، كما أقطع سعد بن أبي وقاص قرية حُرْمُز . ويقول القرظي إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون بعض أراضي مصر نفراً من خواصهم ، وأنه كان يصرف من مال الخراج أعطيات الجند وسائر السكّات ، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال ، وأن ما أقطع من الأرض أصبح بيد من أقطعه . على أن أراضي مصر أصبحت منذ عهد السلطان صلاح الدين تقطع للسلطان وأسرائه وأجناده^(١) .

ذكر الماوردي^(٢) نوعي الإقطاع فقال : « وهو ضربان : إقطاع استقلال ، وإقطاع تخليك ؛ والثاني ينقسم إلى موات وعاصر . والثاني وهو ضربان : أحدهما ما يبيع مالكة ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كان في دار الإسلام^(٣) . فإن كانت في دار الحرب^(٤) حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها لملكها المقطع عند النظر بها ، فإنه يجوز » .

(١) القرظي : علطج ١ ص ٩٧ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٨١ - ١٨٨ .

(٣) بين منطقة نفوذ الخلافة

(٤) بين أرض العدو

وقد أوضح الأستاذ جروهان^(١) طريقة كراء الأرض المقطعة أو قبالة الأراضي^(٢) فقال : إن ذلك كان يحصل على طريقة المزداد على يد متولى خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، حيث ينادى على الأرض جزءاً جزءاً (أو كورة كورة) ، ويعطى لمن يرسو عليه المزداد لمدة أربع سنوات . وفي ذلك يقول المقرئ^(٣) : « إن متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تنهى فيه قبالة الأراضي . وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها مقبلوها بالأربع سنين لأجل الظلم أو الاستيغار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضعتها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج أبانة^(٤) على أقطاع ، ويعسب له من مبلغ قبائلته وضمانته لتلك الأراضي ما ينقذه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مُتَدَرَّة في ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في وجهات الصمان والمقتبلين » .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور العباسي بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليمسروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وقد سحذاً أحمد بن طولون في مصر حذو أبي جعفر المنصور العباسي حين أسس مدينة القطائع بعد أن ضافت مدينة الفسطاط بخدمة وماليسكه وجنده ، فأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها ، فترى قطيعة السودان ، وقطيعة الروم ، وقطيعة الفراشين وغيرها .

على أن نظام الإقطاع لم يخل من العيوب ؛ إذ أن المُتَطَّع أو المُتَزَمَّ بِسَلِّ على الإنشاء وجمع الأموال الضخمة ، ولا يتردد في إزهاق الأهالي وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ليستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه . والأهالي

(١) Arabic Papyri in the Egyptian Library, vol. II, pp. 64-5. وترجمة المؤلف

(القاهرة ١٩٥٦) .

(٢) القبالة بالفتح الكفاية .

(٣) خطوط ج ١ ص ٨٢ .

(٤) أي في أثناء مدة الإيجارة .

في ذلك ملجئون على أمرهم ، قلما تصل شكائهم إلى السلطة المركزية ؛ فقد كان بعض الجباة يسلكون معهم بعض وسائل التعذيب ^(١) .

وتد علق الأستاذ جرومان ^(٢) على ما ذكره المقرئ عن طريقة إقطاع الأرض أو استئجارها فقال : « إن الشخص الذي يحوز الأرض باعتبارها ضيقة مستأجرة أو إقطاعية كان يؤدي عنها الخراج ، وأن إيجار هذه الأرض مدة أربع سنين مثلاً لم يكن سوى مظهر من المظاهر الرسمية ، وهو أشبه بمحجة حتى ملكية الدولة لهذه الأرض . كما أن عبارة عمارة الأرض لا تدل فقط على إصلاح الجسور وسد أفواه الترع وحفر الخللجان ، بل يدل أيضاً على إصلاح التربة وما تحتاج إليه الأرض من العمال . ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة ؛ بل قد يشمل ولاية برمتها .

وفي عهد وزارة الأفضل بن بدر الجبالي شكوا أصحاب الإقطاعات من قلة ارتفاعها وسوء حالها ، على حين تضاعفت إقطاعات الأمراء وكثر ارتفاعها وزاد دخلها ؛ فأمر الأفضل بحل الإقطاعات جميعها ، وأمر برؤسها ، أي مساحتها . ثم أعيد توزيعها من جديد ، وكتب سجلات تقضي باستئصال هذه الإقطاعات مدة ثلاثين سنة . وكانت هذه السياسة من الأسباب التي أدت إلى ارتفاع خراج مصر في عهد وزارة الأفضل حتى بلغت ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار . وأقبل الجند والأمراء على عمارة الأرض والعناية بها ، فسكثرت الغلة وزاد الخراج العيني حتى بلغ مليون أردب ^(٣) .

وقد عرض ابن ممان لبعض نظم الإقطاع التي كانت سائدة بمصر في أواخر عهد الفاطميين فقال : إنه إذا انقضى أجل الإقطاع والأرض مزروعة ، أصبح المحصول من نصيب القطع الجديد . كما كان القطع أن يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان بمعدل دينارين وخمسة قرايط ، كما كان عليه أن يستمر النصب في مصرة الدولة ، وأن يرد الأرض للقطعة كما تسلمها ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت القائمة عليها ، ولا يتصرف في التبن المودع

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ و ٦١ و ٧٠ و ٧١ .

(٢) Vol. II, p. 64.

يخازنها^(١). وهذا يشبه إلى حد ما بعض النظم الإقطاعية التي كانت سائدة في أوروبا في ذلك العصر ، إذ كان على الفلاح أن يطحن قمحه في مطحن السيد ، وأن يتمصر زيتونه في معصرته ، وأن يؤدي له بعض الخدمات .

(ج) الري :

لما كان الإنتاج الزراعي يتوقف على وفرة ماء الري والعناية بمجصب الأرض وجودتها ، كان طبيعيا أن يبنى القاطنون عناية كبيرة بنظم الري ، من صيانة للترع والمحافظة على الجسور . وكانت الجسور نوعين : « جسور سلطانية » تقيمها الدولة ، و « جسور بلدية » يقيمها الفلاحون^(٢) . أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الارتفاع بناء للثيل . وكانت الدولة القاطنية تفرض الضرائب على الأراضي الزراعية بالوجهين البحري والقبلي لصيانة الجسور والمحافظة عليها . كما كان أهالي البلاد يسخرون في إقامة الجسور ودمخلها في وقت الفيضان مخافة أن يطغى ماء الثيل على الأراضي الزراعية فيغرقها . وقد ظلت الحكومات المصرية تستخدم الأهالي في صيانة هذه الجسور إلى عهد قريب^(٣) .

أما الجسور البلدية فكانت تقام في القرية أو في الناحية أو في الكورة . ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور . وكانت نفقات إقامة هذه الجسور توزع على الأفراد بالسوية ، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر^(٤) .

وكانت الأراضي المصرية تشقها شبكة من الملبجان والأبهر^(٥) والترع . وقد بلغ عدد ملبجان مصر في ذلك العصر ثمانية ، وبلغ عدد الأبهر خمسة وعشرين ؛ أما الترع فقد بلغت عدتها ١١٧ ترعة في الوجهين البحري والقبلي^(٦) .

(١) ابن مغازي : قوانين النواوين ص ٣٦٧ .

(٢) المقرئ : خطط ج ١ ص ١٠٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) جمع بحر وهي التربة الكبيرة أو الرياح في المصطلح الحديث .

(٦) ابن مغازي : قوانين النواوين ص ٢٠٥ - ٢١٦ .

وقد استبح اهتمام الفاطميين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل ، لأنها أشبه بميزان الرخاء أو الكساد . إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعاً كان في ذلك تمام الخراج وخصب البلاد . أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بجلول كارتة الفيضان ؛ وأما إذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً ، كان ذلك نذيراً بجلول القمح وما يصحبه من أزمات اقتصادية ، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ^(١) .

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر في طاعة الأمويين ، فبنى حامل مصر من قبل معاوية مقياساً بأصنا ، كما بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بجلوان . أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ ، وذلك في عهد أسامة بن زيد . وقد جدد الخليفة المتوكل العباسي هذا المقياس في سنة ٢٤٧ هـ . وقد جرت العادة أن يمين ولاية مصر عمالاً من القبط لمراقبة هذه المقاييس لأنهم أخبر بها ؛ ولكن والى مصر من قبل هذا الخليفة جبل أمر الإشراف على هذا المقياس للمسلمين ، ورتب لعمال المقياس سبعة دنانير في الشهر .

وقد أصحح أحمد بن طولون مقياس الروضة وأتفق على إصلاحه ألف دينار . وهذا المقياس عبارة عن عمود رخام أبيض مشتمل الأخلاص ، في موضع يصل إليه الماء عند انسياحه ؛ وهو مقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً ، والذراع مقسم إلى ٢٤ إصباعاً . أما الاثنان عشر ذراعاً الأولى ، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصباعاً . وتبدأ زيادة النيل في آخر بؤونة وأبيب ومصرى ، وتنتشر الزيادة في شهر توت كله . وبالمقياس ذراعان يسميان منكراً ونكيراً ، وهما القراعان الثالث عشر والرابع عشر . فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استقى الناس بمصر ، وإذا تجاوز خمسة عشر ذراعاً . ودخل في السادس كان فيه صلاح لبعض الناس . وإذا بلغ الماء تسعة أذرع ، انساب في خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى . وقد جرت العادة أن تذاع نتائج القياس على الناس ، فيخرج للنادى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن للمزدهدين الله الفاطمي أمر بكتان أمر القياس ، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل ، تسرب القلق إلى نفوسهم ، فأخفوا التلال ،

(١) المقرئى : مخطوط ١ ص ٩٩ .

وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر، وبسبب الأغنياء على اختزان القنل، فيحدث القنلاء .
وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح
الأضرار . فلك كان في كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة .

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ثم ستة عشر ذراعاً وإصبعاً واحداً . احتفل الخليفة
بفتح خليج أمير المؤمنين . فإذا فتح الخليج فتحت القرع الأخرى ، وقاض الماء ، « ومهر
القيمان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً »^(١) .

ولما كان رخاء مصر يرتبط ارتباطاً بمنسوب ماء النيل لا بد من أن تأتي بشت يسجل
ارتفاع النيل وانخفاضه في العصر الفاطمي ، حتى نستطيع أن نبين التين التي ملغ فيها
منسوب النيل أعلى مداه ، والتين التي انخفض فيها ماء النيل انخفاضاً حدد البلاد بأفدح
الأضرار ، مع بيان ذلك بالأذرع والأصابع :

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٨٣٥٩	١٩ ر ١٧	٣٧٣	٢ ر ١٦	٣٨٧	٧ ر ١٦	٤٠١	١٨ ر ١٦
٣٦٠	٢١ ر ١٧	٣٧٤	٤ ر ١٦	٣٨٨	٧ ر ١٦	٤٠٢	١٠ ر ١٦
٣٦١	١٤ ر ١٧	٣٧٥	١٠ ر ١٦	٣٨٩	٢٠ ر ١٦	٤٠٣	١٢ ر ١٧
٣٦٢	٢ ر ١٧	٣٧٦	٢١ ر ١٧	٣٩٠	٢ ر ١٦	٤٠٤	— ر ١٧
٣٦٣	١٤ ر ١٦	٣٧٧	١٠ ر ١٧	٣٩١	٢٠ ر ١٦	٤٠٥	٢ ر ١٦
٣٦٤	٢٠ ر ١٦	٣٧٨	١٢ ر ١٧	٣٩٢	١٠ ر ١٧	٤٠٦	٢ ر ١٦
٣٦٥	—	٣٧٩	١٩ ر ١٥	٣٩٣	١٥ ر ١٦	٤٠٧	٤ ر ١٧
٣٦٦	٤ ر ١٦	٣٨٠	٢٠ ر ١٦	٣٩٤	٢٠ ر ١٦	٤٠٨	١٦ ر ١٦
٣٦٧	٤ ر ١٦	٣٨١	٢٣ ر ١٦	٣٩٥	٢٣ ر ١٦	٤٠٩	٢٣ ر ١٦
٣٦٨	١ ر ١٧	٣٨٢	١٨ ر ١٦	٣٩٦	١٨ ر ١٦	٤١٠	٨ ر ١٩
٣٦٩	— ر ١٧	٣٨٣	٢١ ر ١٧	٣٩٧	٢١ ر ١٧	٤١١	—
٣٧٠	٤ ر ١٥	٣٨٤	٧ ر ١٦	٣٩٨	٧ ر ١٦	٤١٢	٣ ر ١٦
٣٧١	٢ ر ١٥	٣٨٥	٧ ر ١٦	٣٩٩	٢٣ ر ١٦	٤١٣	١٨ ر ١٦
٣٧٢	٤ ر ١٧	٣٨٦	—	٤٠٠	٢٣ ر ١٦	٤١٤	٤ ر ١١

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٤١٥	١٦ -	٤٤٢	١٧ ١٦	٤٦٩	١٧ ١٣	٤٩٦	١٧ ١
٤١٦	١٦ ٤	٤٤٣	١٧ ١٢	٤٧٠	١٧ ١٠	٤٩٧	١٣
٤١٧	١٦ ٧	٤٤٤	١٧ ٥	٤٧١	١٧ ٢٠	٤٩٨	١٢ ١٢
٤١٨	١٦ ١٣	٤٤٥	١٧ -	٤٧٢	١٥ ١٨	٤٩٩	١٢ ١٢
٤١٩	١٧ ٤	٤٤٦	١٧ ٤	٤٧٣	١٦ ١٥	٥٠٠	١٩ ١
٤٢٠	١٦ -	٤٤٧	١٧ ٤	٤٧٤	١٨ ١٢	٥٠١	١٧ ١٨
٤٢١	١٦ ٦	٤٤٨	١٧ ١٣	٤٧٥	١٥ ١٠	٥٠٢	١٧ ١٦
٤٢٢	١٧ ٦	٤٤٩	١٧ ٣	٤٧٦	١٧ ٩	٥٠٣	١٧ ٥
٤٢٣	١٦ ٤	٤٥٠	١٦ ١٢	٤٧٧	١٧ ١٣	٥٠٤	١٧ ٤
٤٢٤	١٦ ٢	٤٥١	١٥ ٢٣	٤٧٨	١٥ ٥	٥٠٥	١٧ ٤
٤٢٥	١٦ ٢١	٤٥٢	١٦ ٩	٤٧٩	١٧ ١٥	٥٠٦	١٨ ٢
٤٢٦	١٦ ١٥	٤٥٣	١٦ ١٨	٤٨٠	١٧ ٧	٥٠٧	١٨ ٢
٤٢٧	١٦ ١٥	٤٥٤	١٧	٥٨١	١٨ ٤	٥٠٨	١٧ ١٠
٤٢٨	١٥ ٩	٤٥٥	١٧ ١٢	٤٨٢	١٦ ٩	٥٠٩	١٨
٤٢٩	١٥ ٢٠	٤٥٦	١٦ ٣	٤٨٣	١٨ -	٥١٠	١٧ ٦
٤٣٠	١٧ ٢٠	٤٥٧	١٦ ١٠	٤٨٤	١٦ ٢٢	٥١١	١٧ ١٩
٤٣١	١٧ ١٠	٤٥٨	١٦ ١٧	٤٨٥	١٦ ١١	٥١٢	١٨ ٤
٤٣٢	١٧ ٢٠	٤٥٩	١٦ ١٧	٤٨٦	١٦ ٢	٥١٣	١٨ ٧
٤٣٣	١٧ ١٧	٤٦٠	١٥ ٦	٤٨٧	١٦ ٢١	٥١٤	١٨ ١
٤٣٤	١٧ ١٦	٤٦١	١٧ ١٨	٤٨٨	١٧ ١٢	٥١٥	١٧ ١٠
٤٣٥	١٨ ٦	٤٦٢	١٦ -	٤٨٩	١٣ ١٧	٥١٦	١٨ ٢
٤٣٦	١٧ ٢٠	٤٦٣	١٧ ٣	٤٩٠	١٧ ١	٥١٧	١٨ ١٠
٤٣٧	١٧ ٢٠	٤٦٤	١٦ ١٠	٤٩١	١٨ ١٦	٥١٨	١٨ ١٤
٤٣٨	١٧ ١٩	٤٦٥	١٦ ٧	٤٩٢	١٦ ١٤	٥١٩	١٨ ١٤
٤٣٩	١٦ ٧	٤٦٦	١٦ ٣	٤٩٣	١٨ ١٥	٥٢٠	١٨ ١
٤٤٠	١٧ ١٧	٤٦٧	١٧ ٧	٤٩٤	١٨ ٧	٥٢١	١٧ ١
٤٤١	١٧ ٩	٤٦٨	١٦ ١٤	٤٩٥	١٧ ١٣	٥٢٢	١٨ ١٣

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٨٥٣٣	١٨ ر ٥	٥٣٥	١٧ ر ١٢	٥٤٧	١٨ ر ٤	٥٥٩	١٨ ر ١٠
٥٣٤	١٧ ر ٤	٥٣٦	١٦ ر ١١	٥٤٨	١٧ ر ٦	٥٦٠	١٧ ر ١٨
٥٣٥	١٦ ر ١٨	٥٣٧	١٨	٥٤٩	١٧ ر ٢٠	٥٦١	١٧ ر ٢٣
٥٣٦	١٧ ر ١٠	٥٣٨	١٦ ر ٩	٥٥٠	١٧ ر ١٧	٥٦٢	١٦ ر ٢٣
٥٣٧	١٧ ر ١٥	٥٣٩	١٨ ر ٤	٥٥١	١٧ ر ٨	٥٦٣	١٧ ر ٢٣
٥٣٨	١٧ ر ٢٣	٥٤٠	١٨	٥٥٢	١٨ ر ١٠	٥٦٤	١٦ ر ١٢
٥٣٩	١٨ ر ٣	٥٤١	١٦ ر ٢٠	٥٥٣	١٥ ر ١	٥٦٥	١٦ ر ١٤
٥٤٠	١٧ ر ٧	٥٤٢	١٨ ر ٣	٥٥٤	١٥ ر ١	٥٦٦	١٧ ر ٢٠
٥٤١	١٧ ر ١٦	٥٤٣	١٨ ر ١٣	٥٥٥	١٨ ر ١٠	٥٦٧	١٧ ر ٢٠
٥٤٢	١٨ ر ١٢	٥٤٤	١٧ ر ١٨	٥٥٦	١٧ ر ١٧		
٥٤٣	١٨ ر ٥	٥٤٥	١٧ ر ١٣	٥٥٧	١٧ ر ١٧		
٥٤٦	١٦ ر ١٧	٥٤٦	١٨ ر ٤	٥٥٨	١٧ ر ٨		

وكان نوع الأراضي من حيث جودتها أو رداءتها يتوقف على وفرة ماء الري أو قلته . وقد ذكر القرطبي^(١) أن أنحصب أنواع الأرض في مصر هي « الباق » ، وهي الأرض التي كانت مزروعة قرطاً أو مقاني ، فهي أصلح الأرض لزراعة القمح وأوفرها إنتاجاً ، لأن هذه النباتات تخزن المواد الآزوتية في جذورها . فإذا تركت هذه الجذور في الأرض أصبحت سماداً ينفذ القربة ويقويها . ويلى الباق « الأرض الشراق » وهي الأرض التي غلقت في السنة الماضية فاشتدت حاجتها إلى الماء واستراحت . فإذا رويت وزرعت قحاً أو شعيراً جاءت بمحصول وفير . ويلى الأرض الشراق « الأرض البتانة » ، وهي الأرض التي كانت مزروعة كتاناً ، لأن الكتان يصف الأرض ، ثم « الأرض لشتونية » وهي التي كانت شراق ثم زرعت . و « الأرض الوسخ » وهي الأرض التي لا يستطيع الفلاحون تنقيتها من الحشائش أو الحلفاء فيحرقونها بما فيها . وأردأ الأراضي الأراضي الخرس التي تسكثر بها الحلفاء وغيرها من النباتات البرية ولا يستطيع حرثها أو ربيها^(٢) .

(١) خطط ج ١ ص ١٠٠

(٢) ابن سنان : قوانين الموائين ص ٢٠١ - ٢٠٤ . القرطبي : خطط ج ١ ص ١٠٠ .

(د) المحاصيل :

كانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي - ولا تزال تنقسم - إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية أما المحاصيل الشتوية ، فقد أورد ابن مائى أهمها وهى :

١ - القمح : وكان يؤلف المحصول الرئيسى للبلاد ، ويزرع فى منتصف باه ويحصد فى كيهك ، ويحتاج الفدان لزراعته من أردب إلى خمس وبيات . ويُنزل محصولا يتراوح بين أردبين وعشرين أردبا تبعا لخصوبة الأرض . وكانت قطعة (ضريبة) الفدان ثلاثة أرداب . وهذا يشبه نظام « الحيازة » للتبعم اليوم .

٢ - الشعير : وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام ويحصد قبل القمح كذلك بأيام ، ويحتاج الفدان من بذور الشعير مثلاً يحتاجه من بذور القمح ويحصد فى شهر برمودة ، وينزل الفدان من الشعير مثلاً يناله من القمح ، وقطيعة مثل قطعة القمح .

٣ - القول : وكان يزرع بضواحي القاهرة فى أول باه ويؤكل أخضر فى كيهك ، ويستخدم فى زراعته نصف أردب من البذور ، ويحصد فى برمودة ، وينزل من أردبين إلى عشرين أردبا ، وضريبته تتراوح بين أردبين ونصف وثلاثة أرداب .

٤ - الحمص والجلبان والعدس : وتزرع فى شهر هاتور ، ويستخدم فى زراعة كل فدان ثمانى وبيات من الحمص وأربع وبيات من الجلبان ووبيتين من العدس . ويجمع المحصول فى برمودة . وينزل فدان الحمص من أربعة إلى عشرة أرداب ، والجلبان عشرة أرداب ، والعدس من خمسة أرداب إلى عشرين أردبا . ويبلغ خراج الفدان من كل من هذه المحاصيل أردبين ونصف .

٥ - الكتان : ويزرع فى هاتور ويستخدم فى زراعة الفدان أردب من البذور وقطع فى برمودة ، وينزل ثلاثين حبلا ، ومن البذور من ثلاثة أرداب إلى ستة أرداب . ويبلغ خراج الفدان من ثلاثة دنانير إلى خمسة دنانير . وقد بلغ فى منطقة دلاص ١٣ ديناراً .

٦ - القُرْط (البرسيم) : وتلقى بذوره حين يأخذ الماء فى المهبوط فى شهر باه ، ويستخدم فى زراعة الفدان وبيتان ونصف ، ويؤكل أخضر فى كيهك ، وينزل من أردبين إلى أربعة أرداب ، ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحداً .

٧ — البصل والثوم : وتبدأ زراعتهما في هاتور ، ويحتاج فدان البصل من ثلاثة أرباع الوبية إلى وية واحدة ، ويحتاج الثوم من مائة حزمة إلى مائة وخسين حزمة . وتجمع الغلة في برمودة وتقروح مدة بقائه في الأرض من سبعين يوماً إلى تسعين يوماً ، وبذلك يختلف باختلاف درجة الحرارة في الوجهين البحري والقبلي . ويطلق عليه الآن « السميني » أو « النسميني » تبعاً لعدد أيام بقائه في الأرض . وكانت غلة الفدان في العصر الفاطمي تقروح بين عشرة دنانير وعشرين ديناراً . وقد أصبح محصول البصل يتأثر اليوم بالسوق العالمية ، فترتفع غلته أحياناً إلى مائة جنيه وتنخفض أحياناً أخرى إلى أقل من خمسة جنيهات . وقد بلغ خراج فدان البصل دينارين .

٨ — الترمس : ويزرع في طوبة ، ويحتاج الفدان إلى أردب من البذور ومحمد في برمودة ، وينتج عشرين أردباً ، ويبلغ خراجه ديناراً وربع دينار .

٩ — الكون والكراديا والسليج : وتزرع في أوائل أشتير ، ويحتاج الفدان إلى قدحين من البذور ، ويجمع المحصول في برمودة ، وينتج ما قيمته من خمسة دنانير إلى عشرين ، ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحداً . ويلاحظ أن زراعة هذه الغلات أخذت تقل بسبب تحول الأرض من أرض حياض إلى أرض تروى رياً مستديماً . وذلك لأن هذه الغلات تتأثر بكثرة الماء ، ويجب ألا تروى أكثر من مرة واحدة في السنة . وكذلك الحال بالنسبة إلى القول والقدس والترمس .

١٠ — البطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا : وتزرع في شهر برمها ، ويعنى المحصول في بشنس ، ويقطع محصولاً يتراوح ثمنه بين دينارين وعشرين ديناراً . ويبلغ خراج اللقاني من دينار إلى دينارين وخراج اللوبيا ثلاثة دنانير .

١١ — السمسم ، ويزرع في برمودة ويحتاج الفدان إلى وية من البذور ، ويجمع المحصول في شهرى أيب ومسرى . وينتج من أردب واحد إلى ستة أردب ، ويبلغ خراجه ديناراً واحداً .

١٢ — القطن : ويزرع في برمودة ، ويحتاج الفدان إلى أربع ويات من البذور ، ويعنى المحصول في شهر توت ، وينتج الفدان من قنطارين إلى ثمانية قناطير ، ويبلغ

خراج الفدان قطاراً واحداً . ومن ذلك يتبين أن زراعة القطن قديمة في مصر .

١٣ — القصب السكر : ويزرع في نصف برمات ، ويحتاج الفدان إلى ثمن فدان من القصب الذي يقطع ويدفن في الأرض زوجاً زوجاً ، ولا يكون في قطعة القصب (المقلّة) أقل من عيين (منى مين وهي « البز ») . وينضج « القصب الرأس » أي الذي يزرع لأول مرة ، في طوبة . أما « قصب الخلفة » وهو الجيل الثاني ، فينضج في هاتور ويحمل إلى الماصر في أيام التيروز . ويقل الفدان من أربعين إلى ثمانين أبوجة أي حزمة كبيرة من عيدان القصب (لبشة) . كما يقل ما قيمته من عشرين ديناراً إلى مائة دينار من عسل وقد وهو سكر العسل ^(١) . ويبلغ خراج قصب الرأس خمسة دنانير ، وقصب الخلفة دينار بن وخمسة قراريط .

١٤ — القلقاس : ويزرع بالطريقة التي يزرع بها القصب ، ويحتاج إلى عشرة قناطير من ثمار القلقاس ، ويحصى في هاتور ، ويقل مبلغاً يقرلوح بين خمسة دنانير وأربعين ديناراً ، ويبلغ خراجه أربعة دنانير .

١٥ — الباذنجان : ويزرع في برمات وبرودة وبشئس وبؤونة ، ويستخدم في زراعة الفدان ما قيمته دينار من الشتل ، ويجمع المحصول في بؤونة أو أييب أو مسرى ، ويقل محصولاً يبلغ ثمنه ثلاثين ديناراً ، ويبلغ خراج الفدان ثلاثة دنانير .

١٦ — السم النيلي : ويزرع في أواخر بؤونة ، ويحتاج الفدان إلى ربع وبة من البذور ويجمع في توت ، ويقل من أردب إلى خمسة أرداب .

١٧ — القيلة : وتزرع في بشئس وبؤونة ، ويحتاج من ثلاثة أرباع وبة إلى وبة من البذور ، وتجمع غلتها في أييب ومسرى ، وتقل ما قيمته ستة وعشرين ديناراً ، ويبلغ خراج الفدان ثلاثة دنانير .

١٨ — الفجل : ويزرع في جميع شهور السنة ، ويحتاج الفدان من قدح واحد إلى قدحين من البذور ، ويجمع أيضاً في جميع شهور السنة ، ويقل ما قيمته من أربعة دنانير إلى ستة دنانير . ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحداً .

١٩ — القنت : ويزرع في أييب ومسرى وتوت وبابه ، ويحتاج إلى قح واحد من البذور ، ويجمع بعد أربعين يوماً من زراعته ، ويقل ما تتراوح قيمته من أربعة دنانير إلى ستة دنانير ، ويبلغ خراجه ديناراً واحداً .

٢٠ — الخس : ويزرع في طوبة ، ويحتاج من الشتل إلى ما قيمته ربع دينار ، ويبقى في الأرض شهرين ، ويقل القدان ما قيمته عشرة دنانير ، ويبلغ خراجه دينارين .

٢١ — السكرمب : ويزرع في توت ، ويحتاج من الشتل إلى ما قيمته ديناران ويقلع في هاتور ، ويقل ما قيمته عشرون ديناراً ، وخراجه ديناران ^(١) .

وأما المحاصيل الصيفية فقد اقتصرت زراعتها على الأراضي التي تحف بنهر النيل وذلك نظراً لجفاف الترع . وكانوا يرمون الماء بالسواقي والقواديس وغيرها . لذلك لم تكن هذه المحاصيل من الوفرة بحيث تسد حاجة الأهاليين ^(٢) .

كما عنى الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها . فكانت بساتين مصر في العهد الفاطمي تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والوخ والمشمش والخل والوز . كذلك عسوا بزراعة الورود كالنرجس والياسمين والرَّسِين والريحان والنَّشُور والخيار شُجيرة ^(٣) .

(و) المجمعات :

وعلى الرغم من الازدهار في العصر الفاطمي ووفرة المحصول ، كانت البلاد تتعرض لكثير من الأزمات الاقتصادية نتيجة لانخفاض ماء النيل ، أو إهمال العناية بالترع والقصور ، أو انتشار القمل والقلاقل ، واضطراب حبل الأمن .

وكانت أولى المشاكل التي جابهت جوهرراً في هذه البلاد ، العمل على تخفيف وطأة القحط والحاجة التي انتابتها . وكان من حسن حظّه ، أن للمز لما لم يفتح هذه البلاد بحث إليه بمدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مدينة مصر كربهم ردحا من

(١) اسطرلين ماني : قه اثنين الفواوين من ٢٥٨ - ٢٧٠ .

(٢) الراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين من ٦٧ .

(٣) ابن ماني من ٢٧١ - ٢٧٢ .

الزمن . كذلك أنشأ جوهر في الوقت نفسه مخزنًا عامًا للحبوب عهد برقايته إلى المحتجب ، ومهمته منع احتكار هذه الحبوب والافراد بتقدير أنماها ، وجلد كل من لم ينزل عند أوامره من أصحاب المطاحن .

على أن هذه الوسائل لم تؤد إلى انفراج الأزمة نهائيًا ، وإن كان لها أثرها في اكتساب الفاطميين محبة الأهلين ورضاهم . وقد استمرت المجاعة والوباء حتى نهاية سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) ؟ ولم تنته المجاعة إلا في الشتاء التالي ، في غضون للشهور الأولى من سنة ٣٦١ هـ (أكتوبر وما يليه من سنة ٩٧١) ، حيث بدأت البلاد تسترد نشاطها إثر زوال الوباء ^(١) .

وبعد زيارة ناصر خسرو لمصر بقليل ، حلت بالقاهرة الأيام السيئة وعادتها للعائب التي لم تشر بها قبل قرن من تأسيسها . وقبض على نواصي العناصر المتألبية العادية على اختلافها في هذه الأثناء الوزير اليازوري مدة تسع سنين ، وبذل قصارى جهده في معالجة خطر المجاعة التي كانت تهدد البلاد دائمًا ، تلك المجاعة التي كان يصحبها غالبًا الوباء واللبؤس العام ، وما يقع ذلك من الفوضى والجرائم . ووجد اليازوري في مخازن النلال التي كان مستوليًا عليها ما أبعد ذلك الخطر مدة حياته . غير أنه بعد قتله (صفر سنة ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) لم يكن هناك من يقف في وجه هذه العناصر المتطاحنة ^(٢) .

ويبين لنا تزعزع مركز الحكومة ما كان من تماقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات . وقد كانت السلطة في هذه الآونة بيد الجنود التركية ، وقد طردوا الجنود السودانية التي كانوا يكرهونها ، والتي كانت تعتمد عليهم أم الخليفة ، وكان عديم خمسين ألفًا ؛ فأبدوا جهة الصعيد حيث استقر منهم خمسة عشر ألفًا . وكان من أسهم أن أخافوا الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضي (٤٥٩ هـ) ؛ وقد اكتسح الغالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفًا ، الدلتا حتى وصلوا إلى الإسكندرية فاستقروا بها .

أما الأتراك فقد اتهموا تلك الفرقة واتهبوا المدينة ، وارتكبوا أعمال العنف والشدة لإيذاء الخليفة التي لم يكن له ظهور ، والذي أصبح بيت ماله خلوًا من المال المطلوب لإرضاء

(١) يحيى بن سيد ص ١٢٩ و ١٣٠

(٢) ابن ميسر ص ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٧ — ٢٢ و ٢٤

مطالبهم التي كانوا يركنون إلى القوة في سبيل الحصول عليها^(١).

وأُتلف هؤلاء الأتراك في ثورتهم قصور الخلفاء الجليّة ، وبددوا المجموعات الفنية التي لا تقوّم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ؛ وأمر من هذا كله ، أنهم أغاروا على المكتبات المنقطعة النظير^(٢) . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذي ألغته الجنود السودانية للشنت في جميع أنحاء البلاد . ومع ذلك لم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضي للفصل الجديد .

ولقد شعرت القاهرة ومصر اللتان حرمتا من الإمدادات التي كانت تأتيها عادة من الأنعام بندرة الأعوات شعوراً قاسياً . فقد بلغ ثمن الرغيف خمسة عشر ديناراً ، كما كانت تباع بعض المنازل بربع من الدقيق . وكان بعض كريمات النساء يعرضن حليهن النادر الثمن ، فلا يوجد من يشتريه في مقابل شيء من الطعام . وكانت الخيل والحير والحلاب والقطط تباع بأثمان فادحة ، ويقبل الناس الجلياع على التهام لحما .

وسرعان ما عَدِمَت أمثال هذه الحيوانات فلم يوجد ما يدمج منها ، حتى إن اصطبِل الخليفة قتل دوابه ، بحيث لم يستطع خدام الخيول الجلياع جمع أكثر من ثلاثة أفراس صغيرة لولام . وكانت نتيجة هذا كله أن أصبح الناس يحطف بعضهم بعضاً من الطرقات ، وأصبح لحم الإنسان يباع عند الجزارين^(٣) .

وجاء صد ذلك الوباء ، فحصد الأرواح بمنجمله حصداً ذريعاً ؛ فكان يكتمسح الديار داراً بعد دار . ولم يكن هناك فرق بين عظيم وحقير ؛ بل نالت المصائب من الجميع على السواء ، حتى إن الخليفة نفسه ، الذي أُنلف الأتراك ماله ، والذي كان معتزلاً في داره ، كان مدينياً يحفظ حياته إلى بنت أحد الفقهاء ، إذ كانت تجري عليه رغبتين كل يوم . أما زوجته وبناته فقد فررن إلى بغداد هرباً من الطامون .

وقد طلت مصر مدة سبع سنوات في حالة يرثى لها من البؤس الذي أعقبته المجاعة

(١) يمول ابن ميسر (ص ١٧) هند كلامه على حوادث سنة ١٢٦٠ هـ ، إن شخصيات الأتراك التي كانت قبل ذلك عشرين ألف دينار في أشهر (٢٤٠.٠٠٠ في السنة) بليت في ذلك الوقت أربعاً ألف دينار في الشهر (٢٨٠٠.٠٠٠ في السنة) .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ و ١٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠

وما سببها من الجرائم ، وبلغت الحالة درجة لم تعرفها البلاد من قبل . وأخيراً انتهت تلك الأيام وما فيها من البلاء ، وجاءت غلة عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وفيرة . وفي رجب من هذا العام قتل زعيم أشراف الأتراك ناصر الدولة بن حمدان الذي هدد مصر بوصفها تحت سيادة بنى باداد ؛ وجاء الوزير الخليل بن الجلال ، فأخذ الدولة الفاطمية بالزعزعة الأركان^(١) .

وعلى الرغم من رخاء مصر وعظم ثرائها والأموال التي كانت تفيض بها خزائن الفاطميين ، كانت هذه الثروة تذهب إلى جيوب الخلفاء ؛ فساءت حال الملاح ، واثابته المجاعات ، وانتشرت الأوبئة ، ونضبت في عهد المستنصر ثروة مصر ، وأصبحت البلاد في حالة اقتصادية سيئة .

٥ — الصناعة

تحضرنى في بداية الكلام في هذا الفصل ، ملاحظة جديرة بالنظر وهي أن معظم صناعات الفاطميين زُينت بصور آدمية وحيوانية كثيرة ، وهو أمر لم يكن مرغوباً فيه عند أهل السنة ، إذ اشتهر عند فقهاءهم كراهيتهم لرسم الكائنات الحية ، أما فقهاء الشيعة فلم يحفلوا كثيراً بهذا الموضوع ، بدليل أن الإيرانيين والفاطميين لم يقيّدوا بنصوص تحرم عليهم رسم الكائنات الحية . وكان من أثر ذلك أننا نشاهد هذه الرسوم بكثرة في فنون الإيرانيين والفاطميين على السواء^(٢) .

(١) الفسج :

من الصناعات التي ازدهرت في العصر الفاطمي صناعة النسيج : فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته في الفيوم . ومن أشهر مراكز هذه الصناعة في القرن الرابع الهجري إقليم الفيوم ونواحي بحيرة تيس ، وخاصة مدن دمياط وشطا وديق التي تنسب

(١) وصف ابن منجب ص ٥٥ و ٥٦ حالة مصر بإيجاز عند كلامه على وزارة بدر الجمال .
راجع ما كتبه ميو فييت (Wiet) عن بدر الجمال في مذكرات المعهد الفرنسي للأثار الشرقية في القاهرة ، المجلد الثاني والحسون
Mémoires (Publiées par les membres) de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (M. I. F. A. O.),

فصل سوم در بیان مریضه علامت علی و صبیحه مرزا



إليها الثياب الديقية ، وفي تيبس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ دينار سنوياً . وفي ديبق كانت تصنع « الثياب المنقطة والمائم الشرب اللونة ، والديبق العلم المذهب . وكانت المائم الشرب المذهبة تصل بها ، ويكون طول كل حمالة منها مائة ذراع ، وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والنزل »^(١) :

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج ، حتى سميت ديباط الأعاجم : كما كان لصناعة القطن في شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز في صناعة الكتان ، حتى قال الثعالبي إن القطن لغراسان والكتان لمصر^(٢) .

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة . فقد بلغ نظام الطراز^(٣) مبلغاً كبيراً من الرق ، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . وتبين لنا مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات ، من وصف الكسوة^(٤) التي أمر الخليفة الفاطمي العزيز بملئها للكعبة . وكانت مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شهراً ، وفي حافتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً ، في كل هلال أربعة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبير . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت في حافتها الآيات التي وردت في الحج^(٥) بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتامة بالجواهر الثينة . وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ، ووضعت في القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه^(٦) .

(١) انقريزي : مخطوط ج ١ ص ٢٢٦

(٢) دم ستر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣) فخرى الأصل مناه التلريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا القطن يطبق على الكتانة المشواة ، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المقوش أو الموشى بالخيط ، وعلى القروش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع ، سواء أكانت من المجارة أو التنيقياء أو الزجاج أو الصغار ، أو كان محفوراً بالخشب . وكانت دار للطراز الفاطمية تقوم بصناعة المنصر الرغيمة . انظر الجوزدي : ميرة جودز توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠

(٤) بضم الكاف وكسر ها .

(٥) ٩ : ٩٥ ، ٩٤ : ٣ .

(٦) ابن بطر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

وقد بنى المزد دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموافي الدولة على اختلاف مراتبهم ، وعلى الخلفاء من بعده بصناعة النسيج ، وكانوا يصنعون مقادير وافر منها لهم ولرجال بلاطهم ، كما كانوا يصنعون الكسوة الشريفة ، والخلع التي يمنحونها بسمة للوزراء للوزراء والأسراء والأشراف في عيد الفطر ، حتى سمي هذا العيد عيد الخلع .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر . من ذلك الثياب المتأينة للمصنوعة من الحرير ، وتنسب إلى جناب أحد أحياء بغداد^(١) . والخسرواني (أو الخسرواني بفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس^(٢) ، والقلوني ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلاشى إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتينيس خاصة^(٣) ، والتستري ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر^(٤) أشهر مدن خوزستان ، والقرقي ، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع في دمياط وتينيس ، واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تنفخ دائماً لاسياً إذا انكسرت عليها أشعة الشمس^(٥) . والنصفية ، وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وقد ذكر المقرئ^(٦) أن الخليفة المزم الفاطمي أسر في سنة ٣٥٣ هـ بممل خريطة من الحرير الأزرق التستري والقرقي والنسوج بالذهب ، كان مزيناً عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . كما ذكر المقرئ^(٧) أن الخليفة المستنصر ترك فيها تركه من الكنوز حين ألف مقطع من الحرير الخسرواني كان أكثره مذهباً ، كما ترك حشية قلمونية يمت بألفين وأربعمائة دينار .

(١) كان جناب ابن حفيد حميرة ، وإليه يلمب هذا الحي الذي اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .

انظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

Laue : Arabic-English Lexicon (٢)

(٣) هاتوت : معجم البلدان ، Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٤) وهي سرية عن شستر

(٥) القرب طائر يرى في القدر والمستنقعات . انظر معجم البلدان لياقوت

(٦) غلط ج ١ ص ٤١٧

(٧) غلط ج ١ ص ٤١٦

وقد نقل للقرنزي عن ابن عبد العزيز الأنماطى أحد أسماء البيع أن عدد مقاطع النسيج الخسروانى بلغ فى عهد المستنصر خمسين ألفا ، وكان أكثره مذهبا . ويقول القرنزي فى عبارة أخرى عن ابن عبد العزيز هذا إن عدد هذه المقاطع بلغ مائة ألف ؛ وكان منها حشية خسروانية بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، كما بيعت حشية أخرى قَلَمُونِيَّة^(١) بألفين وأربعمائة دينار . وذلك كله هذا عشرين ألف قطعة جديدة من النسيج الخسروانى . وقد بيع هذا كله فى شهر صفر من سنة ٤٦٠ فى نحو خمسة عشر يوما^(٢) .

وأخذ بعد هذا بقليل من خزينة الرفوف^(٣) ألفا عدل من اللقماش الخلى بالذهب ، كما بيع من خزينة أخرى من حزائن الفرش ثلاثة آلاف من اللقماش الخسروانى المطرز لم يستعمل بعد ؛ وكان ذلك معداً لتأثيث بيوت كاملة بما تحتاج إليه من مساند ووسائد وحشيات وبسط وستور وأحجاس^(٤) وغير ذلك ؛ وعدد عظيم من الحصير السامانى المشغول بالذهب والفضة ، وأربعة آلاف عدل من الخسروانى الجديد المطرز بالذهب ، وكان كل عدل منها كافيا لتأثيث غرفة بالبسط والستور وما إلى ذلك^(٥) .

وكان من بين أمتعة القصر مضرب الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ؛ وكانت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكذلك مضرب الوزير البزارى ، وكان مجموعة رسوم دنية ، كلفة ثلاثين ألف دينار ، واشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات حتى أتوه . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدما ، واتساع محيطه ألف قدم تقريبا ؛ وقد نقش على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم^(٦)

(١) نسبة إلى قلمون ، وهو نوع من اللقماش ذو ألوان ثلاثة تلالا إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وكان أول ما ظهر فى بلاد اليونان ، ثم أصبح يصنع فى مصر وخاصة فى دسوات وقنيس (انظر معجم البلدان لياقوت ، Dozy, Supplément)

(٢) القرنزي ، غلط ج ١ ص ٤١٦ .

(٣) يثوب القرنزي (غلط ج ١ ص ٤١٦) إنها سميت بذلك لكثرة ما بها من الرفوف .

(٤) جمع رحبى وهو الملاية .

(٥) القرنزي غلط ج ١ ص ٤١٦ و ٤١٧ .

(٦) انصهر نفسه ص ٤١٩ .

ومما تركه الأفضل أيضاً نسمون ألف نوب عتّابي^(١) من الديباج ، وثلاث خزان كيرة ممثلة بالتياب الدقيقة من صنع تيس ودمياط ، وخزانة أخرى للطيب مملوءة بأسقاط العود وغيره ، مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ؛ أما أواني المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث لا يمكن عدّها^(٢) .

وكان في ثروة الأفضل غير ما تقدم أربع حبرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش والوسائد والمساند والديباج ، وأنواع مختلفة من الديبج الحرير المذهب ، وعدة صناديق ملأى بأحقاق الذهب خاصة لاستعمال الوزير ، وخزانين أخرى ملأى بمختلف للتياب الديباجة المحلاة بالذهب .

أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد ، وخمسة قطع من البلور ما بين كبيرة وصغيرة ، وخمسة قطع من الذهب^(٣) لنقل الأمتعة ، وألف عدل من أمتعة اليمن والإسكندرية وبلاد المغرب ، وسبعة آلاف سرج .

وكان صنع كل كسوة يختلف عن صنع غيره من سائر الكسى ، وذلك لكي تصلح كل منها لاحتفال خاص ، كالاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السباط في أول يوم من أيام عيد الفطر . ويذكر المفريزى أن إحدى هذه الكسى اشتملت على ٧٠٣ من المناقيل من خيوط الذهب والفضة ، وقد أخفى في زركشة كل مقال منها دينار^(٤) . أما المناقيل فقد أنفق على الواحد منها خمسة دنانير^(٥) .

والنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية في تاريخ الدولة الفاطمية :

(١) نوع من التياب الحريرية ، تنسب كما ذكر دوزى في شرح تاريخ هذا المفظ ، إلى ابن حفيد حميرة المسمى عتّاب ، وإليه ينسب حتى بغداد ، وفيه تصنع هذه التياب التي صارت تعرف بالتياب النائية (انظر Dozy, Supplément)

(٢) ابن عسّر ص ٥٧

(٣) لم أشر على معنى هذا المفظ رغم رجوعى إلى قاموس الملابس عند العرب Dozy, Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes, وإلى غيره من الموسوعات العربية كالقاموس المحيط للفيروزابادى .

(٤) غلط (ج ١ ص ٤١٥) ، وهل ما أورده المفريزى ، كان كل تبع تصبات من المنهوط للعلمية والفضية تزن مثقالاً ، فكان عدد القصبات ٦٣٢٧

(٥) المصدر نفسه .

فالنوع الأول وينسب إلى عصر المزمز والمميز والمحاكم وقوام زخارفه أشراط من الكتابة توازيها أشراط أخرى بها جامات يضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض ، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود .

والنوع الثاني وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر ، وقد تنوعت الأشراط الزخرفية واتسعت وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة ، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية . وقد أصبحت الكتابة عنصرا زخرفيا .

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المملوك والآخر ، وقد تطورت فيه الزخرفة ، وظهرت عناصر جديدة مثل الأشراط والجدائل التي تتسوج وتتداخل ويدخل بينها جامات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوسا بها فاكهة — تتخللها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره .

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمي ، وتتألف زخارفه من جدائل تتقاطع وتشابك ، وتتألف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ^(١) .

(ب) الصناعات الحشيدية :

١ — بناء السفن : عني ولاية مصر الإسلامية ببناء السفن الحربية والتجارية ؛ فبنى مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٥٦١ هـ) في جزيرة الروضة داراً لصناعة السفن أطلق عليها « دار الصناعة » . وعني أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية . ونقل محمد بن طنج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية دار الصناعة من الروضة إلى القسطنطينية مكان عرف باسم « صناعة السفن » ، وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع في دار صناعة مصر تارة وفي دار صناعة الجزيرة تارة أخرى .

ولما فتح الفاطميون مصر لم تقف عنايتهم عند اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل شعروا بالحاجة للبحرية إلى أسطول قوى يصد البيزنطيين عن بلاد الشام التي كانت تناوئ سلطان الفاطميين^(٢) . ومن ثم أنشأ الخليفة المزمزم داراً لصناعة السفن بالمقاس بي فيها

(١) Migeon, Manuel d' Art musulman, tome II, pp. 300-9 . زكي محمد حسن: فنون

الإسلام ص ٣٥٠ — ٣٥٨

(٢) القرطبي : عتق ج ١ ص ١٩٢

ستائة مركب وصفها المسبحى المؤرخ المصرى فقال : « لم ير مثلاً فيها تقدم كبيراً ووثاقه وحسنه » . كما اشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية ، وبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشوانى^(١) .

كما أنشأ الفاطميون درراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط^(٢) . وعنوا بحلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات في كثير من جهات الصعيد . ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب كافياً ، لأن الخشب المحلى لم يكن يمتاز بالصلابة المطلوبة . لهذا كانوا يستوردون الخشب من أوروبا عن طريق البنادقة . وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تصدير الخشب إلى مصر ، مما عرقل صناعة السفن^(٣) . وقد احترق الأسطول الفاطمى في سنة ٣٨٦ هـ حتى لم يبق منه غير ست سفن ، ولم تجد البلاد حاجتها من الخشب ، فأمر عيسى بن نسطورس بقطع الخشب حيث وجد ، وطلب الصناع ، وبات في دار الصناعة ، وأخذ يحث العمال على الإسراع في بناء السفن حتى استطاع في شهر واحد أن يبنى مركبين غاية في الكبر ، وتم ذلك في ٧ من شهر جمادى الآخرة من تلك السنة . وفي غرة شهر شعبان أنزل عيسى إلى الماء أربع مراكب أخرى ، واستطاع الفاطميون بعد عناء أن يبقوا من أثر هذه الكارثة^(٤) ، واستطاعت دور الصناعة التي انتشرت في البلاد أن تمد الأسطول للمصرى بحاجته من السفن .

٢ — الحفر على الخشب : ومن الصناعات الخشبية صناعة الحفر على الخشب . وعلى الرغم من أن التحف الخشبية للصنوعة بمصر في العصر الفاطمى الأول كان يتجلى فيها الانتقال من الأساليب الفنية في العهد الطولونى والإخشيدي إلى الأساليب التي تفوقت في آخر العصر الفاطمى . إلا أن هذه الصنعة قد ازدهرت حتى بلغت الناية في العصر الذهبى للدولة الفاطمية ، إذ أبدع الفاطميون في نقش الفروع النباتية وأوراق الأشجار ورسوم الحيوانات والطيور . ويرجع الفضل في ذلك إلى القبط الذين مهروا في صناعة التجارة والحفر

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٧

(٢) للقرئى : خطل ج ١ ص ١٩٣

(٣) البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣

(٤) للقرئى : خطل ج ١ ص ١٩٦ .

على الخشب . ويبدو أن تسامح الفاطميين مع القبط قد أتاح لهم الإبداع والتجديد في هذه الصناعة . وتجلى ذلك في الآثار الخشبية التي تنسب إلى العصر الفاطمي ، مثل التحف الخشبية التي وجدت بكنيسة السيدة ربارا بمصر القديمة . وما يشهد بتفوق صناعة الحفر على الخشب في ذلك العصر الألواح الخشبية التي عثر عليها عمارستان قلاوون الذي قام على أنقاض القصر الغربي الفاطمي . وهذه الألواح غنية بزخارفها فريدة في إتقان صنعتها .

ومن أم للتحف الخشبية منبر حرم الخليل بفلسطين . وقد نقشت على بابه وعلى جانيبه كتابة تاريخية بخط كوفي جميل ، ونستلفت زخارف هذا المنبر النظر بدقة الفروع النباتية التي نقشت في أشكال هندسية . إلا أن أروع التحف الخشبية الفاطمية هي المحاريب الثلاثة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، وأقدمها كان بالجامع الأزهر ، والثاني بجامع السيدة نفيسة ، والثالث بجامع السيدة رقية^(١) .

٣ - الورق والتجليد - صناعة الجلود : ازدهرت الحركة العلمية في العصر الفاطمي بسبب اهتمام الفاطميين بنشر العناية العلمية والأدبية ، فأُسِّسَت دار الحكمة في القاهرة وجلس بها الفقهاء للتدريس ، وحملت إليها الكتب ، وأُتيح دخولها للناس ، للقراءة ونسخ الكتب . كما جلس فيها القراء والمترجمون وعلماء النحو واللغة حتى الأطباء . ورتب لها الفاطميون لقوام والخدم والفراشين ، وكان يصرف للمتقدمين عايشها ما يحتاجون إليه من الخبز والأفلام وورق والمحابر . وكانت الدولة تنفق على أهل العلم في هذه الدار ٢٥٧ ديناراً في السنة ، منها عشرة دماير ثمناً لورق الكتاب والناسخ^(٢) . وقد رتب الوزير يعقوب بن كلس في داره قوماً ينسخون القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب^(٣) . وكان من أثر ذلك أن اجت صناعة الورق في ذلك العصر . وكان ورق البردي الذي اشتهر عصر منذ عهد بعيد نُسِر الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني ، ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري . واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد حتى قيل إن كواعد سمرقند عطلت قراطيس مصر . وانتشرت صناعة الورق

(١) Migeon, tome I, pp. 307-308.

(٢) المقرئ : خطاط ج ١ ص ٤٥٨ .

(٣) بر حسان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٤ .

في دمشق وطبرية وطرابلس الشام ، وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة^(١) . ومن أشهر مراكز صناعة الورق بمصر في العصر الفاطمي مدينة القسطنطينية التي انتشر بها نوع من الورق أطلق عليه الورق للصوري^(٢) . وكان الورق الذي يصنع في القسطنطينية من أجود أنواع الورق الذي يصنع في مصر^(٣) . ولم يكن الورق يباع بسعر واحد ، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته ، فالورق الأبيض الصقيل الذي يصنع في الصيف أغلى ثمنًا من الورق الأسمر الخشن الذي يصنع في الشتاء . ويرجع الفرق بين نوعي الورق إلى المادة المستعملة في صناعته^(٤) . فقد كان يصنع من الكتان المضروب بالقطن ، كما يصنع من الخرق البالية^(٥) . وانتشرت « الوراقة » بمصر في ذلك العصر . فكان الوراقون يشتغلون بصنع الورق ونجارته وبالنسخ والتجليد وبيع الأبنام والخبر^(٦) . وكانت له أما كن معينة تلتقي فيها الطبقات المثقفة .

وقد صبح انتشار صناعة الورق تقدم فن تجليد الكتب ، واستخدم الصناع جلود المجول ، كما استخدموا الحرير والديباج والأطلس في تجليد المصاحف بصفة خاصة^(٧) . كما تقدم فن الخط والتذهيب^(٨) .

كما اشتهرت مصر ، ولا سيما مدينة القسطنطينية ، في ذلك العصر بصناعة الأنطاع ، التي كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما كان يصنع بالقسطنطينية الكرامات وخرايط الجلد (Sacks) والسيور والقمي التي فاقت قسي دمشق في دقة صناعتها حتى غدت مضرب الأمثال^(٩) . وقد برع صناع الجلود بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، حتى لقد بلغت قيمة السرج

(١) الملاحظ : التبصر بالتجارة ص ٤١ . انظر أيضاً " باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتة والجواهر والأحجار وغير ذلك " ص ٣٥ - ٣٤ .

(٢) المقريزي : مخطوط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٣) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨ .

(٤) ابن الحاج : كندعل ج ٤ ص ٨٩ . البراري : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين

ص ١٦٢ - ١٦٣

Lamm, Cotton in Medieval Textiles, p. 5. (٥)

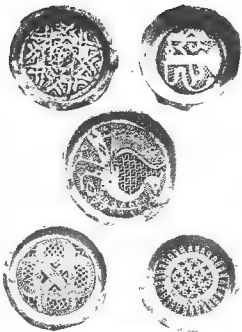
Arnold and Growhman, The Islamic Book, p. 32. (٦)

Ibid, p. 51. (٧)

Ibid, p. 97. (٨)

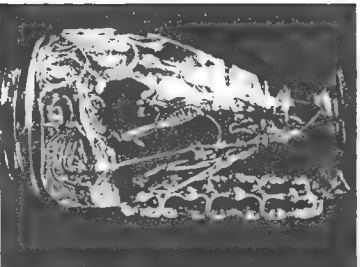
(٩) المقريزي : مخطوط ج ١ ص ٣٦٧ .

شش سکه نقره از عهد شاهنشاهی ساسانی



چهار سکه نقره از عهد شاهنشاهی ساسانی





بازن من الشلو و السحوی مزین سطح معصوم طبر دروغ سائید و کتابات کویت



بازن من الشلو و السحوی مزین سطح معصوم طبر دروغ سائید و کتابات کویت



قطعاتی از عرق دی سریق دهبی، علی از اولی رسم، ایسیح علیه السلام
و علی بن ابی طالب و ثلاثه اشخاص مکتوب فوق اوسطها "ابو صلب"

الواحد من ألف دينار إلى سبعة آلاف دينار . وكان الخليفة المستنصر يمتلك أربعة آلاف من هذا النوع من السروج ، وكذلك كانت تمتلك مثل هذا العدد . وقد صحبت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، وفلاندا وأطواق لأعناق الخيل ، خاصة بالخيل وأرباب الرتب . وقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزائن خاصة بالسروج . وكان الخليفة العزيز أول من ركب خيلا ممرجة بسروج الذهب والفضة .

٤ - الزجاج والبلور والخزف : وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي ، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي . يشهد بذلك هذه التحف التي تُزخر بها متاحف القاهرة وأوربا ، ويعزى ذلك إلى نشاط حركة البناء في مصر في ذلك العهد . فقد عمد العلماء والوزراء إلى الإكثار من بناء المساجد والقصور والمدارس . وكان صنّاع الزجاج والبلور يخدمون في سبيل تزويد هذه المنشآت بالفتائل وألواح الزجاج والشيشات وغيرها^(١) . كما أن إقبال الفاطميين على الترف والنعم واتخاذهم القصور والمتناظر ، وتقننهم في زخرفتها وتزيينها ، وتألقهم في توفير جميع أسباب الراحة ، وكثرة أموالهم ووفرة رزقهم كان من أهم الأسباب التي أدت إلى دواج هذه الصناعة الدقيقة .

وكانت مدينة القسطنطينية من أكبر مراكز صناعة الزجاج . وقد أصيبت مراكمتها بأفدح الأضرار حينما احترقت القسطنطينية في أيام الشدة المغولية . واشتهرت مدينة القيوم والأشموين والشيخ عباد بكورة المنسا (للنيا الآن) ، والاسكندرية بهذه الصناعة^(٢) . وكانت مصر تصدر هذه الصناعات إلى بلاد النوبة^(٣) وإلى أقطار الشرق والغرب .

وقد سجلت خزائن الفاطميين تحف الزجاج والبلور التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة وإتقان الزخرفة ، وذكر المقرئ^(٤) أن خزائن الجوهر حوت الشيء الكثير من البلور المحكم والمينا المجرى بالذهب والجوهر والبندادى والخيار والذهون والخارج والميني

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨١

(٢) المقرئ : خطط ح ١ ص ٣٤٢ : راشد البراوى ص ١٦٥

(٣) Safar Nameh p 154.

(٤) خطط ح ١ ص ٤٣٤ .

والدهني والكمدي . كما ذكر عند كلامه على خزائن المستنصر أنه « قد وجد بها على مثال كيزان الفتّاع من صافي البلور للنقوش والمجروح » . وقد بيع قدح من هذا البلور المجروح بمائتين وعشرين ديناراً ، كما بيع كوز بلور بمائتين وعشرة دنانير ، كما بيعت صحنون من المينا بمائة دينار للصحن الواحد . بل لقد قال القزويني إن قطعة من هذا البلور الجليل الصنع قد بيعت بألف دينار^(١) . وبشهادة هذا بما وصلت إليه هذه الصناعة من الإتقان والجمال . وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المسمى كما تفوقت صناعة الزجاج والبلور ، فصنع الصناع منه الأريار السكبار والأواني المستخدمة في حفظ المعطور والبخور^(٢) . وقد بلغ من رسوخ قدم هذه الصناعة وشهرتها أن الرحالة ناصر خسرو رأى التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلا من الورق ، كما رأى في أسواق النبطيات الأفداح والصحاف والسكرارج البديعة الصنع ، حتى لقد استطاع أن يرى يده واضحة من وراء ظهر الإياء^(٣) .

وقد عرفت مصر في ذلك العصر صناعة الفخار غير المدهون المصنوع من الطمي بعد إحراقه .

• — صناعة الخشب والمعادن والمعادن والفضة :

وقد تفوقت في العصر الفاطمي صناعة النقش على الخشب ، وكان الصناع يستعملون الأخشاب المحلية من الجوز والسنط والنبق والسرو . ولكن هذه الأخشاب لم تكن لتمتاز بالمتانة والصلابة . فاضطر الفاطميون إلى استيراد الأخشاب من كرواتيا ودلماشيا ، كما جلبوا خشب الأرز والصنوبر من غابات الشام وآسيا الصغرى ، وجلبوا الأبنوس من السودان ، وثلثت من بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو . وتمتاز التحف الخشبية التي صنعت في العصر الفاطمي بدقة الصنعة وجمال الزخرفة^(٤) . وقطع الأبواب والحشوات والألواح والمحاريب المحفوظة بدار الآثار العربية خير شاهد على صدق هذا القول .

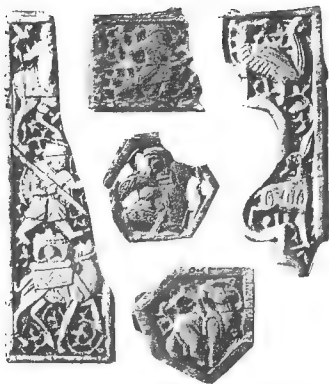
(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٩ .

(٣) Safar Nameh, p. 151.

(٤) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٩٨ .





قطعات عاج منقوش علیہا میں اڑھ رقبہ کی تیرہ صورتیں ہیں

أما الأخشاب المحلية فكانت تستخدم في صناعة الأثاث والسواقي وآلات رفع الماء ، وكذلك في صنع الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والنازل^(١) .

وقد برع صناع مصر في صنع المادن والماج والفسيفساء ، عرفت مدينة القسطنطينية^(٢) بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمال إفريقيا ، كما عرفت مدينة تيبس بصناعة المقصات والسكاكين^(٣) . وقد راجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحل والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى لللابس الفاخرة . وليس من شك في أن التحف التي وصفها القرينى تلقى ضوءاً ساطعاً على تقدم هذه الصناعة ورقيها^(٤) . هذا إلى ما عرف به صناع مصر من إتقان صناعات النحاس والبرونز ، كما عرف المصريون في ذلك العهد بصناعة التكفيت . وكان سوق للكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل السكفت ، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة . وكان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم ولناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة ، فلا تكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت^(٥) . وقد ازدهرت أيضاً صناعة سن القليل والفسيفساء . وقد شاهد الرحالة المقدسى على بعض الفسيفساء في الكعبة توقيع صناع مصريين . وقال هذا الرحالة : « قد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء ، حل إليها صناع الشام ومصر »^(٦) .

(ج) الصناعات النباتية :

كان قصب السكر في العصر الفاطمي من أهم المحاصيل الزراعية في مصر ، لأنه عماد صناعة السكر والصل التي راجت في العصر الفاطمي رواجاً عظيماً . وانتشرت مطابخ السكر في جميع أرجاء البلاد : في القسطنطينية والمينا والقيوم وترونت وأسبوط وقط وسمنهود ،

(١) الراوى : ١٧١ .

(٢) القرينى : خبط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٣) Sefar Nameh, p. 114 .

(٤) خبط ج ١ ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٧٣ .

حتى لقد ذكر ابن دقاق أن مطابخ السكر في النسطاط وحدها بلغت ٥٨ مطبخاً^(١). كما
 حمت مصانع السل أرجاء البلاد^(٢). وكانت الدولة الفاطمية تهتم بهذه الصناعة اهتماماً
 عظيماً ، حتى لشكاد تحكروها احتكاراً ؛ فأنشأت المصاهر السلطانية ، وحملت الفلاحين
 على أن يحملوا قصبهم إليها . ويخيل إلينا ، أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجمي
 مقادير طائفة من خراج الأرض المزروعة قصباً^(٣).

وكان الفلاحون يبدمون في كسر القصب في شهر هاتور ، ثم يحمل إلى المصاهر
 فيتمصر ، ثم يبدأ الطباخون في عمل السل . أما السكر فقد كانت له مصانع خاصة تسمى
 المسابك أو المطابخ . وكانت الدولة تفرض الضرائب على السل والسكر ، حتى بلغت
 حصيلة هذه الضريبة في مصر والقاهرة ٣١٠٨ ديناراً على دار القند ، ٣٢ ديناراً على مربة
 السل ، ١٣٥ ديناراً على مطابخ السكر^(٤).

وفي العصر الفاطمي راجت بمصر صناعة الزيت الذي كانت له أهمية كبيرة في حياة
 أهل هذه البلاد ، لأن منه طعامهم ووقودهم . لذلك عنى المصريون بزراعة النباتات الزيتية
 عناية كبيرة ، فزرعوا الزيتون في منطقة الفيوم والإسكندرية^(٥). كما كان السهم يزرع
 في جميع أرجاء البلاد^(٦) ، فكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت
 الشيرج من السهم^(٧). كما كانوا يستخدمون الفجل والخس في هذه الصناعة أيضاً . لذلك
 لا نجب إذا رأينا هذه النباتات تحتل في الزراعة المصرية مكانة مرموقة . وكانت أهم
 مصاهر الزيت في مدن صَنْدُفا بكورة البهنسا مركز بني مزار بمديرية المنيا وفي الفيوم
 والنسطاط^(٨).

كذلك عنى المصريون بصناعة الشمع والصابون ، وانتشرت مصانع الشمع في

(١) ابن دقاق : الانتصار ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٣ .

(٣) ابن ماق : قوانين القواوين ص ٣١٧ .

(٤) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٦) انظر فصل الزراعة في هذا الكتاب .

(٧) Safer Nureb p. 153

(٨) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٦٢ .

الإسكندرية^(١) ومطابخ الصابون بمدينة القسطنطينية ، وراجت صناعة النمر في المدن الكبرى مثل القسطنطينية والقاهرة والإسكندرية .

٦ — التجارة

(١) التجارة الداخلية :

١ — طرق التجارة : كانت طرق المواصلات بمصر في العصر الفاطمي هي الشرايين التي تتدفق عبرها تجارة البلاد الداخلية ، فلا يجب إذاً على الفاطميين بطرق المواصلات نهاية فائقة حتى تنشط حركة التجارة ويتم الرخاء أرجاء البلاد . وكان النيل — ولا يزال — أهم طرق المواصلات في مصر . فكانت المراكب تسير فيه في الشتاء والصيف ، تحمل حاصلات مصر إلى موانئ التصدير . فلكل برزت القسطنطينية باعتبارها ثغراً تجارياً عظيم الأهمية . وكانت المراكب الشراعية تزدهم في ساحلها آتية من جميع أرجاء البلاد . وقد زار الرحالة المقدسي مدينة القسطنطينية في أوائل العصر الفاطمي ، فقال : « وكنت يوماً أمشي على الساحل وأنصعب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لي رجل منهم (أى من أهل القسطنطينية) : « من أين أنت ؟ قلت من أهل القدس ، قال : بلد كبير أعلمك يا سيدي أعزك الله ! أن على هذا الساحل وما قد أفلح منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وأثاثها وحجارتها وخشبها^(٢) » .

وكان خليج أمير المؤمنين لا يقل أهمية عن نهر النيل في تجارة مصر الداخلية . وكان ولاية مصر لا يفترقون عن العناية بهذا الخليج الذي كان الشريان الذي يصل مصر بالبحر الأحمر ، ثم ببلاد العرب . فقد نشأت عند نهاية هذا الخليج مدن برزت في عالم التجارة مثل مدينة القلزم ومدينة سويس^(٣) . وكانت محاصيل مصر تحمل في خليج أمير المؤمنين

(١) ابن دقاق : الانصراح ٤ ص ١٠٨

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٦٦٨ .

(٣) هكذا سماها المقدسي (أحسن التقاسيم ص ١٦٦) الذي يقول عنها : « من موضع على برية من القلزم بلد يسمى سويس . وجاء في الأمثال : ميرة أهل القلزم من بليس وشريم من سويس . وهي مدينة السويس الحالية التي اشتهرت بعد سفر القنطرة التي سميت باسمها وهي الآن مقر محافظة السويس .

إلى القلزم حيث تنقل على ظهور الإبل إلى بلاد العرب . وتصل السفن إلى القلزم من الشرق بحملة بالحرير والقرقة والفلفل والبخور والنبيلة وغيرها من متوجات الهند والحبشة واليمن ، فتحمل إلى مدن مصر عن طريق هذا الخليج .

كذلك عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التي تسلكها القوافل التي تسير بالتجارة من بلد إلى آخر . فكان هناك طريق للقوافل يربط مصر ببلاد المغرب غربا ، وبلاد الشام والعراق شرقا . كما كانت القوافل تسلك درب الأربعين عن طريق أسبوط بحمل التجارة إلى بلاد السودان .

ومن مظاهر عناية الفاطميين بوسائل المواصلات البرية عنايتهم بالبريد . وليس من شك في أن البريد كان يسلك نفس الطرق البرية التي تسلكها للتجارة . وكانت أهم خطوط البريد في مصر حتى العصر المملوكي سبع طرق :

١ — من قلعة الجبل إلى قوص ويمر بالجيزة وزاوية أم حسين ونا ، ودهروط ، وقفوسنا ، ومنية بنى خصيب والأشمونين وذروة سريام وقم الخليج اليوسفي ومنفلوط وأسيوط وطما والمراغة وبلسبورة (تعرف الآن باسم بلصفورة) وجرجا والبلينا وهو والكوم الأحمر ودندري وقوص .

٢ — من قوص إلى بلاد النوبة مارا بأسوان .

٣ — من قوص إلى سواكن مارا بقفط وإبطة والدريج وحيترة وعيذاب وبني عامر وسواكن .

٤ — من القلعة إلى الإسكندرية عن طريق وردان مارا بالجيزة وجيزة القط ووردان والطرائة وطيلاس ودمهور ولقينة والإسكندرية .

٥ — من القلعة إلى الإسكندرية عن طريق قليوب مارا بقلوب ومنوف المليا والحلة الكبرى والنحريرية (وتعرف النحرارية الآن) والإسكندرية .

٦ — من القلعة إلى دمياط مارا بسرياقوس وبئر البيضاء وبلبيس والسعيدية وأشمون الرمان والمركزية ودمياط .

٧ — من دمياط إلى غزة مارا بالخطارة وقبر الوايلي والمالحية وبئر غزى والقصر

والقراي وقليا ولطيط والسودة والورادة والعريش والغزوة والزغفة ورفح والسفنة والجيزة والداروم وغزة^(١).

وكان التجار والحجاج يقدون إلى ثمر عيذاب عن أحد طريقين : أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين ؛ أحدهما يعرف بطريق « القَيْدَيْن » ، ويعرف الثاني بطريق « دُون » وهي قرية على شاطئ النيل . أما الطريق الثاني فهو طريق مدينة أسوان .

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في هذا الطريق في الصيف ، يمتاز عن الطريق الأول بقصره ، وفكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوما . كما يمتاز بخلوه من الجبال المشبكة التي تكثر في الطريق الأول . أضف إلى ذلك أن أسوان كانت تبرا هاما للتجارة مع بلاد النوبة . لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص . وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقا إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالبضائع جنوبا إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ، ومنها إلى الساحل المصري . لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسي القدي ، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرغ فيها البضائع ، ويقلع منها الحجاج في ذهابهم وإيابهم .

ومما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انقماش كبير في حالة عيذاب الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية للكوس على السلع التي تمر بها ، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلي ، كما استفاد الأهالي من اشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتغليفها مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم .

وقد أدام حجاج مصر والغرب أكثر من مائتي سنة لا يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج إلا من صحراء عيذاب ؛ فكانوا يركبون السفن من ساحل مدينة مصر حتى مدينة قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص أو من أسوان ، ثم يعبون هذه الصحراء إلى عيذاب ، ويركبون البحر إلى جدة . ولم تزل عيذاب طريقا للحجاج في ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتي سنة أي من سنة ٢٦٠ هـ إلى سنة ٦٦٠ هـ ، وذلك منذ كانت الشدة العظيمة في عهد

(١) تاريخ البريد في مصر (القاهرة ١٩٣٤) ص ٣٥ - ٣٦ .

الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، حيث انقطع الحج برا . وظلت الحال على ذلك حتى كما
السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الكمية وعمل لما مفتاحا ، ثم أرسل قوافل الحج
براق في سنة ٦٦٦ هـ .

٢ — مراكز التجارة الداخلية :

كان من أثر نشاط الحركة التجارية في العصر الفاطمي أن اشتهر بعض المدن
وأصبحت مراكز تجارية يفد إليها التجار وتقصد المراكب وتقام بها الأسواق لبيع السلع .
ومن أم هذه المراكز مدينة القروما ، وكانت تمد مفتاح الديار المصرية . وقد اشتهرت بمسائد
الأممك ، وهي — كما يقول المقدسي ^(١) — مجمع الطرق . وكانت بلبس قصبة الحوف
الشرقي ، اشتهرت بكثرة القرى والمزارع وطواحين الغلال ، وكانت تُمر أهل الحجاز بالهقيق
والسكك . وقد أحصى المقدسي ما حل منها في أسبوع واحد فبلغ ثلاثة آلاف حل جل
من الحبوب والهقيق ^(٢) .

ومن أشهر مراكز التجارة القلزم وتقع عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر ، وهي بلد
« ليست بذات كلاً ولا زرع ولا ضرع ولا حطب ولا شجر ، ولكنها تعيش على تجارة
للبحر الأحمر حتى أصبحت خزانة مصر وفرة الحجاز وسونة الحاج . وقد جاد في الأمثال
ميرة أهل القلزم من بلبس وشربهم من سويس ويأكلون لحم التيس ^(٣) .

ومن مراكز التجارة الداخلية أيضاً مدينة المحلة الكبيرة ^(٤) ، وكانت — ولا تزال —
عاصمة بالأسوان نافذة التجارة . وكانت مركزاً لزراعة الكتان وعصر الزيت . وبلغ
من شهرتها أن شبهها للمقدسي بمدينة واسط ببلاد العراق ^(٥) . وكانت الإسكندرية أم
مدائن بحر الروم ، تفد إليها المراكب حاملة سلع للشرق والغرب . وقد اشتهرت بمعدن

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٥ .

(٣) التيس هو الخلد الكبير . المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٤) وتعرف الآن بالمحلة الكبرى . وقد أم مراكز النسيج في مصر .

(٥) المصدر نفسه ص ١٩٦ .

الرخام وبالنخروب والزيتون واللوز . كما كانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون في ذلك العصر .

أما عاصمة مصر التجارية فكانت مدينة القسطنطينة ، التي « جمعت الدواوين وحوت أمير المؤمنين ^(١) » ، وذلك في عهد الفاطميين . وهي — كما يقول المقدسي ^(٢) — « ناسخ بفساد ومفسد الإسلام ومتجر الأنعام وأجل من مدينة السلام ، خزانة الغرب ومطرح المشرق وعاصمة اللوسم . ليس في الأمصار أهل منه ، ولا أحسن تجملاً من أهله ، ولا أكثر مراكب من ساحله . أهل من نيسابور ، وأجل من البصرة ، وأكبر من دمشق . به أطعمة لطيفة وأدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء صحيح الهواء ، معدن العلماء ، طيب للشقاء أهل سلامة وعافية » . فلا عجب إذا ازدهرت للسكان بالسكان والتجار الوافدين عليها من كل قطر ، حتى لقد ذكر المقدسي أن الحسن بن أحمد القرطبي لما سار إلى القسطنطينة خرج للناس إليه فرأهم كالجراد . كما ذكر هذا الرحالة أيضاً أن إمام جامعها يصلي وراءه عشرة آلاف رجل .

وكانت دور القسطنطينة تتألف من خمس طبقات ، وتبدو من بعيد كأنها النائر ، ويسكن القمار الواحدة نحو مائتي نفس . وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام ، تصطف القياسير والدهكاكين للسامية بمختلف أنواع السلع . وبلغ من ازدهار أسواقها بالناس أنها شبت بالجوامع . وكان من أشهر أسواقها : سوق القناديل . وقد بلغ من روعة هذه الأسواق أن قال المقدسي ^(٣) التي شاهد المدن العظام : « يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالاته ، غير أنه أحل أمصار المسلمين ، وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم » .

وكانت ترد إلى القسطنطينة تجارة الشام والمغرب والفرار والمشرق ، كما ترد إليها مراكب الجزيرة والروم . ولكن برغم ازدهار القسطنطينة بالسكان رخصت أسعارها . فكان الثلاثين رطلاً من الخبز تباع بدرهم ، والبيض تباع الثمانية بدنانق وهو سدس درهم .

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

وكان للوز والرطب في غاية الرخص^(١) . وكان يرد إلى القسطنطينية نوع من الأديم جيد ، ويرد إليها من الصعيد : الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب . ومن نيس : الثياب الملونة ، ومن دمياط : القصب ، ومن الفيوم : الأرز والكتان ، ومن القنطرة : السمك . كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزنبق^(٢) .

وقد عدد المقدسي^(٣) السلع الواردة على أسواق القسطنطينية فقال : زجاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم ولحمهم ووزم وموزم وشمهم وقندم وذهم وعينهم وريشهم وغزلهم وهر يستهم وحصهم وترمسهم وقرطهم وقفاسهم وحصرهم ومُحَرَّم وبرم وحالومهم وحيتانهم ... كل ذلك في غاية الجودة .

وقد وصف ناصر خسرو مدينة القسطنطينية بعد المقدسي بنحو نصف قرن ، فقال حين زارها بين سنتي ٤٣٩ ، ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التي ترد إليها من جميع أنحاء العالم ، وأن بها من الخانات ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ دكان يراوح إجماع الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير . وبها من السفن أكثر مما كان يبتدأ والبصرة . كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طيقاتها أربعة عشر طابقاً^(٤) .

وقد ظلت القسطنطينية عاصمة بالتجارة حتى تخربت في عهد وزارة شلور حين أمر بإشغال النافق فيها ليحول دون استيلاء الصليبيين عليها . ومع هذه الصورة الرائعة التي رسمها المقدسي لظفة القسطنطينية من الناحية التجارية ، يبدو أن ازدهار هذه المدينة بالسكان — شأنها في ذلك شأن المواسم الكبرى — وكثرة الأموال المتدفقة على أهلها قد أشاع نوعاً من الجشع ، فاندفعوا وراء اللذات كما قال المقدسي^(٥) .

ومن مراكز التجارة في العصر الفاطمي مدينة أسوان ، وكانت قصبة إقليم الصعيد ، ومعناها السوق لأنها كانت سوقاً لتجارة التوبة والسودان . وقد اشتهرت بتجارة الكروم

(١) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

(٤) Safar Nameh, p. 127, 145, 149, 153 .

(٥) أحسن التقاليم ص ٢٠٠ .

والقر الذي ينتشر على ضفتي النيل . وقد قيل إن إسنا أنتجت في سنة واحدة أربعين ألف أردب من القمح وأثنى عشر أردب من الزبيب . وأسوان أكثر نخيلاً من جميع أقاليم مصر ، وقد أنتجت أرضها في سنة واحدة ٣٦٠٠٠ أردب من القمح . وظاكفة هذا الإقليم شديدة الخلوة حسنة النظر ورياحيته عطرة . وبأسواق حجارة صوان صنع منها عمود السوارى بمدينة الإسكندرية . وبها حجارة سود تشبه القار يحسبها الإنسان جبلاً من القار . وهي كثيرة السمك والجنادل ، محتلة الهواء ، كثيرة للزهرات المتدة على جانبي النيل . وبها جبل الطفل الذي يصل منه القفار وكيزان القفاح الذي لا يوازيه نوع آخر ^(١) .

وكانت تنيس في العصر الفاطمي من أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر الأبيض المتوسط ، وإليها ترد متاجر الشرق والغرب . واشتهرت بشجارة السمك وصناعة الثياب والأردية الملونة التي كانت تحمل إلى كافة جهات القطر ^(٢) .

وتل مدينة القسطنطينية في الأهمية ، مدينة دمياط ثالثة الثغور التي تقع على ساحل مصر للشرق وهي : تنيس ، والفرما ، ودمياط . ولكن دمياط أخذت تحتل مكان الصدارة بعد الفتح العربي ، وأخذت تبرز في ميدان التجارة والصناعة وطلعت على الثغور الأخرى حتى ازدهرت تجارتها وغدت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر الأبيض ^(٣) . ومازاد من أهمية دمياط في العصر الفاطمي أنها أصبحت مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، وساعد على رواج هذه الصناعة وفرة السكان بمنطقة دمياط وشرقي الدلتا . وأصبحت المدن المحيطة بها مثل شطا وتنيس وديق ونونة وبورة ودميرة تختص بإنتاج نوع من المنسوجات ينسب إليها . واكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية تحتل مكانة مرموقة في تجارة النسيج العالمية ^(٤) .

ومازاد من شهرة دمياط دار الصناعة التي أنشأها الفاطميون ، وكانت تجهز فيها الأساطيل وسراكب الشوانى والشلنديات والمسطحات ^(٥) .

(١) الإدريسي : المطالع السعيد في أعيان الصعيد ص ١٤ - ١٥ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠١ .

(٣) القتيبي : بحال تاريخ دمياط (الإسكندرية ١٩٤٩) ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٥ .

وقد لعبت قاعدة دمياط البحرية دورا بارزا في قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين . وقد زارها الرحالة المقدسي ووصفها في هذه العبارة : « أطيب وأرحب ، وأكثر فواكه ، وأحسن بناء وأوسع ماء ، وأحلى صنبا ، وأرفع برّا وأنظف عملا وأجود حمامات وأوثق جذارات وأقل أذايات » . وكان بها رباط يقصده المراكبون في كل سنة^(١) .

ومن مراكز للتجارة الفاطمية مدينة عيذاب . وقد بدأت صغيرة أول الأمر ، وكان أهلها يعيشون على صيد السمك والقؤلزورعى الأغنام . ثم أخذت تنمو تدريجيا وصارت تنافس ميناء القصير التي لعبت دورا هاما في تجارة البحر الأحمر قبل القرن الخامس الهجري . وازدهرت عيذاب في القرنين الخامس والسادس ، وأصبح التجار والحجاج يفضلونها على القصير ، ولا سيما بعد أن تقدمت ونمت في العصر الفاطمي . وكثر استخدامها في أيام الشدة الظلم في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي في القرن الحادي عشر . ويرجع ازدهار عيذاب في هذا العصر إلى تحول طريق التجارة الفاطمية صوب الجنوب ، نتيجة لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة سلاطين بغداد ، ولإستيلاء الصليبيين على إيله في سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) .

ولما كانت عيذاب في منطقة قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ، أصبح من الضروري أن يعتمد أهلها على كل ما يجلب إليها . وقد ألدوا من الحجاج ومن التجارة فوائد لا تحصى ؛ إذ كانوا يفرضون ضريبة معلومة على كل حمل يحملونه للحجاج ، الذين كانوا يستأجرون منهم المراكب التي تحملهم في البحر إلى جدة ثم إلى عيذاب بعد أداء فريضة الحج . ولم يكن بين أهل عيذاب إلا من يمتلك مركبا أو أكثر كل على حسب يساره ، حتى إنهم جموا من ذلك ثروة طائلة .

وأهل عيذاب من اللبابة . وقد اختلطت بهم بعض القبائل العربية ، وهم قوم مسالمون ليس من طباعهم السرقة أو التصدي على أحد ، عملهم التجارة ونقل الحجاج والسبل على راحتهم ، وصيد القؤلز من المناس القريبة منها في جزائر البحر الأحمر ، ويقع موسم صيده في شهرى يوتية ويولية من كل سنة .

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .

وكان الحجاج يمدون في ركوب المراكب أهوالا عظيمة ، ويقاسون متاهب جمة ؛ لأن الرياح كانت تلقبهم في الغالب في حراسى بييدة في صحارى مقفرة ، فيُنزل إليهم التجار من جبالهم ويؤجرون لهم الإبل ، ويسلكون بهم طريقا تبعد عن الماء ، فيهلك معظمهم عطشا . ومنهم من يضل الطريق فيهلك في تلك الصحراء ، ومنهم من يفرق في البحر إذا صادف المركب ريح صرصر عاتية^(١) .

٣ - المكوس^(٢) :

وكان القاططيون يفرضون للمكوس على التجارة الواردة إلى هذه المدن أو الصادرة منها . وقد غالت الدولة في فرض المكوس على مدينتى تيبس ودمياط وعلى تجارة النسوجات وراقبتها مراقبة فعالة ، وفرضت عليها الرسوم الباهظة ، واحتكرت بيعها . فحرمت على التجارين أن ينسجوا شيئا إلا بعد أن يحتم عليه بحتم السلطان . كاحرم عليهم أن يبيعوا شيئا إلا على أيدي سماسرة من قِبل الدولة . ويثبت كاتب الديوان ما يبيع في جريدته (أى سجلاته) ، ثم تحمل للنسوجات إلى من يتولى طيها وشدها وحرزها .

وكانت تحصل رسوم معينة مقابل القيام بهذا العمل . فإذا حملت السلعة إلى باب الفرضة دفع صاحبها رسما معيناً ، وتوضع علامة مميزة لسلعة كل تاجر . فإذا تهيأت المراكب للإقلاع ، جرى تفتيشها . كما كانت الدولة تتقاضى رسوما على الزيت ، فتأخذ عن رزق الزيت دينارا . وقد رأى المقدسى^(٣) بساحل تيبس « ضرائباً جالسا قبالة هذا الموضع يحصل في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة مدن على ساحل البحر بالصعيد ، وساحل الإسكندرية ، وعلى مراكب الغرب ، وفي القرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقازم من كل حمل درهم » .

وقد ذكر المقرئى^(٤) أن للمكوس التي جبيت بمدينة مصر والقاهرة بلغت

(١) ابن جبير : رحلة ص ٣٥ - ٤٢ .

(٢) انظر ص ٥٥٠ - ٥٥١ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٢ .

(٤) عطلج ١ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

١٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وأن الدولة كانت تفرض للكوس على كل سلعة ترد إلى السوق : من البهار ، والنحاس ، والنصدير ، والرجان ، والقند ، والخشب ، والملح ، واللبورى ، والقطن ، والقشم ، والأبقار ، والكتان ، والفنلات ، والفتاح ، والرطب ، والنسيج ، والجلين ، والحفلاء ، والقشم ، والجبس ، والزيت ، والخل الحامض ، والسك ، والصل ، والسلمج ، والرقيق ، والحناء ، والأدم . وقد أسقط صلاح الدين من هذه المكوس ما يقرب من مليون دينار في السنة ، ثم أعادها ابنه الملك العزيز عثمان إلى ما كانت عليه .

٤ — قلم المعامير : الموازين — المظيل — المقاييس — النفوس

وحدة الوزن في مصر هي الرطل المصرى ، وهو الرطل المستعمل في القاهرة والقسطنطينية ، ويساوى ١٤٤ درهما ، و ١٢ أوقية ، أما القنطار المصرى فإنه يساوى ١٠٠ رطل ، وأحسن أنواع الأبطال في مصر ما يسمى بالن ، ويساوى ١٦٦ درهما ، وأوقيته عشرة دراهم ، وبه ٢٦ أوقية .

وحدة السكيل القَدَح ، يختلف من مكان إلى مكان ، كما يختلف الأردب تبعاً لفلان . والقَدَح الشائع هو القَدَح المصرى ويزن ٢٣٢ درهما من البُر . والوبية = ١٦ قَدَحاً . أما الأردب فإنه يساوى ٩٦ قَدَحاً . وقد يبلغ الأردب في بعض البلاد المصرية ١١ وبة أو ١٧٦ قَدَحاً .

وحدة القياس القصبية ، وتسمى القصبية الحاكية لأنها استحدثت في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويبلغ طولها ستة أذرع ، والذراع يساوى ستة قبضات ، والقبضة أربعة أصابع . والقصبية تقدر بباعين من رجل معتدل . وقد وجدت في الوجه البحرى قصبية تسمى « السندقاوية » نسبة إلى مدينة سندقا القريبة من المحلة الكبرى بمديرية الغربية الآن ، وهى أطول من القصبية الحاكية بقليل ^(١) .

والدينار نوعان : نوع يضرب في مصر ونوع يجلب من الخارج . أما الدراهم المصرية

(١) القلشنى : صحيح الأمتى ج ٢ ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

توزن بالمثاقيل . وكل سبعة مثاقيل وزن عشرة دراهم . والمثقال = ٢٤ قيراطا ، والقيراط ٧ حبات شعير . ويؤتى بالدينار المحلوبة من بلاد الروم والقرنجة . والدينار القرنجي ١٩ ١/٢ قيراط مصري ، وعلى أحد وجهي هذا الدينار صورة ملك الدولة الأجنبية . وعلى الوجه الآخر صورة القديسين بطرس و بولس . وتسمى هذه العملة أيضاً بالدرقات ducats . ويطلق هذا الاسم على نقود البندقية ، لأن أميرهم يسمى « دوقا » . و عيار الذهب لم يكن ثابتاً ، فيرتفع تارة ويهبط أخرى . والدينار المصري يساوي أحياناً ٢٠ درهماً ، والدينار القرنجي ١٧ درهماً ، ويبلغ الدينار المصري ٢٨ ١/٢ درهماً أحياناً أخرى . ويضرب الدرهم بدار للضرب ، ويساوي ٢٤ قيراطاً أو ١٦ حبة خروب . وكل سبعة مثاقيل تساوي عشرة دراهم ، والدرهم نوعان : الدرهم الأنقرة ، والدرهم للسوداء . والدرهم الأسود يساوي ١/٢ درهم أنقرة ، أي أن الدرهم الأنقرة يساوي ثلاثة دراهم سوداء : أما الفلوس فإنها تختلف عن الدرهم في أنها غير مطبوعة على المسكة : والدرهم الأنقرة يساوي ٤٨ فلساً^(١) .

ولورن الدينار أهمية كبرى . فإنه كلما زاد وزنه ، دل ذلك على غنى الدولة ورفاهيتها وعنايتها بالعملة حتى تكسب ثقة الناس . ويتسع نطاق تداولها . أما إذا نقص وزن الدينار فإن ذلك يدل على اضطراب الحالة الاقتصادية في البلاد . وإذا ذلك يمدد الخليفة إلى إنقاص وزن العملة حتى يقلل من نفقات الدولة ، فتتخفف رواتب الموظفين ويزيد مقدار الضرائب وإليك تبكاً بأوزان الدنانير في العصر الفاطمي ؛ مع ملاحظة أن الأوزان التي أوردتها قد لا تمثل الوزن الأصلي للدينار الذي نقص على مر الزمن ، ونتيجة لكثرة تداوله وقدم السد به . كما يلاحظ أيضاً أن دنانير الولايات التابعة للدولة الفاطمية كانت أقل وزناً من دنانير الحاضرة . ويخيل إلينا أن سر ذلك إلى أن الخلفاء كانوا يمددون إلى مضاعفة الجباية في هذه الولايات .

(١) القلشنقى : صبح الأمشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

اسم الخليفة	سنة	وزن الدينار بالجرام	اسم الخليفة	سنة	وزن الدينار بالجرام
ميدان الله المهدى	٣٠٣	٤	(تابع) العزيز	٣٧٢	٤-٤
	٣٠٦	٤٢٠		٣٧٣	٤١٢
	٣١٥	٤١٥		٣٧٥	٤١٥
	٣٢٢	٤٢٠		٣٧٩	٤١٠
القائم	٣٢٣	٤١٠		٣٨٠	٤١٠
	٣٢٥	١٠٢		٣٨١	٤١٢
	٣٢٥	١٠٣		٣٨٦	٤٢٠
	٣٢٧	١٤٥	الحاكم	٣٨٧	٤٢٠
	٣٢٨	١٠٥		٣٨٨	٤٢٠
النصور	٣٣٥	٤١٠		٣٨٩	٤٢٠
	٣٣٧	٤١١		٣٩٠	٤٢٠
	٣٣٨	١٠٣ ^(١)		٣٩١	٤٢٠
	٣٤١	٤١٥		٣٩٣	٤١٥
المزدين الله	٣٤٣	١٠٤		٣٩٤	٤١٢
	٣٤٤	١٠٤		٣٩٥	٤-٤
	٣٥١	٤١٠		٣٩٦	٤١٢
	٣٥٣	٤١٠		٤٠٠	٤١٥
	٣٥٩	٤٢٠		٤٠١	٤٢٠
	٣٦٠	٤٣٠		٤٠٤	٣٨٢
	٣٦١	٤١٥		٤١١	٤٢٥
	٣٦٢	٤١٨	القائم	٤١٤	٣٧٢
	٣٦٣	٣٩٥		٤١٥	٤-٤
	٣٦٥	٤٣٠		٤١٦	٣٩٥
العزيز	٣٦٥	٤٢٠		٤٢٠	٤-٤
	٣٦٦	٣٧٥	المستمر بالله	٤٢٨	٤١٢
	٣٦٧	٤١٨		٤٢٩	٣٩٠
	٣٦٨	٤١٨		٤٣٠	٣٩٠

وزن الدينار بالجرام	السنة	اسم الخليفة	وزن الدينار بالجرام	السنة	اسم الخليفة
١٠٣	٤٩٥	الأمير	٤١٤	٤٣٧	(تابع المستنصر)
٤٠٨	٤٩٥		٤٣٥	٤٣٥	
٤٢٥	٤٩٨		٤	٤٣٦	
٤٢٥	٥٠٢		٤	٤٣٧	
٤٣٥	٥٠٣		٤١٥	٤٣٨	
٤٢٥	٥٠٤		٤٠٨	٤٤٠	
٤١٥	٥٠٥		٤١٥	٤٤٢	
٤٢٢	٥٠٧		٤	٤٤٣	
٤	٥١٠		٣٨٨	٤٤٥	
٤١٥	٥١٣		٤٣٥	٤٤٦	
٤٣٤	٥١٤		٤٢٨	٤٤٧	
٤١٥	٥١٥		٤١٥	٤٤٨	
٣٨٥	٥١٦		٤٣٩	٤٥١	
٤	٥١٨		٤٢٥	٤٥٢	
٣٥٥	٥١٩	الحافظ	٣٢٢	٤٥٤	المستمل
٣٦٨	٥٣٨		٣٩٤	٤٥٦	
٤٢٥	٥٤١		٤٠٣	٤٦١	
٤	٥٤٢		٤٠٥	٤٦٢	
٤٤٥	٥٤٤	الظاهر	٤٠٥	٤٦٩	
٤١١	٥٤٥		٤١١	٤٧٣	
٤٠٢	٥٥٢		٤٧٥	٤٧٤	
٤٨٣	٥٥٣		٣٩٤	٤٧٥	
٣٥٥	٥٥٥	المعتمد	٤٣٨	٤٧٨	
٤	٥٥٨		٤٢٥	٤٨١	
٤٦٣	٥٦٤		٤٢٢	٤٨٢	
			٤٠٣	٤٨٤	
			٤	٤٨٨	

(ب) التجارة الخارجية

١ - طرق التجارة العالمية ومراكزها

احتلت تجارة المسلمين في العصر الفاطمي المكانة الأولى في التجارة العالمية . وكانت الإسكندرية وبنداد مقياساً لأسعار البضائع العالمية في ذلك الحين ؛ ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب .

أولاً : من المغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالباً اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق . وكان لهم بمدينة أصبهان حى يسمى اليهودية ، كما كان معظم تجار مدينة تشرنجوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضاً على تجارة القوئل الذى يستخرج من خليج فارس^(١) . وكان هؤلاء التجار من اليهود يقدون من مقاطعة بروقاس ، ويسمى المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذية ، نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلية ، ويحلبون من الغرب الجوارى والفلان والديباغ وجلود الخنزير^(٢) والقراء والسمور والسيوف ، ويبدعون رحلتهم التجارية من بروقانس (Provence) التى يسميها العرب « فرنجة » . وترسو سفنهم عند القرما ، وكانت تمتد من أم اللوانى للتجارية في ذلك الحين ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحبل إما إلى القازم^(٣) ، أو إلى الإسكندرية التى كانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى القسطنطينية أو إلى القاهرة عن طريق النيل

ويقول هيد^(٤) إن شهرة بنداد طفت على الإسكندرية حيناً من الدهر ، إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد ، منذ أيام الطولونيين . وكانت هذه السلع تنقل من القسطنطينية إلى الدواب إلى القازم ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئ الهامة مثل جدة حتى تصل

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٥٦ . آدم سكر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٢

(٢) الحز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها . وانظر الذكر من الأرناب .

(٣) ابن خردادبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce, tome. I. p. 41. (٤)

السفن إلى الهند والصين ويحمل التجار في عودتهم سلع الشرق كالسك والعود والكافور والحرير صيني ، فإذا وصلوا إلى القلزم أجهوا إلى القرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروفانس وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية^(١) .

ثانياً : من أوروبا إلى الشرق عن طريق أنطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروفانس محرماً إلى أنطاكية . ومنها ينقلون السلع على الخوات إلى القنات إلى أن يبلتوا بئداد عن طريق هذا النهر وجداوله ؛ ثم يركبون في دجلة إلى الأبله^(٢) ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثاً : من بلاد الروس الشمالية إلى الشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى صوفيلغ وبخارى وسمرقند بيلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين .

رابعاً : الطريق البري من غربى أوروبا إلى الشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازاً للغرب الأقصى والأدنى والأوسط عن طريق إفريقية (وهي تونس الحالية) حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالسكوفة وبئداد والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز ثم إلى كرمان والهند والصين^(٣) .

٢ - أشهر مراكز التجارة العالمية :

وكان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر والغرب ثم على الأندلس وحقلية أنزكير في رواج التجارة . ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب . وقد أصبح بمصر المدن الساحلية على هذا البحر ذات أهمية خاصة للتجارة . وقد أصبحت أهمية أنطاكية التي حصنها الخليفة المتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية^(٤) ، كما أصبحت أداة اتصال بين الشرق والغرب . وضدت القرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر ، وكذلك

(١) ابن خردادبة : للممالك والممالك من ١٥٤ .

(٢) بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الفارسي - انظر معجم البلدان لياقوت .

(٣) ابن خردادبة : للممالك والممالك من ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce, tome I. pp. 43-4. (٢)

التجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا . وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترمو أول الأمر في ميناء بركة التي كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية في القرن الرابع الهجري . ومن طرابلس ترى سلسلة من اللواتي التجارية الهامة تمتد حتى صرا كش . وكانت الهدية أكثر هذه اللواتي عمراناً وازدهاراً لقربها من مدينة القيروان ، حتى كانت السفن تغد إليها تباعاً من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا ^(١) .

وكانت أيلة والقنزم وجدة من أهم اللواتي التجارية على البحر الأحمر . ولا غرو فقد كانت أيلة والقنزم المنفذ الرئيس في شمال البحر الأحمر ، وعن طريقهما كانت تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس . وترجع أهمية جدة إلى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يقدون إليها عن طريق أيلة والقنزم ، أو عن طريق عيذاب . وكذلك اشتهرت عدن بالتجارة ، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوباً ، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب كانت ترمو عليها . وكذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة ^(٢) .

وأصبحت بغداد مركز التجارة في العالم الإسلامي ، حتى كانت هي والإسكندرية — كما رأينا — يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع في ذلك الحين . وترجع شهرة دمشق باعتبارها من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيس ، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم إليها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها ^(٣) . وكان كثير من حجاج المسلمين يجعون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة ، فيتقابلون مع المسيحيين ، وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقاً نافذة للتجارة بين الشرق والغرب .

واعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة . وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق ، وتتم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه

(١) Ibid, p. 49.

(٢) كتاب التبريد بالتجارة الجاسط : نشره السيد حسن حسني عبد الوهاب ، مقدمة من ٣

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I, p. 42. (٣)

الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا في المساء . أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع . وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين . وخصصت فنادق للتجار الغرباء ، كانت أشبه بالأسواق الكبيرة . وكانوا يضيئون بضائهم في أسفلها ويتأمنون في أعلاها ، وينلقون غرضهم بأنفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القيامر^(١) . وهناك خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة^(٢) . وأما في بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد .

٣ - المصوغات التجارية مع العالم الخارجي :

وكانت مصر في العصر الفاطمي ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوروبا وبلدان الشرق ، فكانت مدينة «أمانى» Amalfi ترتبط بعلاقات تجارية مباشرة مع مصر والشام وغيرهما من البلاد الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى لقد كان لتجارها في مدينة أنطاكية حي خاص بهم . وكان تجار أمانى يهتمون بوجه خاص بملب المنسوجات الحريرية التي تروج في سوق رومة ، وذلك بسبب قرب أمانى من حاضرة العالم المسيحي . وكانت المنسوجات المصرية الفاخرة من أكثر السلع في أسواق أوروبا وواجباً ، كما كان أهل أمانى يذهبون إلى مصر لطلب مهرة الصناعات لتزيين القصور بالفسيفساء . كما اضطر أهل أمانى إلى أن يسالموا الدولة الفاطمية حتى تأذن لهم بالحج إلى بيت المقدس . وكان لهم فنادق كثيرة بمدينة الإسكندرية^(٣) .

وكان لاتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا أن أقدم أهل جنوة على التعامل مع الدولة الفاطمية ، وأخذت مهاكب جنوة تخترق مضيق مسينا وتشق طريقها إلى موانئ مصر والشام . كما كانت سفنهم تحمل المحاج إلى ثر يافا ، حيث يذهبون إلى بيت المقدس . وكان تجار جنوة يذهبون إلى أسواق مصر حيث يجلبون الفلفل وجوز

(١) من الكلمة اليونانية pandokeion

(٢) متر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) Heyd Histoire du Commerce, tome I, pp. 104 - 6

الطيب والقرنفل والشب والنطرون ، وهي السلة التي كان الفاطميون يحشرون تجارتها . وكان لأهل جنوة كأهل أمانى جالية بالإسكندرية^(١) . وكذلك كانت مدينة ييزا تحرص أشد الحرص على الفوز بورد الخلفاء الفاطميين ، فأرسلت في سنة ١١٥٤ م إلى بلاط الخليفة الظافر سفيرا لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض المسافرين من أهل ييزا على زملائهم المسلمين . وقد عومل هذا السفير في مصر معاملة قوامها الحفاوة والتكريم ، لأن الدولة الفاطمية كانت تحرص أشد الحرص على ألا تخسر أسواق إيطاليا التي كانت تروج فيها السلع المصرية^(٢) .

وعلى الرغم من أن الدولة البيزنطية كانت توغز إلى جمهورية البندقية بالاحتلال سقنبا الأخشاب إلى أسواق مصر حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للمصريين بالمرصاد ، نجحت حكومة البندقية — في سبيل مصلحتها الخاصة — في إقامة علاقات تجارية واسعة النطاق مع الفاطميين في مصر والشام ، وأجازت لتجارها أن ينقلوا إلى دور الصناعة للمصرية خشب البنج والسنديان على ألا يتجاوز طول القوح الواحد خمسة أقدام ، كما أجازت لهم بيع الأدوات المصنوعة من الخشب . وأرسلت الجمهورية إلى مصر بعثات استطاعت أن تحصل على امتيازات مغرية ، فأدات بدلوها في تجارة الهند الراحمة ، كما استطاعت سقنبا التي وصلت إلى مصر أن تنقل منتوجات آسيا إلى أسواق أوروبا^(٣) .

ومع أن العلاقات التي قامت بين مصر والدولة البيزنطية كانت سيئة بسبب النزاع الناشب بين هاتين الدولتين من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط لم تنوقف العلاقات التجارية بين البلدين ، فقد كانت الدولة البيزنطية من ناحية في حاجة إلى الصناعات المصرية الممتازة التي تنتجها مصانع تنيس ودمياط والتي كان الأباطرة يقبلون عليها لتزيين قصورهم^(٤) . كما أن للنبوجات المصرية الفاخرة كانت تتم بسمعة حسنة في أسواق

Heyd, Histoire du Commerce, tome I. p. 124. (١)

Ibid., tome I p. 392. (٢)

Ibid., tome I. p. 114. (٣)

Heyd, tome I. p. 58. (٤)

القسطنطينية ، حتى إن ناصر خسرو سمع أن أحد الأباطرة عرض على الخليفة الفاطمي مائة مدينة مقابل استعواذه على مدينة تنيس وحدها^(١) . وكانت مصر من ناحية أخرى تحتاج إلى القراء المجلوب من بلاد الروس ، كما كانت تتقرب من البيزنطيين إسماعنا في السكيد من العباسيين . وكانت في سنى الشدة تحتاج إلى الفلال من أسواق القسطنطينية كما حدث في سنة ٤٤٦ هـ ، حين أرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب اللد ، فأرسل إليه ٤٠٠.٠٠٠ أردب^(٢) . وكان بالقسطاط حتى يقيم فيه تجار الروم^(٣) .

وكانت العلاقات التجارية بين مصر و صقلية وثيقة في العصر الفاطمي ، لأن هذه الجزيرة ظلت تابعة للفاطمين وقتا طويلا . كما أن موقعها للتوسط بين الشرق والغرب جعل أكثر السفن القادمة من مصر إلى إيطاليا وجنوب فرنسا تمر بمدن صقلية لتبيع ما تحمله من منتجات مصر أو تشتري بدلها من قع صقلية وفاكهتها ومعادنها . كما أن صقلية كانت تنتج زعما من الأقمشة الحريرية الفاخرة تفوق ما كانت تنتجه مصر ، حتى لقد ذكر ناصر خسرو أن القطعة الواحدة من حرير صقلية كانت تباع في أسواق مصر بشرة دنانير مصرية^(٤) . ولم تنقطع هذه العلاقات بعد استيلاء النورماندين على هذه الجزيرة في سنة ٤٨٣ هـ ، فكان تجار صقلية يعاملون معاملة ممتازة ، كما عقد الخليفة الفاطمي معاهدة تجارية مع رودجر صاحب صقلية^(٥) . وكما اتصلت مصر بصقلية كذلك اتصلت بقبرس برغم استيلاء البيزنطيين عليها ، إذ ظلت السفن المصرية ترد موانئ قبرس لتحمل الشمع والصل والفاكهة ، وتبيع منتجات تنيس ودمياط^(٦) .

ولم تنقطع علاقة الفاطميين ببلاد المغرب بعد انتقال قاعدة دولتهم إلى مصر . فقد ظلت العلاقات التجارية بينهما وثيقة ، إذ كان على سقن المناربة أن تطلع إلى موانئ مصر تحمل الحاجب المناربة أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والمهند كما كانت في حاجة إلى غلات

(١) Nasri Khureau, Safar, Nameh, p. 111.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦ - ٧ .

(٣) المبريزي : خطط ج ١ ص ١٩٦ .

(٤) Safar Nameh, p. 122.

(٥) Heyd, Hist. du Commerce, tome I. p. 392.

(٦) البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٢٩ .

بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة . فكانت السفن المصرية تند إلى الهدية وتحمل متاجر المغرب إلى الإسكندرية^(١) . وقد شاهد ناصر خسرو في أسواق القسطنطينية من البلور الصخرى واردة من بلاد المغرب^(٢) . أما برقة فكانت تصدر إلى مصر القبايح كما تفعل اليوم ، والصوف والمل والفطران . وكانت منتوجات بلاد السودان وبلاد غانة وحوض السنغال والنيجر ، تحملها القوافل من سجلماسة إلى واحات مصر ، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات^(٣) .

وكما كانت سفن الفاطميين ترد موانئ المغرب كذلك أبحرت إلى موانئ الأندلس . فقد كانت الأسواق الأندلسية تقوم بدور الوسيط بين مصر من ناحية وبين البلاد المسيحية كالبرتغال وفرنسا وغيرها . كما كان تجار مصر يلجئون إلى أسواق الأندلس إذا أعوزتهم الحاجة للقمح والتبغ ، ثم يودون بالجواهر والياقوت^(٤) .

ولم تنقطع صلة مصر بالعراق وإيران رغم ذلك العداء الذي كان سائداً بين الفاطميين والعباسيين . فقد ظل تجار العراق يقدون إلى مصر ، حتى لقد أنشئت لتجارة العراق وكالة خاصة للبيت بالآسرة^(٥) . وكان تجار مصر يقدون على أسواق آسيا الوسطى حاملين منتوجات الحديد ودمياط وتبغ ، حيث كانت زوج في أسواق العراق وإيران . وكان بعض التجار المصريين يقيمون في بخارى . وقد لقي المقدسي بعضهم هناك^(٦) . وكانت السفن المصرية ترحل إلى عدن لتنقل غلات الهند وشرق آسيا ، كما كانت تحمل من بلاد اليمن البخور والمطور .

وكانت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة ودية إلى حد كبير ، فكان ملوك النوبة يرسلون الهدايا إلى الخلفاء الفاطميين ويعقدون معهم الماهدات^(٧) . وكان تجار مصر يحملون

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠٤ و ٤٧ و ٤٩ و ٨٢ .

Nasir-i Khusrau, p. 149 (٢)

البكري : المغرب ص ٥ . (٣)

Heyd, tome I, p. 49. (٤)

المقريزي خطط ج ١ ص ٤٥١ (٥)

المقدس : أحسن التقاسيم ص ٢١٢ . (٦)

Safar Nameh, p. 175. (٧)

إلى بلاد النوبة أدوات الزينة، ومجلبون الرقيق^(١). وتصل مراكب الأبحاش إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار، وتستورد مصر الرقيق من الحبشة.

٤ - السلع المتبادلة:

وكانت مصر في العصر الفاطمي تستورد كثيراً من السلع من البلاد الشرقية والغربية. ومن هذه السلع: الجواهر، وأدوات الزينة والطرف التي كثر الإقبال على اقتنائها. فقد حوت خزائن الخلفاء كثيراً من الجواهر النادرة والسيوف اللطيفة والسروج للذهبة والكسي المحلاة بالجواهر، وكانت مصر تستورد القزلو من مصادره بالغليخ الفارسي وسواحل عمان^(٢)، ومن مياه جنوب الهند وجزيرة سيلان، كما كانت تجلب الياقوت من جبل سرينديب بالهند، وللرجان من صقلية وسواحل بلاد المغرب، والحقيق من بلاد اليمن^(٣)، والماس، من جزيرة سيلان، ومن ساحل إفريقية الجنوبية للشرق. وقد قيل إن ثروة جواهر الصقل اشتملت على ٧٠٠ خاتم من الياقوت والزمرّد والماس^(٤). كما كانوا يجلبون سن القنيل من بلاد السودان^(٥).

ومن أهم واردات مصر في ذلك العصر: التوابل والطور والافاويه؛ وكانت تستورد من أسواق الشرق الأقصى وتستهلك بعضها في الأسواق المحلية، ويصدر الباقي لبيع في أسواق أوروبا، ونجنى الدولة من وراء ذلك أرباحاً طائلة. وكان القنفل والقرفة ترد بكثيرة هائلة إلى ثمر عيذاب، وبلغ من كثرتها أنها كانت تترك في أسواق المدينة بدون حراسة^(٦). وتجلب التوابل من سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو. وقد جلب الفاطميون كميات هائلة من التوابل امتلأت بها خزائن التوابل، حتى بلغت قيمة هذه السلع حينئذ ألف دينار في السنة. وكانت التوابل والطور توزع على الحمامات في كل

(١) Ibid., p. 116

(٢) الجاحظ: التنصير بالتجارة ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه ص ١٥.

(٤) ابن أبي عمير: تاريخ مصر ج ١ ص ٩١.

(٥) Safar Nameh, p. 46.

(٦) رحلة ابن جبير ص ٣٨.

يوم جمعة ، وكذلك كان الطيب يوزع على قصور الأسماء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . وكان قصر الخليفة يستهلك في كل شهر ثلاثين مثقالا من الند ، و ١٥٠ درهما من السود الصيني ، و ١٥ درهما من الكافور ، وعشرة مثاقيل من اللبنة الخام ، و ٢٠ درهما من الزعفران ، و ٣٠ رطلا من ماء الورد . وكان مجلس الملك يستهلك في كل شهر مقادير كبيرة من البخور ، « وما هو برسم المائدة الشريفة ما تستهلكه المعلقة من الملك خمسة عشر مثقالا ، ومن ماء الورد خمسة عشر رطلا ، ومن الند سبعة مثاقيل »^(١) . كما كانت مصر تستورد السكر والند والمسك والسود من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو ، وتستورد الكافور من ساحل زنجبار^(٢) . ويحلب اللبان من جزر الهند الشرقية وبخاصة من جزيرة جاوة^(٣) . وكانت مصر من أهم أسواق الرقيق العالمية . فقد كان الرقيق ، وبخاصة السودان ، يستعملون في الجيش . وبلغ عدد السودان الذين استخدمتهم أم السلطنة — وكانت سودانية — في الجيش خمسين ألفا ، كما استخدم الفاطميون الديلم والأتراك . وأكثروا من المالك البيض والخصيان والجواري ، حتى قيل إنه كان لست الملك أخت الخليفة العزيز ثمانية جارية^(٤) . كما كان بقصر ست الملك أخت الحاكم أربعة آلاف جارية بين بيض وسود ومولات^(٥) . وكان السيد يستوردون أيضا من بلاد النوبة والحبشة والسودان . وكانت مصر فوق ذلك كله تستورد الحرير من صقلية ، والحديد من إيطاليا ، وخشب الساج من شبه جزيرة الملايو ، والفنطرة من الجزر والوز والفسق من بلاد الشام والمغرب والهند . وتستورد الفناكة من بلاد الشام ، والزيت من بلاد المغرب ، ومن مدينة صفاقس بوجه خاص^(٦) .

• — نظم التجارة العالمية :

كانت العملة المستعملة في الأسواق : العملة الذهبية وهي الدينار ، والفضية وهي

(١) المقريزي : غلط ج ١ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٦٣ .

(٣) انظر ما كتبه الجاسق في باب معرفة الطيب والسكر والروائح الطبية : كتاب قبيح بالتجارة

ص ١٦ - ٢٥

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٨ .

(٥) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٥٨ .

(٦) البكري : المغرب ص ٢٠ .

الدرهم . وكان الدينار شائعاً في البلاد النورية للدولة الإسلامية ، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها .

ودينار مشتق من دينار يوس (Aureus) Denarius الإغريقي اللاتيني ، وهو اسم وحلة من العملة الإسلامية القديمة . ومنذ أدخل الخليفة عبد الملك ٦٥ - ٨٦ هـ (٦٨٤ - ٧٠٥ م) إصلاحه في السكة سنة ٨٧٧ هـ (٦٩٦ م) ، أصبحت قيمته ثابتة^(١) . ومن ذلك الحين أصبح يضرب الدينار في كافة دور الضرب في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية طوال العهد الأموي . وكان وزن الدينار ٦٥ حبة ، والدرهم ٤٣ حبة ؛ وظل الأمر كذلك حتى المصور الإسلامية للتأخرة . وكان عيار الدنانير العباسية ٠.٩٧٠ ؛ وظلت هذه النسبة سرعية قروناً طويلة ، كما كانت تلاحظ أيضاً في الدنانير التي تصدر عن دور الضرب عند الفاطميين وللوحدين ، وأحياناً عند المرابطين . وكان الدينار يساوي أول الأمر عشرة دراهم ؛ غير أن ذلك كان يختلف بين عصر وعصر^(٢) .

وقد ذكر لينبول^(٣) أن الدينار كان عملة ذهبية تساوي في الوزن نصف الجنيه الإنجليزي المسمى guinea ، وأنه - كما ذكره القرزبي - كان ٣٦ درهماً ؛ وكل هذا فيكون الدرهم ثلاثة بنسات ونصفا .

إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق . ومع ذلك ظلت سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدرهم . وكان الدينار يساوي أربعة عشر درهماً في ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد : فتارة ترى الدينار يساوي ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهماً وتارة أخرى ١٥ درهماً . ومن وسائل التعامل الصك ، وهو أشبه بالشيك الآن ، وللقايضة . وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان^(٤) . وكان التجار يتعاملون بالرطل والأوقية والدرهم . وإليك ثباً بأنواع الأبطال التي

(١) الدر لفظ Dinar في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) Lane-Poole, Coins and Medals, pp. 165 167

(٣) The Story of Cairo, p. 69

(٤) انظر آدم ستر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٣ ص ٣١٦ - ٣٢١ .

كانت مستعملة في أسواق مصر في ذلك العصر :

النوع	مقدار الوزن
١ - الأوقال	
الوقل المصري	١٢ أوقية أو ١٤٤ درهما
الوقل الجرجي	٣١٢ درهما
الوقل القيني	٢٠٠ درهما
الوقل الحريري	١٢٠ درهما
الوقل القليبي	١٥٠ درهما
الوقل القيني	١٥٠ درهما
الوقل القليل	١٥٠ درهما
وقل أسيرطى وطما وطهطا	١٠٠٠ درهم
وقل الهلة	٤٠٠
وقل ديباط	٢٣٠ درهما
وقل سنود	٣٠٠ درهما

٢ - الأوقال

نوع الأوقية	وزنها بالدرهم	وزنها بالبرامات
أوقية وقل مصر	١٢	٣٧٠٠٧٧٦
أوقية وقل قلوب وقليوم	١٢ر٥	٣٨٩٢٢٥
أوقية وقل القيني	١٦ ^٢ / _٣	٥١٤٩٦٦ ^٢ / _٣
أوقية وقل الجرجي	٢٦	٨٠٣٣٤٨
أوقية وقل ديباط	٢٧ ^٢ / _٣	٨٤٩٦٩٥
أوقية وقل قوة	٣٠	٩٢٢٦٩٤٠
أوقية وقل الهلة	٣٣ ^٢ / _٣	١٠٢٩٩٣٣ ^٢ / _٣
أوقية وقل أسيرطى وطما وطهطا	٣٣٦	١٠٣٨١٧٢٨ ^(١)

وكانت الهلة الفاطمية تجبى مبالغ كبيرة من الجراك أو الكوس للفروضة على الصادرات والواردات . فكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير « الأمناء » ، ومهنتهم « تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش ^(٢) » . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تقلت البضائع من الرسوم للقررة عليها . أما القوافل فإنها لم تكبد تصل

(١) راجع هذا المكتب في البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأماناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها^(١). وكانت الدولة تنقاضي من تجار الروم الواردين على الثنوخوس ثمن السلع ، « ومن أجناس الروم من يُستأدى منهم المشر^(٢) » . وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض إلى ٢٠٪^(٣) ، وذلك يرجع إلى اختلاف أنواع السلع ، وقيمتها وجنسيات التجار . فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين . ولم يكن التجار الأوربيون يعاملون معاملة واحدة ؛ فكانت الرسوم الجزئية تخفض على واردات دور الصناعة ، من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد . هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المرجين والحالين وعمليات الوزن^(٤) .

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجري تشيئها بواسطة سماسة تعينهم الحكومة ، وتستولى الدولة على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران^(٥) . كما كانت الدولة القاطمية تسمح للتجار الأوربيين بإقامة الفنادق في الموانئ الهامة ، ولكل جالية أوربية فندقها الخاص ، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها ، ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شأمرهم الدينية ، وفرن يصنعون فيه الخبز ، وحمام ، ودار لصنع النبيذ . ويختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندق للإشراف على الفندق ، وهو مسئول أمام الحكومة^(٦) .

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانئ لحسب ، بل كانت منتشرة أيضاً في داخل البلاد . فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هناك فنادق بمحلة صرد والهجوم

(١) ابن عاتق : قوانين السلواتين ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٦ .

(٣) القلقشندي : صبح الأماني ج ٣ ص ٤٦٣ .

(٤) Heyd, Hist. du Commerce, tome I. pp. 391-2 .

(٥) ابن عاتق : قوانين السلواتين ص ٣٢٧ .

(٦) المفريزي (مخطوط ج ٢ ص ٩٢-٩٤) ومنها فندق بلال المنيحي حيث تباع ستاديق اللعب والقضة

وفندق المذبح ، وفندق ابن قريش ، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التي تبنت في بساتين ضواحي القاهرة من التماح والكثري والسفرجل . وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة ، وفندق « طرطاي

وينزل » تجار الزيت والوافدون من الشام .

والسكريون^(١) . وليس يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف في العصر الفاطمي بسبب رواج التجارة ووفرة رؤوس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر^(٢) .

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم تكون بمثابة مخازن لبيعاتهم ومنازل يقيمون بها عندما يقيمون بمصر . وتصبح هذه الوكالات همزة الوصل بينهم وبين التجار المصريين . وكان التجار المصريون ينشئون وكالات من هذا النوع في بلاد الشام والعراق والحجاز^(٣) . أما القياسر فهي « كاخنان العظيم تُنقل عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض^(٤) » . والقيسارية في الواقع مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن^(٥) . وقد كثرت القياسر في العصر الفاطمي وهرمت بالتجار الوافدين عليها من كل فج^(٦) . كما كثرت الخانات بمصر في ذلك العهد^(٧) . وارتفعت لإيجاراتها ، حتى لقد بلغ لإيجار الخان بمدينة القنطااط ١٢ ألف دينار في السنة .

وكانت الحكومة الفاطمية تفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية ، وتحدد الأسعار ، وتقاوم النش والتدليس ، وتراقب المسكايل والموازين ، وتحمي التجار والفقراء من استغلال الحاجة والصناع ، وتحمس الطرق والمساكن ، وتوفر للتجار جميع أسباب الراحة . كما كانت الدولة تحتكر بعض السلع مثل الخشب والشب والتعرون .

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ ، ٩٠ : ٩١ .

(٢) البر او ي ص ٢٧١ .

(٣) ابن ميسر : أشعار مصر ص ٦٢ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

(٥) انظر مادة قيسارية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) أمدا المخرزي (خط ج ٢ ص ٨٦ - ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر في مصر . ومن هذه القياسر : قيسارية ابن قريش ، وقيسارية لشرب ، وقيسارية ابن أبي أسامة ، وقيسارية بيمرس ، وقيسارية سقر الأشقر ، وقيسارية جهاركس ، وقيسارية العصفور حيث يدق النصف ، وقيسارية العنبر ، وقيسارية الجامع الطولوني ، وقيسارية ابن أميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرخ ، وقيسارية عبد الباسط وبها حارستان ووكالات في مصر الفاطمي .

(٧) من أهمها خان سرور حيث كانت تبيع مهمات الأساطيل والرقيق وخان السيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وخان متكورس ، وخان الخليلي (المخرزي : خط ج ٣ ص ٩٢ - ٩٤) ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكي ، وإن بعضها لا يزال باقياً حتى الآن . . .

الباب الرابع عشر

الحالة الاجتماعية

١ - طبقات المجتمع

(١) الفتيوة والشيعة :

كان للشعب المصري في عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا ، منذ أيام الطولونيين ، يكوون السواد الأعظم من المصريين . وكانوا يختلفون مع الشيعة أنصار الفاطميين ، الذين لم يدخروا وسعا في نشر مذهبهم في المساجد والقصور ، وفي دور العلم وغيرها . وقد فصلت هذه السياسة فضلا في الناس ، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمي رغبة في المهابت والمطالبا والمناصب . واضطر كثير من المولفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب .

أما الطبقة الثانية فهي طبقة المخاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثم في مصر . وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم ، وخاصة للكتامين الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية وقوتها في مصر .

وطالما أثار المخاربة الفتن والفلاقل بما أتوا من أعمال العنف والشدّة ضد الأهليين . فلم يكن بد من أن يقدم هؤلاء من أعدائهم ، لاختلافهم في المذهب ، ولاختصاصهم ما كان لهم من حقوق سياسية . ويتضح ذلك من هذه الحوادث التي نأتى بها على سبيل المثال : هي شهر ذى الحجة من سنة ٣٦١ ، نهبت المخاربة بعض أحياء مدينة مصر ؛ فتار الأهليون ، ونشب القتال بين الفريقين . فأنفذ إليهم جوهر سعادة بن حيان في الحال ؛ فحسم للنزاع وعوض جوهر الناس ما نهب منهم ^(١) .

ويظهر أن سلوك الناربة استثار الأهلين ودفهم إلى إعلان ما كان يجيش في قلوبهم من الاستياء والخط في مناسبات مختلفة . ففي شهر ربيع الأول من سنة ٣٦٢ أنب المختب جماعة من الصيارفة ، سبب لم يكشف لنا التاريخ القاتم عنه . وكان من أثر ذلك أن شغب غريم من الصيارفة احتجاجا على ما أتاه هذا المختب وصاحوا بهذه الكلمات : « معاوية ابن عم علي بن أبي طالب » ؛ كما أن شعور الكره لدى أئمة السنيون نحو الشيعة يكشف لنا عما كان يضمره السنيون في مصر للقاطنين .

ولم تنقطع القلاقل والاضطرابات بعد وصول المز . من ذلك ما حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢) . ولم يذلل القرزى ^(١) بشيء جلي عن كانوا سبب إثارة هذه القلاقل . وكل ما قلناه أن جوهر أقتل جماعة ، لأنهم نهبوا بعض جهات القراقة . إلا أن هذا لا يمتنا أن تقول إن الناربة كانوا السبب في إثارة هذا الشغب الذي آل إلى التطاحن ، وأن جوهر أمر بجماعة منهم ففُضرت أعناقهم ليضع بذلك حدا لما أتوه من ضروب التصدي ^(٢) .

وإن مسألة قيام التشيعين من المصريين بنصرة الناربة ، أو وقوفهم في صف بني وطنهم وأبناء جلدتهم دفاعا عن أملاكهم ، مسألة جدية بالنظر والاعتبار . وإنه وإن لم يكن في المصادر التي رجعنا إليها ما يرجح أحد هذين الرأيين ، فلا شك في أن الناربة إنما قاموا بنهب أملاك الأهلين ، غير آبهين بأي حزب أو دين ينتمي إليه أى شخص ، وأن الأهلين — سنيين وشيعيين وغير مسلمين — هبوا يدفعون عن أنفسهم هذا التصدي الذي كان قوامه السلب والنهب . وإن إظهار التشيعين شعورهم العدائى نحو أهل السنة ، أمر كان يتجلى في احتفالاتهم ببعض أعيادهم ومواسمهم .

وفي سنة ٣٦٣ هـ تقاليم شر هذا العدوان الذي أضمره التشيعيون للمصريين . وعاد الناربة سيرتهم الأولى في القراقة ؛ فاحتلوا الدور وأجلوا سكانها عنها ، فشكا الأهليون إلى المز واستأثروا به — وكان قد أمر الناربة أن يسكنوا أطراف المدينة — فأصدر الأوامر

(١) اتماط الحفاص ٩٣ .

(٢) ابن ميسر ص ٤٥ . القرزى : اتماط الحفاص ٩٤ .

إلى المناربة باخلاء هذه العور والتحول إلى الخندق الكائن على مقربة من عين شمس ؟
وركب هو بنفسه فبين مواضع لزوم ، وأقر المال المطلوب للبناء ، كما جيل لم ولها وقاضيا
عهد إليهما النظر في أحوالهم ^(١) .

على أن هذه الإجراءات لم تكفل المصريين الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من
المناربة ؛ فقد غلوا يخالطون أهل مصر حتى يتم إعداد مساكنهم الجديدة . أما للتشيعون
من المصريين فكان عددهم قليلا ؛ غير أنهم كانوا أقوياء بالمناربة الذين كانوا يشدون
أزرهم ، وبوجود حكومة شيعية متضدهم ، ولا سيما بعد وصول المز .

وطالما كان يشور بركان العداء المستحكم بين هاتين الطائفتين في مناسبات كثيرة ،
وبخاصة عند الاحتفال ببعض الأعياد والرسوم الشيعية . أما الشيعة فكانت تناصرهم
الحكومة طوال العهد الفاطمي ، كما كان المناربة يشدون أزرهم .

وكثيراً ما كان يصحب هذا العداء الذي أضمره السنيون للشيعة الفتن والقتال .
فقدم الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية وقتها في مصر — إلى الخليفة الجديد ،
طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن عمار ، وهددوا هذا الخليفة
بالاتباع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، بل بالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويصل
على تحقيق رغباتهم ^(٢) . فلم ير الحاكم بدا من إجابتهم . وفي ٣ شوال سنة ٣٨٦ تقلد
ابن عمار أئمة الأمور ، وتلقب بأمين الدولة ^(٣) . وكان الحاكم في غضون الأربع السنوات
الأولى من خلافته (٣٨٦ — ٣٩٠ هـ) صغيراً لا يستطيع القيام بمهام الدولة ، فإنه ارتقى
عرش الخلافة في الحادية عشرة من عمره ؛ وعهد بالوزارة — التي كان يطلق عليها
« الوساطة » في ذلك الوقت — إلى ابن عمار (٣ شوال سنة ٣٨٦ — ٢٧ شعبان
سنة ٣٨٧) ، ومن بعده إلى برجوان ^(٤) (٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ — ٢٦ ربيع الثاني

(١) ابن عسار ص ٤٥ .

(٢) ابن الفلاني ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) أبو شجاع ص ٢٢٢ .

(٤) انظر ترجمة برجوان في ابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) . وقد أطلق عليه أبو شجاع وابن الأثير
(ج ٩ ص ٤٢) أرجوان . وذكر هذا اللفظ الأستاذ برجوايوت في ترجمته لكتاب « معارج الأمم »
لمسكويه ، الذي يتأريخ أبي شجاع . ويصطلح هذا اللفظ في أغلب كتب تاريخ الأدب باسم برجوان ،

سنة (٣٩٠) استاذ الحاكم ومستشاره^(١).

وقد ظهر سوء إدارة ابن عمار في كثير من الأعمال بما أنه في عهد تظلم الوساطة : إذ بالغ في محابة الكنتامين وأبطل أعطيات الأتراك^(٢) ، واعتمد على معونة أحداث الخاربة الذين أتوا من الأعمال ما أثار عليهم الأتراك وأدى إلى التخاصم بين الفريقين . وكان برجوان ينافس ابن عمار ويتاوه الداء ، مع تمضيد الأتراك ؛ فكانت نتيجة هذا التخاصم أن هرب ابن عمار إلى الصحراء^(٣) وحل محله برجوان^(٤).

(ب) أهل الزمة :

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل القمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم في الحصول على المبات والمطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على اللطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا في عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحابة ، وتقلدوا أرق المناصب وأعلهاها في عهد الخليفة العزيز ، وشغلوا في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضاً ، وتمتوا بقطر وأفر من سياحة النسامح الديني ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من بناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

ولا يزال باقياً إلى اليوم في الحارة المسماة بحارة برجوان في القاهرة بجهة المغرب . ويطلق عليه أبو شجاع بططس . ونقل فاضل الأصل العربي لتاريخ أبي شجاع هذا القبط عن ابن القلاسي (ص ٤٤) . انظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٤) وابن القلاسي (ص ٤٤) وابن منجب (ص ٢٧) وابن ديسر (ص ٥٣) وابن علكان (ج ١ ص ١١٠) والمقرئ (غلط ج ٢ ص ٢٨٧) .

(١) ابن منجب ص ٢٧

(٢) هذه الحقيقة قد أدل بها ابن منجب (ص ٢٧) .

(٣) ذكر ابن منجب (ص ٢٧) أن ابن عمار قلع استقالته إلى الخليفة الذي يادر إلى قبولها وعين برجوان في محله . ولكن قرأه إلى الصحراء مع جماعة من أهواه ويقاهه مخفياً مدة من الزمن إلى أن أنهى برجوان ، فغرب إلى القمن أنه لم يستقل (انظر أبو شجاع ص ٢٢٦) . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٨١) إنه بقي مخفياً في داره في القاهرة ، وخالفه ابن القلاسي في ذلك فقال إن ابن عمار اختفى في بيت رجل من العامة ؛ وهذا أرجح في نظرنا .

(٤) ابن القلاسي ص ٤٤

وفي سنة ٤٠٢ هـ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين التي سبقتها . فقد أمرهم الحاكم بلبس الطيالس ووضع صلبان على أعناقهم ، طول كل صليب منها قدم وزنته خمسة أرنطال (أى مايقرب من عشرة أرنطال الآن) ، وأمر اليهود بحمل قرأى الخشب في رقابهم ، زنة كل منها زنة صليب النصارى ، وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج ، وأن تكون ركابهم من خشب ، وألا يستخدموا أحدا من المسلمين ، وألا يركبوا حمارا المسكار مسلم ، ولا سفينة ربانها مسلم ؛ وأن تكون الصلبان في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمامات العامة ، والجلاجل في أعناق اليهود لتمييزوا بذلك عن المسلمين ^(١) . ثم أفرد في سنة ٤٠٨ هـ حمامات اليهود ^(٢) وحمامات النصارى عن حمامات المسلمين ، وميز حمامات النصارى بوضع الصلبان فوقها ، وميز حمامات اليهود بالقرأى ^(٣) .

(ج) الأتراك :

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية . فقد استعان أحد بن طولون مؤسس هذه الدولة — وكان تركيا من بلاد ماوراء النهر — بسدد كبير من هؤلاء الأتراك . ونظر أمرهم في مصر في عهد الحاكم بن بالغ ابن عمار في عناية المنارية ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتد على معونة غلمان المنارية الذين أثاروا عليهم الأتراك ، مما أدى إلى التلاحن بين الفريقين . وكان رجوان التركي يناقش ابن عمار ويناقشه السداء ، حتى اضطر زعيم المنارية إلى الحرب وحل محله ^(٤) .

(د) السودانيين :

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثروا في مصر منذ عهد كافور الإخشيدي . وقد ظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم القدي استعان بهم على الأتراك ، فأحرقوا القاهرة

(١) عيسى بن سيد ص ١٨٧ .

(٢) يظهر من كلام ابن دولاقي (ورقة ١٥٦) وابن أبياس (ج ١ ص ٥٠) أن تخصيص حارة زويلة لليهود كان في ذلك الوقت .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) ابن متجب : الإشارة ص ٢٧ .

حقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته للضطربة .

وقد ظهر أمر هؤلاء السودانيين من جديد في أيام الخليفة المظاهر القى تزوج بسيدة سودانية ، كانت من قبل أمة في بيت أبي سعيد القسرى اليهودى . وتفاقم خطر هؤلاء الجند الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً في أيام المستنصر ، بسبب التشنج الذى قام بينهم وبين الأتراك الذين طاردوهم إلى الصعيد ، حيث استقر منهم خمسة عشر ألفاً . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهلىين ، وحالوا دون زراعة الأراضى (٥٤٥٤ هـ) ، واكتسح القالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، فدلنا حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، فاستقروا بها . وقد شل حركة الفلاحين ذلك العرب القى ألقته هؤلاء الجنود السودانية المشتتة في جميع أنحاء البلاد .

على أن ذلك الانتصار القى أحرزه الجند من الأتراك على الجند السودانى لم يؤد إلى قل شوكة المنصر السودانى نهائياً ، بل — على العكس من ذلك — نرى هذا المنصر من بين الطبقات التى كان يتكون منها الشعب للمصرى في أواخر عهد الدولة الفاطمية .

٢ — مجالس الفناء والطرب

وقد عنى الطولونيون والفاطميون بالفناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب القى بناء خمارويه بن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حطايه ومقنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وعلى رحوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادر^(١) للرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها للتينة في الحيطان بمسامير ، أجراس تقال الوزن بحكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ المعجية التى تبدو للرأى كأنها ثياب حقيقة^(٢) . وذكر القرينى^(٣) أيضاً أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الفناء وسمع للكبرين يكبرون ، أمر اللحنات بوقف الفناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع .

(١) لعلها جمع كدر ، وهو كما في القاموس المحيط — ثوب الخدر (المنزل) ، أو ثوب توطى* به المرأة في المودج ، ويتمين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر ، وهو أشبه بالطرحة اليوم .

(٢) القرينى : مخطوط ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧ .

وذكر القرطبي في مكان آخر^(١) أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ هـ ، ٤٠٩ هـ قوانين تحرم الاجتماعات وهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ ، وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستماع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المننيات . ويقول ابن خلكان^(٢) إن النساء قبحن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الخلافة الظاهر بن الحاكم . وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث الساسري لما أظلم الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر في بغداد ، أشادت إحدى المننيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين :

يا بني العباس صُدوا ملك الأمر ممد
ملككم كان مُعاراً والعواري تُسترد

فطرب الخليفة وأعطاه أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة باسم أرض الطالبة . أما مجلس شرب الأفضل فقد وصفه لنا ابن ميسر ، إذ ذكر أنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ؛ وكان منهن أربع بيض من الكافور ، وأربع سود من حنبر . وكان صرديات آخر الثياب ومزينة بأمن الخلي ، ويمكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة . وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس ، نكس رءوسهن لإجلاله ؛ فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات . وهذه التماثيل لم يبين لنا ابن ميسر — وهو المرجع الوحيد في هذا الموضوع — إن كانت حركاتها تلك من تلقاء نفسها أو بوسائل أخرى . والظاهر أن ذلك منها كان بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه .

وكان الأفضل حين يجلس للشرب يحمل في مجلسه صواني الذهب مصفوفة ، وفيها الأواني الملوثة بالجواهر . فإذا أمر جُل ما في الآنية على الصينية فيملؤها ، ويحمل يده الشراب^(٣) .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) وثبات الأيمان ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) ابن ميسر ص ٥٨ .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

وبنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده .
من ذلك القصر الغربي ، وكان يقع غربي القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي
للخليفة المعز شرق مدينة القاهرة . وكان هذا القصر أصغر من القصر الشرقي ، لذلك أطلق
عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن قصر المعز .

وفي عهد الخليفة العزيز بنت السلطنة تفريد زوجة المعز قصر القرافة ، وكان يتصل به
بستان وحمام . وقد وصف المقرئى^(١) هذا القصر فقال إنه كان قصراً فخماً يسر الناظرين ،
يتردد عليه أهله طلباً للراحة ، وبه فطيرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .
كما بنت تفريد منازل المعز^(٢) ، وهو قصر فخم على شاطئ النيل ، واتخذها ابنها العزيز والخلفاء
الفاطميون من بعدهم للتنزه .

وابن العزيز قصوراً أخرى في عين شمس ، كما بنى في عهده قصر البحر الذي يقول
فيه ابن خلكان^(٣) إنه لا يوجد شبهة له في الشرق ولا في الغرب . وكذلك أسس العزيز
قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك . وكانت مؤنثة أنثياً ، ومزينة بالسور والطنافس
الحمرية المزركشة بالذهب ، وكأها من رسم واحد ولون واحد . وفي صدر قاعة الذهب
حشية عليها عرش الخليفة المحبوب بستور ، حتى إذا جلس الخليفة وانقعد المجلس رفعت
تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا انفرج الستار الحريان بفعل اثنين
من الأساندة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم زمام القصر ، فيظهر شخص الخليفة وحوله
جماعة من القراء يأخذون في ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية . ثم يأتي حامل
الدواء — وهو أستاذ محنتك أيضاً — فيضما على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام
القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت

(١) خط ج ١ ص ٤١٥

(٢) راجع وصف هذا المنزل في المقرئى : خط ج ١ ص ٤٨٥ ، والمقرئى : فتح الطيب ج ١

ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

الذى يكون الحاضرون قد أخذوا أسكتهم المخصصة لهم . عندئذ يأخذ أحد الأمتاء في تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم للخليفة .

وإن نقاليد البلاط القاطنى كانت متفقة مع الدعاوى التى كان يدعيها الخلفاء . فكان من الشرف العظيم أن يسمح للوزير بلثم قدى الخليفة على مرأى من جوع الرعايا المتحمسين . أما قاضى القضاة ، باعتباره حامى الشريعة الإسلامية ، فكان لا ينتظر منه إلا أن يلثم قدم الخليفة فى الركاب القريب منه ^(١) .

ولم تكن مظاهر الاحترام هذه نحو الخلفاء مقصورة على وزرائهم وقضاةهم وغيرهم من مشهورى رجالات دولتهم . فقد كان على عامة الناس أن يقوموا وقوفاً كلياً ذكر اسم الخليفة فى الخطبة كما كان عليهم أن يظلوا واقفين أيضاً إذا مر الخليفة فى إحدى الطرقات ^(٢) . وكان من المناظر المسلية أن يرى الخليفة القاطنى جالساً فى إحدى مناظره ^(٣) عند الاحتفال ببعض الأعياد الدينية أو العامة ، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضائة ؛ فقد كان شخصه المقدس يرى ظاهراً لرعاياه المتحمسين إذا ما وضع شباك المنظرة ، وأمامه أحد الأستاذين يلوح للناس بكلمة قبائه ، يحمل إليهم سلام الخليفة فى هذه الكلمات : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . وعقب تقؤه الأستاذ بهذه الكلمات يقفل الشباك ؛ فينصرف الناس المنعمون سروراً ، والذين كانوا يركعون إذا ما رأوا شخص الخليفة .

وإن فى الآية التى كانت تصاحب الخلفاء القاطنيين فى مجلسهم ^(٤) دليلاً آخر على ما كانوا يعتقدونه مما كان يطلق عليه حق الملوك المقدس ، حتى كان بعضهم يعتقد لنفسه بعض صفات الله .

فأما الزهب ومجلس الملك :

كان من العادة أن يبعث الخليفة صاحب الرسالة إلى الوزير يحمل إليه أمره الملكى بانقضاء

(١) المقرئى مخطوط ج ١ ص ٤٧٧ .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الألمانية ببرلين ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ ا و ٥٦ ا والقضاة ، المكتبة الألمانية ببرلين ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٣٧ ا .

(٣) انظر ما ذكرناه من المناظر فى هذا الباب .

(٤) يسمى هذا المجلس الإيوان ويعرف بقاعة الذهب التى سيأتى الكلام عليها .

المجلس . وصاحب الرسالة هذا كان أستاذاً مميّزاً ؛ وعمله هو حل أوامر الخليفة إلى الوزير متى آن انعقاد المجلس . وكان إذا انتهى الأمر للوزير ، ركب في حمية الأسراء إلى مكان الوزارة من القصر ، حيث يتجزل ويمشي إلى قاعة الذهب ^(١) .

أما قاعة الذهب فكانت مؤنثة أنثا فخما ، ومزينة بالسور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، التي كانت كلها من رسم وطراز ولون واحد . وكان في صدر قاعة الذهب حشّية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه ولتأتم المجلس ، رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة للملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر زمام القصر ؛ فيبين شخص الخليفة ، وحواله جماعة من القراء ؛ فيأخذون في ترتيل بعض آيات بأنعام عالية . ثم يأتي حامل الدواة — وهو أستاذ محنك أيضاً — فيضنها على طرف الحشّية المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يُقدم إلى الخليفة . فيخطو إلى الأمام ، ثم يحني الخليفة بطنه يديه ورجليه ؛ ثم يتراجع إلى مكانه الرفيع ويظل واقفاً نحو ساعة ؛ فيؤذن له بوسادة مجلس عليها في جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضي القضاة ، فيقترب من الخليفة ويمسح برفعه يده اليمنى ، ويشير بسبعته قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ؛ وكانت هذه التحية مميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافاً بمركزه الديني الرفيع . وكان أيضاً يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعتهم . وكان الأمير يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه في هذا السبيل .

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ، ويعتمد على سيفه ، ثم يشرع في حديثه . وكان مجلس الملك يستقد ثلاث ساعات في المادة ؛

(١) كان مجلس الملك يستقد في الإيوان الكبير قبل أن يبنى المزير قاعة الذهب . أما الإيوان الكبير فقد استعمل فيما بعد داراً للسلاج .

فَتَقَدَّمَ فِيهِ الْأُمُورَ الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللووزير أن يقترح خلق الخلع أو إسناد الوظائف المختلفة إلى من يقدم أسماهم .

فإذا انضبط عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير في آخرهم بعد أن يلتم يدي مولاه ورجليه مرة ثانية ؛ ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ؛ ثم ينزل الخليفة من سرير الملك وينادي بالإيران ، فتسدل الستور ويقفل الباب^(١) .

هكذا كانت الأبهة التي كانت تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك ؛ غير أن هذه التقاليد لم يكن الفاطميون أول مبتدعيها ، فقد كانت من رسوم آل ساسان ملوك الفرس (٢٢٦ / - ٦٥٠ م) قبل ظهور الدولة الفاطمية في عالم الدول بنحو سبعة قرون .

يقول الأستاذ براون (E. O. Browne) : « إن آل ساسان كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة ، أو أناساً إلهيين ، من سلالة أسرة السكاياني الخرافية العريقة في القدم ، ووارثي العظمة الملوكية (Farri-Kayani) . وذلك نوع من الحق الإلهي الذي وصل إليهم بطريق الإشارة والرمز ، وبفضل هذا الحق كان لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسي — فصولوا كل ما في مكنتهم لتأثير في رعاياهم ، حتى يذعنوا لهذا الحق الملوكي الرفيع » .

وقد اقتبس الأستاذ براون في صدد كلامه عن عظمة « آل ساسان الملوكية » واعتلاشهم للعرش ، أسطورة أوردها ابن هشام في « سيرة النبي صلى الله عليه وسلم »^(٢) حيث يقول : وكان كسرى يجلس في إيران مجلسه الذي به تاجه ؛ وكان تاجه مثل التَّنْقُل^(٣) العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الباقوت والفلؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، مطلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طائفة في مجلسه ذلك . وكان عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك . ثم يدخل رأسه في تاجه ؛ فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه جل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له^(٤) .

وبلاحظ الأستاذ براون « أن نظرية الحق الملوكي المقدس لم تكن في دولة من الدول

(١) التلخشي ج ٣ ص ٤٩٨ - ٥٠٠ .

(٢) Literary History of Persia from Earliest Times until Firdausi, p. 128.

(٣) الحوذة للطنطية .

(٤) ابن هشام (طيبة ومستطلة) ج ١ ص ٤٢ .

أثبت وأكثر ذبوعاً منها في فارس في عهد آل ساسان . غير أن هذه النظرية كانت
بمصر في زمن أمروء في القدم من عصر آل ساسان ، في عهد القراصة الذين ادَّعوا لأنفسهم
كل صفات الله ؛ وأوضح مثل ذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

وكان تأثير هذه العقيدة في الصور التي تلت عظيماً ؛ فقد تأصلت وخطت إلى الأمام
في عهد الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يعتقدون أن لهم بعض صفات الله .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذي بنى الخليفة الأسمر في جزيرة
الروضة^(١) لزوجه البدوية الطائية التي كان مشغولاً بها لجمالها ومواهبها الشعرية . وقد بنى
هذا القصر على هيئة تبسُّلها لا تشعُّ برؤاة الانتقال من الميشة البدوية التي كانت تعيشها
بين أسرتها ؛ فقد كانت له حديقة رحيبة على شاطئ النيل . ويمدنا القريري^(٢) أنها
كانت تحب ابن عمها للسي ابن مياح ، وقد أياسها الزواج من الاتصال به . وقد كتبت
لابن عمها هذا الذي كان مرافقاً بأسر الخليفة الأبيات الآتية :

يا ابن مياح إليك المشتكى مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حي مطاعاً آمراً نائلاً ما شئتُ منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مرصد لا أرى إلا خيبتنا ممسكا
كم تفتننا كأغصان اللوى حيث لا نخشى علينا دركا

فأجابه ابن مياح بقصيدة من نفس الروى والقفية يقول فيها :

بنت عمي والتي قد غديتها بالموى حتى علا واحتبكا
بحب الشكوى وعندى ضعفها لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأسمر إليه أشتكى مالك ، وهو الذي قد ملكا

ويقول القريري إن ما كان بين هذه البدوية وابن عمها من الحب ، وما كان من
زواجها بالخليفة الذي لم تكن تشعُّ نحوه بأية عاطفة قد صار مشهوراً ، حتى إن كثيراً من
الكتاب ألفوا في ذلك قصصاً تحاكي قصص « ألف ليلة وليلة » .

(١) انظر ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

(٢) غلط ج ١ ص ٤٨٥ .

على أن هذه الثروة العظيمة التي كان يمتلكها المستنصر لا تدلنا بحال من الأحوال على أن الفلاح المصري كان في رَعْد من العيش ، بل على العكس ، فقد كان انخلاء القاطنين ووزرائهم يسكنون قصوراً حجة منسقة تنسيقاً بديعاً تتجلى فيها آثار الصناعة العربية ، وتحيط بها أشجار الفاكهة ومختلف الأزهار والسطور . أما الأثاث والرياش ، والمأكول والشرب ، وموائد الطعام ، فكانت مضرب الأمثال من حيث الوفرة وحسن التنسيق والجمال .

وقد جعل ابن كلثوم وزير العزيز بالله القاطن في قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لخدمته وحاشيته وأتباعه . وكانت تُمد في كل يوم مائدة كبيرة للعلماء وصقوة كتابه وأتباعه ولأضيافه ، وموائد أخرى تمد لحجابه وحاشيته وسائر الكتاب^(١) .

وجعل في القصر أيضاً مبخضة للطهور وثمان غرف كانت معدة على القوام لمن يأتي إليه من الأغراب . وكان يجلس بعد صلاة الصبح كل يوم ، فيدخل الناس للتسليم عليه ، ثم تعرض عليه الرقاع بظلالمات الناس وحاجاتهم . وأخذ كمولاه العزيز عدداً من الضباط متح كلاً منهم رتبة القائد ؛ فكانوا يصحبونه في غدواته وروحاته ، ومع هؤلاء القواد جماعة من اللوالب أطلق على كل منهم لقب القائد أيضاً .

ولم يفت هذا الوزير تحصين قصره ودور غلمانه بالهدوب^(٢) ، فأخذ لقلبك حراساً أمدم بما يحتاجون إليه من السلاح والعدد وسائر اللؤن ، وأعد لهم وسائل البيع والشراء ، حتى أصبح يحيط بداره ودور أتباعه الحوانيت التي تباع فيها كل أنواع الحاجيات من مأكل ومشرب وملبس .

لم يكن هذا كل ما اتخذ ابن كلثوم من وسائل الأبهة والعظمة . فقد كان في قصره هذا ذلك طائفة من الحجاب يرتدون اللباس الحريرية ، ويتقلدون السيوف ويتنطقون بالمناطق . وقال المقرئ إنه في شهر رمضان كانت تقام الولائم في قصر هذا الوزير ، فكان يأتيها الفقهاء ومشاهير الرجال ، كما كان يدعى إليها الفقراء وعامة الناس .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ نقلاً عن المسبحي .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ نقلاً عن المسبحي .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) أن الحارة التي تعرف في القاهرة بالوزيرية ، وهي الواقعة داخل باب سماعة ، تنسب إلى أصحابه لاتخاذها سكناً لهم .

ويذكر ابن ميسر^(١) أنه كان في بيت الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ثمانية جارية منهن خمسون حطية ، لكل واحدة منهن حجرة خاصة بها .

٤ — المناظر والبساتين

إن بناء المناظر التي كان يشرف الخلفاء منها على الاحتفال ببعض الأعياد ، يعدنا بمثل آخر من أمثلة حب الظهور الذي مكث قلوبهم ، فاستطاعوا أن يستميلوا به أكثر ما يمكن من الناس الذين يمتنعون المذهب الشيعي .

وكانت المناظر غالباً في القاهرة ومصر والروضة والقرافة ؛ وكانت تستعمل أيضاً أما كن لمزعة الخلفاء . وقد عدد المقرئى هذه المناظر في خطبته ؛ ووصف لنا بعبارة شائعة الاحتفال ببعض الأعياد . ويجمل أن نذكر أسماء المناظر هنا ، لأننا سنشير إلى بعضها عند الكلام عن الاحتفال ببعض الأعياد وهي : الأزهر ، القلوة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البهل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، المودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، والمكبرة^(٢) .

وكان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلًا منها إلى أهالي الشام وفلسطين الذين كانوا في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين ، وفي هذه النظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمشول بين يدي الخليفة ، فيخلع عليه خلمة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التي كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح وموئن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم مفصلة بما حوته تلك الصناديق . وكانت نوافذ النظرة تفتح ، فإذا رأى الجند وجه الخليفة خروا له مقبلين الأرض ، ثم يولى الخليفة للجيوش تفسير^(٣) .

بعد هذا يركب الخليفة لمنظرة المقس ، حيث يكون هناك أمير « الأسطول »^(٤) .

(١) تاريخ مصر ص ٥٨ .

(٢) المقرئى : خطب ج ١ ص ٤٦٥ .

(٣) المقرئى : خطب ج ١ ص ٤٨٣ .

(٤) ذكر المقرئى (خطب ج ١ ص ٤٨٣) عن ابن أبي طي أن للمزبني مراكبه حربية تكون منها الأسطول المصري .

ويعد أن يستعرض الخليفة للراكب الحرية ، يأذن للأمير بالثول بين يديه ، فيخلع عليه خلة ، ويردعه الخليفة ، فيبدأ الأسطول في السير^(١) .

وقد ذكر القريري في كلامه عن مناظر الخلفاء الفاطميين — أن الأفضل بنى دار الملك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ — ١١٠٨ م) ، ثم صارت بعد وفاته ضمن مناظر الخلفاء . وقد سجل الأفضل مسكنه الخاص في هذه الدار ، فنقل إلى بعضها الدواوين ، كما سجل فيها محال خاصة تقام فيها الأمثلة في الأعياد ، واتخذ في إحدى أبنائها مجلساً يجلس فيه للمطاء ، كانت تمقد فيه الجلوسات . وسمى هذا المجلس مجلس المطاء ، إذ كان الوزير يجلس فيه ويعطى دينارا لكل من يأتيه مستجديا .

ولم يتفطن تشجيع الخلفاء للشعراء إلى آخر أيام خلافتهم . ويحدثنا القريري^(٢) في عبارة شائعة أوردها في سياق كلامه عن المنطرة التي كانت تطل على بركة الحبش ، التي شيدها الخليفة الأسر فيقول : « في هذه المنطرة طافات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه ويلده . وعلى جانب كل من هذه الطافات قطعة من القماش ، كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار ، أمر أن توضع على كل رف صرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده » .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ احتفل لأول مرة في مصر بعيد غدیر خم . وفي هذا اليوم ركب الخليفة المزم إلى منطرة القس ، فرض الأسطول ثم عودته^(٣) ليحفظه الله سبحانه وتعالى من السوء . وقد بنى صلاح الدين قبة شائعة على أطلال هذه المنطرة ، أطلق عليها . قلعة القس ، بقيت إلى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ، وأنشئ في مكانها حديقة^(٤) .

ولم تكن المناظر هي الأماكن التي اتخذها الفاطميون ترويحاً لنفس ، بل كان لهم أيضاً

(١) مناقشني : صبح الأعيان ج ٣ ص ٥٢٣ و ٥٢٤ .

(٢) حطود ج ١ ص ٤٨٦ — ٤٨٧ .

(٣) ينير إلى سورة الفلق رقم ١١٣ وسورة الناس رقم ١١٤ .

(٤) القريري : خطط ج ٢ ص ٢٨٣ .

بساتين فسيحة يتزهون فيها . ومن هذه المنزهات ، البساتين الجيوشية . وهي عبارة عن بستانين كبيرين يمتد أحدهما من باب الفتوح إلى المطرية ، والآخر يمتد من باب القنطرة إلى الخندق . وقد بلغ من ولع الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالبستان الذي كان يجاور بستان منظره الليل ، أن بنى له سوراً يشبه سور القاهرة وحفر به بركة كبيرة . كما بنى في وسط هذا البستان منظره مقامة على أربعة أعمدة من الرخام وزرع حولها شجر النارج ، وجعل على هذه البركة أربع سواق . وجلب إليه - كما يقول المقرئ - من الطيور المسومة شيئاً كثيراً ، واستخدم للحمام الذي كان به عدة مطيرين ، وعمر به أبراجاً عدة للحمام والطيور المسومة ، وسوّح فيه كثيراً من الطاووس . وقد بلغ ثمن الفاكهة والزهور التي يبعث من هذه البساتين سنة ٥٢٤ هـ نيفاً وثلاثين ألف دينار (١٥ ألف جنيه تقريباً) . وبلغ عدد أشجار السنط والجيز والأثل التي كانت تحيط بسور هذه البساتين مليون ومائتا ألف شجرة تقريباً . وغرس بها نوع من الليمون اللطيم بالتفاح يؤكل بقشره حلو اللطيم . وظلت هذه البساتين موضع اهتمام الخلفاء والوزراء أيام الخليفة الحافظ حيث أملت^(١) .

٥ - الملايس

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج ، وبلغ نظام الطراز مبلغاً عظيماً من الرقي . واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . من ذلك القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلأأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكانت تصنع في دمياط وتنيس خاصة ، والقرقي الذي اشتهر بألوانه اللامعة التي تتغير إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، والنصفية ، وتصنع من الحرير والقطن ، والديقي الذي ينسب إلى مدينة ديقي حيث كانت تصنع الثياب المنقطة والعائم الشرب المذهبة . وفي دار الكسوة التي بناها الخليفة للمزدين الله الفاطمي في القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأسماء والوزراء وسائر موظفي الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والملح التي كانت

تمنع بسملة الوزراء والأسماء والأشراف في عيد الفطر ، حتى سمي عيد الحلال .
وقد أمدنا المقرري^(١) بعبارة طويلة بين فيها مخصصات الخليفة والأسماء والوزراء
وسائر موثقي الدولة وكسائهم وأولادهم في الشتاء والصيف من الملابس التي كانت تصنع
بدار الكسوة ثم كما بين مقدار وقيمة كل كسوة . ومن الطريف أن نعلم أنه كان يصنع
للخليفة كسوة مختلفة يختلف كل منها لاحتفال خاص ، كاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة
صلاة النية ، والجلوس على السباط في أول يوم من أيام عيد الفطر ، وكانت موشاة بخيوط
الذهب والفضة ، ويطلع من بعضها عسائنة دينار ، وأنفق على التديل الواحد خمسة دنانير .
وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلال المزركشة بالذهب للوزير وأخي الخليفة : كعيد
أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . كما كان الشعراء
والكتاب والأعيان الذين يفتقون ويجوزهم بالقاهرة في هذه المناسبات يمنحون حللا مصنوعة
من الحرير الخالص ، وبعضها مزركش بالذهب .

وكانت هناك كسوة مختلفة خاصة للخليفة في الاحتفالات أو الأعياد ، فيلبسها بمساعدة
سيدة يعاونها ثلاثون خادمة^(٢) . كما كانت تقدم الحلال إلى الوزراء وبعض الأسماء ، وكما
كانت توزع الملابس على الأشراف وغيرهم في عيد الفطر بسملة . ومن هنا سمي هذا العيد
بعيد الحلال ، حتى قيل أنه صنع إحدى عشرة كسوة للخليفة الأمر قدمت إليه في عيد
الفطر سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، يقصر للقائم هنا عن وصفها .

وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلال المزركشة بالذهب للوزير وأخي
الخليفة ، كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . وزيادة
على ذلك كان الشعراء والكتاب والأعيان الذين يفتقون ويجوزهم في القاهرة يمنحون
حللا كان بعضها مزركشا بالذهب وكلها مصنوعة من الحرير الخالص^(٣) .

وقد أمدنا ابن منجب بوثيقة^(٤) يرجع تاريخها إلى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، هي

(١) خط ج ١ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) المقرري خط ج ١ ص ٤١١ .

(٣) المقرري : خط ج ٦ ص ٤٦٠ .

(٤) هذه الوثيقة من إنشاء ابن منجب نفسه ، إذ كانت يفتق في ذلك الوقت كمنصب كاتب الإنشاء .

نص لكتاب أرقى بحال بحث بها الخليفة لأحد الأمراء في عيد فطر هذا العام . وهاك نصها : « ولم يزل أمير المؤمنين منبها بالرغائب ، موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب مجزلا حظه من مناصحه ومواهبه وإنك أيها الأمير لأولام من ذلك بحسبه وأخلفهم بالجزء الأوفى منه عند نصّه وتقسيه ! إذ كنت في سماء السابقة بدرا ، وفي جرائد المناصحة صدرا ، ومن أخلص في الطاعة سرا وجهرا ، وحظي في خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفه وسير له ذكرا . ولما أقبل هذا العيد السعيد ، والمادة فيه أن يحسن الناس حياتهم ويأخذوا عند كل مسجد زيتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفي المواسم التي تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمع للآمال » (١) .

هذا ، وقد جاءنا القلشندي بسارة شائعة عن الشكل الذي كانت تقدم به رواتب الموظفين للخليفة المستنصر كي يمتدها ، إذ يقول إن الخليفة لم ينير شيئا في القاعة التي اشتملت على الرواتب ، وإنه كتب فوق إمضائه هذه الكلمات بخط يده : « الفقر مر للذاق ، والحاجة تذلل الأحقاق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ؛ فليجروا على رسومهم في الإطلاق ؛ (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) » (٢) .

هذه الفقرات المكتوبة بخط الخليفة ، ذات أسلوب خلاب يبين لنا قدرته في فن الكتابة وإلمامه بكتاب الله الكريم ، الذي اقتبس منه هذه الآية التي تناسب للقام . ولم يكن الخلفاء الفاطميون الآخرون أقل من المستنصر في الكرم والجود . فهذا الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ / ١١٣٠ — ١١٤٩) قد وقع في إحدى المرات على قائمة كهذه بما يأتي : « أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثير العطاء ، وليجروا في نسيبائهم (هكذا وردت في الأصل) على عادتهم كرما من أمير المؤمنين وفلا مبرورا ، وعملا بما أخبر به عز وجل في قوله تعالى (إنما نطمعكم لنوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) » (٣) .

(١) المقرئ غلط ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) القرآن الكريم سورة التمل ١٦ : ٩٦ . القلشندي ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٣) القرآن الكريم سورة ٧٦ آية ٩ . المقرئ غلط ج ١ ص ٣٩٨ .

وشبه هذا ما كان يحصل في عيد الفطر من توزيع ما جرت به العادة من النقود الذهبية والنقضية ، ولللابس والأطعمة على الموظفين والأضياف . يضاف إلى هذا ما كان يعطى لكبار الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية التي كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم ؛ ولذلك كانت تسمى نقود الفرقة . وكان هؤلاء الموظفون يتمنون هذه النقود بركة من الخليفة^(١) .

يضاف إلى هذا ما اعتاده الخلفاء الفاطميون من منح موظفي خزائن القصر على اختلافها مقادير من المال عند تفتيش تلك الخزائن . ومن أمثلة ذلك ، أن خازن خزنة القرش كان يعطى خمسة عشر ديناراً^(٢) ، وأمين خزائن الأسلحة كان يعطى خمسة وعشرين ديناراً^(٣) ، كما كان يعطى صاحب خزائن السروج عشرين ديناراً^(٤) ؛ وكان يعطى صاحب خزائن المشروبات ومساووه ثلاثين ديناراً^(٥) .

يضاف إلى هذا أيضاً ما اعتاد الخلفاء منحه عند ركوبهم للناظر لرجال الحاشية والأستاذين ، وكتاب القصر والشعراء ، والمؤذنين والقراء ومن إلى هؤلاء . وكان هناك أحد الموظفين يحمل كيساً من الحرير فيه خمسمائة دينار^(٦) ، لتوزيعه على من في الطريق الذي يجتاز به الخليفة من الرجال والنساء الفقراء ، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبيه الطريق ، فكان كل من هؤلاء يتال نصيبه من هذه النقود في أكياس خاصة ، في كل منها درهمان أو ثلاثة^(٧) .

٦ — الطعام والشراب

ومن المصحب ما نقرؤه في التتالي^(٨) من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة

(١) التلشقتلى ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) المقرئى غلط ج ١ ص ٤٩٢ و ٤٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٠ .

(٦) يقول المقرئى (غلط ج ١ ص ٤٨١) إن هذا الكيس كان يشتمل على ألف دينار في المرات التي كان يركب فيها الخليفة لأحد الهيادين ، وربما كان ذلك لاستعراض الهند أو رجال الأسطول .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) كتاب يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

يعنونها في قصائدهم ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخطه الوليمة من ضروب القهوه والسرور وسماج الموسيقى والثناء ، وتزيين الساط بالورود والرياحين وكل ما يضيفه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور . فقد بحث محمد بن أبي الجرجع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان فقال :

شعبان قد صار نضوا ^(١)	ولم نُفد فيه لهما
وليس ذلك منا	جلا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا	بكرت للقصف عدوا ^(٢)
حتى تقوم فترفو	ما خرق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى	مسّن ظل يشوى
ه ثلاثون يوما	يحبو إلى الضرع ^(٣) حبوا
وأوفر الزور في الخلد	ل قد تبوأ متوى
لما انتزعت حشاه	موضته البقل حشوا
وقد عُيت بجمام	ملأته لك حلوى
وقهوة بنت كرم	صفت من أقم صفوا
ما شعث ^(٤) قط إلا	سقط على المم سطوا
جنبها كل وقد	يمحو الحاسن محسوا
إلا إذا ما اقتنصنا	عذب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال	يشدو فيلهيك شدوا
إما غناء وإما	عجائباً عنه تُروى

(١) معنى هزيلة .

(٢) القصف القهوه ، والدمج الجرى .

(٣) يبنى ثلثى أمه .

(٤) أى مزجت بالماء .

حتى تنزل بمسا فيه ه من وقارك خلوا
ومسندنا لك ورد يحذو المسرة حدوا^(١)
ريحاته لا يوازي لونا وعطراً وسروا^(٢)
فما احضارك في أن تنفي زمانك سموا^(٣)
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى
أبا علي ألا أسمع نصيحة ليس تزوى^(٤)
فإنما نحن سفر على محبة بلوى^(٥)
ولا تمرّج ذمياً على معارج حزوى^(٦)

وكان الفاطميون يقيمون الأسطة في الأعياد والمواسم ، وخاصة أول العام الهجري ؛ وفي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي غرة رمضان ، وفي عيدي الفطر والأضحى حيث كانت تتم خيراتهم للناس فيها . وقد عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالاً راسماً . ففي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيران الكبير ، الذي يقابل مجلس الخليفة ، سباط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع ، وعرشه سبع أذرع ، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية ، مما أعد في دار الفطرة الخليفة . فإذا انتهى الخليفة من صلاة الفجر ، عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيران ، وهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى السباط الخلفي ، وتناولوا ما عليه من الطعام ، بمشهد من الخليفة ووزرائه . وإذا طلعت الشمس خرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة ، وفي ذلك يقول المقيزي^(٧) : وفي يوم العيد ركب المزي بأفقه لصلاة العيد ، وبين يديه الجناثب والقباب والديباج بالخل ، والسكر في زيه : من الأثرالك ،

(١) أي يسوق إليك السرور سقوا .

(٢) نبات ، يعني لا يوازفه في لونه وريحه وشرف نوعه نبات آخر .

(٣) يريد : ما الذي يصحك . ترك مثل هذا المجلس الذي فيه كل هذا السرور وتعيش سموا غير سكا أن

(٤) تخفياً أو تستروكم منه .

(٥) إننا قوم سلفيون من علم الحياة في طريق ملو بالخمار والمصائب .

(٦) اسم موضع ، يعني لا تفعل كما فعل الشراب من قبل من ألكاه على الإبل والبعير فإنه موقف

معلوم عنده .

(٧) غلط ج ١ ص ٢٨٨

والهلم ، والمزينة ، والإخشيدية ، والكافورية ، وأهل العراق ، بالهيباج المنقل ،
والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنايب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالنمبر ،
وبين يديه القفلة ، وعليها الرجالة بالسلاح ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجواهر ، ويده قضيب
جده عليه السلام ، فصل على رسمه وانصرف .

وإذا عاد الخليفة من الصلاة ، أقيم سماط آخر أبهى وأروع ، فيجلس الخليفة وأمامه
مائدة من فضة يقال لها « المدورة » عليها أواني الذهب والفضة ، ملائى بأقم ألوان اللطام
وأشهاها . وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدمو نثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصفت
على جانبيه الأطباق الملائى بصنوف الشواء ، والطيور والحلوى البديعة ، ويجلس إليه رجال
الدولة وعظمائهما . وأما عيد الأضحى : فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة ، على النحو
الذى كان متبعاً في صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسباط حافل يقام في أول يوم يبد أنه يمتاز
بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات في الأيام الثلاثة الأولى ، كما يمتاز أيضاً باشتراك
الخليفة نفسه في إجراءات النحر ، فبعد أن يفرغ من صلاة العيد ، يتشح نوباً أحر اللون ،
ويركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون^(١) وغيرهم
في انتظاره . وإذا وصل الخليفة ذبح بيده بين تكبير للكبيرين إحدى وثلاثين ناقة وسيراً .
وكان ينظم في اليوم التالي نفس اللوكب الخلفى إلى النحر ، حيث يذبح الخليفة بيده
سبعة وعشرين رأساً ، وفي اليوم الثالث ثلاثة وعشرين^(٢) .

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والآداب الشعبية ، ويستقبل الشعب
للمصرى هذه اللواسم بمظاهر الجهور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن
شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، حيث ينشدون الأناشيد
الحزينة في رثاء الحسين ؛ ويقام سماط يسمى سماط الحزن ، ينظم في متنته البساطة في جو
صغير ، ويمد عليه خبز الشعير والمسدس والبلبن ، ويحضره الخليفة ملثماً مهتدياً الثياب القاتعة .

(١) جمع أستاذ محقق ، وكان يلثم بطرف عمامته ، بمعنى أن يجعل بعض عمامته تحت حنكته . ومن
الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه كبير الأئمة ، وصاحب بيت المال ،
وحامل الدواة ، وزمام الأتارب ، وزمام القصور ، ويهدى إليه بإدارة شؤون القصر .

(٢) التفتشلى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٥ - ٥١٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ .

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام ، فأدخل بقعة الهليون المسماة
عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه « النقايا » ، ويصنع بماء
الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والسكياب ، ولونا من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب ،
يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في سرق كثير الأفاويه والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل
الكواب الزجاجية الرفيعة على الكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسطة الطعام من الأديم
(الجلد) . وقد اتخذ أسراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سته لهم من آداب
المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه ^(١) .

وقد ذكر المقرئ ^(٢) عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد قتيان قصر
الزهراء بلغ ١٣٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣٠٠٠ رطل ، هذا الدجاج
والحجل والطيور والأسماك .

وكان بعض الخلفاء الفاطميين يجرمون ألواناً معينة من الطعام ، ففي سنة ٣٩٥ هـ صدر
قانون يحرم بيع الملوخيا ^(٣) ، لأنه أضر عن معاوية أنه كان يحبها ، وينهى أيضاً عن أكل
الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ؛ وعن المتوكلية وهي النبات المنسوب إلى المتوكل الخليفة
العباسي . وزاد ابن زولاق أن الحاكم نهى أيضاً عن أكل القرع ، وطلب إلى الفلاحين
أن يسطوه وثائق كتابية بدم زرع الملوخيا والقرع .

ولم يكن لهذا التحسين من سبب سوى أن أبا بكر وعائشة كان يحبان أكلهما . وقبض
على جماعة كانوا يأكلون الملوخيا ، وضربوا بالسياط وطيف بهم في الشوارع ثم ضربت
أعناقهم ^(٤) . يتبين لك ذلك من عبارة ابن زولاق التي نقلها فيما يلي :

« ومنع من أكل الملوخيا وأكل القرع ، وكُتب قسماً على الفلاحين أنهم لا يزدهون

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ ، ٧٥٢ .

(٢) المصدر قسم ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) هذه الأشياء وغيرها مما ينسب إلى الخلفاء الفاطميين وأشياهم من سبب الصعابة والظن قيم ،
مبالغ فيها ، ويعد تصديق كثير منها ، لاسيما ألوان الطعام التي ربما لم تكن موجودة في عصرهم . ونحن
نرويها هنا على ملأها بغير وثائق ، بصحتها .

(٤) ابن زولاق : المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٨١٧ ، ورقة ٥٢ أ .

تناول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) الكلام على تحريم بيع هذه الخضراوات في حق من الإجماع .

ذلك ولا يبيعه ، لأن أبا بكر الصديق كان يكثر من أكل ذلك ، وأن عائشة كانت تأكل ذلك أيضا . ثم إنه رأى جماعة يأكلون الملوخيا ؛ فقبض عليهم وضربهم بسياط ، وطاق بهم البلد وأمر بضرب رقابهم .

وفي هذه السنة نهى الحاكم من بيع القُقَاع (وهو نوع من الخمر) وشدد في ذلك ، لأن عليا كان يكرهه . كذلك نهى عن أكل الدِّلِينَس (وهو نوع من السمك الصغير لا قشر له) لسبب لم يذكره لنا المؤرخون ، وصدرت الأوامر في منع بيع كافة أنواع السمك القى لا قشر له .

وقد دعا الحاكم السالكين إلى اجتماع أخذ فيه عليهم اليهود ألا يبيعوا هذا النوع من السمك ، ومن أبي إطاعة هذه الأوامر كان جزاؤه القتل ^(١) . وهذا التشدد يحملنا على الظن بأنه لا بد أن يكون هذا المنع راجعا إلى أحد أمرين جرت بهما عادة الشيعة : إما لأن أحد الصلابة كان يكثر من أكل هذا السمك ، وإما لأن عليا أو بعض أهل بيته كانوا يكرهون أكله . وإما أن هذه النزعة يهودية ، لأن التوراة نصت على تحريم السمك القى لا قشر له (أى لا قشر له) . ولا يبعد أن يكون أحد اليهود المقرين إلى الحاكم أفضى إليه بذلك فلقى بذهنه .

وفي سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب ^(٢) ، فخلت منها الطرقات ؛ كما حرم بيع « القنقل » (الجبة) والقرمز والسمك القى لا قصوص له ^(٣) ؛ ونهى أيضا عن ذبح السلم من البقر إلا في عيد الأضحي ^(٤) . وكان العقاب الشديد نصيب من يعصى هذه القوانين ؛ فكان من يتهم ببيع شيء من الممنوع بهما يُشَهَّرُ ويضرب ثم يقتل ^(٥) .

وفي سنة ٤٠٢ منع الحاكم بيع الزبيب قليلا أو كثيرا ؛ ونهى التجار من أن

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) ذكر يحيى بن سيد (ص ١٨٨) أن كلاب الصيد كانت مستنانة .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) لم يكن هذا الأمر القى أصدره الحاكم شامحا بالبقر أية صلة بالرسوم للشعبة . وقد ذكر لنا أبو الحسن (ج ٢ رقم ٢ ص ١٣٤) أن الخليفة الظاهر أصدر في سنة ٤١٧ أمرا . يقضى . أيضا . ببيع البقر الصالح للذبح إلا في عيد الأضحي ؛ وأرسلت بذلك الكتب بقررت . باسم الخليفة .

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

يستوردوه ، كما جمع كيات كبيرة منه وأحرقها . ومن نققات إتلاف هذه الكيات البائلة خمسمائة دينار — على ما يحدثنا به ابن خلكان — يمكننا أن نتصور مقدار ما أحرق من الزبيب . وفي هذه السنة أيضاً منع بيع العنب ، وأرسل رساله إلى الجزيرة^(١) قعطوها ما بها من الكروم والقوتها للثيران فداستها .

كذلك أرسل الحاكم إلى حكام الولايات بأن ينحوا هذا السبيل ، كما منع بعد ذلك أن يشتري أحد أكثر من أربعة أرتال من العنب دفعة واحدة ، خشية أن يتخذ منه نبيذا . وشمل هذا المنع أيضاً السل ، حتى لقد جمع خسة آلاف جرة ، وذلك ما كان بالخازن ؛ وألقى بها في النيل حيث أهرق ما بها ، كما أهرقت أيضاً إحدى وخمسون زجاجة من سسل النحل . وتبع ذلك أن حرّم بيع الرطب ؛ فقد جمعت منه مقادير كبيرة ثم أهرقت^(٢) .

٧ — المرأة في العصر الفاطمي

وكان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية ، فكان يتدخلن في شئون الدولة ؛ واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ . وذكر المقرئ^(٣) أن بنتين للمعز تركت إحداهما واسمها رشيدة ، ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١٧٥٠٠٠٠٠٠ دينار أي ١٧ مليون جنيه) ، وترك الأخرى ، واسمها عبدة ، كثيراً من خزان الحلى والمصناديق التي تحتوى على خسة أكياس من الزمرد ، وثلاثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر .

وفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تفرید زوجة المعز ، أموالاً جمة على بناء مسجد بها بالقرافة ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة كما تقدم .

وقد تزوج الخليفة الفاطمي العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب المالكاني

(١) المراد بها هنا جزيرة الروضة .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ . المقرئ خط ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) خط ج ١ ص ٤١٥ .

— مذهب كنيسة القسطنطينية — فولدت له ابنة الحاكم وابنته ست الملك . وكان لزواج العزيز هذه نفوذ كبير في الدولة ، حتى إن الخليفة عين أخويها بطريقين ملكيين : أحدهما في الإسكندرية والآخر في بيت المقدس ^(١) .

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل ، واشتهرت بالكرم والحلم ، وعرفت بالتسامح الديني ، وكثيراً ما كانت تمطف على النصارى . وكانت في السادسة والعشرين من عمرها حين توفي أبوها ، وكانت مع أخيها الحاكم مسولة للسلطة ، فأثار ذلك حفيظتها ، ولا سيما عندما انتقد مسلكها ، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة .

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، منها ثمانية جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من اليافوت وزن ثمانية مثاقيل . وكانت محصنات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار ^(٢) .

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر ، وكانت سودانية ، على ما تقدم . واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين ، الذين كثر عددهم وقوى بطشهم في عهد المستنصر ، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً .

ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع ، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وقد عولت النساء في عهد الخليفة الحاكم معاملة تنطوي على القسوة والتمف . ففي سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم قانوناً منع فيه للنساء من الظهور سافرات ^(٣) ، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرون للناس في حالة منافية الأدب والحشمة ؛ كما حرم أيضاً أن يدخل أحد مطلقاً الحمامات بدون إزار ^(٤) .

(١) يحيى بن سعيد . سلة تاريخ بطبري ج ٢ ص ١٤٤ ١٤٥

(٢) المروري : مخطوط ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٢٠٨ .

(٤) أنعم بزي مخطوط ج ٢ ص ٢٨٥ .

وقد ذكر الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٤٠٤ أن الحاكم منع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور في أعلاها ، ومن دخول الحمامات العامة ؛ كما منع أيضا أن يصنع صانعو الأحذية أحذية خاصة بهن . وزاد على ذلك أنه كان إذا توفيت امرأة ، ذهب أحد أقاربها إلى قاضي القضاة^(١) وأعلن إليه نبأ وفاتها ، وطلب إليه أن يميز لإحدى النساء أن تذهب معه لتتولى أمر غسلها وما إليه . وكان قاضي القضاة طبقاً للأمر المتبعة يحيل المسألة إلى صاحب المعونة ، وهذا يختار إحدى النساء لقضاء هذه المهمة ، ويتدب معها اثنين يحرسانها ، حتى تفرغ مما انتدبت له وتعود إلى منزلها^(٢) . ويتضح ذلك مما جاء في عبارة الذهبي التي نقلها للقارئ بنصها : « فإذا ماتت امرأة جاء وليها إلى قاضي القضاة بتمس غاسلة ، فيكتب إلى صاحب المعونة ، فيرسل غاسلة مع اثنين من عنده ، ثم تماد إلى منزلها » .

على أنه من الحق أن نقول إن كثيراً من التبعة يقع على عاتق النساء أنفسهن لما نالهن من تضيق الحرية . ذلك أنهن كن يكثرن الخروج ليلاً وينفسن في حاة الملاهي والذائل . ولهذا يجدنا ابن خلكان^(٣) أن النساء قَبَعْنَ في بيوتهن سبع سنوات ، حتى ارتقى عرش الخلافة ابن الحاكم ، وهو الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ)^(٤) .

٨ - الأعياد والمواسم

كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ، ويوم عيد الفطر والأضحى ، أيام دينية أخرى . وكان من اللازم ، ليكون لهذه الاحتفالات أثرها العظيم في النفوس ، أن تقام أسبحة في قصور متعددة ، وأن توزع الإنعامات بمقادير واقية . وفيما يأتي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها القاطميون . وهذه الأعياد هي :

١ - رأس السنة ٢ - أول العام ٣ - يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين)

(١) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن وفاة أي امرأة إنما كان ينبأ بها المحاسب لا قاضي القضاة .

(٢) النعبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١١٤٧ .

(٣) ج ٢ ص ١٦٦

(٤) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن النساء ظفن على هذه الحالة إلى سنة ٤٠٩ ، أي قبل

وفاة الحاكم بستين .

٤ — مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ٥ — مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٦ — مولد الحسن عليه السلام ٧ — مولد الحسين عليه السلام ٨ — مولد فاطمة عليها السلام ٩ — مولد الخليفة الحاضر ١٠ — ليلة أول رجب ١١ — ليلة نصف رجب ١٢ — ليلة أول شعبان ١٣ — ليلة نصف شعبان^(١) ١٤ — موسم ليلة رمضان ١٥ — غرة رمضان ١٦ — جبر الخليج ١٧ — يوم التوروز ١٨ — يوم النطاس ١٩ — يوم الميلاد ٢٠ — عيد النصر^(٢) ٢١ — حيس المهدي^(٣) .

كان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة ، لكنهم عتوا نهاية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام ؛ وهي موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدي الفطر والأضحي ، وجبر الخليج^(٤) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، كما يقول القلقشندي أيضاً ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرم ؛ ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء^(٥) .

(١) كانت هذه الليال الأربع الأشيرة تسمى ليال الوقود .

(٢) كان للاحتفال بهذا العيد في ١٦ محرم علاقة بالخليفة الحافظ ، إذ هو اليوم الذي أطلق فيه مراسله . وذلك أن أبا علي أحمد بن الفضل بن أمير الجيوش بدر الجمال كان قد حيس هذا الخليفة وجعله في منزلة من الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٣) حيس المهدي هو الحيس الذي كان يحتفل فيه النصرانيون بإنجيلهم ؛ وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني . وكان الاحتفال بهذا العيد يتميز بالهدايا التي يتناولها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين . ولفظ " عهد " استبدلت خطأ بلفظ حيس ، وسماه أهل الشام حيس الأرض أو حيس البيض ؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقرئى ، غلط ج ١ ص ٤٩٥) . وقد سمي هذا العيد بهذا الاسم لأن المسيح عليه السلام أخذ على وتلاميذه العيد بالألأ يضرفوا . فكانوا يملئون إناء من ماء يزعمون (يرتلون) عليه ، ثم يفسلون به أرجلهم لتبرك كما فعل المسيح بتلاميذه في مثل هذا اليوم . وكان الفاطميون يضربون ذنائب خاصة تسمى غروية يوزعونها على كبار رجال الدولة كما كانوا يفعلون في أول العام الهجري . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٧ ، المقرئى غلط ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٩٥ . انظر ماجد : نظم الفاطميين ودسومهم في مصر ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢١ .

أول العام الهجري :

ويقول القرظي إنه كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يقيموا مواكب يركبون فيها في أيام السبت والثلاثاء سائر لشهر ، كانوا يركبون في الاحتفال بأول المحرم . وفي هذه الأيام كان يصحب الخليفة وزيره ، وحوله حرسه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الركاب ؛ فير للوكب كذلك بالطرق الرئيسية حتى الجامع العتيق . فإذا وصل إليه ، وجد الخطيب في انتظاره على مصطبة في المسجد ، ويده مصحف ينسب خطه إلى علي بن أبي طالب . فإذا قرب الخليفة من الخطيب ، تناول المصحف منه قبله مرات عديدة ، وأمر صاحب الكيس (المشتل على المال المتاد توزيعه في هذه المناسبة) أن يعطيه ثلاثين دينارا ؛ فيأخذ الخطيب والشرف على الجامع نصفها ، والباقي يقتسمه المؤذنون . فإذا ما انتهت الصلاة ، استأنف الخليفة السهر إلى دار الملك ، وفي إياها يعطى رئيس كل مسجد مائة دينار^(١) .

وفي غرة المحرم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) أقام الخليفة المزم صلاة العيد في مصلى القاهرة^(٢) ؛ وقرأ في الركعة الأولى القاعة ، ثم سورة الناشية (رقم ٨٨) ، ثم كبر . وقد أطال الركوع والسجود ، وسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة^(٣) ، وذكر لنا

(١) القرظي : مخطوط ١ ص ٤٨٤ .

(٢) عين القرظي (ج ١ ص ٤٥١) و (ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤) . ووضع هذا المصل فقال إنه خارج باب النصر ، وأن جوهر أنشأه في رمضان سنة ٣٥٨ لصلاة العيد . وقال بعد ذلك : إن المزم وكب يوم عيد الفطر لصلاة العيد في مصلى القاهرة (الذي هو مصلى العيد أيضاً) .

(٣) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع : " سبحان رب العظم " مرة أو أكثر ، كما يقال في السجود : " سبحان رب الأعلى " مرة أو أكثر كذلك . وأما ما ذكره القرظي من ترديد عبارة " سبحان الله " عدة ، ووصفه بأن هذا تسبيح فهو خطأ ، إذ هذا هو التسبيح وأول ما عرف عن التسبيح أن موسى بن عمران هو أول من اعتاده ؛ وسار عليه الناس حتى ظهرت المسيحية . وكانوا يسبحون في الهزيع الأخير من الليل ، فيظنمون الله بكلام منزل بالوحى حتى مطلع الفجر ، ويعزفون عند ذلك بالآلات الموسيقية كالعود والدف والمزمار ونحوها . أما في الإسلام فكان يده استماع التسبيح في مصر في ولاية سلمة بن عكده (٤٧ - ٦٢ هـ) ، فقد بنى سلسلة هذا مساراً في جامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات التواقيس ذات ليلة ، فشكا إلى حريف المؤذنين ، فأشار عليه أن يأمر بمنع ضرب التافوس إذا أذن من نصف الليل حتى مطلع الفجر . فلما ولي أحمد بن طولون مصر ، أفر د ينزله حيرة أقام فيها اثني عشر مكبراً ؛ فكانوا يكبرون ويسبحون ، ويقرءون القرآن ويؤذنون . وكان يقوم بذلك في كل ليلة أربعة منهم ، يحملون الليل ثوباً بينهم ، وأصدق

لقرى نثلا من ابن زولاى القى أذى صلاة الجمعة خلف الخليفة ذلك اليوم أنه سجع نيقاً وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وسجدة ، وكان القاضى محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير . وفى الركعة الثانية قرأ الخليفة للفاعحة ثم سورة الضحى ^(١) ؛ وكرر ما قرأه فى الركعة الأولى ؛ ثم جهر بالبسلة ، وقد حذا فى ذلك حذو على بن أبى طالب . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ، وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » . وكان فى أعلى المنبر وسادة من ديباج مثقل أهدت للجوس الخليفة بين الخطبتين . وكان معه على المنبر جوهر وابن عمار من رؤساء كتامة ، وشقيق صاحب المظلة .

بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر ، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما ، فبدأها بالبسلة جهرا ، وأعقبها بالتكبير سرهين . وقد ألقى الخطبة بمخضوع وخشوع ؛ وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من خطبته وأتم صلاته ، انصرف فى عساكره وخلفه وأولاده الأربعة بالجواشن والخطوذ ، عمتين الخليل ، وم فى أحسن زى ، يحف بهم فيلان . فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول ، فددت لم اللوائد فأكلوا ما يشتهون ^(٢) .

وفى عهد الفاطميين أدخل على الدهوة الشيعية مظاهر جديدة لم تكن معروفة فى مصر من قبل ؛ وكان أول ما عرف ذلك فى الجامع الأزهر . ذلك أنه لما مات بعض بنى عم المزمه صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعا ، وكبر على ميت آخر خسا فقط ، مقتضيا فى ذلك أثر على بن أبى طالب القى كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته ؛ وهذا بخلاف مذهب السنة ، إذ يكبرون على الميت أربعا فقط ^(٣) يضاف إلى ذلك ما كان من احتفال للمزمه بعيد التذير أول مرة فى مصر .

— على هؤلاء الأرزاق والطايا . ولما خلف ابن طولون أبته نحاريه ٢٧٠-٢٨٢ هـ (٨٨٣-٨٩٥ م) ، أقر المكبرين على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأجرى عليهم أرزاقهم . عرف الأذان بعد ذلك بالتسبيح ، ويبنى على ذلك إلى أن آلت مصر إلى حكم الفاطميين ، فعدا ما لوفأ عند الشيعيين . المقرئى خطط (ج ٢ ص ٢٧٢-٢٧٣) ، بتصرف وامتصار .

(١) القرآن الكريم ، سورة ٩٣

(٢) المقرئى : أتماظ الختفا ص ٩٢

(٣) المقرئى - خطط ج ٢ ص ٢٥٢

شهر رمضان :

كذلك عن الفاطميون بالاحتفال بشهر رمضان . وثمة ظاهرة غريبة نلاحظها عند الفاطميين ، وهي أن صيام شهر رمضان عند الشيعة ينتهى بمجرد ظهور القمر ، سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوما أم ثلاثين ، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته (هلال رمضان) وافطروا لرؤيته (هلال شوال) ؛ فإن غمَّ عليكم (يعنى إذا لم يكن من الممكن رؤية الهلال فى نهاية اليوم التاسع والعشرين من شعبان بسبب تكاثف الضباب فى السماء) ، فأكلوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

ولكن جوهر المصطفى لم يرتض السيد وفق هذه الطريقة التى لا تتفق مع أصول المذهب الشيعى . فى سنة ٣٥٨ هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال . فاعترض أهل القسطنطينة على ما فعل ، وصاموا اليوم الثلاثين حسب أصول المذهب السنى ، ثم جعلوا العيد بعد ذلك اليوم ، أى بعد رؤية الهلال ، واتبعوا فى ذلك قاضيهم السنى الذى تلمس الهلال جريا على هذه العادة فوق سطح الجامع العتيق ، وأعلن انقضاء شهر الصوم . ولما بلغ ذلك جوهر أنكر على القاضى ما فعل وتهده^(١) .

غدير خم :

وإن عيد الغدير الذى احتفل به الميز ولا يزال الشيعة يحتفلون به إلى اليوم يؤيد النظرية التى يقول أصحابها : إن على بن أبى طالب ولى عهد الرسول دون سواء ، وإنه كان يجب أن يخلفه فى زعامة المسلمين . ومن ثم يرى الشيعة أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وبني أمية ثم بني العباس اغتصبوا حق الخلافة من على وأبنائه^(٢) .

(١) الكدى ص ٥٨٤ . المقرئى . انماط الخفا ص ٧٦ .

(٢) وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « على منى ينزلة هارون من موسى ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واحدل من خذله » . ويرى الشيعة هذا الحديث عن النبي ، ويقولون إنه قاله فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ، أى العام الذى وردع فيه الشى مكة وحج فيه لأخر مرة . فنزل غدير خم (ويقع بين مكة =

وعمل المزم على جذب أنصار الخلفاء الراشدين والأمويين ثم المباسين إلى الدعوة القاطية ، وأنه استطاع التأثير فيهم . وقد عني المزم بالاحتفال بعيد النذير عناية فائقة ، وهذا خلفاؤه حذوه في هذه السبل ، فأصبح الاحتفال بيوم ١٨ ذى الحجة من كل سنة من أم الاحتفالات الدينية ، التي كانت تهز لها جوانب القاهرة فرحا وسرورا ، ويقف منها السنيون موقف المتفرجين المبهجين ، لأنها كانت من عوامل تسليتهم . ويمد عيد النذير ، كما تقدم ، من أم أعياد القاطيين ، فيبقى الإسماعيلية بعضهم بعضا ، ويتحرون فيه أكثر مما يتحرون في عيد الأضحى ، لأنهم يفضلون عيد النذير عليه .

يقول ابن زولاق^(١) : « في يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سنة اثنتين وثلثمائة ، وهو عيد النذير ، تجمع خلق من أهل مصر والمقاربة ومن تبعهم ، للدعاء ، لأنه يوم عيد ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه واستخلفه ، فأعجب المزم ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر » . ويقول المسيبي^(٢) في يوم النذير هذا : « اجتمع الناس بمجامع القاهرة (الأزهر) ، والقراء والفقهاء والمنشدون ، فكان جما عظيما أقاموا إلى الظهر ، ثم خرجوا إلى القصر ، فخرجت إليهم الجائزة . وبذلك كان اهتمام المزم بهذا اليوم كبيرا ، حتى إنه كان يخرج إلى قنطرة

المدينة) ، وأتى على بن أبي طالب . ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدیر خم عيداً يعتنى به الشيعة عناية عظيمة ويحتفلون به .

شرف الدين الهلوي ، مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرق . رقم ٣٨٦٨ ، ورقة ٢٣١ أ وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٦) والمقريزي ، خط (ج ١ ص ٣٨٨)

هذا ما رواه بعض المؤرخين . ولكن لا أشك في أن مسألة غدیر خم من محرمات الشيعة ، يريدون بها إثبات أمر ، وهو أن علياً ولي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبنون على ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان غاصبون للخلافة . ولو أن هذه العبارة كانت صحيحة لاحتج بها علي ، واستشهد الصحابة على ذلك ، ولما طلبوا الأنصار وهم شهود ليلة النذير ، وفي ذلك يقول المرمي :

فمستأق وقائي للمبائتر كلها وأمسكت لما عظموا الفار أوحا

وقد ذكر المقريزي (خط ج ١ ص ٣٨٨) أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، فاتخذة الشيعة عيداً يحتفلون به كل عام .

(١) فخلا عن المقريزي خط : ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٨ .

المقبس ، ويعرض الأسطول ويؤذنه^(١) ويباركه ويدعوه^(٢) .

وكان الفاطميون يحتفلون بركوب الخليفة وكبار رجال الدولة إلى الإيوان الكبير بالقصر الخلاق حيث يسبقه الوزير . فإذا وصل موكب الخليفة ، أسرع الوزير فأخذ مكانه في الموكب الذي يصل إلى الإيوان فيجلس الخليفة في الشباك ، ويتجه القاضي إلى كرسى الدعوة ، ويشبه المنبر فيه تسع درجات ، فيأخذ مجلسه وأمامه للشهود والأمراء والأجناد والمتشيعون وغيرهم . كذلك يجلس الوزير وحاشيته على مقربة من كرسى الدعوة . ثم يتلو قاضي القضاة قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعل بن أبي طالب يوم غد يرسم . فإذا فرغ قاضي القضاة نزل عن الكرسي وصلى بال حاضرين ركعتين . ثم ينهض الوزير ويسير إلى الشباك ليقدّم فروض الزلاء من جديد للخليفة ، ثم ينفض الحاضرون بعد تبادل التهانى . ثم يتوجه الوزير لفتح الأضاحى على النحو الذي كان متبعاً في عيد النحر . ثم يقام سباط خم كساط أول عيدى الفطر والأضحى ، وتوزع الأطعمة والكسبى ، وتعمل الدولة على تزويج الأيتام^(٣) .

يوم عاشوراء :

يقع يوم عاشوراء في العاشر من شهر المحرم . وهو أول شهر مبارك ، يحله العرب قبل الإسلام ويسته ، فقد روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أيها الناس : سارعوا إلى الخيرات في هذا اليوم ، فإنه يوم عظيم مبارك ، قد بارك الله فيه على آدم » .

ومن مظاهر احترام المسلمين لهذا اليوم أنهم كانوا يصومونه ، فقد روى عن الرسول أنه لما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود يصومون هذا اليوم ، فسألم عنه ، فأخبروه أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ، ونجى موسى ومن معه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « نحن أحق بموسى منهم » ، فصام وأمر الصحابة بصومه^(٤) .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول الكريم ، فكانوا يحلون هذا اليوم

(١) أى يقرأ المحدثين ، سورة ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وله أحد شرف : المزمعين الله الفاطمى من ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) المقريزى : غيلج ١ من ٣٨٩ - ٣٩٠ .

انظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ٢ (القاهرة ١٩٥٥) من ١٢٢ - ١٢٨ .

(٤) البيهقي : الآثار الباقية من ٢٣٠ .

ويظّمونه ويصومون فيه ، حتى كان عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان واستشهد الحسين ابن عليّ في موقعة كربلاء ، في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة . فتركت هذه المناسبة في نفوس المسلمين آثاراً مختلفة : فالأمويون السنيون اتخذوا من هذا اليوم عيداً يتجهجون فيه ، فيلبسون الجلبيد من الثياب ويتزينون ، ويكتملون ، ويقيّمون الولائم ، ويقدمون الحلوى ، فيثير ذلك الفرح والسرور في نفوس أنصارهم . أما الشيعة من أنصار عليّ بن أبي طالب وأولاده ، فإنهم اتخذوا من هذا اليوم مأتماً ، يبكّون فيه الحسين ، ويظهرون أشد مظاهر الحزن لقتله .

فلكلّ ظلّ الشيعيون يذكرون هذا اليوم ، فيبكي فيه الرجال والنساء ، وينشد النساء من أهل البيت الشعر ، ناديات باقيات . من ذلك قول ابنة عقيل بن أبي طالب .

ماذا تقولون إنّ قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأم ؟
بقرى وبأهلي عند مقتدى نصبت أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوى رحى^(١)

وقد ظلّ الشيعيون يحضنون يذكرون هذا اليوم في عهد الأمويين والعباسيين ، ويلقبون ألوان الاضطهاد ، حتى قامت الدولة الفاطمية الشيعية في المغرب ومصر ، واستولى بنو بويه الشيعيون على السلطة في بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية ، فعدا يوم عاشوراء عيداً من أعياد الفاطميين والبويهيين الذين أرضوا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعيين . فقد أسمر من الدولة أحد بن بويه الناس بتعطيل الأسواق في يوم عاشوراء من سنة ٣٥٢ هـ ، ومنع الطباخين من طهي الطعام ، ونصبت القباب في الأسواق ، وعُلّق عليها السواد ، وخرج النساء مرسلات الشmour ، وهن يلبطن في الطرقات ، وأقيمت للآثم على الحسين في الدور والمجاد . وكان هذا أول يوم نيح عليه ببغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

ولا يزال للشيعيون في البلاد الإسلامية ، وخاصة في العراق وفارس ، إلى اليوم يحضنون بهذه الذكرى ، فيبكون الحسين ، ويلبسون السواد ، ويقف دولاّب الأحمال حداداً عليه .

وقد جبل الفاطميون يوم عاشوراء عيداً من أعياد الدولة ، تحتفل به الحكومة والشعب جميعاً احتفالاً يتفق وماله من مكانة في نفوس المسلمين ، فتتصلب الأسواق ، ويخرج النشدون ، ويسير الناس إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ، ويخرجون إلى الطرقات بعد الصلاة وهم ينوحون ويبكون . وقد روى القريري^(١) عن ابن الطوير أنه إذا حل اليوم المأثر من شهر الحرم ، احتجب الخليفة الفاطمي عن الناس ؛ فإذا علا النهار ، ركب قاضي القضاة والشهود ، وقد لبسوا ملابس الحداد ، ثم يسرون إلى المشهد الحسيني ، فيتخذون مجلسهم إلى جانب القراء حتى يصل الوزير ، فيجلس في صدر المكان ، والقاضي عن يمينه ، والداعي عن شماله . ثم يتناوب القراء تلاوة القرآن ، وينشد الشعراء القصائد في رثاء أهل بيت النبي . ثم ينصرف الوزير إلى داره ، ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معها باب الذهب ، وهو أحد أبواب القصر الفاطمي ، فيجدون الدهاليز قد قرشت بالحصر بدل البسط ، وصاحب الباب جالساً هناك ، فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه ، ثم يجلس سائر الناس ، فيقرأ القراء وينشد النشدون .

ومن مظاهر الاحتفال بيوم عاشوراء ، ذلك السباط الذي أطلق عليه «سباط الحزن» . وكان يُقدَّم فيه خبز الشمير والقدس والملحات والمخللات والأجبان والألبان وعسل النحل . وكان الخليفة يحضر هذا السباط ، ويجلس على كرسى من الجريد بنير مخدة ، مثلما هو وجميع رجال حاشيته ، فيسلم عليه الوزير والأسماء والقاضي والداعي والأشراف ، وهم مُلثَّمون حفاة . وكان الخليفة يبدي أبلغ مظاهر الحزن والأسى في ذلك اليوم .

وإذا انتهى السباط انصرف الناس في ذلك الزى القدي ظهروا فيه ، وطاف النواح بالقاهرة . وأخلق للباعة حوانيتهم إلى ما بعد صلاة العصر . وكان للفاطميون ينحرون في يوم عاشوراء الإبل والبقر والضف عند مشهد الحسين ، الذي يجله المسلمون عامة والشيعة خاصة إلى اليوم ، ويزعون لحومها على الفقراء والمساكين^(٢) .

وقد قيل إن الحسين بن علي لما قتل ، طيف برأسه في الكوفة ، ثم أرسل إلى الخليفة

(١) خط ج ١ ص ٤٣١ .

(٢) القريري : خط ج ١ ص ٤٣١ .

الأمرى يزيد بن معاوية بدمشق ، ثم رُد الرأس إلى الجثة ، ودفنا بدمشق ، ثم نقل رأسه في عهد الفاطميين إلى عسقلان من أمحال فلسطين ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها في بلاد الشام . فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجبالى الوزارة ، أخرج رأس الحسين ، وعطّره ، وحمله على صدره ، وسعى به ماشيا إلى أن أحله في مقره القدى هو فيه ، حيث نجد للشهد الحقيقى^(١) .

وقد ذكر القريرى^(٢) أنه في العاشر من شهر المحرم سنة ٥٣٣ هـ — وهو ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بكر بلاء — انصرف جماعة من المصريين المنشيعين ، ومعهم فريق من فرسان المناربة ورجالهم من مشهدين أم كلثوم (بنت محمد بن جعفر الصادق) ونفيسة^(٣) ، وساروا في موكبهم يتوحدون ويكفون على الحسين ؛ وحملوا الناس على مشاركتهم في الحزن حملا ؛ فكسروا أواني السفائين في الأسواق ، وسبوا من ظهر بنير مظاهر الحزن والأسى في هذا اليوم . فأغلقت الدكاكين وتمطلت حركة الأسواق ، وكثرت القتل بين السنين وللشيعين . فخرج ابن عمار — وكان من زعماء المناربة — على جناح السرعة ، وتم على يديه اغتيال الفريقين بعضهما عن بعض .

وكانت هذه الاضطرابات تقوم في مصر عند الاحتفال بهذا العيد ، حتى قبل أن يتم فتح هذه البلاد على يد الفاطميين . ففي عهد الدولة الإخشيدية ، كان يتجمع السودانيون الذين أتى بهم كافور — وقد عرفوا بالتعصب ضد مذهب الشيعة — في الطرقات ، وكانوا يسألون كل من يمر عليهم : من جالك ؟ فإن قال معاوية ، أكرموه وسمحو له بالمسير ؛ وإن سكت لقي المكروه ، وانتزعت ثيابه وأخذ ماله . ولقد حاول كافور أن يحول دون وقوع هذا البدوان ، فكان يمين في هذا اليوم حراسا على أبواب المدينة للتؤدية إلى البصمراء ، فيمنعون الناس من الخروج^(٤) .

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٧ .

(٢) انماط الجناح ص ٩٦ .

(٣) هي نفيسة بنت الحسن بن يزيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . دخلت مصر مع زوجها إسحاق ابن جعفر الصادق ؛ وكانت صالحة نقية ، سبغ منها الشافعى الحديث . ولما مات أدخلت إليها جنازته فصلى عليه ؛ وتوفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين .

(٤) انماط الجناح ص ٩٧ .

وقد تم عزل المغاربة من أهل مصر بإنشاء الأحياء الخاصة بهم ؛ فخطرت عليهم الكفة مع الصريين والبييت في المدينة . وكان ينادى كل عشية ، ألا يبيتن في المدينة أحد من المغاربة . ولم يُسمع بعد موت المزم بشيء من أحوال العنف الكثيرة التي كنا نسمع بها من قبل ، اللهم إلا عند إقامة بعض الأعياد الدينية ، حيث كانت تتجدد الشحناء بين السنين والشيخين .

وفي عهد السمل (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) ، الذي سار على نهج أبيه في التمسب لشية ، زاد النياح والصياح والبكاء والمويل في اليوم الماشر من المحرم ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين ، وظهر ذلك بصورة لم تعهد من قبل . ولكنه كان مع الأفضل بن بدر الجاهي مسلوباً للسلطة والإرادة كما كان المستنصر مع أبيه بدر . وبعد سنة ٤٩٧ هـ أصبح النفوذ والسلطان المطلق في يد الوزراء . وكان التحمس للمذهب الشيعي ونصرته ، أو إضافته ومناهضته ، تايها لرغبة الوزراء وميولهم .

ولما دالت الدولة الفاطمية الشيعية وخلفتها الدولة الأيوبية السنية ، اتخذ سلاطينها من عاشوراء يوم بهجة وسرور . فأتخذوا الأواني الجديدة ، وأكثروا من الأظمة التي زخرت بها مواثيهم ، ومنها ذلك اللون من الحلى المعروف بالعاشوراء الذي لا يزال يصنع في هذه القكري .

كذلك كانوا يكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على السنة التي سنها الحاج بن يوسف التقني لأهل الشام في عهد عبد الملك بن مروان . وكانوا يثيرون بذلك حق الشيخين وحقيقتهم ؛ فقد عبر أبو الحسين الجزار الشاعر الذي عاش في عصر الأيوبيين عن فرحه بهذا اليوم في هذه الأبيات التي بثت بها إلى الشريف العلوي شهاب الدين في ليلة عاشوراء يرمض فيها بالأشراف ، ويسخر بما يبدونه من مظاهر الحزن في ذلك اليوم فقال :

قُلْ لشهاب الدين ذي الفضل الندي والسيد ابن السيد ابن السيد
أقسم بالفرد السمل الصمد إن لم يبادر لنجاز موعدي
لأحضرن للنساء في غد مكحل العينين مخضوب اليد
وقد احتفظ يوم عاشوراء بمنزلة من نفوس المسلمين على مر الدهور ، فلا زلنا على

اختلاف مذاهبنا نُزله من نفوسنا منزلة رفيعة من الاحترام والتبجيل ، فيصوم بعض المسلمين ، ويتخذ الشيعيون يوماً من أيام الحزن ، يذكرون فيه ذلك اليوم الذي استشهد فيه الحسين ابن بنت الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . ولا يزال الشيعيون يزهدون في الطيب من الطعام في يوم عاشوراء ، على حين يكثر النيون منه فيصنعون العاشوراء وغيرها ، متأثرين في ذلك بتلك التقاليد التي ورثوها عن أسلافهم .

باليال الوقود^(١) :

أما ليال الوقود الأربع ، فهي اليال التي تسبق أول ومتتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعاً للتعالم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان ؛ ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بـرمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر . وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بها بأبهة عظيمة . وكانت للساجد في كل من هذه المناسبات تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس . وكان قاضي القضاة يتقدم الموكب نائباً عن الخليفة ؛ فكان يظهر مغطياً جواداً ، يحيط به ثلاثة من ممثلي الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ، ومؤذون للمساجد المختلفة يمدحون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يحيطون الجياد أيضاً ، وبأيديهم الشموع المضاءة ، ويحفون بقاضي القضاة كحرس له . وقد ذكر المقرئ عن ابن الطوير أن قاضي القضاة كان مخصصاً له خمسون شمة في كل يوم من هذه الأيام ، وكانت كل شمة تزن نحو ستة عشر رطلاً ، غير الشموع التي كانت تحيط بالشهود ، وكان يعطى كل منهم عدداً من الشموع يتراوح بين شمة وثلاث حسب درجته . وكانت للمساجد المختلفة توزع عليها كمية كبيرة من الزيت لإضاءتها في تلك اليال ؛ فكان ما يخص الجامع العتيق لكل ليلة أحد عشر قنطاراً . هذا عدا ما كان يوزع من الهبات والإحسانات المتتادة والحلوى ونحوها^(٢) .

(١) يرجع أصل الاحتفال بليال الوقود إلى عهد عمر بن الخطاب الذي كان يطلب إلى أهل مكة أن يوقد النار ليلة غرة المحرم ليعتدى الحجاج . وقد استمرت الحال على ذلك حتى ولاية عبد الله بن داود ، فأمر أهل مكة أن يوقدوا النار في ليلة أول رجب . انظر المقرئ : خطط ج ١ ص ٢٦٦ . ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٢٠ هامش رقم (١) .
(٢) خطط ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

وكانت الجموع النفرية تتبع الموكب الذى يبدأ من دار قاضى القضاة ، ويسير مختزلاً الطرق الكبيرة فى القاهرة حتى يصل إلى باب الزمرد ، وهناك يكون الخليفة جالساً فى منظرته التى تسطع فيها الأنوار لا ينتظاره . وهنا يشتد زحام هذه الجموع فى الفضاء حول المنطرة ، والكل يتربص الفرصة كي يرى وجه الخليفة^(١) .

وكان خطباء مساجد الأزهر والحاكم والأقرب يخطبون بين يدي الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم . فإذا ما انتهى الخطباء ، فتحت نوافذ المنطرة ، فيظهر وجه الخليفة وحوله للشموع الساطعة الضوء ، ثم يحى أحد الأساتذة المحفكين المميزين هذه الجموع المتوافدة ، ويلوح لهم بكنه علامة للانصراف ويقول : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . وبعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ؛ وهناك يترجل قاضى القضاة والشهود ويمشون بين يدي الوزير ، ثم تلقى الخطب تكميلاً له^(٢) . بعد هذا يعود الموكب ماراً بالمساجد المضاءة فى طريقه إلى مدينة مصر .

وكانت الحكومة تُمنى عناية خاصة بتنظيم هذه الاحتفالات ، فكان حكام القاهرة ومصريون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام ، وكان على واليها أن يصحبها قاضى القضاة فى موكبه ويطلقاً أمره فيما يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار ، وتكثر فيها الحلوى سداً لحاجة المشتريين^(٣) .

النوروز :

ومن الأعياد القديمة التى احتفل بها الفاطميون النوروز . اتخذ الفرس لإحياء للعام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ؛ ويقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس فى برج الحمل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . ولقد استن ملوك خراسان سنة جديدة ، فأتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول

(١) القلقشندي ح ٣ ص ٥٥١ .

(٢) المصدر نفسه ح ٣ ص ٥٥٢ .

(٣) المقربى غلطج ١ ص ٤٧٦ .

من اتخذ هذا اليوم - على ما ذكره البيروني^(١) - هو جَمُّ شَيْذ ، وهو - كما يقول الأستاذ براون^(٢) - نقلا عن بعض المصادر العربية - سليمان بن داود (يظهر أن هذه الفكرة أتت للأستاذ براون عن بعض المؤرخين كسكويه^(٣) والبيروني^(٤) وللتيريزي^(٥) . وقد أبطل المسنون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي ؛ غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين . ويقول البيروني^(٦) : إن إبطال نظام النوروز القديم أضر ضررا بليغا بالمزارعين ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يحى- والزرع أخضر ، في الوقت الذى يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٤ - ٧٤٣) وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسرى ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهرا ، فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب : إني أخاف أن يكون هذا من قوله (إنما النسيء زيادة في الكفر)^(٧) . واستمرت الحال كذلك إلى أن جاء هارون الرشيد ، فاجتمع للملاك ثانية وشكوا إلى يحيى ابن خالد البرمكي ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحو من شهرين . فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتمصب للجوسية ؛ فمدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

ولما جاء المتوكل العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ / ٨٤٧ - ٨٦١) أمر بتأخير النوروز ، إذ تأثر من شكايه المزارعين حين جمعوا الخراج قبل نضوج الفلوات^(٨) . غير أنه لما مات المتوكل وولى المستنصر (٢٤٧ - ٢٤٨ / ٨٦١ - ٨٦٢) أبطل ذلك ؛ وأمر بجمع الخراج في الوقت الذى كان يجمع فيه أولا . ولما ولى المتضد (٢٤٨ - ٢٥٢ / ٨٦٢ - ٨٦٦)

(١) الآثار الباقية ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) Lit. Hist. of Persia, vol. i. pp. 114, 259.

(٣) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٩٩ .

(٤) الآثار الباقية ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٨ .

(٥) خطط ج ١ ص ٤٩٤ .

(٦) الآثار الباقية ص ٣٧ .

(٧) سورة التوبة ٩ : ٣٧ .

(٨) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ١٢٨ .

أمر بتأخير النوروز من جديد (وكان النوروز في صيده في ٢١ يونية ، أى قبله في أيام المتوكل ستة عشر يوماً) ^(١).

ويقول البيروني إن الشهور المعتصدية كانت تتفق مع الشهور الفارسية التي أولها فروردین ماه « المقابل لشهر مارس ».

أما عن أصل النوروز فيقول البيروني ، إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فصاد إليه ملكه ، وأنته الملوك وعكفت عليه الطيور . فقالت الفرس « نوروز آئد » أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : « أيها الملك ! إن لي عشا فيه بيضات ، فأعد لي لآحطها » ، فمدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف في منقاره ماء ، فرشه بين يدي الملك ، وأهداه رجل جرادة ، فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز ^(٢).

وقد أصدر الحاكم الأوامر بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شواطئ النيل ، وحرم الأسباب التي كانت تقام عند الاحتفال بهذا العيد ^(٣).

ويقول ابن زولاق إن المزمز أبطل إقامة هذا الاحتفال (و ربما كان ابنه المزمز هو الذي أعاده) بسبب ما كان يلزمه من المفاصد ، فكان ينادى بعدم الاحتفال و صلب كل من لم يطع أمره . ونحن ننقل قول ابن زولاق للقارى . « ثم لما تولى المزمز بمصر ، منع القبط من صب المياه في يوم النوروز في الطرقات ، ووقود النار [في] تلك القليلة ، ومن المنزول في المراكب ، وضرب الخيل على شاطئ البحر (يعنى النيل) عند المقياس ، لأنه كانت تحصل بسبب ذلك مفاصد عظيمة ، فأبطل ذلك جميعه ، ونهى أن كل من يفعل ذلك يصب ^(٤).

(١) انظر مسكويه ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ حاشية ١ ، وابن عساکر : المكتبة الأهلية بيا يس ، مخطوط رقم ٥٩٨٦ ورقة ١٣٨ ا .

(٢) البروقى : الآثار الباقية ص ١٩٩ .

(٣) يحيى بن سبيد ص ١٩٦ .

(٤) مكتبة الأهلية بياريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقه ٤٨ ا . ذكر ابن عساکر (ص ٤٦) وابن إياس عن المسيحي (ج ١ ص ٤٦) أن المزمز أصدر الأوامر بمنع إيفاد النيران في القليلة التي قيل يوم النوروز ، ومنع صب الماء في هذا اليوم .

وعلى الرغم من تشدد بعض الخلفاء الفاطميين في إقامة الاحتفال بالنوروز فإننا نقرأ أن خلفاء العصر الفاطمي اهتموا بالاحتفال بهذا العيد . فقد ذكر المقرئى^(١) أن الخليفة الأسمر (٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠) احتفل بالنوروز احتفالا عظيما كما احتفلت الدولة الفاطمية بغيره من الأعياد والمواسم التي أخذت شكلها النهائي منذ ذلك العصر .

٩ — الولائم

كانت الولائم في كثير من الأحيان مظهراً من مظاهر الاحتفال بالأعياد ، وكانت تقام في بعض المساجد ، وفي القصر ، وفي دار الوزير . ففي القصر كانت تقام في المسكن المعروف بقاعة الذهب حيث يلتزم مجلس الملك . وكان الخليفة المزمز الفاطمي أول من سن تلك السنة ، واستمر ذلك إلى آخر أيام الفاطميين . وكانت الأسطة لا تنقطع من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين .

وكان السباط يمد من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والمشرين منه . وكان يدعى لهذه الولائم قاضي القضاة (وذلك يوم الخميس عادة) والأمرء وغيرهم من رجال الدولة كل بدوره . وكان الوزير وابنه — وأخوه — وكبير الأمناء يمثلون الخليفة . أما مقادير الأطعمة فكانت من الوفرة بحيث تكفي لياخذ كثير من الناس ما يريدون . وبلغت النقود التي كانت مخصصة لهذه الولائم في ثلاثة وعشرين يوماً ٣٠٠٠ دينار ، فيكون متوسط اليوم الواحد ١٣٠ ديناراً .

ولم تكن العناية التي كان يوجهها الفاطميون لأسطة العيدين بأقل منها في الأسطة الأخرى . وكان يقام يوم عيد الفطر سباطان : أحدهما بعد صلاة الفجر ، والثاني بعد صلاة العيد ، وهذا مجلس عليه الخليفة . وكان طول السباط الأول الذي كان يمد في الإيوان (بقاعة الذهب) ٤٠٠ ذراع (نحو ١٩٠ ياردة) ، وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ ياردة) .

أما هذا السباط فكان فيه صحاف ملأى بالفطائر والحلوى . وكان يدعى الناس من كل الطبقات إليه ؛ فيأخذ كل ما يحب ، إذ كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان مايتبقى منها

(١) غطط ج ١ ص ٢٦٨ . انظر ، أجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٢٢ .

يأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله ويبيعه . وكان الخليفة يجلس في إحدى النوافذ ليمتص نفسه بهذا المنظر الذي كان مظهرا من مظاهر جوده وكرمه ، كما كان القصد منه أن يملك قلوب الناس .

وفي السباط الذي كان يعد بقاعة الذهب دليل آخر على رغبة الخلفاء الفاطميين في استرضاء العامة . غير أن أعمال الكرم هذه خففت من بيت المال كثيرا . ولكن من كان يجسر على مقاومة رغبات الخلفاء ووزرائهم الذين كانوا يرون أن لهذه الأعمال أثرا هاما في تقوية مركز الفاطميين ، كما أنها كانت تزيد من إجلالهم وحب الشعب لهم ؟

وكان يقام بجانب سرير الملك بقاعة الذهب دُستق صريع^(١) يجلس عليه الخليفة ، وقد وضعت عليه للصالحات الذهبية والفضية . أما السباط العام فكان من خشب مدهون ؛ وعرضه عشرة أذرع ، وطوله طول القاعة . وكان يزين بالأزهار ذات الرائحة والألوان المختلفة ؛ ويوضع في طرفي السباط كفتان كبيرتان من الحلوى ، كل منهما على هيئة القصر تزن سبعة عشر قنطارا محلاة بطبقة من الذهب ، وقد مثل فيها بالتقنيات صور الإنسان وغيره من الحيوانات المختلفة^(٢) .

وقد وصف الملقشندى هذا السباط وصفا شيقا ، وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الأواني . فقد كان يوضع عليه إحدى وعشرون جفنة ، في كل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلاثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام ؛ وكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف في كل منها سبع دجاجات . وكانت هذه الصحاف والجفان تحاط بأنواع مختلفة من الفطائر والحلوى^(٣) .

ومن هذا البيان نعلم أنه كان يقدم في هذا السباط ٤٣١ خروفا ، وكذا ١٠٨٥٠^(٤) ما بين دجاج وحمام ، ومقدار كبير من الحلوى والفطائر ونحو ذلك . هذا ، وإن كنا نلاحظ لأول وهلة

(١) الدُستق الخمر من الفضة .

(٢) الملقشندى ج ٣ ص ٢٧ و ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٨ .

(٤) ذكر أبو الحسن في بيان آخر أن ما كان يستهلك في هذا السباط ٢٦٠٥٠٠ ما بين دجاج

وحمام ، هذا ٤٤١ خروفا بحمرا (طبعة جوينبول Juynbol ج ٢ ص ٤٧٧) .

ليخال أن ما أتى به القلقشندي من قبيل الأساطير . غير أنا نقول إن ذلك لا يبعد تصديقه ، إذا علمنا أنه كان مخصصاً لأسمطة العيدين الثلاثة ٤٠٠٠ دينار^(١) . وكان يدعى لهذا السباط الوزير الذي كان يجلس عن يسار الخليفة ، وتردئ حلة خاصة للأكل ، كما كان يدعى إليه أيضاً الأمراء وكبار الرجال . غير أنه لا يحتمل أن يأكل هؤلاء كل هذا الطعام . فلك يقول القلقشندي إن ما تبقى من هذه المقادير من الأطعمة كان يرسل بعضها إلى دور أصحاب الرسوم ، وسائرها يأكله غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السباط بعد فراغ كبار المدعوين^(٢) .

ولم يكن هذا كل ما كان يقدم من الأطعمة في العيدين . فقد كان يصحب ذلك سباط آخر يعد في دار الوزير ، يدعى إليه كثير من رجال الدولة ، ثم يمنع ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة^(٣) .

وكان الخليفة بعد أن يفرغ من صلاة العيد يركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون وغيرهم في انتظار وصوله . حتى إذا ما وصل ذبح بيده ٣١ ما بين الأبرة والنوق . وفي اليوم الثاني كان يركب للمذبح أيضاً ويذبح بيده ٢٧ رأساً ، كما كان يذبح في اليوم الثالث ٢٣ .

من هذا نرى أن ما كان يذبحه الخليفة هو ٨١ رأساً . وقد ذكر القريري^(٤) أن ما ذبح في عيد سنة ٨٥١٦ م (١١٣٢ م) كان ٢٥٦١ رأساً ، منها ١١٧ ناقة و ٢٤ بقرة و ٢٠ جاموسة و ٢٤٠٠ كبش . غير أنه لم يبين لنا عدد الحيوانات التي كان ينحرها الخليفة بيده . ومن المحتمل أن يكون قد سقط من عبارة القريري لفظ « عدا » ، وبها تكون العبارة « عدا ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده » . وإذا جرينا على هذا الزم ، كان ما يذبحه الخليفة بيده يتراوح بين ثمانين وتسعين رأساً ، إذ من المستحيل أن يذبح بيده عدداً كبيراً يبلغ ٢٥٦١ رأساً . وما يجدر ملاحظته أن العدد الذي ذكره القريري وهو ٢٥٦١ ، كان

(١) القلقشندي ج ٣ ص ٥٢٨ .

(٢) القلقشندي ج ٣ ص ٥١٤ .

(٣) القريري غلط ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) المقنن الكبير (مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٣٦٦ ، ج ٢ ورقة ٢٠٦ ب) .

يذبح في عيد الأضحي وعيد النذير (غدير خم) معاً . وإلى القارئ نص عبارة المقرئ :
 وعدة ما ذبح سنة ست وعشرة وخمسة في ثلاثة أيام عيد النحر وعيد النذير ألقان وخمسة
 وواحد وستون رأساً ، منها مائة وسبعة وعشرون من النوق ، وأربعة وعشرون بقرة ،
 وعشرون جاموسة . وهذا [عدا] ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده في مضجعي العيد في المنحر .
 ومن الكباش ألقان وأربعمائة » .

وقد وصف القلقشندي ما كان يصنع بلحم أول ذبيحة ، فقال : إن لحمها كان يحمى
 ويقدد ، وتعمل منه شرائح ترسل لوالى المدينة ، فيوزعها على من هناك من الشيعة . أما لحوم
 سائر الضحايا ، فكان يفرق بعضها على أرباب الرسوم ، ويوزعها قاضي القضاة على طلبة
 دار العلم وغيرهم ممن كانوا يأوون إلى مساجد القاهرة^(١) .

وكان الاحتفال بالأعياد المختلفة يستلزم إعداد الولائم وتوزيع الماء لكل والحلوى ،
 والمهبات والمطايا والإحسانات ، وغيرها مما جرى توزيعه عادة .

فقد كان يصنع في عيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم عشرون قنطاراً من الحلوى ،
 توضع على ثلثمائة خوان (صينية) ، وتوزع في الأزهر^(٢) . وفي الاحتفال ببحر الخليفة كان
 يقام سماط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل ، على مقربة من المنطرة المروقة بمنطرة
 السكرة التي كان يجلس فيها الخليفة . وكان يأكل على هذا السماط من يدعوم الخليفة
 ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون وراء المواكب^(٣) .

وهكذا كانت مظاهر أوائل انقلاء الفاطميين الذي كان لهم ولع خاص بالإفلاق في
 هذا السيل . وقد نهج خلفاؤهم نهجهم وزادوا عليهم في البذخ حتى انتهى حكمهم . وقد كان
 القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية الدينية . وإن في اشتراك جماعات كبيرة
 في الاحتفال بتلك الأعياد ، وفي الأبهة والعظمة التي كانت تنطق عن نفسها في مواكبهم
 الملكية ولولائمهم القمصة ، وهباتهم الوفيرة من اللباس والنقود والطعام التي ينال منها كل
 الأهلين تقريباً ، والجماعات النفيرة التي كانت تجتمع تحت المنطرة وترقب الثمين بوجه

(١) القلقشندي ج ٣ ص ٥١٥ - ٥١٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٠ .

الخليفة المقدس — إن في هذا كله لدليلا محسوسا على مبلغ نجاحهم في سياستهم .
غير أن ذلك النجاح وما يستلزمه صار عبثا قليلا على توالي الأيام ، حتى أدى إلى سرعة
انحلال خلافتهم وسقوطها . أما تأخير تلك السياسة فقد كان ظاهريا لم يتفد إلى قلوب الناس ،
بدليل أنهم لما زالت الدولة الفاطمية ، لم يلبثوا أن رجسوا إلى مذهبهم السنى القديم .

١٠ — المراكب العظام

(١) صورة الجمعة

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ،
وبرينا الكرم الذي مكنتهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم .

وقد أمدنا القلقشندي والمقرئزي وأبو الحسن بوصف صلاة الجمعة ، كما كان يقيمها
الخلفاء الفاطميون . ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يركبون في الجمع الثلاث الأخيرة من
رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمر على التوالي لصلاة الجمعة .

وكان صاحب بيت المال في صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على
تأثيث المسجد الذي يصل إلى الخليفة الجمعة فيه ، فكان يوضع في المقصورة ثلاث طنافس ديبقية
أو سامانية بيضاء — بعضها فوق بعض — ويوضع فوق الجميع — كما يقول أبو الحسن —
الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق ، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م)
في عهد الحاكم ^(١) . وكان يتصب على جانبيه المنبر سنة ان ، يكتب على الأيمن البسملة والفتحة
وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفتحة وسورة المنافقين ^(٢) .

وقبل وصول الخليفة بقليل ، كان قاضي القضاة يقف ويده مبخرة ، فيبخر المنبر والقبّة
التي كان يقف الخليفة تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد كتّاب
البلات في ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى في هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ،

(١) أبو الحسن ، مجلد ٣ ج ١ رقم ١ س ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) القلقشندي ج ٣ س ٥١١ .

ويتعمم بجماعة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحفظ به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف^(١) ؛ ويتبع هؤلاء جم غفيرة من الناس . وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنفحات شجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهي قاعة استقباله الخاصة ، ويمرحسها قائد القواد وكبير الأماناء ونخبة من حرس الخليفة ؛ ويظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان .

وحيثئذ يدخل قاضي القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! » ، فيخرج الخليفة وحوله الأستاذون المحضون ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدحجين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . أما الخليفة فيستمر حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة . فإذا أومأ إليه ، صدق قبل يدي مولاه ورجليه^(٢) ، وزرَّ السترين عليه . وبذلك يكون المنبر والقبة كالمهودج ، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر .

ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر ، أن الخليفة كان يستره وهو في قاعة الخطابة ستر من الحرير . وكان قاضي القضاة ، ويتبعه صاحب بيت المال حاملا بمبخرة بيده ، يدخلان القاعة متى سمعا الأذان ، فيتقدم الأول ويحمل الستر ، ثم يأخذ المبخرة من صاحب بيت المال فيبخر المكان . وبعد ذلك يفادران القاعة ، ويقبلان الدرج حال نزولهما^(٣) . كما ذكر المقرئ أن السبب في زر الستور ، أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبهم ، بل كانت تمد لهذا الغرض خاصة في ديوان الإنشاء ، كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة ، على ستريين يوضعان على

(١) ذكر أبو المحاسن أن الخليفة الآخر كان يحف به القبة والأسود ، وهي مزينة بفاخر الكس ، وعليها الأشرطة اللامعة (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) . وأضاف إل هذا أنه بالرغم من شرف الحاكم بأن تكون مواكبه في عاية الأبهة ، فقد رأى أن يتبى وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه في الخيلة ؛ إذ كان لا يجمع مرايا الخليل (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٠) .

وذكر ابن مسير (ص ٤٤) أن الخليفة المنصور كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، بمطين الخيل ، وعاجهم الخوذات والدروع ، وقيلان .

(٢) ذكر المقرئ (غلط ج ٧ ص ٢٨١) أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فإن قاضي القضاة هو الذي يزر السترين .

(٣) مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢ .

جانبى الخليفة (أحدهما على يمينه ليقراً ما فيه فى الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقراً ما فيه فى الركعة الثانية) ، هو حفظه من النسيان أو للتلمس حال إقامة الصلاة .

وكانت الخطبة التى يلقها الخليفة قصيرة ، وتشتمل على آية من القرآن . وقد نقل المقرئى عن المسبحى الذى حضر صلاة الجمعة فى الأزهر سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وكان موقفه خلف الخليفة العزيز ، أن هذا الخليفة ذكر بعد الآية نفسه وقومه بعبارة موجزة ، ثم قال : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ^(١) . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولحمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلّى رضى الله عنه ، وللخلفاء أسلافه . ودعا لنفسه أخيراً قائلاً : « اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسى خيراً ولا نقماً (ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما سننى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) » ^(٢) .

وكان الخليفة يحتم خطبته بالدعاء للوزير وينصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحمل الستين ، ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد هذا يأخذ الخليفة فى الصلاة ، فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون . فإذا ما انتهت الصلاة ، يخلو الجامع من الناس ، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاء ^(٣) عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع .

وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع — حيث يصلى الجمعة — كما كان يصطف كثير من الناس على جانبي الطريق ^(٤) .

(١) سورة النمل ٧٧ : ١٩ .

(٢) سورة الأعراف ٧ : ١٨٨ .

(٣) ذكر أبو الحسن عن ابن عبد الظاهر أن داعى الدعاء كان يتبع قاضى القضاة إذا لم يكن قاضى القضاة هو داعى الدعاء .

(٤) انقله شندى ج ٣ ص ٥٠٩ - ٥١٢ . المقرئى خطط ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(ب) جبر الخليج :

أما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فتكتفى بذكر ما قاله ناصر خسرو أيضاً من أنه كان من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في كل عام . وكان الاحتفال بفتح الخليج يقترن بفتح جميع السدود . وكان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر ، وفي ركبته عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطعمة الملحمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجبال عليها هوداج مزركشة ، تقودها طائفة من جند الخليفة ؛ وكذا كانت عدد للبال محلاة بالذهب .

أما الجند فكانت تسير في صفوف منتظمة ، فصيلة تلو فصيلة ، ميسمين فم الخليج ، والبربر من هؤلاء يسرون في عشرين ألفاً من أشداء قبيلة كتامة (من قبائل البربر في شمال إفريقيا) من سلالة جند المرز . ويلى هؤلاء خمسة عشر ألفاً من المغاربة ، ومن الصامدة (قبيلة من قبائل البربر بشمال إفريقيا) عشرون ألفاً . ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس في عشرة آلاف ، ويطلق عليهم اسم الشرقيين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر . ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفاً ، ومن السودان ثلاثون ألفاً . وكان يطلق عليهم عيد الشراء ، أى الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

ويلى هؤلاء أيضاً عدد غير قليل من الأرقاء ورجال الحاشية ، وكذلك الموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأسماء من مراکش والبن ، وبلاد القنوبة والحبشة ، وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان ، حتى الأسماء من أبناء سلطان دهل — وكانت أهمهم تقيم في القاهرة .

أما الخليفة فكان شاباً في مقتبل العمر ، بهيئة الطلعة حليق اللحية ، عليه ساء طويل^(١) ناصع للبياض ، يمتطى بئلة عارية من كل ما يزيناها وكان حرس الخليفة يتألف من ثلثائه من الديلم المشاة ، مرتهدين الحلل السندسية المستوعبة في بلاد الروم ، حاملين المعاول

(١) يقول ناصر خسرو إن ثوب الخليفة هذا كان من صنع ديق ، وكانت قيمته ألف دينار .

والزازيق . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة^(١) ، ويعف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق . حتى إذا ما وصل إلى القنسطاط القام عند فم الخليج سجد له الناس إكباراً وإجلالاً .

وكان موكب الخليفة افتتح الخليج من أعظم اللواكب . فقد كان ينصب للخليفة على حافة الخليج سرادق عظيم يعرف بالقنول حيث يقام له سرير الملك ، ويوضع عليه حشية (مرتبة) عظيمة يجلس عليها . ويوضع للوزير كرسي . ويقف كبار رجال الدولة صفين من سرير الملك إلى باب السرادق . وكان الاحتفال يبدأ بتلاوة القرآن الكريم ثم يلي الشراء قصائد .

ثم يفادر الخليفة السرادق بصحبة الوزير إلى منطرة السكرة التي كانت تطل على الخليج ، وقد فرشت بفاخر الفرش ، على حين يبقى كبار رجال الدولة في سرادقهم المظلة على الخليج ، ويطل من المنطرة أحد الأساتذة المحنكين إيداناً بإيصال أمر الخليفة بفتح الخليج . وحينئذ يقذف الخليفة المزراق في سد النيل . ومن ثم ينطلق الناس يصلون في هذا السد بمحاولم ، فينساب الماء ، وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من العلم والبهيمتاً وتقاؤلاً^(٢) .

وأخيراً يقول ناصر خسرو إن مصر كانت في ذلك الوقت في مجبوحة من العيش ، ويقول إن الخليفة كان محبوباً جداً من الشعب ، وإنه لم يكن أحد يخشى سلباً أو تعدياً في ظل حكمه . ويقول في كلامه عن أسواق القاهرة وحواريتها الفخمة الفنية بما فيها من الطرف ، إن تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم ، إذ كانوا لا يخشون عليها من المصوص^(٣) .

(١) كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة .

(٢) ناصر خسرو ص ١٣٦ - ١٤٢ ، وقد ترجم معظم ذلك لينبول في كتابه *The Story of Cairo*, pp. 140, 146.

انظر التفهيم : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٠ . المقرئ : خط ح ١ ص ٤٧٤ .

Nasir-i Khusrau, *Safar Nameh*, pp. 155, 156 (٣)

١١ — وسائل التسلية

كان الناس في هذا العصر يتהלون بلعبة الشطرنج التي عرفها المسلمون في عهد هارون الرشيد ثم انتشرت بين العرب . وكأوا يلعبون على قطعة مربعة حراء من آدم^(١) . كذلك كان النرد من الألماب التي اعتاد الناس أن يتلها بها . ويستعمل في اللعب به ثلاثون حجراً وفصان ، على رقعة رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومتازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من النفسين إذا رمى بهما بالقضاء الجاري على العباد . والمشهور أن الشطرنج اختراع هندي وأن النرد من اختراع الفرس .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأشراف والولاة وكبار رجال الدولة في هذا العصر . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب . وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق^(٢) .

وقد عني أحد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكاناً لمرض الخيل سماه « المنظر » . ووصف القاضي المؤرخ هذا المرض ، فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهي : هذا المرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد . وأضاف هذا المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتاري عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)^(٣) .

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد ، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزيتة ، وركوب الخيلان وللمساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة النامة . وفي هذه الحلبات يحلّس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٢) دم منر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ . سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣

(٣) المغريزي : مختلط ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

فإذا جاء وقت السباق ، أطلقت الخيل إلى غايتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضاً حتى نهاية الشوط .

وقد أولع خمارويه بالصيد ولما شديداً ، فكان يخرج في جهات الأهرام والقاب وغيرها ، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصد في محبة رجال عليهم اللبود ، فيدخلون في الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم ، ثم يضعونه في قفص من الخشب محكم الصنعة يسره وهو قائم . فإذا عاد خمارويه من صيده حل بين يديه القفص الذي فيه السبع ، واجتمعت العامة لمشاهدته ^(١) .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، كخمارويه بن أحمد بن طولون ، مشغولاً بمجوارح الطير النريبة ، وجلب لفلک الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرمًا أيضاً بالصيد ، وخاصة صيد السباع ^(٢) . وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد .

كذلك عنى الخلفاء الفاطميون بمرض الخيل قبل سيرها في اللوكب فيجلس على مرتبة عالية في الشباك في البنى المعروف باسم السدلي ^(٣) . وقد جرت العادة أن يرسل الخليفة « صاحب الرسالة » لاستدعاء الوزير من دار الوزارة . فإذا عاد هذا الموظف الكبير خرج الخليفة من مسكنه في القصر راكباً حتى يصل إلى الشباك ، فيترجل الأسراء ويدخل الوزير راكباً من باب العيد (أحد أبواب القصر الشرقي الكبير) حتى يصل إلى أول باب من أبواب الدهاليز الطوال ^(٤) يحيط به حاشيته وغلطانه وأقاربه وأولاده حيث يصل إلى المكان الذي فيه الشباك ، ويقف الحاضرون كل في المكان المخصص لوقوفه . ويجلس الوزير على كرسي كبير تحت الشباك ، فإذا استقر في جلوسه رفع كل من زمام القصر وصاحب بيت المال الست من جانبه ، فيشاهد الحاضرون الخليفة وهو جالس في الشباك في أتم أهبة وأعظم هيئة . عند ذلك يقف الوزير ويسلم على الخليفة بأن يلس بيديه الأرض ثلاث

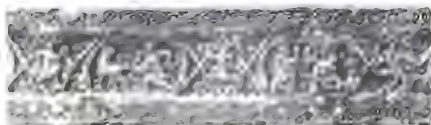
(١) خطط ج ١ ص ٣١٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) وهو بناء مقلد من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من حديد .

المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٧٧ .

(٤) صبح الأعيان ج ٣ ص ٥٠٤ . المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٤٧ .



سید شکر الله بن محمد بن ابی طالب



مفتی محمد تقی بن محمد بن ابی طالب

مرات ، فيأمره الخليفة بالجلوس على كرسيه . ثم يستفتح قراء الخضره بآيات قرآنية تناسب المقام ، ثم يسلم سائر رجال الدولة على الخليفة الذي يأخذ في عرض الخيول والدواب^(١) . فإذا انتهى العرض ختم القراء بآيات مناسبة ، ثم برحنى الستر ، ويدخل الوزير فيقبل يد الخليفة ورجليه ، ثم يتصرف إلى دار الوزارة وبصحبته كبار رجال الدولة .

وكان من أثر انخفاض النيل الذي دام ثلاث سنوات متواليات تبتدى من سنة ٣٩٨ هـ ، أن صدرت قوانين تحرم الاجتماعات وهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب وتتوافد على هذه الشواطئ . وتلتها قوانين أخرى بمنع بعضها سماع اللوسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ومنع البعض الآخر سماع المنيات أو يمين^(٢) .

وكان الخليفة الأمر يعطى الرهبان في دير نهيا^(٣) بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير^(٤) . وكان أبو على الأكل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي يشاهد لعبة الكرة .

(١) صحيح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٥ . المقرئى : مخطوط ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) المقرئى مخطوط ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) ذكر الشافعى (A.S. Atiya : Some Egyptian Monasteries According to the

Unpublished Ms. of al - Shabushiti's Kitab Al Diyarat, p. 17) أن دير نهيا بالجيزة ومن أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله في النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضي غرايب التوار وأصناف الزهر ، فهو من المنزهات الموصوفة والبعاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور ، فهو أيضاً مصيد حسن .

(٤) أبو صلاح الأرمي : كتابات وأدبرة مصر ص ٧٧ - ٧٨ . ناصر خسرو : Nasir-i Khusrā

Safar Nameh, pp. 155-6

مصادر الكتاب

نورد في التيجين الآتين المصادر العربية والانجليزية التي رجعت إليها . وقد وُثِّت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة وفاة المؤلفين الأقدمين .

١ - المصادر العربية

ابن الأثير (١٢٦١/٦٥٩) : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاي .

١ - كتاب التكملة لكتاب الصلة ، جزءان (مدريد ١٨٨٦) .

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠) : علي بن أحمد بن أبي الكرم .

٢ - الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ) ، (المطبعة الكبرى ، القاهرة ١٢٩٠ هـ)

٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ)

ابن الإخوة

٤ - معالم القرية في أخبار الحسبة ، نشره رويان ليفي ed. by Rheuban Levi. Gibb

Memorial, New Series, vol. xii (Cambridge, 1938).

الإدريسي (١٢٥١/٦٤٩) : محمد بن عبد العزيز الشريف القفاوي .

٥ - كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأماض والأقطار والبلدان ، وهو مختصر لكتاب الإدريسي

” نزهة المشتاق ” (رومة سنة ١٥٩٢ م) .

٦ - “Mappae Arsbicae Arabische Welt und Länderkarten des 9-13 Yahrhunderts”

in Arabischer Urschrift, lateinischer Transkription, und Übertragung in neuzeitliche Kartenskizzen. Mit einleitenden Texten, herausgegeben von Konard Müller (Stüttgart, 1926).

٧ - المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٤)

أسامة بن منقذ (١١٨٨/٥٨٤) : أبو مظفر بن مرشد بن علي بن مقاد بن نصر الملقب بمزيد الدولة

نجم الدين .

٨ - كتاب الاعتبار أو ” حياة أسامة ” .

Première Partie, ed. by Hartwig Derenbourg (Paris, 1889).

“Anthologie de textes arabes, inédits par Ousâma et sur Ousâma”, ed. (٩)

by H. Derenbourg (Paris, 1893).

(٩٣٦ - ٩٣٥/٣٢٤) : أبو الحسن علي بن إسماعيل .

١٠ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين . جزءان (اسلامبول ١٩٢٠)

الأصفهاني (٩٦٧/٣٥٦) : أبو الفرج .

١١ - كتاب الأغاني ٤١ جزءاً (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) .

ابن أبي أصيبعة (١٢٧٠/٦٦٧) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي .

١٢ - كتاب هيون الأنبياء في أخبار الأبطال جزءان (القاهرة سنة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ) .

أوتيسخا (٩٤٠/٣٢٨) : سيد بن البطريق .

- ١٣ - التاريخ المجموع حل التحقيق والتصديق (بيروت سنة ١٩٠٩) .
- ابن لياس (٨٩٣٠ / ١٥٢٣) : أبو البركات محمد بن أحمد .
- ١٤ - كتاب تاريخ مصر المعروف " بديائع الزهور في وقائع الدهور " ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .
- الباشا : الدكتور حسن .
- ١٥ - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧) .
- بديع الزمان (١٠٠٧ / ٣٩٨ - ١٠٠٨) : أحمد بن محمد المعروف ببديع الزمان الحملائي .
- ١٦ - رسائل الحملائي (بيروت سنة ١٨٩٠ م) .
- البرادى : الدكتور راشد .
- ١٧ - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
- ابن بطوطة (٧٧٩ / ١٣٧٧) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله .
- ١٨ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وأجزاء طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفرييري (Defrémery) وساتيني (Sanguinetti) (باريس ١٨٥٣ - ١٨٥٨ و ١٨٦٩ - ١٨٧٩ م) .
- البندادى (١٠٣٧ / ١٢٩) : أبو منصور عبد التاهر بن طاهر .
- ١٩ - الفرق بين الفرق (مطبعة المعارف ، القاهرة ١٣٢٨ / ١٩١٠) .
- البندادى (١٠٧٠ / ٤٦٣ - ١٠٧١) : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخليلي .
- ٢٠ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣١) .
- البندادى (١٢٣١ / ٦٢٩) : عبد العلي ، وفق الدين عبد العلي البندادى .
- ٢١ - مختصر تاريخ مصر (Oxford, 1800) Ed. by J. White .
- ٢٢ - الإنفاذ والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المصنوعة بأرض مصر .
- Rélation de l'Égypte, translated with historical notes by De Sacy (Paris, 1810).
- البكرى (١٠٩٧ / ٤٨٧) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .
- ٢٣ - كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دي سلا (De Slane) ، الطبعة الثانية (باريس سنة ١٩١١) .
- البلاذرى (٨٩٢ / ٢٧٩) : أحمد بن يحيى بن جابر .
- ٢٤ - فوج البلدان (القاهرة ١٣١٥ / ١٩٠١) ، نشر القسم الأول منه الدكتور صلاح الدين المنجد (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦) .
- البلخي (٩٣٣ / ٣٢٢ - ٩٣٤) : أبو زيد بن سهل .
- ٢٥ - كتاب البديع والتاريخ ، وينسب إلى سطر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٧)
- البلوى (القرن الرابع الهجرى) : أبو محمد عبد الله
- ٢٦ - سيرة أحمد بن طولون ، نشره محمد كرد علي (دمشق ١٣٥٨ هـ)
- بور : ت - ج .
- ٢٧ - تاريخ انقلاصة في الإسلام ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٨)
- البيروني (١٠٤٨ / ٤٤٠) : أبو الریحان محمد بن أحمد .
- ٢٨ - الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) (لندن سنة ١٨٧٩) (ليدج ١٨٧٨ - ١٨٧٩) .

- ٢٩ - تاريخ البريد في مصر ، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العاشر في القاهرة (بولاق ١٩٣٤) .
- القميبي (من علماء القرنين الثالث والرابع) : أبو العرب محمد بن أحمد .
- ٣٠ - كتاب طبقات علماء إفريقية (الجزائر ١٣٣٢/١٩١٤) .
- التنوشي (٩٩٤/٣٨٤) أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن أبي القهوم .
- ٣١ - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، (القاهرة سنة ١٩١٨ - ١٩٢١) ، ترجمه إلى الإنجليزية الأستاذ مرجوليوت (Prof. D. S. Margoliouth) (لندن سنة ١٩٢٢) .
- تيمور : أحمد باشا
- ٣٢ - التصوير عند العرب ، نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢) .
- ابن تيمية (٧٢٨/١٣٢٧ - ١٣٢٨) : تقي الدين الحراني
- ٣٣ - الحسية في الإسلام (القاهرة ١٣١٨ هـ) .
- الثعالبي (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد الملك .
- ٣٤ - بتيمة الدهر (٤ أجزاء دمشق سنة ١٤٠٤ هـ) (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤) .
- الجاحظ (٢٥٥/٨٦٩) أبو عثمان عمرو بن بحر البصري .
- ٣٥ - كتاب التيسر بالتجارة ، نشره حسن حسني عبد الوهاب (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥)
- (الجزائر ١٩٠٥) .
- ابن جبير (٦١٤/١٢١٧) : أبو الحسن محمد أحمد الكداني .
- ٣٦ - رحلة ابن جبير ، طبعة و . رايت (W. Wright) (لندن سنة ١٨٥٢) .
- trans. by R. J. C. Broadhurst "The Travels of Ibn Jubayr (Jonathan Cape, London, 1952)
- الجزائري : أبو الحسن علي .
- ٣٧ - زهرة الآس في بناء مدينة قاس (تلمسان ١٩٢٢) .
- الجوزدي (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أبو علي منصور القزويني الجوزدي .
- ٣٨ - سيرة الأستاذ جوذر ، وبه توثيقات الأئمة الفاطميين ، نشره الدكتور محمد كامل حسن والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة .
- ابن الجوزي (٥٩٧ / ١٢٠١) : أبو الفرج عبد الرحمن .
- ٣٩ - تليس إبليس أو نقد العلماء (القاهرة ١٣٤٠ هـ) .
- ٤٠ - المستظم ، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دي موموجي (Rivista degli Studi Orientali, vol. xiii, ١٩١٧) .
- ابن الجوزي (٦٥٤/١٢٥٧) : أبو المظفر بن قزوغلي سبط بن الجوزي .
- ٤١ - مرآة الزمان ، مخطوط . صور بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ قاريخ .
- المكتبة الأهلية ببغداد تحت رقم ١٥٠٥ و ١٥٠٦ .
- والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٥٥١ .
- ومكتبة بودليان (Bodleian) بأكسفورد ، مجموعة بوكوك (Pocock, Oxford, Or. 370) طبعة Jewett (شيكاغو ١٩٠٧) .
- حاجي خليفة (١٠٦٧ / ١٦٥٧) : مصطلح المسي كاتب شلبي .

- ٤٢ - كشف الثنون من أسامي الكتب والفتون ، طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج . فلوغل O. Flügel ، ٧ أجزاء (ليسك ولندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨) .
- ابن عسير السقلاقي (١٤٤٩/٨٥٣) : شهاب الدين بن علي .
- ٤٣ - الإصابة في تمييز الصحابة طبعه سبرنجر (Springer) وغيره (كلكتا سنة ١٨٥٦ - ١٨٧٣) ، (القاهرة ١٣٢٣) في ٦ أجزاء .
- ٤٤ - رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط بالكتابة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥) .
- ابن أبي الحديد (١٠١٣/٤٠٤) : الشريف الرضي محمد بن أبي أحمد الحسين .
- ٤٥ - شرح نهج البلاغة ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .
- ابن حزم (١٠٦٤/٤٥٦) . أبو محمد علي بن أحمد .
- ٤٦ - الفصل في المال والأحوال والتدخل ، ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .
- حسن إبراهيم حسن .
- ٤٧ - تاريخ عمرو بن العاص ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٢٦) .
- ٤٨ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ٣ أجزاء لطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨) .
- ٤٩ - الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (يولاي ١٩٣٢) .
- ٥٠ - التلم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٣٩) .
- ٥١ - مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح المماليك ، مستخرج من كتاب المحمل في التاريخ المصري من ١٢٧ - ٢٢٩ (القاهرة ١٩٤٢) .
- ٥٢ - زعماء الإسلام : مطبعة الآداب (القاهرة ١٩٥٣) .
- ٥٣ - عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٤٧) بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف .
- ٥٤ - المرادي الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٤٨) . الطبعة الثانية تحت الطبع .
- ٥٥ - انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى جنوباً وفي شرق القارة الإفريقية وغربها ، نشره المعهد العالي للدراسات العربية (جامعة الدول العربية) (القاهرة ١٩٥٧) .
- ٥٦ - المسنون وعلى الرضا . . . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة (المجلد الأول ، الجزء الأول (مايو ١٩٣٣) .
- ٥٧ - كفاية الإغشي ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة (مايو ١٩٤١) .
- ٥٨ - اليمن : البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨) .
- حسن أحمد محمود : الدكتور
- ٥٩ - قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧) .
- حسن سليمان محمود : الدكتور
- ٦٠ - الصليبيون وأثر الحركة الفاطمية في اليبس (٢٦٨ - ٦٢٦ هـ) ، بالاشتراك مع الدكتور حسين الحسني (القاهرة ١٩٥٥) .

- ٦١ - الملكة أروى سيدة ملوك اليمن (القاهرة ١٩٥٥) .
ابن حاد ، مقتضى أبو عبد الله محمد بن علي .
٦٢ - أسرار ملوك بني عيينة وسيرتهم ، لشره Vanderheyden ، ٣ أجزاء (الجزائر - باريس ١٩٢٧) .
Les Chroniques d'Ibn Hammad, ed. by Cherbonnot (Journal Asiatique, Dec. 1882)
يتكلم عن الفاطميين في المغرب
الحمداني الياسي (من فقهاء السنة في اليمن في أواسط القرن الخامس الهجري) : محمد بن مالك بن أبي قصائل
٦٣ - كشف أسرار الفاطمية وأخبار القرامطة (مطبعة الأمور ١٣٥٧/١٩٣٩) .
أبن حوشب (مصور اليمن)
٦٤ - رسالة القرطبي والهداية ، نشرها الدكتور محمد كامل حسين في مجلة (Collectanea) ،
المجلد الأول سنة ١٩٤٨ .
أبن حوقل (٩٩٠/٣٨٠) : أبو القاسم محمد البغدادي الموصل
٦٥ - كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهاالك ، نشره دي غوييه ، المجموعة الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٣) .
ابن خردادبه : أبو القاسم عماد الله بن عبد الله
٦٦ - كتاب المسالك والممالك ، نشره دي غوييه (ليدن ١٨٨٩) ، ويؤلفه جزء من كتب الخراج
وصناعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي
الطوسي : محمد بن الحسن بن أحمد
٦٧ - كتاب ملوك بني هاشم ، مؤلفه (الجزائر ١٩١٤) .
الططيط البغدادي (١٠٧٠/٤٧٣ - ١٠٧١) الحافظ أبو بكر أحمد بن علي .
٦٨ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١) .
ابن خلدون (١٤٠٥/٨٠٨ - ١٤٠٦) . عبد الرحمن بن محمد .
٦٩ - مقدمه ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠) ، ترجمة دي سلاف De Slane, Les Prolegomenes d'Ibn Khaldun, 3 vols. (Paris, 1862).
٧٠ - العموديون المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٧٤ هـ) ، (بيروت ١٨٨٦) .
A Selection from the Prolegomena of Ibn Khaldun by D. B. Macdonald (Iriden, 1905)
ابن خلكان (١٢٨١/٦٨١) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر النشاني .
٧١ - وثائق الأفيان جردان (مولاي سنة ١٢٨٣ هـ) ، (القاهرة ١٣١٠ هـ) ، (القاهرة ١٩٤٩) ، ترجمه إلى الإنجليزية دي سلاف De Slane ، باريس ١٨٤٢ - ١٨٤٨)
الحوازمي (٩٩٣ / ٣٨٣) : أبو بكر محمد بن العباس
٧٢ - مسائل الحوازمي (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ)
الحوازمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب
٧٣ - كتاب مناقب العالم (صنفه سنة ٣٦٦ هـ) . (القاهرة ١٣٤٤ ، ليدن ١٨٩٥) .

- الخطاط المصنوع (بدمشق ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان
- ٧٤ - كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي للملحد ، نشره فيرج ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة (١٩٢٥/١٣٣٤) .
- ٧٥ - نهاية (٩٤١/٩٤٢) : سيرة ابن طولون ، نشره ك. فولز K. Vollers (برلين ١٨٩٤) .
- ٧٦ - المكافأة ، نشره أحمد أمين وعمل الجلام (ببولاق ١٩٤١) .
- ٧٧ - الدباغ (١٢٩٦/١٢٩٧) : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري
- ٧٨ - معاني الإيمان في معرفة أهل القبروان ، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠) .
- ٧٩ - ابن دقان (٨٠٩ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧) : إبراهيم بن محمد المصري .
- ٨٠ - الانتصار بواسطة عقدة الأمصار . لم يظهر منه إلا الجزآن الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩ / ١٨٩٣) .
- ٨١ - ابن أبي ديتار (١١١٠/١٦٩٨) : محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني .
- ٨٢ - كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ)
- ٨٣ - المينوري (٨٨٢ / ٨٩٥) : أبو حنيفة أحمد بن داود .
- ٨٤ - الأسيار الطوال ، جزآن ، مطبعة ج . كراتشوفسكي J. Kratchkovsky (لندن سنة ١٨٨٨) .
- ٨٥ - الميس (٧٤٨ / ١٣٤٨ - ١٣٤٩) : الخلف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد .
- ٨٦ - تاريخ الإسلام ، وهو مخلوط :
- (أ) بالمكتبة الأصلية بباريس تحت رقم ١٥٨١
- (ب) وفار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ (تاريخ) .
- (ج) ومكتبة بودليان بأكسفورد (Bodleian, Lond, Or, 30٤)
- الرائي (٣١١ / ٩٢٢) : أبو بكر محمد بن زكريا
- ٨٧ - رسائل فلسفية ، نشره يول كراوس (القاهرة ١٩٣٩) .
- الرائي : فخر الدين
- ٨٨ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره سمي انتشار (القاهرة ١٩٣٨) .
- ٨٩ - رسائل الحاكم بأمر الله ، كتبها كثير من الدعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ . وهي مخلوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (ملعب الشية) .
- الرضي (٤٠٦/١٠١٥) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى . . . ابن الحسين بن علي ابن أبي طالب .
- ٩٠ - ديوان الشريف الرضي (بيروت ١٣٠٧ هـ)
- دينو : يول .
- ٩١ - تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ترجمه وعلق عليه شكيب أرسلان (القاهرة ١٣٥٢ هـ) .
- ٩٢ - ابن أبي ذرع (٧٢٦/١٣٢٥ - ١٣٢٦) : أبو الحسن علي بن عبد الله

- ٨٧ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أعياد ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (أبسالا ١٨٤٣)
(باريس ١٨٦٠) .
زكى محمد حسن
- ٨٨ - الفن الإسلامى فى مصر (القاهرة ١٩٣٥)
- ٨٩ - كتوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٧)
- ٩٠ - الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى (القاهرة ١٩٤٠) .
- ٩١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨) .
- ٩٢ - زخارف المنسوجات القبطية ، فصل من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الأول - مايو ١٩٥٠ .
- ٩٣ - التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ، المقتطف .
- ٩٤ - الأسرار الحاكمة وبعض الأحداث السياسية الطويلة الشأن فى العالم الإسلامى منذ قيام الإسلام حتى القرن السابع عشر الميلادى - المقتطف .
- أين زولاخ (١٩٩٧/٣٨٧) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم .
- ٩٥ - كتاب فضائل مصر وأعيانها وخواصها (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩) .
- ٩٦ - الميرون الدعج فى حل دولة بني طنج ، نقله ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حل المغرب .
- زيدان : جورجى .
- ٩٧ - تاريخ المتمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦)
- أين زيدان : حيد الرحمن
- ٩٨ - إتحاف أعلام الناس بجمال أعياد حاضرة مكناس ، ٨ أجزاء (الرباط ١٩٢٩) .
- سرور : الدكتور محمد جمال الدين
- ٩٩ - النفوذ العاطفى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، دار الفكر العربى (القاهرة ١٩٥٧) .
- السفلى (١٤٩٦/٩٠٢ - ١٤٩٧) : أبو الحسن نور الدين على
- ١٠٠ - تحفة الأحياء وبنية الطلاب فى الخلط والمزارات والتراجم واليقاع المباركات (القاهرة ١٩٣٧/١٣٥٦) .
- أين سعد (٨٤٥/٢٣٠) : محمد بن سعد كاتب الواقفى .
- ١٠١ - كتاب العليقات الكبير ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) ، ٨ أجزاء (ليند سنة ١٣٢٢ هـ) .
- أين سعيد (١٢٧٥/١٧٣) : حل بن موسى المغربى .
- ١٠٢ - كتاب المغرب فى حل المغرب والمشرق فى حل المشرق (ليند سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م) .
- القسم الأول من الجزء الخاص بمصر نشره زكى محمد حسن ، وشوق ضيف ، وسيدة إسمايل كاشف (القاهرة ١٩٥٣) .
- السفلى الأندلسى
- ١٠٣ - أدب الحسبة ، نشره Lévi-Provençal and Colin (باريس ١٩٣١) .
- السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
- ١٠٤ - الاستقصا لأعيان دول المغرب الأقصى ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ هـ) .

الصمغاني (١١٦٦/٥٦٢ - ١١٦٧) : القاضي أبو سعيد عبد الكرم .

١٠٥ - كتاب الأساب (Gibb Memorial Series, No. xx (London, 1912)

سيول : كريستيان فريديخ

١٠٦ - نشر كتاب النقط والفرائ (من كتب الدروز (١٣١٩/١٩٠٢) .

ابن سينه (١٠٦٥ - ١٠٦٦) : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي .

١٠٧ - كتاب المختصر ٢٠ جزءاً (يولات ١٣٢١ هـ) .

السيوطي : أبو بكر بن محمد المغربي .

١٠٨ - كتاب في نسب بعض الصحابة والأشراف الإديسيين وغيرهم من ملوك ملوك الموحدين ،

مخطوط بدار الكتب المصرية .

السيوطي (١٥٠٥/٩١١) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين

١٠٩ - حصر الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جردان ، (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية

الميجر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .

١١٠ - تفسير الجلالين ، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٦)

١١١ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

الشافعي (٩٩٧ / ٣٨٨) : أبو الحسن علي بن محمد .

١١٢ - كتاب الديارات (Berlin, We. 1100) نشر الدكتور عزيز سوريل طبع الجزء

الخاص (بديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتجزة بها) ، وترجمها إلى الإنجليزية

(Ex. du Bulletin de la Société d' Archéologie Copte, tome v, 1939).

أبو شامة (١٢٦٧/٦٦٥ - ١٢٦٨) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب

بأبي شامة ، شاعري من أهالي دمشق .

١١٣ - كتاب الروغيتين في أخبار الدولتين .

Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, tome IV; another edition'

2 vols. (Cairo, 1282 A. H.)

أبو شامة (٤٨٨ / ١٠٩٥) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الورير طهير الدين أبو شجاع

الرودرادري .

١١٤ - دليل كتاب تجارب الأمم طبعه هـ . ف . أندروز (H. F. Amedroz) وترجمه إلى الإنجليزية

الأستاذ مرحوكيوث (Prof. D. S. Marghoouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١) .

ابن شداد (٦٣٢ / ١٢٣٤) : القاضي بهاء الدين أبو الحسن يوسف بن رافع بن تميم .

١١٥ - النوادر السلطانية والحامس القيسية .

(Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III).

١١٦ - شرح لحة من أخبار المزم . لم يعرف مؤلفه بعد ، مخطوط بمسحاة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٢ .

شرف . الدكتور علي أحمد

١١٧ - تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه .

١١٨ - دولة الفزارية أجداد أغا خان كآسبها الحسن الصباح (القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠) .

- الشهر ستاني (١١٥٣/٥٤٨) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
- ١١٩ - الملل والنحل ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .
- الشيال : الدكتور جمال الدين
- ١٢٠ - مصر والشام بين دولتين ، دار الفكر العربي (القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧) .
- ١٢١ - مجمل تاريخ دمياط (الإسكندرية ١٩٤٩) .
- ١٢٢ - وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي ، مجلة جامعة الإسكندرية (إبريل ١٩٥٨) .
- الشيخ زكي (حول سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) : عبد الرحمن بن نصر
- ١٢٣ - نهاية القرية في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد البار العربي (مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦) .
- أبو صالح (٦٠٥ - ٦٠٦ / ١٢٠٨) : الأرمي .
- ١٢٤ - تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمي المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر ، طبعة و ترجمة إيفنس (A. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م) .
- السدقي : الدكتور محمد زبير
- ١٢٥ - السير الحديث في تاريخ تدوين الحديث
- حاضرة المدارف العنانية ، حيدر آباد (١٣٥٨ هـ)
- الصلوح (٩٤٦/٣٣٥) : أبو بكر محمد بن يحيى
- ١٢٦ - كتاب الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ، نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٤)
- ١٢٧ - أخبار الراعي باقة والتقى له أو تاريخ الدولة النيسابية ، نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٥)
- ١٢٨ - أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٦) .
- ابن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩) : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطنطلي
- ١٢٩ - أخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧)
- الطبري (٣١٠/٩٢٢) : أبو جعفر محمد بن جرير .
- ١٣٠ - تاريخ الأمم والملوك ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ، طبعة دي غوييه (Series (B) (De Goeje)
- ٧ أجزاء (لندن سنة ١٨٨١ - ١٨٨٣ م)
- الطرطوشي (٥٢٠/١١٢٦ - ١١٢٧) : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد
- ١٣١ - سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩) .
- طوسون (الأمير) عمر
- ١٣٢ - كتاب مالية مصر من عهد القراعنة إلى الآن (الإسكندرية ١٣٥٠ هـ) (١٩٣١ م)
- الطوسي (٤٦٠/١٠٦٧ - ١٠٦٨) : محمد بن الحسن .
- ١٣٣ - هرسث كتب الشيعة (كلكتا سنة ١٨٥٥ م) .
- طيفور (٨٩٣/٢٨٠ - ٨٩٤) : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر .
- ١٣٤ - تاريخ بغداد ، الجزء السادس ، طبعة ه. كلر (H. Keller) ، (لايبك سنة ١٩٠٨ م) .

- ابن عبد الحكم (٨٨٩/٢٧٦) : أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري
 ١٣٥ - كتاب فتوح مصر وأخبارها ، نشره هنري ماسيه *Henri Massey* ، مطبعة المعهد الفرنسي
 للدراسات الشرقية (القاهرة ١٩١٤) في جزئين .
- ١٣٦ - كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، نشره تشارلز س . تورى *Charles C. Torrey* .
 (Leiden, 1920).
- عبد الحميد يونس (الدكتور) وعثمان توفيق
 ١٣٧ - الأزهر (دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٦) .
 ابن حيدويه (٩٤٠/٣٤٩) : شهاب الدين أحمد .
 ١٣٨ - العقد الفريد ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٢٩٣ هـ) .
 عبد القادر : الدكتور علي حسن
 ١٣٩ - نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي (مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٦) .
 ابن حنابل (توفى في أواخر القرن السابع الهجري) : أبو عبد الله محمد المراكشي
 ١٤٠ - البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٣ أجزاء ، نشره دوزي (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١)
 (باريس ١٩٣٠) .
 أبو العرب تميم : محمد بن أحمد بن تميم الحميري
 ١٤١ - طبقات علماء تونس (الجزائر ١٩١٤) .
 عريب بن سعد (٩٧٦-٩٧٧) للقرطبي .
 ١٤٢ - صلة تاريخ الطبري ، طبعة دي غوييه *De Goeje* (ليدن ١٨٩٧ م) (القاهرة ١٣٠٢ هـ)
 فين صاكر (١١٧٥/٥٧١) : الخافض أبو القاسم علي بن الحسن .
 ١٤٣ - التاريخ الكبير ٥ أجزاء (دمشق ١٣٢٩ - ١٣٣٢ هـ) ، ويوجد منه مخطوط بالمكتبة
 الأهلية بباريس تحت رقم ٢١٢٧ .
 علي إبراهيم حسن
 ١٤٤ - تاريخ جوهر الصغرى (القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٣) .
 ١٤٥ - تاريخ مصر في المصور الوسطى : الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٥٣) .
 علي مبارك باشا
 ١٤٦ - المخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٦) .
 علي بن الوليد (٦١٢ / ١٢١٥) سيدنا
 ١٤٧ - مختصر تاج العقائد ، نشره إيفانوف بمسوان *A Creed of the Fatimids*
 (Cambridge, 1936).
 عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧ / ١٢٠١) : أبو عبد الله محمد بن أبي الربيع .
 ١٤٨ - غريدة القصر وجريدة مصر (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٦ - ٣٣٢١) .
 ١٤٩ - الفتح القسبي في الفتح القسبي ، نشره *Carlo de Landberg* بمسوان *La Conquête de*
La Syrie et la Palestine (Leiden 1833).
 حارة القيني (٥٦٩ / ١١٧٤) : أبو الحسن تميم الدين القيني .
 ١٥٠ - كتاب النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية طبعة هارتويج *Hartwig*
 (باريس سنة ١٨٩٧ م) .

Tome Second (a) partie arabe, Poésies, Epîtres (Tarassulât), Biographies, Notices en arabe par 'Oumâra et sur 'Oumâra (Paris, 1909).

١٥٢ - كتاب تاريخ اليمن ، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لبسه الرحمن بن خلدون المغربي ، ثم أخبار القرامطة باليمن للياه الجندي (لندن ١٣٠٩ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية

Henry Cassels Kay (London, 1892

حنان : محمد عبد الله

١٥٣ - الحاكم يأمر الله (القاهرة ١٩٣٧)

تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٤٢) .

ميسى : الأستاذ أحمد محمد

١٥٤ - مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، مستخرج من المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (القاهرة ١٩٥٦) .

المينى (٨٥٥ / ١٤٥١) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى

١٥٥ - عقد الجاهل في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية وقم ١٥٨٤ تاريخ .

التزالي (٥٠٥ / ١١١١) : الإمام أبو حامد

١٥٦ - المنتقى من الضلال ، أو الملل والنحل (دمشق ١٣٥٣ / ١٩٣٤) .

١٥٧ - فضائح الباطنية ، أو المستظهر ، نشره جولا تسير (لندن ١٩١٦) .

أبو الفدا (٧٣٢ / ١٣٣١) : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حاة .

١٥٨ - المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

أبو الفرج اللطفي (١٨٥ / ١٢٨٦) : جريجورى المسمى بارهبرائس .

١٥٩ - مختصر الدول ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م) .

أبن قتيبة (٢٧٦ / ٨٨٩) : أبو محمد عبد الله بن مسلم

١٦٠ - الإمامة والسياسة ، جزءان (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

١٦١ - كتاب المعاد (القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤) .

القضاعى (٤٥٤ / ١٠٦٢) : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن غفر الشافعى المذهب .

١٦٢ - عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف (مخطوط بال مكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٩١) ، ودا

الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٧٧٩ تاريخ .

ابن القفطى (٦٤٦ / ١٢٤٨) : جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب .

١٦٣ - أخبار الملوك بأخبار الحكماء (لا ييسك ١٣٢٠ / ١٩٠٣) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

ابن القلائس (٥٥٥ / ١١٦٠) : أبو يعلى حمزة

١٦٤ - تاريخ ابن القلائس المسمى ذيل تاريخ دمشق مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق

وسيط بن الجوزى والنحسى (بيروت سنة ١٩٠٨) .

القلائس (٨٢١ / ١٤١٨) : أبو العباس أحمد .

١٦٥ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧ م) .

كاشف : الدكتور ميلة إسماعيل

١٦٦ - مصر في فجر الإسلام دار الفكر العربي (القاهرة ١٩٤٧) .

١٦٧ - مصر في عهد الإنجليز ، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٥٠) .

آل كاشف الغطاء : الشيخ محمد الحسين

١٦٨ - أصل الشيعة وأصولها ، الطبعة الثالثة (العراق ١٣٦٣ / ١٩٤٤) .

كامل حسين : الدكتور محمد

١٦٩ - في الأدب المصري الإسلامي (من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين) (القاهرة ١٩٣٩) .

١٧٠ - نظرية المثل والمثول (القاهرة ١٩٤٨) .

الكتبي (٧٤٤ / ١٣٦٢ - ١٣٦٣) : محمد بن شاذي بن أحمد الحلبي

١٧١ - فوات الوفيات جزآن (يولاق سنة ١٢٩٩ هـ) ، (القاهرة ١٩٥١) .

الكرماني (توفي بعد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) : القاضي أحمد حيد الدين

١٧٢ - راحة العقل نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمي .

١٧٣ - الرسالة الواقعة في سب دعوى اتوهم الحاكم بأمر الله ، قصلة من مجلة كلية الآداب ،

المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول (مايو ١٩٥٢) .

الكرمل - أنستاس ماري

١٧٤ - لتقود العربية وعلم الفيات (القاهرة ١٩٣٩) .

الكلبي (٩٦١ / ٣٥٠) : أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب

١٧٥ - كتب الحولا وكتاب القضاة . به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب " روح الإصر " لابن حجر

المستطوق ، طبعة ووفن جيت (Rhuvon Gues)

(E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XIX, 1912)

١٧٦ - كتاب القضاة الذين ولوا مصر ، وذيله أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد (دومة ١٩٠٨)

ماجد : الدكتور عبد المنعم

١٧٧ - نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٣) الجزء الثاني

(القاهرة ١٩٥٥) .

١٧٨ - السجلات المستنصرية : سجلات وتوقعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين

صلوات الله عليه إلى دولة المين وغيرهم ، نشرها الدكتور ماحد (دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٤) .

مالك (٧٩٥ / ١٧٩) : الإمام مالك بن أنس

١٧٩ - موطأ الإمام مالك ، وشرحه توير الخواك ، تأليف حلال الدين السيوطي (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله

١٨٠ - رياض النفوس في طبقات علماء القديرون وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونسألكهم وسير من

أخبارهم ، نشره الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) .

الماوردي (١٠٥٧ / ٤٥٠) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري .

١٨١ - الأحكام السلطانية (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ولندن سنة ١٩٠١ م) .

- ١٨٢ - أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٢٩/١٣٤٨)
- المتنبى (٩٦٥/٣٥٤) أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي
- ١٨٣ - ديوان المتنبى ، نشره عبد الرحمن البرقوق (القاهرة ١٩٣٠/١٣٤٨) .
- أبو المحاسن (١٤٦٩/٨٧٤ م) : جمال الدين بن يوسف بن تفرى برى
- ١٨٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " جزء ١ و ٢ طبعة جوينبول (Juynebol) (ليدن سنة ١٨٥١ - ١٨٥٥ م) ووليم پوپر (William Popper) طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ٩ أجزاء (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٢) .
- الحل (١٢٥٤/٦٥٢) : حسام الدين
- ١٨٥ - الحدائق الوردية (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقى رقم ٣٧٨٦) .
- المراكشي (١٢٧٠/٦٦٩ - ١٢٧١) : يحيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي
- ١٨٦ - كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب " طبعة ر . دوزي (R. Dory) الطبعة الثانية ليدن سنة ١٨٨١ م) ، وترجمه وشرحه ا . فانيان (E. Fagnan) (الجزائر سنة ١٨٩٣ م) (القاهرة ١٩٢٩)
- ابن المرتضى (٩٣٦/٣٢٥ - ٩٣٧) : المهدي لدين الله أحمد بن يحيى
- ١٨٧ - المنية والأمل ، مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقى ، رقم (٣٧٧٢) ؛ وهو أول شرح لكتاب " مايات الأفكار " (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقى رقم (٣٩٨٦) . والنسخة الثانية من الشروح مجموعة تحت عنوان " مايات الأفكار " (طبع في الهند المسعودي (٩٥٦/٣٤٦) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .
- ١٨٨ - " كتاب التنبيه والإشراف " طبعة دي غوييه (De Goeje)
- (Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Vol. III. (Leyden, 1893).
- (القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٧)
- ١٨٩ - " مروج الذهب ومعادن الجوهر " جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م) ، ٩ أجزاء ترجمه إلى الفرنسية من . ياربييه دي مينار (C. Barbier de Meynard) (باريس سنة ١٨٦١ - ١٨٧٧) (القاهرة ١٣٤٦) ، جزءان .
- مسكويه (١٠٣٠/٤٢١) : أبو علي أحمد بن محمد
- ١٩٠ - كتاب تجارب الأمم النسخة العربية جزءان . طبعة ه . ف . أمدروز (H.F. Amedroz) وترجمه الأستاذ مر حوليوث (Prof. D.S. Margolionth) (أكسفورد سنة ١٩٢١ م) .
- مسلم (٨٧٥/٢٦١) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري
- ١٩١ - الجامع الصحيح ، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات (القاهرة سنة ١٣٣٢/١٣٢٩) .
- مشرقة : الدكتور عطية
- ١٩٢ - القضاء في مصر من الفتح العربي إلى الفتح الفاطمي ، (القاهرة ١٩٤٥) .
- ١٩٣ - نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، دار الفكر العربي (القاهرة ١٣٦٧ ١٩٤٨) .
- المعري (٤٤٩ / ١٠٥٧) : أبو الملاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :
- ١٩٤ - سقط الزند (القاهرة ١٣١٩ هـ) : (يولاقي ١٢٨٦ هـ) جزءان .
- ١٩٥ - لزوم ما لا يلزم (القاهرة سنة ١٨٩١ م) .
- المقدسي (٣٨٧ / ٩٩٧) : شمس الدين أبو عبد الله محمد الثاني المقدسي المعروف بالبشاري .
- ١٩٦ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة دي غوييه . Bib. Geog. Arab. (ليدن سنة ١٨٧٧) .

المغربى (١٠٤١ / ١٦٣٣) : أحمد بن محمد .

١٩٧ - فتح الطبيب من ضمن الأندلس الرطب ، ٤ أجزاء (يولاي سنة ١٢٧٩ / ١٨٦٢) .

١٩٨ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ٣ أجزاء (نشره مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شليبي) (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤١) .

المقريزي (٨٤٥ / ١٤٤١) : تقى الدين أحمد بن علي :

١٩٩ - المعامل والاعتبار في ذكر الخطوط والآثار بجزان (يولاي سنة ١٣٧٠ هـ) .

٢٠٠ - انماض أخضا بأخبار الملوك (بيت المقدس سنة ١٩٠٨ م) ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٧ / ١٩٤٨) .

٢٠١ - السلوك في معرفة دول الملوك مخطوط بالمكتبة الأهلية ببازيس رقم ٢٠٦٩ ترجمه كترمير (Quatrième) إلى الفرنسية (Histoire des Sultans Mameluks de l' Egypte) وذيله بمذكرات فيلولوجية وتاريخية وجغرافية : ظهر منه جزان (باريس سنة ١٨٣٧ م) .

٢٠٢ - التاريخ الكبير المقتضب .

(١) مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ٢٣٦٦ ، ٣ أجزاء .

(ب) مخطوط بالمكتبة الأهلية ببازيس رقم ٢١٤٤ .

ابن ماني (٦٠٦ / ١٢٠٩) : القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد

٢٠٣ - كتاب قوانين اللواوين (القاهرة ٢٩٩) ، نشره الدكتور عزيز سوذيال صليحة (القاهرة ١٩٤٣) .

ابن منجب (٥٤٢ / ١١٤٧) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي ، ويسمى أيضاً الصبر في المصري .

٢٠٤ - الإشارة إلى من نال للوزارة (القاهرة سنة ١٩٢٤ م) .

٢٠٥ - قانون ديوان الرسائل ، نشره علي هيجت (القاهرة ١٩٠٥) ، ترجمه إلى الفرنسية هنري ماسيه ، طبعة المعهد الفرنسي لقادرات الشرقية (القاهرة ١٩١٤) .

المقصوري (٧٢٥ / ١٣٢٥) : ركن الدين بيبرس المنصوري اللوادار

٢٠٦ - زبدة التنكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، المجلد الخامس ، المؤيد في الدين (٤٧٠ / ١٠٧٧) : هبة الله الشيرازي

٢٠٧ - السيرة المؤيدية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦ .

٢٠٨ - ديوان المؤيد في الدين داهي النعاه ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) .

أبن ميسر (٦٧٧ / ١٢٧٨) : محمد بن علي بن يوسف بن جلب .

٢٠٩ - تاريخ مصر ، طبعة هنري ماسيه (Henri Massé) ، (القاهرة سنة ١٩١٩ م)

٢١٠ - نيل تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتيب مقاسر رابر لتؤرخ مجهول الاسم ، ألفه سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) ، ونشره بروتنسال (الرباط ١٩٢٤) .

٢١١ - نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ، نشرها بروتنسال (باريس ١٩٤٨) .

ابن التديم (٣٨٢ / ٩٩٣) : محمد بن إسحاق

٢١٢ - كتاب الفهرست جردان (لا ييسك سنة ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

النسيبي

- ٢١٣ - كتاب مطالب السؤل في غزوات الرسول ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩ .
- التيمان (٣٦٣ / ٩٧٣ - ٩٧٤) : أبو حنيفة بن محمد المغربي
- ٢١٤ - المجالس والمسائرات ٣ أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .
- ٢١٥ - افتتاح الدعوة الزاهرة ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٨٨ .
- ٢١٦ - شرح الأختار ، مخطوط بدار الكتب المصرية (بالقاهرة ، رقم ٧٠٦٢) .
- ٢١٧ - كتاب الحمة في آداب أتباع الأئمة ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (دار الفكر العربي ، القاهرة) .
- ٢١٨ - دعائم الإسلام ، الجزء الأول ، نشره آصف علي فيضلي (القاهرة ١٩٥١) .
- النوبختي (٢٠٢ / ٩١٤) : أبو محمد الحسن بن موسى
- ٢١٩ - كتاب فرق الشيعة ، استانبول ١٩٣١ .
- التنويري (٧٣٢ / ١٣٣٢) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
- ٢٢٠ - نهاية الأرب في فنون الأدب (مخطوط مصور بالمكتبة الألمانية بباريس رقم ١٥٧٦) .
- نشرت دار الكتب الملكية بالقاهرة ١٢ جزءاً من هذا الكتاب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩
- معارف عامة في عدة مجالات .
- التيسابوري
- ٢٢١ - استار الإمام (نشره ليفانو في مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة سنة ١٩٣٦) .
- ابن هاني (٢٦٤ / ٩٧٣) : أبو القاسم المكتي بأبي الحسن محمد
- ٢٢٢ - ديوان ابن هاني (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) .
- الحدوي (٦٧٠ / ١٢٧١ - ١٢٧٢) : الإمام المنصور بالله شرف الدين الحسين بن يحيى
- ٢٢٣ - أنوار اليقين في قبسائل أمير المؤمنين (مكتبة النصف البريطاني ، القسم الشرق رقم ٣٨٦٨) .
- ابن هشام (٢١٨ / ٨٢٣) : أبو محمد عبد الملك
- ٢٢٤ - كتاب سيرة رسول الله ، ٥ أجزاء طبعة ف . وستفيلد (F. Wüstenfeld, Göttingen 1858-1860) ، (القاهرة ١٣٣٧ / ١٩٥٦) .
- هلال الصافي (٤٤٨ / ١٠٥٦) : أبو الحسن بن الحسن بن أبي إسحق إبراهيم الكاتب
- ٢٢٥ - تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) ، وذيله
- الناسخ بفهرس ومذكرات .
- ٢٢٦ - الجزء الثامن من تاريخه (٣٨٩ - ٣٩٣ هـ) طبعة أمدروز (H. F. Amedroz) ، وطبعه
- بعد ذلك وترجمه الأستاذ مرجوليوت (Prof. D.S. Margolionth) ، وذيل به كتاب تجارب الأمم
- للكوكبة (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .
- المدائني (٣٣٤ / ٩٤٦) : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن دارد
- ٢٢٧ - صفة جزيرة العرب ، جزءان ، طبعة دافيد هيتريش ميلر (David Heinrich Müller)
- (ليدن سنة ١٨٩١) .

- المحدثي : الدكتور حسين والدكتور حسن سليمان محمود
 ٢٢٨ الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ - ٦٢٦ هـ) ، القاهرة ١٩٥٥ .
 ابن واصل (٦٩٧ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨) : رجال الدين بن واصل الشافعي المذهب
 ٢٢٩ - مفرح الكروب في أخبار بني أيوب (مطبوع بالمكتبة الآماية بباريس رقم ١٧٠٢) ،
 نشره الدكتور جمال الدين الشيال في جزئين (القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧) .
 يافوت (٦٢٦ / ١٢٢٩) : شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي
 ٢٣٠ - معجم البلدان ١٠ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٢٣ / ١٩٠٦) .
 ٢٣١ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
E. J. W. Gibb Memorial, Series VI. 7 vols. (Cairo, 1907-1911)
 ٢٣٢ - مراسد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع : اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق ، ٤ أجزاء ،
 طبعة جويليل T. G. J. Juynboll (لندن سنة ١٨٥٣ م) .
 يحيى بن الحسين (٣٦٠ / ٩٧١) : الإمام يحيى بن الحسين بن هارون بن زيد بن علي بن أبي طالب
 ٢٣٣ - كتاب الإنادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية ، مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن
 رقم ١٩٧٤) .
 يحيى بن سعيد الأتطاكي (٤٥٨ / ١٠٦٦)
 ٢٣٤ - « صلة كتاب أوتيفخا » للمسي « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزآن (بيروت
 سنة ١٩٠٩) .
 اليعقوبي (٢٨٢ / ٨٩٥) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
 ٢٣٥ - تاريخ اليعقوبي ، جزآن طبعة Houtama (ليدن ١٨٨٣ م) ، طبعه النجف
 (العراق ١٣٥٨) .
 Trad. Gaston Wiet, Les Pays (ليدن ١٨٩٢)
 (Institut Français du Cairo (1937).
 ٢٣٧ - صفة المغرب وأرض السودان .
 الليثاني
 ٢٣٨ - سيرة جعفر الحاجب ، نشره إيفانوف في مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة (١٩٣٦) .

٢ — المصادر الأفرنجية

Amari : Michel

- 1 — Biblioteca Arabo Sicula, 2 vols. (Rome, 1857-1887).

Amedroz, H.F.

- 2 — Three Years of Buwaihid Rule in Baghdad. A.H. 389-393. Being a fragment of the History of Hilal as-Sabi (A.H. 448) from a Ms. in the Library of the British Museum.

- 3 — The Office of the cadi in the Ahkām Sultāniyya of Māwardi (J.R.A.S., July, 1910)

- 4 — The Mazalim jurisdiction in the Ahkām Sultaniyya of Mawardi (J.R.A.S., July, 1911).

- 5 — The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916)

Ameer Ali : Sayed

- 6 — A Short History of the Saracens, Macmillan and Co. (London, 1953).

مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى (القاهرة ١٩٣٨) ، نقله إلى العربية رياض رأفت .

Arberry : A. J.

- 7 — The Legacy of Persia (Oxford, 1953).

Arnold, Sir Thomes W.

- 8 — The Preaching of Islam, 3rd ed. (London, 1935)

رجعه إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، وعبد الحميد عابدين ، وإسماعيل محمود النحرأوى (نشرته مكتبة النهضة المصرية ، المطبعة الثانية للقاهرة ١٩٥٧) .

- 9 — The Caliphate (Oxford, 1924).

- 10 — The Legacy of Islam (Oxford, 1931).

Atiya. A.S.

- 11 — Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of Al-Shābushī's Kitāb al-Diyārat, Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologic Copte, tome v (1939).

Bachir ad-Dīn

- 12 — The Political Theory of Islam, Islamic Culture, vol. viii. No. 4, Oct., 1934. pp. 585-599.

Bell, H. I.

- 13 — Jews and Christians in Egypt (London, 1924).

Bemond (Charles) et Monod (Gabriel)

- 14 — Histoire de l'Europe au Moyen-Age (395-1270), Paris 1921.

Bernhaur

- 15— *Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes*, J.A., Ve Série, tomes XV and XVI (1861, 1862).

Blochet, L.

- 16— *Le Missionisme dans l'Heterodoxie Musulmane* (Paris, 1903).

De Bouvard, E.

- 17— *Mémoire sur l'évolution monétaire de l'Egypt médiévale* (Revue de l'Egypte Contemporaine, No. 185 (May, 1939).

Brockelmann, Carl.

- 18— *Geschichte der Arabischer Litteratur*, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

- 19 — *Supplément-Brandes*, 3 vols. (Leiden, 1937-1942).

- 20— *History of the Islamic Peoples*, trans. by J. Carmichael and Moche Perlmann (Luna Humphries, London, 1949)

Browne : Edward G.

- 21— *Literary History of Persia*

- 1, from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909). 2. From Firdawsi to Sa'di (London, 1906). 3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.) 4. Modern Times (1500-1924), Cambridge University Press, 1930.

Cahen

- 22— *Quelques chroniques anciennes aux derniers Fatimides* B.I.F.A.O., XXXVII (1937)

Canard, Marius.

- 23— *L'Impérialisme des Fatimides et leur propagande. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, (années 1942-1947) pp. 156-193.

- 24— *Le cérémonial fatimite et le cérémonial byzantin : Essai de comparaison Byzantium*, XXI (1951), pp. 355-420.

- 25— *La Procession du Novel an Chez les Fatimides*, Extrait des *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, X, Année (1952)

Creswell : K. A. C.

- 26— *Early Muslim Architecture* 2 vols. (Oxford, 1930, 1938)

Darmesteter, James.

- 27— *Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours* (Paris, 1885).

Defrémery, M.C.

- 28— *Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de la Perse.*

Devonshire, Mme R.L.

- 20— Some Cairo Mosques and their founders (London, 1921)
- 30— L'Égypte Musulmane et les Fondateurs des Ses Monuments (Paris, 1926).
- 31— Quatre-vingts Mosquées et Autres monuments musulmans du Caire (Le Caire, 1925).

Donaldson, Dwight M.

- 32— The Shi'ite Religion, a History of Islam in Persia and Iraq (London, 1933).
- 33— Studies in Muslim Ethics (London, 1935).

Dozy : R. P. A.

- 34— Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).
- 35— Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
- 36— Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).
- 37 — Essai sur l'Histoire de l'Islamisme (trad. R.V. Chauvin, Paris, 1879).

Dussaud, René,

- 38— Histoire et Religion des Nosairis (Paris, 1900).
- 39 — Encyclopaedia of Islam.

Fagnan, E.H.

- 40 — Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923)
- 41— L'Afrique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).

Fahmy, A.M.

- 42 — Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the seventh to the Tenth Century (Alexandria, 1950).

Fayzee, Asaf A.

- 43 — A Chronological List of the Imams and Dais of the Musta 'lians, Ismailis (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934).
- 44— Outlines of Muhammadan Law, 2nd ed. (Oxford University press, 1955).
- 45 — A Shi'ite Creed, Islamic Research Association, Series No. 9. (Oxford University Press, London, 1942).
- 46 — Cadi-An-Numan J.R.A.S., 1934).
- 47— The Ismailian Law of Mu'fa (J.B.R.A.S., 1929).
- 48— The Ismaili Law of Wills (Bombay, 1933).

49— *Law and Culture in Islam, Islamic Culture*, vol. XVII, No. 4 (October, 1934).

Finlay, George

50 - *History of the Byzantine Empire from 716 to 1500.*, William Blackwell and Sons, Edinburgh and London (1856).

Fischel, Walter J. ,

51 — *The Origin of Banking in Mediaeval Islam : A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century* (J R.A. S., April, 1933).

52— *Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam* (London, 1937).

Fournel, Henri

53— *Les Berbères, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes* (Paris, 1881)

Friedländer, Israël.

54 - *The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm*, *Journal of the American Oriental Society*, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

Gaudefroy Demonbynes, Maurice

55 — *Les Institutions musulmanes* (Paris, 1931) transl. - *Muslim Institutions* (George Allen and Unwin Lt., London, 1950).

، ترجمه إلى العربية بعنوان : *التنظيم الإسلامية ، صالح الشاس ، وقبيل السامر* (مطبعة الزهرام ، بغداد ١٩٥٢) .

Gautier, E.F.

56 — *Les Siècles Obscurs du Maghreb* (Paris, 1927)

Gibbon : Edward.

57— *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, 7 vols, ed. by Prof. J. B. Bury.

Gobineau, De.

58— *Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale* (Paris, 1865).

De Goeje, M. J.

59 — *Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides* (Leyden, 1886).

60 — *La Fin de l'Empire du Bahraïn* (*Journal Asiatique*, 1895).

61 — *The Karmathians*, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*.

Goldziher : Ignaz.

- 62—Vorlesungen über den Islam, 2nd ed. (Heidelberg, 1910), translated into French by Felix Arin under the title : Le Dogme et la Loi de l'Islam, Paris 1920).

وترجمه إلى العربية تحت عنوان " العقيدة والشرعية الإسلامية " محمد يوسف موسى وعبد الميزان عبد الحق وعمل حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) .

Grohman, Adolf

- 63 - Arabic Papyri in the Egyptian Library Vol. i, Cairo, 1933, Vol. ii (Cairo 1936).

ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٤ ، ١٩٥٦) . ترجمة الجزأين الثالث والرابع تحت الطبع .

Guyard, S.

- 64—Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

Hamdani, Dr. H.

- 65—Some Unknown Ismaili Authors and their Works (J.R.A.S, 1933).

- 66—A Compendium of Ismaili Esoterics زمر المعاني, Islamic Culture, vol. ii, 1937), pp. 216-220.

- 67—The Letters of al-Mustansir (Bulletin of the school of Oriental and African Studies, London 1934).

- 68 The History of the Ismaili Da'wat and its Literature during the last phase of the Fatimid Empire (J.R.A.S., 1932), pp. 126-136.

Hammer, Von

- 69—Histoire de l'Ordre des Assassins, trad. par Hellert (Paris, 1833).

Hassan, Hassan Ibrahim

- 70—Relations between Egypt and the Caliphate (641-1924) (Paper Read at the VIIIth International Congress of Historical sciences Zurich, 1938). Extract from the Bulletin of the Graduates of the Higher Training College Society, Cairo, Jan. - Feb., 1940.

- 71—Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain (Paper Read at the 21st International Congress of Orientalists, Paris, 1948), Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol. x Part ii, Dec., 1948

- 72—Contributions to the study of Fatimid History in Egypt during the Last Twelve Years (Paper Read at the IXth International Congress of Historical Sciences, Paris, 1950), Reprint from the Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol xiii, Part i, May, 1951.

- 73—Aspects of Shi'ah History, Reprint from the Muslim World, Hartford Seminary Foundation, Vol. X Lvii (October, 1957).
Structure of Muslim Society (Under Preparation),
Hautecoeur et Wiet
- 74—Les Mosquées du Caire, 2 vols. (Le Caire, 1932).
Hell, Joseph
- 75—The Arab Civilisation, trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1936).
Heyd, W.
- 76—Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Âge, 2 vols. (Leipsiz, 1923).
Hitti, Philip K.
- 77—History of the Arabs (5th ed. London, 1953.)
- 78—The Origins of the Druze People and Religion (Colombia, 1928).
- 79—The Origins of Islamic State (New York, 1916).
Hughes, Thomas Patrick
- 80—A Dictionary of Islam (London, 1885).
Hurgronje, Snouck
- 81—Mekka (The Hague, 1889 1990)
Ivanow, Vladimir
- 82—Studies in the Early Persian Ismailism (Leiden, 1948).
- 83—The Rise of the Fatimids (Calcutta, 1942)
- 84—A Guide to Ismaili Literature (London, 1933).
- 85—The Alleged Founder of Ismailism (Bombay, 1946).
- 86—Kalami Pir (Bombay, 1934).
- 87—Risala Dar Haqiqat - i Din or True Meaning of Religion (Thacker and Co., Bombay, No. 1, 1947).
- 88—True Meaning of Religion or Risala dar Haqiqat - i Din, trans. into English by Ivanow (Thacker and Co., Bombay No. 2. 1947).
- 89—On the Recognition of the Imam (Fasl dar Bayan - i Shinakht - i Imam), trans. from Persian (Thacker and Co., Bombay, 1947).
- 90—Nasir - i Khusraw and Ismailism (Thacker and Co., Bombay, 1948),
- 91—Collectanea, Vol. i (1948), The Ismaili Society, E. J. Brill, Leiden,
- 92—The Organisation of the Fatimid Propaganda (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society [T.B.B.R.A.S.], 1939, pp. 1-35.
- 93—Isma'ilis and Qarmatians (T.B.B.R.A.S.), 1940, pp. 43-85
- 94—Isma'ili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids (Oxford, 1942).

Jomier, Jacques

- 95—Le Mahmal et la Caravane Egyptienne des Pèlerins de la Mecque (XIII e et XX e Siècles, Recherches d'archéologie de philologie et d'histoire tome XX (Le Caire, 1953.)

Juynboll et De Goeje

- 96—Description du Maghreb (Leiden, 1860)

Kahle, Paul E.

- 97—Die Schätze der Fatimiden, Z.D.M.G (1935)

Kremer, Alfred von.

- 98—Culturgeschichte des Orients unter den chalifen. 2 vols. (Vienna 1875), translated by Khuda Bukhsh. (Calcutta, 1920-1927).

Kuhnel, Ernest

- 99—The Textile Museum, Catalogue of dated Tiraz Fabrics, Umayyad, Abbasid, Fatimid (Washington, 1952).

Lane-Poole, Stanley.

- 100—The Story of Cairo (London, 1912).

ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، وعمل إبراهيم حسن ، وادوار حليم (القاهرة ١٩٥١).

- 101—History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).

- 102—Coins and Medals (London, 1892).

- 103—Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. (London, 1893).

- 104—The Muhammadan Dynasties, chronological and geneological tables with historical introductions (Paris, 1925).

- 105—The Moors in Spain (London, 1887)

- 106—Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo (London, 1897).

- 107—Coinage of Egypt, A.H. 358—922, Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).

Lavoix, H.

- 108—Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Dcccxc

Levi-Provençal

- 109—L'Espagne musulmane au x^{ème} siècle : Institutions et vie sociale (Paris, 1932).

- 110—La civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948)

Lewis, Bernard

111—The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940).

112—Isma'ili Notes, Reprinted from the Bulletin of the School of Oriental and African Studies (University of London), Vol. xii, Parts 3 and 4, 1948.

113—The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).

Mac Donald, Duncan B.

114—Development of Muslim Theology, Turisprudence and Constitutional Theory (New York 1903).

Mamur Prince

115—Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs, Luzac and Co. (London, 1934).

Mann, J.

116—The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs. 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).

Margoliouth, Prof. D.S.

117—Cairo, Jerusalem and Damascus. (Oxford, 1907).

Mas Latrie, Du N.L.

118—Traité des paix et de Commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale (Paris, 1866).

Massignon, Louis

119—Equisse d'une Bibliographie Carmathe, Reprinted from a volume of Oriental Studies, February, 1922, Cambridge University Press.

120—L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques Juives (Bulletin d'Etudes Orientales), Paris, 1931.

Mercier, Louis.

121—La Chasse et les sports chez les Arabes, La Vie Musulmane et Orientale Sociologique (Paris, 1927).

Mez : Adam

122—Die Renaissance des Islams (Heidelberg, 1922), trans. into English (The Renaissance of Islam) by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London, 1937).

ترجمه إلى العربية محمد عبد الحامى أبو ريدة بمعاون : الحفارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،
جزءان (القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١).

Migeon, G.

- 123—*Manuel d'Art Musulman*, 2 vols. (Paris, 1927).

Miller, Konrad von.

- 124—*Mappae Arabicae*, drawn after Idrisi, 4 parts (Stuttgart, 1926 — 1927).

Muir, Sir William Temple

- 125—*The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall* (London, 1924) (Edinburgh, 1925).

Nasir-i Khosrau (481/1088).

- 126—*Safar Namèh*, *Rélation du voyage de Nasiri Khosrau (Safar Naméh) en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse*, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881), trans. by V. El Khachab (Le Caire, 1946).

Nicholson, John.

- 127—*An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa*. (Tübingen, 1848.)

Nicholson, Prof. Reynold A.

- 128—*Literary History of the Arabs* (London, 1914). (Cambridge, 1930).

Nizam al-Mulk (485/1092) :

- 129—*Siasset Namèh*, traité de Gouvernement, composé pour le Sultan Melik-Chah par le Vizir Nizam oul-Moulk, texte Persan (ed. by Charles Schefer), 3 vols. (Paris, 1891-1897).

O'Leary, De Lacy

- 130—*A Short History of the Fatimid Khalifate* (London, 1923). Quatremère, Etienne Marc.

- 131—*Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites*. (Journal Asiatique, Août, 1836.)

- 132—*Vie du calife fatimide Mu'izz li-din Allah* (J.A., 1836.)

- 133—*Mémoires géographiques et historiques sur l' Egypte et sur quelques contrées voisines*, 2 vols. (Paris, 1811).

- 134—*Histoire des Berbères* (Algier, 1851-2).

Ravaisse, Paul

- 135—*Essai sur l'histoire, la Topographie du Caire d'après Makrisi*, *Memoires publiés par les membres de la Mission Archéologique française au Caire, Tome III*. (Paris, 1887).

136—Receuil d' Histoire des Croisades, Historiens Orientaux ; Historiens Occidentaux

Rehatsek, E.

137—Notes on some old arms and instruments of war, chiefly among the Arabs (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society J.B.B.R.A.S), vol. xiv (1880).

De Reinaud, M.

138—De l' Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IV/12 (Journal Asiatique, 1848).

139—Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).

De Sacy, Silvestre,

140—Exposé de la Religion des Druzes.....précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim-Biamr-allah, 2 vols. (Paris, 1838).

141—Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd. ed. (Paris, 1826-1827).

142—Recherches sur l'initiation a la Secte des Ismaéleens, Journal Asiatique (1824).

Sanhoury, A.A.

143—Le Califat, son Evolution vers une Société des Nations Orientale (Paris, 1926).

Shacht, Joseph

144—The Origins of Muhammadan Jurisprudence (The Clarendon Press, Oxford, 1950).

De Slane, M.

145—Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).

Steingass : F.

146—Persian-English Dictionary (London, 1930).

Stern, G.H.

147—The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, and the rise of the Tayyibi Ismailism, in Oriens, vol. 4, No. 2 (December, 1951), pp. 193-255.

148—Masriage in Early Islam (London, 1939).

Le Strange, Guy

149—Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford University Press, 1924).

150—The Lands of Eastern Caliphate (Cambridge, 1905)

ترجمه إلى العربية بعنوان «بلدان الخلافة الشرقية» بشير فرانسيس وكوركيس عواد (بنداد ١٣٧٣/١٩٥٤).

Taylor, W.C.

151—*History of Mohammedanism and its Sects* (London, 1839).

Tousson (Prince) O.

152—*La Géographie de l'Égypte A L'Époque Arabe, Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte, Tome VIII, Première Partie, Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire* (1926).

Vasiliev, A.A.

153—*History of the Byzantine Empire 324—1453*, Basil Blackwell (Oxford, 1952).

154—*Cambridge Mediaeval History*, vol. iv.

Violen, J. van

155—*Recherches sur La Domination Arabe, Le Chittisme et les Croyances Messianiques, sous le Khilafat des Omayyades* (Amsterdam, 1894).

ترجمه إلى العربية وعلق عليه حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤).

Whishaw, Bernhard

156—*Arabic Spain, Sidelights on the History and Art* (London, 1912).

Wiet, Gaston

157—*Précis de l'Histoire d'Égypte*, 4 vols. (Le Caire—Rome, 1932—1935).

158—*Histoire de la Nation Égyptienne*, 7 vols. (Paris, 1931-1940), vol. IV (1939): *L'Égypte Arabe* (ed. by Hanoulaou)

Wüstenfeld, F. von.

159—*Geschichte der Fatimiden Chalifen* (Göttingen, 1881).

160—*Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke* (Göttingen, 1882).

٤٩٩ ، ٩٨٨ ، ٩٤٤ ، ٩٢٣ ، ٩١١ ، ٦٨٨
 ١١٣٢ ، ١٠٥٣ ، ١٧٩١ ، ٢٥١١ ، ٣٠١١ ، ٣٠١١
 ٥٢٥٠ ، ٥٢٤٤ ، ٦٦٩١
 برجوان ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥٥
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٥ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤
 ٦٢٤ ، ٦٢٤
 برشلونة ٢٤٨
 برقة ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣١١ ، ٣٩٤ ، ٤٤٠ ، ٥٢٥ ، ٦١٠ ، ٦١٤
 ابن بركات النحوي ٤٣٨
 بروقانس - مقاطعة بفرنسا ٦٠٨ ، ٦٠٩
 البريد ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٧١ ، ٤٤٨ ، ٥٢١ ، ٥٩٧
 البريديون ١٣٣
 البساسيري أبو الخارث ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٦٣٧
 ابن بسلام الشاعر الأندلسي ٤٤٦
 بستان بساتين ٥٦١ ، ٥٧٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦
 البصرة ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٥٠٤ ، ٤٩٠ ، ٤٨٨ ، ٤٦٥ ، ٤٣٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦٤٥
 بصري مدينة بجوران ١٨٣
 ابن البطائني - الوزير المأمون ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٣١٦
 بطرس القديس ٦٠٥
 ابن بطوطه ٥٤٣
 ببا - القائد التركي ٣٥
 بندق ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣

باخرا - مدينة بين الكوفة وواسط ٣٢
 باداليا - مدينة يقرب البروان ٤٤٦
 بادية السادة ٣٨٨ ، ٣٩٢
 باديس بن منصور المغربي ٣٣٤ ، ٣٣٥
 التماسك آخر جهام ١٧٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤
 ياسيل الأول - الإمبراطور ٩٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤
 ياسيل الثاني الإمبراطور ٢٣٥ ، ٢٣٦
 الباطن - الأباطنية ١٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٨٥ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٩٨
 الباقور - عمدة ٣٧ ، ٣٤١ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦
 الباقلاقي - أبو بكر ٦٣
 باكسانيا - مدينة يقرب البروان ٤٤٦
 بلاكتان ٣٧١
 بجاية - مدينة بالمغرب ٩١
 اللجنة للبحر الأحمر ٦٠٢
 البحر ٤٨ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٨٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤
 البحرية ٣٠٢ - ٣٠٥
 بخاري - بلاد ما وراء النهر ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٦٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩
 بخاري بن من الدولة بن بويه ٢٣٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٤٠٨
 بدر الجبال أمير الجيوش ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، ٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٧٨ ، ٥٢٣ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦٧ ، ٥٨٢ ، ٦٣٦ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧
 بديع قباطي ١٧٤
 بديع الزمان الحنقاني ٤ ، ٣٧٦ ، ٤٦٤ ، ٥١٣
 البليمية ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٣٨٢
 البراهمة ١٨
 البربر ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

يلكن ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٨٤ ٢٢٣

٢٢٤

يلكن بن زيري بن ساد الصنهاجي ٩٥٠ ٩٧

١١١ ١٤٩ ١٥٠ ٢٢٣

بنسية ٥٣٠

الليثا - مينة بصعيد مصر ٥٩٦

بمالي ٤٩

التيباب ٤٩

التيقية ١٢٣ ٦٠٥

الهنسا - كورة من أعمال الصعيد ٥١٣ ٥٩٦

٥٩٤

يوران بنت الحسن بن سول ٥٤٤

يورة - قرب دمايط ٦٠١

يوسير - من أعمال الفيوم ٢٦

يولاق أحد أحياء القاهرة ١١٧ ٥٣٠ ٥٣٣

يولس - القديس ٦٠٥

جرام الأرض ١٧٧ ١٧٨ ١٨١ ٢١٣

٢١٤ ٢١٥ ٢١٢ ٢١٤

بهرام مول عثمان ٥٥

اليرة - طائفة من الإسماعيلية بآبين ٢٦٧ ٣٣٠

٤٠٦ ٤٦٩ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٥

٤٧٦ ٤٧٧ ٤٨٤

أين البواب الشاعر والخطاط ١٧٠ ٢١١

٤٧٤ ٤٧٢ ٤٢٣ ٥٥٤

ابن البرين الشاعر ٤٥٠

ينو يوه - البويهيون ١٢٢ ١٢٨ ١٣٠ ١٣١

١٣٣ ١٣٩ ١٥١ ٢٢٦ ٢٢٤

٣٩٦ ٤٠٠ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨

٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥

٤١٦ ٤١٧ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٥

٤٦٧ ٥١٤ ٦٥٤

بيبرس - الملك الطاهر ٥٩٨

بيبرس الجاشنكير ٣٩٧

بيت المال ٩٢ ١٤١ ١٤٥ ١٨٥ ١٩٨

٢٨٢ ٢٩٣ ٢٩٩ ٣٠٢ ٣١٧

٣١٩ ٣٤٥ ٣٨٤ ٣٩٩ ٥٤٦

٥٥١ ٥٥٦ ٥٥٩ ٥٦٤ ٥٦٦

٥٦٨ ٦٦٣ ٦٧٢

١٢٩ - ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥

١٣٩ ١٤٧ ١٥٠ ١٧٩ ١٨٣

٢٠٧ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩

٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤

٢٥٧ ٢٦١ ٢٦٣ ٢٧٠ ٢٧٩

٢٩٤ ٢٩٧ ٣٠٦ ٣١٧ ٣١٨

٣١٩ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤

٣٩٦ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩

٤١٠ ٤١٢ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦

٤١٧ ٤٢٢ ٤٢٤ ٤٢٣ ٤٢٥

٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٥٠

٤٥١ ٤٥٨ ٤٦٥ ٤٨٨ ٤٩٠

٤٩٤ ٤٩٥ ٥٠٢ ٥٠٧ ٥١٤

٥١٧ ٥٢٠ ٥٢٧ ٥٢٣ ٥٤٢

٥٤٣ ٥٤٦ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٤

٥٨٤ ٥٨٦ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠٢

٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦٢٧ ٦٥٤

٦٧١

البندادي - أبو بكر ٢٢٧ ٤٤٦

بكار بن قتيبة - القاضي ٤٢٣

يكجور - القائد التركي ٢٢٥

أبو بكر الصديق ١ ٢ ٣ ٤ ٧ ١٦

٢٢ ٢٩ ٤١ ٢١٨ ٢٢٠ ٢٢٣

٢٦٩ ٢٦٦ ٢٢٠ ٢٢٣ ٢٣٥

٦٤٣ ٦٤٤ ٦٥١ ٦٥٢

البكري - أبو عبد ٤٨ ٤٩ ٤٥٠ ٤٥٢

٦٨ ٨٧ ٩١ ١٢٩ ١٢٣ ١٢٤

٥٢٥ ٥٢٦

بكير بن ماحان ٢٣

بلطس ١١٧ ١٦٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٩٠

١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ٢٣٥ ٢٣٦

٢٨٩ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٨

بلخ ٣٤ ٣٩ ٦٠٩

بلاوة - واحة الوزير ابن السلار ١٨٤

بلمو - حاضرة صفية ١٠١ ١٠٢ ١٠٤

بنغارا ١٢٣

البلفة = ٧ دقائق ٢٨٦

- بيت المقدس ١٧٤ ، ١٢٨ ، ١٧٣ ، ١٨٧ ،
١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٨ ،
٥٠١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٥٦ ، ٥٩٥ ،
٦١٠ ، ٦٤٦
- بزا - مدينة إيطاليا ٩١٢
- البيروني ٥١٥ ، ٥٦٠ ، ٥٦١
- البيزنطيون - الزوم ٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٣١ - ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٧ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ،
٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ -
٢٦١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٤ ،
٤٤٢ ، ٤٦٨ ، ٤٧٩ ، ٤٩٤ ، ٥١٤ ،
٥٢٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٦٩ ، ٥٨٤ ،
٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٦٩
- بيسان - من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ٤٢٩
- البيساني - أنظر القاسي القاسل
- بين القصرين - أحد سبادين القاهرة ١٩٧ ، ٥٢٩ ،
٥٣٠ ، ٥٣١
- تاروت - مدينة ١١٠
- التاريخ ٥٠٩ - ٥١٨
- تاهرت - بالمغرب الأقصى ٥٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ،
٩٧
- التأويل - علم ١٨ ، ٦٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٥ ،
٣٦٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٠ ، ٤٣٦ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ ،
٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩
- تبيوك ٤
- التنار ٤١٦
- الترابيع - صلاة ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٠٣ ، ٣٢٧ ،
تركستان ٤٩ ، ٦٦٩
- التركان - أنظر الأتراك
- ترميم - مدينة بصقلى ١٠١ ، ١٠٢
- ترنوط ٥٩٣
- تروية - قرية قرب الإسكندرية ١٤١ ، ١٤٦ ،
التصحيح ٦٤٩ ، ٦٥٠
- تستر - مدينة خوزستان ٥٨٤ ، ٦٠٨ ،
التستري أبو سعيد ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢١١ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٤٩٢ ، ٦٢٦ ،
التستري - نوع من الثياب ٥٨٤
- التشيخ ٤١ ، ٢١٨ ، ٢٧١ ، ٢٨٧ ، ٤٩٢ ،
التصوف ٤١
- تقوية - زوجة المخر ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٦٢٨ ،
بنو تغلب ٢٥
- أبو تغلب الحسني ٢٢٤
- التفسير ٤٣٥ - ٤٣٧
- التكثير ٨ ، ٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٢٧٢ ، ٦٥٠ ،
تكوين - أنقلد التركي ٥١٨
- تلمسان ٩٠ ، ٩٧
- تجم من المخر بن ياديس ١٠٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
التجيمي التبرواني التحوي ٤٣٧
- تناسخ الأرواح ٨ ، ١٨ ، ٢٧٢ ، ٤١٨ ،
تنيس - بحيرة بمصر ١٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٣٠٣ ،
٢٩٧ ، ٥٢٢ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ،
٥٥٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ،
٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ،
٦١٤ ، ٦٢٦
- تجاسة - بلاد العرب ٣٤ ، ٦٠ ،
الوابون ١٤ ، ١٧
- التوحيد - أهل التوحيد ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،
٢٨٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ،
توران شاه ٢٤٨
- توزر - أكبر مدن بلاد الجريد ٩١
- تونس أنظر إفريقية
- توتة - قرب دماط ٦٠١
- تيدورا - الإمبراطورة ٢٥٩
- تيوقنيا - زوجة رومانس ١٣٤
- التتالي صاحب اليتيمة ٦٤ ، ١٥٦ ، ٤٤٢ ،
٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٦٤ ، ٥٨٣ ،
٦٣٩
- الثغور ١٢٨ ، ٣٠٦ ، ٣٧٥ ، ٥٥٠ ، ٥٩٥ ،

٣٧٤ ، ٣٥٦ ، ٣٤٩ ، ٣١٧ ، ٣١٤
٤٤٣٢ ، ٤٢٤ ، ٣٩٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٦ —
٤٥٥٩ ، ٥٥٨ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٢ —
٤٦٥٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥١ ، ٦٤٩ ، ٥٦٩
٦٦٦

جامع المسكر ٣٧٤ ، ٣٧٦

جامع القراة ٥٣٧ — ٥٣٨ ، ٥٤٥

جامع قرطبة ٣٢٠ ، ٥٤٢

جامع قلاوون ٥٣١

جامع القس ٤٣٥ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩

جامع السيدة نفيسة ٥٨٩

جامع ٦٦٦

حيدر بن القاسم — صاحب الشرطة ٧٧٢ ، ٢٩٦

جبر الخليج — فتح الخليج ٣٦٦ ، ٣٠١ ، ٥٦٠

٥٦٦ ، ٦٤٨ ، ٦٦٩ — ٦٧٠

الحبل ٣٤ ، ١٣٣ ، ٤١٨

جبل طاروق ٦٠٩

ابن جبير ٦٠٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠

حلبة ٥٩٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٠

جرحا ٥٩٦

جرجان ٣٣ ، ١٣٣ ، ٢٦٢ ، ٦٦٩

المرجرائي — الوزير أبو القاسم ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٧٠ ، ٣١٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٣١٩ ،

٣٣٧ ، ٥١٦

ابن أبي الجرح اشاعر ٤٤٣ ، ٦٤٠

بلاد الحريد ٦٨ ، ٩١

الجزائر ٤٨

الجزيرة ٥١ ، ١٨٩ ، ٢٥٦ ، ٢٩٧ ، ٣٥٤ ،

٣٧٦ ، ٣٨٥ ، ٢٩٥ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ،

٥٥٤

الجزيرة ٢٢ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ٢٥٤ ، ٤٢٤ ،

٤٤٦ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥٣٣ ، ٥٩٩

ابن الجصاص — عيد الله ٦١٨ ، ١١٩

أبو جعفر أحمد بن نصر ١٤٣

جعفر بن الحسن الحنفي الخطيب ٣١٤ ، ٣٧٦

جعفر الباقى ٣٦٣

جعفر الصادق ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٧٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤١ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ،

٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦١٥ ، ٦١٩

التوبة ٥٩ ، ٤٠٩ ، ٤٦٧

ابن أبي ثوبان ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥

جالينوس ٥٠٢ — ٥٠٤

جامع — مسجد ٦٤ ، ١٧٩ ، ٣١٥ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٩٣ ،

٣٢٧ ، ٣٦٢ ، ٣٥٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٣ ،

٣٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٥٢٩ ،

٥٣٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،

٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٩ ،

٦٢١ ، ٦٣٨ ، ٦٤٥ ، ٦٤٩ ، ٦٥٢ ،

٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ،

٦٦٦ ، ٦٦٨

الجامع الأزهر ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ،

٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٢ ،

٣٧٧ — ٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،

٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٥٠٥ ، ٥٢٩ ،

٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٧ ،

٥٣٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ،

٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨

جامع الأقصر ١٨١ ، ٥٤٠ ، ٦٥٩

الجامع الأموي ٢٩٦

جامع الحاكم ٢٠٦ ، ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٥ ،

٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨ ،

٥٣٩ — ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٦٥٩ ، ٦٦٦

جامع أولاد عثمان ٥٢٩

ساح دمشق ٤٤٢

جامع رئاسة ٣٧٩ ، ٥٣٩

جامع السيدة رقية ٥٨٩

جامع قزحراء بالأندلس ٣٢٠

جامع الصالح ٤٤٠

جامع ابن طولون ٢١١ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ،

٣٧٦ — ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٢٤

جامع عمرو — المسجد الحنفي ٧٥ ، ١٢١ ، ٢١٢ ،

٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

حجة المراقين - الداعي أحمد حيد الدين ٤٨٨

حراث - الحرائثون ٢٦ ٤١٨ ٤٠٠

الحرة بنت الصليحي يابن ١٧٥ ١٧٦

الحروب الصليبية ٢٦١ ٥٢٣

الحزورية أنظر الطوارج

ابن أبي حازيفه - محمد ٩ ١٠ ١١

الحسية - المختب ٣٦ ٤٦ ٧٢

٢٧٤ ٢٨٩ ٢٩٣ ٣٠٠ ٣٢١

٣٢٢ - ٣٢٥ ٣٢٧ ٣٢٨

٥٦١ ٥٨٠ ٦٢٢ ٦٤٧

الحسن بن أحمد القرمطي الملقب بالأعصم ٧٨

١٥٣ ١٥٤ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠

١٦١ ٢٣٤ ٢٦٦ ٢٩٤ ٣٩٦

٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٥٩٩

الحسن بن أحمد الكاكي - والي صقليه ٩٨

أيو الحسن الأشمري ٣٨٢

الحسن بن جعفر الحسني - أمير مكة ١٥٥ ٢٣٨

الحسن بن زيد أحنوي ١٣٩ ٦٠٦

الحسن بن سهل ٥١٢

الحسن بن عبد الله عامل الحراج ٢٩٨ ٢٩٩

الحسن بن علي ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦

٣٢ ٣٧ ٣٨ ٥٤ ١٢١ ٢٢٩

٣٣٨ ٣٤١ ٣٧٦ ٤٢٦ ٤٨٤

٦٢٨

الحسن بن علي الكلبي - والي صقليه ١٠٠ ١٠١

١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٦

الحسن بن القاسم الإدريسي ٩٦

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون ٦٢ ٧٧٠٧٩

الحسين بن جوهر ١٦٥ ٢٠٥ ٢٠٨ ٢٢٠

٢٧٣ ٥١٤

الحسين بن زكرويه القرمطي ٣٨٩

الحسين بن عبيد الله بن فليح ١٢٣ ١٥١ ١٦٢٩

١٥٣ ١٥٤ ٣٩٥ ٥٠١

الحسين بن علي ٩ ١٣ ١٩ ٢٨ ٢٩

٣٢ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٥٤ ٦١ ٧٤

١٢١ ١٢٧ ١٤١ ١٤٦ ٢٢٩

٢٣٨ ٣٤١ ٣٧٦ ٤٠٢ ٤٠٣

٤٣٦ ٤٨٤ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٥٣

٦٤٢ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٥٤ ٦٥٥

٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦٧ ٣٧٦

٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨٤

٤٠٩ ٤٢٨ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٨

٤٤٣ - ٤٤٥ ٤٦٤ ٤٦٨ ٤٧٤

٤٧٦ ٤٨٨ ٤٩١ ٤٩٢ ٥٠٣

٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٨ ٥٠٩

٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥٢٣ ٥٣٢

٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٥٢ ٥٥٥

٥٥٨ ٥٦٢ ٥٨٧ ٦٠٤ ٦٠٦

٦١٦ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٧

٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧

٦٦١ ٦٦٧

أبو حامد الأنطاكي الشاعر ٤٤٤

حامد المواق ٥٦٦ ٦٢٨ ٦٤٢

حامد الرسالة ٥٦٠

حامد الرمع ٥٦١

حامد السيف ٥٦١

حباشة بن يوسف المظفر ٨٥ ١١٢ ١١٤

٢٩٧

الحبيشة ٢٠٩ ٥٩٦ ٦١٣ ٦١٦ ٦٦٩

الحبيب أنظر محمد

الحج ٢٣ ٢٤ ٧١ ١٢٥ ١٤٤ ١٤٥

٢٣٨ ٢٤٢ ٢٩٧ ٣٢١ ٣٤٣

٣٥٣ ٣٧٤ ٤١٦ ٤٦٦ ٥٤٢

٥٦٥ ٥٨٢ ٥٩٧ ٥٩٨ ٦١٠

الحجابة الحاجب ٢٧٩ ٢٨٢ ٤٢٥

الحجاج بن يوسف الثقفي ٦٥٧

الحجاز ٥ ١٧ ٢٠ ٣٤ ٣٩ ١١٣

١٢٢ ١٢٨ ١٣٦ ١٣٩ ١٤٩

١٥١ ١٥٥ ١٧٠ ١٧٩ ٢٢٦

٢٢٧ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٣٩ ٢٤١

٢٤٤ ٢٤٧ ٢٨٢ ٣١٢ ٣٩٩

٤٠٥ ٤٠٦ ٥٢٠ ٥٢٦ ٥٩٧

٥٩٨ ٦٢٠ ٦٦٩

الحجة - الحبيب ٣٥ ٣٧ ٤٠ ٧٠ ٧٣

٧٧ ٧٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٤٢ ٢٦٢

٤٧١ ٤٧٣ ٤٧٥ ٤٧٩ ٤٨٧

٤٨٨

دلاس ١٨٢ ء ٥٧٦ ء ٦٠٩	دار الضرب ٢٩١ ء ٣١١ ء ٣١٢ ء ٣١٩
دماوند - جبل قرب الزرى ٣٩	٤٩٥ ء ٥٥١ ء ٦٠٥ ء ٦١٧
دمشق ٦ ء ١٥ ء ٣٠ ء ٣٥ ء ٣٦ ء ٧٨	دار الضيافة ٤٦٢ ء ٥٣١ ء ٥٦٥
١٠٨ ء ١١٣ ء ١٢٣ ء ١٢٩ ء ١٥٢	دار الطراز ٥٥١
١٥٣ ء ١٥٤ ء ١٥٧ ء ١٥٨ ء ١٥٩	دار القطاء ٥٥٧
١٦٠ ء ١٦٢ ء ١٦٣ ء ١٦٥ ء ١٧٣	دار العلم ١٦٦ ء ١٧٥ ء ٢٨٠ ء ٢٩٣ ء ٣١١
١٨٣ ء ١٨٧ ء ١٨٩ ء ١٩٠ ء ١٩٤	٣٤٥ ء ٣٨٢ - ٣٨٤ ء ٤٢٨ ء ٤٢٩
٢٠٣ ء ٢١٥ ء ٢٢٠ ء ٢٣٤ ء ٢٣٦	٤٣١ ء ٤٣٥ ء ٤٣٨ ء ٤٤٧ ء ٥٢٢ -
٢٧٤ ء ٢٨٣ ء ٢٩٥ ء ٢٩٧ ء ٣٥٦	٥٢٣ ء ٥٣٨ ء ٥٦٥ ء ٦٢١
٣٥٧ ء ٣٨٩ ء ٣٩٥ ء ٣٩٦ ء ٣٩٧	دار اليرار ٥٥١
٣٩٨ ء ٣٩٩ ء ٤٠٠ ء ٤٣٨ ء ٤٤٧	دار الفطرة ٥٦٤ ء ٦٤١
٤٤٨ ء ٤٤٩ ء ٥١٦ ء ٥٢٢ ء ٥٢٧	دار القصد ٥٩٤
٥٣٣ ء ٥٥٦ ء ٥٩٩ ء ٦٠٩ ء ٦١٠	دار التكملة ٥٦٦ ء ٥٨٤ ء ٦٣٦ ء ٦٣٧
٦٥٦	دار الملك ١٧٥ ء ٥٤٥ ء ٥٥٦ ء ٥٥٧ ء ٥٦٧
دمشق ٥٩٦	دار الحيرة ٣٤ ء ٤٨ ء ٤٩ ء ٣٨٥ ء ٣٨٦
دمياط ١٩٨ ء ١٩٩ ء ٢٧٤ ء ٣٠٣ ء ٣٠٤	٤٦٨
٥٢٢ ء ٥٤٦ ء ٥٥٠ ء ٥٥٧ ء ٥٨٢	دار الوزارة ٤٢٨ ء ٥٤٣ ء ٥٥٦ ء ٥٥٧
٥٨٤ ء ٥٨٥ ء ٥٩٦ ء ٦٠٠ ء ٦٠١	٥٦٥ ء ٦٥٩ ء ٦٦٢ ء ٦٦٤ ء ٦٧٢
٦٠٢ ء ٦٠٣ ء ٦١٢ ء ٦١٣ ء ٦١٤	٦٧٣
٦٣٦	داعي النعاعة ٧٣ ء ٢٢٤ ء ٢٣٢ ء ٢٣٩ ء ٢٧٨
دميرة - قرب دمياط ٦٠١	٢٩٣ ء ٣١٠ ء ٣٤٤ ء ٣٤٥ ء ٣٤٦
دندان ٤٠ ء ٤١	٣٥٥ ء ٣٥٧ ء ٣٦٢ ء ٣٦٨ ء ٣٨٣
الدمرية يقولون باب العالم لا نهاية له ٤٦٧	٣٨٤ ء ٤٠٥ ء ٤١١ ء ٤١٣ ء ٤٨٨
ابن دواس سيف النولة أحمد شيوخ كتابه ١٦٧	٤٩٣ ء ٤٩٥ ء ٥٦١ ء ٥٦٦ ء ٦٦٨
٦٤٦	داود النى ٤٩٩
ديار بكر ١٣٣ ء ١٣٥ ء ٥٣٣	ديق - إحدى مدن الأناضول ١٣٤ ء ٥٥٥ ء ٥٨٢
دير - أيرة ١٧٧ ء ٢١٣ ء ٢١٤ ء ٢١٦ ء ٢٢٢	٦٠١ ء ٦٣٦ ء ٦٦٩
٢٩٠ ء ٣٣١ ء ٣٥٦ ء ٣٥٨ ء ٣٦٣	الديقى - نوع من الثياب ٦٣٦
٥٤٦ ء ٦٥٤ ء ٦٧٣	الديقية - نوع من الثياب ٥٨٦
دير الخنق ٢١٥	دجلة شهر ٧٤ ء ١٣٥ ء ٤٠٢ ء ٤٤٦ ء ٥٢١
دير سميا ٢١٦ ء ٦٧٣	ابن درباس - صدر الدين عبد الملك ٣١٤
الديباج - محمد بن جعفر ٣٩	الدرزى ٢٦٥ ء ٣٥٢ ء ٣٥٣ ء ٣٥٥
ديصان الديصانية ٢٣٠ ء ٤٠٩	٣٥٦ ء ٣٥٧ ء ٣٥٨ ء ٤٨٨
الديلم - بلاد ٣٣ ء ٣٤ ء ٣٩ ء ٤٠٠ ء ٤٠٧	الدرز - الدرزية ١٣٠ ء ١٦٦ ء ١٦٨ ء ٢٠٨
٤١٨ ء ٤١٩ ء ٤٦٧ ء ٤٩٣	٢٤٦ ء ٣٥٤ - ٣٦٠ ء ٣٧٢ ء ٤٦٦
الديلم - الديلم ٣٣ ء ٣٩ ء ١٣٣ ء ٢٦٢	٤٨٨
٣٠١ ء ٤١٣ ء ٤١٦ ء ٤٦٩ ء ٦٢١	ابن دويد - الشاعر ٣٥ ء ٤٣٤
٦٦٩	لدكة - على نهر يزيد قرب دمشق ١٥٣ ء ٣٩٦
دينار - دنانير ٦٠٤ ء ٦٠٥ ء ٦٠٦ ء ٦٠٧	

في النون المصري المتصوف ٤٢٣

الذهب ١٥٦ ، ١٦٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٩٩ ،
 ٤٣١ ، ٤٦١ ، ٥٢٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٤ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ،
 ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ،
 ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ،
 ٥٩٣ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ،
 ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٧ ،
 ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٦٣ ، ٦٦٩ ،
 الرازي - أبو حاتم الفيلسوف الإسماعيلي ٤١٩ ،
 ٤٦٧ - ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٨٩ ،

٤٩٠

الرازي محمد بن زكريا الفيلسوف الطب ٤٧٢
 راشد الخطاط ٥٥٤
 الراشد العاصي ٢٣٨
 الراصي القصاصي ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣١ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٧٢ ،
 الرافضة حصي - رقصي ٢٩ ، ٢٢٣ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 واقوده قرية ٥٢٧
 راجب - رجاك ٢١٦ ، ٦٧٣ ،
 ابن رائي محمد ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣١ ،
 ١٣٢ ،

الرملة - قرية قرب المدينة المنورة ٧ ،

الربيع بن سليمان المصري تلميذ الإمام الشافعي ٤٢٣ -

الرحمة ٨ ، ١٩ ، ٣٧٢ ،

أين درام ٥٨

بنو رزيك ١٨٨ ، ٤٥٦ ،

أبن رزيك - فوزير الصالح ١٩٦ ، ٤٥٣ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٥١٧ ، ٥٤٠ ،

رساله التنزيه ٢٦٣

رساله القضاة ٣٦٤

الرسالة الوديرية ٢٧٢ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ،

بنو رستم ٥٥ ، ٨٤ ،

رستم بن الحسين الكوكبي ٤٨ ، ٧٢ ،

الرسى - أبو إسماعيل الشريف ١٤٣ ،

٦٤٥ ، ٦٦٤ ، ٦٤٨ ،

أليينوري - أبو حنيفة ١٦ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

ديوان خوارزم ٥٦ ، ٨٣ ، ١١٦ ، ١٢٤ ،

١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٣ ، ٣٠٨ ،

٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩ ،

٢٩١ ، ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٢١ ،

٤٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ،

٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،

٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٢٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥١ ، ٥٦٣ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٩٤ ،

٥٩٩ ، ٦٣٥ ،

ديوان الأحاس ٢٩٢

ديوان الإشتهاء ٤٢٩ ، ٤٩٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ،

ديوان السميع ٥٦١

ديوان النرب ٥١٢

ديوان الجيش ٢٩٢ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ،

ديوان الحجاز ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،

ديوان الخاصة ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ،

ديوان الخراج ٥٦٩

ديوان الرسائل ٢٩٣ ، ٥١٩ ،

ديوان الروايف ٢٩٢ ، ٥١٢ ، ٥٦٢ ،

ديوان سر الخليفة ٢٨٠ ، ٢٩٣ ،

ديوان الشام ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،

ديوان الطراز ٢٩٢

ديوان المريضة ٢٩٢

ديوان النكسة ٢٩٢

ديوان المجلس ٢٩٩ ، ٥٦١ ،

ديوان النعم ٣٢٠ ، ٣٢٢ ،

ديوان النظر ٥٦١ ، ٥٦٢ ،

ديوان التفقار ١٦٨ ، ٢٧٤ ،

أبو ذر المغاري ٥ - ٧ ، ٣٢٧ ،

ذكا الرومي والي مصر ١١٠

الشمس - أهل ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ،

٣٢٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٤٤٧ ، ٥٤٩ ،

٦٢٤ - ٦٢٥ ،

الرشيد الدياسي - هارون ٣٣ ، ٤٣ ، ١١٦	وشيد ٥٥٠
وشيدة بنت الخمر ٥٥٢ ، ٦٤٥	الرشيد الدياسي - هارون ٣٣ ، ٤٣ ، ١١٦
الرضا - عل ٣٧	وشيدة بنت الخمر ٥٥٢ ، ٦٤٥
رضوان بن الولقي - الودير ١٧٧ ، ١٨٠ -	الرضا - عل ٣٧
١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٧٩ ،	رضوان بن الولقي - الودير ١٧٧ ، ١٨٠ -
٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥١٧ ، ٥٣٣ ،	١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٧٩ ،
وصوى - جبل بلحجاز ١٩	٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥١٧ ، ٥٣٣ ،
الرصي - الشريف العلوي ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،	وصوى - جبل بلحجاز ١٩
٧٢ ، ٧٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٤١٠ ، ٤٦٤ ،	الرصي - الشريف العلوي ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٦٤٥ ، ٦٤٥ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،	٧٢ ، ٧٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٤١٠ ، ٤٦٤ ،
٦٥٨	٦٤٥ ، ٦٤٥ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،
دفع ٥٩٧	٦٥٨
دقادة - مدينة بالمغرب ٥٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ،	دفع ٥٩٧
٨٢ ، ٨٤	دقادة - مدينة بالمغرب ٥٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ،
دقرة - مدينة بالمراي ٢٣٥ ، ٣٨٨	٨٢ ، ٨٤
دقية بنت لرسول ٥٨٩	دقرة - مدينة بالمراي ٢٣٥ ، ٣٨٨
دكن العولة بن بويه ١٣٣	دقية بنت لرسول ٥٨٩
أبو ركوة ١٦٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،	دكن العولة بن بويه ١٣٣
رمطة - مدينة بصملية ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،	أبو ركوة ١٦٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،	رمطة - مدينة بصملية ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
الرملة ١٢٣ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،	١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٣٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،	الرملة ١٢٣ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٦٠٩ ،	١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٣٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
الرها ١٣٥ ، ٥٣٤	٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٦٠٩ ،
الرواتب ٥٥٩ - ٥٦٣ ، ٦٣٨	الرها ١٣٥ ، ٥٣٤
روديار - إقليم ٣٦٧	الرواتب ٥٥٩ - ٥٦٣ ، ٦٣٨
رودجر - النورمندی ملك صقلية ١٠٩ ، ١٧١ ،	روديار - إقليم ٣٦٧
٢٥٦ ، ٥٢٦ ، ٦١٣ ،	رودجر - النورمندی ملك صقلية ١٠٩ ، ١٧١ ،
الروغباري - صالح بن علي ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،	٢٥٦ ، ٥٢٦ ، ٦١٣ ،
٢٧٧ ، ٣٠٠ ،	الروغباري - صالح بن علي ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
الروسيا ١٣٣ ، ٦٠٩ ، ٦١٣ ،	٢٧٧ ، ٣٠٠ ،
الروضة - جزيرة ٣٠٩ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٣٣ ،	الروسيا ١٣٣ ، ٦٠٩ ، ٦١٣ ،
٦٣٤ ، ٦٤٥ ،	الروضة - جزيرة ٣٠٩ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٣٣ ،
الروم - الرومان أنظر البيزنطيون	٦٣٤ ، ٦٤٥ ،
رومانوس - الإمبراطور ١٣٤	الروم - الرومان أنظر البيزنطيون
رومة ٥٢٧ ، ٦١١ ،	رومانوس - الإمبراطور ١٣٤
	رومة ٥٢٧ ، ٦١١ ،
الري - مدينة ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٦٩ ، ١٣٣ ،	
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ،	الري - مدينة ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٦٩ ، ١٣٣ ،
٤٦٧ ، ٤٩٤ ، ٥١٤ ،	٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ،
الرياضيات ٥٠٤ ، ٥٠٧ ،	٤٦٧ ، ٤٩٤ ، ٥١٤ ،
ريتشارد - ملك إنجلترا ١٩٩	الرياضيات ٥٠٤ ، ٥٠٧ ،
ريحان - عزيز الدولة زعيم الأتراك ١٧٠ ، ٢١٠ ،	ريتشارد - ملك إنجلترا ١٩٩
ريدان الصقلي - حامل المظلة في عهد الحاكم	ريحان - عزيز الدولة زعيم الأتراك ١٧٠ ، ٢١٠ ،
١٦٤	ريدان الصقلي - حامل المظلة في عهد الحاكم
الريف - إقليم بالمغرب ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،	١٦٤
٢٤٩	الريف - إقليم بالمغرب ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
الزات - إقليم ٣٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٤٤٠ ،	٢٤٩
ابن الزيد الشاعر ٤٥١ ، ٤٥٣ ،	الزات - إقليم ٣٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٤٤٠ ،
أبني أبي زيد - جعفر الشاعر ٤٥١	ابن الزيد الشاعر ٤٥١ ، ٤٥٣ ،
أبني الزبير - الحسن بن علي ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ،	أبني أبي زيد - جعفر الشاعر ٤٥١
أبني الزبير - الرشيد ٤٥٥ ، ٤٥٩ ،	أبني الزبير - الحسن بن علي ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ،
أبني الزبير - عبادة ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،	أبني الزبير - الرشيد ٤٥٥ ، ٤٥٩ ،
أبني الزبير - العموم ٣ ، ١١ ،	أبني الزبير - عبادة ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
أبني الزبير - مصعب ١٧	أبني الزبير - العموم ٣ ، ١١ ،
ورادشت - الزرادشتيون ٥٠٠	أبني الزبير - مصعب ١٧
وردة بن نسلودس ١٦٦ ، ٣٠٧ ، ٢٧٣ ،	ورادشت - الزرادشتيون ٥٠٠
٢٧٧	وردة بن نسلودس ١٦٦ ، ٣٠٧ ، ٢٧٣ ،
زرياب - المغني بالأندلس ٦٤٣	٢٧٧
بنو ربيع - باليمن ٢٤٧	زرياب - المغني بالأندلس ٦٤٣
الركاء ٢٨ ، ١٤٥ ، ٣٤٣ ، ٥٥١ ،	بنو ربيع - باليمن ٢٤٧
ركرويه بن مهريه ٣٨٨ ، ٣٩١ ،	الركاء ٢٨ ، ١٤٥ ، ٣٤٣ ، ٥٥١ ،
الزلازلي - الحسن بن عبد الرحيم ٤٢٦	ركرويه بن مهريه ٣٨٨ ، ٣٩١ ،
زمام الأشرف ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٥٦٦ ، ٦٤٢ ،	الزلازلي - الحسن بن عبد الرحيم ٤٢٦
زمام القصر ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٦٢٨ ، ٦٤٢ ،	زمام الأشرف ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٥٦٦ ، ٦٤٢ ،
٦٧٢	زمام القصر ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٦٢٨ ، ٦٤٢ ،
زينة - قبة بالمغرب ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،	٦٧٢
٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٥١ ، ٣٣٢ ،	زينة - قبة بالمغرب ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
الزقادة ٦٤ ، ٤٦٨ ،	٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٥١ ، ٣٣٢ ،
أبن زنبور - أبو منصور بن أبي اليم ٢٧٨	الزقادة ٦٤ ، ٤٦٨ ،
الزنج ٤٣	أبن زنبور - أبو منصور بن أبي اليم ٢٧٨
زنجان - من فواصي الجبل ٣٤	الزنج ٤٣
زنجبار - ساحل ٦١٥ ، ٦١٦ ،	زنجان - من فواصي الجبل ٣٤

سبع - سباع ١٥٦ ، ٦٧٢
 اسعية - الإسماعيلية ٣١ ، ٤٢ ، ٦١ ، ٢٧٩ ،
 ٤١٣
 سكتكين - بين السكتين القزويني ٣٩٩
 سينية - مدينة بالقرب ٩١ ، ٢٤٨
 ست الله - بنت العزيز ١٦٧ - ١٦٨ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٤ ، ٥٥٢ ، ٦١٦ ، ٦٤٦ ،
 ست الحسن - بنت سعيد الدولة الحمداني ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٤٠٦
 السمر - السمر ٣٧ ، ٤٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٤ ، ٢٩٢ ، ٤١٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٨ ،
 ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٦٦٧
 السحري - أبو يعقوب داعي الإسماعيلية ٤٧٢
 ٤٧٤
 سحر ٢١٣
 السراج - أبو عكرمة ٢٣
 سرت - عبيد - بالعرب ٥٢٥
 سر حوسه - بصقيد ١٠٩
 ابن أبي سرج - عبد الله ٩ ، ١٠ ، ٢٩٧
 سر دابة - حريرة ١١١ ، ٣٠٥
 سر دابة - حريرة ٥٢١
 سداد - بن حياض المصري ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٦٢١
 سعد - دولة الحمداني ٢٣٥ ، ٢٣٦
 سعد بن أبي وقاص ٥٦٨
 ابن سعدون - الوريثي الشاعر المفرج ٦٨
 سعيد بن أحمد - أنظر عبيد الله المهدي
 سعيد الأحول بن نجاح - من بني نجاح مائين ٢٤٢ ،
 ٢٤٣
 أبو سعيد الجنابي القرمطي ١٥٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
 سعيد بن سيف - الدولة ٢٣٥ ، ٢٣٦
 السعاح - أبو العاصم ٢٥
 السفاح - عن عبد الله ٢٥
 أبو سفيان الداعي الشيعي ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
 ٨٢ ، ٤١٧
 سفينة - مركب ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٩٨ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٤

رثومار ٥٢١
 رثكي ١٨١
 الرهرام - مدينة بالأندلس ٣٢
 الرواحيون ٢٤٥
 ابن رولاق - الموفج المصري ١١٧ ، ١٢٢ ،
 ١٢٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٢ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥٥٥ ، ٦٢٥ ،
 ٦٢٩ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٦١
 رويلة - قيلة بالمغرب ٥٢٥ ، ٥٢٤
 زناد - أبو محمد مولى بني حمدان ٢٣
 ابن زياد - عامل بالكوفة في عهد الأمويين ١٤ ، ١٧
 زيادة الله بن العباس - بالأعالي ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٨٢
 الزبونة بالمغرب ٥٢٥
 الزبيج ٣٦
 زيد بن أسن - الأزد ١٦
 زيد بن علي ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ،
 الزيدية ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٣ ،
 ١٣٩ ، ٤٠٤
 زيري - بن ساد الصنهاجي - زعيم قبيلة صنهاجة ٩٠ ،
 ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ٣٥٠ ،
 ٢٣٨ ، ٢٥١
 الزيريون - الزيرية ١١١ ، ١٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧
 زيمسكن - جون الإمبراطور ١٠٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 زينب بنت جحش - زوجة الرسول ٤٩٩
 ساوير - بن أبي طاهر القرمطي ٣٩٤ ، ٣٩٥
 ابن أبي الساج - أمير الرمي ٦٩ ، ٣٩٣
 السامانيون - أبو سمان ٩ ، ٢١ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٢٦٦ ، ٤١٨ ، ٦٣١ ، ٦٣٤
 السامانية - السامانيون ١٢٢ ، ١٣٠ ، ٤٢١
 سامرا ٣٥ ، ٤٤
 ابن سبأ - عبد الله ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ،
 ١٢ ، ١٨ ، ٣٤
 سيأين أحمد المظفر - زوج السيدة الحرة ٢٤٥ ، ٢٤٦
 السنية ١٢ ، ١٨ ، ١٩
 سيرة - بالمغرب ٨٩ ، ٩٥
 سبط - أسباط ١٩

شاور ١٨٧ ء ١٨٨ ء ١٨٩ ء ١٩٠ ء ١٩١ ء
 ١٩٢ ء ١٩٣ ء ١٩٤ ء ١٩٥ - ١٩٦ ء
 ٣٠٤ ء ٤٦٢ ء ٤٦٠ ء ٦٠٠
 شبرا - أحد أحياء القاهرة ٥٣٣
 أبو شجاع ١٣٤ ء ٢٠٢ ء ٢٠٣ ء ٢٠٤ ء ٢٠٦
 ٢٠٨ ء ٢٧٢ ء ٥١٣ ء ٥١٤ ء ٥١٦ ء
 ٥١٧ ء ٦٢٣ ء ٦٢٤
 شجاع بن شاور ١٩٢
 أين شفاء ١٨٠ ء ١٨٩ ء ١٩١ ء ١٩٢ ء ١٩٣
 ١٩٤ ء ١٩٦ ء ١٩٧ ء ١٩٨ ء ٢٠٠
 الشراة - إقليم بفلسطين ٢٠
 الشرطة ١٤٧ ء ٢٧٤ ء ٢٩٥ ء ٢٩٦ ء ٣٠٠
 ٣٢٤ ء ٣٢٥ ء ٣٢٤ ء ٣٥١ ء ٦٥٩
 شطا - على البحر الأبيض ٥٨٢ ء ٦٠١
 الشحبي ١٦
 الشمر - الشمر ١٥٥ ء ١٧٠ ء ٢١١ ء ٢٢٥
 ٢٣٢ ء ٢٦٥ ء ٣١٩ ء ٣٢٧ ء ٣٤١
 ٣٤٧ ء ٣٤٨ ء ٣٤٩ ء ٣٥٢ ء ٤٠٣
 ٤١٢ ء ٤١٥ ء ٤٢٣ ء ٤٢٤ ء ٤٣٦
 ٤٣٧ ء ٤٣٨ ء ٤٣٩ ء ٤٤٢ ء ٤٦٣
 ٤٩١ ء ٥٠٦ ء ٥١٧ ء ٥١٨ ء ٥٥٧
 ٦٣٥ ء ٦٣٧ ء ٦٣٩ ء ٦٤١ ء ٦٥٥
 ٦٥٧ ء ٦٦٩ ء ٦٧٠
 الشموية ٤٠
 أبو الشلح - أحد بن عبد الله بن ميمون ٤٢٤٤١
 ٦٢ ء ٤٠٢
 أبو الشلح محمد ٦٢
 شمال إفريقية - أنظر المغرب
 الشفري - صاحب لامية للعرب ٥١٨
 شهرباقوه - يبي بنت يزديرد الثالث ٦١ ء ١٩
 الشوك - ولاية بفلسطين ١٩٨
 شيخ الجبل ٣٦٨
 شيراز ٧٠ ء ٤١٢ ء ٤٩٢ ء ٤٩٣
 شيزر - قلعة بفلسطين ٢٣٦ ء ٥١٧
 شيركوه - آسد الدين ١٨٣ ء ١٨٤ ء ١٨٩
 ١٩٠ - ١٩٦ ء ٤٣٠ ء ٤٦٠ ء ٥١٣
 الشيعة - الشيعيون ١ ء ٢ ء ٣ ء ٤ ء ٦ ء ٧
 ١٢ ء ١٣ ء ١٤ ء ١٦ ء ١٧ ء ١٨

سوق القناديل ٥٩٩ ء ٦٠٠
 سوق النحاسين ٥٢٩ ء ٥٣١
 سوهاج ١٢٨
 السويس ١٥٤ ء ٥٩٥ ء ٥٩٨
 السراي النحوى ٢٧١
 سيف الدولة الحمداني ١٢٣ ء ١٢٦ ء ١٣٣
 ١٥٥ ء ٢٣٤ ء ٢٣٥ ء ٤٢٣
 سيلان - أنظر سر قديب
 سيناء طور سيناء ٢١٦
 ابن سينا الطيب الفيلسوف ٤٦٦
 الشاشي ٥١٢ ء ٦٧٣
 شاد التاج ٥٦٠ ء ٥٦٦ ء ٦٤٢
 الشافى الإمام ٢٢٥ ء ٤٢٣ ء ٥١٥
 الشافعية ١٨٤ ء ٣١٣ ء ٣١٤ ء ٣٧٧
 الشام - سورية ٥ ء ٦ ء ٨ ء ١٣ ء ٣٠ ء ٢٢
 ٣٦ ء ٣٩ ء ٤١ ء ٤٢ ء ٤٣ ء ٦٢
 ١٠٦ ء ١٠٨ ء ١١٣ ء ١٢٢ ء ١٢٣
 ١٣٥ ء ١٣٨ ء ١٣٩ ء ١٣٣ ء ١٣٤
 ١٣٥ ء ١٣٦ ء ١٣٨ ء ١٣٩ ء ١٤٣
 ١٤٧ ء ١٤٩ ء ١٥١ ء ١٥٢ ء ١٥٣
 ١٥٥ ء ١٥٧ ء ١٥٨ ء ١٥٩ ء ١٦١
 ١٦٢ ء ١٧٠ ء ١٧٣ ء ١٧٩ ء ١٨١
 ١٨٢ ء ١٨٣ ء ١٨٤ ء ١٨٦ ء ١٨٧
 ١٨٨ ء ١٨٩ ء ١٩١ ء ١٩٢ ء ١٩٣
 ٢٠٢ ء ٢٠٣ ء ٢٠٥ ء ٢١٩ ء ٢٢٠
 ٢٢٦ ء ٢٢٧ ء ٢٣٠ ء ٢٣٢ ء ٢٣٤
 ٢٣٧ ء ٢٥٨ ء ٢٥٩ ء ٢٦٠ ء ٢٦١
 ٢٦٦ ء ٢٧٠ ء ٢٧٤ ء ٢٨٢ ء ٢٩١
 ٢٩٧ ء ٢٩٩ ء ٣٠٢ ء ٣٠٣ ء ٣٠٤
 ٣٠٦ ء ٣١١ ء ٣١٢ ء ٣٣٤ ء ٣٥٧
 ٣٥٨ ء ٣٦٧ ء ٣٧١ ء ٣٧٩ ء ٣٨٨
 ٣٨٩ ء ٣٩٢ ء ٣٩٥ ء ٣٩٦ ء ٣٩٧
 ٣٩٩ ء ٤٠٠ ء ٤٠٦ ء ٤١١ ء ٤١٦
 ٤٣٧ ء ٤٤٥ ء ٤٥٠ ء ٤٥٧ ء ٤٦٦
 ٤٧١ ء ٤٧٩ ء ٤٩٤ ء ٥١٢ ء ٥١٧
 ٥١٨ ء ٥٢٠ ء ٥٢١ ء ٥٢٥ ء ٥٨٧
 ٥٩٦ ء ٥٩٩ ء ٦٠٣ ء ٦٠٩ ء ٦١٠
 ٦١١ ء ٦١٦ ء ٦١٩ ء ٦٢٠ ء ٦٣٤
 ٦٤٨ ء ٦٥٦ ء ٦٥٧

صالح بن حل بن عبد الله بن عباس ٣٧٤ ع ٣٧٧	٢٩ ع ٢٨ ع ٢٦ ع ٢٢ ع ٢١ ع ٢٠
صالح بن مرداس ٢٢٧	٣١ ع ٣٢ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦ ع ٣٨
الصالحية ٥٩٦	٣٩ ع ٤٠ ع ٤١ ع ٤٢ ع ٤٣ ع ٤٦
الصباح الحسن ١٧٢ ع ٣٤٢ ع ٣٦٧ ع ٣٩٨	٤٨ ع ٥٠ ع ٥٢ ع ٥٤ ع ٥٩ ع ٦١
٣٦٩ ع ٣٧٠ ع ٤٧١ ع ٤٨٨	٦٧ ع ٧٢ ع ٨٢ ع ١٣٠ ع ١٣٦ ع ١٣٨
صبرة - مدينة بالمغرب ١٤٩ ع ٥٢٦	١٣٩ ع ١٥١ ع ١٧٧ ع ١٨٤ ع ١٩٩
صرغند من أعمال دمشق ١٧٨ ع ٢١٥	٢٠١ ع ٢١٨ ع ٢٢٣ ع ٢٢٤ ع ٢٢٦
الصغار - أنظر يعقوب بن الليث	٢٢٩ ع ٢٦٤ ع ٢٦٨ ع ٢٨٠ ع ٢٨٩
الصقارية - دولة ١٣٠	٢٩٦ ع ٣٠٢ ع ٣٠٧ ع ٣٠٨ ع ٣١١
صفائق مدينة بالمغرب ٦١٦	٣١٢ ع ٣١٣ ع ٣١٤ ع ٣١٥ ع ٣١٦
الصغوية ٣٧	٣٣٥ ع ٣٤٧ ع ٣٥٧ ع ٣٦٢ ع ٣٦٠
صفين - موقعة ٣٧ ع ٢١٣	٣٧١ ع ٣٧٢ ع ٣٧٣ ع ٣٧٥ ع ٣٧٦
سقلية - جزيرة ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٩١ ع ٩٣	٣٧٧ ع ٣٨٣ ع ٣٩٦ ع ٤٠٦ ع ٤٠٧
٩٧ ع ١٠٩ ع ١١٠ ع ١١١ ع ١٢٢	٤٢٧ ع ٤٣٩ ع ٤٤٠ ع ٤٦٤ ع ٤٦٧
١٧٠ ع ١٧١ ع ٢٣٩ ع ٢٥٠ ع ٢٥٧	٤٧٥ ع ٤٨٦ ع ٥١٨ ع ٥٣٧ ع ٦٢١
٢٨٥ ع ٢٩١ ع ٣٠٥ ع ٣١١ ع ٤٣٨	٦٢٤ ع ٦٤٤ ع ٦٥٠ ع ٦٥١ ع ٦٥٢
٤٣٩ ع ٥٢٥ ع ٥٢٦ ع ٥٢٣ ع ٦٠٩	٦٥٤ ع ٦٥٥ ع ٦٥٦ ع ٦٥٧ ع ٦٥٨
٦١٣ ع ٦١٥ ع ٦١٦	٦٦٥
سقيط ٣٥ ع ٣٦	الصائفة ١٨
السك أشبه بالشيك ٦١٧	صاحب الإتياء والمكاسات ٢٨٠ ع ٢٨١ ع ٥٦٠
الصلاة ١٤٥ ع ١٥٦ ع ٢١٩ ع ٢٢٠ ع ٢٢١	صاحب الباب ٢٩٣ ع ٥٦١ ع ٦٥٥
٢٢٢ ع ٢٧١ ع ٢٩٧ ع ٣١١ ع ٣٢٧ ع ٣٢٠	صاحب البريد ٥٦١
٣٤٣ ع ٣٧٧ ع ٣٨٠ ع ٤٠٥ ع ٤١٣	صاحب بيت المال ٥٥٩ ع ٥٦٠ ع ٥٦٦ ع ٦٢٨
٤٢٦ ع ٥٣٥ ع ٥٣٩ ع ٦٤١ ع ٦٤٢	٦٣٤ ع ٦٤٢ ع ٦٦٦ ع ٦٦٧
٦٤٨ ع ٦٤٩ ع ٦٥٠ ع ٦٥٥ ع ٦٦٢	صاحب الدعوة ٦٤٠
٦٦٨	صاحب الدهر ٥٦٠ ع ٥٦١
صلاة الخيمة ١٥٥ ع ٢٦٦ ع ٢٢٧ ع ٣٧٣	صاحب الرسالة ٢٩٣ ع ٥٦٦ ع ٦٢٩ ع ٦٣٠
٣٧٤ ع ٣٧٩ ع ٥٣٦ ع ٤٣٧ ع ٥٣٩	٦٧٢
٥٦٦ ع ٥٦٧ ع ٦٥٠ ع ٦٦٦ ع ٦٦٨	صاحب الزمان ٣٥
صلاة الصبح ٢٧٢ ع ٦٢٣	صاحب الصلاة ٣٢٠
صلاة الصبح ٢٢٠ ع ٢٢٢ ع ٢٧٣	صاحب انقلم الدقيق ٢٨١ ع ٥٦١
صلاة الظهر ٢١٥ ع ٢٢٠	صاحب المجلس ٥٦٠ ع ٥٦٦ ع ٦٤٢
صلاة المشاء ٣٧٧ ع ٥٣١	صاحب المظالم ٣٢٠ ع ٣٢١ ع ٣٢٢
صلاة العصر ٢٢١ ع ٥٣٦ ع ٥٣٧ ع ٦٥٥	صاحب المظلة ٦٥٠ ع ٦٧٠
صلاة العيد ٥٥٦ ع ٥٨٦ ع ٦٣٧ ع ٦٤٢	صاحب المعرفة ٦٤٧
٦٤٩ ع ٦٦٢ ع ٦٦٤	أبو صالح الأرسى ١٨٠ ع ١٨١ ع ٢٠٢ ع ٢١٦
صالح الدين الأيوبي ١٥٢ ع ١٨٤ ع ١٨٦ ع ١٩٠	٢٩٠ ع ٥١٢ ع ٥٤٦ ع ٦٧٣
١٩٣ ع ١٩٥ ع ١٩٦ ع ٢٠١ ع ٢٢٥	صالح بن علي - العباسي ٢٦
٢٤٨ ع ٣١٤ ع ٣٨١ ع ٤٣٠ ع ٤٣٣	

الطائع الميسى ٣٩٩ ، ٢٢٨ ، ١٥٥

الطاحونة - قرب طرابلس ٢٨١

الطالمان - مدينة بحر اسنان ٣٤ ، ٣٩ ، ٢١ ، ٤١٨ ، ٤٤١٨

٤٦٧

أيو طاهر الهرمطي ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣

٢٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠

أبو الدهر محمد بن أحمد القاضى ١٤٩ ، ١٥٢ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣٠٨

٣١٦ ، ٣٩٩

الدهريه دولة ١٣٠

الطلب ٥٠٠ ، ٥٠٣

ابن طباطبا صاحب الفجرى ٦٣ ، ١١٩

ابن عبد طبا على بن حمزة ٢٩٨ ، ٢٩٩

طبرستان ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ١٣٣ ، ٤١٨ ، ٤١٩

٤٦٧ ، ٤٢٢ ، ٤٦٩

ط ق ٥٢٥

طرية ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٢ ، ٢٥٨

٥٩٠

طيه مدينة بالعرب ٥١

طمار سنان ٣٤

طرابلس ٥٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠٧

١٧٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥٧ ، ٢٣٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

٤٧٤ ، ٥٢٥ ، ٥٩٠ ، ٦١٠

الطرا ٥٨٣ ، ٦٣٦

طرسوس ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٧١ ، ١٧٣

طرسوشة مدينة بالاندلس ٥٢٠

الطارطوشى حمزة بن الويد المقيي ٣١٦ ، ٥٢٠

طبع أبو الاحشية ٣٨٩

طهر دك السلجوق ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

٢٧٨ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧

٤٩٤ ، ٤٩٥

الطهر جبل ٦٠١

طلاتبع بن دريت ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢

طلحة بن عبيد الله ٣ ، ١١

طلما ملية بصعيد مصر ٥٩٦

٤٢٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣

٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧

٥٤٣ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٨ ، ٦٠٢

٦٣٥

الصليبيون الفرنجة ١٠٩ ، ١١١ ، ١٦٣

١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢

١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٨٣

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٦٧ ، ٤٥١ ، ٥٢٦

٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٨

الصليبيون ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٦ ، ٤٠٥

الصليحي أبو حيم سبأ ٣٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

الصليحي علي ١٧٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٤٠٥

الصليحي المكرم بن علي ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦

صنعاء - بالحق ٢ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٨٢ ، ٤٤٠

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥

صهاجة قبيلة بلاد المغرب ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١

٩٢ ، ٩٦ ، ١٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٣٣

٢٢٥

صور مقسطين ٣٠٣ ، ٣٥٣ ، ٥٦٤

الصوفيون ٢٤٩ ، ٥٢٢

أبن صولات رساء عام الكوفة ٢٩٨ ، ٣٠٠

ابن صولة حيدر الكلب ٤٢٩ ، ٤٣١

الصولي لئامر ١١٦

الصيام ١٤٥ ، ٤٠٥

الصين ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦٠٩

صر غلام ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦

ضربة صر ائب ٢٧ ، ٤٥ ، ٦١ ، ١٦٦

٢٠٨ ، ٢٥٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨

٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٢١ ، ٥٤٦

٥٥٠ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢

٦٠٥ ، ٦٦٠

ضريبة الارض ٥٤٧

أبن الصفت الشاعر ٤٥٥

٢٩ ٤ ٤١ ٤ ٥١ ٤ ٦٠ ٤ ١٢٨ ٤ ٢٣٨ ٤
 ٢٤٠ ٤ ٢٢٣ ٤ ٢٦٩ ٤ ٢٠٠ ٤ ٢١٨ ٤
 ٢٢٣ ٤ ٢٢٠ ٤ ٢٢٥ ٤ ٤٢٦ ٤ ٤٦٨ ٤
 ٦٥١ ٤ ٦٥٢ ٤ ٦٥٨
 عمرو بن العاص ٢١٣ ٤ ٢٩٦ ٤ ٢٩٧ ٤ ٣٧٤ ٤
 ٥٢٧ ٤ ٥٧٢
 عمر بن عبد العزيز - الأموي ٢٣ ٤ ٢٦
 القمري - أبو سعيد رئيس الإمامية ٣٦
 عورى ملك بيت المقدس ١٦٠ ٤ ١٩١ ٤ ١٩٢ ٤
 ١٩٤ ٤ ١٩٥
 ابن العميد - الوزير الكاتب ٣٩٩ ٤ ٤٢٢ ٤ ٥١٤ ٤
 المنب ٦٤٥
 أبو الوفاء - أبو القباس القفاقي ٧١٠ ٤ ٧١١ ٤ ٧١٢ ٤
 ٣٥٦ ٤ ٣٦٣ ٤ ٣٧٩
 عون الدولة بن هيرة الوزير العباسي ٤٤٨
 عيد - أعياد - مواسم ١٥٥ ٤ ١٧٧ ٤ ٢١٤ ٤
 ٣٢٠ ٤ ٣٢١ ٤ ٥١٥ ٤ ٥٢١ ٤ ٥٦٠ ٤
 ٥٦٤ ٤ ٥٦٥ ٤ ٥٦٦ ٤ ٦٢٢ ٤ ٦٢٣ ٤ ٦٢٤ ٤
 ٦٢٥ ٤ ٦٢٦ ٤ ٦٢٧ ٤ ٦٢٨ ٤ ٦٢٩ ٤
 ٦٣٠ ٤ ٦٣١ ٤ ٦٣٢ ٤ ٦٣٣ ٤ ٦٣٤ ٤
 ٦٣٥ ٤ ٦٣٦ ٤ ٦٣٧ ٤ ٦٣٨ ٤ ٦٣٩ ٤
 ٦٤٠ ٤ ٦٤١ ٤ ٦٤٢ ٤ ٦٤٣ ٤ ٦٤٤ ٤
 ٦٤٥ ٤ ٦٤٦ ٤ ٦٤٧ ٤ ٦٤٨ ٤ ٦٤٩ ٤
 عيد الأضحي ١٥٥ ٤ ٢٦٦ ٤ ٤٤٣ ٤ ٥٦٢ ٤
 ٥٦٥ ٤ ٦٤١ ٤ ٦٤٢ ٤ ٦٤٣ ٤ ٦٤٤ ٤ ٦٤٥ ٤
 ٦٤٨ ٤ ٦٥٢ ٤ ٦٥٣ ٤ ٦٥٤ ٤ ٦٥٥ ٤
 عيد الخلل - أنظر عيد القطر
 عيد القطر ١٥٥ ٤ ٢٤٠ ٤ ٢٦٦ ٤ ٣٤٥ ٤
 ٣٨٤ ٤ ٥٦٥ ٤ ٥٨٤ ٤ ٥٨٦ ٤ ٦٣٧ ٤
 ٧٣٨ ٤ ٦٣٩ ٤ ٦٤١ ٤ ٦٤٢ ٤ ٦٤٣ ٤
 ٦٦٢
 عيد النصر ٦٤٨
 ميقات ٣-٤ ٤ ٥٥٠ ٤ ٥٩٦ ٤ ٥٩٧ ٤ ٦٠٣ ٤
 ٦١٠ ٤ ٦١٠
 عيسى عليه السلام ٨ ٤ ٧٦ ٤ ٢٠٧ ٤ ٢١٤ ٤
 ٣٢٧ ٤ ٣٤٠ ٤ ٣٤٣ ٤ ٣٤٨ ٤ ٣٨٥ ٤
 ٣٩٤ ٤ ٦٤٨
 حين تحس - طبريز ٢٥٤ ٤ ٣٩٧ ٤ ٣٩٩ ٤
 ٥٤٥ ٤ ٦٢٣ ٤ ٦٢٨
 حين الورقة - موقعة ٩٤

حل بن بويه ٤٦٧
 حل بن الحسين - زين العابدين ٣٧ ٤ ٢٨
 أبو حل الداعي ٧٥
 حل القرظ بن موسى الكاظم ٤٨٦
 حل بن رعوان - الطيب ٥٠٢ ٤ ٥٠٣
 حل زين العابدين ٣٤١ ٤ ٤٨٦
 حل بن عيسى - الوزير القائم العباسي ٧٠ ٤ ١١٦
 حل بن عيسى بن موسى العباسي ٣٩٤
 حل بن محمد بن إسماعيل بن الحسن الزيدى ٣٧٨
 حل بن محمد بن حل بن موسى الكاظم ٤٠١
 حل بن الوليد - قاضي القسك ٢٦٩ ٤ ٣٧٧
 العلويون ١ ٤ ١٤ ٤ ٢١ ٤ ٢٢ ٤ ٢٤ ٤ ٢٨ -
 ٣٢ ٤ ٣٩ ٤ ٤٣ ٤ ٥٧ ٤ ٥٩ ٤ ٦٠ ٤ ٦١
 ٦٧ ٤ ٧٠ ٤ ٧٢ ٤ ٧٧ ٤ ١١٢ ٤ ١١٣ ٤
 ١٢٩ ٤ ١٤١ ٤ ١٤٦ ٤ ١٤٨ ٤
 ٢٢٣ ٤ ٢٢٦ ٤ ٢٢٧ ٤ ٢٣٠ ٤ ٢٤٨ ٤
 ٢٦٤ ٤ ٢٦٦ ٤ ٢٣٠ ٤ ٢٣٢ ٤ ٢٣٣ ٤
 ٢٧٥ ٤ ٢٩٣ ٤ ٢٩٦ ٤ ٤٠٠ ٤ ٤٠٦ ٤
 ٤٠٨ ٤ ٤١٨ ٤ ٤٨٦
 حماد للدولة بن بويه ١٢٣
 حماد الدين الأصفهاني ٤٣٠ ٤ ٤٣٣ ٤ ٤٤٨ ٤
 ٤٤٩ ٤ ٤٥٠ ٤ ٤٥١ ٤ ٤٥٣ ٤ ٤٥٤ ٤
 ٤٥٥ ٤ ٤٥٦ ٤ ٤٥٧ ٤ ٤٥٨ ٤ ٤٥٩ ٤
 ٤٦٠
 حماد أبو الحسن الكلبى ٦٠٦
 ابن حماد - الحسن المغربي ١٥٤ ٤ ١٦٣ ٤ ١٦٤ ٤
 ١٦٥ ٤ ٢٠٤ ٤ ٢٧٢ ٤ ٢٧٧ ٤ ٢٧٣ ٤
 ٦٢٤ ٤ ٦٢٥
 ابن حماد - الحسين المغربي ٣٩٧ ٤ ٦٥٠ ٤ ٦٥٦
 حماد بن ياسر الصحابي ١١ ٤ ٣٢٦ ٤ ٥١٨
 حمارة اليمن - الشاعر المشهور ٦٦ ٤ ١٨٠ ٤ ١٨٧
 ١٨٨ ٤ ١٨٩ ٤ ١٩٠ ٤ ١٩١ ٤ ١٩٢ ٤
 ١٩٣ ٤ ١٩٦ ٤ ٢٤٦ ٤ ٢٤٧ ٤ ٤٠٤ ٤
 ٤٠٥ ٤ ٤٤٩ ٤ ٤٥١ ٤ ٤٥٢ ٤ ٤٥٥ ٤
 ٤٦٠ ٤ ٤٦٣ ٤ ٥٠٧ ٤ ٥١٤ ٤ ٥١٦ ٤
 حماد ٢٤٤ ٤ ٢٤٦ ٤ ٢٩٠ ٤ ٦٠٩ ٤ ٦١٠
 حماد بن الحسن الخليلي العباسي ١٢٠
 حماد بن الخطاب ١ ٤ ٤ ٤ ٧ ٤ ٨ ٤ ١١ ٤ ٢٣ ٤

غالب الناصر العلوي ٢٢

أبو غالب للموقف في الدين ٥٢٨

خاتمة ٦١٤

خديرة غم - حيد ٥٣٢ ، ٥٦٠ ، ٦٧٢ ، ٦٣٥ ، ٦٦٥ ، ٦٥٣ ، ٦٥٢ - ٦٥١ ، ٦٥٠

البار ٣٤ ، ٢٦٥ ، ٣٤٧

الفز ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٣٠١

الفرزالي - أبو حامد ٣٦٨

خزنة ٢٦٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤

الفرزونية - حولة ١٣٠ ، ٢٦١ - ٢٦٣ ، ٤٢١

خزنة ١٨٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

القطاس ٦٤٨

التملان ٦٠٨ ، ٦٢٥ ، ٦٢٣ ، ٦٧١

الغنية ٣٤

الغنية الصخرى ٣٥

الغنية الكبرى ٣٥ ، ٣٦

الغور - ٤١٨

الغورية - أحد أسماء القاهرة ٥٢٩

دي غوه ٤١ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٣٨٥

٣٩٣ ، ٣٩٥

الغافر الفاطمي ٨٠ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٤٤٩

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٥١٧

الغارابي ٥٠٢

الغارقي - أنظر مالك بن سعيد

غارس إيران ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٩٠ ، ٤٦١

٦٢ ، ١٣٣ ، ١٧٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦١

٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣

٤١٣ ، ٤١٧ - ٤٢٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧

٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٨

٤٩٣ ، ٥٢١ ، ٥٥٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٨

٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦٣٤ ، ٦٥٤

قاس ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥

٢٥٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٩

قاطمة الزهراني ١ ، ٣ ، ٢١ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٥٤

٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠

٧٦ ، ٧٩ ، ١٢١ ، ١٧٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

٢٩٤ ، ٢٦٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٧٦

٤٠٩ ، ٦٤٨

قائمة - فلسطين ٢٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠

قبح الأسيار - بجيل إيكيجان بأرض كتامة قريه

قسططينية ٤٨ ، ٤٩

قبح ٢٢ ، ٢٩ ، ٤٨

العداوية ٢٦٨ ، ٢٦٩

قذك ٣ ، ٣١٦

المرات - شهر ٤٣ ، ٦٩ ، ١٣٥ ، ١٥٢ ، ٢٣٢

٢٣٤ ، ٢٩٧ ، ٤١٢ ، ٤١٩

ابن المرأت - جعفر الوزير الفاطمي ١٢٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٣١١

٣١٨

ابن المرأت الوزير العاصي ١١٦

أبو فراس الحمداني الشاعر ١٣٤

العرس ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٤

٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٦٠ - ٦١ ، ١١٧

١٣٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤

٣٥٥ ، ٣٧١ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩

٤٦٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٤٣

٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٦٣١ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠

٦٦١ ، ٦٦٩ ، ٦٧١

العرش ٥٨٦

قرغانة - بيلاد ماوراء النهر ١١٧

الفرما ١٥٤ ، ٣٠٣ ، ٣٩٧ ، ٥٥٥ ، ٥٩٨

٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩

الفرنجية - أنظر التليبيون

قران - بالمغرب ٥٤٢

المسطاط ٩ ، ١٠ ، ٥٣ ، ١١٣ ، ١١٦

١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ - ١٤٨ ، ١٥٣

١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٤

٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨

٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢

٥٣٤ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٦٩ ، ٥٨٧

٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤

٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٠٨

٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٠ ، ٦٥١ ، ٦٧٠

قاعة التمجيد ٢٦٦ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦
٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١
٦٦٢

قاعة القزلو ٥٥٧

القاسم بن إبراهيم العلوي ٣٤ ٣٥ ٣٦

القاسم — محمد بن محمد بن الحنفية ١٧

قاشان ٤١٨

القاضي الفاضل — عبد الرحيم البيهقي ٢٣١ ٢٣٢

٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨

٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤

٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠

القاضي — القضاء ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥

٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١

٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧

٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣

٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩

١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥

١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١

١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧

١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣

١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩

١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥

١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١

١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧

١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣

١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩

١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥

١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١

١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧

١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣

١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩

١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥

١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١

٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧

٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣

٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩

٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥

٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١

٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧

٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣

التفسير ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧
ابن فضل — الخلق ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١
٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧

التفصيل بن صالح — انقائه ٤٤٤

التفصيل بن عيسى البرمكي ٢٢

النفقة ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣

٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩

٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤

٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠

٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦

٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢

٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨

٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤

٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠

٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦

٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢

٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨

٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤

٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠

٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦

٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢

٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨

٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤

٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠

٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦

٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢

٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨

٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤

٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠

٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦

٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢

٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨

٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤

٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠

٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦

٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢

٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨

٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤

٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠

٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦

٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢

٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨

٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤

٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠

٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦

٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢

٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨

٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤

٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠

٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦

٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢

٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨

٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤

٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠

٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦

٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢

٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨

٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤

٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠

٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦

٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢

٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨

٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤

٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠

٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦

٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢

٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨

٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤

٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠

٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦

٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢

٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨

٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤

٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠

٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦

٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢

٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨

٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤

٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠

٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦

٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢

٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨

٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤

٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠

٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦

٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢

٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨

٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤

٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠

٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦

٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢

٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨

٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤

٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠

٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦

٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢

٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨

٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤

٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠

٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦

٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢

٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨

٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤

٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠

٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦

٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢

٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨

٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤

٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠

٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦

٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢

٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨

٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤

٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠

٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦

٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢

٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨

٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤

٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠

٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦

٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢

٩٥٣ ٩٥

قسط - بحيرية قنأ ٥٩٤ = ٥٩٤	نصر - قصور ٥٦ = ٩٣ = ٤٩٦ = ١٦٦
أين قنطلي ١٦٥ = ٥٠٩ = ٥٠٩ = ٥١٣	١٧٩ = ١٧٤ = ١٧٨ = ١٨٩ = ١٨٩
قنطزم ٣٩٧ = ٥٩٨ = ٥٩٦ = ٥٩٨	١٨٤ = ١٨٦ = ١٨٩ = ١٩٠ = ١٩٧
٦٠٨ = ٦٠٩ = ٦٠٩ = ٦١٠	١٩٨ = ٢٠٠ = ٢٠١ = ٢٠٢ = ٢٠٥
قلمة الجبل ٥٣٣ = ٥٩٩	٢٠٨ = ٢١١ = ٢١٤ = ٢١٥ = ٢٢٥
قلورية - أنظر كلايريا	٢٥٨ = ٢٦٥ = ٢٧٢ = ٢٧٣ = ٢٧٧
قليوب ٥٩٦	٢٩٩ = ٣١١ = ٣٤٤ = ٣٤٦ = ٣٥٠
قم ٤١٨	٣٦٢ = ٣٦٦ = ٣٨١ = ٣٨٧ = ٤٢٦
قنبر - سول على ١٢	٤٢٨ = ٤٣٢ = ٤٣٣ = ٤٣٤ = ٤٣٥
قنصار - إقليم باغد ٣٩	٤٤٢ = ٤٦٠ = ٤٦١ = ٥٠٣ = ٥٢٣
القنوت ٢٢٢ = ٣٢٧	٥٢٧ = ٥٢٨ = ٥٣٠ = ٥٣٢ = ٥١٤
قوس ١٧٧ = ٢١٣ = ٢١٤ = ٢٨٩ = ٥٩٦	٥٤٢ = ٥٤٤ = ٥٤٥ = ٥٥٢ = ٥٥٣
قيسارية - قيسر : أنظر قنق - غنق	٥٥٤ = ٥٥٧ = ٥٥٨ = ٥٦٥ = ٥٦٦
القيروان ١ = ٤٥ = ٥٩ = ٥٢ = ٥٤ = ٥٦ = ٦٨	٥٦٧ = ٥٧٩ = ٥٨١ = ٥٨٣ = ٥٨٥
٦٨ = ٦٩ = ٧٢ = ٨٣ = ٩٠ = ٩١ = ٩٢	٥٩١ = ٦١٠ = ٦١١ = ٦١٦ = ٦٢٨ = ٦٢٨
٩٢ = ٩٥ = ٩٧ = ١١٢ = ١١٢ = ١٢٩	٦٣٣ = ٦٣٩ = ٦٤١ = ٦٤٢ = ٦٤٣
١٥٤ = ١٦٣ = ١٧٦ = ٢٥١ = ٢٥٢ = ٢٥٢	٦٤٧ = ٦٥٢ = ٦٥٣ = ٦٥٥ = ٦٦٢
٢٥٢ = ٢٦٤ = ٢٦٣ = ٢٦٤ = ٢٦٥ = ٢٦٥	٦٦٣
٢٦٦ = ٢٦٧ = ٢٨٢ = ٢٨٢ = ٢٩٤ = ٤١٩	القصر : التماثيل القاطنية في ٣٤٥
٤٢٢ = ٤٤١ = ٤٤٢ = ٤٥٢ = ٤٥٢ = ٦١٠	قصر البحر ٥٤٥
القيس - من أعمال الصبي ٥١٣	قصر الذهب ٥٤٥
أين القيساني - عيسى ٥٥٤	قصر ست الملك ٦١٦
كاتب الإنشاء ٦٣٧	القصر الشرق الكبير ٥٣١ = ٥٦٤ = ٦٢٨
كاتبه التمت الشريف ٥٦٩	٦٧٢
كاتب الديوان ٦٠٣	قصر الفرافة ٥٦٧ = ٦٢٨ = ٦٤٥
كانفور الإغشية ١١٨ = ١٢٢ = ١٢٩ = ١٣٩	القصر الغربي ٥٣١ = ٥٨٩ = ٦٢٨
١٣٧ = ١٤٦ = ٢٧٠ = ٢٧١ = ٢٩٨	القصر ٥٩٦
٥١١ = ٥٣٠ = ٦٢٥	القصر لفتان ٥٣٨
الكلورية ١٢٣ = ١٤٢ = ١٥٠ = ١٥٢ = ١٥٢	القنصاق - المورخ المصري ١٦٨ = ١٧٠
أير كاليجار اليوسى ٢٣٦ = ٢٣٢ = ٢٣٢ = ٢٤٦	٢٥٩ = ٢٦٠ = ٢٨١ = ٣٠٠ = ٣٠٩
٤١٢ = ٤١٣ = ٤١٤ = ٤١٤ = ٤١٤ = ٤٢٢	٣٥٠ = ٣٥٢ = ٣٥٥ = ٣١٦ = ٣٢٩
٤٢٣	٦٧١
كاليجولا ٣٥٢	قصر القديس ٢٩٤
الكمل بن شاور ٢٨٨	القنطاع - حاضرة الطولونيين ٢٩٤ = ٣٧٤
كاليوكيا - تلول ٢٣٤	٣٨١ = ٤٢٤ = ٥٢٧ = ٥٣٩
الكتابة ٢٧٩ = ٢٨٢	القنن ٥٢٧ = ٥٥١ = ٥٥٨ = ٥٥٨ = ٥٥٣
	٥٨٤ = ٥٩٠ = ٦٠٤
	القنيت - من الخليل القارسي ٢٨٩ = ٢٩٢

٤٠٢٥٠ ٤٠٢٢٧ ٤٠٢٢٦ ٤٠٢٢٥ ٤٠٢٢٤
٤ ٠٠١ ٤ ٤٧٦ ٤ ٤٤٥ ٤ ٤٤٤ ٤ ٤٤٣
٤ ٠٤٦ ٤ ٠٣٧ ٤ ٠٣٦ ٤ ٠٣٢ ٤ ٠٠٣
٦٣٣ ٤ ٦٣٢ ٤ ٥٨٩ ٤ ٥٥٦

بنو كلان ٩١ ٤ ٩٢

الكندي - أبو عمر المؤرخ المصري ٥٢ ٤ ٥٣
٤ ١١٧ ٤ ١١٦ ٤ ١١٥ ٤ ١١٤ ٤ ١١٣
٤ ٣١٠ ٤ ٣٠٨ ٤ ٣٠٧ ٤ ٣٠٦ ٤ ١٢٢
٤ ٣٥٠ ٤ ٣٣٨ ٤ ٣١٩ ٤ ٣١٥ ٤ ٣١١
٥١١ ٤ ٥١٠ ٤ ٥٠٩

الكر - زعيم السودانين ١٩٧

كنيسة - كائس ١٦٥ ٤ ١٧٧ ٤ ٢٠٢ ٤ ٢٠٦
٤ ٢٥٨ ٤ ٢١٦ ٤ ٢١٤ ٤ ٢١٣ ٤ ٢٠٩
٦٧٣ ٤ ٦١٩ ٤ ٥٤٦ ٤ ٢٩٠ ٤ ٢٦٠

كنيسة السيدة بربارا بمصر القديمة ٥٨٩

كنيسة أبي سيقين - بظاهر القسطنطين ٢٠٢

كنيسة القسطنطينية ٦٤٦

كنيسة القيامة - بيت المقدس ٢٠٧ ٤ ٢٥٨ ٤ ٢٥٩
٢٦٠ ٤ ٢٦١

الكلوة ١٠ ٤ ٦ ٤ ٨ ٤ ١٠ ٤ ١١ ٤ ١٣

٤ ٢٠ ٤ ١٨ ٤ ١٧ ٤ ١٦ ٤ ١٥ ٤ ١٤

٤ ٤٤١ ٤ ٣٩ ٤ ٣٤ ٤ ٣٢ ٤ ٢٩ ٤ ٢٢ ٤ ٢١

٤ ٢٣٦ ٤ ٢٣٥ ٤ ٢٢٨ ٤ ٢٢٧ ٤ ٢٢٦ ٤ ٢٢٥ ٤ ٢٢٤

٤ ٤٠١ ٤ ٣٩٢ ٤ ٣٨٩ ٤ ٣٨٦ ٤ ٣٨٥

٤ ٥٢٧ ٤ ٤٢٢ ٤ ٤١٩ ٤ ٤١٧ ٤ ٤٠٣
٦٥٥ ٤ ٦٠٩

الكون الأحمر ٥٩٦

ابن كيداد - أبو يزيد غنم الكلاوي بالمغرب

٤ ٢٦٥ ٤ ٢٥٠ ٤ ١١٧ ٤ ٩٢ ٤ ٩١

٥٢٦ ٤ ٥٢٤ ٤ ٣٤٧

كيسان ١٥ ٤ ١٦

الكنيسة - حزب ١٥ - ٢١

كيما - أنظر غوارزم

كيليكيا ١٣٥ ٤ ١٤٣ ٤ ١٤٧

اللاقية ٢٦٠ ٤ ٢٢٤

لاعة - جبل جنوبي صنداء ٤٨ ٤ ٤٩ ٤ ٥٠٤

لدة ٢٥

لبنان ١٣٠ ٤ ٣٥٢ ٤ ٣٥٨

الكتاب الثاني ٥٣٨

كتابة - قبيلة بالمغرب - الكتاب ٤٦ ٤ ٤٧

٤ ٨٣ ٤ ٧٢ ٤ ٥٦ ٤ ٥٠ ٤ ٤٩ ٤ ٤٨

٤ ٩٤ ٤ ٩١ ٤ ٩٠ ٤ ٨٩ ٤ ٨٥ ٤ ٨٤

٤ ١٤٦ ٤ ١٣٦ ٤ ١١٣ ٤ ١٠٧ ٤ ٩٨

٤ ٢٠٣ ٤ ١٦٧ ٤ ١٦٤ ٤ ١٦٣ ٤ ١٥٣

٤ ٢٧٤ ٤ ٢٧٢ ٤ ٢٥١ ٤ ٢٥٠ ٤ ٢٠٥

٤ ٥٢٤ ٤ ٤٧٨ ٤ ٢٢٤ ٤ ٢٢٣ ٤ ٢٩٣

٤ ٦٥٠ ٤ ٦٤٦ ٤ ٦٢٤ ٤ ٦٢٣ ٤ ٦٢١

٦٦٩

الكتاب ٥٤٧ ٤ ٥٥١ ٤ ٥٥٨ ٤ ٥٧٦ ٤ ٥٨٢

٤ ٦٠٤ ٤ ٦٠٠ ٤ ٥٩٨ ٤ ٥٩٠ ٤ ٥٨٣

٦٣٧

كتفا - الأمير عبد الرحمن ٥٣٥

كثير حزة ١٩

كريلام ١٣ ٤ ١٤ ٤ ١٥ ٤ ١٩ ٤ ٣٢ ٤ ٦٥٤

٦٥٦

الكرخ ٥٢٦

الكرخي - أبو الحسن متول الخراج ٣٠٠

الكرخ - ولاية بفلسطين ٤٠ ٤ ١٩٨

كرمان ١٣٢ ٤ ٦٠٩

الكرمان - حيد الدين راضي الإسماعيلية ٤٢٩ ٤

٤ ٤٦٨ ٤ ٤٧١ ٤ ٤٧٣ ٤ ٤٧٤ ٤ ٤٧٦

٤٨٧ ٤ ٤٨٨ ٤ ٤٩٢

كرمت - القريش ٣٠٢ ٤ ٦٠٣ ٤ ١٣٣ ٤ ٣٠٥

٤٩٩

كسرى - أكسرة ١٦٧ ٤ ٦٣١

الكسوة ٢٨٩ ٤ ٢٩٢ ٤ ٥٤١ ٤ ٥٥٢ ٤ ٥٦٠

٥٦٥ ٤ ٥٦٧ ٤ ٥٨٣ ٤ ٥٨٤ ٤ ٦٣٧

الكشف ٤٦٨ ٤ ٤٨٤

بنو كلاب - قبيلة مربية ٢٥

كلا بريا - قلورية ٨٤ ٤ ١٠٠ ٤ ١٠١ ٤ ١٠٤

١١١ ٤ ١١٠ ٤ ١٠٨ ٤ ١٠٥

الكلبيون - بصفية ٢٣٧ ٤ ٢٨٥ ٤ ٣٨٨ ٤ ٥١٨

أم كلثوم - بنت محمد بن جعفر الصديق ٦٥٦

أين كلثوم - بطريق ٢٧٧ ٤ ٢٧٨ ٤ ٢٧٩ ٤ ٢٨٠ ٤ ٢٨١

٢٨٤ ٤ ٢٨٥ ٤ ٢٨٦ ٤ ٢٨٧ ٤ ٢٨٨

مجلس الدعوة ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٤٩٥
 مجلس العلم ٥٣٣
 مجلس القضاء والطرب ٦٢٦ - ٦٢٧
 مجلس الإمامة ٣٤٥
 مجلس الداعي ٣٨٣
 مجلس المطا ٥٥٧ - ٦٣٥
 مجلس الملك - أنظر قاعة الذهب
 المجلس المجوسية ١٨ - ٦٢ - ٦٤ - ٤٠٩ - ٤١٧
 المجلس - أنظر الحسية
 أخو محسن - أنظر ٥٧ - ٥٩ - ٦٢
 الحصة الكبرى ٥٩٦ - ٥٩٨ - ٦٠٤
 محمد بن إبراهيم العلوي ٣٤
 محمد بن إسماعيل بن جعفر ٣١ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٥٩
 ٥٩ - ٦١ - ٦٢ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨
 ٧٩ - ٣٢٦ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٨٧
 ٣٨٨ - ٣٨٩
 محمد الحبيب - أبو عبيد الله المهدي ٤٧ - ٤٨
 ٧٤ - ٧٥ - ٢٠١ - ٤٠٣ - ٤٨٧
 محمد بن الحسن العسكري ٣٥
 محمد بن خزر الزرقاني ٩٠
 محمد بن سليمان الكاتب العباسي ٥٢ - ٥٣ - ٢٩٧
 ٣٨٩
 محمد بن طنج - أنظر الإغشية
 محمد بن عبد الله بن الحسن - النفس التركية ٣١
 ٣٢
 محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ٢٠ - ٢١ - ٢٢
 ٢٣ - ٢٤ - ٢٦
 محمد الفاتح ٥٢٧
 محمود بن سيكتكين - يمين الدولة ٢٦٦
 محمود المزنوي ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٤٢٢
 المحول ٣٨٤
 المختار بن أبي عبيد الثقفي ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨
 ٢٠ - ٢٧
 المختارية - فسية إلى المختار بن أبي عبيد ١٦
 ابن المديبر - أحمد عامل الخراج ٢٩٨ - ٢٩٧
 بنو مغوار بالقرب ٥٣ - ٨٤
 مغرسة - خدازس ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣

أقنعة ٣٥١ - ٣٥٢
 آك - بلدة بنو أسى بركة ١٧٢ - ١٨٤
 ملك بن مالك - الداعي ٢٤٢
 بنو لواته ١٩٢ - ٢٢٩
 لوبيا ١١٥
 لومبارديا ١١٠
 لويس السابع ١٨٧
 ليال القوقود ٦٤٨ - ٦٥٨ - ٦٥٩
 ابن الليث - أبو البركات يوسف ٢١٢
 المادانيون ٢٩٧
 المارستان العتيق ٤٣٢ - ٥٠١
 مارتان قلاوون ٥٨٩
 مازندران ٤١٨
 الماشية ٥٤٨
 حاك بن أسى - الإمام ٣٢ - ٢١٩ - ٢٢٥
 ٢٥٣ - ٢٣٣ - ٢٣٤
 حاك بن سيد الفارق قاضي القضاة ٣١٠
 ٣١٩ - ٣٦٤ - ٣٨٤ - ٥٠٨
 المالكية ٢٥٣ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣٣٤
 ٣٧٧
 حأمون الثاني غورلوزم شاه ٤١٦ - ٤٢٣
 حاوراء الطيبة ٢٠ - ٣٤٤ - ٣٦٣ - ٣٦٨
 حاوراء النهر ١٣٠ - ١٣٣ - ٤١٩ - ٤٨٠
 ٤٧١ - ٥٢٣ - ٦٠٩ - ٦٢٥
 إسماعيل الجطاشي - الوزير ٢١٢ - ٢٤٧
 المأمون العباسي ٣٤ - ٣٩ - ١٣٠ - ٥١٧
 ٥٢٠ - ٥٢٤
 المبارك - مولى إسماعيل بن جعفر ٢٨
 المباركية - حصة إلى المبارك مولى إسماعيل بن جعفر ٣٨
 المنصورون ٣٨٢
 المنقوش العباسي ١٣٣
 المنقشي ١٢٦
 ابن المتوج صاحب غلطة مصر ٤٦٣
 المنوكل العباسي ٢٩٦ - ٥٧٢ - ٦٤٣ - ٦٦٠
 المنوكلية - نبات منسوب إلى المنوكل العباسي ٦٤٣
 المنك والممنول - نظرية ٤٩٦ - ٤٩٧
 الحجاز ١٠٤ - ١٠٥
 الجماعة - الجماعات ٢٥٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٥٧٩
 ٥٨٢ -

تقريبه - فقهاء ٧٣ ٢٤٥

الذكارية - قبيلة بالقرن ٩١

التميزي - أصل الطائفة النصرانية ٣٦

البروان ٤٤٦

البوية ١٣٥ ١٢٨ ١٥٧ ٢٠٩ ٥٩١

٥٩٦ ٤٩٧ ٦٠٠ ٦١٢ ٦١٦

٦٦٩

فويخت - أبو سهل المتبحر ٥٠٧

النويحي - حسن بن جعفر ١٩ ٣١ ٣٦

النويون ٣٧٤

نوح عليه السلام ٢ ٢٦٤ ٣٢٧ ٣٤٠

٣٤٢ ٤٩٩ ٥٣٤

نوح بن نصر الساماني ٤١٧ ٤٢٠ ٤٢٢

٤٧٠

نور الدين محمود بن زكي ١٦٣ ١٨٠ ١٨٤

١٨٧ ١٨٩ ١٩٠ ٢٠٠ ٢٤٨

٣٧٨ ٤٤٨ ٤٥٧ ٥١٧ ٥٢٣

٥٥٣ ٥٥٤

الثوروز - اللخوز - عيد ٥٦٥ ٥٧٨ ٦٤٨

٦٥٩ - ٦٦٢

الوشري - عيسى والى مصر ٥٢ ٥٣

التويري ٢٨ ٤٠ ٤٢ ٥١ ٥٨ ٢٣٤

٢٣٤ ٢٤٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٨٥

٣٨٧ ٣٩٠ ٣٩٢ ٣٩٣ ٤٠٣

التيجر - نجر ٦١٤

قيساور ٣ ٥٣٣ ٥٩٩

الحادي العباسي ٣٢

هارون بن خازويه - آخر ولاية الطولونيين ٥٣

٣٨٩

هارون الرشيد ٥٤٣ ٦٦٠ ٦٧١

هارون بن غريب ١٣١

هارون أخو موسى ٤ ٦٢ ٣٤٢ ٦٥١

بتر هاشم ١٢ ٣٣ ٦٤ ٨٦ ٢٤٨

٢٦٣ ٤٠٤ ٤٧٧

أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ١٧ ٢٠ ٢١

ابن هاشم الأندلسي ١٤٠ ١٤٧ ١٥٥ ٢٢٦

٢٦٤ ٣٤٨ ٣٤٩ ٤٠٦ ٤٣٦

٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣

٢٤٧ ٢٥٤ ٢٥٧ ٢٧٧

٢٧٣ ٢٧٦ ٢٩٧ ٢٩٣ ٥٨٨

٥٨٩

نصر بن أحمد التتالي - أمير خراسان ٧٠ ١٢٢

٤١٣ ٤١٤ ٤٢٠ ٤٢٦ ٤٧٠

نصر - الحاجب ٦٩

نصر بن حيار ٣٤ ٣٥

نصر بن عباس التتالي ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦

٥١٧

نصر بن عبد الرحمن الشاعر ٤٥٨

نصر بن محمد ٤٣٤

النصارى - المسيحيون ٢٢ ٣٧ ٥١ ١٠٠

١٠٩ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٨ ٢٠٢

٢١٧ ٢١٨ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٤

٢٥٦ ٢٧٨ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤

٣٠٥ ٣٢١ ٣٥٠ ٣٥٤ ٥٠٣

٥٢٩ ٦١٠ ٦١٧ ٦١٨ ٦٢٥

٦٤٦ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٦١

النصية - فوج من الثياب ٥٨٤ ٦٢٦

نصيبين ١٣٥

النصرية ٣٦

نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ٣٧١

٤١٧ ٤٢٠ ٤٢٧ ٤٧٠ ٥٢٣

التيان المبري - القاضي أبو حنيفة ٧٦ ١٠٧

أبن التيان - القاضي بن عبد العزيز ٣٤٥

أبن التيان - القاضي الحسين ٢٠٨ ٣١٠ ٣١١

٣١٩ ٣٤٤ ٣٨٤

أبن التيان - القاضي عبد العزيز ٢٠٨ ٣٦٤ ٣٨٤

أبن التيان - القاضي بن عبد العزيز ٢٢٤ ٢٧٣ ٣٠٩

٣٩٠

أبن التيان - القاضي محمد المبري ١٦٣ ١٦٤

٣١٩ ٣٢٤ ٣٨٤ ٦٥٠

٣٩٠

أبن التيان - القاضي بن عبد العزيز ١٦٣ ١٦٤

٣١٩ ٣٢٤ ٣٨٤ ٦٥٠

٣٩٠

أبن التيان - القاضي بن عبد العزيز ١٦٣ ١٦٤

٣١٩ ٣٢٤ ٣٨٤ ٦٥٠

٣٩٠

أبن التيان - القاضي بن عبد العزيز ١٦٣ ١٦٤

٣١٩ ٣٢٤ ٣٨٤ ٦٥٠

٣٩٠

٤٧٤ ٤ ٧٣ ٤ ٦٥ ٤ ٤٩ ٤ ٤٨ ٤ ٤٧ ٤ ٤٣
 ٤ ٤٧٩ ٤ ٤٧٦ ٤ ٤٧٥ ٤ ٤٧٠ ٤ ٤٦٧
 ٤ ٢٣٩ - ٢٣٨ ٤ ٢٤٨ ٤ ٢٥٤ ٤ ٢٥٧ ٤ ٢٦٥
 - ٤٠٦ ٤ ٢٣٨ ٤ ٢٨٦ ٤ ٢٨٢ ٤ ٢٦٦
 ٤ ٤٧٥ ٤ ٤٦٢ ٤ ٤٦٠ ٤ ٤٤٨ ٤ ٤٠٦
 ٤ ٥١٨ ٤ ٥٠٧ ٤ ٤٨٤ ٤ ٤٨٣ ٤ ٤٧٦
 ٤ ٦١٤ ٤ ٥٩٧ ٤ ٥٩٦ ٤ ٥٨٦ ٤ ٥٤٦
 ٦٦٩ ٤ ٦١٥
 اليهود اليهودية ٤٨ ٤ ٥١ ٤ ١٦٥ ٤ ١٧٠ ٤ ٢٠٣ -
 ٤ ٢٢٤ ٤ ٢٢١ ٤ ٢٢٠ ٤ ٢١٨ ٤ ٢١٧
 ٤ ٢٩٣ ٤ ٢٩٤ ٤ ٣٥٠ ٤ ٤٣٧ ٤ ٥٠٠
 ٤ ٦١٧ ٤ ٦٠٩ ٤ ٦٠٨ ٤ ٥٣٩ ٤ ٥٠٣
 ٦٥٣ ٤ ٦٤٤ ٤ ٦٣٥
 يوسف عليه السلام ٤٨٧ ٤ ٤٩٩ ٤ ٥٣٨
 يوسف بن زكريا بن مناد الصنهاجي ٩٧
 يوسف بن أبي الساج - أمير الري ٦٩ ٤ ٧٠
 ٤١٩
 يوسف بن عمر الثقفي ٢٩
 ابن يوسف المنجم المصري ٥٠٨

يحيى بن الحسين الزبيدي ٣١ ٤ ٤٢
 يحيى بن خالد البرمكي ٦٦٠
 يحيى الرابع الإدريسي ٨٧ ٤ ٨٨
 يحيى بن زكريا القرمطي ٣٨٨ ٤ ٣٨٩
 يحيى بن زيد ٢٩
 يحيى بن عبد الله ٣٣ ٤ ٣٩
 يزدجرد الثالث ٩ ٤ ٦٦ ٤ ٤١٩
 أبو يزيد - أنظر ابن كيداد
 يزيد بن عمر بن قيس ٢٥
 يزيد بن معاوية ١٣ ٤ ١٤ ٤ ١٥ ٤ ١٦ ٤ ٦٥٤
 ٦٥٦
 اليعقوب بن مزار - أمير سجلماسة بالمغرب ٥٢ ٤
 ٨٤ ٤ ٨٢ ٤ ٥٥
 يعقوب بن الليث الصنار ١٣٠
 اليعقوبي ١٣ ٤ ١٧ ٤ ٥٢١
 الجماعة ٤٤٨ ٤ ٨٢ ٤ ١٣٣ ٤ ٣٣٨ ٤ ٣٩٠ ٤ ٣٩٢ ٤ ٤٠٤
 الجماعة ٢٤ ٤ ٢٥
 ابن ٨ ٤ ٢٤ ٤ ٢٧ ٤ ٣٣ ٤ ٣٤ ٤ ٣٦ ٤ ٤٢

خطا وصواب

تتمتع القارئ من وقوع بعض أخطاء مطبعية راجين أن يتفضل بإصلاحها
قبل مراعاة الكتاب تحقيقا لفائدة

صفحة	سطر	خطا	صواب	صفحة	سطر	خطا	صواب
٩	١٨	بالكبير	بالكبير	١٠	٧	صرح	صرح
١٨	١	الشيخة	الشيخة	٢١	١٠	آية	آية
٢٢	١	الجزيرة	الجزيرة	٢٨	٢٦	وسوه	وسوه
٤٠	٩	ميمون	ميمون	٤٢	١٦	أصول	أصول
٤٨	٢٧	سنداء	سنداء	٥٦	٩	كذابة	كذابة
٧١	١٧	القصى	القصى	٨٢	١٣	وكيف	وكيف
٨٦	٢٣	حيوس	حيوس	٨٨	٨	البلاد	البلاد
٨٩	٥	حيوس	حيوس	٩٩	٢٢	الكامل	الكامل
١٠٠	٢٤	Mediacval	Mediacval	١٠٤	٤	لمسلمون	المسلمون
١٠٥	٥	تجهت	تجهت	١١١	١١	درسقة	قرسقة
١٢٤	٤	الحليل	الحليل	١٢٧	١٥	صوية	علوية
١٢٤	١	ديق	ديق	١٣٩	١٨	ننوه	بنو بويه
١٥٣	٢٥	للعاطلين	للعاطلين	١٥٦	٣	شمس	شمسا
١٥٧	١٩	لقلانس	لقلانس	١٦١	٢٢	وأنوه	وأنوه
١٦٢	١٥	لقلانس	لقلانس	١٧٨	٣	مقتال	مصاد
١٨٠	١٥	وأبو	وأبو	١٨٤	١٤	نصر	يد نصر
١٨٧	١٣	ملائع	ملائع	١٩٨	١٥	أجلدى	أجلدى
٢١٩	١٢	وى	وى	٢٣٩	١٩	الرواسي	الرواسي
٢٥٤	١٩	قوشين	قوشين	٢٥٩	٦	يلقى	يلقى
٢٥٩	١١	الإمبراطورة	الإمبراطورة	٢٦٢	١٤	لى	لى
٢٧٢	١٣	الرساطة	الرساطة	٢٧٦	٢٣	سعد	سعيد
٢٨٦	٢٣	توفى	توفى	٣٥٧	١٤	الرحن	الرحن
٢٦٦	١٢	مرصانك	مرصانك	٣٨٢	٩	مقائد	مقائد
٣٨٩	١٦	الحسين	الحسين	٤٠١	٥	الحسن	الحسن

صفحة	سطر	خطاً	صواب	صفحة	سطر	خطاً	صواب
٤٠٤	٢٤	الغاز	الغاز	٢٢٢	٢٠	قالبوس	قالبوس
٤٥٣	٩	الخليفة	تحذف	٤٥٤	١٠	قصر	قصر
٤٨٦	١٣	الموسمية	الموسمية	٥٠١	١٣	عبد الله	عبد الله
٥٠٧	١٣	يوغيت	تورعت	٥١٦	١٧	هلال	هلال
٥٢١	٩	سرتيب	سرتيب	٥٢٥	٢	حجر	حجر
٥٢٨	١٣	دقاق	دقاق	٥٦١	١٣	قراءة	قراءة
٥٧٩	١٥	د	و	٥٨٠	٢٢	المدينة	المدينة
٥٨٤	٤	الوزارة	تحذف	٥٨٥	٢٢-١٩	مكرر	تحذف
٥٩٨	١٧	بالأسوان	بالأسواق	٦٠٤	٧	المقاييس	المقاييس
٦٣٠	١٣-٨	مكرر	تحذف	٦٤٣	٢٢	سب	تسب

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٨

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٨